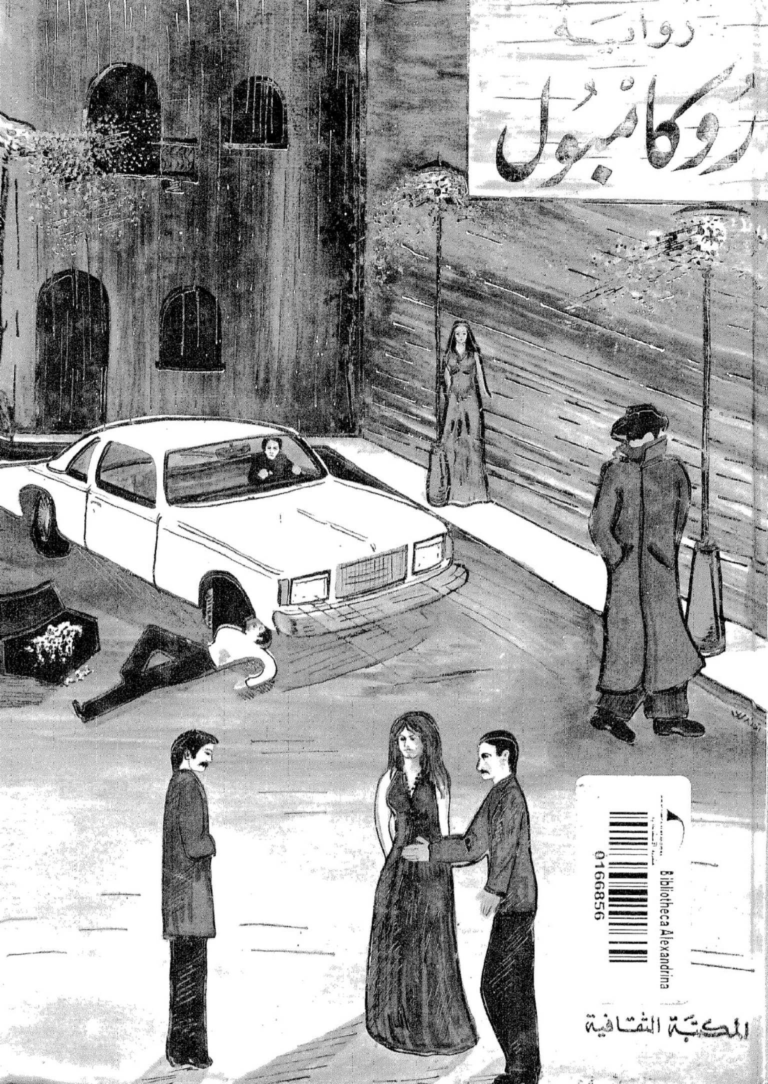

رواية
روكامبول
المكتبة الثقافية

روكامبول

المجلد الثاني

رواية

روكامبول

المجلد الثاني

يحتوي هذا المجلد على :

سجن طولون
روكامبول في سيبريا
العاشقة الروسية
ضحايا الهند

رواية

روكامبول

ترجمة الكاتب البليغ الأستاذ

طانيوس عبده

الجزء الخامس

سجن طولون

المكتبة الثقافية
بيروت - لبنان

سجن طولون

مقدمــــة

- ١ -

إنتصفت الشمس في السماء ودقت الساعات مؤذنـة بحلول الظهر ، فقرع جرس السجن يبشر بوقت الراحة المباحة للأشقياء المحكوم عليهم بالأشغـال الشاقة ، وكان التعب الشديد قد أضنك أجسامهم فجعلوا يتراكضون الى حيث يوجد الظل ، لأن شمس يونيو كانت تبسط على طولون شعـاعاً محرقاً . فالتجأ بعضهم الى ظل مركب قديم العهد قد لعبت به يد التلف ولم يبق منه غير الوسط الأسفل ، وجلس البعض تحت ظلال الأخشاب التي تعـد لبناء المراكب ، وتوسـد آخرون الرمال متعرضـين لحرارة الشمس المؤثرة بازاء دار الأسلحة ، وجعل آخرون يتـنزهون كل اثنين معاً ، فيتمشون ذهـاباً وإياباً يشملهم الهدوء ، وتصوب عليهم الشمس شعاعاً لم يكترثوا له وإن كان محرقاً .

ومن عادة المسجونين ان يسمى كل منهم بنمرة خاصة وكان الشقي الذي

نمرته ١١٧ جالساً مع آخر على انفراد ، فخطر لرفيقه هذا أن يتركه ويأتي إلى الجماعة القائمين في ظل المركب القديم ليسمع القصة التي يتحدثون بها ، فنظر الى المئة وسبعة عشر فرأى عينيه تكادان تغمضان من شدة نعاسه فقال له : إذا كنت تريد النوم فأنا أريد الذهاب إلى ظل المركب لأسمع الأخبار التي يروونها فهلم نذهب معاً ، وإذا كنت تريد البقاء هنا لتمتع عينيك بلذة الرقاد فأنا أدعك تنام على شرط اننا نلعب بالورق قبل افتراقنا فاذا غلبتني فنم مطمئناً وإلا فتذهب معي لنجلس مع رفاقنا في ظل المركب ونسمع قصة الكوكوديس كما يدعوه الرفقاء .

فاستعد الاثنان للعب وأخذ ١١٧ من قبعته ورقاً للعب كان يضعه فيها على رأسه فلعبا المرة الأولى وكان هو الرابح ولعبا دوراً ثانياً فربح ١١٧ أيضاً وكان بارعاً باللعب وله فيه تفنن وحيل كثيرة .

وكان الشقي الآخر في أول الدور يلوح له انه سيكون ظافراً فلا يلبث ١١٧ ان يقدح زناد الحيلة ويكون هو الظافر .

وبعد أن لعبا دوراً ثالثاً فرابعاً وكان الربح في جميعها للـ ١١٧ نظر إلى رفيقه قائلاً : وماذا تريد بعد ذلك ؟

فكادت عين هذا الشقي تقدح شراراً وقد تجهم وجهه الوحشي ، وابتسم ابتسامة استهزاء وقال لرفيقه ١١٧ . لا بأس فلنلعب أيضاً .

فلعبا دوراً جديداً كان فيه خاسراً كعادته في الخسارة ، فغضب عندئذ وقال : لم أعد أريد سماع قصة الكوكوديس فأنا أبقى هنا .

فترك ١١٧ الورق وتوسد الأرض واستغرق في النوم . أما هـذا الشقي الذي كان الخاسر فيدعى ميلون ، وهو بعد أن نام الشقي الرابح الذي لم يكن يدعوه الرفقاء إلا باسم ١١٧ ، جلس حائراً يرسل أبصاره إلى الجماعة الذين تحت ظل المركب وهم جالسون في خيمة تظلهم من الشمس ، ولا تزال نفسه تناجيه بالذهاب اليهم ، إنما أبى ذلك بعد خسارته كما أظهر لرفيقـه النائم ،

فجعل يلاعب نفسه بالورق الذي لديه ويجري التجارب وضروب التفنن بغاية البراعة فيها .

أما الجماعة الذين كانوا جالسين في ظل المركب فكانوا يقولون فيما بينهم: أين الكوكوديس فإنا لم نره اليوم ؟

فقال أحدهم : إنه لا يحضر اليوم الينا . وماذا ترجون من حضوره ؟ وأنتم تعلمون أن كل صاحب مال لا يهمه السجن كما يهمنا نحن الفقراء ، فانه كل يوم يتعلل بعلة كاذبة ويدعونه من أجل أمواله يذهب الى المستشفى حيث يستريح من عناء السجن ويقيم متنعماً وإن كانت علته كاذبة . وهكذا انطبع الناس على الظلم وقلة الانصاف ، فالفقير مظلوم حيثما كان والغني متنعم ولو كان في السجن ولا يوجد على الأرض إنصاف حتى داخل السجون. وهكذا الكوكوديس فان أباه مثر عظيم وهو صاحب بنك . وفي كل شهر يرسل له مئة فرنك . وقد أطلق له ناظر المستشفى الحرية فهو يذهب الى المدينة متى شاء ويعود منها متى شاء .

فقال آخر من هؤلاء الجماعة : نعم . وقد عرفت ان امرأة جميلة من نساء باريس كانت تأتي عمداً إلى فندق فرنسا كي تلتقي به فيه . غير ان هذه الأخبار لا تهمني مطلقاً ، ولا يهمني غير أخبار أرى في نفسي ارتياحاً شديداً اليها .

فقالوا : وما هي هذه الأخبار التي تريدها ؟

— أخبار رفيقنا ١١٧ .

فقالوا : إن هذه الأخبار لا يعرفها أحد منا ونحن كلنا نريد معرفتها ولانعلم واسطة إلى ذلك فاذا كنت تستطيع أن تعرفها فتكون أكثر منا دهاء وأطول باعاً في استطلاع الأمور الخفية.

وكان قد أتى اليهم شقي جديد فقال لهم : وكم من السنين لوجود ١١٧ في هذا السجن ؟

فقالوا : عشر سنوات .

– من أين أتى ؟

فقالوا : لا نعرف فهو لا يخبر من أين أتى وما هي قصته ؟

فقال رجل آخر : أنـه رجل عظيم أوقعه الدهر في حبائل الشقاء وهو منذ دخل هذا الليمان اتخذ ميلون رفيقاً له فلا يكلم غيره .

ولم يلبث هؤلاء الجماعة ان رفعوا أبصارهم وإذا برجل مقبل عليهم وهـو يدخن سيكارة رغماً عن مشي القوانين ، ويمشي مشية المتنزه المطمئن فتأملوه فاذا به الكوكوديس فبادأوه بالتحية ، فردهـا بصوت يدل على السرور والاطمئنان فسأله أحدهم قائلاً : يقولون إنك كنت مريضاً فدخلت المستشفى من أجل ذلك .

– نعم إنني مريض ، وقد دخلت المستشفى في صباح هذا اليوم .

فقال المجرم : ولكن يقولون ايضاً ان الطبيب لم يجد بك علة .

– كلا فذلك غير صادق فان الطبيب من أصدقائي وقد أمر لي بالراحة والتنزه في الصباح شفاء لعلتي .

ثم قال متهكماً : ولنفرض ان مرضي خداع وحيلة لأستريح من عمل الليمان فلم يبق لي فيه غير أربع سنـوات اجتهد بأن أقصر أيام بـلائها بالحيلة والخداع بادعاء الأمراض .

فقال أحدهم : هنيئاً لك فان مدتك قد قصرت وأنت مستريح كأنك لست في ليمان فليت حظي كحظك .

فقال الكوكوديس : ولماذا لا تـدبر واسطة يمكنك من الفرار فتنجو من عذابك الطويل ؟

– وكيف أنجو وأنا قد فررت من هذا الليمان خمس مرات وكنت في كل مرة أضبط وأرجع اليه . وليس ذلك إلا من قـلة دهائي فلا أجد واسطة تمكنني من الاختفاء عن الحكومة ، ولكن الفقر هو بلائي الوحيد فلست ابن

غني لأتزيا بازياء كثيرة تخفيني عن الحكومة ولم أضبط في المرة الأخيرة إلا بسبب سرقة رغيف من الخبز مدت الحاجة اليه يدي فضبطت وعرفت وأرجعت إلى هذا اللبان .

فقال الكوكوديس . وما هي المهنة التي كنت تتماطاها ، قبل دخول اللبان ؟

– كنت قبل ذلك حوذياً .

– إذن أبشرك بالخير ، فعندما تمضي الأربع سنوات أخرج من هـذا السجن وأنت تخرج منه فراراً ، فأجملك عندي سائقاً فلا يعرفـك أحد من رجال الحكومة .

– متى مضت أربعة أعوام نفكر في ذلك ونعقد الرأي عليه أما الآن فارو لنا خبر من الأخبار التي تسلي همومنا .

– ماذا تريدون أن أخبركم ؟ وأي خبر يسركم ؟

فقال شقي باريسي : نريد قصة محزنة .

فقال آخر : أو قصة سـارة ، وانت أدرى بما عندك من الأخبـار التي تسر مثلنا .

– إذن أخبركم قصة تطيب لكم خطرت لي الآن . فـاسمعوا : إنني أولاً كنت مع نيشات .

فقالوا : ومن هي نيشات ؟

– هي المرأة التي وقعت من أجلها في شرك هذه المصيبة .

فقالوا : قد عرفناها فهي المرأة الجميلة التي في فندق فرنسا .

– نعم : وهي تهيم بي دائماً ويحق لي ان أتزوجها .

فقال الشقي الباريسي : ما بال الكوكوديس يروي لنا قصة نحن نود منه رواية غيرها .

فقال آخر : وقصة من تريد ان يرويها الكوكوديس ؟

— روكامبول !

فقال الآخران : هذا الاسم اسم لص شهير .

وبينما كان هذا الحديث جارياً بين هؤلاء الجماعة كان ميلون رفيق ١١٧ لا يزال يلاعب نفسه بالورق و ١١٧ غائص في نومه وهو يتوسد الأرض بجانب ميلون . فلما أفاق من رقاده نظر فرأى ميلون لا يزال بجانبه فقال له: ما بالك لا تزال جالساً ألم تعد تريد سماع أخبار الكوكوديس ؟

قال ميلون : إن كنت تذهب معي لسماعها فأنا أهبك في هذا المساء قسمتي من العشاء .

— فلنذهب ونسمعها معاً فانها تسرنا كلينا .

ونهض من مكانه فنهض ميلون وطوقا وسطهما بسلاسل الحديد التي يقيدان بها ومشيا إلى ظل المركب ، فانضما الى تلك الجماعة . وكان الكوكوديس يقول حينئذ :

— نعم ان قصة روكامبول مما ترتاح اليه عقولكم وتعجب به قلوبكم ولا سيما أنه يوجد منها فصل رابع يقع أعظم موقع من إعجابكم .

فقال ١١٧ وقد لاحت عليه هيئة المتلهف الى سماع هذه القصة : إذن إروِ لنا هذه القصة التي نعجب بها .

- ٢ -

فابتدأ الكوكوديس بالكلام ، فقال : تنقسم قصة روكامبول إلى خمسة فصول يتقدمها فاتحة ، وهذه الفاتحة جرت قبل ابتداء روكامبول بتمثيل الأدوار الخمسة بثلاث سنوات في بيت رجل عجوز ساذج يدعى المركيز دي شمري .

فهذا المركيز كان مثرياً عظيماً وكان له ولد ولكنه كان مفقوداً وقد قضى المركيز زمناً طويلاً يظن ان هذا الولد ليس ولده .

وقد باع المركيز جميع أملاكه ولم يرد أن يورث ولده شيئاً ولكنه لما كان قد حان أجله ولم يبق له غير ساعات على فراش الموت إذ ورد اليه كتاب من صديق قديم يدعى الدوق دي سالاندريا .

ويظهر ان المركيز دي شمري كان يعتقد في نفسه ان الدوق دي سالاندريا كان في قديم الزمان عاشقاً لامرأته .

فلما وصل له منه هذا الكتاب وهو على فراش الموت وجده يتضمن طلب الدوق الى المركيز أن يتزوج ابنته ارمين لابن المركيز وهو الابن المفقود والذي يريد المركيز حرمانه من إرثه .

فزال حينئذ من نفس المركيز ما كان يتوهم من ان هذا الابن ليس ابناً حقيقياً له وطلب في الحال مسجلاً ليوصي له بارثه وليسلم هذا المسجل ثروته وأوراقه بعد أن يتعهد له بأنه يبحث عن ولده المفقود حتى يجده فيسلمه هذه الثروة التي لا تقل عن عشرة ملايين .

وقد كان يوجد في باريس ، في ذلك العهد ، جمعيـــة سرية مؤلفة من جملة لصوص ، ينهبـون ويقتلون ويرتكبون الفظـائع الخفية عن أبصـار الحكومة . ولم يكن يحدث في مكان جريمة هائلة إلا كان مصدرها هـذه الجمعية السرية .

وكان البوليس يجتهد في استظهار أسرار الجرائم الكثيرة . فلم يقف على أثر لهذه الجمعية الجهنمية ، ولا سيا رئيسهـا أندريا ، فلم يكن يعلم له سر أو يعرف له أثر .

فلما ذكر الكوكوديس اسم اندريا قال أحدهم متعجباً: ومن هو اندريا فقد ناجتني نفسي بأنني كنت أعرفه ؟

فقـال الكوكوديس : إن كنتم تسألونني مثـل هذا السؤال في كل

جملة ، فهيهات أن تنتهي القصة التي أرويها لكم . فما بالكم تضيعون الوقت بالأسئلة !

فقالوا : كلنا نسمع ولم نعد نسأل فارو لنا .

— إذن لنرجع الى المركيز دي شمري . فقد دعى اليه مسجل فلما دخل اليه أوعز الى الخادمة ، وهي امرأة عجوز ، أن تخرج من الغرفة فخرجت وبقي فيها مع المركيز والخادم وكان هذا الخادم يعرف بفلانتين عند المركيز وبفانتير عند المسجل .

فقال الجماعة متعجبين : وكيف ذلك أيدعى هذا الخادم باسمين ؟

— نعم ولا عجب من ذلك ، وهذا المسجل ما هو إلا اندريا رئيس الجمعية السرية .

فصاح هؤلاء الأشقياء صيحة استحسان .

فقال الكوكوديس : وفلانتين هو أحد أعضاء الجمعية السرية ايضاً . أما المركيز دي شمري فقد قص قضته بتمامها على المسجل الكاذب وفتح له صندوق أوراقه وأراه أمواله . وبعد ذلك رجع المركيز الى فراشه فأعانه فانتير على التوسد وبينما المركيز يتوسد إذ قبض فانتير على المفتاح المعلق بعنقه ففكه من سلسلته وترك المركيز ينام .

وعندئذ جعل اندريا وفلانتير يهتمان بشغلهما في هذه الفرصة المغتنمة ففتحا الصندوق وجعلا يخرجان ما فيه إلا أن الضجيج طرق أذني المركيز فانتبه اليهما وأجهد قوته في القيام وهو يصيح بهما .

فصاح الجماعة : يا لتعاسة المركيز .

فواصل الكوكوديس حديثه فقال : أما هما فانقضا عليه بعد إطفاء النور واشتغلا في قضاء أمره . وكان البيت خالياً والظلام منسدلاً . إلا انهما ما لبثا أن سمعا ضجيجاً شديداً على نافذة الغرفة ، وقد تكسر خشب النافذة ودخل إلى مسرح الفظاعة شاب يحتدم غضباً ، فأخرج من جيبه عوداً من

الكبريت وأشعله وأضاء الغرفة فنظر الصندوق مفتوحاً وقد خلا مما كان فيه ، ولم يبق له قسمة من المال الذي إنما دخل الغرفة لأجله .

وكان اندريا قد انتهى من خنق المركيز فلما رأى الشاب واقفاً أمام الصندوق انقض عليه والقاه على الأرض واستل خنجره يريد قتله فصاح به : مهلاً فأنا روكامبول ، فكف اندريا يده .

ولما انتهى الكوكوديس إلى هذا الكلام نظر ميلون الى ١١٧ قائلاً : كيف ترى هذه القصة ؟

فابتسم هذ اللص الكبير ببرود وقال : أراها قصة جميلة . ثم تولاه السكوت ولم ينطق شيئاً .

فرجع الكوكوديس الى تتمة حديثه فقال : قد تمت الفاتحة فابتدىء الآن بأول فصل من الخمسة . فقد كان في بلدة بلفيل مصور يدعى ارمان وكان يعلم فن التصوير لفتاة شريفة تدعى ارمين دي سالاندريرا وهي ابنة الدوق الاسباني الذي تقدم ذكره في الفاتحة .

وكان لهذا المصور صديق محام ، ولهذا المحام فتاة حبيبة تدعى الفيروزة كانت له في كل وقت شغلاً شاغلاً ، فكان المصور كلما ذهب لتعليم تلميذته يمر في طريقه على صديقه المحامي ويتحدث معه باحاديث الغرام ، ولم يكن يخطر على قلبيهما حب باكارا ، وهي امرأة جميلة كانوا يرونها في الملاعب والملاهي .

ثم انه كان يوجد في هذه البلدة أيضاً مدام فيبار وابنة اختها سريز ، ومدام فيبار هي امرأة عجوز كانت دائماً ذات غم وهم لأنها كان لها ولد يدعى جوزيف صار لصاً كبيراً باسم روكامبول .

ولكن مدام فيبار وإن كانت على هـذه الحالة من الغموم ، فـإن ابنة أختها سريز كانت على جانب عظيم من المسرة والحبور ، لأنها كانت تنتظر الزواج بشاب جميل يدعى جان وكان لديها مهر يبلغ ستمائة فرنك .

وبينما كان ارمان يتحدث مع صديقه المحامي إذ دخل إنكليزي يدعى السير فيليام وهو يقصد ارمان ليطلعه على كنه أمر عظيم .

وكان ارمان يجهل اسمه الحقيقي وولادته وكان عندئذ يريد الذهاب لتعليم تلميذته فلم يتمكن السير فيليام من محادثته ملياً فلما ذهب ارمان لقضاء واجبه تنهد الانكليزي وقال : إنه لا يعرف شيئاً .

فقال الشقي الباريسي : لقد فهمت كل شيء فان ارمان هو ابن المركيز دي شمري المفقود .

فقال الكوكوديس : هو ذلك .

وقال الباريسي : وقد فهمت أن السير فيليام هو أندريا ، رئيس الجمعية السرية .

فقال الكوكوديس بلهجة الغضب : إن كنت فهمت كل شيء فلا حاجة إلي إرو هذه القصة بدلاً مني .

فغضب الجماعة وأمروا الباريسي بالصمت ورجوا من الكوكوديس تتمة القصة فقال :

— وبعد ذهاب أرمان لتعليم الفتاة ، وذهاب المحامي لقضاء دعاويه ، لم يكن بد للانكليزي من الذهاب أيضاً ، ولكن سمع عندئذ وطء أقدام ثم ظهرت باكارا وهي آتية لمشاهدة أرمان الذي تحبه وإن يكن لا يبالي بها ؟

أما باكارا فساءها بانها لم تر أرمان فأودعت له كلمة عند أحد أهل ذلك البيت وذهبت لحضور السباق في فنسان يصحبها السير فيليام .

أما خطيب سريز فذهب ليشتري لها قفازاً ، وفي ساعة غيابه أتى المحامي إلى مدام فيبار فأنذرها ان ابنها روكامبول قد ارتكب سرقة عظيمة ولا ينجو من العذاب إلا إذا نقدت هذا المحامي ستمائة فرنك كي يخلصه من شر السجن .

فلما رجع جان إلى سريز وجدها كئيبة فقالت له . لم نعد نقدر على الزواج فقد نقدت المحامي مهري البالغ ستماية فرنك ليخلص ابن خالتي من السجن ولم يعد لي مهر .

فاستغرق جان في البكاء ، ثم أخرج من جيبه كتابين أحدهما من روكامبول الى أمه مدام فيبار يخبرها بأنه مسافر الى الهند ليتعاطى فيها تجارة تصيره غنياً ، والآخر الى ارمان يتضمن انه إذا سافر إلى مرسيليا يجد فيها صديقاً من عائلته يدعى الدكتور جوردون وهو ينبئه عن اسمه الأصلي ويهديه الى استلام ثروته .

فلما وصل هذا الكتاب إلى يد أرمان سر سروراً عظيماً ، بيد ان مدام فيبار أحزنها كتابها حزناً شديد على فراق ولدها .

وعند هذا الكلام سمعوا جرس اللبان يقرع دلالة على انتهاء وقت الراحة وحلول وقت الشقاء .

فقام الأشقياء من مواضعهم ومشوا يجرون سلاسل الحديد وهي تقرع بعضها فترن رنين الأجراس .

أما الكوكوديس فقال لهم : هذا الفصل الأول أتممناه ، وموعد الثاني غداً إن أردتم ، وأنا الآن أرجع إلى المستشفى . فسار إلى الراحة وساروا الى الشقاء .

- ٣ -

مضى النهار فاستراح الأشقياء من عناء الأشغال المضنكة وقد حان وقت النوم فدخلوا مكان المنامة وهناك التحفوا الأغطية التي هي من الأعشاب اليابسة وافترشوا الأعشاب في جوانب اللبان المظلمة .

ثم أمرهم الحرس بالنوم فشملتهم السكينة . إلا أن بعضهم كانوا متى رأوا الحارس قد بعد عنهم يبتدأون بالمناجاة والكلام بصوت منخفض لا يسمعه إلا المتخاطبان .

وكان ميلون ينام بجانب رفيقه ١١٧ ، فكان يراه في تلك الليلة على غير ما تعود أن يراه في سائر الليالي الماضية . لأنه كان قبل هذه الليلة لا يحين وقت النوم إلا وعيناه تكادان تغمضان . فلا يلقي رأسه على وسادته حتى يستغرق في النوم ولا يستفيق حتى الصباح . وكذلك وقت الراحة المباحة عند الظهيرة ، فبينما يكون الرفاق يتبادلون الأحاديث ، التي هي شكوى قلوبهم ، يكون ١١٧ مستغرقاً في نومه وهو متوسد الأرض لا يهمه غير النوم .

وكان ميلون يرى في نفسه ان لرفيقه ١١٧ سيادة عليه فكان يحترمه كثيراً ولما رآه في هذه الليلة قلقاً خلافاً لعادته سأله قائلاً : ما بالك أيها الرفيق أأنت مريض هذه الليلة ؟

– لا لست مريض ولكني منشغل الفكر .

– وبماذا ؟

– بما يخبره الكوكوديس .

– وأنا أيضاً قلق في هذه الليلة لأنني أفتكر بهذه القصة وأنا متأكد أنها صحيحة وان روكامبول وجد حقيقة .

– أتؤكد ذلك ؟

– نعم،فقد كنت في باريس أيام اشتهرت هذه الجمعية السرية وكانت حديث الناس في كل مكان .

فقال ١١٧ متنهداً : نعم ذلك صحيح

فأتم ميلون حديثه بصوت منخفض وقد أدنى فمه من أذن رفيقه . إن كنت تريد فإننا نتحدث ملياً .

-- قل ما تشاء

- إنني أيها الرفيق أعد نفسي من ذوي البلاهة لانني لا دربة لي، فأنا قوي الجسم متين الساعد ولكنني مع شدة هذه القوى أرى الولد الصغير يفتك بي بدهائه ، ولا تجديني القوة شيئاً لانني ساذج أبله ولولا سذاجتي لما كنت أرسلت إلى هذا اللبان .

-- ومن هم الذين أرسلوك اليه ؟

- قلت لك إنني كنت دائماً ساذجاً في جميع الامور ، وكان يجب علي ان أكون متروياً متبصراً في العواقب ولو كنت كذلك لما تمكنوا من سلب الاولاد ولكن ربما تضجر من هذه القصة .

- كلا ، فإنني لا أمل منها فاروها لي . ولكن قل لي قبلاً ما هي المهنة التي كنت تحترفم ؟

- كنت خادماً .

- وبماذا اتهمت حتى أدخلت اللبان ؟

- بسرقة جواهر .

- ولماذا ؟

- لاني أصررت على ان لا أقر اين يوجد مال الاولاد .

- وأي أولاد ؟

- أولاد السيدة التي خدمتها .

- إذن هم الذين أدخلوك اللبان ؟

فتنهد ميلون وقال : لا فليس هم، ولست أعني بالاولاد غير فتاتين في مقتبل العمر وهما توأمان ولهما اليوم من العمر عشر سنوات ولا شك أن الشقاء ستحسها يده القاسية .

وهنا سكت ميلون عن الكلام ، فنظر اليه ١١٧ فرآه على النور الضعيف الذي لا يزال ينبعث من القنادل الى تلك الغرفة ، يمسح عن خديه

دموعاً سخينة .

فقال له : أتمم القصة .

فقال ميلون : وقد ظهر لي ان والدة هاتين الفتـــاتين تزوجت دون رضى عائلتها في وطنها لانها لم تكن فرنسية ، ولها أخوان شقيقان قد حاولا مراراً كثيرة ان يحرمانها ابنتيها .

وقد مات زوجها منذ سنين طويلة ولم يكن لها أحـــد تستعين به على أمر سواي ولكني كنت كما قلت ساذجاً قليل الدربة وكانت هي لا تزال في ريعان العمر وهي جميلة للغاية .

وكانت تقول دائماً عندما تنظر إلى ابنتيها وهما تتدرجان في النشأة ، لا بد متى بلغتا الخامسة عشرة من عمرهما ان أزوجها كي يكون لكل منهما من يصونها ويقوم بمعيشتها .

وكان لهذه السيدة ثروة عظيمة وهي تسكن في فندق قديم في سان جرمان فكانت في كل ليلة تقفل الابواب بكل دقة خوفاً من حادث يطرأ وتقول لي دائماً : إنني أخاف كل الخوف من إخوتي .

وقد اتفق ان الابنتين كانتا ذات مساء تلعبان في الحديقة فسمعتا طلق مسدس ودوي رصاصة فيها فارتعبتا ولكن لحسن الحظ لم تصبها الرصاصة التي كانت مصوبة إلى إحداهما .

فنبهنا البوليس واجتهد في معرفة الجاني إلا أنه لم يعرف له أثراً واتفق مرة اخرى ان إحداهما أصيبت فجأة بعد تناول الطعام بألم الاحشاء والقيء فدعونا الطبيب في الحال فحقق ان ذلك ناتج عن تسميم الطعام .

فعرفت هذه الام المسكينة انهم كانوا يريدون قتل ابنتيها بالسم ، وعند ذلك أبعدتها عن المنزل فأخذناهما سراً في ذات ليـــلة إلى أحد الاديرة ، فدخلتا هذا الدير باسمين غير اسميها الاصليين ، لان والدتها أرادت أن تخفي حقيقة أمرهما .

وقد قالت لي وقت رجوعنا: انني أعلم انك رجل صالح وأرى انني جديرة بالاتكال عليك وأنت تعلم ان أخوي يريدان قتل ابنتي وهما سيقتلاني لا شك عاجلاً أو آجلاً، ولذلك يجب ان أنظر في مستقبل ابنتي كي لا يمسها الشقاء بعدي قال ميلون : فكنت أصغي اليها ودمعي يهمي من شدة الاشفـاق ، ثم سلمتني محفظة من حديد وهي تقول لي : هذه نصف ثروتي فان في هذه المحفظة مـا يبلغ ريعه خمسة عشر الف فرنك من ذهب وأوراق مالية فاخفها حيث لا يدري بها أحد ، وهي مهر ابنتي الذي أعهد اليك به إذا أصبت بما أوجس خيفة منه .

فقال ١١٧ : هل خبأت المال ؟

– نعم قد خبأته ولا يعلم غيري أين يوجد مكانه الخفي .

فتنهد ١١٧ وأطرق وهو يفتكر .

أما ميلون فقد أتم كلامه فقال : كأن هذه السيدة المسكينة كانت تتكلم عن موتها وهي واثقة من ان أخويها سيميتانها إذ لم يمض بضعة أيام على ذلك العهد حتى ماتت مسممة .

فهب أخواها لوراثتها وكانت ابنتاها قد ولدتا في بلد غريبة ولم يكن بين يدي أوراق تثبت انهما الوارثتان الشرعيتان .

ثم انني كنت أخاف ان جاهرتهما ان يعرفا بمكانهما ويحتالا بقتلهما فاستولى الأخوان على ورثة هذه السيدة وكانا يظنان انهما يجدان ثروة طائلة .

فلما خاب ظنهما جملا يستخبراني وقد قال لي يوماً أحدهما إننا نعلم انك خبأت كمية عظيمة من مال أختنا فأتنا به ونحن نهبك قسمتك .

فأنكرت ذلك ولم أقر به وبعد ثمانية أيام بينما كنت نائماً عند منتصف الليل طرق باب غرفتي إثنان من رجال البوليس وقبضا علي بدعوى انـني سرقت جواهر السيدة المذكورة .

وكان الأخوان المذكوران قد وضعا في محفظة تخصني بعض الحلى كالأساور والخواتم الثمينة ، فلما فتحها الشرطيان وجدا فيها هذه الحلى المذكورة وثبتت

علي السرقة ، وقد دافعت عن نفسي كثيراً فلم أنجح وحكم علي بالليمان مدة عشر سنوات .

فقال ١١٧ فهل لا تدري شيئاً من أخبار قينك الفتاتين ؟

ـ كلا ، ولكن اظن ان هذين الشقيين لم يعلما مقرهما .

ـ والمال الذي خبأته ؟

ـ ما زلت أعرف موضعه .

ـ لا يبعد أن يكونا قد اكتشفاه وأخذا هذه الغنيمة .

ـ كلا فذلك من المحال .

ـ الست تحاول الفرار من هـذا الليمان ؟

ـ قد فررت مرتين فكنت أضبط وارجع اليه .

فتبسم ١١٧ وقرب رأسه من رفيقه ميلون وقال له بصوت منخفض جداً : ان كنت تريد الفرار فأنا أجد لك واسطة سهلة .

فأجابه ميلون : وأنت ؟

ـ وأنا ايضاً أهرب معك فهل لا تصدق اني أقدرعلى الفرار بأسهل طريقة؟

ـ لقد صدقت الآن .

ـ وبعد الفرار نضرب في طول الأرض وعرضها فلا يعرف لنا أثر .

وعند ذلك أمال وجهه عن ميلون واستغرق الاثنان في النوم .

ـ ٤ ـ

لما كان اليوم التالي في وقت الظهيرة اجتمع الأشقياء كعادتهم في ظل ذلك المركب القديم وكان الكوكوديس غائباً فلم يحضر اليهم ولم يكونوا يتذمرون من هذا الشقي ، وان كانوا يرونه ممتازاً عنهم من جهة المعاملة لأنه كان كأنه حر يغيب ويحضر متى شاء .

وكان حرس اللبان يعاملونه معاملة حسنة ويلبون طلبه في كل شيء وذلك لأنه كان من الأغنياء وكان أهله يرسلون اليه مبلغاً من المال في كل شهر فيكون للحرس النصيب الأكبر منه .

وكان الكوكوديس ينقد كل من رفاقه الأشقياء ليشتري به خمراً فكان الجميع يحترمونه ويفرحون به ولم يكن يعرفونه إلا باسم الكوكوديس وكان كل منهم يجهل اسمه الحقيقي .

وقد كان بينهم ميلون و ١١٧ فلما لم يحضر الكوكوديس جعلوا يتحدثون فقال أحدهم : انه سعيد الحظ وأما نحن فان الشقاء لا يفارقنا ساعة في هذا اللبان الذي هو جهنم الأرض وانني أنا اكثركم شقاء وتعاسة وقد بلغ من تعاستي انني عندما دخلت هذا اللبان جيء بي اليه مقيداً بالسلاسل وانتم جيء بكم اليه على المركبات .

فقال أحدهم : وانا مثلك في الشقاء وقد دخلت مكبلاً بالقيود وكان دخولي اليه على عهد تياري .

فقال آخر ومن هو تياري ؟

— هو مأمور اللبان القديم وكان يحسن معاملتنا جداً فكنا نوده كثيراً .

فقال العجوز أقدمهم عهداً في اللبان . انك دخلت مثلي هذا المكان مقيداً في ذلك العهد ولكنك لم تسم بالنار وأما انا فانهم يوم وسموني كنت كأنني أذوق الموت الزؤام .

ثم جعل هذا العجوز يسرح أبصاره في الجماعة الذين حوله وقال وهو يتنهد تنهد اليأس : انني أراكم تحزنون ان لم يحضر اليكم هذا الشاب الذي تسمونه الكوكوديس ، فأني أروي لكم قصتي فاذا وجدتموها أغرب من حكاياته أغتنيتم بي عنه ، فلما سمعوا هذا الكلام قالوا · إذن أرو لنا قصتك فاننا مصغون اليها

فقال العجوز ان لي من العمر تسعاً وستين سنة قضيت منها أربعاً وثلاثين

عاماً في الليمان وأنا منذ هذه المدة الطويلة شقي النفس ميت الآمال حتى كأنني جسم بلا روح .

أتعلمون ماذا كنت في حياتي ؟ فانني كنت من اصحاب البنوك وذا ثروة طائلة ومن عائلة شريفة وقد تزوجت بامرأة نبيلة كنت من فرط محبتي لهـــا كأنني اعبدها عبادة وقد قضيت معها عدة سنين وأنا كأنني في النعيم إلا أن تلك السنين كانت كأنها حلماً لم يبق له في اليقظة أثر وقد عقبتها سنوات الشقاء التي ما زالت تتوالى علي حتى اليوم وقد كان مفتاح باب شقائي المقامرة الوخيمة ولولاها لم أدخل هذا الليمان فان المقامر يبدأ بخسارة ماله وبعد هذا يخسر جميع ماله من الممتلكات ومتى رأى يده فارغة من كل شيء يرجع إلى زوجتــه فيسرق ما تمتلك عليــــه ثم إلى اصدقائه حتى إلى والديه فانه يسرق مالهما ويضيعه في سبيل المقامرة .

وقد جرى لي كل ذلك حتى انني لم أدع لأمرأتي شيئــاً تمتلكه حتى اني بعت اثوابها في سوق المقامرة .

ولما خلت يدي يوماً من كل شيء ولم أر شيئاً أحصل عليــه من الأقارب والأصدقاء عمدت إلى تزوير ونجحت به بواسطة بعض اصدقائي وبعــد ذلك صرت أزيف النقود وأقلد اوراق البنوك ولم تكن امرأتي تعلم من هــذا السر شيئاً ولم تكن تدري إلا خرابنا .

وقد تركت امرأتي وانفردت في ضواحي باريس عند جدة طاعنة في السن فكانت امرأتي تظن انني في البلاد الأميركية اسعى وراء الثروة فكانت تصلي دائماً لأجل نجاحي وبما انه لا بد لكل ذنب من العقـــاب فقد ظهر سري للحكومة وقبض علي فأقررت بكل شيء وكان القانون في تلك الأيام يقضي باعدام كل مزيف ولكن العفو الملوكي خفف عقابي فأبدل الأعــدام بالأشغال الشاقة المؤبدة

جرى كل ذلك ولا تعلم امرأتي شيئاً من امري وكان قد حان وقت أصبحت

فيه على وشك أن تضع لي إبناً يدخل الحياة من باب الشقاء .

وهنا سكت الشقي هنيهة كان ذكرى بلاياه قد أعيتـه من الكلام وبقي سائر الأشقاء على أتم الاصغاء كأن كلاً منهم يتأمل بلاياه في الأيام السالفة .

ثم عاد العجوز إلى الكلام فقال متنهداً :

– إنكم لم ترو السمة التي وسموني بها ولا تعلمون كيف يتم امرها فـانهم يعدون آلة الوسم ويأتون بالذي يراد سمته ويعلقونه بحبل يتدلى من أعلاهـا ويطوقون رأسه بطوق من حديد بحيث لا يستطيع الدوران ، وتكون عيناه موجهتان إلى جهة الجموع الغفيرة . وبعد ذلك يأتي الجلاد ويضرم النـار تحت هذا الشقي التعس حتى يكاد يشوي جسمه .

أما أنا فقد كنت عند ذلك انظر إلى الجموع الشاخصة الي بعين الوقاحة كأنني لا أبالي وإذ ذاك سمعتهم ينادونني يا صاحب البنك ورب الثروة استهزاء بي .

ولكنني لم أكن اتأثر من ذلك بقدر مـا كنت اتأثر من ذكر امرأتي المسكينة فقد كانت في تلك الساعة تظنني حراً أجمع المال وترجو أن تراني في الأيام القريبة .

وعندما تشتد النيران يرخي الجلاد حبل الشقي فيسقط بالقرب منه ويأخذ الجلاد حينئذ حديدة محمية في النار ويسم بها الشقي في كتفه .

وبينما كنت في قبضة الجلاد وهو يسمني هذه السمة القـاتلة كنت كأنني لا أشعر لم ولا أكوى بنار وما ذلك الا لأن أميالي وعواطفي كانت جميعها متجهة إلى جهة الحضور ، وقد صحت صيحة شديدة ارتجت لها تلك الساحة وقلت للجلاد بصوت قاس جداً . أكوني حتى الموت . وقـد رغبت في المـوت من نفسي عندما وقعت ابصاري على امرأة تصيح صياح اليأس وهي على مقربـة من هذه الآلة الشنيعة ، وما هي إلا امرأتي التعيسة .

وقد آلمني منظرها فوق الام النار .

قال العجوز هذا وجعلت الدموع تنهمر من عينيـه كالمطر وساد السكون

هنيهة بين الجماعة .

ثم عاد العجوز إلى الحديث فقال : ليس هذه بحكايتي كلها فاسمعوا البقية وجعل يمسح الدمع عن خديه ثم قال :

- ٥ -

عرفتم ما تقدم من أمر الوسم فاسمعوا ما يجري بعد ذلك فان الشقي بعد وسمه يأتون بطوق من حديد ويطوقون به عنقه ويعلقون بهذا الطوق سلاسل الحديد الطويلة التي تثقل كاهله وتضنك جسمه ثم تفتح أبواب الخروج من هذه الحفلة السيئة ويأخذ الجميع في الخروج وتعزف الموسيقى بألحان الحزن وقت خروج المذنب كأنها تندب حظه وأيام عمره ، وبالحقيقة أن ما يفعل به الجلاد لا يؤثر عليه كما تؤثر رؤيته لتلك الجموع الغفيرة المحتشدة من أغنيـــاء وفقراء ونساء وصبيان ويكونون كلهم عيوناً تنظر إلى هذا المذنب من كل جــانب وأيدي تشير اليه وألسنة تذمه بكل كلمة فتشق جداً رؤيتهم حوله على هذه الشاكلة التي تريعه .

ولما خرجوا بي من تلك الحفلة حيث وسموني تلك الوسمة المشؤومــة ، رأيت شرذمة من الجنود تنتظر خروجي على الباب لتذهب بي إلى اللبان فسار بي هؤلاء الجنود ، ولكن ليس على طريق برست ، بــل على طريق طولون ، فمررنا فونتنابلو على بلدة شوزي لاروا ، وفي البلدة التي دفنت فيهـــا امرأتي التعيسة ، وقد كان ذلك بفصل الصيف في شهر أغسطس .

ولما وصل بي الجنود إلى هذه البلدة كانت الساعة السادسة من الصباح فــلم نكد نسير فيها قليلا حتى رأينا أهلها يحتفلون بجنازة وهم يسيرون إلى المدافن وكانت هذه المدافن قريبة من مكاننا وكان الجمع يحمل نعشين كان أحدهما نعش

شخص كبير والاخر نعش طفل صغير .

وكانت وراء النعشين عجوز قد اشتد صياحها وعلى بكاؤها فتأملتها وإذا بها جدتي التي تركت لها امرأتي ففهمت كل شيء وعلمت انني ذاهب إلى الليان بينما امرأتي وولدي ذاهبان إلى القبور ، وقد بلغ من تحسري أن عيني لم تكن قد نظرت هذا الولد . وهنا جعل العجوز يبكي بكاء مراً ولبث الجماعة ساكتين

وبعد هنيهة تقدم الجماعة إلى هذا العجوز لما رأوه قد استغرق في البكاء وجعلوا يعزونه ، وأخذ أحدهم بيده ومشى به وهو يودع إذنه كلام التعزية والتسلية .

وبعد خروجه من بينهم لبثوا هنيهة صامتين يفتكرون به ، ثم قال الشقي الباريسي : حقاً لقد أثرت علينا هذه القصة ولو جاءنا الكوكوديس في هذا الوقت سرنا بقصته بعد هذا الحزن .

فقال ١١٧ موجهـاً كلامه إلى الباريسي : وهل أنت تصدق قصة الكوكوديس ؟

— هي كقصة مندرين وكرتوش وبما أن هذين كانا يوجدان فلا يبعد أن يكون روكامبول قد وجد ايضاً ، وان كانت قصته على غاية من الغرابة .

فقال ١١٧ : انني أحقق أن روكامبول قد وجد حقيقة وقد عرفته .

— وهل أنت تعرف قصته ؟

— نعم ، أعرفها ..

وأضاف ١١٧ إلى جوابه هذه الجملة : انني لا أعلم قصته المزوقة التي يرويها الناس على المراسح ولكن أعلم قصته الحقيقية .

فقال أحدهم : إذن يجب أن ترويها لنا .

— انني أرويها لكم مرة ثانية .

فقالوا : ولكن قصدنا الان أن نعرف ما هو روكامبول .

فقال ١١٧ إن روكامبول ولد وربي في باريس وهو كما قال لكم الكوكوديس

قد تسنى له ان يتزيا بزي المركيزية بعد رجوعه من الهند .

فقالوا : وهل كان هذا المركيز الذي تقمص به روكامبول غنياً ؟

– كان له ملايين كثيرة .

فقالوا وهل توصل اليها روكامبول كما توصل إلى المركيزية ؟

– نعم .. لمدة ثلاث سنوات .

– إذن هذا المركيز كان قد مات ؟

– كلا فقد كان حياً .

– ألم يكن له اقارب او اصدقاء ؟

– كان له ام واخت .

– وهذه الأم ؟

– قد انخدعت بروكامبول وكانت تحسبه ولدها

– واخته ؟

عند هذا السؤال الأخير وقف ١١٧ لا يريد الجواب ثم قـــال : ان هذه الأخت كانت تحب روكامبول كأخيها وهو كان يحبها كأخته .

– أكان بينهما غرام ؟

– كلا فقد قلت لكم ان المحبة كانت بينهما أخوية كأنهما كانا أخوين حقيقة

ثم امتقع لونه فحار الجماعة من نظرهم اليه فقالوا له : وماذا يؤثر عليك هذا الكلام حتى تبدي هذا الانزعاج منه ؟

وقال ميلون : نريد ان نعلم هذا ..

فأجاب ١١٧ : ليس لي طاقة الان على الكلام .

فقال احدهم نريد ان نعلم فقط هل روكامبول لا يزال حياً ام لا ..

– انني لا اعلم ذلك .

ثم نظر الى ميلون نظرة خفية كأنه يقول له فيها لنذهب معاً فقد ضجرت من هؤلاء الجماعة .

فقام ميلون وقد فهم مراده وقال له : أنا ذاهب فلنذهب معاً .

فتركا الجماعة وسارا حتى إذا بعدا قال ميلون لـ ١١٧ : انك تخبرني قصة روكامبول أليس كذلك ؟

– نعم بعد حين قريب .

ثم مشيا يتنزهان ذهاباً واياباً نحو ربع ساعة حتى رأيا من نفسيهما دافعاً يدفعهما إلى حلقة الجماعة فانضما اليهم مرة ثانية .

وكان يتولى الكلام بين الجماعة في ذلك الحين اقدمهم عهداً في السجن هذا العجوز الذي تقدم ذكره فكان يخبرهم قصته حينئذ قائلاً : انني كنت حوذياً في أول حياتي بين الرجال ولم اكن احب من الدنيا سوى اثنين من الحيوان وهما حصان وكلب ، وقد مات الحصان فرثيته وبكيته زمناً طويلاً وكذلك الكلب ولكنني لم ابكه بدمع بل بدم ولو اخبرتكم بقصته لنالت عندكم قبولاً عظيماً ؛ فلا يخفى عليكم ان لي في هذا السجن عشرين عاماً وانا منذ عشر سنوات منها ابيت منشرح الصدر خلافاً للسنين الأولى ، وما ذلك إلا لأنني اتأمل ان يدي ستصل الى الذي قتل كلبي فأقتله .

فقال الجماعة : ومن هو الذي قتله ؟

فأجابهم : انه احد حرس السجن وقد كان هنا في طولون غير انهم شعروا بانني اريد قتله فأرسلوه إلى بريست .

فقالوا : ان ليمان بريست قد ابطلوه فلا بد ان يعود يوماً هذا الحارس الى هنا .

– وهذا الذي انتظره .

فقال الباريسي : ارو لنا إذا اردت قصة هذا الكلب الذي كنت تحبه بهذا المقدار . والح عليه الجماعة في معرفة هذه القصة فقال :

– اني كنت في بادىء الأمر حوذياً اي حوذي اريد اني كنت البس لباساً رثاً واسوق عربة حقيرة ذات خيل ضعيفة وكنت انفق ما اكسبه على شرب الخمور

فأسكر دائماً وإذا بقي معي شيء من المال تأخذه امرأتي فيقع بيننا النفور والقتال بشأنه .

وكان لي كلب جميل فكنت أجد به سلوى لي وقت نفوري من زوجتي ، ولولاه لكنت هلكت وحشة وجزعاً ، وكان الكلب لطيف الشعور خفيف الحركة ، يشعر بحبي له فيحبني أيضاً حباً شديداً ولم يكن يفارق الاسطبل ساعة .

وكانت زوجتي تنفر دائماً من هذا الكلب وتضربه في أكثر الأحيان ، فكنت كلما ضربته أمامي لا أتمكن من كف يدي عنها فأضربه ضرباً شديداً وقد اتفق ان النفور اشتد بيننا ذات ليلة ، فما كدت أضربها بعض ضربات حتى سقطت على الأرض سقوط من لا روح فيه . فظننت أولاً أنها كانت سكرى ، إذ كانت تشرب نظيري ولكنني بعد أن تأملتها جيداً وجدتها جثة بلا روح فيها .

ولم يأت اليوم الثاني حتى قبضت الحكومة علي ووضعتني في السجن ، ثم أخذت إلى محكمة الجنايات للمحاكمة ، فدافع عني أحد المحامين دفاعاً شديداً أنجاني به من الاعدام ، ولكنني لم أنج من الليمان ، فأرسلت اليه وها أنا ذا ما زلت فيه ، ولما خرجت من المحكمة وكان الحرس يحيطون بي فلم نكد نسير مسافة قليلة حتى نظرت وإذا بكلب يسرع إلي وهو كلبي الذي أهيم به .

فجعل الحراس يطردونه عني وهو يعود إلي حتى خطر لأحدهم أن يمسكه وكنا قد وصلنا إلى بينسيتر فأدخلت إلى سجنها وبقي الكلب مع هذا الحارس فلم تكن عيني تحرم من نظره كل يوم . إلا أنني كنت أخشى سفر هذا الحارس الى مكان آخر فأحرم نظرة كلبي ، وقد شعرت يوماً بما كنت أخشاه فجعلت أبكي بكاء مراً .

فنظر إلي هذا الحارس وقال لي : أراك تخاف من الليمان خوفاً شديداً يحملك

على هـذا البكاء . فأجبته : ليس ذلك بـل أنا أبكي مخافة فراق كلبي . فقال لي : إننا مسافرون إلى ليان طولون فنأخذ هذا الـكلب معنا ، وهنـاك ننظر في أمره .

وفي ثاني الأيام سافروا بنا إلى طولون يتبعنـا الـكلب حتى وصلنا اليها ، وهنا في الليان لا تدخل الكلاب ، وكان هـــذا الحارس تياري المشهور بحسن المعاملة فرجوت منه الاعتناء بالـكلب فوضعه عند جزار بالقرب من الليان فجعل الجزار يعتني به .

وكنت أراه في كل يوم يخرجون بنا للأشغال في موريلون او في حصن ابو يرماك فيسرع إلي على الطريق فامتع نظري بمرآه .

وكان الحارس يحسن معـاملتي ، فـكان يسمح لي بأخذه معي إلى حيث نشتغل . وكان عند المساء يمشي بجانبي حتى باب الليان ، ويعود من نفسه الى الجزار .

وقد دمت على هذه الحال مدة سنتين كنت في خلالها متمتعاً بمرآه ولم تكن يدي تصل إلى الخمر لأشربه فأسكر وتضعف قوتي ، فلذلك كنت دائماً بصيراً ذا قوة شديدة أشتغل شغلا كثيراً وأطيع طاعة عظيمة فـكان الحرس مسرورين مني يعاملونني بالرفق والسماح .

وقـد أعجب أحد الحراس بهـذا الـكلب فأدخله الى الليان ، وجعـل يطعمه والكلب ينام ليله بيننا تحت سرير الحـــارس ، فكنت أراه دائماً فتطيب به نفسي . إلا أن أحد رفاقي المسجونين تودد لي وقد جعله الحرس رفيقاً لي نشتغل معاً ونجلس معاً ، فكان هذا الرفيق قليـــل الطاعة عديم التدرب كثير الجهل .

فبينما كان الحارس يوماً يكلمنا أظهر رفيقي نفوراً شديداً فغضب الحارس ورفع عصاه يريد أن يضربه .

وكان الـكلب ينظر الى الحاس فظن انه يريد أن يضربني أنا فنبح نباحاً

شديداً وهجم عليه وعضه ومن هذه الدقيقة استحال سروري غماً وابتدأ زمان شقائي وأنذرني البلاء أنا والكلب معاً ، فإن هذا الحارس جعل يضرب الكلب في كل ساعة ويعاملني معاملة قاسية في كل وقت .

وقد أصبحنا ذات يوم فرأيت الكلب حزيناً شديد الآلام لا يأكل شيئاً ، وإنما يشرب شرباً كثيراً كأنما كان في قلبه جمر يضطرم . إلا أنه في هذا اليوم أكل شيئاً قليلاً ، ولكنه في غد ذلك اليوم لم يذق الطعام مطلقاً . وفي اليوم الثالث أصبح ميتاً فكدت أموت عليه حسرة . وكنت أبكي بكاء شديداً نادباً هذا الكلب العزيز ، فجعل هذا الحارس الذي يدعى موسوليت يستشفي بي ويضحك ضحكاً شديداً يزيدني حسرة . وفي مساء ذلك اليوم جعل يخبر جميع المسجونين عن بكائي وأسفي شامتاً بي أمامهم فاشتد غضبي وحنقي .

وفي اليوم التالي خرجوا بنا للاشغال الشاقة ، فعزمت كل العزم على قتله . فرفعت سلاسل الحديد على عاتقي بينما نحن نسير في الطريق واستنهضت همتي وهجمت هجوم المنتقم . غير ان الحرس أسرعوا إلى نجدته فلم أتمكن من نيل مرادي . وقد زيد عقابي على هذا الذنب الكبير ثلاث سنوات بالأشغال الشاقة .

ولما تحقق مأمور الليمان انني موطن النفس على قتله أرسله إلى ليمان برست وقد علمت انه فيها . وما زلت أؤمل أن يعود يوماً إلى هذا الليمان فلا ينجو من قبضتي .

وقد بذلت قصارى جهدي ليرسلوني إلى ليمان برست فلم يقبل لي طلب فما زلت هنا ملقياً كل اتكالي على تقلبات الظروف .

وهنا انقطع عن الكلام لما رأى الجماعة نظروا رجلاً مقبلاً عليهم كانوا ينتظرونه بفارغ صبر وهو الكوكوديس .

فصاح ميلون مرحباً به وقال : إنك لا تتم وعدك بالحضور في الميعاد

المعين الينا .

فقال الكوكوديس : لا بأس إذاً تأخرت قليلاً ، فلا يفوتكم من قصة روكامبول شيء .

— لم نعد بحاجة اليك فقد عرفناها .

— ومن أخبركم بها ؟

— أخبرونا عن شيء وسيخبرونا بجميع تفاصيلها .

فتعجب الكوكوديس وقال : ومن هذا الذي يعرفها ليخبركم بها ؟

فأجاب ١١٧ : أنا الذي أعرفها !

ووقف يدير في الكوكوديس لحاظاً حائرة ثم قال له : إنني حتى اليوم لم أطلب اليك قضاء أمر .

فأجابه الكوكوديس : أطلب فما تريد ؟

فأشار اليه ١١٧ وحاد به قليلاً عن الجماعة وقال له : إنك أيها الصديق تذهب كل يوم إلى فندق فرنسا ، وترى تلك السيدة التي تنتظرك فيه . اليس كذلك ؟

— نعم .

— وهي إمرأة حسنة التدبير ؟

— أظنها كذلك .

— إنني أريد ان أعهد اليها برسالة توصلها إلى باريس .

— أعطني إياها وانا أوصلها اليها .

— كلا فلا يسلمها سواي وأنا أعطها إياها يداً بيد .

فعجب الكوكوديس ودهش من كلامه وقال له : أين تراها أنت ؟

— أراها في الفندق حيث تقيم .

فزاد الكوكوديس عجباً وقال له : هل تستطيع الخروج من اللبان ؟

- ذلك ما لا يهمك أمره ، وقل فقط ألا ترى اليوم هذه السيدة ؟

– نعم .
– إذن أخبرها بأني سأزورها هذه الليلة .
فنظر اليه الكوكوديس نظرة المتأمل وقد حسبه مجنوناً .

– ٦ –

مضى النهار وانسدلت حجب الليل ودخل الأشقياء الى مكان النوم حسب عادتهم الجارية . وكان ميلون ينام بجانب ١١٧ فقال له بصوت منخفض كما كانا يتناجيان قبلاً : أظن ايها الصديق قد عاهدته معاهدة ثابتة .

أجاب ١١٧ : ومن ذا الذي تعنيه ؟

– أعني الكوكوديس فماذا جرى بينكما حين تكلمتما سراً أم تخبره بأنك تريد الذهاب إلى فندق فرنسا الساعة ١١ من هذه الليلة ؟

– نعم ، وماذا ترى في ذلك ؟

– كان ينبغي ألا تطلعه على ذلك فربما لا تستطيعه ؟

فضحك ١١٧ ضحكاً خفيفاً وقال له : كيف لا أستطيع فامهل حتى يذهب الحرس فترى .

وعند ذلك كان بعض الحرس يمرون على المسجونين ويتفقدونهم واحداً واحداً ولما انتهى أحدهم إلى ١١٧ تبادلا نظرة خفية كان ١١٧ بادئاً بها .

فلما مضى الحارس قال ١١٧ لرفيقه ميلون : كم الساعة الآن ؟

– قد أذنت الساعة التاسعة .

– إذن دعني أنام ساعة واحدة .

– وبعد ذلك .

– توقظني ولا تقتضي لي أكثر من ساعة في التأهب للذهاب .

ـ لا أفهم شيئاً من مرادك في هذه الليلة فبالله صرح لي بما تنويه .

ـ إصغ إلي إنك وحدك مصادق لي وقد اتفقنا قبلاً على الفرار من هذا الليمان فيجب أن نتمم قصدنا في هذه الليلة .

وسر ميلون سروراً عظيماً وقال متحمساً : نعم ليكن فرارنا هذه الليلة .

ـ إذاً نخرج إلى العالم معاً ولكن على شرطين لا بد منهما .

ـ وما هما ؟

ـ إن الشرط الأول هو أن نتفـق إتفاقاً ثابتاً ان لا نفترق في الدنيـا مطلقاً !

ـ وهل أنت تبحث معي عن الفتاتين اللتين ذكرتهما لك ؟

ـ نعم .

ـ وهل تساعدني ايضاً حتى نرجع اليهما مالهما ؟

ـ نعم .

فقال ميلون عند ذلك : إذاً إني لا أفترق عنك مطلقاً حسب شرطك الأول فما هو الشرط الثاني ؟

ـ أما الشرط الثاني إني أقوله لك بشرط ان لا تغضب منه لقد قلت مراراً كثيرة انك قليل التبصر والتدبير اليس كذلك ؟

ـ نعم ، لا أنكر اني عديم الرأي .

ـ حينئذ ان الشرط الثاني هو ان ترضى كل الرضا بأن تبقى دائماً اليد التي تطيع حينما اكون أنا الرأس الذي يأمر .

ـ إني راض بذلك .

ـ إذاً إصغ إلي واعلم ان لساني لا ينطق الكذب .

ـ وأنا واثق مما تقول .

ـ قلت لك إني ذاهب هذه الليلة الى فندق فرنسا واني سأخرج من هـذا السجن بملء الحرية كما يخرج منه السجان نفسه .

– أصحيح ما تقول ؟

– اسكت هذا مفتش السجن قد حضر .

وكان المفتش والحداد قد أتما تفتيشهما وفحصا قيود المسجونين ولما دنا من ميلون ورفيقه قال المئة وسبعة عشر للمفتش : أتأذن لي يا سيدي أن أسألك كم الساعة الآن ؟

أجابه المفتش : قد بلغت الساعة التاسعة .

ونظر المئة وسبعة عشر للحداد نظرة خفية وقال : كنت أحسب ان الساعة العاشرة الآن .

ثم ذهب المفتش دون ان ينتبه الى ما جرى بين هذا السجين وبين الحداد من تبادل النظرات السرية خلافاً لميلون لانه رأى جميع ما كان من رفيقه ولما ابتعد عنهما المفتش قال ميلون لرفيقه : لماذا سألت المفتش عن الساعة وأنت خبير بمعرفة الأوقات ؟

– ما سألته عنها إلا كي يعلم رفيقه ما أريد وهو من رجالي .

– أي رفيق تعني ؟

– رفيق المفتش وهو الحداد الذي كنت أنظر اليه .

ثم سكت وقال لميلون أتعلم كم سنة بقي لي في سجن طولون ؟

– كلا .

– عشر سنوات ! وفي أول يوم دخلت فيه الى هذا السجن عرض هذا الحداد أن يستخدم فيه وقبل المدير طلبه بعد امتحانه لما لقيه من مهارته وفي الحقيقة انه حال دون فرار كثير من المسجونين حتى نال رضى رؤسائه عنه وثقتهم به ولكن أتعلم لماذا قيد نفسه بهذه الخدمة الشاقة ؟

– كلا .

– إنه فعل ذلك من أجلي لأني سيده وهو ينتظر بفارغ الصبر اليوم الذي أظهر له فيه حاجتي اليه .

- إذاً هو خاضع لك ؟
- حتى الموت وإني حينا قلت للمفتش (كنت أحسب ان الساعة العاشرة الآن) لم يكن سؤالي عن الساعة غير الإشارة اليه بأنها الموعد بيننا .

فدهش ميلون وقال له بسذاجة الأطفال : كيف حصلت على هذه السلطة وأي رجل أنت ؟

- سأخبرك فيما بعد . ثم جعل يحل قيوده .
- ماذا تفعل ؟
- إني أحل قيودي لانها سهلة الحل .
- كيف ذلك ومتى كانت قيود المسجونين في طولون تحل حلاً سهلاً وهي من حديد ؟
- ذلك لان قيودي غير قيودك ، لان قيودك لا تنزع إلا بعد كسرها أو بردها .

وكانت العادة في هذا السجن ان كل سجين يربط ساقه بقيد خاص ثم يقرن بقيد آخر إلى رفيق من المسجونين بحيث يغدو كل اثنين بقيد واحد وذلك مبالغة في الحذر من هربهم لان هروب الاثنين أصعب من هروب واحد .

وما أوشك ١١٧ أن يتم حديثه مع رفيقه ميلون حتى انفصل عنه وأصبح كل منهما لا يربط إلا بقيده الخاص فقال لميلون : لم يبق لي إلا ان يأتيني الحداد بالملابس التي طلبتها منه لاخرج من هذا السجن .

- أتذهب وتدعني وحدي ؟
- لا بد من ذلك لاني سأرجع فان ساعة نجاتنا لم تحن بعد لانه قبل ان نبرح هذا السجن الضيق يجب ان نعلم أي محل نقصد من ذلك السجن الواسع لان الدنيا بأسرها سجن للمجرمين .
- ولكننا نذهب الى باريس لارجاع المال الى الفتاتين ألم تعدني بهذا ؟
- ذلك لا ريب فيه غير اني اذا خرجت من هذا السجن فلا أحب الرجوع

اليه ولا بد لي إذاً من ان أخبر أصحابي في باريس بعزمي على الفرار كي يعدوا لي وسائل التنكر وإنما لا تخشى أيها الرفيق فلا يمر بنا أسبوع حتى نخرج من هذا المكان الرهيب على ان لا نعود اليه .

فحك ميلون اذنه إشارة الى عدم ثقته من الفوز وقال : إن كل ذلك ممكن غير اني لا أزال أخشى أمراً واحداً .

– ما هو ؟

– هو ان مفتش هذا السجن يخطر له في أكثر الايام ان يتفقد المسجونين عند انتصاف الليل .

– وما تخشاه من تفتيشه في تلك الساعة ؟

– أخشى ان يراني وحدي فيعلم بفرارك .

– ومن أخبرك انك تكون وحدك ؟

فانذهل ميلون وقال انني لم أكن أصدق بوجود الابالسة غير اني أجد الآن انه لا بد لي من التصديق .

فضحك ١١٧ وقال لرفيقه : انك لم تر شيئاً بعد ، وسترى عجائب كثيرة فدعني الآن أنام ساعة إذ قد فرغت من جميع عملي ولم يبق علي غير انتظار الملابس التي سيأتيني بها الحداد .

ثم انقطع عن محادثته وغرق في لجج من الهواجس وميلون يحسبه نائماً .

ولما دنت الساعة العاشرة سمع ميلون وقع أقدام خفيفة وكانت أصوات المسجونين قد خفتت وانقطعت شكاويهم وشتائمهم وسادت السكينة بهذا السجن ثم رأى ميلون رجلا يمشي مشياً وئيداً اليهما .

وكان هذا الرجل حداد السجن فهز ميلون رفيقه وقال له همساً : قم لقد بلغت الساعة العاشرة .

فنهض ١١٧ وقال : انني سمعت دقاتها .

وكان الحداد قد وصل اليهما فقال بصوت خافت : ها انا ذا يا حضرة الرئيس

وقد أتيت في الموعد .

– حسناً فعلت فاخلع ثيابك العلك أحضرت ما اوصيتك به ؟

– لقد أحضرت كل شيء .

ثم خلع ثيابه وخلع السجين ثيابه فلبس كل منهما ثياب الآخر وأخـذ السجين من الحداد علبة ففتحها وأخرج منها قبعة يغطيها الشعر المستعار بلون شعر الحداد فلبسها إخفاء لحاله لأن المسجونين تحلق رؤوسهم ثم أخرج منها لحية وشاربين فلبسها ووضع على وجهه وجهاً مستعاراً يشبه وجه الحداد كل الشبه . وبعد أن فرغ من جميع ذلك وضع قيده برجل الحداد وربطه الى قيد ميلون ثم سأله عن كلمة المرور وودع الاثنين وانصرف .

– ٧ –

وخرج من السجن دون أن يعترضه أحد من الحراس لأنهم حسبوه انه نويل الحداد الذي كان مقيداً في مكانه لا سيما وانه كان عارفاً كلمة المرور .

وبعد ذلك بربع ساعة كان يجتاز شوارع المدينة فوقف على دكان كان بابها مقفلاً غير ان نوراً خفيفاً كان ينبعث من نافذتها فطرق الباب بلطف وبعد هنيهة سمع صوتاً من الداخل يقول : من أنت ؟

فأجابه : أنا نويل .

– أليس لك اسم آخر ؟

– نعم وهو كريكو .

ففتح الباب في الحال ورأى ١١٧ نفسه في دكان بائع ملابس قديمة غير ان المرأة التي فتحت له تفرست به ملياً ثم تراجعت مذعورة وقالت لقد خدعتني فلست نويل .

– صدقت ولكنني الرجل الذي تنتظرينه .

وكان يوجد رجلاً مستزوياً في زاوية الدكان فقال لها : دعيه يدخل .. فإنه الرئيس . ثم قام الى الباب وأقفله وقال للسجين : إننا ننتظرك يا سيدي منذ عهد بعيد .

– ذلك أكيد غير أن الأمر لا ينقضي في هذه الليلة .

– كيف ذلك ألا تريد الفرار ؟

– كلا .

فجعل الرجل والمرأة ينظر كل منهما الى الآخر بكآبة واندهال .

أما السجين فانه ابتسم ابتسام الحزين وقال : لماذا تستغربان فاني راض عن عيشة السجون..

فقالت المرأة : لا جدال في الذوق

– غير اني سأهرب من سجني قريباً ، وقد خرجت منه الليلة كي أعد لوازم الفرار .

فأظهرت المرأة سرورها وقالت : هذا هو الكلام المفيد فلم يعد عليك الا أن تأمر فتطاع .

فقال السجين : إني أطلب اليكما أن توجدا لي في هذه الأيام خادماً يصلح أن يكون خادم غرفة .

فانبرى له الشاب وقال : ألا أصلح انا لهذه الخدمة يا سيدي .

– سوف نرى .

فقالت المرأة العجوز : السـت في حاجة الى شيء الآن ؟ ألا تريد ان أهيىء لك طعاماً شهياً ؟

– كلا إني سأتعشى في المدينة .

– أين ؟

في فندق فرنسا عند امرأة حسناء .

- لا غرو في ذلك فإنك شاب جميل .

ونظر السجين الى ساعة فضية تركها له نويل في جيبه فرأى أن الساعة بلغت العاشرة ونصفاً فقال : لقد حان الموعد ويجب ان أغير ملابسي .

فقال الشاب إن نويل قد ترك هنا صندوقاً لك وفيه ملابس مختلفة .

- أين هو ؟

- في الغرفة العليا .

- سر بي اليها .

فأنار الشاب شمعة وصعد أمامه إلى تلك الغرفة والسجين يتبعه ، حتى أراه الصندوق فأطلق سبيله وفتح الصندوق ، وأخرج منه ما يحتاج اليه من تلك الملابس .

أما الشاب فإنه عاد إلى امه العجوز فقالت له : ألم أقل لك انه سينتهي بالخروج من سجنه ؟

- ولكنه بقي فيه عشرة أعوام .

- لا بد ان يكون له مأرب من البقاء فيه .

- لا ريب بما تقولين لأن من كان مثله لا يتعذر عليه الخروج من السجن .

- هو الحق ما تقول ولكن الغريب إني ما عرفته عند دخوله .

- كيف تستطيعين ان تعرفيه وقوته توشك ان تكون منحصرة في التنكر حتى لقد بلغ من براعته في هذا الفن انه لو تنكر بشكل أميرال بحري لاستحال على أركان حربه أن يعرفوه

- أما هذا الرجل فإنه سيعود دون شك مركزاً من أصحاب الملايين غير ان الذي لا يزال يشغلني من أمره بقاؤه في السجن عشرة أعوام وهو قادر كل يوم على الخروج منه .

- إني أرتاب بأمره يا أماه .

بأي شيء ترتاب ؟

— أظن أنه مصاب بحزن شديد .

— أتظنه كآبة غرام ؟

— كلا ولكنه حزن يخترق القلب فقد أحب امرأة كانت تحسبه أخاهـا فانتهى به الأمر انه بات يحسبها اخته .

— لقد عرفت هذه الحكاية .

— وهو يخشى إذا ذهب إلى باريس أن يراها او تراه فيها ففضل البقاء في السجن ولهذا أظن انه اتصل به خبر وفاتها ولولا ذلك لما أراد الفرار .

— هذا ممكن .

وفيما هما يتحادثان نزل السجين من الغرفة بملابسه الجديدة فصاحت العجوز وابنها صيحة دهشة لأنهما لم يعرفاه وقد رأيا أمامهما بحاراً جميلاً مسرح الشعر لطيف الهندام ذا لحية قصيرة سوداء .

غير ان السجين لم يكترث لاندهـاشهما وقال للعجوز : إذهبي أمـامي الى فندق فرنسا فقد أزف وقت اللقاء . ثم قال : إن نويل لا بد ان يكون ترك لي نقوداً عندكم .

- ٨ -

ولنسبق الآن الـ ١١٧ الى هذا الفندق الذي تقيم فيه تلك الفتاة عشيقة كوكوديس .

كان كوكوديس يدعو هذه الفتاة باسم نيشات تحبباً وكان أصحاب الفندق يدعونها مدام بريفوست .

وليس من يعلم ما جمع هذين العاشقين غير أنهما لقيا من حلو العيش ومره ما يلقاه جميع العشاق .

وكانت هذه الفتاة في الثلاثين من عمرها جميلة الوجه قوية العضل عصبية المزاج وكانت جميع مظاهرها تدل على انها أسمى أدباً وأرفع نفساً وأبعد همة من عشيقها كما ان ملابسها كانت تدل على أنها قادمة من باريس .

غير ان اتصالها بكوكوديس وارتضاءها ان تعيش في طولون لا يزال سراً من الأسرار .

أما عشيقها هذا فقد كان كثير النزق غير مجمل بصفة من الصفات الأدبية وقد خسر يوماً في البورصة خسائر لم يستطع وفاءها ، فهتك شرفه بيده كي يصونه باليد الأخرى وزور سنداً على أحد المصارف راجياً أن ينجده أبوه لطمعه بثروته .

غير ان الحكومة علمت بتزويره قبل أبيه وحكمت عليه بالسجن الذي رأيناه فيه .

وقد جاء في صباح اليوم الذي نقص فيه هذا الحديث إلى فندق فرنسا وقال لخليلته : إنك ستعودين إلى باريس بعد ثلاثة أيام فهل تريدين ان تقضي حاجة فيها للسجين الذي نمرته ١١٧ ؟

ثم أخبرها عن هذا السجين وعن طباعه وصمته الدائم مما شوقها إلى لقائه وقالت له : إني أحب ان أرى هذا الرجل الغريب الأحوال ولا بد ان يكون له شأن عجيب .

– إنه سيحضر اليك ويتناول العشاء معك .

– متى ؟

– في الساعة ١١ من هذا المساء .

– العله مطلق السراح في السجن مثلك ؟

– كلا بل انه مقيد مع رفيق له في قيد واحد ومع ذلك إنه سيحضر لأني بدأت أصدقه في جميع ما يقول ، وإن يكن خروجه من السجن من المستحيلات .

وبعد أن أقام عندها مدة برحها وعـاد الى السجن . ولم تكن تفتكر تلك المرأة طول نهارها إلا بهذا السجين وما نقله اليها عشيقها من مقدرتـه وغرابة أطواره .

ولما دقت الساعة ١١ أتى اليها خادم الفندق وأخبرها ان ضابطاً من ضباط البحرية قدم لزيارتها فما شكت انه السجين وقالت للخادم: إني قد دعوته للعشاء أدخل به إلي وأعد لنا المائدة .

وبعد حين دخل الـ ١١٧ فأمرته بالجلوس وقالت له : أنت هو ؟

– نعم .

وجعل كل منهما ينظر إلى الآخر نظر الغامض المستطلع إلى أن بدأ السجين بالحديث فقال :

– إنك لست المرأة التي كنت أرجو ان أجدها .

فابتسمت له وقالت : ماذا تريد بذلك ؟

ولم يجبهـا على سؤالها ، وقال وهو يحدق بها : إنك لا بد أن تكوني تعذبت كثيراً ؟

فارتجفت وقالت : ماذا يهمك عذابي ؟

فنظر اليها نظرة غريبة دعتها إلى الإطراق بنظرها وقال لها : أريـد أن أعرف .

– نعم لقد تعذبت ولا أزال أتعذب .

– ولكن عذابك لم يكن من أجله دون شك .

وأشار بذلك الى عشيقها الكوكوديس ، فأجابته باشارة احتقار بدت من شفتيها .

فسر السجين لهذه الإشارة وقال لها : لقد أحسنت ، لأنـك إذا لم تكوني المرأة الـتي كنت أرجو ان أجدهـا فإنك المرأة التي احتـاج اليها ثم نظر اليها نظرة شديدة تكهرب بها جسمها ، فلم تستطع تحملها وأطرقت ببصرها

وهي تقول :

– ما هذه النظرات الغريبة التي أخضع لها مكرهة . إني ما عرفت غير رجل يستطيع إخضاعي بهذه النظرات النارية .

– ومن هذا الرجل ؟ هو ...

– نعم .

– وماذا حدث له ؟

فقالت بصوت أجش : إنه مات .

– لا بأس فسنشترك في البكاء عليه .

ثم جلس بقربها وأخذ يدها فصاحت صيحة منكرة لم ينتبه لها وقال : أريد معرفة كل شيء .

وزاد اضطرابها وتمتمت قائلة: ما هذا الرجل وكيف أتاه هذا السلطان علي؟

– قلت لك إني أريد ان اعرف كل شيء .

– سأمتثل لما تريد .

– إن الكوكوديس يدعوك نيشات وأهل الفندق يدعونك مدام بريفوست أما انا فإني أريد ان أعرف اسمك الحقيقي .

– ليس لي اسم غير هذين الاسمين .

– ألم يكن لك اسم غيرهما من قبل ؟

– نعم .

– اريد ان أعرفه .

وتنازعتها عوامل التردد هنيهة غير انها لم تلبث ان خضعت لنظراته فقالت : اني كنت من قبل سيدة عظيمة وكانوا يدعونني البارونة شركوف .

– وهذا البارون كيف كان يدعوك ؟

– فاندا .

– إذن انت روسية ؟

- لقد كنت من قبل أما الآن فليس لي اسم ولا وطن .
- وزوجك أهو ميت أم حي ؟
- إنه لا يزال في قيد الحياة ولكنه يعتقد انني ميتة .
فقال لها السجين بلهجة الاحترام : أرجوك يا سيدتي قبل ان تحكي حكايتك أن تأذني لي بكلمة أيضاً .
- قل ما تشاء .
- ألم يكن الرجل الذي أحببته يشبه هذا الأبله كوكوديس الذي يحسب انك تحبينه الآن ؟
فابتسمت ابتسام القانط وقالت : نعم يشبهه شبهاً غريباً .
- ولكنك لا تحبين كوكوديس ؟
- كيف يمكن أن أحبه وهو أبله لا عقل له ؟
- إذن فلماذا غادرت باريس واقتفيت أثره في طولون ؟
- لأني نذرت نذراً .
- أظن اني عرفت بعض الأمر .
- ربما فإن لك نظراً يخترق أعماق النفوس ويهتك حجب اسرارها .
- ان الرجل الذي كنت تهوينه قد مات موتاً رائعاً .
- أسكت .
- بل موتاً شائناً .
- بربك كفى .
- يجب أن أعلم كل شيء ألم يمت على المقصلة بعد أن حكم عليه بالإعدام ؟
- إنك لم تعلم كل شيء .
- اذن تكلمي فهكذا أريد .
- نعم ان يد الجلاد قطعت رأسه ولكن أتعلم متى وكيف ؟
- كلا .

– انه أعدم في السجن الذي أرسلته اليه بعد أن أنقذته قبـــل ذلك من الشنق أعلمت الآن ؟

– أتمي حديثك إذ يجب أن أعلم كل شيء .

– ٩ –

فقالت فاندا : اني كنت سيدة عظيمة وقد تعلقت بهوى رجـل مجرم ثم أصبحت من النساء المبتذلات ولكني قبل كل هذا كنت فتاة من عـامة الناس وكان اسمي فاندا فقط .

وكنت أقيم مع أبي الشيخ في قرية صغيرة على حدود بولونيا الروسية وكان منزلنا مشرفاً على سجن المدينة فاذا جلست إلى النافذة أرى المسجونين وكنت في ذلك العهد في الثامنة عشرة من عمري ، ولي فوق جمال الصبى جمال السلامة والطهارة .

ولم يكن يستطيع أبي العمل لعجزه فكنت أشتغل لأقوم بأوده فانهض من الفجر واشتغل منذ الصباح إلى أن يخيم الظلام فكلما نظر سجين الى مبلـغ انهماكي في العمل يتأوه ويرثي لحالي .

واتفق يوماً اني رأيت بين أولئك المسجونين رجلاً أبيض اللحية وهو مقيد بقيد من حديد خلافاً لرفقائه ، فسألت عنه فقيل لي انه كونت من نبـــلاء بولونيا وانه محكوم عليه بالاعدام فأشفقت عليه اشفاقاً عظيماً منذ ذلك العهد وأصبحت كلما رأيته ابتسم له فيخال لي انه يتعزى بابتسامي .

ومضى على ذلك عدة أيام إلى أن أصبحت يومـاً ، واحـد خفراء السجن يطرق بابي فقال . ان الكونت البولوني سيشنق اليوم وقد طلب أن يراك قبل أن يموت والتمس من رئيس السجن أن يأذن له بالاختلاء معك بحيث لم يبق إلا أن تجيبي طلبه إذا أحببت .

فلم يسعني إلا تحقيق أمنية هذا المسكين وقلت للحرسي : سر امامي وانا في أثرك .

فسار أمامي وتبعته إلى السجن فأدخلني إلى غرفة الكونت وانصرف .

فلما انفردت بهذا الشيخ قال : اعلمي يا بنيتي انه كان لي ثلاثة أولادفقتلتهم جميعهم يد الجلاد ، وكان لي امرأة فأصابها ما أصاب أولادها بحيث لم يبق من أسرتي الاي ، ولكني بعد ساعة ينفذ بي حكم الاعدام .

فأجفلت لحكايته المفجعة وقلت لسلامة قلبي : عجباً كيف يحق للانسان أن يقتل أخاه الانسان وكيف تنهي الحكومة عن القتل وتعمل به ؟

أما الشيخ فانه مضى في حديثه فقال :

ــ وقد بقي لي في هذا السجن شهراً وانا أراك في كل يوم من نافذة غرفتك عاكفة على العمل ،فحن اليك قلبي حنواً أبوياً لما رأيته من اجتهادك وعزمت على أن أجعلك وريثتي الوحيدة .

وقد ضبطت الحكومة جميع ما لي من العقار غير اني خبأت جميع أموالي في مكان خفي فإذا شئت أرشدتك إلى مكانها وصيرتك غنية عظيمة ، ولكني اشترط عليك شرطاً واحداً وهو ان تنفقي قسماً من هذا المال في سبيل انقاذ مجرم من الشنق كل عام وتبذلي جهدك في هذا السبيل .

فنظرت الى ذاك الرجل النبيل نظرة الاعجاب وجثوت أمامه بملءالاحترام وقلت له : أقسم بالله اني سأفعل ما تريد . فأرشدني إلى كنزه المخبوء .

وبعد ساعة نفذ فيه حكم الاعدام وبعد شهر مات ابي الشيخ فـــأصبحت وحيدة في هذا الوجود ولكنيأصبحتغنية بعد الفقر وباتت ثروتي تعد بالملايين

وما مضى عهد بعيد حتى ذاع أمر ثروتي وكان من الذين حاموا حول هذه الثروة البارون شركوف فتزوجني بل تزوج أموالي وجاء بي الى باريس .

وبينما كنت يوماً أقرأ جريدة عثرت فيها على نبأ هائل وهو انهم وجدوا امرأة قتيلة في منزلها مطعونة سبع عشر طعنة وقد وجدوا انه لم يسرق شيء

من أموالها ومجوهراتها والبحث جار عن القاتل .

فذكرت في الحال وصية الكونت وقلت في نفسي ان الفرصة قد دنت للبر بيميني ، وقد أعجبني من القاتل انه لم يكن لصاً ولم يرتكب جريمته طمعاً بمال فأوقفت نفسي من تلك الساعة على البحث عنه بغية انقاذه ولكني قرأت بعد حين أن القاتل أركن إلى الفرار ، فأسفت أسفاً شديداً لأني كنت أحب أن تكون نجاته عن يدي .

أما زوجي البارون شركوف فقد كان وحشي الأخلاق مقامراً سكيراً يصرف نهاره بالنوم والعربدة وليله بالسكر والمقامرة وقد قال لي مرة في غيبوبة سكره انه ما تزوجني إلا لمالي فكرهته بعد حبي له أشد الكره وكشفت له مرة في سكرة غرام سر ثروتي واليمين التي حلفتها فهزأ بي ولم يقف عند هذا الحد ، بل أخبر بسري أصحابه ، فانتشر أمري في جميع باريس

وكان كما ذكرت لك يدعني في المنزل وحدي في الليل ويذهب إلى انديه المقامرة بأموالي .

فبينما أنا جالسة ليلة في غرفتي أفكر بمستقبل أمري مع هذا الزوج الفاسد وقد انتصف الليل ونام جميع الخدم سمعت وقع أقدام خارج غرفتي ثم رأيت بابها قد انفتح ودخل علي شاب جميل الطلعة عليه ملامح الذعر فقال لي قبل أن أستغيث : انقذيني بالله فأنا قاتل المرأة

وكان لهذا الرجل عينان كعينيك لم أر أقدر منهما على التسلط وجذب القلوب ، وكنت قد سئمت العيش مع زوجي فأشفقت على ذاك الجاني ، بل جذب فؤادي مغناطيس عينيه وتذكرت اليمين التي حلفتها للكونت فقلت له : لبيك فسأنقذك .

وعند ذلك أسرعت الى خادمة كانت مخلصة لي فأيقظتها وجمعت ما كان لدي من الأوراق المالية والجوهرات وأخذت جواز السفر المكتوب باسم زوجي وقلت للمجرم هلم بنا فلنهرب جميعاً وخذ الجواز فأدع نفسك باسم صاحبه .

ثم هربنا جميعاً بعد أن تركنا هذه الرسالة الموجزة وهي :
« اني لا أحبك وأحتقرك فلا تبحث عني لأنك لن تراني » .

- ١٠ -

فجعل الـ ١١٧ ينظر إلى فاندا نظر الطبيب يفحص عليلاً ثم قال لها : أتمي حديثك يا سيدتي .

فقالت : خرجنا عند انتصاف الليل فبلغنا الهافر عند الصباح وبعد ذلك ببضع ساعات ركبنا سفينة مسافرة إلى اميركا فأقمنا في تلك القارة الجديدة ثلاثة أعوام أنفقنا في خلالها جميع ما كان باقياً لدي من المال والمجوهرات .

غير انه كان يظهر لي ان ذاك الرجل غني فإنه كتب إلى اوروبا فأرسل اليه ٢٠ الف فرنك وكان يحبني وكنت هائمة به فكانت حياتنا شبيهة بالحلم .

ثم جعلنا اقامتنا في نيويورك وكنا نعيش فيها عيشة بذخ وإسراف ولما فرغ المال الذي أتاه من اوربا أظهرت له خوفي من الافلاس فقال لي لا تخافي فاني احصل على المال حينما تريدين فما جسرت بعد ذلك على سؤاله ، ولكن سكوته كان يخيفني .

وكان يأتي إلى منزلنا كثيراً من الأميركيين المشتبه بسيرتهم وكان هو نفسه يأتي متأخراً فلم أكن أستطيع اعتراضه لأنه كان سيدي وكنت أحبه حتى لو أمرني ان أتجرع السم لما خالفت له أمراً .

وبينما كنت ساهرة ذات ليلة انتظر عودته وقد أوشك الفجر ان ينبثق إذ رأيته داخلاً وهو مصفر الوجه وعليه علائم الاضطراب فذعرت وقلت له : ما أصابك ؟ قال : لا شيء فاني بارزة! خصماً لي فقتلته غير ان البوليس الأميركي سيطاردني لأن المبارزة غير جائزة في البلاد فهلمي بنا الى الباخرة المسافرة الآن

إلى الأنتيل .

وكانت يده مخضبة بالدم فغسلها وتهيأت للسفر ثم خرجنا قبـــل شروق الشمس إلى الميناء فلما أراد السفر اخرج من جيبه محفظة فرأيتهـــا غاصة بالأوراق المالية ورأيت عليها أثر الدم فعرفت كل شيء وعلمت ان الرجل الذي أحببته وتركت زوجي من أجله لم يكن قاتلاً فقط بل كان لصاً ايضاً ، ومع ذلك بقيت على حبه كأنما جرائمه زادته في نفسي اجلالاً ، وهـــذه إحدى غرائب النساء .

واقمنا في جزائر الأنتيل ثلاثة أعوام فـاشتاق الى باريس ورأى ان جميع ملامحه قد تغيرت فلم يعد يخشى مطاردة بوليسها فرجعنا الى تلك العـاصمـة واستأجرنا فيها منزلاً جميلاً واقتنينا جياد الخيل والمركبات ، فمنح نفسه لقب كونت وامتزجنا مع عائلات باريس فكان ينفق عن سعة وما جسرت مرة على ان اسأله كيف يأتيه المال .

وكان يختلط بكثير من ذوي السيرة المشتبهة كما كان يفعل في نيويورك غير انهم جميعهم كانوا يخضعون له خضوع الخدم للأسياد ثم علمت بعد حين انه كان زعيم عصابة من اللصوص اشتهرت شرورها في باريس وجعل البوليس يترقبها دون ان يعثر برجل من رجالها

إلى ان عاد إلي ذات ليلة وهو مخضب بالدم وقد اخترقت صدره رصاصتان فانطرح على سريره دون ان يبالي .

وفي اليوم التالي ذاع في باريس انه حدثت جناية هائلة قتل فيها غني عظيم من اصحاب المصارف في منزله الذي كان يعيش فيه منفرداً مع خادم غرفته وقد قتل بعد ان دافع دفاعاً شديداً لأن جثته وجدت في الحديقة حيث طارد اللصوص الذين حملوا صندوقه وأفرغوا جميع ما في مسدسه من الرصاص .

أما اولئك اللصوص فقد كانوا ثلاثة بينهم خادم غرفة صاحب المصرف كما دل عليـه التحقيق وبعد اسبوع تمكن البوليس من القبض على الخادم فاعترف

بالجنـاية وأرشد الحكومة إلى شركائه فيها فاقبل رجال الشرطة بعد ساعة إلى منزلنا وقبضوا على خليلي فيه وهو لا يزال طريح الفراش فنظر إلي مبتسماً وقال : لا تجزعي فاني لا اموت شنقاً لأن جرحي لا يمهل الحكومـة إلى حين اعدامي فذكرت بلفظة الاعدام المشنقة التي ذكرتني بيميني للكونت فقلت في نفسي : لا بد من انقاذه .

وسار به الجند إلى المستشفى ولكن فاله خـاب لأنه لم يمت بل شفي من جراحه ونقل من المستشفى الى السجن وكان محكوماً عليـه بعشر جنـايات وباحتراف السرقة بالأغتصاب مدة عشرة أعوام فهو يستحق الاعدام الف مرة غير اني بذلت من المساعي ما يقف دون جهد المجاهدين وفزت بانقاذه من الاعدام فحكم عليه بالسجن بالليمان .

وقد تمكنت من رؤياه قبل ارساله إلى الليمان فقال لي: احضري إلى طولون فاني سأنجو من السجن ونسافر معاً الى ايطاليا وكنت لا أزال أحبه فامتثلت .

فقاطعها السجين ١١٧ وقال لها : اني أعرف بقية الحكاية .

فاضطربت وقالت : ألعلك عرفته ؟

— كلا ولكني وصلت إلى سجن طولون في اليوم التالي للحادثة .

— إذن أنت تعرف كل شيء .

— نعم فانه أعد معدات فراره بمهارة فائقة وكنت أنت تنتظرينه في باخرة تجارية تعهد ربانها ان يحمله عليها .

غير ان رفيقه بالقيد خانه فانه بعد ان قطع قيده قبضوا عليه وهو يحاول ان يلقي نفسه في البحر والبلوغ سباحة إلى السفينة ولكنه تمكن قبل القبض عليه من قتل رفيقه الذي خانه .

ولما كان النظام يقضي باعدام كل مجرم يقتل مجرماً في السجن فقد تقرر عدمه بعد ٢٤ ساعة .

— ولكنك لا تعلم بعد ذلك ما حدث فاني تمكنت من الدخول إلى السجن

بشكل عامل من عمال الميناء وكانوا قد ضاعفوا قيوده وبالغوا في خفارته ومع ذلك كنت لا أقطع رجائي فاسمع ما حدث .

- ١١ -

انه في كل مدينة كمدينة طولون يوجد فيها مجلس تنفيذي يوجد فيها منزل يبتعد عنه الناس ويخشون منه وهو منزل ذلك القاضي الذي منحه القانون حق الاعدام .

وفي كل سجن كسجن طولون يوجد سجين يكرهه رفقائه وينظرون اليه نظر الازدراء وهو الجلاد .

ومثل هذا الجلاد في ذلك العهد يفعل بدرهم ما لا يفعله سواه بألف وقد اشتريت هذا الجلاد بالمال ووضعت له قبل تنفيذ الاعدام مخدراً في كأس شرابه فلما دعي لتنفيذ الحكم صعق وسقط على الأرض كالقتيل .

وكنت أرجو بهذا المخدر ان أؤجل زمن الاعدام إلى ان تتم لي معدات انقاذه ، ولكنني عندما أعددت كل شيء وبات انقاذه مضموناً تقدم أحد المسجونين الأسافل في آخر لحظة وعرض على رئيس السجن أن ينوب عن الجلاد

ثم وقفت مذعورة كأنما تلك الحادثة قد تمثلت لعينيها وقالت : واأسفاه اني رأيت رأسه قد هوى امامي .

ثم ضحكت ضحكاً عالياً وقالت : اني لا أزال احبه وقد أقسمت امام خياله اني سأنقذ مجرماً من الاعدام كما أقسمت للكونت من قبله .

– إذن فان اقامتك في باريس ليست إلا لهذا الغرض ؟

– نعم .

فأخذ السجين يدها وقال لها أنظري إلي وجعل ينظر اليها نظرات كانت

تخترق أعماق قلبها .

فقالت له : ماذا تريد مني ؟

– أريد أن أعقد معك عهداً أتقبلين ؟

– نعم .

– اني سأنقذ لك مجرماً من الاعدام وكل ما أريده أقدر عليه .

– وما تطلب مني بعد ذلك ؟

– اني في حاجة إلى امرأة تشاركني فيما سأمثله من الأدوار وأريد أن تكون خاضعة لي خضوعاً لا حد له .

– سأكون كما تريد وأقسم لك على الوفاء بذلك الرأس الذي رأيته يسقط أمامي .

فنهض المئة وسبعة عشر وقال : إني أفارقك الآن فإن الساعة قد بلغت الثالثة من الصباح .

– إلى أين تذهب ؟

– إلى السجن .

– أأراك قريباً ؟

– ربما ، ولكنك سترد اليك اخباري غداً ، وفي كل حال فاني لا أريد أن تبقي في هذا الفندق .

– سأذهب حينما تشاء

– ولا أن تجتمعي بكوكوديس .

– سأمتثل لما تريد ..

– وسأرسل لك غداً نويل .

– من هو نويل هذا ؟

– هو أحد رجالي .ثم تركها ومضى .

* * *

بينما كان ١١٧ يسمع حديث فاند الروسية كان ميلون نائمــاً بجانب نويل الذي كان مقيداً معه بدلاً من المائة وسبعة عشر ، وقد حاول أن يباحثه غير انه لم يفلح فان الرفيق الجديد لم يجبه بحرف ولم يجد عند ذلك بداً من النوم .

ولما دوى مدفع السجن عند الصباح وهو الموعد الذي يستيقظ فيه المجرمين شعر ميلون ان يداً تهزه ففتح عينيه ورأى رفيقه المائة وسبعة عشر يؤنبــه لإستغراقه في النوم ، وقد تبدل ذلك الضابط الجميــــل بمجرم شقي محلوق الرأس والشاربين .

فانذهل ميلون لأنه لم يشعر به عند عودته ولم يعلم كيف حل القيد من رجله دون أن ينتبه .

أما ١١٧ فإنه لم يحفل بانذهاله وجلس بجانبه دون أن يكلمه بحرف .

ثم أقبل وكيل السجن ومعه الخدم يحملون الطعام والشراب المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة فلم يأكل ١١٧ وقال للوكيل : اني أتخلف عن حصتي لرفيقي ميلون فقد حلم حلماً مزعجاً الليلة .

فقال الوكيل : ماذا حلم ؟

- اني هربت من السجن .

- قبح وقبح هذا الحلم فان تحقيقه يدعو إلى إهلاكي وأنت لا بد ان تكون حلمت أيضاً ، فماذا حلمت ؟

- اني تعشيت مع امرأة حسناء وشربت معها الشمبانيا المثلجة ، ولهذا فإني لم آكل الآن لأني لا أزال متخوماً من طعام الحلم .

فتركه الوكيل ضاحكاً، وانصرف ١١٧ وميلون ذاهبين إلى الأعمال الشاقة وفيما هما سائران لقيا بونفير السجين صاحب حكاية الكلب التي تقدم ذكرها فدنا منه ١١٧ وقال له بصوت منخفض : إن الوكيل الذي قتل كلبك تعين في سجن طولون وهو فيه منذ أمس

فاضطرب بونفير وأحمرت حدقتاه من الحقد وقال إذن فــلا بد له

من الموت

– تباً لك من أبله فان من يريد الانتقام يكتم قصده في صدره ولا يبوح به لأحد .

– ولكني لا أستطيع أن اضبط نفسي .

– أتعلم ما كنت أصنع لو كنت مكانك ؟

– كلا !.

– كنت أحسن سلوكي عدة أيام لأكون في عيون الحرس كالحمل الوديع إلى أن تحين الفرصة فأفعل ما أشاء .

– سأمتثل لما تقول .

ثم ذكر كلبه وجعل يبكي .

وتركه الـ ١١٧ وسار مع ميلون إلى محل الشغل فلقي فيه نويل الحداد وقال له همساً . أظن انك تستطيع الآن أن تبلغ تلك السيدة المقيمة في فندق فرنسا انه سيصدر قريباً حكم الاعدام في سجن طولون .

فأشار نويل إشارة الامتثال ومضى كل في شأنه .

– ١٢ –

بعد يومين من هذه الحوادث المتقدمة وقفت مركبة بريد على باب سجن طولون ، ونزل منها رجل وامرأة ، وكانت ظواهرهما تدل على انهما من النبلاء الانكليز .

وكانت المرأة بارعة في الجمال فدخلا إلى السجن وأبرزا لمديره ترخيصاً قانونياً يبيح لهما الفرجة على السجن وتفقد حالة المسجونين فيه .

وقد كتبت هذه الرخصة باسم السير ارثير بمبروك أحد ضباط البحرية

وزوجته الشرعية .

فاحتفل المدير باستقبالهما وكلف أحـــد الضباط بالدخول بهما إلى السجن وجعلا يطوفـــان بجميع المجرمين ويسألان عن كل مجرم وجريمته ولاسيا تلك المرأة الحسناء التي لم يسع الضابط إلا إجابتها .

وكانت المرأة تبدو بمظاهر الغنى المظيم فتشتري كل مـــا يعرض للبيع في السجن وتدفع ثمنه بسخاء .

وكان مما اشترته جزداناً كبيراً من الصدف لوضع النقود فيه فأخرجت من جيبها خمسين جنيهاً مزدوجاً ووضعتها في الجزدان دون اكتراث ثم اعادته إلى جيبها ومشت مع زوجها وذلك الضابط الذي فتن بسحر عينيها إلى ان بلغت إلى بونفير صاحب حكاية الـكلب ورأته مقيداً بـــأصفاد ثقيلة فرثت لبلواه وسألته عن شأنه وعن السبب في المبالغة بالتضييق عليه .

فبكى وقال : انني يا سيدتي لم ارتكب جريمة تستحق هذا العذاب الشديد وإنما قيدوني بهذا القيد الثقيل الذي لا تحتمله الحيوانات الضارية لأنهم يخشون ان اقتل وكيل السجن ثم ذكر لها بملء البساطة حديث كلبه والدموع تنهل من عينيه وختم كلامه بقوله انه صفح عن قـاتله منذ زمن بعيـد ، ولكن الحكومة لا تزال تخشاه وتعاقبه بهذا القيد المتين .

فتأثرت الانكليزية تأثراً غريباً وشفعت به إلى الضابط فوعدها خيراً وتعهد لها بأن يحمل المدير على انقاذه من قيده .

ثم سارت مع الضابط تتفقد المسجونين حتى اوشكت ان تقترب من ١١٧ ورفيقه ميلون فنظر اليها ١١٧ وقال لرفيقه :

- كيف تجد هذه المرأة ؟

– اي امرأة ؟

- هذه الانكليزية القادمة الينا .

انها في غاية الحسن .

– هذه هي بعينها .

– كيف هي الم تقل لي انها شقراء الشعر ،فأصبح شعرها اسود ؟

– سيعود إلى اصله غداً ، لأن من يكون في خدمتي فلا بد له ان يكون ماهراً في التنكر .

وبينما كان الاثنان يتحدثان عنها بصوت منخفض دنت منهما وقالت إلى الضابط مشيرة إلى المئة وسبعة عشر : اي ذنب جناه هذا الشاب الجميل فاستحق هذا العقاب ؟

قال . انه يا سيدتي اشهر رجل بين المجرمين ولست اعلم حكايته فان المدير يعرفها وهو يخبرك عنها دون شك ، ولكننا مأمورون بالمحافظة عليه ومراقبته مراقبة شديدة ، دون رفاقه ، في حين انه لم يحاول مرة الافلات من سجنه .

فلم تجب الانكليزية وتظاهرت بعدم الاهتمام بشأنه ، ثم تأبطت ذراع زوجها ، وبينما كان الضابط يسير إمامها اخرجت الجزدان الذي وضعت فيه المائة فرنك والقته حيث كان يشتغل السجين فوضع رجله فوقه وبعد حين التقطه .

اما الانكليزية وزوجها فانهما اتما دورتهما في السجن إلى ان فرغا مما اتيا لأجله فودعت الانكليزية الضابط بعد ان شفعت مرة ثانية بصاحب حكاية الكلب ، ثم دعته إلى مناولة طعام المساء عندها في الفندق المقيمة به مع زوجها فاحمر وجهه لاضطرابه وانحنى امامها شاكراً ، فابتسمت له خير ابتسام وخرجت مع زوجها من ذلك السجن .

وفي صباح اليوم التالي دعا مدير السجن بونفير وقال له اتحسن السلوك إذا افرجت عنك ، ولا تحاول الاعتداء على الوكيل ؟

فبكى بونفير وقال له :

– بكل تأكيد يا سيدي لأني صفحت عنه كل الصفح وقد كفرت بما

لقيته من العذاب عن ذنب عدواني القديم .

فأمر المدير ان تحل قيوده وان يشتغل مع المحكوم عليهم بالسجن للموت.

- ١٣ -

في صباح اليوم التالي صحا ميلون من رقاده ونادى رفيقه بلقب السيادة كما يناديه نويل وقال له : ألم تحن ساعة الفرار بعد ؟

أجابه ١١٧ : كلا .. ولكنها باتت قريبة .

– متى تكون هذه الساعة ؟

– لا أدري فإن امرها متعلق بمجرى الحوادث .

فتنهد ميلون وقال : اني لا أحب الفرار من أجل نفسي بل من اجل هاتين الفتاتين القاصرتين .

– كن ناعم البال لأن يوم الخلاص بات قريباً .

وعند ذلك دنا منهما الوكيل ووزع عليهما الطعام، وكان هذا الوكيل يدعى موسلت ، وهو عدو بونفير الألد ، غير ان بونفير أبر بوعده فان الوكيل مر من أمامه عدة مرار ، فلم يهجم عليه بونفير واكتفى بأن ادار له ظهره كي لا ينظر اليه .

ولما دنت فرصة الظهر ذهب اولئك المسجونين إلى ظهر باخرة كانوا يشتغلون باصلاحها وأقاموا فيها يصرفون وقت الظهر بالمنادمة والمسامرة .

فقال أحدهم : ان الكوكوديس لم يحضر اليوم وستفوتنا حكايته اللطيفة .

وأجابه آخر لا تطمع بحكايته بعد الآن لأنه منقبض الصدر لسفرخليلته.

فقال ١١٧ : اني احكي لكم حكاية روكامبول أحسن مما يرويها الكوكوديس إذا شئتم أن تصغوا الي .

فصاحوا جميعهم بصوت واحد : روكامبول ....روكامبول

وكان موسلت وكيل السجن مضطجعاً بالقرب منهم فانزعج لصياحهم وقام اليهم بالسوط منهالاً عليهم بالضرب ، وكان أخص ضربه للمئة وسبعة عشر ولبونفير ، لأنه كان يكرهما كرهاً شديداً فأزبدت شفتا بونفير من الغيظ غير ان المئة وسبعة عشر نظر اليه نظرة سرية كانت كالبلسم لجراحه فعادت اليه مظاهر السكينة .

أما ١١٧ فانه قال لرفقائه بعد انصراف الوكيل : لا سبيل إلى قص حكاية روكامبول اليوم وسأرويها لكم في يوم آخر .

ثم انزوى مع رفيقه ميلون وجعل ينظر الى سفينة حربية روسية كانت في الميناء، وقد نزل منها١٢ جندياً وضابط وتلميذ فكان التلميذ ينظر إلى المسجونين نظر الفاحص .

فقال الـ ١١٧ لرفيقه ميلون همساً . انظر إلى هذا التلميذ البحري فإنه المرأة الانكليزية التي زارتنا أمس .

ولما مر اولئك البحارة بالقرب من المسجونين حياهم الـ١١٧ باللغة الروسية فعجب منه ميلون وقال . أتعرف اللغة الروسية ؟

— إني أعرف جميع اللغات الشائعة .

أما التلميذ البحري فإنه اختلط بالمسجونين وجعل حديثه خاصة مع ١١٧ فقال له أحد رفقائه في السجن : إذا كنت تعرف اللغة الروسية فسله عن أخبار سباستبول .

فسأله ١٠٧ باللغة الروسية قائلاً أأحضرت ما أوصيتك به ؟

فأجاب بالروسية . نعم أيها الرئيس إنك أمرتني فأتيت .

فسأله السجين ماذا يقول ؟

— يقول انه ما زال الذين يحاصرون سباستبول كسالى مثلك ، فإنها لا تؤخذ .

ثم رجع ١١٧ الى التلميذ وقال له بالروسية :

- ألعل السفينة مهيأة ؟

أجابه باضطراب في صوته : نعم ، كل شيء قد تهيأ .

- لماذا هذا الاضطراب العلك خائفة؟

- نعم لقد بت وجلة على هذا المسكين الذي سندفعه الى ارتكاب الجريمة .

- إنك مخطئة ونعم ان بونفير سيقتل ذلك الوكيل العاتي ويحكم عليه بالاعدام ولكني سأنقذه من الموت .

- أأنت واثق مما تقول ؟

- كل الثقة لأني كل ما أريده أقدر عليه .

وفيما هو يكلم فاندا إذ رجع مذعوراً لأن الوكيل موسلون ضربه بسوطه ضربة شديدة أعادت الزبد الى شدقي بونفير، وإنما ضربه لأنه كان يكلم رجال البحرية الروسية .

أما التلميذ البحري أي فاندا فانه اعتذر الى الوكيل وقال له : إني سررت به لأنه كلمني بلغة بلادي فذكرني أهلي ووطني .

ثم أكب على عنق ١١٧ يعانقه ببساطة الأطفال، فانهال الوكيل على السجين بالضرب ولكن التلميذ كان وضع في قميص السجين مدية طويلة وانصرف الى رفقائه البحارة .

وبعد حين عاد المسجونين إلى العمل فأشار الـ١١٧ إشارة خفية الى بونفير فهم مرادها ودنا منه فقال ١١٧ : ألا تزال مصراً على قتله ؟

- لا راحة لي بغير قتل هذا الشرير .

- أتعلم ما وراء ذلك من المخاطر ؟ فإنهم يقتلونك على أثر قتله .

- إني راض باعدامي لأن موتي خير لي من حياته .

وعند ذلك أعطاه ١١٧ المدية فاتقدت عينا بونفير بشرر الانتقام الوحشي وقال : سأجد لهذه المدية خير غمد في صدر هذا الأثيم .

وفي الليل بينما كان المسجونين نياماً كان الـ ١١٧ وميلون يتحادثان بصوت منخفض فقال ميلون :

- إني لم أعلم شيئاً من قصدك يا حضرة الرئيس .

- لا بأس إذ ينبغي ان تتعود أن تخضع دون ان تعلم ولكني سأوضح لك قصدي في هذه المرة فقط ، إعلم اني كنت محتاجاً الى امرأة تساعدني على تنفيذ خطتي وقد وجدتها .

- إنها خير امرأة صالحة لخدمتك لقد رأيت من جرأتها ومهارتها في التنكر ما أذهلني ولكني لاأزال محتاراً في أمر دخولها إلى القلعة ووجودها في مركب روسي حربي

- إنه أمر سهل ، وذلك انها روسية المولد وتنكرت أول أمس بملابس الغلمان ، وسافرت عند منتصف الليل الى مرسيليا حيث وجدت فيها تلك السفينة الحربية .

أما طريقة اتصالها بها فهي ان نويل عثر باوراق غلام روسي من البحارة توفي منذ شهرين في مستشفى طولون ، فأخذت منه هذه الأوراق وذهبت بها الى السفينة الروسية وطلبت الى قومندانها ان يعيدها الى وطنها فأمرهـــا القومندان وهو يحسبها غلاماً ان تنضم الى سلك البحارة وعلى ذلك وصلت إلى طولون وتمكنت من مخابرة اصحابي في الميناء .

فانذهل ميلون وقال : ألك أصدقاء في الميناء ؟

- نعم وهم في سفينة كبيرة سأكون ربانها .

- إني لو لم أكن رأيتــك بعيني خرجت من السجن لما كنت أصدق مــا تقول ، وكنت حسبت كلامك ضرباً من الجنـــون . والآن فإني مؤمن بكلامك واثق من ان لك سفينة في الميـنـاء . ولكن متى يكون فرارنا من

هذا السجن ؟

– أتظن أيها الرفيق ان النجاة من سجن طولون يكفي فيها قطع القيود ومغافلة الحراس .

– ان جميع رفقائنا يهربون بهذه الطريقة .

– وكلهم مخطئون لأن الرقباء عندما يشعرون بفرار السجين ينبهون المدينة باطلاق مدفع ، ثم ينتشر الرقباء والأرصاد في المدينة فلا يمسي المساء حتى يعثروا على الهارب ويعودوا به الى السجن وقد ندر أن ينجو أحد من قبضتهم بهذه الطريقة . أما أنا فاني أردت الخروج من السجن ولا أريد الرجوع اليه ، ولهذا فاني أهيىء أسباب الفرار منذ خمسة أيام وكن واثقاً إننا متى بتنا خارج السجن لا يقف احد على أثرنا .

ذلك قد يتفق لك وأما انا ..

– وكذلك أنت فقد جعلتك من رجالي الأخصاء وعولت على ان لا افترق عنك ومتى وعدت فلا أنكث

فتنهد ميلون وقال : ورحمتاه للفتاتين .

– دع الآن الاصغاء للعواطف واصغ إلي ، فقد قلت لك اني كنت محتاجاً إلى امرأة تعينني في قضاء مآربي وقد وجدتها وأريد ان تكون عبدة لي .

ثم حكى لميلون حكاية فاندا الروسية وكيف انها جاءت الى طولون بغية إنقاذ واحد من الذين حكم عليهم بالاعدام .

فعجب ميلون وقال : وماذا يهمها إنقاذه ؟

– انها نذرت نذراً أمام قبر رجل تحبه وهو انقاذ رجل من الاعدام ولا سبيل الى استعبادها الا بعد وفاء النذر .

– لقد بدأت افهم الآن ولكن هل انت واثق من إنقاذ بوتفير ؟

– لا شك عندي بذلك .

أتعلم ان نظام السجن يقضي على الجرم الذي يقتل موظفاً بان يتلى الحكم

عليه بعد ٢٤ ساعة .

– هذا الذي أعتمد عليه في حسابي اليس اليوم الاثنين ؟

– الاثنين مساء .

– أظن ان الوكيل يقتل في هذه الليلة .

– وبعد ذلك ؟

– يصدر الحكم على بونفير يوم الأربعاء وتنصب المشنقة يوم الخميس فلنفرض انه حدث حادث في السجن يوم الخميس حال دون انفاذ الحكم .

– إذاً الاعدام ينفذ يوم الجمعة .

– كلا ان يوم الجمعة لا ينفذ فيه اعدام لأنهم يعتبرون ان المسيح مات في يوم الجمعة فلا يقتل فيه المجرمون

– على ذلك ان الاعدام ينفذ يوم السبت .

– ولكننا يوم السبت نكون قد بعدنا عن ساحة الاعدام .

– أين نكون ؟

– في عرض البحر على ظهر سفينتي ، ولقد فاتني ان أقول لك اني نشأت بحرياً ، بحيث أستطيع ان أطوف جميع البحار دون ان تجنح السفينة التي أديرها .

– أأكون معك ؟

– دون شك .

– وفاندا ؟

– ستكون معنا .

– وبونفير ؟

– وبونفير أيضاً لأني محتاج اليكم جميعاً .

– إني لا أفهم شيئاً مما تقول .

– ذلك خير لك اذ يجب ان تتعلم الامتثال دون ان تفهم كما قلت لك

ثم رجع ١١٧ وجعل يتنصت .

فقال له ميلون : ماذا تصنع ؟

– اني أصغي الى صوت المبرد بيد بونفير لأنه يبرد قيده به .

– الملك أعطيته مبرداً ؟

– نعم .. فان إحدى شفرتي المدية التي أعطيته إياها مبره يصلح لكسر القيـود

وعند ذلك دقت الساعـة العاشرة فقال ١١٧ لرفيقه : دعني أنام الآن ، وسأصحو حين قدوم المفتش .

ثم أغمض جفنيه وانقطع عن الكلام .

وكانت العادة في سجن طولون ان المفتش والحداد يطوفان كل ليلة عنـد منتصف الليل فيفحصان قيود المسجونين حذراً من فرارهم ، وكان المفتش موسلون عدو بونفير ، والحداد نويل صنيعة ١١٧ .

فلما انتصف الليل أقبل المفتش يحمل مصباحاً ونويل يحمل مطرقة وجعلا يوقظان المساجين دون إشفاق فيطرق نويل قيد كل واحد منهم فيعلم من صوت الحديد إذا كان سالماً أو مكسوراً .

وما زالا على ذلك حتى انتهى الدور الى بونفير ، وكان نويل عارفاً بالمكيدة فلما طرق قيد بونفير نهض وتراجع منذعراً إلى الوراء بحيث أصاب عن عمـد مصباح المفتش ، فسقط من يده وانكسر ، وعند ذلك هب بونفير من مرقده والمدية بيده فانقض على موسلون ، ولم يسمع في سكون ذلك الليـل غير صوت نزاع تنبه له جميع المساجين .

ثم تلاه صياح ألم شديد عقبه صوت انتصار ، وكان صياح الألم من المفتش وصياح الانتصار من بونفير ، وقد طعنه في صدره عشر طعنات كانت القاضية عليه ، وجعل يمشي في قاعة السجن ظافراً مختالاً وهو يقول : أخذت بثأر كلبي الأمين .

فقال ميلون لـ ١١٧ : انه غير مكترث لشيء لفرط اعتماده عليك .
— كلا .. بل انه غير مكترث للموت لأنه لم يعلم اني سأنقذه .

- ١٥ -

كان قتل بونفير للمفتش ليلة الاثنين ، وفي صباح الثلاثاء وقف بونفير أمام القضاة لمحاكمته .

وكان ثلاثة يجتهدون في انقاذه من الاعدام وإطلاقه من السجن ، وهم ميلون ونويل الحداد و ١١٧ .

غير ان بونفير كان يجهل هذه المساعي كلها ، فكان يتوقع الموت مطمئناً غير خائف ، ولما سأله القاضي عن سبب الجريمة ، أخبرهم بحقده القديم على المفتش بملء السكينة والبساطة فحكموا عليه بالاعدام وتقرر إنفاذ الحكم بعد أربع وعشرين ساعة .

وانتشر الخبر بين المجرمين فاستاؤا له استياء شديداً ، وكانت علائم الانقباض بادية على وجوههم ، ولما اجتمعوا في فرصة الظهر لم ينبس أحد منهم بكلمة لما نالهم من الغم والكآبة ، فإن الإعدام كان يروع أولئك المجرمين الذين لم ينجوا منه إلا بالقدر والاتفاق .

وقد دار في خلد كثيرين منهم قتل الحراس والافلات من السجن ، ولما مثلت أمامهم تلك الحادثة برفيقهم بونفير وجفت قلوبهم وانكمشوا ، إذ لا شيء يرهب المجرمين مثل الحكم بالاعدام .

والعادة في سجن طولون ان الآلة الخشبية التي توضع عليها آلة قطع الرأس يبنيها المساجين أنفسهم كي يكون ذلك أبلغ في الاعتبار ، وكان الجلاد منهم ، غير ان المساجين لم يكونوا يشيدون هذه الآلة إلا مكرهين

بضرب العصي .

أما الجلاد ، فقد كان شر هؤلاء المنكودين تعاسة لأنه يقضى عليه بعد توليه هذه المهنة ، ان يعيش منعزلاً منفرداً عن رفقائه ولا يجد منهم غـير الازدراء والاحتقار

وهذا ما أصيب به جلاد السجن في عهد هذه الرواية ، فإنه طالما توسل إلى مدير السجن أن يولي سواه مهمة الإعدام لما لقيه من احتقار اخوانه ، فأبى عليه لأن قوانين السجون تقضي على الجلاد أن لا يعتزل منصبه حتى الموت .

فلما انتشر خبر الحكم على بونفير بالإعدام خرج هذا الجلاد عند فرصة الظهر وجلس واليأس ملء قلبه بمعزل عن اخوانه وقد جلس القرفصاء غير مكترث لحرارة الشمس ، ووضع رأسه بين يديه يفكر بما يلقاه من متاعب السجن ومن احتقار رفقائه له .

وفيما هو على ذلك سمع صوت رجل يناديه فالتفت فاذا هو ١١٧ يصحبـه ميلون رفيقه بالقيد ، فنظر اليه ١١٧ نظرة انذهال وقال له :

— ماذا تصنع هنا أيها الرفيق وكيف أنت منعزل عن الرفقاء ؟

— إني منعزل اليوم كما كنت منعزلاً أمس وسأكون على ذلك إلى ما شاء نكد الطالع غير اني أعجب لسؤالك ألعلك لا تعلم من أنا ؟

— انك تدعى جواني الجزار .

— كلا .. بل إني أدعى جواني الجلاد .

— وقد قدر عليك أن تعيش منفرداً .

— ما زلت في هذا السجن وا أسفاه .

— أحكم عليك بالسجن المؤبد ؟

— نعم ..

— كم عمرك ؟

— أربعون .

– وأي ذنب جنيت فأصبحت من زمرتنا ؟

– قتلت امرأتي في ساعة ذهب السكر بعقلي فحكم علي بالسجن طول العمر وشتان بيني وبينكم فيه، فإنكم تجدون بعض السلوى بما تتجاذبونه من الأحاديث أما أنا فاني مضطهد من الجميع فلا يكلمني أحد .

– لماذا لا تهرب ؟

– كيف أستطيع الهرب إذا لم يكن لي رفيق يساعدني عليه وقد قدر لي أن أموت في هذا السجن جلاداً ممقوتاً مغضوباً عليه من الله والناس ؟

– لا تقنط فإن سجنك قد لا يكون أبدياً .

فاضطرب الجلاد وقال له : ماذا تعني بذلك ؟

فلم يجبه ١١٧ على سؤاله وقال له : إنك تتألم كثيراً لندور الصديق فماذا تعطي صديقاً يمد اليك يده ويصافحك .

– أعطيه نصف دمي .

– إذن هذه يدي أمدها لمصافحتك .

فاضطرب الجلاد وصافحه والدمع يجول في عينيه وهو يقول : من أنت أيها الرجل المشفق ؟

– أنا الذي يسمونني مائة وسبعة عشر .

ثم جعل ينظر اليه تلك النظرات الغريبة التي اخضع بها فاندا الروسية وقال له : اني اتيت لألقي في نفسك القانطة بذور الرجاء .

– واأسفاه لقد فقدت كل أمل .

– كلا .. وسأجعلك حراً كما تشاء .

– وماذا تطلب مني في مقابل ذلك .

– أن تمتثل لي في كل ما أريد .

– بل أكون لك عبداً ما حييت .

لم تكد تبلغ الساعة الثالثة بعد منتصف الليـــل حتى صاحت الأبواق في إحدى قاعات السجن ، تدعو المجرمين فيها إلى بناء آلة الاعدام ، فاضطرب المجرمون ، ولكن لم يسعهم إلا الامتثال مكرهين وجعلوا يشتغلون متباطئين متوانين ، وكانت السياط تبلغ من ظهورهم أكثر ما تبلغ أيديهم من الآلة .

وكان الجلاد واقفاً بعيداً عنهم ينتظر فراغهم من العمل كي يضع تلك السكين الهائلة التي جعل يشتغل طول الليل مع أعوانه بشحذها .

ولما فرغوا من العمل وضع الجلاد السكين في موضعها وأراد تجربتها فـأتى بحزمة عظيمة من القش ووضعها حيث يوضع رأس المجرم ، ثم أدار لولباً فهوت السكين وبرت تلك الحزمة بري القلم فسر بها وأظهر استحسانه .

وعند ذلك طلع الصباح فتفرق المجرمون وبقي الجلاد واقفاً أمـام الآلة يحرسها ، لأن الاعدام تقرر أن يكون عند الظهر ، وإنمـــا هم ينصبون آلة الاعدام قبل حين كي يكون منظرها الهائل عبرة للمجرمين

وبعد ساعتين جاؤوا بجميع المجرمين وجعلوا يمرون بهم أمـام تلك الآلة الرهيبة ، فلما وصل اليها ميلون أدار وجهه كي لا يراها فتنبه له ١١٧ وقال له : ألعلك خفت ؟

— هو الحق ما تقول ومن لا يخاف هذه الآلة القاضية ، ألم يتقرر الإعدام عند الظهر ؟

— نعم . لم يبق لتنفيذه غير القليل فكيف ترجو انقاذه بعد ؟

فهز المائة وسبعة عشر كتفيه وقال له بعظمة وكبرياء : إني إذا وعـدت وعداً أفي به دون شك .

غير أن بونفير لم يكن يؤمل النجاة من الموت وقد سمع تعزية الكاهـن له بسكينة في البدء ، ثم كان كلامه قد أثر عليه وزالت من قلبه تلك الأحقـاد

القديمة التي دعته إلى الانتقام وذكر جريمته الشنعاء فندم وجعل يبكي بكاء الأطفال ، ثم هاجت به عاطفة الكبرياء فقال للكاهن : لا تحسب اني أبكي لخوفي من الموت ، بل أن بكائي لاشفاقي على ذلك الرجل الذي قتلته انتقاماً للكلب .

وعند ذلك دخل اليه في سجنه الجلاد واثنان من أعوانه وجردوه من ملابسه والبسوه اللباس الخاص بموقف الاعدام ، ثم أوثقوا يديه وراء ظهره وثاقاً متيناً وأوثقوا رجليه بقيد طويل بحيث يستطيع المسير ، ولم يكن باقياً لموعد القتل غير سبع دقائق ، فخرجوا به وهو يمشي متثاقلاً والكاهن يتلو عليه ارق عبارات العزاء ، حتى وصلوا به إلى تلك الآلة الرهيبة .

وكان جميع الموظفين في السجن ، وجميع المجرمين راكعين حول المقصلة ، وقد ساد السكوت في تلك الساعة الرهيبة ، حتى لم يكن يسمع غير تردد الأنفاس ، وقد نصبت أربع مدافع محشوة بالقنابل الضخمة في محلات مرتفعة من الجهات الأربع ، فكانت أفواهها مصوبة إلى أولئك المجرمين الراكعين ، وكان يحيط بهم فرقة من العساكر وبنادقهم مصوبة اليهم أيضاً ، وكان جميع ذلك مما يزيد في رهبة تلك الحفلة الهائلة .

وقد وضعوا بين المجرمين وبين الآلة تابوتاً وقف حوله فريق من الرهبان لأخذ جثة المجرم بعد إعدامه .

فلما صعد بونفير الدرجة الأولى من درجات الآلة نظر إلى تلك المناظر الرهيبة نظرة واحدة هلع لها فؤاده وكاد يسقط لاضطرابه فساعده الكاهن على الصعود .

وكان اثنان من المجرمين راكعين قرب المقصلة وهما يتحدثان همساً فنظر اليهما بونفير وعرف انهما الـ ١١٧ وميلون فقال لهما : الوداع ايها الصديقان واذكراني خيراً بعد الموت .

ثم صعد درجة من تلقاء نفسه وقد أعاد اليه هذا الكلام بعد النشاط .

أما ميلون فكان شديد الاضطراب وكان يقول بصوت منخفض لـ ١١٧ : ألا ترى أيها الرئيس انه بلغ آخر درجات المقصلة فأي أمل ترجوه بعد ؟

فقال له : أسكت .

غير انه عندما نزل الكاهن وبقي المحكوم عليه اضطرب ١١٧ اضطراباً خفيفاً وحدق بنظره إلى السكين القاطعة التي كانت تتكسر عليها أشعة الشمس ، وأدار الجلاد لولب تلك السكين .

- ١٧ -

وعند ذلك سقطت تلك السكين الهائلة تهوي على رقبة ذلك المسكين فأغمض جميع الناظرين عيونهم كي لا يروا هذا المنظر الرهيب ولم يبق مفتح العينين غير المائة وسبعة عشر الذي كان ينظر محدقاً إلى الالة .

ومرت هذه الحادثة التي تكتب عنها المجلدات بثانية واحدة ، ولما فتح المجرمين أعينهم رأوا ان السكين قد هوت ، ولكن الرأس لم يقطع ذلك أنها لقيت حاجزاً قبل بلوغها إلى رأس المجرم بنحو شبر فقط .

فأجفل الجميع لهذا السر الغريب الذي لم يدرك غوامضه غير الـ ١١٧ دون سواه .

وأعاد الجلاد السكين إلى موضعها القديم ثم أدار اللولب ثانية فلم يبلغ إلى الرأس ووقعت في موضعها الأول

فأن بونفير انين الرياح ، واضطرب المجرمون وجعلوا يصيحون بأصوات مختلفة ، وأسرع مدير السجن وأمر باخراج بونفير إلى أن ينظروا في شأن الالة والسبب في تعطيلها ، وانما فعل ذلك رفقاً بهذا المسكين وحذراً من ثورة المجرمين .

وجعل ١١٧ يمسح عن وجهه العرق البارد وقال لميلون لقد عشت في دقيقة ماية عام وعسى أن يغفر لي الله يوماً من الأيام .

أما بونفير فانه أغمي عليه فحمله رفقائه إلى الغرفة المعدة لسجنه ورجع المجرمون إلى زنزاناتهم .

وعاد موظفو السجن إلى فحص الالة ، فوجدوا ان العمال الذين صنعوها قد عطل أحدهم مسير السكين بما وضعه في سبيلها من العوائق وقد وضعها بحذق وتدبير ، بحيث انهم باتوا مضطرين إلى صنعها مرة ثانية لتعذر إصلاحها وهذا ما كان يقصده ١١٧ من تعطيلها ، لأن ذلك كان من صنعه دون ان يشعر به أحد .

ولما خلا برفيقه ميلون ، قال له : ان بونفير بات واثقاً من انهم لا يعدمونه اليوم .

قال ميلون : ولكنهم يعدمونه غداً .

- غداً الجمعة .

- إذن يعدمونه السبت .

- إذا وجدوه في السجن فليعدموه

* * *

وذهبوا ببونفير إلى سجنه كما قدمنا ، وهو سجن خاص بالمحكوم عليهم بالاعدام يبلغ عمقه ٣٠ قدماً في جوف الأرض .

ولما صحا من اغمائه جعل يفكر في امره وهو تارة يسر بنجاته من الإعدام ثم لا يلبث ان يفتكر ان ذلك إلى حين حتى يتولاه القنوط .

وبعد ساعة جاءه الحرسي بالطعام فعاد اليه السرور وقال في نفسه : سأعيش ساعة ايضاً على الأقل وجعلت الساعة تتلو الساعة حتى خيم الظلام وعاد اليه الحرسي بالطعام ، فأكل بشهية وقال : ان الاعدام لا يجري في الليل وسأبقى

حياً إلى الصباح .

وما زال يتقلب على فراشه الخشبي وهو لا يستطيع رقاداً إلى ان انتصف الليل فسمع صوتاً متصلاً يشبه صوت المطرقة على السندان فأصغى إلى الصوت فوجد انه متصل وانه يدنو منه .

ودام ذلك نحو ساعتين والصوت يدنو منه حتى أيقن انهم يحفرون نفقـاً تحت غرفته .

وبعد حين سمع ان الصوت بلغ أرض المكان النائم فيه فنهض منذعراً وما لبث ان رأى حجراً ضخماً سقط من الأرض ، فانفتحت هوة وبرز منهـــا رأس إنسان .

- ١٨ -

وكان على هذا الرأس قبعة بحرية ، وبعد الرأس ظهر الكتفان ثم اليدان ثم صعد الرجل بجملته فوضع مصباحه على الأرض ووقف أمام بونفير .

فصاح بونفير صيحة انذهال وقال . أهذا أنت وكيف أتيت ؟

– نعم انا هو الذي يدعونه ١١٧ فإذا أردت ان تبقى حيـــاً فاسكت واتبعني دون امهال فانهم بعد اربع ساعات يأتون للبحث عنك فاذا وجدوك اعدموك لأنهم أصلحوا الالة وليس لدي وقت لتعطيلها مرة اخرى . أعلمت الان كيف نجوت ؟

أما بونفير فلم يفهم شيئاً لأن الهذيان تولاه فقـال له لا أعلم إلا انني من الأموات ، وكل ما أراه الان فهو في العالم الأخير

وعلم ١١٧ انه مصاب بالحمى والهذيان فقال له :إذا كنت قد أصبت بالجنون فذلك لسوء حظك ولكن لا بد لي من انقاذك وسأنقذك .

ثم حمله والقاه في الهوة فصاح متألماً غير ان سقوطه رد اليه صوابه فجعل ينظر إلى المكان الذي هوى فيه ، فعلم انه في نفق حفر حديثاً ، وكان المائة وسبعة عشر قد نزل إلى الهوة في أثره ورأى ما كان من فحصه فقال : أعرفت الان ؟

– نعم فانك اتيت لانقاذي .

– إني واثق من انقاذك إذا كنت تتبعني حيث أريد .

– ولكن إلى أين أنت ذاهب بي ؟

– تعال ولا تسل إنما أنظر إلى هذا النفق فإنه يقتضي لحفره خمسة أيام ، ولا تضع الوقت عبثاً .

– وكل ذلك من أجلي ؟

فلم يجبه المئة وسبعة عشر بل انه كسر له قيوده وقال له . لقد بت حراً الآن فاتبعني .

وجعل الاثنان يسيران في هذا النفق الطويل ، وكلما مشيا بضع خطوات يقف ١١٧ مصغياً ، ثم يستأنف المسير ، فيسير بونفير في أثره حتى رأيا ان طريق النفق أخذ بالارتفاع فقال له المئة وسبعة عشر : أتعلم أين نحن الان اننا تحت أسوار القلعة .

وبعد أن مشيا عشرين دقيقة اتسع النفق وهب هواء بارد فأطفأ ١١٧ المصباح والتفت إلى رفيقه وقال : أسرع بالسير فان الهواء هذه الليلة موافق للفرار وقد فتحت أبواب السماء فانهالت منها الامطار كعهد الطوفان .

وبعد بضع دقائق وقف ١١٧ وأطل بونفير رأسه من ورائه فعلم ان هذا النفق ينتهي عند شاطىء البحر وسمع صوت تكسر الأمواج .

وكان الظلام حالكاً والبحر هائجاً والسماء تمطر مطراً غزيراً فقال ١١٧ : أتعرف السباحة ؟

- كنت تعلمتها في حداثتي .

- إذن فاخلع ثيابك فان السباحة لا تنسى وخير لك أن تموت غرقاً من ان تموت بيد الجلاد ومع ذلك فسأعينك .. لا تخف .

ثم التقط حبلاً كان موضوعاً على باب النفق فربط به وسطه وأعطى طرفه لبونفير وقال له . امسك هذا الحبل ، فما زال بيدك فلا تغرق .

وامتثل بونفير والقى الاثنين نفسيهما في البحر العجاج وهما لا يعلمان كيف يسيران لشدة هياج الأمواج ، وسواد الليل ، فإن السفينة التي عزم ١١٧على الفرار بها كانت بعيدة عن الشاطىء حذراً من التطامها بالصخور وكانت جميع أنوارها مطفئة مبالغة في التكتم .

غير ان ١١٧ كان يسمع من حين إلى حين صفيراً يخرج من تلك السفينة ، فيهتدي اليها ويسير إلى الجهة التي يخرج منها الصوت .

وما زال يصادم تلك الأمواج وتصادمه حتى وصل إلى قارب صغير بعد ان كاد يشرف مع رفيقه على الغرق .

وعند ذلك انزلوا اليهما مجذافا فصعد عليه إلى الزورق ، وكان فيه ميلون رفيق ١١٧ ، وجواني الجلاد فأجفل بونفير لمنظره وتراجع منذعراً إلى الوراء .

فطيب ١١٧ خاطره وقال له : طب نفساً فانه لم يأت إلى السفينة كي يقتلك فيها بل ليهرب معك عليها .

- ١٩ -

وجعل الزورق يسير الى السفينة التي أعدها ١١٧ للفرار حتى بلغ اليها وصعد جميع من في الزورق .

وكان أول من استقبل ١١٧ فاندا الروسية وهي بملابس بحار صغير فعانقته وهي تبكي من سرورها به وتقول : لقد نجوت بحمد الله .

فقال لها ١١٧ بسكينة : بل نجونا جميعاً .

– إذن مر الربان بأن يقلع بالسفينة ، فلم يعد لنا عمل بهذا الميناء الخطر .

– هو ما تقولين ، بل يجب علينا السرعة بالخروج منها قبل الصباح وقبل أن يعلموا بأمرنا .

ثم نادي الربان واخبره كيف يجب ان يسير ونزل مع فاندا إلى غرفة كانت معدة له في السفينة وقال لها : كيف رأيت ألم أفي بوعدي ؟

فركعت أمامه وقالت : نعم ولهذا فاني سأطيعك كما يطيع العبد مولاه .

– أتعلمين أين نحن ذاهبون الان ؟

– سيان عندي فاني أتبعك أين سرت .

– إننا ذاهبون الى ايطاليا ومنها إلى باريس .

فأجفلت وقالت : إلى باريس ؟

– ذلك لا بد منه فان القدر يدفعني إلى تلك العاصمة .

فأحنت رأسها ثم نظرت اليه وقالت : أيها الرئيس إني حكيت لك قصتي أفلا تحكي لي قصتك ؟

– وأية فائدة من ذلك ؟

ثم رفع نظره إلى تلك السماء السوداء المتلبدة بالغيوم وجعل يتأملها كأنه يذكر بها ماضيه ، ثم أخذ يد فاندا بين يديه وقال : اني كنت شراً من ذلك الرجل الذي كنت تبكينه فقد كنت لصاً سفاكاً ، فارتكبت من المنكرات والموبقات ما استحق لأجله الف موت ، غير ان هذا القلب الملطخ بالمآثم والعار ، قد دخلت اليه عاطفة شريفة ، باذن الله ، فأضاءت كما يضيء النجم في خلال العواصف .

أسمعت مرة بحديث ذلك الرجل المدعو كونيسار ، ذلك الرجل الأثيم الذي دعى نفسه كونتاً وهو من شر اللصوص ، وكان يحمل على صدره اوسمة الشرف ، وفي نفسه الخزي والعار ؟ اني مثلت دور هذا الرجل ثلاثة اعوام فسرقت اسم رجل نبيل وتلقبت بأسمه ، فشغلت باريس بحديث ظرفي وبسالتي وكرم اخلاقي دهراً طويلاً ، حتى لقد اوشكت ان اكون من عظماء الاسبان

وقد احبني امرأتان طاهرتان وهما ام ذلك النبيل الذي سرقت اسمه واخته فأفضى بي الأمر إلى حبهما كأمي واختي ،أما الأولى فقد انتقلت إلى رحمة الله وأما الثانية فلا تزال عائشة في باريس واني مستعد لسفك دمي من أجلها .

فقالت فاندا : العلها علمت بعقابك ؟

— كلا . فقد وجدوا اخاها ولكنها ما رأته ، فإن الذين فضحوني وعاملوني بملء القسوة خافوا عليها من الفضيحة وعاملوها بملء الاشفاق ، فارسلوني الى السجن ، وارسلوا شقيقها الحقيقي إلى الهند مع امرأته التي كنت عازماً على الزواج بها ، وهي تعتقد الان اني في الهند .

— وهل رأيتها بعد ذلك ؟

— نعم رأيتها في سجن قاديس قبل ان ينقلوني من سجن اسبانيا الى سجن باريس فاشفقت علي اشفاقاً شديداً دون ان تعرفني لأني كنت مشوه الوجه ، وقد مضى على ذلك عشرة أعوام .

– وأنت تريد الرجوع إلى باريس لتراها ؟

– اعندك شك في ذلك ، فانني سأبالغ في التنكر كي لا تعرفني ، واقيم بجوارها فأراها كل يوم ، لاسيا بعد ان عرفت بأن اخاها غير عازم على العودة من الهند .

– ومتى عرفت ذلك ؟

– منذ ثمانية أيام ولذا رضيت بالفرار بعد أن اقمت بالسجن عشرة اعوام ، ولم يكن اسهل علي من الفرار منه ، كما رأيت لأنني علمت الان انهـا لم تعرف الحقيقة ، وان أخاها لم تره ولن تراه

وفيما هو يتكلم قدم اليه ميلون مسرعاً وقال :

– أدركنا ايها الرئيس فإن السفينة عبثت بهـا الرياح وقد غلت ايدي البحارة وهلعت قلوبهم من الخوف .

فابتسم ١١٧ وقال : لا تيأسوا فسأنقذكم باذن الله .

ثم صعد الى ظهر السفينة فأخذ الدفة من ربانها وجعل يصدر أوامره إلى البحارة ، فسارت السفينة مطمئنة وبعد ساعة سكنت الزوبعة ، وهـدأت الرياح وسكنت الأمواج .

وعند ذلك سمعوا من طولون دوي اربعة مدافع فقال المائة وسبعة عشر : ان كل مدفع يشير إلى فرار واحد منا ، ولكنهم تنبهوا بعد فوات الاوان ، لقد آمنا كل خطر .

وكان الصباح قد بزغت انواره وملأت الشمس الفضاء فتراقصت اشعتهـا على المياه ، واجتمع حول المئة وسبعة عشر أعوانـه الذين فروا معـه وكلهم معجب برئيسه منذهل مما رآه من افعاله العجيبة .

وقال له ميلون : من انت ايها الرجل الذي يوقف القضاء ، ويمنـع سيف الجلاد أن يبلغ إلى الرقاب ؟

وقالت له فاندا ، من انت ايها الساحر الذي تخترق عيناه أعماق القلوب ؟

وقال بونفير : من انت ايها الرجل العظيم وماذا صنعت لك حتى انقذتني من الاعدام ؟

وقال له الجلاد : وأنا ايها الرئيس الذي تدانى إلى مصافحتي أتأذن لي ان اسألك من انت ؟

فابتسم ١١٧ وقال : إذا كان لا بد لكم من معرفة اسمي فـاعلموا انني روكامبول .

فبهت الجميع واطرقوا برؤوسهم إطراق الخضوع وظلت السفينة سائرة الى ايطاليا .

(انتهت المقدمة)

أنطوانيت

- ١ -

في الساعة الرابعة بعد منتصف ليلة من ليالي نوفمبر كان رجلان يسيران في شارع سيركس وقد خلا ذلك الشارع من المارة والمركبات فلم يكن يسمع فيه غير صوت الرياح الباردة .

وكان هذان الرجلان مترملين وشاحيهما ، وأيديهما في جيوبهما . فجعلا يسيران في ذلك الشارع حتى انتهيا الى منزل فيه نمرة ١٩ ، فوقف أحدهما وقال لرفيقه :

- سوف ترى أيها الصديق انك لا تجد بين الفتيات الجميلات اللواتي رأيتهن الليلة في منزل إبنة عمي المركيزة من تقارب هذه الحسناء بجمالها

- إني أراك قد جننت يا أجينور .

- لماذا ؟

- لأني أحسب العشق والجنون اسمان مترادفان فمن كان عاشقاً كان مجنوناً وبعد فكم لك الآن من العمر .

- ستة وعشرون عاماً كما تعلم .

— إن بلوغك هذا السن على تماديك في الغرام يؤيد قولي . لأن من بلغ مـا بلغناه من الثروة تتوطد لديه أسباب اللهو فلا يشغل نفسه بمثل هذا الغرام ومتاعبه ، ألعلك تعدم بين صبيحات الوجوه حسناء تنظر اليك بعين العطف وفتانة تتمنى رضاك ؟

— وبعد ذلك ؟

— وبعد ذلك فلا أعلم ما يدفعك الى مكابدة هذه المشاق وانت بغنى عنها بفضل مالك الكثير .

— حسناً ، إصبر وسترى أينا المخطيء وأينا المصيب .

وكان هذا المنزل الذي وقفا أمامه له نافذة تطل على الشارع وفي هذهالنافذة مصباح يضيء فيدل على ان الذي أناره إنما يشتغل على نوره إذ ليس من يسهر في هذا الشارع الى تلك الساعة المتأخرة من الليل .

فأخذ الشاب بيد صديقه ودله علىالنافذة المنبعث منها النور وقال له: انظر الى هذا الوجه المشرق ولعلك تعذرني بعد النظر اليه .

فنظر رفيقه بامعان الى وجه تلك الفتاة التي كانت مكبة على شغلها وبعد ان تفرس بها ملياً قال له الحق انها من أجمل النساء .

— أليس كذلك ؟

— ولكن ماذا تريد ان تصنع بها ؟

— إنها عندما تحبني ولا بد لها من ذلك لأن من كان مثلي لا تكرهه النساء فسأجعلها فتنة باريس وسلطانة النساء

— أراك تحتم انها تحبك .

— ذلك لأني علمت عنها ما جعلني أحتم هذا الحتم .

— لنرى ماذا علمت ، ولكن قل لي قبل ذلكماذا تشتغل تلك الفتاة لأني أرى أمامها كتباً وأوراقاً .

— إنها تترجم الروايات عن اللغة الانكليزية لأحد الطباعين فينقدها فرنكاً

عن كل صفحة ويبيعها بعشرة للجرائد .

– إذاً فهي أديبة ؟

– نعم فقد كانت معلمة في مدرسة ، غير ان ناظرة المدرسة مرضت فانقطع الطلبة عنها وباتت الفتاة المسكينة تشتغل هذا الشغل الشاق كي تقيت نفسها وتعالج تلك الناظرة لسابق فضلها عليها .

– يظهر انها يتيمة ؟

– لا أعلم حقيقة أمرها غير اني أرسلت خادم غرفتي منذ يومين وعهدت اليه استطلاع أمرها فرشا بواب منزلها وعلم منه أنها في أشد متاعب الفقر ، وانها تقاسي الآن عناء شديد لأن ما تكسبه من الترجمة لا يكفي لنفقاتها ولمعالجة صديقتها الناظرة وقد استحقت اجرة منزلها وهي عاجزة عن دفعها وليس في قلب صاحب المنزل أثر للرحمة ، فاذا تقدمت لنجدتها وإنقاذها من شقائها قبلتني خير قبول .

– لقد كنت أحسبك من قبل أبله نزقاً ، فكنت أعذرك بعض العذر . أما الآن فإنني أراك تسير في خطة لا تخلق بالأشراف ، وإذا كنت تريد أن تستخدم لأغراضك الفاسدة شقاء هذه الصبية التي تشتغل في الليل والنهار للقيام بأشرف الواجبات فإني ألومك أشد اللوم ولا أوافقك على هذا السير المذموم ، وإني لا أنكر عليك تزلفك إلى الحسان بشرط أن يندفعن مع تيار حبك من تلقاء أنفسهن ، وأما أن تستغوي النساء وتغتنم فرصة شقاء مثل هذه الصبية الشريفة فهو ليس من الأمور التي يقدم عليها النبلاء ، بل ان ذلك عار شائن تلطخ به جبهة الانسانية وكل شريف على الأرض .

– لقد قلت ذلك القول ايها الصديق في بدء أمري ، ولكني قلت في نفسي أيضاً ان هذه الفتاة بارعة في جمالها ، فاذا لم أدفع عنها ذاك الشقاء دفعه سواي من المعجبين بجمالها فتكون النتيجة واحدة في الحالين ، ثم اني اذا أصحبت

هذه الفتاة فلا أتخلى عنها كما يفعل سواي بل أضمن لها هناءها في مستقبل أيامها وفوق كل ذلك فإنني أجد دافعاً عظيماً يدفعني اليها وهو دافع الغرام لأنني شغفت بها شغفاً لا حد له حتى إنني لا أجد صبراً عنها ولا أجد بداً من الوصول اليها في كل حال .

– أتقبل مني نصيحة ايها الصديق ؟

– قل وسوف نرى .

– إنك بالغ سن الرشد من عدة سنين اي إنك حر التصرف في أمورك الخاصة كما تريد .

– ذاك لا ريب فيه .

– إن الفتاة مهذبة اديبة ، وهي من أفضل النساء وأطهرهن قلباً إذا صح ما رويته لي من أمورها فاذا كان كما تقول فما يمنعك عن الزواج بها ؟

فضحك اجينور ضحكاً عالياً وقال: لا شك انك فقدت صوابك ولو كان لك ذرة من العقل لما خطر لك ذاك الخاطر .

– قل ما تشاء واما انا فإنني لو كنت مكانك لتزوجتهـا وفي كل حال فانني اعد عملك جريمة لا أشاركك فيه لذلك أدعك وشأنك وأذهب الى منزلي لأنام بريئاً من تلك الوصمة .

ثم تركه وانصرف وبقي اجينور وحده أمام منزل الفتاة الى ان بزغ نور الصباح فاطفأت تلك الفتاة الفاضلة مصباحها .

– ٢ –

وحكاية تلك الفتاة ان بواب المـــنزل وجيرانها لم يكونوا يعرفونها إلا باسم انطوانيت وانها تقيم مع امرأة كهلة تدعى مدام رينود. ولكنهم كانوا يحترمونها

احتراماً شديداً لما يرونه من حسن اجتهادها ، فانها كانت تشتغل الى ما بعد منتصف الليل بترجمة الروايات الانكليزية ، وتشتغل في النهار بالتدريس. غير ان جميع ما كانت تكسبه من أشغالها لم يكن يكفي لنفقاتها لا سيما بعد مرض مدام رينود ، لأن معظم إيرادهـا كان ينفق على الأدوية وأجرة الأطباء ، حتى ان تلك العجوز كانت تتمنى لنفسها الموت إشفاقاً على الفتاة فاذا سمعتها انطوانيت تقول مثل ذاك القول تعانقها باكية وتقول: اذا مت فعلى من تتركيني بعدك يا أماه ؟

فتبكي اثنتاهما وتعود الفتاة الى العمل والعجوز الى التألم والقنوط

وأصل اتصال أنطوانيت بمدام رينود انه منذ عشرة أعوام أرسلت اليها إحدى السيدات فتاتين وهما انطوانيت واختها مدلين وعهـد اليها بتربيتهما مقابل راتب كان يدفع لها بسخاء في السنة الأولى ، وفي العام التالي انقطع الراتب وانقطعت زيارة تلك السيدة . فجعلت مدام رينود تنفق عليهما من مالها وقد تبنتهما الى ان اصيبت بمرض عضال فانقطعت موارد رزقها .

وكانت الابنتان توأمين ، وقد بلغت كل منهما الثامنة عشرة من عمرهما فجعلتا تشتغـلان بالترجمة والتدريس مكافأة لتلك المريضـة التي كانت لهما بمثابة أم .

وقد اتفق منذ عام ان مدلين إحـدى الأختين لقيتها سيدة من أغنيـاء الروسيين في باريس فاتفقت معها على ان تصحبها الى روسيـا مرشدة لأولادها ورفيقة لها فسافرت الفتاة وبقيت اختها انطوانيت مع مدام رينود في باريس ، فكانت تلاقي أعظم المشاق في سبيل القيام باودها .

وفي تلك الليلة التي شاهدها اجينور وهي تشتغل في الساعة الرابعة بعـد منتصف الليل كانت تكتب لأختها الرسالة التي تدل على لمعة من حكايتها وحقيقة شقائها وهي :

« يا اختي العزيزة

« لم اكن اريد ان احزنك ولكن الداء اصبح لا دواء له فلم اجد بداً من كشف حقيقة امري لك فان مـدام رينود اوشكت ان تموت وقد ذهب بصرها وعقلها كما ذهبت جميع الأموال التي اقتصدتها في سبيل علاجها لأني كرهت ان اعالجها مجاناً في المستشفيات كي لا اكدرها في شيء .

« ومما زاد في نفقاتي اني اضطررت ان انقطع عن الشغل شهراً للاعتناء بها بحيث أصبحت الآن مدينة لصاحب المنزل باربعمائة فرنك لا ادري كيف احصل عليها فان صاحب المنزل مسافراً الآن ولولا رأفة البواب بي وإمهاله اياي لكنت من الهالكين فان البواب الصالح قال لي اني امهلك ما زال صاحب المنزل مسافراً ولكن هذا الرجل العاتي سيحضر غداً واأسفاه ولا اعلم كيف ادفع له ويلاه ان العرق البارد ينصب من جبيني حين افتكر انه سيحجز على اثاث المنزل فما اشد شقاء العائلات الشريفة .

« على ان قلبي يحدثني باني سألقى مخرجاً من هذا الضيق .

« ومما يزيد في شقائنا اننا الى الساعة لا نعرف اسم عائلتنا ، فأمنا لم نرها منذ حداثتنا . ولا ازال ابحث في جميع انحاء باريس عن ميلون ذلك الخادم الأمين دون الوقوف له على اثر .

« لا تقنطي ايتها الحبيبة لأني سأشتغل الليل والنهار كي لا يصبح لصاحب المنزل علي حق واكتبي لي عن حالك اما انا فسأكتب لك ايضاً غداً او بعد غد لأخبرك بما يصير » .

وعندما وصلت بكتابها الى هذا الحد دخل اليها بواب المنزل وعلى وجهه ملامح الاكتئاب ففهمت سبب حزنه وقالت له : ألعل صاحب المنزل قد عاد من رحلته ؟

فقال : نعم يا سيدتي ، وقد اوشك ان يطردني حين علم انك لم تدفعي اجرة المنزل بعد وهو سيحجز بعد ظهر اليوم على الاثاث .

فاجفلت الصبية وقالت وبلاه ألا يمهلني إلى آخر الشهر فاقبض اجرتي من الذين اعلمهم في منازلهم فانه ليس لدي الآن غير مائة فرنك قبضتها من تاجر الترجمات واجرة المنزل اربعمائة فرنك .

أدمعت عينا البواب حنواً وقال : ان هذا الرجل يا سيدتي لا يعرف الرحمة ولكن لدى امرأتي مائة فرنك تقرضك اياها فاذا ذهبت بالمائتين إلى صاحب المنزل ودفعتها له واستمهلتيه إلى آخر الشهر فقد يجيب سؤالك واذا أبى فان الأثاث لا يباع إلا بعد ثمانية أيام من إلقاء الحجز وقد يتيسر لنا الحصول على بقية مطلوبه في هذه المدة .

فكبر ذلك على انطوانيت غير انها لم تجد بدأ من الامتثال فأخذت من البواب المائة فرنك وذهبت إلى صاحب المنزل وهي تسير سير الخائفة الخجلة .

ولم تكد تسير بضع خطوات حتى رأت شاباً يقفو أثرها فأسرعت خطاها فاقتدى بها ولكنها سبقته ووصلت إلى المنزل دون ان يدركها فدخلت اليه وهي تفتكر بهذا الشاب وتعجب من لحاقه بها واقتفائه أثرها على فرط ما كان يبدو منه من مظاهر الحشمة .

- ٣ -

وكان لها مع صاحب المنزل حديث طويل توسلت اليه في خلاله ان يقبل منها نصف الأجرة ويمهلها بدفع الباقي ثلاثة ايام غير ان قلبه الصخري لم يلن لتوسلها فخرجت من عنده واليأس ملء قلبها وقد مسحت دموعها مرتين قبل أن تخرج من الباب إلى الشارع العام .

غير انها لم تلبث أن سارت حتى رأت ذلك الشاب الذي رأته عند قدومها وقد اعترضها في سبيلها فرفع قبعته بملء الاحترام وقال : اني ادعى يا سيدتي الفيكونت اجينور دي موروليكس وانما بدأت بذكر اسمي كي يزال ما رأيته

من اضطرابك لتعرضي لك في الطريق فان النبلاء لا يقدمون على ما اقدمت عليه إلا لقصد شريف .

فسكن جأشها بعض السكون ولا سيا وقد رأت من لهجة احترامه ما دلها على صدق مدعاه في قصده ، ثم نظرت اليه برهة وقالت له : ما عسى تريد مني يا سيدي وأنا لا أعرفك قبل الآن ؟

– هو ما تقولين يا سيدتي ولكنني إذا لم أتشرف بمعرفتك فقد عرفت أمك .

- أحقيقة انك عرفت امي ؟

– نعم يا سيدتي بل أعرف جميع حكايتك وما تعرضت للقائك إلا لقضاء واجب مقدس .

– واجب مقدس ؟

– نعم يا سيدتي فلقد قلت لك انيادعىالفيكونت اجينور دي موروليكس وأنا بريتوني المولد غير اني نشأت في باريس مع قريبة لي تدعى المدموازل دي بورفورت .

– اني اعرفها فقد كنت اتلقى الدروس معها في مدرسة مدام رينود وقد خرجت من المدرسة سنة ١٨٥٠ .

– هو ما تقولين يا سيدتي وانا ارجو ان لا تنكري على تعرضي لك في الطريق لأني دفعت مكرهاً إلى ذلك .

– قل يا سيدي ما تريد ان تقول .

– ان قريبتي التي كانت رفيقة لك في المدرسة قد تزوجت وهي الان وافرة الثروة وقد عهدت إلي ان أبحث لها عن مدام رينود فان قريبتي هذه عندما كانت في المدرسة كانت يتيمة ليس لها من ينفق عليها غير عمة فقيرة فلما خرجت من المدرسة كانت مدينة لمدام رينود بألف فرنك .

فاضطرب فؤاد انطوانيت وشعرت ان الله فتح لها باب الفرج بعد الضيق .

فقال اجينور : وقد بحثت كثيراً يا سيدتي عن مدام رينود فلم اجدها غير

انه وردني أمس كتاب من قريبتي ارشدتني فيه إلى محلها واخبرتني ان هذه السيدة في أشد حالة من الضيق فأسرعت اليوم إلى منزلها ولكني علمت من امرأة البواب ان هذه السيدة في حالة النزع ، وعلمت اتصالك بها فكرهت أن ازورها على هذه الحالة وجعلت انتظر خروجك من المنزل كي ادفع لك المال فلما رأيتك خرجت ، رأيت على وجهك ملامح الحزن الشديد فما تجاسرت على اعتراضك وما زلت اقتفي أثرك حتى دخلت الى هذا المنزل فلما خرجت منه لقيتك وجهاً لوجه .

وكان اجينور يتكلم بلهجة صادقة فخيل للفتاة ان الله ارسل لها مساعداً من السماء فحكت له وهما يسيران الى منزل مدام رينود ما تكابده هذه المرأة من ضروب الشقاء وكيف انها تشتغل اناء الليل وأطراف النهار لتخفيف شقائها، ثم رأت دمعة سقطت من عين اجينور فما شككت بسلامة قلبه وحكت له جميع حكايتها حتى أخبرته بعدها ان المال الذي ستقبضه منه سيفرج عنها كل ضيق .

ولما وصل الاثنان إلى المنزل ودعها اجينور معتذراً واعطاها ورقة مالية بألف فرنك فأخذتها شاكرة وصعدت الى مدام رينود وهي تكاد تطير سروراً فقالت لها : أتذكرين يا أماه مدموازيل دي بوفرت التي كنت أدرس واياها في مدرستك ؟

فقالت مدام رينود : مسكينة هذه الفتاة فاني لا أزال اذكرها إلى الآن.
فقالت انطوانيت : ولماذا ترثين لها العلها كانت فقيرة ؟

— كلا بل انها كانت غنية .

وقالت في نفسها : ولعل هذه الفتاة علمت بشقاء مدام رينود فلفقت لقريبها هذه الحكاية ، ولكن الاضطراب عاودها فقالت لمدام رينود : لماذا قلت يا اماه مسكينة هذه الفتاة .

– لأنها ماتت في الليلة الثانية لزواجها في التاسعة عشر من عمرها.

وادركت الفتاة عند ذلك حيلة اجينور وصاحت صيحة يأس وسقطت مغمياً عليها .

– ٤ –

ولنعد الان الى ١١٧ ، اي الى روكامبول ، بطل هذه الرواية فنقول انه برح مياه طولون على تلك السفينة باصحابه وفاندا الروسية ، وذهب إلى البلاد الايطالية ، واقام متنكراً فيها مع رفاقه ستة اشهر ، ثم ذهب الى باريس بتلك العصابة وقد تنكر باسم الماجور افاتار الروسي ، فاتخذ منزلاً في شارع معتزل ، تكتنفه حديقة فيحاء ، وكانت فاندا امرأته في عيون مجاوريه .

وبعد ان القى عصا التيسار في باريس تحصل بدهائه المعروف وبمساعدة فاندا على اوراق تثبت انه نفس الماجور افاتار ، ودخل عضواً في ذلك النادي القديم ، الذي كان احد اعضائه منذ عشرة اعوام ايام كان معروفاً في باريس باسم المركيز دى شمري .

وقد عاد في ليلة من ذلك النادي الى منزله ، فقالت له فاندا : أقبلوك في النادي ؟

– نعم ، وقد عرفت فيه جميع أصحابي القدماء دون ان يعرفني أحد ، وتعرفت بهم من جديد باسم الماجور افاتار .

وسرت فاندا بنجاحه وقالت له : إن ميلون قد عاد من سفره وهو ينتظرك منذ ساعة بفارغ الصبر .

– سأراه ولكننا لا نستطيع ان نبحث في هذه الليلة عن الصندوق المخبوء.

وكان ميلون قد تنكر أيضاً باسم غريب ، وحصل على اوراق تثبت اسمه

الجديد بفضل روكامبول الذي فعل مثل هذا الفعل مع جميع رجال عصابته وغير هيئآتهم حذراً من مطاردة الشرطة لهم . ولما دخل لمقابلة ميلون الذي كان ينتظره قبل يده باحترام ووقف أمامه وقوف التـــابـع للمتبوع . فأمره روكامبول بالجلوس وقال له : لنتحدث الآن . أبقي معك شيء من النقود ؟

فأجاب ميلون : كلا فقــد أصبحت صفر اليدين ، ولكني أعلم أين يوجد الصندوق .

– أتظن اننا نهتدي الى مكانه بسهولة ؟

– نعم ، فقد قلت لك اني خبأته بيدي وإني أعرف مكانه .

– وأين خبأته ؟

– في قبو المنزل الذي كانت تقيم فيه والدة انطوانيت ومدلين فانتزعت حجراً من جدران القبو ووضعت الصندوق ثم أرجعت الحجر الى ما كان عليه بحيث لا يهتدي احد سواي إلى مكانه .

– ولكن باريس قد تغيرت منذ عشرة أعوام فقد يتفق انهم هدموا المنزل او أصلحوه واهتدوا إلى كنزك المخبوء .

– لا تخش يا سيدي فقد مررت بذلك المنزل وهو لا يزال على ما كان عليه من عشرة اعوام .

فتنهد روكامبول تنهد المنفرج وقال سوف ننظر في أمره غداً والآن إصغ إلي الملك مشفق على أحوال الاختين ؟

– لماذا تسألني هذا السؤال ؟

– لأني لا أريد ان ارجع لهاتين اليتيمتين ذلك الصندوق فقط بل احب أن أرجع لهما ثروة أمهما بجملتها التي اختلسها أخواها .

فاغرورقت عينا ميلون بالدموع وقال أتفعل ذلك أيضاً يا سيدي ؟

– نعم ، وسأجعل هاتين الابنتين من أسعد النساء .

ففرح ميلون فرحاً لا يوصف وغسل يد روكامبــول بدموعه وهو يقول : ليبارك الله مساعيك يا سيدي فقد أحييت آمالي .

- ٥ -

لقد تركنا انطوانيت مغمياً عليها عندما علمت ان اجينور موررليكس كانت حكايته كاذبة وان المال الذي دفعه لها لم يكن من قريبته لمدام رينود ، بل كان منه لها .

فلما صحت من إغمائها كتمت أمرها أشد الكتمان وقــالت في نفسها : إني سأدفع نصف تلك القيمة لصاحب المنزل وأشتغل ليلي ونهاري ومتى تكامل عندي ماله أرجعته له وصرفته عني متلطفة اذ قد يكون علم ضيقي اتفاقاً ودفعته عواطف الرحمة الى ما فعل .

وكانت تتراوح بين استهجان فعله واستحسانه فتنفر منه تارة وتميل اليه طوراً ولكنها أقرب إلى الميل لانطباع قلبها على السلامة فقد رأت من مظاهر احتشامه ما دفعها الى الظن خيراً به وكان عزائها انها ستجد وتشتغل وتفيه المال ولا تعود مدينة له بغير الجميل .

ومضى على تلك الحادثــة عدة أيام وهي لا تراه ، ولكن خياله لم يكن يبرح عن بالها . وكانت لا تزال كاتمة أمرها الى ان أعياها الكتمان ونحل جسمها ، فكاشفت بما اتفق لها امرأة البواب وهي ترجو ان تجد بها معزية لها في مصابها .

غير ان امرأة البواب أظهرت من السرور لتلك الحادثة ما أدهش الفتاة ، وذلك انها أملت لها كل خير من هذا الاتفاق وقالت لها إن الشاب شريف واسع الثروة ولا بد ان يكون أحبك لأدبك وجمالك فاذا كان ذلك فهو سيتزوج

بك لا محالة .

فهزت انطوانيت رأسها اشارة إلى الاستغراب وقالت لها : أيمكن ان يتزوج هذا الغني فقيرة مثلي . ومتى كان الأغنياء يتزوجون الفقيرات ؟

– متى الف الحب بين قلبيهما لأني عندما تزوجت كنت غنية إذ كان لي خمارة لحسابي الخاص فأحببت زوجي وهو ليس له غير يديه وأسنانه يستعملها للأكل فما أنفت من فقره وتزوجته .

ثم احترقت الخمارة فاحترفت معه هذه الحرفة ودخلنا بوابين في هذا المنزل وان قلبي يحدثني بأن هذا الرجل سيكون زوجك .

وفيما هما على ذلك إذ دخل البواب وأعطى انطوانيت كتابين رأت على احداهما طوابع روسية فعلمت انه من اختها مدلين ، ورأت على الآخر تاج الكونتية ، فعلمت انه من اجينور دي موروليكس ، فاضطربت الفتاة اضطراباً شديداً .

وعند ذلك خرج البواب وامرأته فألقت كتاب اختها على المنضدة فبدأت بفتح الكتاب الآخر واسرعت بنظرها الى التوقيع وقرأت اسم الفيكونت .

وجعلت تقرأ كتابه الطويل وهو يتضمن أشرف عبارات الحب واجمل الوعود والأماني الطاهرة وقد ذكر لها في ختامه ان حكاية قريبته كانت من مخترعاته وإنما فعل ذلك كي يحملها على قبول المال الذي أعطاها إياه على سبيل الاعانة لأنه وقف على مجمل حالتها بالتدقيق ثم ختمه معتذراً عن تلك الحيلة التي لم يدفعه اليها غير محض الاخلاص .

ولما فرغت انطوانيت من تلاوة الكتاب احمرت وجنتاها وجعل قلبها يخفق خفوقاً شديداً فانها ما رأت اجينور دي موروليكس غير مرة واحدة ولكنها حنت اليه لما رأته من لطفه واحتشامه .

ثم ان لهجة كتابه كانت متلبسة بلباس من مظاهر صدق تجوز على من الف خوض معارك الحياة فهي تجوز بالطبع على تلك الفتاة العذراء فوضعت رأسها بين

يديها وقالت في نفسها : ما يمنع أن يكون هذا الشاب شريفاً وان يكون صادقاً في أقواله ؟

وعادت إلى الكتابة فقرأته مرة ثانية وكلما أمعنت في تلاوته اندفعت في مجال الهواجس والتفكير .

وفيما هي على ذلك نظرت كتاب اختهـا وقالت : تباً لي من ناكرة لحب الأخاء فقد شغلت بكتاب هذا الرجل عن كتاب أحب الناس عندي .

ثم أخذت كتاب أختها وما لبثت ان فضت غلافه حتى سقط منـه على الطاولة ورقة مالية قيمتها الف فرنك ، فـدهشت دهشاً عظيماً وقـالت : هوذا سر جديد فإن أختي لم تر هذا المبلغ الضخم في حياتها فكيف يتفق انها ترسله اليّ .

وقد انقبض صدرها بدلاً من السرور كأنها أوجست شراً وأسرعت إلى قراءة كتاب أختها وخلاصته ، ان تلك الأسرة الروسية التي كانت بينهـا اطلقت سراحها بعد أن كافأتها بعشرين الف فرنك تعويضاً لها ، وإنما عجلت بابعادها لأن ابن ذلك الكونت الروسي الذي كانت في منزله هام بها وهامت به ، ولما علم أبوه بغرامها عزم على إرحال ابنه إلى بطرسبرج كي يتزوج فيهـا بقريبة له من ذوات الثروة الطائلة ، وأرجعها إلى بلادها لأنه رأى ان ابنه قد تمادى في حبها وعاهدها على الزواج .

ومما قالته في كتابها انها ستبرح موسكو بعد يوم من ارسال كتابهـا إلى الحدود البولونية وهناك يستقبلها وكيل الكونت الروسي فيوصلها إلى بلادهـا وانها أرسلت اليها الف فرنك لأنها علمت بحالتها .

وكان الكتاب بجملته يدل على الحزن الشديد لشدة ولوعها بالفتى الروسي

وحزنت انطوانيت لحال اختها ولكنها قالت في نفسها : ان الفيكونت الروسي لا بد ان يكون أراد خداع اختي بوعوده لها بالزواج ، كما يحـاول الفيكونت الفرنسي أن يخدعني ، ومن كان مثل هؤلاء الأغنياء فكيف يخطر

له الزواج بأمثالنا ، على اني أحمد الله لورود المدد الي من أختي فقد أنقذتني من أحرج المواقف ؟

ثم أخذت قلماً وكتبت إلى أجينور دي موريليكس رد كتابه وأظهرت له شدة ما بينهما من تباين المقام ، وانه من الأسرات الشريفة في حين انها لا تعرف لها اسماً غير أنطوانيت وشكرته لمساعدته إياها ثم وضعت الورقة المالية التي أرسلتها اليها أختها في طي الكتاب

وبعد أن ختمته نادت امرأة البواب وقالت لها : أيستطيع زوجك أن يرسل لي هذا الكتاب إلى شارع سيرسنس .

– لمن ألعله لذلك الشاب الجميل الذي كلمك في الطريق ؟

– نعم ولكن كيف عرفت انه جميل ؟

– ذلك لأني رأيته ، فقد جاء الينا وعلمت منه انه مجنون بهواك وانه سيتزوج بك لا محالة .

– لقد اخطأت إذ كان يجب ان تخبريني بذلك ولكني في كل حال لا أستطيع الزواج بهذا البارون .

– لماذا ؟

– لسببين أولهما انه ليس لي مهر .

– وما حاجته بمهرك وهو من الأغنياء ؟

– والثاني انه ليس لي اسم حتى اني لا أعلم اسم أمي ، ولا بد ان تكون ماتت فإننا لم نرها منذ عهد الحداثة. فاذهبي وادعي لي زوجك .

ولم يسع امرأة البواب غير الامتثال ، فذهبت وعادت بزوجها وكتبت على الغلاف عنوان البارون اجينور دي موريليكس وأعطته إياه فانصرف به دون أن يسألها سؤالاً واحداً .

غير ان امرأته كانت أشد منه جرأة فانها افتتحت الحديث مع انطوانيت وقالت لها : أواثقة يا سيدتي من ان امك قد ماتت ؟

– إن آخر مرة رأيتها فيها انا وأختي كان عمر الواحدة منا ثمانية أعوام، وكانت تقبلنا بحنو شديد كأنها كانت تعلم انها تنظرنا النظرة الأخيرة وغاية ما نعلمه انها وضعتنا في عهد الطفولية عند مدام رينود دون ان نعرف السبب .

– ألم تعرفي اسمها ؟

– كلا فإننا كنا ندعوها بأسماء الأمومة وكان الخدم ينادونها سيدتي البارونة وهذا كل ما أذكره .

– اتذكرين المنزل الذي كنتم تقيمون فيه ؟

– انه كان منزلاً كبيراً تكتنفه حديقة واسعة .

وجعلت امرأة البواب تفكر كأنها تذكرت امراً ثم قالت لها : لا بد انه كان عندكم كثيراً من الخدم .

– كلا ، بل كانوا ثلاثة فقط ، وهم امرأتان ورجل وقد نسيت اسم المرأتين اما الرجل فلم انس اسمه لأنه كان يحبني حباً شديداً ويدعى ميلون .

ولم تكد انطوانيت تلفظ الاسم حتى اضطربت امرأة البواب وقالت : تقولين انه كان يدعى ميلون ؟

– نعم .

– أهو ضخم الجثة يتكلم بلهجة القرويين ؟

فاضطربت انطوانيت وقالت : هذه هي أوصافه الملك تعرفينه ؟

– كيف لا أعرفه وهو ابن عمي ؟

– ميلون ابن عمك؟

– نعم يا سيدتي كما انك انت ابنة بارونة .

– ماذا تقولين وكيف تعرفين ذلك ؟

– لأني ذهبت مرة لزيارة ابن عمي ميلون في منزلكم وكنت انت طفلة أما أمك فهي المانية وهي تدعى البارونة ميلر .

– رباه ماذا اسمع هو الحق ما تقولين فقد ذكرت الآن ان احد الزائرين

دعاها أمامي بهذا الاسم، ثم أطرقت برأسها وقالت انها ماتت اليس كذلك؟

– نعم واأسفاه .

فسقطت دمعة من عين انطوانيت وساد السكوت بينهما .

وبعد هنيهة سألتها انطوانيت قائلة : ماذا حدث بثروة امي ؟

– لا أعلم وليس من يعلم أمرها غير ميلون .

– وماذا جرى لميلون العله مات ايضاً ؟

– كلا ، ولكنه اصيب بما هو اشر من الموت فانه في سجن طولون منذ عشرة أعوام .

– اية جناية ارتكبها فاستحق هذا العقاب ؟

– انه سرق مجوهرات امك يا سيدتي .

فتراجعت أنطوانيت منذعرة وقالت : كلا ان ميلون بريء .

– واأسفاه يا سيدتي فاني كنت أعتقد من قبل ما تعتقدين الآن ، ولكن السرقة ثابتة .

– مهما يكن من ثبوتها فاني اقسم أغلظ الايمان ان الرجل بريء وان هناك يداً شريرة دفعته إلى هوة السجون ، ولقد كنت من قبل لا إسم لي ولا عائلة أما وقد عرفت عائلتي فسأذهب مع اختي إلى القضاء ونضمن لهم براءة هذا المسكين فانه كان لنا خيراً من أب .

وعند ذلك دخل البواب يحمل إلى انطوانيت جواب الكتاب الذي أرسلته إلى البارون دي موريكس ففضته انطوانيت بلهف وقرأت فيه عبارة استدلت منها ان هذا الفتى قد تدله بغرامها وقنط منها ، وعول على أن يهجر أوطانه بغية نسيانها وأن يهيم على وجهه .

وأثر فيها الكتاب تأثيراً شديداً وقالت : لقد أحسنت فيما كتبت قبل الآن فقد بتنا اكفاء بعد ان عرفت اني من أسرة ولا بد لنا صديق يعيننا على انقاذ ميلون من سجنه .

ثم أخذت ورقة وكتبت إلى اجينور ما يأتي :

« سيدي البارون ..

« كنت منذ ساعة فتاة فقيرة لا أهل لها ولا صديق فكتبت اليك مـــا أملته علي الواجبات ، أما الان فقد تبدلت حالي وكشف النقاب عن أسرار حياتي فاذا شئت أن تكون لي صديقاً مخلصاً فلا تسافر وتفضل بزيارة مـدام رينود الليلة » .

وبعد أن وقعت على الرسالة وختمتها اعطتها للبواب وقـالت له : أسرع بايصالها إلى البارون .

* * *

ولنعد الآن الى روكامبول فلقد تركناه مع ميلون وقد اتفقا على ان يبحثا عن الصندوق في الغد ثم ذهبا الى المنزل الذي كان يقيم فيه ميلون فلم تطل إقامتهما فيه حتى وافاهما نويل الحداد فسر روكامبول لقدومه وقال : أقضيت ما أمرتك به وذهبت الى شارع سيرسنس ؟

– نعم يا سيدي فرأيت المنزل الذي وصفته لي باقياً على حاله .

– ألم تتمكن من رؤيتها ؟

– كلا ولكني رأيت طفلها .

فارتعش روكامبول وقال : أرزقت غلاماً ؟

– نعم يا سيدي وهو من أجمل ما تراه العيون يشبه أباه شبهاً غريباً وقـد رأيته يلعب في الحديقة .

فمسح روكامبول دمعة سقطت من عينه ثم غير الحديث فقال له : هلم بنـا الآن الى المنزل الذي تقيم فيه لأني أحب ان أغير تنكري .

– إني أسكن في غرفة مرتفعة في الدور السادس ولكن صندوق ملابسك موجود فيها .

– إذن هلم بنا .

وسار الثلاثة حتى بلغوا الى تلك الغرفة ، فقال روكامبول لنويـل : من يجاورك في غرفتك ؟

– لا يجاورني فيها غير المجنون .

– اي مجنون تعني ؟

– هو طبيب يلقبه أهل هذا المنزل بالمجنـون على طول باعه بالمعلوم ، وشدة تضلعه في صناعته وذلك لأنه يتكلم مع نفسه طول الليل حتى انه لا يكاد ينام .

– العله فقير ليس له زبائن ؟

– إنه على عكس ما تقول. فلقد أخبرتني صاحبة المنزل انه من اشهر الأطباء وانه ينفق جميع دخله في سبيل الخير ولكنه يناجي نفسه طول الليل كما تقول تلك المرأة اما انا فاني ما سمعته يتكلم .

– لقد شغل هذا الطبيب بالي وهاج بي عاطفة الفضول ولا بد لي من كشف سره فأين غرفته ؟

– هي هذه المتصل جدارها بجدار غرفتي .

فنظر روكامبول الى الجدار فرأى به عدة ثقوب في اعلاه لتقادم عهده ولانه كان من الخشب الرقيق فوضع منضدة واراد الصعود عليها فقال له نويل لقد فاتني ان اقول لك يا سيدي ان هذا الطبيب يقيم في الغرفة نفسها منذ عهد بعيد اي منذ كان تلميذاً .

– كم عمره ؟

– لم يتجاوز الأربعين ولكن ثنايا وجهه وشعوره البيضاء تدل على انه قد تجاوز الستين .

وبينما هما يتحادثان إذ سمعا من غرفة الطبيب تنهداً عميقاً يشبه الأنين ثم سمعوه يقول : اف لليالي الشتاء ما اشد طولها ، فمتى تطلع الشمس وتطرد عني

هذا الخيال ؟

فدنا روكامبول من اذن نويل وقال له: اخرج انت الآن من الغرفة ودعني فيها مع ميلون .

فامتثل نويل واقفل روكامبول الباب وراءه ثم قال لميلون : إخلع ملابسك هذه والبس ملابس التنكر الايطالي اما انا فسأنظر هذا الرجل .

ثم صعد على المنضدة وجعل ينظر من ثقوب الخشب الى داخل غرفة الطبيب فرأى فيها سريراً من الحديد وكرسيين وطاولة عليها اكداس الكتب والأوراق ولم يكن في تلك الغرفة من الأثاث غير ما تقدم .

وقد رأى الطبيب مضطجعاً على السرير وهو في الهيئة التي وصفها له نويل وكان ينظر نظراً مضطرباً الى الجدار ويقول : نعم انك انت هي يا سيدتي لا تزالين كما كنت حين دفعتني الأبالسة الى سريرك . نعم انك كنت لابسة ثوباً اسود ، وهو نفس الثوب الذي تلبسينه الآن ، ولا يزال لك ذلك الجمال الذي كنت تفتنين به النساك ، واأسفاه اني لو كنت من الوحوش الضارية لأشفقت على جمالك وشبابك ولكني كنت اقسى قلباً من تلك الوحوش .

ثم انّ انيناً مزعجاً وعاد الى مخاطبة الخيال فقال : لقد مر يا سيدتي عشرة اعوام على هذه الحادثة وانا اراك كل ليلة كما اراك الآن صفراء صامتة كالأموات ولو علمت اني استحق العفو لالتمست منك الرحمة ولكني اعلم اني وحش اثيم جرعتك السم بيد جانية كان الاولى بها ان تقطع فـــأنا لا التمس منك رحمة لا استحقها بل اطلب موتاً استحقه وأستريح فيه أيقنعك يا سيدتي البارونة ان يهدر هذا الطبيب الذي يجله الناس دمه كما هدر دمك ؟

فلما وصل بحادثة نفسه الى هذا الحد اسرع روكامبول الى ميلون وقال له: اجبني بسرعة اكانت سيدتك والدة الابنتين بارونة ؟

– نعم .

– كيف ماتت ؟

– شعرت يوماً انها متوعكة فأحضروا لها الطبيب ولما عادها قال لي انها لا تعيش .

– أتظن انها ماتت مسمومة ؟

– نعم . .

– أتريد أن تنظر قاتلها ؟ تعال وانظر .

فصعد ميلون مكان روكامبول وجعل يحدق نظره بهذا الطبيب فرأى انه شديد البعد عن ذلك الطبيب القاتل فـــإنه كان في عنفوان الشباب منذ عشرة أعوام وهو الآن قد بلغ حد الهرم .

وبينما هو يحاول النزول لاعتقاده ان الطبيب هو غير الذي قتل البارونة رفع الطبيب نظره بعد إطراقه .

وارتعش ميلون وعرفه للحال من عينيه فنزل الى الأرض وقال لروكامبول: انه هو بنفسه يا سيدي ليس لدي فيه أقل ريب .

فقال روكامبول : إصغ إذن لما سأحدثك به بينما أغير تنكري واعلم اني عندما كنت شقياً سفاكاً لصاً كنت موفقاً في تلك المهنة الشنعاء وكنت أستطلع الأسرار واستكشف الغوامض بلحظة في حين ان سواي من أهل المهنة كان يقضي السنين الطوال لاستجلائها .

وكأنما ذلك التوفيق الذي كان يعينني في تلك الأيام لا يزال عائد اعمالي إلى الآن فانه خدمني اليوم باكتشاف قاتل مولاتك .

غير انه لا يزال يشغلني أمر واحد وهو انه كيف يدعون للبارونة مولاتك مثل هذا الطبيب الساكن في أحقر المنازل ولم يكن له شيء من الشهرة منـــذ عشرة اعوام ؟

فقال ميلون : لقد تذكرت الآن فانهم ارسلوني إلى طبيب بيتهم بالليل ، وهو من الأطباء المشاهير فقيل لي انه كان مسافراً ، وفي صباح اليوم التـــالي عدت اليه ولقيت هذا الطبيب على باب منزله فقال لي ان طبيبكم لم يعد بعـــد

من سفره ، وقد كلفني بعيادة مرضاه لأني من تلامذتـــه فجئت به وكأني أنا القاتل لسيدتي وأسفاه .

فقال روكامبول : ليس المقام مقام اسف الآن بل مقام انتقـام وسنكسر الآن باب غرفته وندخل اليه .

ففرح ميلون فرحاً وحشياً وقال . سأقتله بضربة واحدة .

- إياك أن تفعل شيئاً فإن الطبيب لم يكن غــير آلة بيد سواه ويجب علينا معاقبة الرأس الآمر بالقتل ثم ننظر في شأن اليد المنفذة .

وفيما هما على ذلك إذ سمعا طرق الباب الخارجي ثم سمعا انه فتح وان الطارق يسأل عن الطبيب ويطلب أن يذهب حالاً إلى مـــنزل البارون موروليكس ، وصعدت صاحبة المنزل إلى غرفة الطبيب وأخبرته بما كان فقال : قولي له أن ينتظرني فاني ذاهب معه .

ثم أسرع يلبس ملابسه ، وعاد وجهه إلى البشاشة الفطرية بعد ذلك القنوط وخرج من غرفته فقال روكامبول لميلون : هلم بنا نتبعه فإني أحب أن أقتفي أثره إلى ذلك المنزل الذاهب اليه .

- ٦ -

ليس البـــارون دي موروليكس الذي ذهب الطبيب لمعـالجته نفس ذلك البارون الذي يحاول إغواء انطوانيت بل هو أبوه ، وقد كان عائداً في الليل من النادي ، وفيما هو ينزل من المركبة زلت قدمه فسقط وكسرت رجله .

ولما بلغ الطبيب إلى غرفته أبعد عنه الناس وجعل يجبر رجله غير مكترث لالامه بتلك القسوة التي عرف بها الجراحون ، وكان لا ينظر في خلال العمل إلا إلى تلك الرجل التي كان يجبرها .

ولما فرغ من عمله جلس بازاء سرير المريض يحادثه ، ولم يكد يتبين وجهه وعينيه حتى اضطرب واندعر ، فنظر إلى الخادم الذي كان واقفاً في الغرفة وأمره بالخروج .

ثم نظر إلى البارون وقال له :

– يخال لي يا سيدي البارون اني رأيتك قبل الآن ؟

– ربما كان ذلك أما أنا فإني ما رأيتك من قبل .

– كلا فإنك لو تذكرت قليلاً لعلمت انك رأيتني ورأيتك .

فاصفر وجه البارون وقال : أظن إنك مخطىء يا حضرة الطبيب .

– لا يمكن أن أكون مخطئاً فإن شعوري لم تبيض إلا بسبب هذه المعرفة .

فزاد اضطراب البارون وقال : أين تظن اني رأيتك ؟

– نعم اني كلما زدت اليك نظراً زدت اعتقاداً فقد كان أصل هذه المعرفة انك أتيت الي في منزلي .

– لا أذكر شيئاً ..

– بل تذكر كما يدل عليه اضطرابك فقد زرتني وأنا تلميذ طب ، وكنت أقيم يومها في غرفة حقيرة في شارع سيرسنس ولا أزال أقيم فيها إلى الآن .

وكنت في ذلك العهد فقير اشتغل الليل والنهار كي أكون يوماً في عداد الأطباء الماهرين فاغتنمت فرصة فقري ونفحتني بكيس مملوء بالذهب كي أعلمك طريقة القتل إذ طلبت إلي سماً قاتلاً لا يترك بعد الموت أقل أثر للجناية .

فاندعر البارون ولم يعد يسعه الانكار ونظر إلى ما حواليه نظرة الخائف وقال : بربك كفى قد يسمعك الخدم .

– أرأيت الآن كيف اني أعرفك أنت الذي تنكر باسم كاذب وخدعني مغتنماً فرصة طيش صباي وشدة فقري غير ان الله لم يعاقبك وأنت الرأس المدبر لهذه الجناية بل عاقبني أنا اليد المنفذة لها .

– أسكت كفى بالله ..

— انك غني سعيد تتكنى بأشرف الألقاب ولكنك قاتل سفاك .

— ما عسى تريد أيها التعس أتريد أن تفضحني وتفضح نفسك ؟

وكان الطبيب لم يسمع كلامه وقال : أما أنا فإن الفقراء يدعون لي في خلواتهم ، والعلماء يستشهدون بأعمالي في مجتمعاتهم ، وكل دواعي المجد تحيط بي ، ولكني لو كنت في جهنم لكنت خيراً مما أنا فيه وحسبي عذاباً ان خيال تلك الشهيدة لا يغيب عن عيني طول ليالي فأبيت منه بليلة الملسوع ، وهذا شأني منذ دفعتني الى ارتكاب تلك الجريمة الهائلة ، فانها تظهر لي بملابس سوداء وترسل الي من عينيها أشعة نارية تحرق جوارحي وتقول لي : كيف كان ندمك فلا عفو لك عند الله أيها السفاك ، أما أنت أيها البارون فإن عقاب الله لم ينقض عليك بعد ولا تزال معدوداً في زمرة السعداء ، ولكن ثق بأن الله لا يتغاضى عن المجرمين أمثالك وسيأتيك يوم تتمنى لو لم تخلق .

ثم تركه مغضباً وانصرف دون أن يتدانى إلى وداعه أو النظر اليه ، ولما خرج من قصر البارون كان مضطرباً اضطراباً شديداً فلم ينتبه أقل انتباه إلى رجلين كانا يترصدانه ، ومر بهما دون أن يراهما فاقتفيا أثره حتى وصل إلى منزله فدخل اليه ، ودخلا بعده ، وكان هذان الرجلان روكامبول وميلون .

- ٧ -

فصعد روكامبول إلى غرفة نويل وطلب اليه أن يأتيه بحبل رفيع ، ثم تنكر بملابس رجال البوليس وقال لميلون : اني سأخاطر من اجل الفتاتين بالعودة إلى السجن فاني لا أريد الانتقام من الطبيب وحده بل من أخوي سيدتك البارونة ميلر ، أي من البارون موروليكس وأخيه .

ثم قال لنويل · سر بنا الآن إلى غرفة الطبيب .

وسار نويل أمامهما وطرق الباب فقال الطبيب : من أنت ؟

— أنا البواب وقد قدم اثنان يريدان أن يرياك .

— العيادة طبية ؟

فقال نويل : كلا ، بعد أن استشار روكامبول بالنظر .

وأبى الطبيب أن يفتح بابه وقال . ليعودا إلي في الصباح فإني لا أقابل أحداً بعد انتصاف الليل إلا المرضى .

وعند ذلك قرع روكامبول الباب وقال له : افتح باسم الشرع .

ولم يجسر الطبيب بعد ذلك على العصيان وفتح الباب ودخل إلى غرفته روكامبول يتبعه نويل وميلون وهما متنكران أيضاً .

فدنا منه روكامبول وقال له : الست أنت الطبيب فنسلت ؟

— نعم !.

وأشار روكامبول إلى ميلون أن يخرج إلى غرفة أخرى وقال لنويل بلهجه الآمر : إذهب واتنا بمركبة . فامتثل الاثنان .

ولما أصبح روكامبول منفرداً مع الطبيب قال له : يعز علي يا سيدي الطبيب أن أقبض على عالم مثلك ولكني آلة بيد الشرع .

فخاف الطبيب وقال : كيف تقبض علي وبأية تهمة تتهمني ؟

— انهم يتهمونك يا سيدي بتسميم البارونة ميلر منذ عشرة أعوام بالاشتراك مع البارون دي موورليكس وأخيه

فوهت رجلا الطبيب وسقط على كرسي خائر القوى

وعند ذلك عاد نويل وقال إن المركبة على الباب

ثم خرج وتولى خفارة الباب .

أما الطبيب فقد كان يتنازعه عاملان ، وهما عامل كان يمثل له جريمته بأقبح مثال فيحني رأسه صاغراً ذليلاً ، وعامل يمثل له ندامته وما فعل من الخير تكفيراً عن ذلك الذنب الذي لم يدفعه اليه غير نزق الشباب ، ويرفع رأسه

شامخاً واثقاً من عفو الله .

ولما ذهب نويل نظر الطبيب إلى روكامبول وقال له : إنك لست يا سيدي قاضي التحقيق كما يظهر ولست أنت الذي سيتولى التحقيق في أمري .

– هو ما تقول يا سيدي فإني أحد مفتشي البوليس .

– إذن أنا مستعد للذهاب معك غير انهم لا يسألونني حين وصولي كما أظن فأرجو أن تأذن لي بكتابة بضعة أسطر إلى زميل لي أسأله فيها أن ينوب عني في عيادة زبائني .

– إفعل ما تشاء .

وقام الطبيب إلى منضدة فكتب رسالته ووضعها في غلاف ثم قال دون اكتراث اني أرى هذا الغلاف لا صمغ فيه ولا بد لي من ختمه بالشمع ، وعند ذلك أخرج من درجه قطعة من الشمع الأسود وأدناها من الشمعة المنارة .

وكان روكامبول ينظر اليه نظر المراقب ، ولم تكـد تلك الشمعة السوداء تحترق ويظهر دخانها حتى هجم عليه من ورائـه وضربه على يـده ، فسقطت الشمعة السوداء وانطفأت .

ثم أسرع إلى النافذة ففتحهـا كي يخرج منها ذلك الدخان وقال : لقـد لقد علمت قصدك يا حضرة الطبيب فإن هذه الشمعة سم نقيع إذا بلغ دخانها إلى الرئتين قتل للحال .

وعند ذلك قبض عليه ونادى ميلون كي يستعـين به ، وأسرع ميلون وتعاون الاثنان على ربط فمه بمنديل كي لا يصيح وحملاه بمساعدة نويل إلى المركبة الواقفة على الباب ، وأمر روكامبول السائق أن يذهب بالمركبة إلى إدارة البوليس

ولكنه قبل أن يصل اليها بعدة أمتار أوقف المركبة وقال للسائق قف قليلا هنا إلى أن اعلم أوامر المدير

ثم مشى إلى منعطف في الطريق وهو يوهم السائق انـــه ذهب إلى إدارة

البوليس وأقام مختبئاً إلى أن انتهى من تدخين سيكارته وعاد وقال : إن المدير يحب أن يسمع أقوالك في منزله . وأمر السائق أن يسير إلى منزله ، أي إلى منزل روكامبول الذي يقيم فيه مع فاندا ، ولما وصل اليه أخرجوا الطبيب وصعدوا به إلى المنزل و طلقوا سراح السائق .

- ٨ -

وكان الطبيب قد سكن روعه بعض السكون لطول المسافة ، وخلا به روكامبول في غرفة ، بعد أن أقفل بابها وجلس بازائه وقال : والآن لنتحدث يا حضرة الطبيب .

- بماذا نتحدث ، العلك أنت الذي تتولى التحقيق بأمري ؟

- نعم !.

- إذن من أنت ؟

- أنا رجل يعمل أعمالاً عظيمة ، فإن العدالة يا سيدي من أخص الأمور المقدسة ، وما أنا من الشرطة ولا من القضاة كما تتوهم ، بل أنا رسول العدل وقد أصبحت في قبضتي خاضعاً لسلطاني .

فذعر الطبيب وقال : زدني إيضاحاً أيها الشقي فمن أنت ؟

- أنا رجل من كبار المجرمين وقد ارسله الله لعقاب كبار الآثمين .

- إذا كنت كما تقول فقد وجب عليك احترام القوانين والشرائع المقدسة ، ومن كان يريد عقاب المجرمين لا يرتكب جرائمهم ويقلد رجال الشرطة ويسرق الناس من منازلهم ، دعني أخرج أيها الشقي

وأخرج روكامبول مسدساً من جيبه وقال : اني كنت أدعى في السجن مائة وسبعة عشر وكنت أدعى قبل أن أسجن روكامبول ، وانا الآن أدعى

الماجور أفاتار ، فأنا أقسم لك بهذه الأسماء الثلاثة انني أقتلك شر قتــل إذا لم تصغ الي وتطيعني فيما أريد .

- ماذا تريد ؟

- أريد أن تعترف لي .

- اني لا أعترف إلا لله

ولرسول العدل .

- انك لست بالله وما أنت برسول العدل بل أنت شقي هارب من الليمان أستطيع أن أرجعك اليه إذا ذكرت اسمك .

- ولكننا نعود سوية يا سيدي الطبيب فإن السجون أعدت للقتلة المجرمين وسواء كان القتل بالخنجر أو بالسم ، فإن الجريمة واحدة ، ثم ان هناك أمراً آخر وهو اني كنت في السجن فلا أخاف العودة اليه ، وما أنا برسول العدل، ولكني الآلة التي أرسلها الله للقضاء على الآثمين فإذا لم أنل منك ما أريد قتلتك في الحال .

وقال له الطبيب باحتقار : ماذا تريد مني العلك طامع بمال ؟

لو كنت لصاًعادياً لنهبت ما لقيته في منزلك ، ثم انك لست غنياً فإنك تهب جميع ما تكسبه للفقراء .

- إذن ماذا تريد ؟

- أريد أن اتحدث معك .

- قل فاني مصغ اليك .

- أول ما أبدأ به يا حضرة الطبيب هو انه عندما يرتكب المرء جريمة ، لا يخلق به أن يحدث نفسه بها طول ليله على مسمع من الناس

- أنظن اني ارتكبت جريمة ؟

لا أظن بل اؤكد ولو كنت على شيء من الشك فإن عزمك على الانتحار بدخان تلك الشمعة السوداء أزال مني كل ريب ،ولكني أعلم انك سممت امرأة

لم تكن تتجاوز الثلاثين من عمرها وهي غنية حسناء ، وان هذه المرأة تـدعى البارونة ميلر .

– أتعرف اسمها ايضاً ؟

– اعرف كل شيء ، أما إذا كنت تريد أن تعرف ما أريده منك فاسمع ، إنك قبل ان ترتكب تلك الجريمة بيوم واحد لم تكن تعرف البـــارونة ولم يدفعك إلى قتلها عامل من حقد أو طمع بارث ، بل لأنهم أعطوك اجرة هذا القتل عشرة آلاف فرنك .

وكانت هذه الأقوال صادقة صحيحة فلم يسع الطبيب انـكارها بل غطى وجهه بيديه وقال له إذن سلمني إلى القضاء بدل تعذيبي .

– لم يحن الوقت بعد فإن من يجسر على ان يفعل مـا فعلته معك لا يقنع بعقاب اليد المنفذة للجريمة بل يرجو سحق الرأس المدبر لها افهمت الآن ؟ اني اريد ان اعرف شريكيك لأنهما اثنان .

فذعر الطبيب ذعراً شديداً وقال إذن انت تعرف كل شيء ؟

– إصغ الي فان البارونة ميلر قد قتلت منذ عشرة اعوام وان الحكومة لا تعرف شيئاً عن جريمتك، على انك إذا كنت قد استحقيت العفو عن جريمتك لحسن توبتك وصالح اعمالك ، فان شريكيك الذين اغتنما فقرك ونزق شبابك لا يزالان يتمتعان بأموال اختهما التي قتلاها .

– ماذا تقول ؟ اختهما ؟

– نعم اختهما قتلاها بيدك كي يسرقا اموالها وانت لا تعلم .

– رباه ماذا اسمع ويا ويحي كيف القاك يا ربي بعد هذه الجريمة الشنعاء ؟

– وليس هذا كل ما فعلاه فان اختهما كان لها بنتان فجرداهما من اموالهما وهما طفلتان يتيمتان ، وليس من يعلم الآن مصيرهـا فاختر الان بـين امرين وهما اما ان اسلمك للشرطة واسلم نفسي معك او انك تساعدني على الانتقام من هذين الأثيمين اللذين اغرياك على قتل اختهما فتكون لي اطوع من البنان .

فتنهد الطبيب وقال · رباه إذا لم تصفح عني لقتـــل تلك الأم المنكودة فافسح في اجلي كي انفق حياتي في خدمة ابنتيها ثم جعل يبكي .

فأخذ روكامبول يده وقال : لقد وثقت منك الان فان دموعك تدلني على صدق نيتك في مساعدتي .

- واسفاه اني سأشتغل الليل والنهار لمساعدة هاتين اليتيمتين .

- يجب ان تصنع اكثر من ذلك ايها الطبيب ، اي يجب ان تساعدني على ارجاع تلك الثروة المسروقة .

– لقد اصبت وسأكون لك اطوع من العبيد فقل ماذا يجب ان اصنع .

– سأقول لك بعد حين والان فما عليك الا ان ترجع لعيادة مرضاك .

– كيف ذلك اتطلق سراحي ؟

– نعم فقد وثقت من ندمك واخلاصك في خدمتي .

– اقسم لك بتربة تلك الضحية التي يزورني خيالها كل ليلة اني سأفعل كل ما تريد ، قل ماذا افعل اليوم ؟

– لا حاجة لي بك اليوم ، وغداً سأزورك في منزلك او اكتب لك فأعين موعداً آخر .

ثم نادى ميلون وقال : احضر مركبة للطبيب . فـامتثل ميلون وهـو منذهل ، وهو لا يجسر على سؤاله وبعد عشر دقائق ركب الطبيب بها ومضى فقال روكامبول لميلون : الان يجب البحث عن الصندوق المودعة فيه اموال البنتين فاتبعني .

وسار روكامبول وميلون الى ذلك المنزل الذي كان مخبوءاً في احد اقبيته الصندوق ، فاستأجره ميلون وقد ادعى انه تاجر خمر قسماً من ذلك المنزل مشترطاً ان يكون له قبو ، وبعد ان تفقد الأقبية اختار واحداً منهـــا وهو القبو الموجود فيه الصندوق .

وفي اليوم الثاني احضر الأدوات اللازمة للحفر وجعـــل يبحث مع

روكامبول عن الحجر المخبوء وراءه الصندوق حتى إذا عثر عليه اخذ روكامبول يشتغل بنزع الحجر ، وبعد ساعة تمكن من نزعه واخرج ذلك الصندوق الصغير من مخبأه ، فصاح ميلون صيحة فرح لأنه عرف الصندوق .

وحمل روكامبول الصندوق بيديه فوجده خفيف الوزن فقال له : كيف تقول انه يوجد فيه مليون فرنك فان خفته لا تدل على شيء من ذلك ؟

— ذلك لأنه يحتوي على اوراق مالية .

فاصفر وجه روكامبول فقال له ميلون : بأي شيء تفتكر ؟

— افتكر اني كنت ادعى روكامبول ولو وجدت وإياك منفردين من قبل وامامنا هذا المليون لكنت قتلتك كي يكون المال لي وحدي .

فاضطرب ميلون وقال . ان هذا المال ليس لي بل انه مال اليتيمتين

وادرك روكامبول معنى اضطرابه وقال له : اطمئن فاني نزعت من نفسي ذلك المبدأ القديم فهلم بنا إذاً لنرى ما في الصندوق .

— ٩ —

ولنــدع الان روكامبول يفحص ذلك الصندوق مع ميلون ، ونعود بالقارىء إلى عاشق انطوانيت ، فانه لما وصل اليه كتاب انطوانيت الأخير الذي تمنعه فيه عن السفر فرح فرحاً لا يوصف ، وقد وجد من ادب هذه الفتاة ما غير نيته بشأنها فما صدق ان دنا الموعد المعين حتى اسرع إلى منزلها فلقيها مع مدام رينود

وقد رأى في ذلك المنزل آثار الفقر والشقاء غير انه ما لبث ان حادث هاتين المرأتين ، حتى علم ان في نفسيهما خير ما يغرس من الفضائل والاداب ، واندفعت انطوانيت في حديثها معه فأخبرته بما كانت تجهله من امر ماضيها إلى

ان قيضت لها الصدفة ان تعرف انها ابنة البارونة ميلو وان أمها كانت غنية ثم طلبت اليه ببساطة الاطفال ان يساعدها في سبيل ايجاد ثروة أمها إذ ليس لها من تعتمد عليه في هذا الوجود إلاه .

فتأثر أجينور من حديثها تأثيراً عظيماً حتى انه نسي غرامه فـلم يكاشفها بكلمة حب وانصرف الى تطمينها ، فوعدها وعداً صادقاً ان يكون لها خير خادم وصديق وأظهر لها ما لأبيه البـارون دي موروليكس من الوجاهـة والكلمة النافذة وانه سيستعين به على إيجاد هذه الثروة الضائعة . ثم ودعها بعد ان التمس منها أن تأذن له بالعودة مرة ثانية . وانصرف وقد عزم عزماً أكيداً على الزواج بها لاسيما بعد ان علم انها من النبلاء، وان أباه لا يعارضه بزواجه ابنة بارون .

وذهب تواً الى أبيه وهو في فراشه لانكسار رجله كما تقدم فأخبره بجميع حكاية تلك الفتاة وهو لا يخطر له في بال ان أباه وعمه هما سـارقا ثروة والدة الفتاة وان تلك الفتاة التي يهواها هي أقرب قريبة له.

أما والده البارون فقد وقع هذا النبأ وقع الصاعقة عليه فتظاهر بألم رجله ، وهو إنما يشكو حقيقة من ظهور تلك الفتاة وظهور ذلك الطبيب ، ثم طيب خاطر ابنه ووعده خيراً وكتب في الحال رسالة الى أخيه الأكبر يطلب اليه فيها أن يحضر سريعاً لأمر خطير وأمر ابنه ان يذهب بالرسالة الى عمه بعد ان اوصاه بكتمان أمر الفتاة وان لا يذكر شيئاً من أمرها لأحد من أصدقائه . فامتثـل أجينور وذهب بالرسالة الى عمه .

وبعد ساعة قدم أخوه الفيكونت كارل دي موروليكس ودخل اليه فقال له البارون أقفل باب الغرفة !

ففعل وهو يعجب لهـذا التحفظ الشديد . ولمـا جلس بازائه ، ورأى اضطراب أخيه ، علم ان الأمر جلـل فقال له : ماذا دهاك ؟ وما هـذا الاضطراب ؟

– لقد فضح أمرنا يا كارل !

– كيف ذلك وأي أمر تعني ؟

– لقد حلت ساعة العقاب !

– قيل لي انك كسرت رجلك فهل أصبت بالهذيان ؟

– كلا ولكنك لا تعلم من هو هذا الطبيب الذي جبر كسر رجلي . إنه هو ذلك التلميذ الطبي الذي كان يقيم في شارع سرسنس

– ما هذا الاتفاق الغريب العله عرفك ؟

– نعم ، وأشار علي بالندامة والاستغفار وليس هذا كل السبب في اضطرابي ، فإن ولدي أجينور يريد ان يتزوج فتاة تدعى انطوانيت ميلر أعلمت الآن ؟

فقطب كارل جبينه وقال : وبعد ذلك ؟

– إنها تعرف اسمها وتعرف ان ثروة امها قد سرقت وان ميلون الخادم في السجن ، وقد جاءني ولدي يسألني ان أساعده في إخراج ميلون من السجن ، أفهمت الآن ؟

– فهمت كل شيء وأخص ما فهمته أن ولدك أبله ، لأنه قص عليك جميع هذه الأمور ، فوضع نفسه في أحرج المواقف . ثم جعل يضحك ضحك الساخر

– ١٠ –

أما روكامبول فانه عالج الصندوق الحديدي وفتحه فوجد فيه قيمة مليون فرنك أوراقاً مالية ، ووجد كتاباً بخط البارونة ميلر . فأخذ

الكتاب ودفع الصندوق باشمئزاز الى ميلون ، كأنه خشي أن يؤثر عليه منظر ذلك المال الكثير . ثم جعل يقرأ ذلك الكتاب المسهب على مسمع ميلون .

والكتاب معنون باسم انطوانيت ومدلين إبنتي البارونة ميلر . وهو يتضمن حكاية تلك البارونة وخلاصتها أنها لم تكن أخت الفيكونت كارل والبارون دي مورليكس لامهما وأبيهما بل لأمهما فقط ولدتها حراماً وكتمت امرها عن جميع الناس حتى مات زوجها فعرف ولداها بامرها وأشارا عليها ان تتبنيها وان تقيم في باريس بصفة قريبة .

ولم يكن ذلك من قبيل الرأفة بتلك الأم بل طمعاً باموال ابنتها ، فانها تزوجت البارون ميلر وبعد ولادة ابنتيه انطوانيت ومدلين توفي عن ثروة تبلغ عشرة ملايين فرنك وإنما طلبا الى امهما ان تتبناها شرعياً كي يحق لهما الارث منها بعد وفاتها ولذلك لم يكن أحد من الناس يعلم ان البارونة ميلر هي شقيقة البارون والفيكونت دي مورليكس .

وبعد ان تم عقد التبني وقدمت البارونة بابنتيها الى باريس توفيت أمها . وقد اتضح فيما بعد ذلك ان ولديها قتلاها بالسم ، ثم جعلا يطاردانها ويحاولان قتلها بطرق مختلفة خفية ويظهران الأنس والبشاشة فدسا لهم السم مرة في برلين فنجت منه ، واحرقا المنزل بها مرة في فيينا فسلمت مع ابنتيها . ولما كانت في باريس أتاها أحد خدم أخيها الفيكونت كارل ، فأخبرها بجميع مكائد أخيها وانه عازم على قتلها وقتل ابنتيها كي يرثها . فجمعت ما استطاعت جمعه من المال وأعطته لخادمها ميلون وأوصته ان يخبئه كي يكون مهراً لبنتيها ثم وضعت هاتين البنتين في مدرسة مدام رينود دون ان تذكر لهما اسم عائلتيهما ومكثت في باريس بعد ان اطمأنت على ابنتيها

هذه خلاصة الكتاب الذي يظهر منه كيف ان اجينور دي مورليكس لم يعلم ان انطوانيت ابنة البارون ميلر قريبة له لأن سر ولادة البارونة كان مكتوماً

عن جميع الناس ولم يعرفه غير الفيكونت وأخيه البارون .

ولما فرغ روكامبول من تلاوة الكتاب قال لميلون : إننا قد وجدنا الصندوق وعرفنا أموراً كثيرة من هذا الكتاب فماذا تريد ان تعمل الآن ؟

– نبحث عن انطوانيت ومدلين ونرد لهما المال .

– حسناً غير ان المليون لا يكفي البنتين ، لأن مالهما عشرة ملايين لا مليوناً واحداً .

– سنطالب بالباقي .

– تطالب من ؟

– الحكومة !

فضحك روكامبول وقال له . إنك لا تزال على بلاهتك . أنسيت إنك هارب من السجن وانك كل يوم تتنكر في زي فكيف يصح ان يكون لك علاقة بالحكومة ؟

– إذن كيف نعمل ؟

– سوف ترى ماذا أعمل . غير ان عملاً عظيماً كهذا يقتضي له المال الكثير وقد رأيت ما صنعت من قبل ولا بد ان تثق بما سأصنع في المستقبل .

فقال ميلون بإعجاب : لا ريب عندي بأن عقلك أسمى من عقول البشر .

وأجاب روكامبول بسكينة : إني سأجد البنتين وأرد لهما كل ثروتهما وأنتقم لأمهما . غير انه لا بد لي من المال لتحقيق هذه الآمال .

وكان ميلون يثق ثقة عظيمة برفيقه في السجن فدفع اليه الصندوق وقال : خذ ما تشاء .

– إني أحتاج الى مائة الف فرنك على الأقل .

– خذ ما تشاء .

فأخذ روكامبول مائة الف وقال : هلم بنا إذاً ، فقد آن اوان العمل ولك ان تدعوني منذ الآن بروكامبول .

- ١١ -

بينما كان روكامبول منهمكاً مع ميلون بفتح الصندوق وتلاوة الكتاب كان الفيكونت كارل موروليكس جالساً على كرسي أمام سرير أخيه وهو يباحثه في جنايتهما القديمة .

وكان كارل هذا شديد الدهاء لا ترهبه الصعاب ولا يقف بجرأته عند حد خلافاً لأخيه والد أجينور ، فقد هاله ثبات أخيه وعدم ظهور شيء من علائم الاضطراب عليه فقال له :

– الست بنادم على تلك الجناية ؟

– إن من تجاسر على سرقة ثروة ، يجب عليه ان يتجاسر أيضاً على حفظها .

– ولكننا لا نستطيع الاحتفاظ بها أمداً طويلاً ، ما زالت الفتاتان في قيد الحياة .

فهز كارل كتفيه إشارة الى عدم الاكتراث وقال : كيف حصلنا على ثروة أختنا بعد وفاتها .

– بفضل عقد التبني الذي ظهر فيه ان البارونة ميلر أختنا ، وانه يحق لنا إرثها .

– نعم ولكنه كان للبارونة إبنتان فلم يكن يحق لنا إرثها إلا بعد إثبات وفاة إبنتيها وقد أثبت وفاة انطوانيت ومدلين ميلر يوم وفاة اختنا ولولا ذلك لما حق لنا ان نرث شيئاًوقد كان صك وفاتهما مذيلاً بتواقيع كثيرة لا تدع أقل

مجال للريب ولا يمكن نقضها .

— وإذا ظهرت البنتان ؟

— لا يفيد ظهورهما شيئاً .

— كيف ذلك ؟

— لأن الحكومة لا تصدقهما إذ ليس لديهما ما يثبت نسبهما .

— ولكن ميلون يثبت هذا النسب .

— إنه مسجون .

— ومتى خرج من سجنه فإن سجنه غير مؤبد .

— لا يجد هاتين الفتاتين أو يجدهما غير صالحتين لهذا النسب .

فأجفل البارون وقال . لقد أدركت قصدك ولكنه قصد هائل لا أوافقك عليه ، فقد كفى ما فعلناه .

— إذاً ، فاختر بين أمرين : إما أن تبقى متمتعاً بثروتك وجاهك بالقضاء على هاتين الأختين ، أو تمتعها بها بالقضاء على نفسك وقضاء الحكومة عليك

— رباه ! كلاهما شديد ولكني أختار أهون الويلين فافعل ما تشاء .

— سأفعل إنما يجب ان تعلم باني سأستخدم ابنك اجينور آلة وسأتعب قلبه غير ان أمراض الحب سريعة الشفاء وسأزوجه خير فتاة ترضية له .

فقال البارون ببلاهة : لم أفهم الى الآن كيف انك ستستعين بولدي كي تصم تلك الفتاة التي يهواها بوصمة عار

— كن مطمئناً فلا خوف على ولدك لانه ولدي . أما طريقة استعانتي به فستعلمها بعد حين إنما لا بد لي الآن من إخبارك اني أعرف رجلاً في باريس أحيل من ثعلب ، تقلب في جميع أنواع الشرور وتمرس بجميع الأعمال . فقد كان لصاً شريراً ثم رأى رئيس البوليس ما كان من حذقه فجعله بوليساً سرياً ثم عزله لأنه لم ينقطع عن السرقة ومشاركة اللصوص ، وهو الآن يعتزل في منزله

يأتيه رزقه من العصابات الشهيرة لخوفها من كيده. فإذا أعطيته ثلاثين او أربعين الف فرنك فعل لي ما أريد .

– كل ذلك سافل مكروه

– ولكنه واجب لا بد منه ، إذا كنت تخشى السجن والاقامة فيه بدلاً من ميلون .

فلم يجب البارون بشيء . ولما رآه أخوه مطرقاً يفكر خشي ان تتغلب عليه عاطفة الشهامة فنهض وقال إني ذاهب الى هذا الرجل وسأعود اليك بعد ان أراه .

– ولكن ولدي اجينور سيعود الآن فماذا أقول له ؟

– طيب خاطره ما استطعت ، وقل له اني ذهبت للسعي في ما يريد .

ثم ودعه وركب مركبته وانطلق بها إلى شارع سانت جرمين ، فأوقفها عند باب منزل وصعد إلى الدور الثالث ، فطرق البـاب وسمع صوتاً يقول له : أدخل ففتح الباب ودخل ، فوجد رجلاً يناهز الخمسين فحياه وناداه باسم تيميلون .

– ١٢ –

وكان اول من افتتح الحديث الفيكونت فقال لتيميلون : أعرفتني ؟

فنظر اليه تيميلون نظرة عـدم اكتراث ، وقال له : إن ذلك يتعلق بالأحوال .

– كيف ذلك ؟ إني لا أفهم ما تريد

– ذلك لأننا نحن معاشر رجال الأعمال السرية ننظر الى من يزورنا لقضاء مهمة من المهمات ، فاذا شاء ان نعرفه عرفناه ، وإذا رأينا انه لا يريد أن

تعرفه أنكرناه .

فابتسم الفيكونت وقال له : إني اريد أن تعرفني .

– إذاً أنت الفيكونت كارل دي موروليكس ومنزلك في شارع بيبينار وأنا مستعد لخدمتك .

– سأحكي لك أمري بكلمتين فاعلم ان لي أخاً .

– إنه يدعى البارون دي موروليكس ويقيم في شارع أوكاليه .

– ولي ابن أخ .

– إنه يدعى اجينور ويقيم في شارع سيرسنس منفصلاً عن أبيه .

– يسرني انك تعرفنا جميعاً بهذا التدقيق . إعلم الآن ان أجينور هذا يريد أن يتزوج زواجاً لا يوافقنا .

– وانك تريد ان تمنع هذا الزواج أليس كذلك ؟

– هو ما تقول .

– كل شيء ممكن متى وجد المال .

– المال موجود .

– إذاً فلنتحدث . من هي هذه الفتاة ؟

– هي فتاة فقيرة تعلم الموسيقى في البيوت طاهرة السريرة بديعة الجمال ليس لها أهل وهي تقيم مع معلمة عجوز .

وكان تيميلون يسمع ما يقول كارل ويكتب مذكرات بأقواله بلغة إصطلاحية لا يعلمها سواه فلما فرغ من استعلامه عن انطوانيت قال له لدي طريقتان إحداهما سهلة ميسورة وهي اني أنصب شركاً للصبية وأقودها الى محل شائن ثم نبرهن لأجينور انها غير خليقة به .

فأبى كارل هذه الطريقة وقال ان اجينور شاب متفلسف يحسب نفسه خلق لاصلاح خطأ الناس وان المرء ضعيف لا يؤاخذ بخطأ فقد يحمله إيلام عرضها على الزواج بها ستراً لشرفها .

– إذاً فلنبحث في الطريقة الثانية ، لأنها اكثر مشقة وأغلى ثمن ، وهي ان نلقي تلك الفتاة في مشاكل تدعو الى مداخلة البوليس وإرسالها مؤقتاً الى سجن بنات الهوى .

– إنها خير من الطريقة الأولى ولكني لا أريد ان يكون السجن مؤقتاً .

فنظر اليه تيميلون محدقاً مستكشفاً وقال له : إذاً انت مستعد لدفع الأجرة الباهظة التي يقتضيها المشروع .

– كم تريد ؟

– خمسين الف فرنك وليس ذلك بكثير ازاء هذه المهمة الصعبة .

– ليكن لك ما تريد

ففكر تيميلون هنيهة وقال: ان الأمر سهل وهو اننا نستطيع أخذها بالحيلة الى منزل ترتكب فيه جريمة سرقة فيحضر البوليس ويقبض عليها مع اللصوص فيعترفون انها شريكة لهم وانها داخلة في عصابتهم .

– انه فكر مصيب ولكن اين تجد اولئك اللصوص ؟

– ان لدي منهم من أثق به

– ولكني أخشى ان تتمكن الصبية من اثبات براءتها باثبات اسمها .

– ألم تقل لي انها لا أم لها وانها تخرج وحدها لاعطاء الدروس .

– انها تخرج كل يوم في أوقات معينة .

– إذاً ، سأجد لها أماً تلتمس إخراجها من السجن ، وتحاول تبرئتها فتزيد بها الظنون ، وتؤيد الجريمة . إنما قل لي اسمها ، واسم الشارع الذي تقيم فيه .

– إنها تقيم في شارع سانت أونوريه واسمها انطوانيت ، إذ لا عائلة لها . غير انها لفقت حديثاً لابن أخي فادعت انها ابنة بارونة .

فأدرك تيميلون ان في الأمر سراً ونظر الى كارل نظرة المشكك من صدق كلامه فطمع وقال له : إذا وجدت أماً فاسدة السيرة لهذه الفتاة فسجنتها

وأبطلت دعواها وأفسدت جميع براهين نسبها الذي يخال لي انك تخشى ظهوره. أتدفع لي مائة الف فرنك ؟

فاصفر وجه كارل وعلم ان كل إنكار مع الرجل محال وكل مساومة لا تفيد فقال : سأدفع لك المال .

– إذاً فاذهب الآن في شأنك وسأخبرك غداً بجميع ما أجريته .

فنهض كارل ومضى حتى إذا بلغ الباب عاد وقال : أتعلم شيئاً من أخبار سجن طولون ؟

– إني أعرف جميع المسجونين فيه وأعرف من فر منهم ومن بقي ، فسلني عمن تريد .

– أتعرف مجرماً سارقاً يدعى ميلون ؟

فأخذ تيميلون دفتراً ضخماً فقلب في صفحاته هنيهة وهو ينظر فيها ثم قال: نعم ، إن الرجل قد فر من سجن طولون منذ ستة أشهر .

فاصفر وجه كارل اصفراراً شديداً لم يخف على تيميلون فقال له : العلك تخاف منه ؟

– أخافه أكثر مما أخاف أنطوانيت ، ولم يعد سبيل معك إلى الانكار بعد اتفاقنا .

– إذاً ، فاعلم ان ميلون هذا قد فر مع رجل هائل ، لا نستطيع أن نجاريه في مضمار ، وكفى وصفاً له انه يدعى روكامبول . واعلم يا سيدي الفيكونت ان كل مال ضائع في مقاومة هذا الداهية واذا كان متفقاً مع ميلون فأيقن ان مساعينا خائبة ، واني أتنازل لك الآن عن المائة الف فرنك وأشير عليك ان تدع ابن أخيك يتزوج انطوانيت ، فذلك خير لنا جميعنا وأبقى إلا إذا أخبرتني بجميع أمرك دون ان تكتم عني شيئاً وأطلقت يدي في الانفاق

- سأخبرك بكل شيء .

– وأنا سأخاطر مع هذا الداهية فاذا ظفرت به بلغت أقصى درجات المجد والشهرة في مهنتنا .

- ١٣ -

في اليوم التالي لزيارة أجينور لأنطوانيت ، كانت انطوانيت راجعة من احد المنازل التي تدرس فيها الموسيقى وهي تسرع خطاها وتخترق الجماهير المزدحمة في الشوارع وتفتكر تارة بأجينور وتارة بميلون وآونة بذلك الاتفاق الذي عرفت به اسم عائلتها ، فتستطرد منها الى أجينور ولا تجسر ان تتم تصورها .

وفيما هي تسير إذ رأت رجلاً خارجاً من باب ناد كبير ، فوجف قلبها واضطرب سيرها لأن ذاك الرجل كان أجينور ، وقد رآها فأسرع اليها ورفع قبعته بملء الاحترام وحياها فردت لها التحية ، وحاولت أن تتم سيرها فاستوقفها بافتتاحه الحديث معها وقال لها : إسمحي يا سيدتي إذ قد لقيتك ان أقول لك في الحال ، لأني منذ الصباح أعد الدقائق وأنتظر المساء بفارغ الصبر .

الحق يا سيدي إني أذنت لك بزيارتي في هذا المساء وأنا أنتظرك ثم حاولت أن تسير

فقال لها : يا سيدتي ان الأمر يتعلق بميلون .

وكأن الاسم قد سحرها فوقفت في مكانها وقالت : ميلون ؟

– نعم يا سيدتي لقد خابرت عمي بشأنه فقبل التماسي وذهب في الحال الى دار الحكومة فعلم ان الرجل محمود السيرة في السجن وان اسمه وضع في لائحة الذين سينعم عليهم بالعفو

فسرت انطوانيت سروراً لا يوصف وقالت : متى يكون هـذا العفو الكريم ؟

– لا أعلم . غير ان عمي وعدني ان يبذل جميع مـــا لديه من النفوذ في سبيل الاسراع بالافراج عنه ثم ان هناك أمراً آخر أحب ان أقوله لك وهو اني قابلت ابي ايضاً وكلمته عنك .. وعن فضائلك .. وعن حبي . فأجابني أبي يا سيدتي انه سيلتمس منك بنفسه ..

فاحمر وجه الصبية وتلعثم لسانها فلم تعلم ماذا تجيب فزادت جرأة اجينور فأخذ يدها وقال : أيتها الآنسة المحبوبة ان ابي سيلتمس منك بنفسه ، لا تقضي علي قضاء مبرماً وتجعليني شقياً في غرامي الى الأبد .

فاضطربت الفتاة اضطراباً شديداً وحاولت الافلات منه وهي تقول إلى المساء يا سيدي الى المساء .

وفيما هي تحاول المسير رأت رجلين يسيران في مركبة سيراً حثيثاً فصاحت صيحة دهشة عظيمة وقالت : هو هو بعينه ومحال ان لا أعرفه !

فأسرع اليها أجينور وسألها : من هو ؟

– هو ميلون بذاته ذو اللحية البيضاء يسير بهذه المركبة .

ولم يمهلها اجينور وكانت مركبة معدة للأجرة واقفة في الشارع فأصعدها اليها وقال : سندركه يا سيدتي قبل ان يتوارى .

ثم جلس بجانبها وقال للسائق : إني أعطيك مائة فرنك ، إذا أدركت تلك المركبة .

وأشار اليها فضرب السائق جواد مركبته بالسوط فانطلق ينهب الأرض نهباً غير ان المركبة التي كان ميلون فيها حقيقة كانت ذات جوادين ، فلم تستطع إدراكها ثم اضطرت الى الوقوف لازدحام المركبات في الطريق فلم تستطع مركبة أجينور وانطوانيت إدراكها فتوارت عن الأنظار .

وعند ذلك عاد أجينور بالفتاة وهو يبسط لها في الطريق أجمل الأماني

وأشرفها ولما بلغ بها الى منزلها نزلت من المركبة وهي تضطرب فودعته والتمست منه ان لا يزورها في الليل لكثرة اضطرابها ولاحتياجها إلى الراحة فوعدها بالامتثال وانصرف .

أما انطوانيت فانها دخلت الى المنزل فرحة بوجود ميلون في باريس منقبضة لعدم تمكنها من إدراكه فلما دخلت الى غرفتها وجدت فيها رسالة ففضتها وأسرعت بنظرها الى التوقيع فقرأت البارون دي مورليكس .

- ١٤ -

وكانت الرسالة من والد اجينور وهي كما يأتي .

« يا ابنتي العزيزة

« لقد أخبرني اليوم ولدي بما كان بينكما وذكر لي عن فضائلك ما جعلني قرير البال على مستقبله فأرجوك ان تغفري لي كتابتي اليك خفية عن اجينور وان تكتمي عنه هذا الكتاب

« إن ولدي يحبك حباً لا يوصف ويرجو ان يعرف طريق قلبك بارشاد غرامه الصادق .

« وكنت أود ان أزورك بدلاً من ان أكتب اليك غير اني عثرت أمس فكسرت رجلي واضطررت الى ملازمة الفراش ، وإني لا أجد بداً يا ابنتي العزيزة من أن أراك وأحادثك ملياً في شأن ولدي محادثة لا يسمعها سوانا دون ان يعرف اجينور شيئاً من هذا اللقاء . فهل ترفضين لأبيه مثل هذا الطلب ؟

« إني واثق من انك لا ترفضين ، ولو كنت أستطيع الانتقال من سريري لأسرعت اليك ، فلا بد لي من العبث بجميع المعاملات والعادات

المألوفة والتمس منك ان تزوريني ، فاذا تفضلت يا ابنتي العزيزة باجابة ملتمسي تجدين مركبة على باب منزلك في الساعة التاسعة من هذا المساء . وأختم كتابي بتقبيل يدك الجميلة التي يبحث عنها ولدي بملء الاحترام » .

« البارون دي موركيكس »

ولما اطلعت انطوانيت على هذا الكتاب وهي حائرة مبهوتة لا تدري كيف تحكم عليه فلم تجد مرشداً في هذا المقام أفضل من مدام رينود فأخبرتها بجميع ما اتفق لها مع اجينور وتلت عليها الكتاب .

فظهرت علائم الفرح الشديد على وجه العجوز وقالت لها . إن السعادة قد فتحت لك أبوابها يا ابنتي لأن كل كلمة في الكتاب تدل على نبل كاتبها وإياك ان تتخلفي عن الموعد فان شرف هذا البارون لا ريب فيه .

وتركتها أنطوانيت وذهبت الى غرفتها فجعلت تتجمل على غير عادتها لأنها على فرط جمالها أحبت ان تزيد جمالاً كي تروق للأب كما راقت لابنه .

ولكنها ، مع سرورها لهذه السعادة المفاجئة ، كانت تشعر بانقباض في صدرها كأنها تتوجس شراً ، ثم تحمل هذه العوارض على محمل الرهبة فتطمئن .

وما زالت تتنازعها هذه العوامل الى ان أذنت الساعة التاسعة فودعت مدام رينود ونزلت الى الشارع فرأت مركبة جميلة واقفة على باب المنزل ، ولكنها ترددت في ركوبها فرفع السائق قبعته وفتح لها باب المركبة فقالت : أهذه مركبة البارون موركيكس ؟

– نعم يا سيدتي .

فصعدت اليها وأقفل السائق بابها ثم صعد الى مكانه وانطلقت المركبة تجري بتلك الفتاة الى حيث يريد السائق .

وكانت انطوانيت تعرف جميع شوارع باريس غير انها لم تنتبه الى مسير المركبة لأن الخيانة لم تخطر لها في بال ، ولأنها كانت مضطربة منشغلة بالتفكير

في مقابلة البارون .

ولكنها بعد ان سارت المركبة سيراً طويلاً استيقظت من سبات تصورها ونظرت في زجاج النافذة فعلمت انها تسير في شارع مقفر تكتنفه الأشجار من الجانبين وأنها باتت في ضواحي باريس ، فشغل قلبها ونادت السائق فلم يجبها وحاولت فتح باب المركبة فرأت انه محكم الاقفال من الخارج فوجف قلبها ولكنه لم يكلمها بل انه انتظر رجلاً صعد من الطريق الى المركبة وجلس بجانبه وعادت المركبة الى سيرها الحثيث .

ولما رأت انطوانيت انها محبوسة في تلك المركبة وأيقنت انها منخطفة جعلت تستغيث حتى ملأ صوت صراخها الفضاء ولكن صراخها لم يفدها لأن المركبة كانت تسير في مكان قفر لا يمر به أحد من الناس .

وما زالت حتى وقفت عند منزل يكتنفه شبه غابة فنزل الذي كان جالساً بجانب السائق وفتح باب المركبة ثم قال لانطوانيت بادب : انزلي يا سيدتي ولا تخشي امراً وكفي عن الصياح لأن الصياح لا يفيد .

غير ان انطوانيت لم تكترث لانذاره وجعلت تصيح وتستغيث راجية أن يسمعها أحد .

ولما قنط الرجل من إسكاتها جرد خنجره وأنذرها بالقتل فقالت : اقتلني ايها الشرير لأن الموت أحب الي من حياة العار .

ثم عادت الى الصياح فضغط على عنقها حتى أوشك أن يخنقها ، فكانت تعود الى الاستغاثة كلما أفرج عنها ، حتى أعياه أمرها ، فقال لها : إنك اذا استمريت على هذا الصياح ، عرضت حياتك وحياة أجينور للأخطار .

وكأن هذه الكلمة سحرتها فسكتت فجأة وبدت على وجهها علائم الذعر الشديد وقالت : أي خطر على أجينور وإلى أين اتيتم بي وماذا تريدون مني ؟

– خففي جزعك يا سيدتي فإننا لا نريد لك إلا الخير وما أتينا بك إلى هذا

المكان إلا لدفع خطر عظيم عن خطيبك أجينور وما هي إلا ساعة ويزول عنك ذلك الخطر الذي لا أعلمه فأبوح لك به فهلمي معي إلى هذا المنزل ولا يروعك هيئة المقيمين فيه وأخلاقهم فانها ساعة وتنقضي ثم تعودين إلى مقابلة والد أجينور الذي بات يحبك كما يحب ولده

فاطمأن خاطرها بعض الاطمئنان للهجة هذا الرجل لاسيما وقد علمت أن لا سبيل لها إلى المقاومة ومشت معه إلى ذلك البيت .

وكان هذا البيت مأوى لعصابة من اللصوص يجتمعون فيه نساء ورجالاً ، فكلما حدثت في المدينة سرقة أو جناية خفي أمرها عن الحكومة باغت البوليس هذه العصابة وقبض على أفرادها فأودعهم السجن إلى أن تنجلي الحقيقة .

ولما دخلت انطوانيت ذعرت لمرأى تلك العصابة ، فقد كانت مؤلفة من عشرة لصوص من الجنسين وهم جالسون حول مائدة عليها أنية كبيرة من الخمر يشربون ويقهقهون ولا يكترثون لمن يدخل اليهم أو يخرج من بينهم .

ولما رأوا أنطوانيت داخلة وهي تقدم رجلاً وتؤخر أخرى صاحوا جميعهم صياح الفرح والاستبشار وتكلموا بلغتهم الخاصة قائلين : ان الطير وقع في القفص وقد حان زمن الكسب بعد العطلة .

ولكن انطوانيت لم تكن تفهم شيئاً منهم فأقبلوا اليها وجعل بعضهم يمازحها وآخرون يتهكمون عليها وبعضهم يتظاهر بالغرام بها والغيرة عليها ، وهي كلما حاولت الفرار او الاستغاثة قال لها ذلك الرجل الذي صحبها : احذري أن تفوهي بكلمة إذا كنت تشفقين على اجينور .

وطال بها هذا الموقف الشديد حتى استولى عليها اليأس وجعلت تبحث بعينيها على تلك المائدة عن سكين تحفظها وتنتحر بها .

وفيما هي على هذا القنوط إذ علت صيحة من الخارج وسمعت أصوات السيوف تطرق على السلم فعلم اللصوص ان الشرطة فاجأتهم وقالوا : لا سبيل لنا إلى الدفاع فانهم لا يهاجموننا إلا بعدد أكثر من عددنا وإذا دافعنا كبرت

جريمتنا والتسليم خير لنا في كل حال .

وعند ذلك دخلت شرذمة من البوليس يتقدمها قائدها فأمر رجاله أن يوثقوا جميع الحضور .

وقبل أن يمتثلوا أسرعت انطوانيت إلى القائد وقالت له بلهجة تبين الصدق عنها بأجلى مظاهره : ان الله أرسلك يا مولاي كي تنقذني من هؤلاء الأشقياء

وبهت القائد لكلامها وهو يحسب أنها تريد التخلص من السجن بمثل هذه الحيل وقال لها : من أنت ؟

– أنا يا سيدي أدعى انطوانيت ابنة البارون دي ميار وقد ...

غير ان أولئك اللصوص المتفقين على المكيدة لم يكادوا يسمعون قولها انها ابنة بارون حتى ضحكوا جميعهم ضحكاً عالياً فقال أحدهم : لله درك ما أسرع تقمصك بالبارونة .

وقال آخر : كفى عصابتنا شرفاً ان فيها النبلاء .

وقالت أخرى : أنا يا سيدي القائد ، ابنة مركيز وقد اختطفني هؤلاء الأشقياء ..

ودنت إحداهن منها وقالت لها همساً على مسمع من رجال البوليس : بالله لا تنسي اني إحدى وصيفاتك .

وقال غيرها غير ذلك حتى علمت انطوانيت انه قضي عليها وأيقن قائد البوليس انها من العصابة فقال لها : هلمي بنا يا حضرة البارونة فان القضاء لا يخفى عليه مقام أمثالك . ثم أمر رجاله ان يخفروا العصابة ويطوقوها وساروا بهم وبينهم انطوانيت تسير مطرقة وهي تود لو تبتلعها الأرض أو تصعقها السماء إذ لم يعد لها رجاء إلا امام القضاء .

١٥

أما قبض الحكومة على العصابة فكان بتدبير تيميلون ، فانه أرسل أحـد أعوانه فادعى حدوث سرقة في مـنزله ، وأرسل آخر إلى إدارة البوليس فوشى بالعصابة ، واختطف انطوانيت بالاتفـاق مع كارل موروليكس ، فأتى بها إلى هذا المنزل ، وعلّم رجال العصابة ما يصنعون مقـابل أجرة معينـة فامتثلوا له فيما أراد .

فلما مثلت انطوانيت أمام رئيس البوليس جعلت تبكي بكاء متقطعاً يفتت الأكباد فحكت حكايتها بملء البساطة ، فتوجع لهـا المدير ولكن محضر كل واحد من اولئك المتهمين كان أمامه ، وقد تعود مثل هذه الأقوال فقال لها : تقولين ان اسمك انطوانيت دي ميلر وانك تقيمين في شـارع سانت اونوريه فكيف خرجت من منزلك ؟

قالت : بكتاب ارسله الي البارون دي موروليكس .

- إذن أنت تعرفين هذا البارون ؟

فحكت له أنطوانيت كل علاقتها مع أجينور .

فقال لها : أتعتقدين ان سائق مركبة البارون قد اختطفك ؟

- نعم ، ثم ذكرت له ما قال لهـا الرجل الذي كان يصحب السـائق واسمه ميلون عن اجينور وتعرضه للخطر فسأل رئيس البوليس هـذا اللص ، فأنكر قولها وقال : انه يعرفها منذ عهد قريب وانها هي التي تبعته الى ذلك المنزل من تلقاء نفسها دون ان يختطفها . ثم قال انها قد يكون لها معرفة بأجينور دي موروليكس فانه شاب جميل واسع الثروة كثير الانفاق .

فغطت انطوانيت وجهها بيدها وقالت كذب هذا المنافق فاني ما رأيته في حياتي .

فقال لها المدير : أتعلمين أين يقيم أجينور دي موروليكس ؟

— نعم ، في شارع سيرسنس .

فنادى أحد رجاله وقال له : اذهب في الحال إلى مـــنزل اجينور دي مورليكس فأيقظه من رقاده وقال له : ان فتاة تدعى ان اسمها انطوانيت دي ميلر وجدها البوليس الليلة بين عصابة لصوص متهمة بسرقة وانها تدعي معرفته ثم قل له اني لا أجد بدأ من ان أضعها هذه الليلة في السجن .

فصاحت الصبية منكرة وقالت : رباه أنا أبيت في السجون ؟

فجعل رجال العصابة يضحكون ضحكاً معنويـاً ويكلم بعضهم بعضاً على مسمع من البوليس فيقولون ما معناه: ان هذه الفتاة تفضلنا جميعاً ولواحترفت صناعة التمثيل بدلاً من صناعتنا لبلغت أقصى درجات الشهرة .

وبعد حين عاد البوليس الذي أرسله المدير إلى منزل أجينور فقـــال : انه سافر مساء أمس إلى بريطانيا وان بواب منزله حمل له أمتعته إلى السكة الحديدية .

فلما سمعت انطوانيت كلامه هلع قلبها وقالت : رباه لقد ضاع كل رجاء .

فقال لها المدير: إذا لم يكن لديك غير هذا البرهان فاني مضطر إلى ارسالك إلى السجن .

فذعرت وقالت ارسل من تشاء إلى منزلي فان البواب وامرأته ومدام رينود يعرفونني .

وقبل ان تتم كلامها دخلت امرأة عجوز إلى غرفة المدير فدنت من ميلون وقالت له مغضبة : تباً لك من شقي فانك أنت الذي أفسد أخلاق ابنتي .

فما صبر ميلون عن مجاوبتها وقال . إنها فاسدة قبل ان أعرفهـــا حين كانت في أحضانك .

أما العجوز فلم تجبه وأقبلت إلى انطوانيت تؤنبها بالنظر ثم قـالت لمدير البوليس : أرجوك يا سيدي ان ترد لي ابنتي وأنا أقسم لك اني أردعهـــا عن عن عشرة هؤلاء الأشقياء .

ثم جعلت تقبل انطوانيت وتضغط عليها ضغطاً شديداً يمنعها عن الكلام فقال لها المدير : كفى فاني لا أستطيع الليلة إطلاق سراح هذه الفتاة وستنظر المحكمة في أمركم غداً .

ثم أمر رجاله بايداعهم السجن وخرج ، أما أنطوانيت فانها أغمي عليها ولما استفاقت وجدت نفسها في السجن مع أسافل اللصوص والمجرمين .

- ١٦ -

ولنوضح الآن كيف ان أجينور برح باريس فجأة وما حمله على هذا السفر السريع ، دون أن يبلغ انطوانيت وذلك ان عمه كارل مدبر هـــذه المكيدة بالاتفاق مع تيميلون كان يديرها بحذق شديد بحيث رأى انه ليس من الحكمة أن يبقى أجينور في باريس بعد اختطاف حبيبته لأنه يشكل خطراً عظيماً على مشروعاته الهائلة .

وكان من عادة أجينور ان يذهب في الساعة السادسة من كل مساء إلى منزله في شارع سيرسنس فيأخذ رسائله ويذهب إلى النادي فيتعشى ويسهر فيه .

ولما أوصل انطوانيت إلى منزلها بعد يأسه من ادراكه مركبة ميلون عاد إلى منزله حسب عادته فدهش لأنه رأى على الباب مركبة عمه كارل وقال له البواب : ان عمه ينتظره في المنزل منذ ساعة .

فصعد مسرعاً اليه فاستقبله عمه ببشاشة وقال له : إنك لم تكن تتوقع أن تراني في منزلك ايها العاشق المفتون فلا تعلم السبب في وجودي .

– هو الحق ما تقول يا عماه فقد شغلت بالي .

– ليس ما يشغل البال فقد جئت لأحادثك بشأن زواجك .

– أقال لك ابي كل شيء ؟

ـ ان أباك لا يكتم عني أمراً وأنا مسرور جداً لزواجك فانه غاية ما تتوق اليه نفسي .

ـ إذن فانت راض عن زواجي بتلك الفتاة الطاهرة .

ـ كل الرضى فقد ذكر لي أبوك عن فضائلها ما يجب أن يكون زينـة كل امرأة طاهرة ولولا رضاه لما كنت بدأت بخدمتك .

ـ كيف ذلك ؟

ـ ألم يخبرك أبوك عن اهتمامي بأمر ميلون ؟

ـ نعم ولكن تعليماتك كانت مخطئة بشأنه ولم يعد سبيل لالتماس العفو عنه واخراجه من السجن فقد عفا عن نفسه كما يظهر وبرح السجن من تلقاء ذاته .

فاضطرب كارل وسأله كيف ذلك فأخبره اجينـــور بجميع ما اتفق له وكيف انه اقتفى أثره مع انطوانيت فلم يتمكنا من ادراكه فشعر كارل بالخطر واحب الايهام على ابن أخيـه وقال له : لا شك أن خطيبتك قد رأت رجلاً يشبه ميلون لأنه قد يصح ان يتمكن من الفرار من سجن طولون ولكنه لا يعقل ان الحكومة لا تعلم بأمر فراره ولو كان فراره حقيقة لكنت عرفت ذلك أمس وفي كل حال فسنبحث في هذا الأمر بعد رجوعك .

فاجفل اجينور وقال ماذا تريد برجوعي ألعلي مسافر ؟

ـ نعم يا بني فستسافر بعد ساعة إلى بريطانيا وهو سفر لا بد منـه ، فان عمتك على فراش النزاع وهي تطلب ان تراك في الحال فتقيم عندها يوماً او يومين ثم تعود .

فذعر اجينور لهذا السفر الفجائي وبعد جدال طويل اضطر الى الاقتناع لا سيما وانه سيرث ثروة عظيمة من عمته فقال له : ألا ارى ابي قبل سفري ؟

ـ لا حاجة إلى ذلك فهو يعلم انك مسافر الليلة وقد حان سفر القطار .

ـ ألا اكتب كلمة على الأقل لأنطوانيت ؟

ـ اكتب ما تشاء وانا سأحمل كتابك إلى ابنتنا الجديدة فيكون وسيلة

معرفتي بها .

فسر اجينور من تلطف عمه وكتب الكتاب وأعطاه اياه ثم ذهب معه إلى المحطة ولم يفارقه لحظة حتى رأى القطار قد سافر وهو فيه .

وبعد ان وثق كارل من سفر ابن اخيه عاد الى منزله فوجد تيميلون ينتظره فيه فنظر تيميلون ساعته وقال : لقد دنت الساعة العاشرة فلا بد ان يكون قضي الأمر ، ومع ذلك فهلم بنا نتحقق الأمر بانفسنا كي تعلم اني لم آخذ مالك من غير حق .

فذهبا إلى منزل انطوانيت ووجدا ان المركبة المعدة لاختطافها برحت المكان الواقفة فيه فعلما انها سارت بالفتـاة ثم قال له : هلم بنا الان إلى ادارة البوليس حيث تعلم منها الحقيقة وتطمئن .

- ١٧ -

بعد ان وجد روكامبول الصندوق وقرأ اسرار البارونة قال لميلون : هلم بنا الان للبحث عن الأختين فقد آن الأوان فقد قلت لي انهما كانتا مقيمتين في مدرسة وان امهما عهدت إلى ناظرتها بتربيتهما أتذكر اين كانت تلك المدرسة ؟

— نعم .

-- إذن لنذهب اليها .

وسار الاثنان إلى الشارع الذي كانت فيه تلك المدرسة فرأيا انها قد تحولت إلى منزل مأجور ونظر ميلون في ذلك الشارع فرأى كل شيء قد تغير ولكنه رأى دكاناً لبائع دخان لا يزال في موضعه على حاله ورأى صاحب الدكان واقفاً على بابه فعرفه وأخبر روكامبول بامره فجاء روكامبول واشترى منه لفافة من التبغ وحادثه بشأن هذا الشارع وسأله عن المدرسة فعلم منه ان ناظرتها تدعى

مدام رينود وانها افلست منذ عهد طويل فضبط اثاثها وبيع بالمزاد وهو لا يعلم أين تقيم الان .

فقال له روكامبول : أتعرف المحضر الذي ضبط الأثاث ؟

– نعم وهو يقيم في آخر عطفة من هذا الشارع .

فتركه روكامبول وذهب مع ميلون إلى منزل هذا المحضر فعلما منه أين تقيم مدام رينود .

وبعد ساعة كان روكامبول وميلون واقفين عند باب منزل انطوانيت فنادى روكامبول البواب وقال له : اليس هنا منزل مدام رينود ؟

– نعم ..

– قل لي في أي دار تقيم فاني أريد ان اراها في الحال .

– لا سبيل إلى مقابلتها الآن يا سيدي فانها لا تزال في فراشها إلا إذا ..

– قلت لك انه يجب ان أراها في الحال.

– العلك قادم باخبار من المدموازيل أنطوانيت ؟

– وأين هي تلك السيدة ؟

– إنها خرجت من المنزل في الساعة التاسعة من المساء ولم تعد الى الآن وقد بحثنا عنها في كل مكان فلم نجدها حتى اننا جميعاً لم ننم ليلة أمس وفي الصباح ذهبت إمرأتي إلى منزل البارون الذي يظهر انه كتب إلى المدموازيل أنطوانيت وأرسل لها مركبته .

– من هذا البارون ؟

– هو والد أجينور دي موركيس وهو شاب غني يحب أنطوانيت حباً شديداً .

فأن ميلون أنين الموجوع غير أن روكامبول ضغط يديه ضغطاً شديداً وقال له اسكت

وعند ذلك دخلت امرأة كانت امرأة البواب وقالت بصوت مضطرب :

لم أجدها .

فلما رآها ميلون صاح صيحة دهش إبنة عمي !

فانذهلت إمرأة البواب أشد من انذهاله وقالت : ميلون !

ثم جعل الاثنان يتعانقان .

فبهت الزوج لهذا العناق ولكنه اطمأن لكلمة القرابة التي كانا يتبادلانها .

أما روكامبول فانه خشي ان يفتضح امر ميلون فدخل بهم جميعاً إلى الداخل واقفل الباب

ثم قال لامرأة البواب : سنخبرك فيما بعد كيف عاد ابن عمك من السجن أما الآن ، فاننا ما جئنا إلى هنا إلا كي نرى مدام رينود والاختين المقيمتين معها .

– لا يقيم هنا غير انطوانيت ، اما اختها مدلين فانها سافرت إلى روسيا ، وحكاية هذه المسكينة ان ابن البارون دي موروليكس فتن بها واراد الزواج منها ، وقد جاءها امس كتاب من والده وأنا قادمة من عنده ..

– ماذا قال لك والده عن هذا الكتاب !

– قال انه كتاب زور وان مركبته لم تخرج من اصطبله امس وانه يظن بان ابنه احتال على الصبية واختطفها .

غير اني أعتقد ان اجينور يحب انطوانيت حباً شريفاً وانه لم يحتل عليها في شيء .

– أعرف أحد من الجيران بهذه الحادثة ؟

– كلا غير ان زوجي في نيته اخبار البوليس .

فقال روكامبول : احذروا أن تخبروا البوليس بشيء وإياكم اطلاع احد على هذه الحادثة .

ثم التفت إلى ميلون وقال لقد اتينا متأخرين فان الفتاة اصبحت في قبضة اعدائنا .

فقال ميلون وهو يضطرب : على ماذا عولت ؟
– لا أعلم بعد ، ولكني سأعلم ما أريد بعد ساعة .
– الا تريد ان ترى مدام رينود ؟
– لم يعد لنا بها حاجة الآن .
ثم التفت الى امرأة البواب وقال لها : انك تعلمين دون شك ان ابن عمك ميلون يحب هاتين الأختين حباً شديداً فاعلمي الآن اني صديقه واني لا بد لي من إيجاد الصبية ولكن لا بد لي ايضاً في هذا السبيل من إخلاصك في طاعتي .

– قل ما تشاء

– يجب بعد ذهابنا ان تعودي الى مدام رينود وتخبريها ان انطوانيت لم تصب بسوء ، وان البارون دي مورليكس نفسه هو الذي قال لك هذا القول اما انطوانيت فستعود قريباً .
– ولكن يا سيدي كيف يمكن ان اقول لها هذا القول إذا لم اكن واثقة من عودتها .

– كوني واثقة فاني اعرف مكانها ، وإذا عصيتني فيما اوصيتك به افسدت علي جميع امري فطمنيها كما اخبرتك واطمئني أنت ايضاً فاذا لم تعد انطوانيت اليوم فهي ستعود قريباً اذ لا بد لي من ايجادها . ثم اشار الى ميلون وقال له : هلم بنا الى الطبيب فنسانت ولم يعد لنا ما نعمله في هذا المكان .
ثم ودعا البواب وامرأته بعد اعادة الوصايا عليهما وركبا مركبة وذهبا بها الى منزل نويل وهناك تنكر روكامبول بلباس عمال المستشفيات وتنكر ميلون بزي آخر ودخلا كلاهما الى غرفة الطبيب المجاورة لغرفة نويل كما يذكر القراء.

فلما رأى الطبيب روكامبول بزيه الجديد انكره وسأله من أنت وماذا تريد؟
أنا صاحبك بالأمس فاجلس على مائدة الكتابة لأخبرك بما أريد .

فعرفه الطبيب من صوته وامتثل له فأخذ القلم بيده وأملا عليه روكامبول ما يأتي

« سيدي البارون

« أغتنم فرصة علائقنا السابقة فأسألك قضاء مهمة لا أظنك تبخل علي قضائها ، وهي اني في عسر مالي شديد ، فأرجو ان تبعث لي مع رسولي بعشرين الف فرنك » .

فقال له الطبيب : ما هـذا السؤال ؟ فإنه شبيه بالنصب ، بل هو النصب بذاته .

قال روكامبول : كلا ولكنها حيلة تذرعت بها للدخول الى منزل البارون ، وسوف ترى ما يكون .

فامتثل الطبيب وأتم كتابة الكتاب دون اعتراض .

- ١٨ -

كان البارون دي مورليكس ينتظر عودة أخيه الفيكونت كارل . أما كارل فإنه توقع حدوث ما حدث ، أي انه توقع ان مدام رينود ستسأل أخاه البارون عن انطوانيت . فعلمه ما يجب ان يصنع فلما جاءت اليه إمرأة البواب أنكر الكتاب أتم الانكار وكان صادقاً في إنكاره ، لأن ذلك الكتاب لم يكتبه عن لسانه إلا تيميلون بالاتفاق مع كارل .

غير أنه قبل ان يحضر كارل لعيادة أخيه حضر اليه رجل آخر فقـــال لخادمه : إني قادم من قبل الطبيب للسؤال عن صحة مولاك ، وإني أحب أن أراه .

فأدخله الخادم الى غرفة البارون .

وكان هذا الرجل روكامبول وهو لا يزال متنكراً بزي رجال المستشفيات فلما مثل أمام البارون قال له : إني يا سيدي أحد تلامذة الطبيب فنسانت

وقد أرسلني اليك استـاذي للاطمئنان عن صحتك ، ولأرفع اليك هـذا الكتاب .

فمد البارون الى الرسالة يدأ مرتجفة وفضها فلما قرأ ما فيها قال لروكامبول: ان الطبيب فنسانت من اصدقائي المخلصين فلا يسعني التغاضي عما يطلبه غير اني مهما كنت غنياً ...

فقاطعه روكامبول وقال . نعم،فانه لا يمكن ان يوجد في منزلك عشرون الف فرنك .

– هو ما تقول . ولهذا فلا بد لي من ان أحملك على الانتظار ساعة الى ان أحضر هذا المبلغ من عند عميلي .

– لا بأس فسأنتظرك .

ثم جلس على كرسي وجعل البارون يكتب الى عميله، فلما أتم كتابته نادى أحد الخدم وأمره ان يذهب بالكتاب الى عميله .

وقـد حاول البارون ان يعـلم إذا كان روكامبول واقفـاً على شيء من أمر الطبيب ، فكان روكامبـول يجيبه على أسئلته ببلاهة اطمـأن لها خاطر البارون .

وعند ذلك سمع صوت مركبة وقفت على الباب وكان روكامبول جالساً أمام النافذة فأطل منها فرأى اثنين قد نزلا من المركبة ودخلا الى ردهة المنزل وكان هذان الرجلان الفيكونت كارل وتيميلون .

وبعد هنيهة دخل كارل وجلس على جانب سرير أخيه ثم كلمه بلغة حسب ان روكامبول يجهلها فقال له : من هذا الرجل ؟

فأخبره البارون بأمره بنفس اللغة قائلاً لقد بدأ بالنصب فاذا كان قد بدأ بعشرين الف فرنك فلا أعلم كيف ينتهي ؟

– لا بأس إدفع له وسترى بعد ذلك في أمره والآن قل لهذا الرجـــل ان يدخل الى الغرفة المجاورة

فقال البارون لروكامبول : يسوءني أني سأدعوك الى الانتظار ساعــــة فقد تدركك السأمة فاذا شئت فان في الغرفة المجاورة كثيراً من جرائد الصباح تتسلى بقراءتها الى ان يعود الخادم .

فشكره روكامبول ودخل الى الغرفة وأخذ جريدة كبيرة وغطى بها وجهه وهو يوهمهما انه يقرأ ويصغي الى حديثهما أتم الاصغاء .

وكان الحديث بين الأخوين دائراً على انطوانيت . فأخبره كارل كيف انهم قبضوا عليها وهي بين جماعة اللصوص وكيف ثبت عليها اشتراكها مع العصابة بالرغم عن دفاعها وكيف انهم اخترعوا لها تلك الأم التي جاءت الى إدارة البوليس تطيبها فنقضت جميع أقوالها الى آخر ما عرفه القراء .

كل ذلك وروكامبول مصغ الى الحديث أتم الاصغاء بحيث لم يفته كلمة منه الى ان قال كارل لأخيه . اصبر الى ان ينصرف هذا الأبله (مشيراً إلى روكامبول) فادخل عليك تيميلون لأن هذا الداهية قد وضع خطة هائلة تضمن لنا بقـــاء انطوانيت في سجن لازار إلى آخر العمر فتعلم ان الرجل يخدمنا أجل خدمة ولا يختلس مالنا دون حق .

فلما سمع روكامبول اسم تيميلون عض على شفته من الغيظ لأنه كان يعرف ذاك اللص ويعلم انه لا يقف بجرائمه عند حد .

وعند ذلك عاد الخادم الذي أرسله البارون الى عميله ودفع ليده غلافاً يحتوي على أوراق مالية قيمتها عشرون الف فرنك فنادى البارون روكامبول وأعطاه المال فأخذه وخرج .

وقبل ان يبلغ الردهة العمومية رأى تيميلون جالساً فخشي ان يعرفه إذ رآه فأخذ منديلاً من جيبه وعطس عطساً متتالياً بحيث اضطر الى إخفـــاء وجهه بالمنديل فمر دون ان يتمكن من النظر اليه .

ولكن تيميلون لم يخطر له التنقيب عنه ، لأن ملابســه كانت تدل على اشتغاله بالطب ، ووجود مثل ذاك الرجل عند البارون العليل لا يحمل على شيء

من الشبهة .

أما روكامبول فإنه بعد ان اجتاز تيميلون جعل يبحث بنظره عن ذلك الخادم الذي أحضر الأوراق المالية ، فرآه واقفاً عند باب الردهة . ولمـــا خرج أشار اليه ان يتبعه فتبعه حتى وصلا الى باب المنزل الخارجي فخلا به روكامبول ثم نظر اليه تلك النظرات الساحرة وقال له أتعلم مـــاذا حملت لمولاك من عند عميله ؟ إنك قد حملت اليه ثروة طائلة لو علمت بأمرها لما دفعتها اليه بل كنت هربت بها إلى مكان تعيش فيه سعيداً بفضلها .

ثم أخرج من جيبه تلك الأوراق المالية وجعل يقلبها أمامه حتى بهر ناظريه ثم قال له· ولكن هذه الثروة التي كنت تستطيع ان تستولي عليها خلسة وحراماً ادفعها لك بجملتها إذا طاوعتني فيما اريد دون ان تقع عليك تبعة او يطالبك أحد بشيء

ولما رأى ان الخادم المسكين قد ضغطت الأوراق على صوابه أخرج منها ورقة قيمتها الف فرنك وقال له : خذ هذا المال الآن عربون اتفاقنـــا واذا طاوعتني أعطيتك جميع ما في هذه الحقيبة .

فاندهش الخادم وقال له قل ماذا تريد مني ؟

ــ لا اريد الآن إلا ان أسمع حديث سيدك مع أخيه دون ان يراني احد من سكان المنزل فاذا بلغتني مرادي كان لك مني خير عظيم .

فبرقت اسرة الخادم وقال : إذا لم تكن تريد مني غير هذا فهو سهل ميسور ثم قال له : إتبعني .

فسار روكامبول في أثره الى غرفة متسعة ففتح باباً فيها يتصل بغرفة صغيرة فأدخله اليها وقال له همساً إن هذه الغرفة ملاصقة لغرفة نوم البارون المقيم فيها الآن لا يفصل بينهما غير الحائط الخشبي الرقيق وانظر الى النافذة المفتوحة فيها فانها تطل على سرير البارون فاذا وقفت على كرسي وأطللت منها رأيت وسمعت كل شيء .

فصرفه روكامبول بالاشارة ووضع كرسياً تحت النافذة وصعد عليها فرأى الأخوين وتيميلون يتحادثون وظهورهم الى النافذة وكان تيميلون يشرح للاخوين الخطة الهائلة التي اختطها لسجن الصبية فعرف روكامبول جميع ما يريد معرفته وأسرع بالخروج من هذا المنزل الجهنمي فرأى الخادم ينتظره على الباب فأعطاه الف فرنك أيضاً وقال له : سأراك فيما بعد .

ثم مشى عطفة في الطريق حيث كان ميلون ينتظره بمركبته فركب بجانبه وأمر السائق ان يسير بمركبته الى منزل انطوانيت .

وكانت علائم الاضطراب بادية في وجهه فقال له ميلون أعلمت اين هي انطوانيت ؟

– نعم ، وليتني لم أعلم . فإنها وقعت في قبضة أعدائها وقد توفق هذان الأخوان إلى لقاء شريك قد يشابهني بالدهاء . ولكني لا بـد لي من الفوز عليهم باذن الله ، فإني أقصد منزلها غير اني أخشى أن أصل قبل فوات الأوان .

وما زالت المركبة تسير بهما حتى وصلت الى منزل انطوانيت . وكان روكامبول قد خلع ثوب تنكره في الطريق فاستقبلهما البواب فرحاً مسروراً وقال لقد وجدنا انطوانيت .

ففرح ميلون فرحاً لا يوصف خلافاً لروكامبول فقد اصفر وجهه وسأل البواب : كيف وجدتموها ؟

– إنها أرسلت تطلب اليها مدام رينود وقد جاءت برسالة منها إمرأة عجوز قالت انها في خدمة عمة اجينور فلما أطلعت مدام رينود على رسالة انطوانيت ذهبت بمركبة تلك العجوز لموافاة انطوانيت تصحبها إمرأتي .

فاضطرب روكامبول وسأله : والعجوز ؟

– إنها أقامت في منزل مدام رينود ثم جاء رجلان فصعدا اليها وأقاما عندها هنيهة ثم نزلا ونزلت معهما وقالت لي : كن مطمئناً فسأعود قريباً ، وركبت مع

الرجلين في مركبة واحدة .

– إنك لا تعلم اين ذهبت ولكني أنا أعلم فانها ذهبت الى دائرة البوليس ومنها الى المحكمة وسيزجون انطوانيت في سجن لازار .

فاضطرب ميلون حتى اوشك ان يذهب صوابه وقال : أمثل هذه الفتاة الطاهرة يزج في السجون ؟

فقال له روكامبول: إحذر من ان تذكر حرفاً عنها بعد الآن فاننا لا نستطيع التداخل بشأنها لدى الحكومة لأننا هاربون من السجن وان تيميلون قد نال الفوز الأول ولكن الفوز سيكون لي في النهاية .

– ١٩ –

أما هذه المرأة العجوز فقد أرسلها تيميلون الى منزل مدام رينود لتحل محلها لدى القضاء . فقد عرف القراء ان إدارة البوليس إذا كانت اكتفت بشهادة اللصوص على انطوانيت فحكمت بايقافها توقيفاً تدعو اليه الظواهر الأولية ، فان المحكمة لا تنظر في قضيتها نظراً عارضاً ، وانها لا بد أن تخبرها على محل إقامتها وعن مدام رينود فإذا عرفت من مدام رينود حقيقة أمرها أطلقت سراحها في الحال . ولذلك فقد جعل همه إبعاد مدام رينود عن المنزل ، وإقامة تلك المرأة العجوز مكانها فيه ، حتى إذا جاءها البوليس وسار بها الى المحكمة كانت لدى القضاة مدام رينود نفسها ، فتبنى حكمها على أقوالها .

ويذكر القراء ان انطوانيت كتبت مرة الى اجينور وقد وقع الكتاب بيد عمه كارل فأعطاه لتيميلون فقلد خطها تقليداً غريباً وكتب بلسانها الى مدام رينود تخبرها فيه ان والد اجينور معارض بعض المعارضة في زواجه وانها مقيمة

عند عمة اجينور وترجوه الحضور اليها .

ولما وصل هذا الكتاب فرحت به فرحاً لا يوصف لأنها رأت ان الخط خط انطوانيت وان مظاهر تلك العجوز تدل على النبل والشهامة فأسرعت الى موافاتها .

وقد قالت لها العجوز : ان عم اجينور يريد ان يقابلها في هذا المنزل مقابلة سرية للبحث في شؤون زواج ابن اخيه وسألتها ان تسمح لها بالبقاء في منزلها الى ان يحضر الفيكونت كارل .

فقبلت مدام رينود بملء الارتياح وركبت المركبة مع امرأة البواب التي اضطرت الى مرافقتها لأنها كانت مريضة .

ومما أجراه تيميلون إتماماً لمكيدته انه أرسل اثنين من عماله لاستئجار غرفة في ذلك المنزل الذي تقيم فيه انطوانيت . فصعد أحدهما مع البواب لمشاهدة الغرف الفارغة واختيار واحدة منها وبقي رفيقه في المكان الذي يقيم فيه البواب .

وعند ذلك حضر اثنانمن رجال البوليس السري وسألا هذا البواب الكاذب قائلين : أهنا تقيم مدام رينود ؟

– نعم في الدور الثالث نمرة ١٩ .

فصعدا اليها وبعد حيننزلا بها وهما واثقان انها مدام رينود بعينها كل ذلك والبواب لا يعلم شيئاً لانشغاله مع المستأجر الجديد .

أما روكامبول فإنه بعد ان علمهذه التفاصيل من البواب صعد الىغرفةمدام رينود فرأى كتاب انطوانيت المزور علىالطاولة فقال بعد قراءته : إن خصمنا قوي ولكني أنا قوي أيضاً.

أما ميلون فكان ينتف شعوره من الغيظ فطيب روكامبول خاطره وقال له : لقد رأيت من أعمالي ما استدللت منه على قوتي ودهائي ، فاذا كنت تشكك بي ولا تطيعني كما أريد ، تخلفت عنك وتركت الصبية

لأعدائها .

فأجفل ميلون وقال : بل أطيعك فمر بما تشاء .

– إذهب الآن الى السكة الحديدية وسافر بأول قطار الى الرين ، حيث يقيم هناك اجينور دي مورليكس ، فابحث عنه حتى تجده ومتى وجدته قل له انك ميلون وان انطوانيت في خطر شديد وقدومه الى باريس لا بد منه .

ثم خرج الاثنان ، فذهب ميلون الى المحطة ، وذهب روكامبول في أمر آخر .

أما تلك المنكودة انطوانيت فانها دافعت عن نفسها دفاع القانطين أمام المحكمة ، وطلبت الى القضاة ان يسألوا عنها مدام رينود فأمر القاضي اثنين من البوليس باحضارها وأعيدت انطوانيت الى مكانها في محل التوقيف . وبعد ساعة عاد البوليس بتلك المرأة العجوز صنيعة تيميلون وهم يحسبونها مدام رينود ، فاختلقت عن انطوانيت أموراً تفسد جميع أقوالها السابقة . فحكمت المحكمة عليها بالسجن في سانت لازار مع السارقات والمومسات ، فحملت معهن بمركبة السجون الخاصة الى ذلك السجن الرهيب وهي مغمي عليها . فلم تصح على نفسها إلا وهي في السجن ، بين اولئك الفتيات الآثمات اللواتي تعودن العيش في السجن ، فلم يؤثر عليهن وجودها فيه ، بل كن يضحكن لبكاء انطوانيت . وقد انقسمن الى حزبين : حزب رثى لبلواها ، وحزب ساءه كبرياءها فاندفع في عدائها وزيادة بلائها ، حتى أوشكت ان تجن لهذا المصاب .

* * *

ولنعد الآن الى فاندا الروسية التي بسطنا تاريخها في مقدمة هذه الرواية فانها

أصبحت عبدة لروكامبول بعد إنقاذه بونفير من الاعدام وكانت تقول له في كل يوم : متى تحتاج إلي ؟

فيقول لها . لم يحن الوقت بعد .

وكان روكامبول معروفاً لدى الهيئة الباريسية باسم الماجور أفاتار وان فاندا الروسية امرأته ، فلم يكن يشكل من امرهما على خدم المنزل غير تأخر الماجور أفاتار بعودته الى المنزل ، فكانوا يعللون تأخره بميله الى المقامرة مثل أكثر أغنياء الروسيين .

وقد عاد الى المنزل بعد الحوادث المتقدمة عند الظهر ، فدخل تواً إلى غرفة فاندا ، فوجدها جالسة تنتظره فقالت له : العلك عرفت شيئاً عن الأختين ؟

– نعم ، عرفت كل شيء . وأنا محتاج اليك لأني سأبعث بك إلى السجن .

فبرقت أسرة فاندا من الفرح وقالت باخلاص لا حد له : إبعث بي الى الموت إذا شئت .

– كلا بل سأرسلك الى سجن سانت لازار .

– لأي قصد ؟

. لإنقاذ انطوانيت ميلر منه وهي إحدى الاختين .

ثم حكى لها جميع ما قدمناه من التفاصيل من حين عثوره على الصندوق إلى النهاية وقال لها : إني احاول أن تبقى فضيحة هذه الفتاة مكتومة لا تحول دون زواجها باجينور

- كيف يمكن ذلك ، وهي ستحاكم أمام المجالس وينشر الحكم عليها في الجرائد ؟

– إنها لم تحاكم بعد المحاكمة النهائية ، وهي مقيمة مؤقتاً في السجن إلى أن يصدر الحكم النهائي وسترد اليك تعليماتي وأنت في السجن ، فخذي هذا

الدبوس الذهبي وخبئيه بين شعورك ، واحذري من أن يضيع لأن كل السر فيه وإذا فقد منك فلا يعود لنا رجاء بانقاذ الصبية من السجن ، ثم تهيأي للدخول الى السجن فالبسي غداً ملابس الفتيات الماجنات واحضري إلي في القهوة الانكليزية بعد العشاء حيث تجدينني أنتظرك فيها فأخبرك بما يجب أن تصنعيه .

وبعد ان اتفقا على ذلك تركها روكامبول وذهب الى حيث يقيم نويل فقال له لقد بدأ دور عملك فاني أريد أن تبحث لي عن امرأة تعرف جميع خفايا سجن سانت لازار .

ــ إن ذلك ميسور فاني أعرف فتاة تدعى شيفيوت من مشاهير السارقات بحيث انها تقيم معظم أيامها في هذا السجن وربما كانت مقيمة فيه الآن وهي كثيرة المهارة وافرة الذكاء حسنة الاخلاص .

وسار الاثنان الى بيت تلك الفتاة وسألا صاحبة المنزل عنها فقالت لهما: إنها لم تعد منذ يومين .

فسألها نويل عن عشيقها جوزيف فقالت له . إنه في هذه القهوة القريبة .

فتركها نويل وذهب مع روكامبول فرأى جوزيف جالساً معتزلاً في تلك القهوة فجلس بالقرب منه مع روكامبول ودعاه اليه فلبى الدعوة مسرعاً وسلم عليه سلام الأحباب لأنهما كانا في عصابة واحدة منذ أعوام .

وبعد ان سأل كل منهما الآخر عن حاله قال له جوزيف : في أية عصابة تشتغل اليوم وهل أستطيع ان أفيدك في شيء ؟

ــ نعم ، إني اتيتك لأمر خطير قد يكون لك منه فائدة اذا اتفقنا .

ــ حبذا ذلك ، لأن أشغالنا باتت في كساد ولو لم تكسب خليلتي شيفيوت أمس الف فرنك لكنت اليوم في مصاف القانطين .

ــ كيف كسبت هذا المبلغ العلها سرقته حسب العادة ؟

ــ كلا بل كسبته بطريقة أفضل من السرقة فاننا نشتغل اليوم لحساب أبناء

العائلات الكبرى تحت أوامر تيميلون .

فأصغى روكامبول إصغاء تاماً لذكر تيميلون ، وجعل جوزيف يقص عليهما جميع ما علمناه من أمر تلك المكيدة التي كادها لأنطوانيت ، وكيف ان شيفيوت سجنت معها في سجن سانت لازار بعد أن قبضت من تيميلون الف فرنك .

ولما انتهى من حكايته قال له : والآن ، أية خدمة أستطيع أن أخدمك إياها ؟

وكان روكامبول نظر نظرة خفية إلى نويل ، فقال نويل : إن خطتنا لم يتم وضعها بعد أفلست تقيم كل يوم في هذه القهوة ؟

— نعم .

— إذن سأمر بك غداً وسنرى .

ثم ودعه وانصرف .

فلما صارا خارج القهوة قال له روكامبول : يجب ان تراقب هذا الرجل في الليل والنهار لأني سأحتاج اليه .

وما سارا بضعة خطوات حتى وقفا على بائعة تبغ فقال له روكامبول : أهذه هي المرأة التي قلت لي عنها .

— نعم .

— إذاً أدخل اليها واتفق معها على ان تقبض غداً على فاندا حين تمر بها وتدعي انها سرقتها وادفع لها نصف الأجرة مقدماً ثم قل لها ان الحادثة ستجري قرب القهوة الانكليزية ، فلتحضر اليها غداً بعد العشاء بحجة انها تحضر لي صندوقاً من السيجار .

فامتثل نويل ، وبعد ربع ساعة عاد الى رئيسه وقال له : قضي الأمر وتم الاتفاق .

وفي اليوم الثاني كان روكامبول مخنوبل في القهوة الانكليزية يتناولان طعام العشاء مع فاندا الروسية ثم أقبلت بائعة التبغ حسب الاتفاق فعلمها روكامبول ما يجب ان يصنعاه وافترق عنهما بعد ان أوصى بالاحتراس على الدبوس الذهبي .

وعند منتصف الليل انطلقت فاندا في أحد الشوارع الكبيرة تمشي فيهامشية تحمل على الريبة فكان الشباب يستوقفونها على الطريق .

وفيما هي تكلم أحدهم أقبل البوليس فتظاهرت بالخوف الشديد وحاولت الفرار غير انه قبض عليهاوسألها الى اين ذاهبة فلم تجبه بل كانت تتظاهر بالرعب وتلتمس منه ان يطلق سراحها .

ولما أوشك البوليس ان يطلقها لتأثره من مظاهر خوفها أقبلت بائعة الدخان وتظاهرت انها تنظر الى تلك المرأة نظرة المتفرج مع الواقفين ولكنها ما لبثت ان دنت منها وتبينت وجهها حتى علقت باردائها وصاحت بالبوليس قائلة إياك أن تطلق سراحها لأنها سارقة وقد سرقتني أمس فما عثرت بها إلا هذه الليلة وانا بائعة دخان وهذه رخصتي النظامية .

فلما رآها البوليس لم يعد لديه شك بجريمة فاندا فقبض عليهاوساقها الى إدارة البوليس تصحبها بائعة الدخان وبعد استنطاقها وسماع أقوال البائعة فتشوا جيوبها فوجدوا معها ورقاً للعب ومائتي فرنك وكانت فاندا تدافع عن نفسها دفاعاً ضعيفاً لا يثبت التهمة عليها ولاينفيها فأمر مدير البوليس بارسالها مؤقتاً إلى سجن سانت لازار فأخذت اليه وسجنت في سجن التوقيف مع انطوانيت وبقية العصابة التي لم يصدر عليها الحكم النهائي .

وهناك أخذت الراهبات ما كان معها من المال فأخذت فاندا مشطاً ذهبياً من رأسها فأعطته لاحداهن والتمست منها ان تبيعه كي تستعين بثمنه وهي في السجن

الى ان يخرجوها منه فأخذت الراهبة المشط منها ووعدتها خيراً دون أن تنظر الى ذلك الدبوس الذي خبأته في شعرها الكثيف .

ولقد تقدم لنا القول أن بنات السجن انقسمن الى قسمين قسم كان مشفقاً على انطوانيت راثياً لبلواها لأن تلك العصابة كانت عارفة بأنها ضحية تيميلون وكان في طليعة هذا القسم فتاة تدعى مرتون الحسناء وقسم كان مغضباً عليها مستاء منها لكبريائها في طليعة هذا القسم شيفيوت خليلة ذلك الرجل الذي قابله روكامبول وطلب الى نويل ان يراقبه فكانت شيفيوت تعذبها بقوارص كلامها السافل وكانت مرتون تعزيها لمصابها وتتولى خدمتها والدفاع عنها حتى أنست بها انطوانيت وطلبت اليها ان تعينها على إرسال رسالة الى اجينور فوعدتها خيراً وقالت لها: اكتبي رسالتك وأنا أتولى إرسالها فقد الفت عيشة السجون حتى تعلمت كل خفاياها .

ولما وصلت فاندا الى السجن أقبل عليها جميعهن ولم يطل فحصهن لها حتى جعل حزب شيفيوت يعاملها معاملة انطوانيت لما رأوه من مظاهر عظمتها فكن يدعونها بالبارونة والدوقة والأميرة تهكماً عليها فصبرت فاندا على تهكمهن صبر الكرام وأنست شيفيوت منهـا الضعف لسكوتها وصبرها وجعلت تتمادى في احتقارها حتى أحرجتها وأثارت سخطها فهجمت عليها هجوم الكواسر وهشمت جسمها تهشيماً .

ولما انجلت تلك المعركة عن فوز فاندا مال اولئك الساخطات اليها شأن الانسان بميله الى الغالب وتقهقرت شيفيوت بغير انتظام وهي تتوعدها بخليلها حين خروجها من السجن .

ثم تفرق عنها الفتيات ولم يبق أمامها غير مرتون فوقفت أمامها باحترام وقالت لها : لقد أصابك يا سيدتي من اضطهاد هذه الفاجرة ما أصاب تلك الفتاة البائسة التي دخلت معنا الى السجن منذ ثلاثة أيام .

ثم حكت لها حكاية انطوانيت ومـــا لقيته من جور شيفيوت وكيف انها

تدافع عنها وتحميها

فوثقت فاندا من ميلها اليها وقالت لها : أأنت التي يلقبونك مرتون الحسناء؟

– نعم .

– أترين انطوانيت كل يوم ؟

– بل كل ساعة لأني توليت خدمتها وحمايتها .

– إذاً إعلمي إني ما دخلت السجن إلا لإنقاذها .

فأكبت مرتون على يدي فاندا تقبلهما باكية من الفرح فسارت بها فاندا الى زاوية السجن وقالت لها : قلت لك اني ما دخلت هذا السجن إلا طائعة مختارة بغية إنقاذ انطوانيت .

– ان هذا محال لان سجن سانت لازار لا يمكن الهرب منه .

– كل شيء ممكن لان لكل قاعدة شواذاً ، ولذلك لا بد لي من أن أرى انطوانيت .

– سأجمعك بها في الحال قولي لي اسمك .

– لا حاجة الى معرفة اسمي قولي لها فقط انني آتية من قبل ميلون .

اسرعت مرتون الى انطوانيت وقالت لها : بشراك يا سيدتي .

– ماذا العلك أرسلني رسالتي الى اجينور ؟

نعم ولكني ما أتيت اليك من اجل هذا .

ثم قصت عليها حكاية فاندا فسرت سروراً لا يوصف بنجاة ميلون وأسرعت لمقابلة فاندا ودار بينهما الحديث الآتي :

قالت فاندا : انك لم ترينني في حياتك يا سيدتي ولكني ما قدمت الى هذا السجن إلا من أجلك .

– أأنت آتية من قبل ميلون كما قيل لي

– نعم .

– إذاً فقد صدق نظري اني رأيته في باريس منذ ثلاثة أيام

— ولكنه ليس مقيماً فيها الآن لقد سافر الى بريطانيا لمقابلة أجينور دي-مورليكس .

فاحمر وجه انطوانيت وقالت : أتعرفينه أيضاً ؟

ولم تجبها فاندا على هذا السؤال واستطردت في حديثها قائلة : إنهم أخبروك الحقيقة في إدارة البوليس بأنهم رموك في الفخ بينما كان اجينور مسافراً بي طريق بريطانيا .

— رباه ماذا أسمع إذاً يوجد من يسعى بمنع زواجنا ؟

— هذا لا ريب فيه .

— أبمثل هذه الوسائل السافلة؟ولكني لا أبالي لان ميلون سيعود مع اجينور ويخرجانني من السجن .

فهزت فاندا رأسها وقالت: كلا ليس هو الذي سيخرجك منه بل انا فاصغي الي الآن ان امك قد سلبت ثروتها .

— علمت ذلك .

— غير انك لست في السجن بسبب زواجك مع اجينور بل لان الذين سرقوا ثروة امك باتوا يخشون مطالبتك بها فهم يحاولون إبقاءك في هذا السجن الرهيب الى الابد ولذلك يجب ان تخرجي من هذا السجن دون ان يعلم بأمرك أحد ولا يجب ان يقفوا على أثرك متى خرجت منه .

— ولكن كيف السبيل الى ذلك ؟

— إني أنقذك من السجن وان كل شيء ممكن لي وللذين أخدمهم .

فنظرت اليها انطوانيت باندهال وقالت لها من أنت يا سيدتي ؟

— أنا صديقة رجل أخرج ميلون من السجن وأقسم ان يرد اليك ثروتك وهو رجل لا تعرفينه انت ولكنه أحب مساعدتك لحبه لميلون .

إذا كان هذا الرجل قادراً كما تقولين ألا يستطيع إخراجي من السجن بدلاً من الفرار منه ؟

– نعم ولكنه يريد أن يخفي أثرك عن عيون مضطهديك فإن ساعة فضيحة القتلة السارقين لم تحن فعد .

– وأي قتلة تعنين يا سيدتي ؟

– قتلة امك فإنها ماتت مسمومة ، ولهذا فإننا لا نسعى إلى انقاذك فقط بل للانتقام أيضاً .

– أواه يا سيدتي ان الإنتقام ليس على شرائع المسيح .

– ولكنه ينطبق على شريعة الانسان فان الهيئة الاجتماعية لا تصفح عن الأخوان إذا قتلوا اخولتهم ، وبعد فإني اراك ذكية الفؤاد وأرى بين عينيك دلائل الهمة والنشاط ، فاصغي الي ان المجرمين يخونون أنفسهم حين يحسبون انهم باتوا في مأمن من الخطر .

– لا ريب فيما تقولين يا سيدتي ولكني لا أعلم إلى أين تريدين أن تصلي بحديثك هذا .

– أريد أن تعلمي ان من تجاسر على ان يلقيك بمثل هذه الهوة الهائلة فهو أهل لكل اثم فإذا أردنا إطلاق سراحك بقوة القضاء لوجب علينا إظهار أسماء أولئك القتلة الآثمين وفضيحة أمرهم ، ولكن مركزهم في الهيئة الاجتماعية عظيم فلا تبلغ اليه يدي ولا يد ميلون ولا يد ذلك الرجل الذي يقودنا .

– لقد فهمت ما تريدين غير اني زججت في هذا السجن بصفة مجرمة اثيمة فإذا هربت أفلا تثبت على الجريمة ؟

– وماذا تهمك ثبوتها ؟

– إنهم يقبضون علي مرة ثانية ويحكمون عليّ في الحال بدليل فراري أما الآن فإن الحكم النهائي لم يصدر بعد وأنا لا أزال أرجو البراءة .

أعدك قبل كل شيء انك متى خرجت من السجن لا يقبض عليك أحد ثم انك لم تسجني باسم انطوانيت دي ميلر فانك ادعيت انك ابنة البارون ميلر فلم يصدقوك وهم يحسبوك انك ابنة ماريوت تلك العجوز التي جاءت تطلبك

مدعية انها امك .

— هذا أكيد غير انه بقي بين هذه المشاكل المعقدة مشكل لم أستطع حله وهو ان القاضي الذي كان يحقق في قضيتي كان يظهر عليه انه واثق من براءتي وأرسل يدعو اليه مدام رينود فكيف اتفق انها لم تحضر .

فابتسمت فاندا بحزن وقالت : انها حضرت وقالت للقاضي انك ابنة ماريوت وخليلة ذلك اللص الشقي بوليت .

فوهت رجلا انطوانيت وقالت إن هذا محال .

— بل هي الحقيقة . ثم قصت عليها كيف انهم خدعوا مدام رينود فاختطفوها وأرسلوا إلى المحكمة امرأة من أتباعهم ادعت انها مدام رينود ، وأثبتت أمام القضاء ما عرفه القراء .

ولما فرغت من حديثها قالت لها أعرفت الآن شدة دهاء هؤلاء المجرمين ولكن يد الله فوق يدهم ، وانك عندما تهربين من سجن لازار تهربين منه باسم انطوانيت السارقة ، وليس باسم انطوانيت دي ميلر ، ومن يجسر بعد ذلك على ان يحب امرأة البارون دي موراليكس تلك الفتاة السافلة عشيرة اللصوص والمجرمين .

فارتعشت انطوانيت وقالت : ماذا عسى ان يكون أصاب مدام رينود ؟

— إن أصحابنا سيريحون بالها والآن فلنهتم بأمر إنقاذها فإننا لا ننجو من هذا السجن إلا إذا نقلنا إلى المستشفى

— ولكني لست مريضة .

— يجب أن تكوني مريضة .

— تريدين انه يجب أن أتظاهر بالمرض ولكني لا أستطيع الكذب .

- كلا .. بل ستكونين مريضة في الحقيقة .

فزاد انذهال انطوانيت وقالت لها : كيف ذلك ؟

فأخرجت فاندا ، من شعرها ذلك الدبوس الطويل الذي أعطاها إياه

روكامبول ، فانتزعت قمه، وأخرجت من ذلك القمع أربعة حبوب صغيرة ذات لونين فقالت لها : إن هذه الحبوب تتضمن الداء والدواء ، فإذا ابتلعت الحبة السوداء أصبت بقيء وإسهال ، ولكن ذلك لا يحمل على الخوف فان العاقبة محمودة ولا خطر من ابتلاع هذه الحبة .

— والحبة البيضاء ؟

— إنها مفتاح هذا السجن فاذا ابتلعتيها بعد أربع وعشرين ساعة فتحت لك أبواب السجن .

فنظرت أنطوانيت اليها نظر الحائر المرتاب وقالت لها : أصادقة فيما تقولين أم أنت تخدعينني ؟

فابتسمت فاندا وقالت : إني كنت أتوقع مثل هذا السؤال ولكني سأجيبك عنه خير جواب .

ثم أخذت حبة سوداء وابتلعتها .

فقالت لها أنطوانيت باضطراب : ماذا فعلت ؟

— إني ابتلعت هذه الحبة كي أكون مريضة مثلك وأذهب معك إلى المستشفى كي انقذك .

— عفوك يا سيدتي فلقد شككت باخلاصك لأن هذه الأيام الثلاثة وما لقيت فيها من ضروب المكر فتحت لقلبي سبل الريب بكل انسان ، والان هاتي الحبة الثانية .

ثم اخذتها وابتلعتها .

وعند ذلك قرع جرس السجن فافترقنا وذهبت كل منهما إلى محبسها

وفي الساعة الثامنة من المساء بينما كان طبيب السجن جالساً في غرفته إذ أسرع اليه الخدم يصيحون اسرع فان الهواء الأصفر قد انتشر في السجن .

فهرول الطبيب منذعراً في أثر الخدم فساروا به إلى محبس انطوانيت فلما فحصها ورأى انها مصابة بالقيء والاسهال قال : ليس هذا الداء بالهواء الأصفر

ولكنه مرض هندي يشبهه .

وقبل ان يتم كلامه أقبل عليه خادم يقول ان امرأة اخرى اصيبت بهذه الأعراض نفسها وهي ذاهبة إلى غرفتها .

فاضطرب الطبيب وزاد خوفه فاخذ يد انطوانيت واجلسها امامه وجعل يفحصها باعتناء عظيم .

٢١

بينا كانت انطوانيت يفحصها الطبيب وهو لا يدري كيف يشخص هذا الداء الذي رماها به روكامبول كان كتابها الذي ارسلته إلى اجينور يسير به اوغست إلى منزل اجينور .

واوغست هذا رجل في مقتبل الشباب كان يهوى مرتون المدافعة عن انطوانيت بملء جوارحه وكان كثيراً ما يؤنب مرتون على سيرتها الفاسدة ، ولكنه على طول عشرته لها واختلاطه مع امثالها لم ينزع منازع اولئك اللصوص ولم يقف مرة في مواقف القضاء ذلك لأن الحب قد طهر نفسه ونزهها عن الاثام وهو ابن اخ جواني الجلاد الذي انقذه روكامبول من السجن وأتى به باريس .

وكان اوغست قد تعود من حبيبته ان تنفق معظم ايامها في السجن فكان يزورها كل يوم في سجنها حتى علمته التجارب جميع مكائد السجون فلما اجتمع بها اخيراً أعطته رسالة انطوانيت سراً وقالت له : انها للبارون اجينور دي مورليكس المقيم في شارع سيرسنس نمرة ١٧ فاعطيه اياها يداً بيد واحذر من أن يخدعوك .

وقد تعود ان لا يخالف لها امر لفرط هيامه بها فخبأ الرسالة في جيبه وانطلق يهرول إلى ذلك الشارع وهو يعجب أشد العجب لأن هذا الشارع

لا يقيم فيه عادة غير الأغنياء الذين لا علاقة لهم بفتيات السجون ولكنه قال في نفسه : لعل في الأمر سراً لا يهمني معرفته وقد تعهدت بايصال الرسالة فلا بد لي من الوفاء .

وما زال يسير حتى وصل إلى منزل اجينور فهاله ما رآه من الفخامة ومظاهر العظمة ونادى البواب فقال له : أهنا منزل البارون اجينور دي موروليكس ؟

- نعم ، ماذا تريد منه ؟

- اني احمل رسالة اليه .

- انه مسافر فدع الرسالة هنا يأخذها عند رجوعه .

- كلا ، فان مرتون امرتني ان اسلمها اليه يداً بيد .

فحملق البواب بعينه وجعل ينظر اليه نظرات الشك وقال له : من هي مرتون هذه ؟

- انها خليلة لي .

فقال البواب باحتقار : ان مولاي البارون لا علاقة له مع امثال خليلتك .

- وانا من رأيك ولكن هذه الرسالة من امرأة سواها مقيمة معها بالسجن .

فلم يطق البواب سماع حديثه وقال له بجفاء أعلم انك هنا في منزل شريف وانا ارجوك ان تنصرف وحدك برسالتك .

ولم يستأ أوغست من كلامه وقال له : اني ذاهب ولكني سأعود متى عاد سيدك ، إذ لا بد لي من إيصال الرسالة .

ثم انصرف يمشي الهوينا دون أن ينتبه إلى رجل خرج بعده وجعل يقتفي أثره .

وكان هذا الرجل سائقاً يتجول أمام منزل أجينور كل يوم بعد هذه الحوادث الأخيرة ، فلما جاء أوغست يسأل البواب عن أجينور كان هذا السائق واقفاً بالقرب منهما فسمع جميع ما دار بينهما من الحديث .

وبينما كان السائق يسير في أثره التقى بسائق آخر من أصحابه وسار وإياه

في اقتفاء أوغست ، أما أوغست فإنه ما زال يسير على مهـل حتى انتهى إلى قهوة فدخل اليها وجلس على مائدة الطعام يشرب كأساً من الخمر ، فدخـل السائقان بعده ، وجلسا بالقرب منه بحيث انه كان يسمع حديثهما فقـال أحدهما للآخر : أتشاركني بشرب زجاجة خمر أيها البارون ؟

فأجابهم الآخر : كما تريد أيها الفيكونت .

ثم دعا أحدهما الآخر أجينور وهما يشربان ويتحادثان وأوغست لا تفوته كلمة من حديثهما إلى أن سمع السائق يقول لرفيقه : كيف حال زميلنا المركيز في خدمة مولاه ؟

فأجابه رفيقه : إنه لم يعد مركيزاً وهو الآن فيكونت لأنـه لا يثبت في منزله .

فتنبه أوغست وقال في نفسه : تباً لي من أبله لقـد نسيت أن الخدم يتسمون بأسماء أسيادهم ، فاذا كان أحدهم خادماً عند كونت أطلقوا عليه في خلواتهم لقب كونت ، وقد سمعت هذا الرجل يدعو رفيقه بارونا ، ثم ناداه باسم أجينور فلا بد أن يكون هو أجينور دي مورليكس وأنه صاحب الرسالة وإلا فأي اتصال بين فتاة في السجن وبين بارون حقيقي .

ثم جعل يسمع حديثهما باصغاء فعلم من خـلاله ان هذا السائق في خدمة البارون أجينور ، وان له خليلة مسجونة في سانت لازار ، ولم يعد لديه شك انه هو صاحب الرسالة ، فنهض من مكانه ودنا منهما فقال إلى الذي كان يدعى أجينور : ألعلك من خدم البارون دي مورليكس ؟

- نعم أيها الرفيق .

فأحب أوغست أن يستوثق منه فقال له : أين يسكن البارون ؟

- في شارع سيرسنس نمرة ١٧ .

- انني كنت أود ان أكون سائساً في اصطبله فقد قيل لي انه محتـاج إلى سائس .

– ان هذا الأمر خاص بي ، فتعال غداً صباحاً فـــاذا كنت ماهراً في مهنتك اتفقنا .

– في أية ساعة ؟

– بين التاسعة والعاشرة والآن أتريد أن تشرب كأساً من الخمر ؟

فجلس بينهما وقال : حباً وكرامة .

وعاد السائق إلى إتمام حديثه مع رفيقه وقال له : ان لها صديقة في السجن تدعى مرتون يستطيع الناس مقابلتها في السجن ، وهي لا بد لهـــا ان ترى انطوانيت وتساعدها على إرسال رسائلها لي .

وعند ذلك ذهب كل شك من فؤاد أوغست فقال له : أتعرف مرتون ؟

– أعرفها أتم المعرفة بواسطة خليلتي أنطوانيت ، ولكن قل لي لماذا سألتني هذا السؤال ؟

– دعني قبل ذلك أن اسألك سؤالاً آخر قبل أن أجيبك وهو كيف كانت تدعوك أنطوانيت ؟

– أجينور ، وأنت تعلم بصفتك سائساً ان المحترفين حرفتنا يدعون انفسهم بأسماء أسيادهم .

– لست بسائس ولكني أيقنت الآن ان الرسالة لك .

ثم أخرج الرسالة من جيبه وحاول إعطاءه إياها ، فمد السائق يده بلهف اليها ، فتنبه أوغست وقال : كلا لا أسلمك إياها هنا فاني وعدت مرتون أن أسلم الرسالة يداً بيد لأجينور المقيم في شارع سيرسنس نمرة ١٧ .

- إذن فلنذهب إلى المنزل كي لا تخل بوعدك ونشرب كأساً أيضاً قبل أن نذهب . وعند ذلك استأذن السائق الاخر وانصرف .

وبعد هنيهة خرج أوغست والسائق في طريق منزل أجينور حتى إذ مرا بمنزل عمه قال له السائق : أرجوك أن تنتظرني قليلاً عند بواب هذا المنزل إلى أن أكلم أحد خدامه في شأن خاص .

فامتثل أوغست وجلس مع البواب لينتظره ، أما السائق فانه صعد إلى المنزل حيث كان فيه الفيكونت كارل .

ولما رآه الفيكونت اندهش لمرآه إذ عرف انه تيميلون متنكراً بشكل سائق فأخبره تيميلون بما حدث وقال له لا بد لي كي أحصل على هذه الرسالة لكي أتمكن من الدخول إلى منزل أجينور .

– ان ذلك سهل ميسور فأرسل معك خادم غرفتي فتصل إلى المنزل دون أن يعترضك أحد فتجوز حيلتك على هذا الرجل .

ثم قرع الجرس فأسرع اليه الخادم فأمره بالذهاب مع تيميلون والخضوع له ونزل الاثنان .

ومن الغريب ان أوغست لم يكن حيث تركه تيميلون فاضطرب وسأل عنه البواب فقال له : انه بينما كان جالساً ينظر إلى الشارع إذ صادف نظره رجلاً من المارة فصاح صياح الدهشة والفرح قائلاً (خالي) ثم خرج مهرولاً إلى هذا الرجل فلم أعد أراه .

فتهدد تيميلون السماء بقبضتيه وجعل يتوعد ويقذف الشتائم واللعنات .

– ٢٢ –

أما اوغست فانه حين خرج من غرفة البواب للقاء خاله فرح به فرحاً لا يوصف وكان خاله هذا جواني الجلاد ، وقد جعله روكامبول يراقب منزل الفيكونت كارل كما كان تيميلون يراقب منزل أجينور .

ولم يكن أوغست قد رآه بعد خروجه من السجن فجعل يعانقه ويناديه باسمه ، فقال له : كفى تناديني باسمي فانك ستنبه الي البوليس لأني هربت من السجن .

فسكت أوغست وابتعد وإياه وقال له . ماذا تصنع هنا ؟

– اني أراقب الداخلين والخارجين إلى هذا المنزل وأشار بيده إلى منزل كارل فقال له أوغست : اني كنت فيه حين رأيتك . ثم أخبره بأمر الرسالة ، وكيف اتفق قدومه إلى هذا المنزل .

وكان جواني يسمع حكايته بأتم الانتباه فلما فرغ منها قال له : إذا لم يكن رئيسنا مخطئاً بزاعمه وهو لا يخطىء فما هذا السائق الا تيميلون .

– من هو رئيسكم ومن هو تيميلون ؟

فأخبره خاله بأمر روكامبول وتيميلون ثم قال له : هلم بنا الان لنرى الرئيس قبل أن يخرج تيميلون فيقبض علي دون شك .

وركب الاثنان مركبة وانطلقت بهما إلى المكان الموجود فيه روكامبول فأخبره جواني بجميع ما اتفق ، فسر روكامبول لهذا الاتفاق وأخذ الرسالة من أوغست بعد أن أقنعه خاله على تسليمه إياها ، ففضها وقرأها ، ثم كتب رسالة غيرها قلد بها خط انطوانيت تقليداً غريباً وقال لأوغست . يجب أن تسلم الرسالة إلى ذلك السائق الذي ادعى انه أجينور دي موررليكس ولا بد انه ينتظرك الان في المنزل واحذر أن يعلم شيئاً من الحقيقة .

ثم حكى له حكاية أنطوانيت دون أن يذكر له اسمها ، ووصف له حب أجينور لها ، وكيف ان عائلته احتالت على تلك الفتاة الشريفة فزجتها في في السجن ، إلى غير ذلك من حكايتها ، ولكي لا يبقى في فؤاده أثر للريبة أعطاه الكتابين وقال له : سلم هذا الكتاب الحقيقي ، أي كتاب أنطوانيت إلى أجينور عند عودته من السفر ، واعط هذا الكتاب المقلد ، أي الذي كتبته أنا مقلداً فيه خط انطوانيت لذلك السائق الذي ادعى أنه أجينور ، وإنما كتبته تقليداً لأعدائنا .

فأخذ اوغست الكتابين فخبأ كتاب أنطوانيت وذهب بالاخر إلى منزل أجينور ، فرأى ذلك السائق فيه أي تيميلون فاعتذر اليه لخروجه من عند

البواب وأعطاه الرسالة ثم قال له : إذا أحببت ان تجيب عليها فاني مستعـد لخدمتك بايصال الرسالة .

فشكره تيميلون وقال : أين أجدك مساء الغد ؟

فذكر له اسم قهوة يجلس فيها وذهب

وبعد خروجه فتح تيميلون نافذة الغرفة وصفر بصفّارة فأقبل رجل كان واقفاً في الطريق فأشار له بيده إلى أوغست حين خروجه من الباب ثم أغلق النافذة . وبعد ساعة ذهب تيميلون إلى منزل الفيكونت كارل وأخـبره باستيلائه على الرسالة ثم قال بلهجة المتهكم : ولكني أرسلت جاسوساً يقتفي أثر حامل الرسالة .

فعجب كارل وسأله لماذا ؟

– لأنهم قد عبثوا بنا يا سيدي ونحن غافلون .

– ماذا تعني بذلك ؟

– أعني ان هذه الرسالة التي قرأتها لم تكن بخط أنطوانيت .

– إنك مخطىء فقد عرفت انه خطها بعينه لم يتغير .

– إن الخط مقلد أبرع تقليدوعندي انه لا يحسن هذا التقليد إلا رجل واحد

– من هو ؟

– إن الرجل يدعى روكامبول وكنت اخشى من قبل ان يكون له دخل في امرنا ، اما الان فقد اصبحت واثقاً من تداخله كوثوقي من حبوط مساعينا مع هذا الداهية ، فإذا لم نتخذ طريقة ناجعة لأرجاعه إلى السجن في هذه الليلة فقد قضي علينا جميعاً ، أما انا فلااستطيع ان اصنع شيئاً خلافاً لك فانك تستطيع صنع كل شيء .

فذعر كارل لما رآه من اضطراب تيميلون وسأله : كيف ذلك وماذا تريد ان اصنع ؟

– ان الأبواب مفتوحة لديك فاذا ذهبت الى ادارة البوليس وقلت له انك

تعرف مكان روكامبول الهارب من سجن طولون فانه يرسل معك ثلة من الجند فتقبض عليه في الحال ، وإذا لم تفعل ذلك فان التبعة تقع عليك وحدك ولا أكون مسؤولاً بشيء .

– ويحك وأين تريد أن أجد هذا الرجل ؟

– لا أعلم الآن ولكني أرجو أن أعرف مقره في هذا المساء ولذلك أرسلت جاسوساً في أثر اوغست الذي حمل الينا كتاب انطوانيت المزور .

– وأنا لا أعلم أيضاً ، كيف خطر لك أن تحسب ذلك من صنع روكامبول ؟

– ذلك انه عندما كان اوغست ينتظرني عند الباب رأى رجلاً في الطريق فخرج اليه مهرولاً وهو يناديه يا خالي . ثم لما ذهبت مع خادم غرفتك الى منزل أجينور جاءني أحد رجالي وقال لي إنك لو كنت باقياً في خدمة البوليس لكنت نلت جائزة حسنة . قلت : كيف ذلك ؟ أجاب : إني رأيت من ساعة جواني الجزار وهو الذي كان جلاداً في سجن طولون وفر منه فلو أرشدت الحكومة عليه لنلت الجزاء الحسن. ثم ذكر لي انه رآه مع شاب تنطبق اوصافه على اوصاف اوغست فعلمت انه خاله .

وقد علمت بالامتحان الكيماوي لحل الرسالة انها كتبت منذ ساعتين ولما كان جواني هرب من السجن مع روكامبول والتقى بابن اخته حامل هذه الرسالة فلم يعد لدي شك ان لروكامبول يداً في أمر انطوانيت لا سيما وان ميلون قد هرب معه ايضاً في يوم واحد .

فاقتنع كارل بهذا البرهان ، وقال : إذاً ، ان روكامبول هذا رجل شديد الخطر .

– إنك إذا لم ترجعه الى السجن ذهبت انت اليه وقتلت انا بضربة خنجر وتزوج اجينور انطوانيت فتدبر .

– إذاً سأذهب الى إدارة البوليس وأخبرها بأمره .

- كلا لم يحن الوقت بعد ، إذ يجب ان نعرف مقر روكامبول لأن البوليس لا يستطيع ان يهتدي اليه . وسأعرف مقره بواسطة الجاسوس الذي أرسلته في أثر أوغست . والآن لا بد لي من الخروج من منزلك متنكراً لأنه إذا كان جواني الجلاد وجد أمام منزلك فهو يخفره بامر روكامبول دون شك ولا أحب أن يراني .

- وكيف تتنكر ؟

- أتزيا بزي أحد خدامك وأركب امام السائق في مركبتك حين ذهابك الى النادي فلا يعرفني بهذا التنكر غير روكامبول .

- إذاً فلنذهب الآن فهذا الوقت الذي أذهب فيه الى النادي .

ثم غير تيميلون زيه وخرج مع الفيكونت كارل . فسارت بهما المركبة الى نادي أسبرج ، وهو النادي الذي كان مشتركاً فيه روكامبول باسم الماجور أفاتار .

وقد اتفق انه حين وصول المركبة إلى النادي وقفت عند بابه مركبة اخرى فخرج منها الماجور أفاتار وحيى الفيكونت كارل ودخل قبله .

وعند ذلك أسرع تيميلون الى كارل وقال له وهو يضطرب مذعراً : هذا هو بعينه .

فانذهل الفيكونت وقال : من هو ؟

- إن هذا الرجل الذي سلم عليك هو روكامبول بعينه ، عرفته وأرجو ان لا يكون قد عرفني .

فقهقه كارل ضاحكاً وقال: لقد بلغ منك الوهم مبلغاً عظيماً لأن هذا الرجل روسي يعرفه جميع أعضاء النادي .

- سترى اني لست واهماً ، والآن إني ذاهب للنظر في أمرنا فانتظر مني رسالة . ثم تركه وانصرف .

أما كارل فانه دخل إلى النادي فوجد الماجور أفاتار جالساً بين حلقة من

أصدقائه يحدثهم بالأخبار الروسية فخلا بأحد أصحابه المخلصين وقال له: أتعرف هذا الماجور ؟

– نعم ، وأنا الذي قدمته الى أعضاء النادي .

– أتعرفه حق المعرفة ؟

– كيف لا أعرفه ، وقد أقمت ستة أسابيع في ضيافة أبيه ، في بلاد القوقاز .

فرجع كارل عنه ، وقد وثق أتم الوثوق من ان تيميلون كان واهماً فيما ادعاه .

ولكنه لم يطل بقاءه في النادي حتى وردت اليه رسالة من تيميلون يقول فيها (عثرت بهم فاحضر في الحال) .

- ٢٣ -

وكان السبب الذي دعا تيميلون من أجله كارل ، هو ان الجاسوس الذي أرسله في أثر اوغست عاد اليه وأخبره انه تعقبه حتى رآه دخل إلى خمارة فاجتمع فيها بخاله جواني الجلاد ، فدخل الى الخمارة وجلس الى جانبهما وهو يتظاهر بالسكر الشديد بحيث انهما لم يكترثا له وجعلا يتحدثان أمامه بحرية فعلم منهما أين تقيم عصابة روكامبول بجملتها ، ثم علم ان روكامبول سيكون معهم في الليلة القادمة فذهب مع ذلك الجاسوس الى ذلك المنزل وعرف ان العصابة تقيم في غرفه منه عند رجل يدعى ريكولو ، كان في بدء أمره من كبار اللصوص ثم تاب من اللصوصية الى السكر ، ولكنه منذ ستة أشهر لم يذق الشراب لانشغــال باله بامرأته ، لأنها كانت محبوسة في سجن سانت لازار وهي حبلى فنغص سجنها عيشه. ولكنه كان يتعزى باقامة بعض رجال

روكامبول عنده .

ثم علم تيميلون ايضاً ان لصاً من الذين كانوا يشتغلون تحت رئاسته مقيم في غرفة في هذا المنزل فاجتمع به واتفق معه على ما سيعرفه القراء .

ولما عرف جميع ذلك وأيقن من القبض على روكامبول وعصابته ذهب الى النادي وأرسل تيميلون التذكرة المتقدمة .

فلما وصلت التذكرة الى كارل خرج مسرعاً الى تيميلون وعرف منه جميع ما تقدم وأظهر له ثقته من ان الماجور أفاتار غير روكامبول .

فلم يكترث تيميلون لكلامه وقال له : يخلق بنا الآن ان لا نضيع الوقت إذ يجب التأهب لإبلاغ البوليس وإهدائه الى مكان اجتماع العصابة .

– هو ما أراه ايضاً ، إنما يجب ان نتخذ ذريعة لإبلاغ البوليس لأني لست من الجواسيس .

– إني أعددت تلك الذريعة وهي اننا ندخل الى منزلك من جهة الحديقة فنكسر إحدى الخزائن ونأخذ محفظة ونكتب عليها اسمك فأخبأهـا بواسطة أحد رجـالي في الغرفة التي تجتمع فيها العصابة ثم تدعي عند البوليس بانك عرفت من بعض رجالك ان الذين سرقوا منزلك هم فلان وفلان وانهم يقيمون في منزل كذا ومتى عرف البوليس تلك الأسماء وان أصحابها هم الهاربون من سجن طولون يرسل اليهم في السـاعة التي تعينها ثلة من الجند تحيط بالبيت من جهاته الأربع فلا يعود سبيل للفرار .

فوافق كارل تيميلون وقال له : متى يجب ان أبلغ البوليس ؟

– في صباح غد ، والآن هلم بنـا الى منزلك لكسر الخزانة كي لا يبقى في السرقة شك .

وسار الاثنان الى المنزل فكسرا الخزانة وأخذ تيميلون محفظة عليها اسم الفيكونت كارل .

ثم افترقا وعاد كارل الى النـادي وذهب تيميلون الى جاسوسه الذي

كان يقيم في إحدى غرف المنزل الذي تقيم فيه العصـابة ، فتربص وإياه حتى أيقنا أنه لا يوجد أحد في غرفة العصابة ، فعالج تيميلون بابها بما كان لديه من المفاتيح حتى فتحه . ثم أخذ المحفظـة ووضعها بين فراشي السرير . ثم خرج من الغرفـــة وأقفل بابها ، وعاد الى منزله وهو مطمئن البال ، واثق من القبض على روكامبـول في الغد ، وقبض المائة الف فرنك من كارل .

وكان السبب في عزم روكامبول على زيارة الغرفة التي تقيم فيها عصابته بضيافة ريكولو ان نويل تمكن من ضم هذا الرجل الى العصابة وقد علم منه انه يوجد تحت غرفته قبو وان هذا القبو يخرج منه بدهليز سري يتصل بمقابر مونمارتر ، فأراد روكامبول ان يرى هذا الدهليز وضرب له ذلك الموعد .

* * *

ولنعد الآن الى روكامبول فانه ذهب في صباح اليوم التالي الى منزل الطبيب فأخبره بجميع ما فعله .

وفيما هو جالس عنده إذ جاء رسول من البارون دي مورليكس يدعوه لمعالجة رجله .

فخطر لروكامبول أن يذهب مكان الطبيب وقال له : أجبه انك مريض وانك سترسل له حالاً طبيباً إنكليزياً من أصحابك يعالجه عنك فامتثل الطبيب وأخبر الرسول ما علمه إياه روكامبول .

وما لبث ان ذهب الرسول حتى دخل روكامبول الى غرفة نويل المجاورة لغرفة الطبيب ، كما يذكر القراء ، فتنكر ومضى الى منزل البـــارون دي موركيكس ، فلقي عنده أخاه كارل ، وكانا يتحدثان بتلك اللغة الريفية وهما يحسبان هذا الطبيب الانكليزي يجهلها ، فعلم منهما ان البوليس سيقبض عليه

مع عصابته في هذه الليلة .

ثم خرج كارل من عند أخيه وجعل روكامبول يعالج رجل البارون بعنف بحيث جعله يصيح من الألم صياح الأطفال .

وبعد ان مل من عذابه ربط له رجله وانصرف في شأنه فما صدق البارون خروجه لفرط ما لقيه من العذاب .

- ٢٤ -

يوجد تجاه المنزل الذي تقيم فيه عصابة روكامبول خمارة قديمة العهد ليس لها غير باب واحد يشرف على الطريق بحيث ان المقيم فيها يشاهد كل من يمر بذلك الشارع .

وكان يوجد فوقها غرفة خاصة ممتازة لها نوافذ تطل على الطريق ، فيرى الجالس فيها المارة دون ان يروه .

ففي الساعة الثامنة من مساء تلك الليلة التي تقرر القبض فيها على روكامبول وعصابته ، كان الفيكونت كارل دي موورليكس وتيميلون جالسين في الغرفة الممتازة يراقبان المارة من نافذتها ، وذلك المنزل الذي تقيم فيه العصابة .

ولم يطل جلوسهما حتى مر رجل ودخل الى المنزل ، فقال له كارل : من هذا ؟

فأجابه تيميلون إنه يدعى بونفير ، وهو أحد الهاربين من السجن . ثم حكى له حكايته .

وبعد حين أتى جواني الجلاد فأضاف تيميلون هوذا خال اوغست الذي حمل الينا رسالة انطوانيت .

ثم جاء في أثره ريكولو فقال له تيميلون: هوذا صاحب الغرفة التي تقيم فيها العصابة بضيافته وسيذهب ضحية هذه الضيافة . والآن إن معظم رجـــال روكامبول قد وقعوا في الفخ .

فأجاب الفيكونت : وماذا يفيدنا وقوعها إذا لم يقع الرئيس فإني أراه قـد أبطأ وأخشى ان يأتي الجنود فيكبسون المكان قبل حضوره .

وبقي تيميــلون والفيكونت على أحر من الجمر ، إلى ان أذنت الساعة ، فبرقت أسرة تيميلون ، ونظر الفيكونت اليه وقال له ما هذا الاستبشار في وجهك ؟

فأجابه تيميلون : أنظر الى هذا الرجل الهزيل المصفر الوجه الذي يدنو من المنزل .

- إنه رجل هندي كما يدل عليه لونه ولباسه .

- كلا ، بل انه رجل روسي يدعى الماجور أفاتار ، بل رجل باريسي يدعى روكامبول .

وما لبث أن أتم كلامه حتى دخل هذا الرجل الى المنزل ، وكان روكامبول بعينه ، وقد تنكر بملابس الهنود . وبعد هنيهة يسيرة جاء الجنود وكانوا أربعين جندياً .

فأمرهم قائدهم بتطويق المنزل ثم جعل يطرق الباب الخارجي قائلاً: إفتحوا باسم الشرع .

فطار فؤاد تيميلون فرحاً وقال : هوذا روكامبول قد سقط ولا بد لي من قبض النقود .

* * *

ولندخل الآن الى هذا المنزل للنظر في أمور هذه العصابة فنقول ان بونفير كان أول الداخلين اليه فلم يجد أحداً ، ثم جـاء جواني فعجب لوجود بونفير

وحده فسأله : أين ريكولو ؟

— إنه لم يحضر بعد كما ان الرئيس لم يحضر ايضاً ؟

— إنه قادم في أثري فقد أمرني أن أتقدمه بضع خطوات .

ثم جاء ريكولو فقال : اني موجس شراً ، فقد رأيت الجنود ترود قرب البيت .

فرد بونفير : لا تخف . إن الرئيس لا يخاف أحداً وقد قلت ان لديك قبواً ولكني لا أرى أثراً للأقبية في هذه الغرفة .

— سوف ترى متى جاء الرئيس .

وعند ذلك فتح باب الغرفة ودخل روكامبول وأوصد الباب من الداخل ، وأسرع الى السرير الذي ينام فيه بونفير فقلب فراشه ومد يده فأخرج تلك المحفظة التي وضعها عامل تيميلون إثباتاً للسرقة التي اتهمت بها المصابة .

فبهت بونفير وقال : ماذا تصنع يا سيدي وما هذا الذي أخرجته ؟

— أخرجت ما يثبت عليكما جريمة السرقة ويرجعكما الى الليمان ، ولكني وصلت بحمد الله في حين يجب ان أصل لأن المحفظة التي ترونها بيدي سرقها تيميلون من بيت الفيكونت كارل دي موروليكس برضاه وخبأها في هذه الغرفة كي تكون التهمة ثابتة عليكم .

ثم التفت الى ريكولو وسأله لقد قلت لي ان لديك قبو اليس كذلك ؟

— نعم أيها الرئيس ، ومدخله في هذه الخزانة .

ولكنه قبل ان يتم كلامه سمعوا قرع الباب الخارجي وأصوات رجال ينادون افتحوا باسم الشرع .

فأخذ روكامبول مسدسين من جيبه وحملهما بيديه واستل بونفير خنجراً وأسرع جواني إلى منضدة فجعلها متراساً وراء الباب .

أما ريكولو فقد كان ساكن الجأش فنظر الى روكامبول وقال له إننا سننجو من هذا القبو قبل أن يخلعوا الباب ويدركونا .

- أين هو هذا القبو ؟

فأسرع ريكولو وفتح مصراعي خزانة كبيرة ثم جلس على أحد لوحاتها الداخلية فهبطت به وظهر وراءها منفذ كبير يستطيع المرء ان يمر به .

ثم هوى من المنفذ وهو يقول اقتدوا بي وعادت اللوحة الى مكانها .

فقال بونفير لروكامبول أنج يا مولاي .

- كلا ، لأن قائد السفينة ، عند غرقها ، لا يكون إلا آخر من ينجو منها .

فدخل بونفير الخزانة وجلس على اللوحة مقتدياً بريكولو فهوى ثم اقتدى جواني ولم يفضل غير الرئيس .

وعند ذلك سمع روكامبول ان الجند يصعدون السلم وقد كسروا البـــاب الخارجي فذهب بملء السكينة الى المنضدة فأعادها الى موضعها الأول وأصلح فراش السرير الذي أخذ من تحته المحفظة .

وبينما كانت الجنود تعالج باب الغرفة ، دخل إلى تلك الخزانة المتسعة فأغلقها من الداخل ، وجلس على اللوحة فهوى الى أرض ذلك القبو الخفي وكسر الجنود باب الغرفة ودخلوا حين احتجابه في وقت واحد فـلم يروا شيئاً مما كان .

وقد سقط روكامبول في قبو مظلم يبلغ ارتفاعه ستة أقدام فلما بلغ الى الأرض صاح الجميع بصوت واحد لقد نجونا !

أما روكامبول فانه بعد ان ثاب الى رشده من أثر السقوط ورأى ان الظلام يكتنفه أخرج من جيبه كبريتاً وشمعة فأنارها وظهر له قبواً واسعاً ، تحيط به الخوابي والبراميل من جميع جهاته وبدأ يفحص جدرانه فقال مخاطباً ريكولو : أيوجد في هذا القبو منفذ المقبرة كما أخبر نويل ؟

نعم .

- من أين العله من هذا الباب . مشيراً الى باب القبو .

فابتسم ريكولو وقال : كلا ، لأن هذا الباب يؤدي الى سلم ثم الى رواق طويل، ولا بد للبوليس ان يهتدي الى الخزانة ثم القبو فلا يجد أمامه غير هذا الباب .

– إذاً كيف نخرج ؟

– نخرج من الطريق المؤدية الى المقبرة وهي طريق وعرة ولكنها تؤثر دون شك على الوقوع في شرك الجند انظر الى هذا البرميل الضخم المستند الى الجدار إن طريقنا ستكون من قلبه .

ثم رفس هذا البرميل فانفتح فيه باب يستطيع المرء أن يمر به .

فاقترب روكامبول وأدنى الشمعة فظهر له سرداب طويل عميق فقال لهم ريكولو : سيروا أمامي في هذا السرداب إذ لا بد لي من التأخر بعدكم كي أقفل باب البرميل .

* * *

هذا ما كان من أمر روكامبول وعصابته . وأما الجنود فانهم بعد أن كسروا باب الغرفة جعلوا يترددون في الدخول اليها لخوفهم من روكامبول وعصابته الى ان تحمس قائدهم فهجم ومسدسه بيده وهجم الجنود في أثره ، ولكنهم لم يلبثوا أن دخلوا الغرفة حتى انذعروا ووقفوا حائرين مبهوتين لأنهم لم يروا فيها أحداً .

ومما زاد في انذهالهم انهم رأوا رجال العصابة قد دخلوا ولم يروا منفذاً في الغرفة فجعلوا يفعلون ما فعله روكامبول قبلهم فيفتشون الغرفة ويقلبون فرش اسرتها ويبحثون في أرضها وسقفها ويقرعون جدرانها فلا يسمعون صوتاً يدل على وجود منفذ .

وكان في هذا البيت كثير من الغرف المعدة للايجار فخطر لهم ان العصابة

مختبأة في أحدها وذهب بعضهم لتفتيشها فلم يقفوا على أثرها ولكنهم علموا ان لهذا البيت أقبية فامتدوا الى مداخلها من الجيران وفتشوها ولم يفطنوا لسر البرميل ولم يخطر في بالهم هذا الخاطر .

أما الفيكونت دي موركليس وتيميلون فإنهما لما رأيا ازدحام الناس دخلا مع الداخلين وعلما ما كان من أمر فرار العصابة وعدم وجود آثار السرقة فاصفر وجه تيميلون وانصب العرق البارد من جبينه ودنا من ذلك الرجل الذي عهد اليه ان يدس المحفظة بين فراش السرير وقال له : ماذا فعلت ؟

فأقسم له انه وضعها في المكان الذي أمره ان يضعها فيه .

أما الفيكونت فانه لم يفهم شيئاً من هذه الألغاز فدنا من تيميلون وسأله: ما هذا الذي أراه وما هذه الألغاز ؟

— تعال معي لأخبرك .

ثم خرجا حتى إذا أصبحا على الطريق العام قال تيميلون . إن الذي أراه هو أننا وقعنا في الفخ الذي نصبناه لروكامبول وأنا هارب من باريس وكن أنت على حذر من هذا الداهية .

- ٢٥ -

وقد استولى الرعب العظيم على تيميلون فجعل يسير مسرعاً كأنما روكامبول يطارده فاضطر الفيكونت الى اللحـــاق به حتى أدركه فوضع يده على كتفه وقال له ماذا تفعل أجننت ؟

- كلا ولكني خائف فاتبعني

- وما هذا الخوف والى اين تريد ان أتبعك الملك تريد القبض عليه ؟

كلا إركب معي هذه المركبة وهلم بنا .

وسارت بهما المركبة فسأله تيميلون ألم تركما رأيت أنا روكامبول وعصابته دخلوا الى الغرفة ولم يخرجوا منها ؟

– نعم رأيت ذلك وأنا أعجب لخروجهم .

– أما أنا فلا أعجب لفراره، بل أعجب لخطئي لأن هذا الرجل لا يؤخذ إلا مباغتةوهو نائم ولكنه متى نجا لايدركه أحد ثم ألم تقل لي أن ذلك الطبيب الذي كان يعالج أخاك أرسل اليه مرة أحد رجال المستشفيات وأرسل اليه اليوم حكيماً إنكليزياً ؟

– نعم .

– أكنتما تتحدثان أمام هذين الشخصين بشأن انطوانيت ؟

– نعم ولكن حديثنا بلغة خاصة .

– لا يوجد لغة تخفى على روكامبول . وإن هذين الشخصين واحد وهو روكامبول ، وقد عرف حديثكما فأنت الذي فضحت سرنا . فليهرب الآن من يستطيع الهرب .

– ولكن الى أين نحن متوجهون ؟

– الى منزلي لأن روكامبول لا بد ان يكون فيه بعد ساعة .

فاستاء الفيكونت لما أظهره تيميلون من الخوف وقال له كيف علمت انهم لا يقبضون عليه ألم تر ان المكان مطوق بالجند ولا منفذ له ؟

– لا بد ان يكون فيه منفذ سري تحت الأرض يتصل بمقابر مونمارتر .

– لا شك انك فقدت صوابك .

– سوف تراني غير مخطيء في مزاعمي ، وإن روكامبول نجا على ما وصفت لك .

– وإذا كان ذلك فما نعمل في منزلك ؟

– إني ذاهب لأخلص أوراقي وأموالي من قبضته .

– إذاً لا تزال تزعم انه سيأتي الى منزلك .

- بل أنا واثق . وإذا كنت لا أحب أن أموت مطعوناً بخنجر فلا بد لي من الفرار منه وإذا كنت تضمن لي السلامة من كيده فإني أتخلى لك عن المئة الف فرنك التي وعدتني بها

وعند ذلك أوقف تيميلون المركبة وقال للفيكونت: إنتظرني هنا ربع ساعة وسأعود اليك وأخبرك بما صنعت

ثم ترجل من المركبة فمشى بضع خطوات في الشارع وعطف منه على شارع مهجور فمشى فيه حتى انتهى الى بيت مرتفع فصعد سلالمه الى الدور الخامس منه وأخرج مفتاحاً من جيبه وفتح الباب وولج منه الى غرفة كان فيها امرأتان: إحداهما عجوز والثانية صبية نادرة الجمال .

فلما رأته الصبية داخلاً صاحت صيحة فرح وأسرعت اليه تعانقه قائلة: أين كنت يا أبي فانك لم تحضر منذ يومين وقد شغلت بالي .

فقبل تيميلون جبينها وابتسم لها ابتسام الحنو فإن هذا الانسان الجهنمي ما لبث ان رأى ابنته حتى استحالت أخلاقه وأصبح إنساناً يشعر بحنو الوالد ثم اعتذر عن غيابه بكثرة مشاغله .

وبعد ان لاطفها وآنسها قال لها . ألا تذكرين يا ابنتي العزيزة اني وعدتك بالسفر الى نورمانديا والاقامة فيها مع عمتك ؟

فانتعش فؤاد الفتاة وقالت نعم فقد طالما وعدتني هذا الوعد وكانت مشاغلك تحول دون وفائك بعد فهل كتب لنا هذا السفر على لوح المقدور .

- نعم يا ابنتي وسنسافر في هذه الليلة عند انتصاف الليل فتأهبي له وأنا سأعود اليك في الساعة الحادية عشرة .

- ولكنك لم تقل لي شيئاً من ذلك اول أمس .

- لأني لم أكن حاضراً للسفر فاسرعي بالتأهب لأن القطار يسافر عند منتصف الليل .

ثم دخل الى إحدى الغرف فأقام فيه هنيهة وعاد الى ابنته فعانقها وخرج

الى حيث كان الفيكونت ينتظره في المركبة فركب بجانبه وبعد ان سارت بهما أخبره : إني سأبرح باريس بعد ساعتين

فاضطرب الفيكونت وسأله : كيف ذلك أتتخلى عني ؟

– ذلك لا بد منه . على انك إذا كنت تريد ان تموت أنطوانيت فإنها تموت غداً مساء ، ولا يكلفك موتها غير خمسين الف فرنك ، تدفعها لي مقابل هذه الجريمة الجديدة ولا تخف فانك لا تدفع هذه النقود إلا بعد ثبوت الوفاة .

ولبث الفيكونت هنيهة ساكتاً لا يجد جواباً ، وهو يتأمل موقفه الحرج حتى أخرجه تيميلون من هذا الموقف بقوله : ما بالك ساكتاً ، فاذا كان قتل هذه الفتاة يروعك فاني لا الح عليك ، وأنت شخصاً ذكي الفؤاد قادر على مقاومة الصعاب وحدك . وأما أنا فلا أنكر عليك ان لا قبل لي بمقاومة روكامبول .

– كيف تتخلى عني ؟

– إني سأبرح باريس عند منتصف الليل فأكون في الساعة السادسة صباحاً في الهافر وبعد ذلك بساعة أسافر .

– الى أين ؟

– إذا رضيت باقتراحي سافرت الى انكلترا ، وإذا رفضته سافرت تواً الى أمريكا .

– هب اني قبلت اقتراحك فكيف تستطيع تنفيذه اذا كنت مسافراً بعد ساعة كما أخبرتني ؟

– ذلك لأن انطوانيت لم تدخل الى السجن وحدها بل دخلت معها امرأة من أتباعي تدعى شيفيوت .

– وما عسى ان تصنع هذه المرأة ؟

– إنها تستطيع أن تضع في صحن انطوانيت أو كأس شرابها سماً زعافاً

يقتل في التو

– متى تفعل ذلك ؟

– غداً .

– كيف يمكن ذلك وأنت مسافر الآن ؟

– إني أعطي هذا السم قبل سفري لرجل من اتباعي وهو يسلمه غداً إلى شيفيوت .

– وهل أنت الذي تسلمه السم ؟

– كلا . بل أنت تسلم السم إلى هذا الرجل .

فجعل العرق ينصب من جبين كارل، وكانت المركبة قد وصلت إلى مكتب تيميلون فأوقفها ونزل منها وقال لكارل : اني أمهلك ربع ساعة للتفكير بأمرك وسأعود اليك فاذا وجدتك باقياً في المركبة تنتظرني علمت انك رضيت باقتراحي فأعطيك السم المذكور ، وإذا لم أجدك علمت انك غير محتاج إلى خدمتي فافترقنا وكتمنا هذا السر في أعماق قلبينا .

ثم تركه تيميلون وصعد إلى مكتبه فأخذ منه جميع ما يهمه حفظه من أوراق واتلف الباقي ، وأخذ رشاش السم وعاد إلى المكان الذي ترك فيه كارل فوجد انه باق بانتظاره فقال له وهو يبسم ابتسامة المتهكم : اراك راضياً باقتراحي ..

– نعم ..

– لا جرم فإن من يكسب عدة ملايين لا يبالي بدفع خمسين الف فرنك ، إن انطوانيت ستموت لا محالة .

ثم صعد إلى جانبه قائلاً . لنتحدث الآن فاعلم اني حين اعطيك السم وارشدك إلى طريقة استعماله تدفع لي الخمسين الف فرنك .

– ألعلك تشك بكلامي؟

– اني أشك بكل ما لا تخطه اليد ولا بد لي كي أكون واثقاً من دفع المبلغ

أن أفيدك بمهد .
– كيف ذلك ؟
– ذلك أن تنزع من دفترك ورقة وتكتب فوقها ما يأتي :

« عزيزي تيميلون .
« يجب التخلص من انطوانيت ابنة أختي فافعل ما تشاء وإذا احتجت فاستعمل الخنجر أو السم » .

ولما رأى تيميلون انه يتردد تابع : ان الوقت قصير وروكامبول في أثرنا ولا بد لي من السفر عند انتصاف الليل فكفى تردداً وأسرع بالاختيار .

– إني إذا كتبت ما تمليه علي تصبح شريكي في الجريمة فتكون قيدت نفسك وأنت تريد تقييدي .

– إنك مخطىء في زعمك فاني مسافر إلى انكلترا وسيأتيك رجل بعد موت انطوانيت يحمل اليك هذه الرسالة التي أمليتها عليك ، فاذا دفعت له خمسين الف فرنك أعطاك الرسالة فتفعل بها ما تشاء وإذا أبيت الدفع ضمها في غلاف واكتب فوقه عنوان نظارة الحقانية ثم يضعه في صندوق البريد ومتى أطلعت عليها الحكومة قبضت عليك ، أما أنا فأكون في طريقي إلى أميركا .

فأذعن كارل له وكتب الرسالة ثم وقع عليها ودفعها لتيميلون ، فأخذها وأعطاه غلافاً مختوماً قائلاً له تجد في هذا الغلاف السم والتعليمات اللازمة له

-- ولكنك لم ترشدني إلى طريقة إيصاله إلى السجن
– إذهب غداً في الساعة الثامنة من الصباح إلى شارع سانت أوبوتين نمرة ٧ وأطلب أن ترى رجلاً اسمه لولو ومتى لقيته أعطه هذا الغلاف وقل له : انه مرسل من قبلي إلى شيفوت في سانت لازار فيوصله في الحال .

وعند ذلك وصلت المركبة إلى بيت تيميلون فودع الفيكونت ومشى في عطفة الشارع ، قائلاً في نفسه : لا بد أن تكون ابنتي قد أعدت جميع معدات السفر وهي تحسب اني مسافر بها إلى نورماندیا ولكننا متى وصلنا إلى الهافر

فلا بد لها من السفر معي إلى حيث أريد .

وجعل يصعد سلالم هذا البيت العالي ، ولم يكن فيه أثر للنور فشعر بانقباض خفي لم يدرك له سراً ، ولما انتهى إلى الدور الرابع رأى في البيت الذي فوقه نوراً فاستنتج منه ان ابنته لا تزال في انتظاره .

وصعد حتى وصل الى منزلها فطرق الباب فلم يجبه أحد وقد دهش حين رأى المفتاح في القفل .

فاضطرب فؤاد تيميلون وفتح الباب ودخل إلى أول غرفة فرأى مصباحاً موضوعاً على منضدة عليها زجاجة فارغة وكأسان .

فنادى ابنته باسمها فلم تجبه فأعاد النداء فلم يجبه غير الصدى فدخل وهو مضطرب إلى غرفة نومها فرأى مصباحاً آخر على المستوقد ووجد ابنته نائمة في سريرها ، فناداها محاولاً إيقاظها فلم تجبه ، فاقترب منها وهو يكرر النداء .

ولكنه قبل أن يصل إلى سريرها انشق سجف أمام السرير وبرز منه رجل يحمل بيديه مسدسين فقال له : إن صحت أقل صياح فان ابنتك مائتة لا محالة ..

فجمد الدم في عروق تيميلون ووقف شعر رأسه من الرعب وتراجع منذعراً إلى الوراء .

أما هذا الرجل فكان روكامبول .

- ٢٦ -

ولم يسع قلم كاتب وصف ما لقيه تيميلون من الخوف على ابنته وعلى نفسه ، وما أصابه من الاضطراب حين برز له هذا العدو الشديد وخرج من وراء

السجف خروج الشيطان الرجيم وبيديه آلات الموت ينذره فيها بالقتل الذريع فمرت به دقيقة كانت دهر لا حد له وجعل يرتجف أمام روكامبول حتى تمكن منه الضعف وسقط على ركبتيه .

فقال له روكامبول : لا تخف فان ابنتك لم تمت ولكنها نائمة وهي ستظل نائمة عدة ساعات .

فجعل تيميلون ينظر الى ابنته نظرات الاشفاق والحنو وينظر الى روكامبول نظرات التوسل والرجاء . فقال له روكامبول : إن من كان مثلك لا يخلو من سلاح فالق سلاحك الى الأرض .

وكأنما تيميلون أراد أن يحنن قلب روكامبول على ابنته فأراد أن يطيعه طاعة عمياء ، ولذلك لم يلبث ان امره بالقاء السلاح حتى فك أزرار سترته فأخرج من منطقته خنجراً والقاه امامه .

فسأله روكامبول : أهذا كل ما لديك من السلاح ؟

– أقسم بالله اني لا احمل غير هذا الخنجر .

– إذن فابعد عني قليلاً .

فامتثل تيميلون ، والتقط روكامبول الخنجر عن الأرض ، ثم أخذ كرسياً فوضعه أمام السرير وبعد ان جلس عليه قال له : لنتحدث الآن فانك أردت أن تلقيني بقبضة الشرطة فقل لماذا وأي ثأر لك علي ؟

الا ان لسان تيميلون التصق بحلقه من الرعب فلم يستطع أن يجيب فسأله روكامبول : إني أراك مضطرباً وأرى الرعب يعقد لسانك وسأقول لك عما فعلت أنا الى أن تحل عقدة لسانك فتخبرني عما فعلت انت فاعلم أيها الأبله اني حين ذهبت الى الشارع الذي تقيم فيه عصابتي كنت أعلم انك أقمت البوليس يترقبني وانك كنت جالساً مع الكونت كارل دي مورليكس في خمارة تجاه البيت حين دخلت اليه اليس كذلك ؟

فهز تيميلون رأسه إشارة الى الموافقة فتابع روكامبول : وبينما كانت

الجنود تبحث عني في ذلك البيت وهي منذهلة لفراري جئت أنا الى منزلك بملء السكينة فأغريت خادمتك على أن تضع في كأس شراب ابنتك مخدراً ، فما لبثت ان شربته حتى تخدر جسمها فنامت كما تراها ، ومن كان مثل روكامبول وقد تخرج في مدرسة السير فيليام فلا يصعب عليه إغراء خادمة وايجاد مخدر .

أما ابنتك فلو لعلعت الرعود وقصفت المدافع لما تنبهت قبل ست ساعات وهذا ما احتاج اليه من الوقت .

فتغلبت عواطف الحنو الأبوي على فؤاد هذا الرجل العاتي فسقطت دمعة من عينه وأجاب . رحماك ان ابنتي لم تسيء اليك بشيء وليس من المروءة أن تنتقم منها فاذا شئت الانتقام فها أنا بين يديك وكل الاساءة مني .

فابتسم روكامبول وأجاب : انك لا تعرفني الان ولو اتفق مثل هذا الحادث منذ عشرة أعوام لكنت كمنت لك عند باب منزلك وطعنتك عند خروجك طعنة قاضية ولا أبالي فانك لا تزيد في حساب الذين سفكت دماءهم غير واحد .

أما اليوم فهو غير الأمس وقد عاهدت ربي أن لا أسفك دماً بشرياً إلا حين تفرغ جعبتي من وسائل السلم ، ولهذا استخدمت ابنتك للانتقام منك أتدري لماذا أريد هذا الانتقام ، اني انتقم منك لأنك تخدم الفيكونت والبارون دي مورليكس .

– أتعرف هذا ؟

– بل أعرف ايضاً انك سجنت في سانت لازار فتاة طاهرة تدعى انطوانيت .

– اذن انت تعرف كل شيء ؟

فهز روكامبول كتفيه قائلاً : إنك نهجت في هذه الجريمة مناهج كبار اللصوص والأذكياء ، ولكن الفرق لا يزال بعيداً بيني وبينك اذ لست من

اكفائي في هذا المضمار .

فأطرق تيميلون برأسه وقال : والان ماذا تريد مني ؟

– سترى ..

ثم دنا من النافذة وصفر صفيراً خاصاً وعاد الى تيميلون فقال : اذا كان يهم الفيكونت والبارون دي مورليكس سجن انطوانيت فأنا يهمني انقاذهـا وقد وقعت في قبضتي لسوء حظك فلا بد لي من ازالتك عن طريقي .

وبينما كان روكامبول يكلمه كان يسمع وقع اقدام على السلم فأتم حديثـه بقوله : انك أخطأت خطأ عظيماً باقامة ابنتك في هذا البيت وبتعيين مثـل هذه الخادمة لخدمتها فانها باعتك بأبخس الأثمان ، وان البيت معتزل اتم العزلة فلم يحل دون ما أبغيه .

وعند ذلك طرق الباب فقال له روكامبول : افتح للداخلين .

فامتثل تيميلون صاغراً وفتح الباب فظهر له بونفير وجواني الجلاد فدفعاه الى الداخل ودخلا ثم أوصدا الباب .

فقال له روكامبول ضاحكاً. أرأيت كيف استحال الأمر الى ضده وكيف انك وقعت في الفخ الذي نصبته .

ثم التفت الى بونفير وسأله : هل المركبة مهيأة .

– نعم ..

– اذاً أسرعوا الى العمل .

فأجفل تيميلون واجاب : ماذا تريد ان تصنع بي ؟

– ليس لي مأرب بك بل بابنتك .

– ابنتي .. رباه وما عسى ان تصنع بها .

ثم اسرع الى السرير كي يحول بينها وبينهم .

فصوب روكامبول مسدسه عليها وسأله : قل أين تريد ان أصيبها في القلب أم في الرأس ..

فتراجع تيميلون وجثا على ركبتيه وجعل يتوسل اليه : عفواً ومرحمة فليس لهذه الفتاة ذنب .

– دعني أفعل ما أشاء وأصغ إلي .

– ابنتي ابنتي .

– قلت لك اصغ إلي فان ابنتك ستكون رهينة عندي وانت تعرفني بل انك عرفتني حين كنت تشتغل برئاستي في الجمعية السرية القديمة أريد بذلك انك تعلم شدة حرصي على الوفاء حينما أتعهد به فاعلم ان ابنتك ستكون رهينة عندي وان حياتها موقوفة على حياة انطوانيت فاذا ماتت انطوانيت فليس لأبنتك مطمع في الحياة .

فطاش تيميلون من يأسه وقال : ما يريد هذان الرجلان ؟

– سترى ما يريدان ثم اشار لهما اشارة خفية فدنا بونفير وجواني من السرير فكفناها بغطائه كما يكفن الميت ثم حملها احدهما على ظهره وخرجا بها .

فصاح تيميليون : اقتلني ولا تختطف ابنتي وحاول ان يلحق بهما فاوقفه روكامبول وقال له : لا حاجة لي بموتك بل كل حاجتي إلى حياتك .

– ولكنهما ذهبا بابنتي .

– انها سترد اليك حين تخرج انطوانيت من سانت لازار وتتزوج اجينور دي مورليكس .

– وفي انتظار ذلك ؟

– اقسم لك بكل مقدس عندي اني سأحرص عليها اكثر مما تحرص عليها أنت .

فجعل تيميلون يفرك يديه من اليأس ثم سمع روكامبول يأمرهما بالذهاب بالفتاة ، فاجفل تيميلون وقال له : كيف ألا تذهب معها أنت وكيف تضمن الحرص عليها مع لصين ؟

– اني واثق منهما كل الثقة فلا تخف .

وعند ذلك خرج بونفير وجواني بالفتاة فكان تيميلون يسمع وقع اقدامهما على السلالم . ثم سمع صوت سير المركبة ، فصاح صيحة يأس وأوشك أن يسقط على الأرض لأنه تذكر في تلك الساعة الرهيبة انه اعطى السم للفيكونت كي يسمم به انطوانيت وقال بلهجة الجنون ، رباه ، أخشى ان يفوت الأوان .

– ماذا تعني بما قلت ؟

– اعني انه اذا كانت حياة ابنتي موقوفة على حياة انطوانيت فلا أحب ان تموت انطوانيت .

فذعر روكامبول بدوره وأصابه من الرعب ما أصاب تيميلون .

- ٢٧ -

كان الفيكونت دي موررليكس رجلاً ثابت العزيمة قوي الارادة رابط الجأش وقد تأثر هنيهـة مما رآه من رعب تيميلون ، ثم ذهب عنه هذا التأثير بعد افتراقهما فقال في نفسه . وما عساه يصنع روكامبول بعد موت انطوانيت فانه لا يستطيع احياءها بعد الموت .

وقد قال لي تيميلون ان أذهب الى لولو في الساعة الثامنـــة من الصباح فاعطيه السم ، غير ان هذا الرجل إذا كان يوجد في منزله في هذه الساعة من الصباح فلا بد انه يوجد فيه الآن ، وقد أوشك ان ينتصف الليل وخير لي ان أذهب اليه الآن فانام مستريح البال بعد اعطائه هذا السم الفتـاك الذي يحرق جواني وهو في جيبي .

وكان تيميلون قد أرشده الى منزل لولو فذهب تواً اليه وسأل البـــواب عنه فقال انه لم يعد بعد ، غير انك إذا كنت شديد الاحتيـاج اليه تجده في هذه الحارة القريبـة منك يعاقر المدام مع اخوته ، فشكره وذهب الى تلك

الخمارة فسأل صاحبها عن لولو فقال له : انه في الزاوية مع رفيقين له .

فذهب اليهم الفيكونت وقال لهم من منكم يدعى لولو فانبرى له رجل شديد العضل ضخم الجثة ظاهر بين عينيه أثر الشراب وقال له : أنا هو فماذا تريد ؟

– أريد ان أحدثك على انفراد .

– قل ما تشاء أمام اخواني فليس بيننا أسرار تكتم .

– كلا فاني قادم اليك من قبل تيميلون .

فأثر هذا الاسم على الجماعة وقام لولو في الحال فاعتذر من الجماعة وخرج مع كارل الى الشارع .

وكان الشارع مقفراً فرأى لولو مركبة واقفة أمام الخمارة فقال للفيكونت: أهذه المركبة لك ؟

– نعم .

– يظهر ان تيميلون يحب الاسراع في المهمة التي ينتدبني لها .

– انه يريد أن ترسل رسالة مستعجلة إلى شيفيوت في سجن لازار .

فغضب لولو وشتم والقى سيكارته إلى الأرض قائلاً : إني أبحث منذ ثلاثة أيام عن تيميلون فلا أجده ولو وجدته لما انتدبني إلى هذه المهمة .

– لماذا ؟

– لأني تخاصمت مع أحد مفتشي هذا السجن فأراد الانتقام مني ومنعني عن الدخول اليه .

– والآن ماذا نعمل ، وكيف السبيل لنوصل هذه الرسالة المستعجلة ؟

فأطرق لولو هنيهة يتمعن ثم أجاب : إذا كان تيميلون يدفع مائتي فرنك لا أعدم وسيلة لايصالها .

– انه يدفع دون شك .

ولكن الدفع يجب أن يكون الآن إذا أراد أن تصل رسالته في الصباح.

إنه عهد الي أن أدفع لك مثل هذه النفقة والمال معي ، فقل لي بأية طريقة تريد إيصالها ؟

– اني أعرف فتاة إذا أعطيتها هذا المبلغ ترضى أن تزج نفسها في السجن طائعة مختارة فتوصل الرسالة إلى شيفيوت فإذا شئت هلم معي اليها قبل أن يفوت الأوان .

وذهب الاثنان إلى المكان الذي توجد فيه تلك الفتاة فاجتمع بهـــا لولو وأعطاها نصف المبلغ ، فأخذت منه الرسالة وذهبت لفورهـــا إلى الشارع فارتكبت جريمة سرقة في أحد المخازن فقبض البوليس عليها الفيكونت إلى منزله وهو واثق ان السم في طريق السجن .

ودخل إلى غرفته فغير ملابسه وتأهب للذهاب إلى النادي وهو يتساءل في نفسه : سوف أعلم إذا كان الماجور أفاتار وروكامبول واحداً فان الماجور يذهب كل ليلة إلى النادي ، فإذا كان الآن موجوداً فهو روسي دون شك لا علاقة له بروكامبول ، لأن هذا اللص منهمك الآن بفراره من الجند .

ثم خرج إلى النـادي فلما بلغ اليه لقي اثنين من أصحابه وهما خارجان منه فسلم عليهما وأراد الدخول فاستوقفه أحدهما وسأله ما وراءك من أخبار أجينور ابن أخيك ؟

– ليس لدي شيء من أخباره فإنه لم يذهب إلى عمته فيما أعلم.

– إذن انك لا تعلم شيئاً من أخباره فانه لم يذهب إلى عمته وقد توقف في مدينـة لافال وهي في منتصف الطريق وهو فيها إلى الان .

– وماذا يعمل فيها ؟

– انه أوصاني في كتابه أن لا أخبر أباه وعمه بشيء من أحـواله ولكني أخبرك بكل شيء فان أجينور برح باريس مكرهاً لانه اضطر إلى مغـــادرة عشيقته للاقامة مع عمته وهو مصيب في استيائه كل الإصابة ولكنه اضطر إلى السفر لأمور عائلية لم يجد بداً من قضائها .

وقد سافر وهو مضطرب الحواس فساءت أخلاقه حتى اذا وصل الى شارته لقي ضابطاً مسافراً الى لافال فجلس بجانبه وكان أجينور يدخن والضابط يغني فاستاء الضابط من سيكارة اجينور ، وأستاء اجينور من غنـاء الضابط وبدأ باظهار استيائه بالنظرات ، ثم بالكلام المعمى الى ان ضاق صدر أجينور فقال له : ان صوتك مزعج يثقل علي ، فأجابه الضابط بكلام أشد وانتهى الأمر الى المبارزة فأعطى كلاهما رقعة زيارته للآخر واتفقا على المبارزة في لافال .

ولما وصلا اليها تبارزا فاصيب أجينور بما اضطره الى ملازمة الفراش ثمانية أيام ولكنه بالرغم عما أصابه لا يزال يفتكر بعشيقته انطوانيت وقد كتب اليها ثلاث رسائل فلم تجبه عليها حتى تولاه اليأس فعهد الي بالذهاب الى منزلهـا والسؤال عنها .

فاضطرب الفيكونت اضطراباً شديداً وقال له : العلك رأيت الفتاة ؟

- كلا .. فان كتاب أجينور لم يصلني إلا في هذا المساء ولكني سأراها في صباح الغد ، العل في ذلك ما يسوءك ؟

- كلا فان ابن أخي قد تجاورسن الرشد بمراحل فهو حر أن يفعل مايشاء

- اتعلم انه يريد أن يتزوجها ؟

- نعم وهو زواج لا يقدم عليه غير المجانين ولكنه أدرى بشؤون نفسه ثم ودعهما وصعد الى النادي وذهب الاثنان في شأنيهما .

وكان كارل يقول في نفسه . غداً سيعلم هذا الرجل ان نطوانيت اختطفت فيرجع اجينور مسرعاً ولكن رجوعه لا يفيدها لأنها ستلقى حتفها في الغد .

وظل صاعداً حتى بلغ النادي ودخل الى قاعة البليباردو فانذهل انذهالاً غريباً لأنه رأى الماجور أفاتار يلعب مع أحد اعضاء النادي .

أما الماجور افاتار ، أي روكامبول فقد تظاهر انه منهمك في اللعب وانه لم ير الفيكونت

غير أن كارل نظر الى الساعة فوجد انها بلغت الأولى بعد منتصف الليل

فدنا من المركيز الذي كان يلاعب روكامبول وقال له : أين انتما من اللعب ؟
— في الدور الثالث فقد كسب مرة وكسبت مرة فمن كسب في هذه المرة كان له كل الفوز .

فحسب الفيكونت ان كل دور يقتضي له ساعة فاذا كانا يلعبان الدور الثالث وهما الآن في آخره فلا بد ان يكون الماجور افاتار هنا منذ ثلاث ساعات وفي ذلك ما يثبت أتم الثبوت انه غير روكامبول .

وهو تعليل وجيه غير ان رفيق افاتار لم يقل للفيكونت ان الدورين الأولين قد لعباهما أمس فيكون الماجور قد حضر الى النادي منذ أقل من ساعة .

أما روكامبول فانه بقي في النادي الى الفجر وعند خروجه لقي أوغست ينتظره على الباب فأعطاه رسالة قائلا له : يجب ان ترسل هذه الرسالة الى مرتون في السجن وتعطيها لفاندا ، فأخذها أوغست وسار الى السجن .
وكانت هذه الرسالة الى فاندا الروسية وقد كتب لها فيها : لقد تم كل شيء فافعلي ما أوصيتك به .

وبعدذلك سار روكامبول الى منزله وهو يمشي الهويناء مشي المطرق المفكر وفيما هو على ذلك إذ رأى تيميلون يركض اليه مذعراً وعلائم الرعب بادية على وجهه فلما وصل اليه دق يداً بيد وقال بلهجة القانطين ، ويلاه ان السم قد وصل الى السجن . فاهتزت اعصاب روكامبول وادرك حرج الموقف .

- ٢٨ -

ولنعد الان الى سجن سانت لازار فانه في الساعة الثامنة من صباح ذلك اليوم الذي ارسل فيه روكامبول الرسالة الى فاندا دخلت مجرمة جديدة الى سجن سانت لازار ، وهي التي ارسلها لولو اليه تحمل السم الى شيفيوت كي تسمم

به أنطوانيت .

وكانت شيفيوت تكره انطوانيت كرهاً شديداً لاسيما وانها صنيعة تيميلون وهي لم تدخل السجن إلا للحط من قدرها والتنكيل بها وقد زاد في كرها لها ما رأته من فضائلها وحسن أدبها واجماع المسجونات على احترامها وعناية الراهبات بها ، فأصبحت عداوتها لها شخصية حتى باتت تتمنى لها الموت بعد انخذالها في معركتها مع فاندا .

ولما جاءتها تلك المرأة برسالة تيميلون وبالسم المعد لأنطوانيت فرحت فرحاً وحشياً لا يوصف ووطدت النفس على قتلها في ذلك اليوم .

وكانت انطوانيت منفصلة عنها لأنها نقلت بعد مرضها الى مستشفى فأقامت فيه مع فاندا التي كانت مصابة بمثل مرضها وامرأة ريكولو التي بقيت في السجن بسبب ولادتها وقد لبثت في المستشفى على انتهاء مدة سجنها الى أن تبرأ من النفاس فلم يكن الحراس يمنعون زوجها ريكولو من عيادتها والاعتناء بأمرها .

أما شيفيوت فانها لما وصلت اليها رسالة تيميلون اخذت ذلك الرشاش الذي يتضمن السم الزعاف وجعلت تفكر في طريقة تجمعها بانطوانيت في المستشفى فأرشدها الحقد الى حالة فأخذت ابرة طويلة ووخزت بها اعصاب انفها من الداخل وخزات كثيرة غير مكترثة بما وجدته من الألم فتدفق الدم من انفها بغزارة وانطرحت على الأرض وصبغت ثيابها بذلك الدم وجعلت تصيح وتعول وتتظاهر بالاغماء حتى اجتمع حواليها الراهبات والمسجونات وحملنها الى صيدلية المستشفى لمداواتها والنظر في امرها .

ولم يكن حينئذ في الصيدلية غير احد الموظفين فيها فأسرعت الراهبة الى مناداة الحكيم وعند ذلك دخلت مرتون الى تلك الصيدلية تحمل اناء وقالت للصيدلي : املأ لي هذا الاناء شراباً لأنطوانيت .

وكانت مرتون قد التمست من الرئيسة ان تتولى خدمة انطوانيت وساعدتها انطوانيت على هذا الالتماس فأجابتها الرئيسة اشفاقاً على انطوانيت .

أما مرتون فقد كانت طاهرة القلب سليمة النية، فلما دخلت الى الصيدلية وطلبت الى الصيدلي الشراب لأنطوانيت على مسمع من شيفيوت . ثم نظرت فرأت عدوتها اللدودة مضرجة بدمائها، فأشفقت عليها وقالت لها : ماذا تريدين أن أصنع لك ؟

فجعلت تستغيث بها وبالصيدلي وتطلب اليهما الإسراع باحضار الطبيب فحن قلبيهما وأسرع الاثنان الى الباب يستحثان الطبيب على الاسراع .

وكانت مرتون قد تركت إناء الشراب على طاولة الصيدلي فلما رأت شيفيوت أنهما خرجا أسرعت وأخرجت رشاش السم من جيبها والقته بسرعة البرق في الاناء ثم عادت الى العويل والصياح .

وبعد دقيقة حضر الدكتور وعالج شيفيوت وقرر ان أمرها بسيط وأمر أن تبقى في الصيدلية الى ان ينقطع الدم وذهبت مرتون باناء الشراب الى انطوانيت وهي لا تدري ان فيه السم الزعاف .

* * *

وفي الوقت نفسه الذي دخلت فيه المرأة الى السجن بالسم كان تيميلون يطوف باحثاً عن روكامبول وقد كاد يفقد صوابه فإن هذا الرجل على فظاعة قلبه كان يحب ابنته حباً شديداً وكان يعلم ان روكامبول لا يخنث بوعده وانه لا بد له من فقدها إذا ماتت انطوانيت .

فلما خرجوا بابنته من منزله وغادره روكامبول لم يكن همه إلا البحث عن لولو لأخذ السم منه قبل ان يرسله الى السجن .

غير انه كان مرتاحاً بعض الارتياح لأمرين أحدهما ان الفيكونت كارل دي مورليكس لا يجد لولو إلا في الساعة الثامنة من الصباح والثاني انه مهما أسرع لولو فلا يستطيع إيصال السم الى السجن قبل الظهر أي ان الوقت يظل فسيحاً لديه لملافاة هذه الجريمة وإنقاذ إبنته وانطوانيت من الموت .

ومع ذلك فانه ذهب تواً حين تركه روكامبول الى منزل لولو فقيل له انه في الخمارة فذهب الى الخمارة فأخبروه انه خرج منها مع رجل علم من أوصافه انه الفيكونت فأوشك ان يجن من يأسه وخرج هائماً يبحث عن لولو في كل مكان فلا يجده ثم يعود الى منزله فيخبروه انه لم يعد .

وبقي هذا دأبه إلى أن أشرق الفجر ، وفيما هو عائد الى بيت لولو رآه قرب الباب وهو يترنح سكراً ، فقبض عليه وقال له : ماذا فعلت ؟ وأين الرسالة ؟

فأخبره باتفاقه مع تلك الفتاة وكيف انها ارتكبت جريمة السرقة خاصة للولوج الى السجن بالرسالة .

وقد أخبره هذا الخبر وهو مشير عليه ، ويفتخر باسراعه في تنفيذ أوامره .

أما تيميلون فلم يجبه بحرف بل تركه منذعراً وجعل يركض في الشوارع هائماً وهو يصيح ويح لي أنا الشقي ! سأقتل ابنتي بيدي !

وقد لقي روكامبول حين خروجه من النادي كما تقدم وهو على هذه الحالة وكان متنكراً بزي الماجور أفاتار .

غير انتيميلونلم يكترث لتنكره وجاءه وهو ينتف شعوره قائلا: ماذا أعمل إن السم بات في السجن ؟

فاضطرب روكامبول هنيهة ثم عادت اليه سكينته فقال : إنك أبله لا خير فيك فلا تعمل شيئاً .

– ولكن ابنتي تموت إذا ماتت انطوانيت والسم في السجن .

– إذا كنت تحرص على حياة ابنتك ، فاذهب إلى منزلك ولا تتداخل في شيء .

فأخذ تيميلون يده فقبلها وأجاب : لقد أخطأت بعدوانك لأني لست من أكفائك .

ـ وأنا رضيت باعتذارك فاذهب بامان واحذر من ان تلحقني .

وتركه روكامبول وركب مركبة وانطلق بها الى حيث يختبيء ريكولو مع العصابة ، وكتب له رسالة الى فاندا وقال له : إذهب حالاً الى السجن واطلب مقابلة امرأتك ، فاذا دخلت اليها أعط الرسالة الى المرأة الروسية المقيمة مع إمرأتك في المستشفى واحذر ان يراك أحد . واعلم انه إذا لم تصل الرسالة الى فاندا قبل الظهر ماتت انطوانيت في المساء .

فأخذ ريكولو الرسالة وأخفاها وركب مركبة سارت تنهب به الأرض الى السجن .

أما روكامبول فانه أقام مع بونفير ينتظر عودة ريكولو ، على أحر من الجمر وقد امتقع لون وجهه لشدة اضطرابه . فسأله بونفير : ما بالك ؟

ـ أتذكر تلك الدقيقة الهائلة التي كان رأسك فيها تحت آلة الاعدام ؟

ـ إني أذكرها ، ولم أجد في حياتي أشد منها .

ـ ولكنها دقيقة واحدة يسرع انقضاؤها أما انا فلا بد لي من البقاء الى المساء في أشد من هذا الموقف .

ثم حمل رأسه بين يديه واستند الى طاولة أمامه وقال : رباه ! إن ما القاه من الانفعال في فعل الخير لم أكن أجد بعضه في صنع الشر ، فشتان بين الحالين !

ثم غاص في هواجسه ، فاحترمت العصابة سكوته ولم يكلمه أحد .

- ٢٩ -

أما ريكولو فإنه انطلق الى السجن لا يلوي على شيء ، وكان كلما افتكر بما أخبره به روكامبول عن الخطر المحدق بانطوانيت يود لو كان له أجنحة

ليطير بها الى فاندا .

ولما وصل الى مستشفى السجن أذن له بالدخول لا سيما وان امرأته باتت قادرة على الخروج ولا بد له من أخذها لأن مدة عقابها قد انتهت ولم يؤخرها في السجن غير الولادة .

ولما دخل ريكولو لم يكن في الغرفة غير امرأته وولدها وانطوانيت وفاندا والراهبة فجعل يقبل ولده ويؤانس امرأته .

ثم دنا من سرير انطوانيت وجعل يسألها عن صحتها ، ودنا بعد ذلك من سرير فاندا وأشار اليها إشارة خفية ودس رسالة روكامبول تحت مخدتها وعاد الى امرأته وولده .

وعند ذلك دخل الطبيب فأخبره ان امرأته باتت في حالة من الصحة تستطيع معها الذهاب إلى منزلها .

فشكره ريكولو وأخذ امرأته وولده وذهب بعد أن ودع انطوانيت ، فنظرت اليه فاندا نظرة سرية علم منها أنها قرأت الرسالة ، وانصرف مطمئناً آمناً .

وبعد ذهابهم خلا المكان لانطوانيت وفاندا ومرتون التي كانت تخدمها فقالت انطوانيت لفاندا : ماذا ترين العلي أبرأ قريباً من هذا الداء؟

ـ إطمئني أيتها العزيزة لأن ساعة الخلاص قد دنت .

ـ أتبقى هذه اللطخ السوداء على وجهي ؟

ـ إننا ابتلعنا حبوباً واحدة وأصبنا بداء واحد واسود وجهي كما اسود وجهك فانظري الى وجهي أترين فيه شيئاً من أثر السواد ؟

ـ كلا ولا بد ان تكون هذه الآثار قد زالت من وجهي ، ولكني أشعر بظمأ شديد .

فلما سمعت مرتون ذلك اسرعت الى إناء وقالت لها : إني ذاهبة الى الصيدلية لأحضر لك شراباً .

ثم أخذت الاناء وخرجت .

وبعد هنيهة سمعتـا صراخاً من الصيدلية ، ثم سمعتـا صوت مرتين تنادي الطبيب . وبعد ربع ساعة عادت مرتون تحمل الإناء من ذلك الشراب . فسألتها فاندا قبل أن تعطي الشراب لأنطوانيت عن سبب الصراخ في الصيدلية فقالت لها إني دخلت الى الصيدلية لإمـــلاء الإناء فرأيت شيفيوت تصيح وتستغيث فوضعت الإناء على طاولة الصيدلي وخرجت معه لمناداة الطبيب ثم عدت وأخذت الإناء ملآن وعدت اليكم .

ثم قـدمت الاناء لأنطوانيت ولكن قبل أن تمد يدها اليه انتزعتـه فاندا ورمت به الى الأرض فعجبت انطوانيت ومرتون من ذلك وقالتا لها : ماذا تفعلين ؟

– إني أنقذتك من موت هائل بفضل رئيسنا الذي يحميك .

أما الكتاب الذي أرسله روكامبول الى فاندا فهو كما يأتي :

« إن تيميلون اليد العاملة في اضطهاد انطوانيت أرسل سماً قاتلاً الى امرأة معكم في السجن تدعى شيفيوت كي تسمم به انطوانيت فاحرصي عليها ولا تدعيها تأكل شيئاً ولا تشرب شيئاً واعملي بما قلته لك قبل دخولك الى السجن فقد آن الأوان وتمت المعدات » .

وكتمت فاندا الرسالة ولكنها لم تتمالك عن الكلام امام انطوانيت ومرتون ان شيفيوت وضعت السم في الاناء فهاجت مرتون هياجاً شديداً وقالت : لا بد لي من قتل هذه الماكرة .

وهمت بالخروج اليها فأوقفتها فاندا وقالت لها : إرجعي عن قصدك لأن الله لا يرضى الانتقام .

– ولكني أنا أرضاه ولا بد لي من قتلها .

فدنت منها انطوانيت وقالت لها : إنك حديثة العهد بعيشة الصلاح ، فلا تجعلي القتل بدء أعمالك ، واغفري لهـذه المرأة كما غفرت لهـا أنا ، يغفر

لنا الله .

فاضطربت مرتون اذ لا يسعها مخالفة انطوانيت وقالت لها : إنك تشبهين الملائكة يا سيدتي بصفاء نيتك وطهارة قلبك .ولكني لا أريد قتل هذه الماكرة لمجرد الانتقام بل لحذري من ان تعود الى تسميمك لأنها لا تقف بجرائمها عند حد ولا بد لها غداً من العود الى ما فعلته اليوم .

فقالت لها فاندا : لا تخافي في الغد يفوت الأوان .

فنظرت اليها مرتون كأنما تسألها بالنظر فقالت لها فاندا ألم أقل لك حين قدومي اني دخلت السجن بغية إخراج انطوانيت منه ؟

– نعم قلت ذلك وإني متعجبة منه !

– إذاً فاعلمي ان انطوانيت لا تخشى شيئاً في الغد ، ولا تبالي بمكائد شيفيوت ايضاً .

– العلها تخرج غداً من السجن ؟

– ربما .

فلم تقتنع مرتون بهذه الأقوال وقالت : ربما صدق ظنك ولكن جميع ذلك لا يمنعني عن قتل تلك الخائنة .

– إذا فعلت شيئاً من ذلك نفقد كل أمل بانقاذ انطوانيت .

– كيف ذلك ؟

– ذلك انك اذا تخاصمت مع شيفيوت ظهر أمر هذا التسمم فأبعدونا عن انطوانيت ووضعوها في مكان منعزل للمبالغة بالحرص عليها واذا أبعدونا عنها فكيف نستطيع إنقاذها ؟

فاقتنعت مرتون بهذا البرهان السديد وقالت .ولكن تلك الأثيمة أتظل آمنة لا تنالها يد الانتقام ؟

فاتقدت عينا فاندا بنار حقد كمين وقالت كلا بل انها ستعاقب عقاباً هائلاً ولا يقتصر العقاب عليها بل يشتمل الذين دفعوها الى الجريمة .

– أحق ما تقولين ؟

– أقسم لك بالذي أرسلني الى هنا ان العقاب سيكون هائلاً شديداً .

– إذاً لا تدعيني اخرج من هذه الغرفة لأني أخشى ان التقي بشيفيوت ولا أملك نفسي .

– كلا بل يجب ان تريها وتحدثيها .

– لماذا ؟

– ذلك لأن هذه المجرمة اذا بقيت مرتابة بتنفيذ جريمتها عادت اليها بما لديها من الدهاء والحيلة ولكنها اذا علمت ان انطوانيت شربت ما في الاناء وثقت من تسميمها وامتنعت عن كيدها .

– وكيف أستطيع أن أخبرها ؟

– إنها طريقة بسيطة ، وهي ان تعودي بالاناء الى الصيدلية وتطلبي الى الصيدلي ان يملأه ايضاً . وتقولي له على مسمع من شيفيوت ، إذ لا بد ان تكون باقية فيها ، ان انطوانيت وجدت فائدة بهذا الشراب فتعلم شيفيوت انها شربته .

فامتثلت مرتون مكرهة وذهبت بالاناء .

ولما خلت فاندا بانطوانيت قالت لها : انك تستطيعين الآن ان تشربي آمنة اولئك الأعداء الذين لا يردعهم ضمير من قتلك .

– ولكني لم أسيء الى أحد منهم بشيء .

– إنك أسأت اليهم بهذه الثروة التي اختلسوها منك ، وإنهم لا يريدون ردها اليك .

– ليحفظوها قدر ما يشاؤون ويعيدوا الي حياتي الماضية لأني كنت أعد نفسي على فقري من أسعد النساء .

– كلا لأن الرئيس يريد ان يرد اليك النقود .

وكانت فاندا قد قصت على انطوانيت لمحة من سيرة هذا الرئيس المدهشة

فكانت تعجب لهذا الرجل الذي يخافه البعض ، ويحبه البعض حب عبادة . وقد اختلفت أسماؤه فدعي جوزيف بيبار والمركيز دي شمري ونمرة ١١٧ والماجور أفاتار ، وأنقذ ميلون من السجن . فكانت أنطوانيت تعجب به أشد العجب ، لا سيما وان فاندا قد مثلته لها خير تمثيل ، حتى باتت تثق به كثقة فاندا .

وبعد ان ساد السكوت هنيهة بينهما قالت لها انطوانيت: أصحيح ما قلتيه لمرتون عن خروجي غداً من السجن ؟

– نعم ، فموعد إنقاذك قد دنا .

– ولكن كيف نخترق هذه الأبواب المقفلة وتلك الأسوار العالية ؟

– بارادة الرئيس وبثقتك بي وبروكامبول وبميلون. فهل لك بنا ثقة ؟

– أعندك شك بذلك ؟

- إعلمي انه لا بد لخروجك ان تطيعيني طاعة لا حد لها وتقبلي بما أطلبه اليك باسمي وباسم روكامبول وباسم ميلون .

– إني مستعدة للطاعة .

– إذاً إصغي الي

ثم ضمتها الى صدرها وقبلت جبينها وبسطت لها خطة إنقاذها من السجن كما سيجيء .

أما مرتون فانها ذهبت الى الصيدلية تحمل الاناء فارغاً فبرقت عين شيفيوت لما رأتها ولما سمعتها تخبر الصيدلي ان انطوانيت استلذت الشراب ظهرت على وجهها ملامح الفرح الوحشي .

فلم تكترث لها مرتون عملاً بوصية فاندا وحملت اناء الشراب وعادت به الى انطوانيت فأخذته منه فاندا وبعد هنيهة قدمته لانطوانيت فشربت ما فيه جرعة واحدة .

ولم تمض فترة وجيزة حتى صاحت انطوانيت صيحة مزعجة منكرة موضعة

يدها على قلبها ثم انطرحت على سريرها لا تعي .

فأسرعت مرتون اليها ولما رأت انها لا حراك فيها جعلت تلطم خديها وتصيح قائلة : إنها مسمومة دون شك لأني لم أغسل الاناء .

ثم أتى الطبيب وبعد ان جس نبضها وفحص قلبها ، قرر انها ميتة وان وفاتها كانت بذلك الداء الهندي .

- ٣٠ -

ولنعد الآن الى تيميلون فقد تركناه ذاهباً إلى منزله بأمر روكامبول ، منفطر القلب وقد برح به اليأس ، ولم يطمئن فؤاده لكلام روكامبول فذهب الى منزله وأقام فيه الى الظهر على أحر من الجمر . ثم خرج هائماً على وجهه لا يعلم أين يستقر حتى بلغ الى كنيسة . فذكر عندما رآها مصيبته بابنته ، وأذكرته تلك المصيبة بخالقه . فجثا أمام بابها يصلي ، وهي أول مرة في حياته الأثيمة عرف قلبه الخشوع وذكرت شفتاه اسم الله .

وبعد أن فرغ من صلاته جعل يسير حزيناً مطرقاً ، فيطوف شوارع باريس طوف الهائم ، حتى أقبل الليل وعضه الجوع ، فدخل الى فندق طعام ، وفيما هو داخل سمع باعة الجرائد ينادون – جريدة المساء . حادثة سجن سانت لازار – فهلع فؤاده واشترى نسخة من تلك الجريدة ، وقرأ في صفحتها الثانية ما يأتي :

« حادثة سجن سانت لازار »

« حدث في سجن سانت لازار حادثة غريبة ، اضطربت لها المسجونات وكادت تفضي الى الثورة . وهي ان إحدى الفتيات الذي قبض عليها البوليس مع عصابة لصوص لاتهامها بسرقة ، ماتت في السجن اليوم

ميتة غريبة .

« وقد أدعت هذه الفتاة حين قبض عليها انها من بنات الأشراف وانها وجدت بين اللصوص بمكيدة ثم أثبت التحقيق أنها على غير ما تقول إذ عرف القضاة أسها .

« أما هذه الفتاة فقد دخلت الى السجن منذ خمسة أيام . وفي اليوم التالي لدخولها أصيبت بمرض نادر في اوروبا ولكنه معروف في الهند واليابان فاسود جلدها وظهرت بثور فوق لسانها ، وهو مرض قتال ولكن الأطباء يثبتون انه لا يعدي .

« غير انه من غرائب الاتفاق ان امرأة أخرى أصيبت في ذلك السجن بالداء نفسه وفي الساعة نفسها التي أصيبت بها الفتاة فنقلت الاثنتان الى مستشفى السجن في غرفة واحدة .

« وقد كانت المسجونات يحترمن تلك الفتاة احتراماً شديداً لجمالها ومكارم أخلاقها وظواهر آدابها ولتشيع فتاة لها تدعى مرتون كانت تغالي أمام المسجونات في مدح صفاتها ولكنها على إجماع المسجونات على حبها كان لها عدوة لدودة تدعى شيفيوت .

« وقد أدخلوا الى المستشفى مع تلك الفتاة إمرأة ولدت فيه فأصيب طفلها بمرض أشرف فيه على الموت فأشفقت الفتاة عليه وركعت أمام مهده تصلي ، فما أوشكت ان تفرغ من صلاتها حتى نفض الطفل عنه غبار الموت ، وشفي باعجوبة من السماء وانتشرت هذه الحادثة في السجن وأطلق المسجونات على الفتاة لقب قديسة .

« وقد كان موتها فجائياً أثر شراب شربته ، فاختلفت الأقوال في سبب موتها ولكن صديقتها مرتون اتهمت شيفيوت بأنها وضعت لها السم في الشراب لاشتهارها بعدائها ، فثارت الفتيات على تلك المجرمة وضربنها ضرباً مبرحاً فنقلت الى المستشفى وهي في حالة خطرة ولكنهم

يرجون إنقاذها .

« وقد علمنا عند طبع الجريدة ان الفتيات لم يرجعن عن ثورتهن إلا حين أذنت لهن إدارة السجن بتقبيـــل تلك الفتاة المائتة التي يلقبنها بالقديسة وهي ستدفن غداً وقد أذن يدفنها دون تشريح بناء على التماس المسجونات وحذراً من عودتهن الى الثورة .

« وقد اكتتبن جميعهن وجمعن مبلغاً من المـــال كي يشترى لها به أرض خاصة في المدفن كي لا تدفن في المدافن العمومية ، وسنذكر غداً ما نعلمه من التفاصيل » .

ولما انتهى تيميلون من قراءة الجريمة سقطت الجريدة من يده ووهنت رجلاه وقال : ويح لي ! لقد قتلت ابنتي بيدي وكيف السبيل الى خلاصها ولكن لا بد لي منه ؟

وقبل أن يتم كلامه أحس بيد وضعت على كتفه فالتفت ثم رجع مذعوراً لأن هذه اليد كانت يد روكامبول .

أما روكامبول فانه أخذ يده وسار به الى منعطف في الشارع فقال له تيميلون بلهجة القانط المتوسل : رحماك أنقذ ابنتي فلا ذنب لها .

– نعم ، سأنقذها اذا كنت تطيعني .

– أواه إني أكون أطوع من بنانك فمر أطعك في كل ما تريد .

– ألم تجعل لأنطوانيت والدة تدعى مارلوت إثباتاً لجريمتها ؟

فاطرق برأسه مستحياً وقال : نعم .

– إذاً ، يجب على هذه الأم أن تطلب جثة ابنتها واصغ إلي الآن لأني أمهلك الى ظهر غد ، فاذا لم تذهب غداً تلك المرأة التي تدعى مارلوت الى سجن سانت لازار ، وتطلب جثة انطوانيت مدعية انها ابنتها وتدفنها في مقبرة مونتمارتر بأرض خاصة تختارها أنت حسب إرشادي فإنك لا ترى ابنتك .

فبرقت عينا تيميلون بأشعة الأمل ، وقال سأعمل جميع ذلك في الوقت المعين .

فأعطاه روكامبول الف فرنك لشراء الأرض الخاصة وقال له : يجب عليك أيضاً أن تدعي انك عم انطوانيت فتسير مع أمها في مشهدها واذا بلغتم بها المقبرة تضعها في قبر خاص يرشدك اليه ريكولو . ثم تركه وانصرف .

- ٣١ -

كان كل ما نشرته تلك الجريدة التي قرأها تيميلون عن ثورة الفتيات صحيحاً فإن ثائرهن لم يهدأ حتى وعدهن رئيس السجن بالأذن لهن بتوديعها وعدم تشريح جثتها .

وفي صباح اليوم التالي كانت انطوانيت مسجاة على سريرها ، فجعل المسجونات يدخلن اليها واحدة أثر واحدة ، فيقبلن يدها تبركاً لاعتقادهن انها قديسة حتى فرغن من توديعها ، ولم يفضل في الغرفة غير فاندا ومرتون فكانت مرتون تبكي البكاء الشديد ، وكانت علائم الحزن والسكينة بادية في وجه فاندا .

ولما خلا بهما المكان قالت لها فاندا لماذا تبكين هذا البكاء ؟

فنظرت اليها مرتون نظرة إنكار وقالت : أترينها مائتة لا حراك فيها ، ثم تسأليني عن سبب بكائي ؟

– ألم تقولي مع القائلات في هذا السجن ان الله صنع أعجوبة على يدها حين إنقاذ الطفل ؟

– نعم ولا أزال أعتقد هذا الاعتقاد

– إذاً لماذا تيأسين من رحمة الله العله لا يستطيع أعجوبة ثانية ؟

فارتعشت مرتون وقالت : ماذا تعنين بهذا القول ؟

– أعني به ان الله الذي أنقذ الطفل من الموت لا يصعب عليه ان يرد الحياة الى انطوانيت .

– رباه ! ماذا أسمع العل ذلك من الممكنات ؟

– إن الله على كل شيء قدير ولا تقنطي من رحمته .

ورفعت مرتون عينيها الى السماء وقالت: رباه من يستطيع إنكار سلطانك اذا أنقذتها من الموت .

ثم انقطعت عن البكاء وجعلت تنظر الى انطوانيت وتغوص في بحار التأملات .

وبعد حين دخلت الراهبة وقالت لفاندا ومرتون: إن والدة أنطوانيت أتت تطلب جثتها .

فأجفلت مرتون بلهجة الاستنكار : أية أم هذه ؟

وحاولت ان تكشف النقاب عن حقيقة تلك الأم الكاذبة لو لم تبادرها فاندا بنظرة سرية ألجمت لسانها عن الكلام ، فوقفت حائرة مدهوشة لا تعلم ماذا تقول .

وبعد حين أتت تلك الأم واعترفت ان انطوانيت ابنتها ووقعت على صك الوفاة .

ثم جاؤوا بالتابوت ولما رأته مرتون اضطربت اضطراباً شديداً وقالت لفاندا : أرأيت انهم سيحملونها أين عجيبة الله ؟

- قلت لك لا تيأسي واصبري لأن الله مع الصابرين .

ثم حملوا انطوانيت الى الكنيسة ، وصلي عليها بحضور جميع المسجونات وخرجوا بها

وكانت مرتون راكعة بجانب فاندا ولما رأتهم ساروا بها علا نحيبها وقالت أي رجاء لي بعد وقد حملوها ؟

– قلت لك لا تقنطي من رحمة الله والآن أنظري الى الذين يحملون النعش ألا ترين بينهم ريكولو ؟

– نعم .

– أترينه يبكي أو يظهر عليه شيء من ملامح الكآبة ؟

– كلا .

– ذلك لأنه يثق برحمة الله أكثر من ثقتك فاقتدي به .

وبينما كانت مرتون تنظر الى النعش ومن حوله صاحت صيحة رعب قائلة : هوذا تيميلون !

فضغطت فاندا على يدها ضغطاً شديداً وقالت لها : اسكتي !

فسكتت مرتون وهي لاتعلم شيئاًمن هذهالألغاز وتوارى النعشعن الأنظار.

وفي الساعة السابعة من المساء كانت فاندا ومرتون مختبئتين في المستشفى وعادت مرتون الى البكاء واليأس فقالت لها فاندا ما بالك لا تقتدين بي وتثقين وثوقي . ألا ترينني ساكنة آمنة ، وأنا إنما أتيت الى هـــذا السجن لإنقاذها منه ؟

– ولكني أراك لا تزالين سجينة فيه .

– سأبقى فيه ساعتين أيضاً

– ألعلهم قادمون لانقاذك ؟

– كلا بل سأنقذ نفسي .

ونظرت اليها باندهال عجيب وقالت : ستنقذين نفسك وكيف ذلك ؟

– سوف تعلمين كيف أنقذ نفسي واذا أنقذتك أيضاً معي أتعدينني بالرجوع عن سيرتك السابقة والسير في مناهج الصلاح

– إني كنت آليت على نفسي أن أعيش في خدمة انطوانيت ما حييت وكنت أرجو ان يغفر لي الله ذنوبي السابقة

– وإذا ردت اليها الحياة .

ــ بالله لا تعيدي علي هذه الأقوال فقد كاد يذهب صوابي
ــ ليكن ما تريدين والآن هل تريدين ان تخرجي معي من السجن ؟
ــ كيف لا أريد ولكني لا أعلم كيف تريدين الخروج من هذا السجن ؟
ــ ستعلمين كيف أخرج قولي لي ألا تعرفين الطريق المؤدية الى باب الخفر العام في هذا السجن ؟
ــ أعرفه ولكن الخروج من هذا الباب مستحيل .
ــ إن كلمة المستحيل لا توجد في قاموس روكامبول .

وعند ذلك سمعنا صوت وقع أقدام فهمست فاندا في اذن مرتون وقالت: هوذا الراهبة قادمة إلي بالدواء ، فمهما سمعت ومهما رأيت إحذري أن تقولي كلمة .

وبعد هنيهة دخلت تلك الراهبة ووجدت فاندا مضطجعة في سريرها فسألتها عن صحتها فأنت وتوجعت وقالت لها بصوت ضعيف: إن لساني يلتهب التهاباً شديداً .

فقالت لها الراهبة : أرني لسانك .

ثم وضعت المصباح الذي كان بيدها على منضدة صغيرة أمام السرير ودنت منها ولكنها ما لبثت ان اقتربت منها حتى نفخت فاندا نفخة شديدة أطفأت المصباح وهجمت على الراهبة فضغطت على عنقها بيد من حديد والقتها فوق السرير وهي تقول إذا فهت بكلمة خنقتك في الحال .

وكانت هذه الراهبة تشبه فاندا بقوامها ونحولها وهي على طعنها في السن لم يكن يوجد في وجهها أثر للتجعيد والغضون .فلم تستطع دفاعاً لضعفها فما زالت بها فاندا حتى تغلبت عليها وربطت فمها بمنديل كي لا تستطيع الصراخ وأوثقت رجليها وربطتها الى السرير ثم جردتها من ثوبها ولبسته فوق ثيابها ووضعت على رأسها القبعة التي كانت تستر معظم وجهها وأخذت المفاتيح التي كانت في جيبها

وبعد أن فرغت من ذلك قالت لمرتون سألبسك قريباً مثل هذا الثوب فاكمني وراء الباب .

وفيما هما كامنتان إذ سمعتا وقع أقدام معاونة تلك الراهبة فنادتها فاندا باسمها مقلدة صوت تلك الراهبة وقالت لها : أئتني بمصباح فقد أطفأ الهواء مصباحي

ورجعت المعاونة على أعقابها ثم عادت تحمل مصباحاً ولكنها لم تلبث أن دخلت الى الغرفة حتى انقضت عليهافاندا ومرتون وفعلتا بها ما فعلتاه بالراهبة فجردتاها من ملابسها وقيدتاها بجانب رفيقتها ولبست مرتون ثيابها .

وعند ذلك قالت لها فاندا . هلمي بنا الآن وسيري أمامي في الطريق المؤدية إلى باب الخفر العام .

فسارت أمامها وتبعتها فاندا فجعلتا تخرجان من دهليز إلى رواق وكل من رآهما من الحراس يحسب انهما من الراهبات حتى انتهتا إلى فسحة متسعة تكتنفها أسوار السجن المشرفة على الشارع ، فوقفت مرتون وقالت لها : انظري إلى هذا النور الضعيف المنبعث من آخر الفسحة المتسعة فان هناك الباب العمومي وهناك فرقة من الحراس يتناوب رجالها السهر ولا يمكن لأحد أن يخرج من بينهم .

— لا بأس فاننا لا ندنو منهم وهم لا يروننا لبعد المسافة واشتداد الظلام .

ثم عادت إلى الباب الذي خرجت منه إلى تلك الفسحة فمشت وهي تعد خطواتها ومرتون تتبعها حتى عدت عشرين خطوة ودنت من ذلك الجدار المرتفع وجعلت تبحث بيديها على سطحه حتى عثرت يدها على حبل رفيع متين فمشت خطوة ثانية فلقيت حبلاً آخر .

وكان في أسفل الحبلين عقدتان ضخمتان فحلتهما فإذا بهما قد تحولتا إلى زنبيلين من الحرير الدقيق المتين فأمرت مرتون ان تجلس في إحداهما وجلست هي في الآخر ثم شدت الحبل ثلاث مرات متوالية وصبرت هنيهة ، وشدته

أيضاً أربع مرات وصعد الزنبيلان في الحال يحملان هاتين الأسيرتـــين إلى أرض الحرية .

- ٣٢ -

ولنعد الآن إلى اجينور دي موروليكس فقد تقدم لنا القول ان عمه ارسله إلى الرين عند عمته كي يبعده عن باريس فاختصم وهو مسافر مع أحد الضباط فتبارز معه وجرحه الضابط جرحاً خفيفاً قضى عليه بلازمة الفراش اسبوعاً

وقد عرف القراء ان روكامبول أرسل ميلون إلى الرين كي يعود بأجينور الى باريس فذهب ميلون في اليوم الثاني لسفر أجينور .

وكانت القريةالتي حدثت فيها تلك المبارزة قرية صغيرة ومثل هذه المبارزة تحدث بين بارون وضابط تشتهر فيها اشتهاراً عظيماً حتى تـدور على جميع الألسن ويتحدث بها العموم .

ولما وصل ميلون إلى فلك المحطة سمع الناس يتحدثون ويذكرون اسم البارون دي موروليكس ويشرحون المبارزة فعلم منهم انه جريح وانه مقيم في الفندق فنزل حالاً من القطار وأسرع إلى ذلك الفندق .

وكان أجينور قد رآه مرة حين كان يقفو أثر مركبته مع انطوانيت فلمـا رآه انذهل فقال له ميلون اعرفتني يا سيدي ؟

– كلا ، ولكني اذكر اني رأيتك أو رأيت رجلا يشبهك فماذا تدعى ؟

– اني أدعى يا سيدي ميلون

وظهرت دلائل الفرح على وجه اجينور وقـــال : انك ميلون مربي انطوانيت ؟

– أرى من ملامح عينيك انك تحبها حباً اكيداً .

ـ أهي التي أرسلتك اليّ ؟
ـ كلا ولكني آت اليك من أجلها فقل بالله أتحبها حقيقة ؟
ـ اني أحبها حباً بل أعبدها عبادة .
ـ واذا كانت معرضة لخطر ؟

ـ انطوانيت معرضة لخطر ، وأي خطر هذا ؟
ـ خطر الموت يا سيدي .

وكان أجينور لا يزال ضعيفاً مما نزف من دمائه ولكنه حين سمع ميلون يذكر أن حبيبته معرضة لخطر الموت اشتد واضطرب وقـال : أتكون انطوانيت في مثل هذا الموقف واقيم في فراشي ؟ هلم بنـا نعود إلى باريس فلا أطيق البقاء دقيقة هنا .

وخرج الاثنان من الفندق تواً إلى المحطة فأرسل ميلون إلى روكامبول هذا التلغراف بتوقيع مستعار .

« إلى الماجور افاتار

« إننا مسافران إلى شارتر بالقطار نمرة ١٦ فنصل اليها في الساعة الحادية عشرة وأنا انتظر الجواب في الشارتر كي أعلم اين يجب ان أذهب »

« ديراند »

ولم يفه ميلون بكلمة عن أنطوانيت في الطريق ولكنه لما رأى اجينور يلح عليه بالكلام عنها قال له :

ـ أتعلم ان انطوانيت من اسرة عظيمة ؟
ـ نعم .

ـ وانهم سرقوا ثروتها ؟
ـ نعم .. ولكني سأرد لها الثروة المسروقة .
ـ انهم لم يكتفوا بسرقة ثروتها ، بل انهم يريدون سلب شرفهـا ، بـل سلب حياتها .

– قل لي بربك من هذا المجرم الأثيم ؟
– لا أستطيع ان أبوح بحرف وسيخبرك الرئيس بكل شيء .
– أي رئيس هذا ؟

– هو رجل يقدر على اجراء كل ما يريد وهو الذي انقذني من السجن وتولى حماية انطوانيت ولا بد متى اجتمعت به أن تبلغا المراد من انقاذها .

ولما وصل القطار الى الشارتر اسرع ميلون إلى إدارة التلغراف فتلقى منهـا هذا التلغراف :

(إلى المسيو ديراند المسافر بالقطار نمرة ١٦ « أنا في انتظارك في محطـة باريس ») .

« افاتار »

وعاد ميلون الى القطار وسار بهما الى باريس وكان اجينور مدة السفر في أشد حالة من الهياج لأنه بات يحب انطوانيت حباً شديداً مبرحاً .

وقد زاد في غرامه موقف أنطوانيت الخطر وما اعترضه في سبيل حبهـا من العقبات حتى بات يود ان يسفك في سبيل انقاذها آخر نقطة من دمه .

ولما وصل القطار الى محطة باريس اشار ميلون بيده الى روكامبول الذي كان ينتظر في المحطة وقال لأجينور هذا هو الرئيس .

فارتعش اجينور لأنه رأى أمامه الماجور افاتار وقد كان تعرف عليه في النادى فانه من أعضائه .

أما روكامبول فانه دنا منه وقال له بعد السلام عليه . لا يشغلك الآن أمري ولا تهتم ان تعرف من أنا وماذا أستطيع ان اصنع فان الوقت يضيـق بي الان عن اخبارك بحقيقة سيرتي ولا يسعني ان اهتم إلا بأنطوانيت .

ثم ركب الثلاثة مركبة وقال روكامبول لميلون : ارشد السائق الى منزلك فاننا ذاهبون اليه .

ولما وصلوا الى منزل ميلون فتح روكامبول الصندوق الذي خبأته والدة

انطوانيت في القبو وأخرج منه رسائلها التي تفضح اخويها الفيكونت كارل والبارون دي مورليكس وعرضها على اجينور .

ولما أتم اجينور قراءتها تراجع الى الوراء مذعوراً وسقطت الرسائل من يده لاضطرابه وجعل يقول : أيمكن أن يفعل أبي هذا المنكر ؟

- ٣٣ -

وكان اجينور يحب أباه حباً بالغاً ويحترمه احتراماً شديداً فانقضت عليه هذه الرسائل انقضاض الصاعقة ذاتها وكانت مكتوبة بخط البارونة ميلز فعلم بعد قراءتها ان انطوانيت ابنة عمته وان أباه وعمه قد سرقا ثروتها وان ذنبها لم يكن قاصراً على السرقة فإن البارونة اعترفت في رسائلها انها ماتت مسمومة وقد اثبت قولها كتاب بخط الدكتور فانسانت تحصل عليه روكامبول واطلع اجينور عليه .

ولما وقف اجينور على جميع هذه الجرائم ولم يعد لديه شك بآثام عمه وابيه وقف وقد بدت عليه ملامح الانفة فقال لروكامبول : لا أريد الان ان اعرف من أنت ويكفيني ان تكون واقفاً على هذه الأسرار الهائلة فـاطلعك على قصدي فاعلم اني سأتزوج انطوانيت وسأرد لها ثروتها .

فقال روكامبول بسكينة : أظن يا سيدي ان ميلون اخبرك عن اختطاف انطوانيت .

— اختطاف انطوانيت ؟

— نعم انها اختطفت ولكننا وقفنا على اثرها .

فكاد أجينور يفقد صوابه وجعل يقول : كيف اختطفت ومن الذي اختطفها ؟

فقام روكامبول إلى خزانة فاخرج منها عدة اوراق وعرض على اجينور في البدء كتاب ابيه دي مورليكس الى انطوانيت فقرأه اجينور وقال : ان هذا الكتاب زور وليس الخط خط ابي

– نعم ، ولكنك تذكر ان عمك ودعك في المحطـة في الساعة نفسها التي اختطفت فيها انطوانيت .

فأن اجينور انين الموجع وقال نعم ، انه أهل لكل شيء ثم عرض عليـه روكامبول نسخة من صورة الحكم على انطوانيت فلما قرأها اجينور حتى طاش عقله فغطى رأسه بيديه وقال أمثل انطوانيت تزج في السجن ؟

– انهم ألقوها فيه مع السارقات الآثمات دون ان يردعهم رادع من ضمائرهم الأثيمة .

ثم عرض عليه رسالة تضمنت اعتراف تيميلون بجميع المكيدة اعترافاً تاماً مفصلاً فكانت النكبات تتوالى على فؤاد اجينور وكأنما توالیها قد اعاد اليـه رشده وهاله ثبوت الجرائم على عمه وابيه ثبوتاً لا ينقض ، فوثب من مكانه الى الباب وقال اني لا أقيم دقيقة في هذا المكان ..

غير ان روكامبول اسرع فقبض عليه وقال له : الى أين انت ذاهب ؟

– الى سجن لازار ..

– وماذا تصنع بهذا السجن ؟

– ان ابوابه تنفتح امامي ومديره يسمع كلامي والكنيسة تفتح ابوابها لي وتحتفل بعقد زاجي على انطوانيت إذ لا بد لي من ارضائهـا ترضية تناسب ما اصابها من الاهانة بل اريد ان يعرف العالم باسره ان البارون دي مورليكس تزوج امرأته في سانت لازار .

فابتسم روكامبول وقال : يسرني ان تبلغ منك الشهامة هذا الحد غير ان مثل هذه الأفعال التي تريد الأقدام عليها لا تجري إلا في الروايات ولو تأملت هنيهـة لعلمت ان ذهابك الى سجن سانت لازار يحمل بينك وبين انطوانيت

هوة عميقة وان الاصطلاحات العالمية لا تؤذن لك بالزواج بانطوانيت حين ترسل بسببها أباك الى المشنقة .

فانجلت الحقيقة بتمامها لأجينور وأدرك كنه موقفه الحرج وتجلت له تلك المشنقة كأنما هي ماثلة امامه فادار في جوانب الغرفة نظراً هائماً وقد تولاه اليأس فرأى على طاولة مسدس روكامبول فاسرع اليه واختطفه غير ان روكامبول كان اسرع في تجريده منه فقال له : دعني أموت فلم يبق لي خير في الحياة بعد هذه المصائب ..

— وانطوانيت ؟

فعاد اجينور الى رشده حين ذكر اسمها وقال : رباه ماذا يجب ان أصنع ؟

— يجب ان تصبر كي تقوى على قراءة كل شيء ثم اطلعه على تلك الرسالة التي كتبها الفيكونت كارل الى تيميلون وهي التي قال له فيها « يجب ان تموت انطوانيت ابنة اخي في هذا المساء واذا احتجت فاستعمل الخنجر او السم » ..

فضرب اجينور رأسه بيده ضربة شديدة وقال : أماتت انطوانيت ؟

— لا اعلم إذا كان السم قد وصل الى السجن انما ارجوك ان تتبعني .

— الى أين تريد ان اتبعك ؟

— حيث ترى انطوانيت .

— أرأيت إذاً كيف يجب ان نذهب سجن سانت لازار ؟

— كلا انها ليست بهذا السجن .

— إذن أين هي ؟

— هلم معي تعلم .

ثم أخذه بيده ومسك ميلون بيده الأخرى وسارا به لأنهما رأيا ان قواه قد تلاشت بحيث لم يعد يستطيع ان يمشي وحده .

وكان روكامبول قد أخذ مسدسيه من قبيل الاحتياط فوضعهما في جيبه وركب المركبة مع اجينور وميلون وقال للسائق: سر بنا الى شارع مونتمارتر.

وسارت بهم المركبة سيراً حثيثاً حتى بلغت إلى منزل ريكولو ، وهو المنزل الذي كبسته الجنود حين تفتيشها على روكامبول وعصابته ، فـنزل الجميع منها يتقدمهم روكامبول وطرق الباب ، ففتح له ريكولو فدخل وتبعه أجينور وميلون .

وكان يوجد في المنزل حين دخولهم ثلاث نساء وهن : فاندا الروسية ، ومرتون ولمرأة ريكولو وكان باب الغرفة الثانية مقفلاً فجعل أجينور ينظر إلى أولئك النساء دون اكتراث ثم قال لروكامبول : أين انطوانيت ؟

– إنها قريبة من هنا .

– إنك لا تجسر أن تقول لي الحقيقة فانها ماتت .

فلم يجبه روكامبول ولكنه ذهب إلى طاولة فأخذ عنهـا تلك الجريدة التي نشرت وفاة انطوانيت في السجن واطلعه عليها .

ولما تلا أجينور تلك المقالة لم يعد يشكك بموت انطوانيت فخابت أمانيه واختل عقله ، فجعل يتوسل إلى روكامبول ويسأله أن يعطيـه مسدسه كي ينتحر .

فقال له روكامبول : مهلاً ايها الصديق فإن هذه الجريدة تدل على أن انطوانيت ماتت وان جثتها قد نقلت إلى مقبرة مونتمارتر التي لا يفصل بيننـا وبينها غير حائط هذه الغرفة ، الا أنها لم تدفن بعد ، بل انهـا وضعت في قبو مؤقتاً إلى أن يتم بناء القبر الخاص ، أفلا تريد أن تنظر التي تحبها نظرة الوداع ؟

– نعم .. نعم !. أريد أن أودعها هذا الوداع ، بل أودع نفسي على ذاك الضريح !

فأخذه روكامبول بيده وقال له : تعال معي .

ثم أشار إشارة خفية إلى ميلون وريكولو .

وسار روكامبول بأجينور إلى خارج المـنزل فتبعه أجينور وهو واهي

العزيمة منحط القوى وميلون يمشي في أثرهما مطرق الرأس ، وهـو يخشى على أنطوانيت بقدر ما يثق بروكامبول .

وما زالوا سائرين حتى بلغوا إلى جدار متهدم في مقبرة مونـتمارتر فولجوا منه يسترهم ظلام الليل ، وكان يقودهم ريكولو في تلك الظلمـــات الحالكة ويسير بهم في دهاليز المقبرة بين الأموات ، وكانت الدموع تنهل على وجـه أجينور كما كان يتساقط المطر على سائر العصابة .

وما زالوا يسيرون حتى وصلوا إلى قبة مرتفعة تفصل المقبرة القـــديمة عن الجـديدة ، فقـال أجينور لروكامبول : ألا تعطيني مسدسك حـين نصل اليها ؟

فقـــال روكامبول : لا شك انك جننت وإن الحزن الشديد يدفعك إلى هذه الأقوال ؟

ـ لا أنكر حزني ويأسي ، وكنت أود لو ذهب صوابي غـير ان عقلي لا يزال سليماً لنكد طالعي .

ـ إن موت أنطوانيت خير لك ولها وهو خير لها دون شك فـإنهـا إذا عاشت تعيش ملطخة بذلك العار الذي وصمها به أبوك وعمك .

ـ أبي .. نعم ان أبي الذي قتلها .

ـ كلا ، فإن أباك ضعيف الإرادة وهو لم يرتكب تلك الجريمة إلا حين دفعه اليهـا عمك .

ـ لقد أصبت فإنه من أعظم رجال الكيد والشر خلافاً لأبي فقد انطوى قلبه على السلام

ـ ثم انه لو عاشت انطوانيت لوجب علي وعلى ميلون حمايتها ورد ثروتها والانتقام من أعدائها .

فصاح أجينور صيحة يأس وقال : أنا الذي سينتقم لها .

ـ أتنتقم لها من أبيك ؟

ـــ كلا .. فانك انت نفسك تعترف معي ان أبي رجـل ضعيف شريف ، ولكني أنتقم من عمي فليس بين الشرائع الاصطلاحية ما يمنع القتال بين الرجل وابن أخيه ، وسأقتل هـذا العم الماكر بالسيف أو بالمسدس ، إذ لا بد لي من قتله .

وفيما هم يتحدثون ويسيرون وقف ريكولو وقال : قد وصلنا .

فنظر روكامبول وأجينور وميلون فوجدوا أمامهم حفرة عمومية ، وهي أشبه بهوة عميقة ، فأنار ريكولو شمعة ، فظهر لهم سلم ينزل بها إلى تلك الهوة فنزل أمامهم قائلاً لهم : اتبعوني .

ولما رأى ميلون تلك الحفرة جعل ينتحب ويقول : واأسفاه إنها مائتـة حقيقة .

فانتهره روكامبول وقال له : أعن البارون في النزول .

ثم نزل أمامهما ثم أثر ريكولو ، وتبعه ميلون وهو يحمل أجينور كما يحملون الأطفال حتى إذا بلغوا إلى أسفل الحفرة سار بهم ريكولو في منعطف انتهوا منه إلى سرداب طويل ، كان على يمينه ، وعـلى يساره كثير من التوابيت .

وكانت هذه الحفرة خاصة بالأموات الذين يوضعون فيها مؤقتاً إلى ان تبنى لهم المـدافن الخاصة ، وكان روكامبول عابس الوجه مقطب الحاجبين وريكولو يبحث بشمعتـه عن نعش انطوانيت حتى انتهى إلى نعش أبيض وقال : هذا هو .

فأفلت أجينور عند ذلك من ميلون وأسرع إلى ذلك النعش وفتحـه وجعـل ينادي : انطوانيت .... أنطوانيت .... أنت امرأتي أمام الله أهناك القاك .

واختنق صوته وتفجرت الدموع من عينيه وعض كفيه من اليأس ، ثم نظر إلى روكامبول وقـال له : بالله اشفق عـلي واقتلني ، أو دعني

أموت بجانبها .

ولم يجبه روكامبول وأشار إلى ميلون بإبعاده عن النعش فأبعده مكرهاً وهو لا يقل اضطراباً عن أجينور .

ثم أشار إشارة ثانيـــة إلى ريكولو فدنا من النعش وكشف عنه الكفن فظهرت من تحته أنطوانيت بملابس المسجونات في سجن سانت لازار .

فصاح أجينور صيحة مزعجة حين رأى وجهها ولكنه ما لبث ان تفرس فيه حتى قال : ان هيئتها لا تدل على الموت ومن يراها على هذه الحالة يحسب انها نائمة .

وعند ذلك دنا منه روكامبول وأبعده عن النعش ونظر اليه تلك النظرات التي تتكهرب لها الأجسام والتي بها دعي رئيساً وقال له : وإذا صدق قولك ولم تكن أنطوانيت قد ماتت حقيقة ؟

فاضطرب أجينور وقال : انك ستذهب بصوابي .

— لا بأس وسأعيد عليك السؤال فأقول اذا كانت انطوانيت لم تمت حقيقة وكان موتها الظاهر رقاداً بفعل شراب مخدر فماذا تصنع ؟

— أتسألني ماذا أصنع اني أتزوجها .

— وثروتها ؟

— يجب أن ترد اليها .

— أتنتقم لأمها المقتولة ؟

فصاح أجينور بصوت مختنق متهدج : ويلاه أأنتقم من أبي ؟

— ان انطوانيت قد تعفو عن أبيك ..

— اذن سأقتل عمي .

— كلا .. لست انت الذي يتولى قتله .

— اذا لم أكن أنا قاتله فمن يقتله ؟

— أنا ؟

- أواه ان جميع ما تقوله أحلام ، فإن أنطوانيت مائتة .
ثم ركع قرب نعشها وعاد الى البكاء .

- نعم ان الجرائد ودفاتر السجن سجلت وفاة تلك الفتاة التي تدعى انطوانيت ابنة مرلوت ، ولكن أنطوانيت دي ميلر ابنة عمك ..

- تمم حديثك ..

- ان انطوانيت دي ميلر يمكنها الخروج من هذا النعش وهي تستطيع ان تفتح عينيها وتعيش وتضع يدها بيدك اذا كنت أريد .

فانصب العرق البارد من جبين ميلون وسمعت دقات قلب ريكولو وقال أجينور : وماذا يمنعك عن أن تريد ؟

- لا أمتنع عن ذلك الا اذا كنت تقاومني .

- كيف أقاومك وماذا تريد مني ؟

- أريد بأن تقسم لي بشرفك أمام هذا النعش انك تطيعني طاعة لا حد لها مهما طلبت اليك ومهما رأيت مني .

- أقسم لك بشرفي وبكل عزيز على الأرض ومقدس في السماء اني أكون لك أطوع من العبيد ما حييت اذا كنت ترد لي انطوانيت .

- اذن سأردها لك ولكن ليس في هذا المكان ، اذ لا يحمل ان تفيق فتجد نفسها بين الأموات .

ثم أمر ميلون أن يخرج انطوانيت من النعش ويحملها ، وامر ريكولو أن يسير أمامهم ؛ فتقدم ريكولو أمامهم بذلك السرداب الطويل المؤدي الى منزل ريكولو ، وتبعه ميلون يحمل انطوانيت ، وسار في أثرهما روكامبول ، وهو يتأبط ذراع أجينور حتى بلغوا المنزل فوضعوا انطوانيت على سرير امرأة ريكولو .

واخذ روكامبول بيد أجينور وقال له : إصغ الي الآن ، لقد كان في وسعي ان أخرج أنطوانيت حية من السجن كما أخرجت فاندا ومرتون ،

وهما هاتان المرأتان اللتان تراهما أمــامك ، ولكني لم أرد ذلك اذ لا يجب ان يشك أحد بأن الفتاة التي ستفدوا امرأتك كانت في السجن مع السارقـات وبنات الهوى ، ثم انه لا احب ان يستطيع هذا الخائن مطـاردتها ، وأريد به عمك الذي دنس اسم عائلتكم الشريف ، والذي ستنكره دون شك ، بل اني أريد أن لا يبقى لديه شيء من الشك بوفاتها وانهـــا ماتت في سجن سانت لازار .

وقال أجينور : نعم ، لقد اصبت ولكنك لا تزال تطمعني بحيـاتها وهي لا تزال دون حراك .

– اني سأرد لها الحياة .

فساد السكون بين الحاضرين حتى كادت تسمع دقات قلوبهم وانقطعت مرتون عن البكاء وبرقت عينلها بأشعة الأمل .

أما روكامبول فإنه نظر الى أجينور وقال له : اصغ الي اني لست طبيباً ولا عالماً ، ولا دجالاً ، ولا ساحراً ، وان حالة انطوانيت الآن حالة من نام بتأثير مخدر .

وقد عرفت فيما مضى من ايامي طبيباً هندياً يشتغل اشغالاً خاصاً بالسموم ، وكان لي معه مودة وصحبة فتعلمت منه طرق التخدير وأخذت منه مخـدراً يجعل من يشربه على ما هي عليه انطوانيت الآن .

وقد ابتلعت انطوانيت حبة من هذا المخدر لا يزيد حجمها على حجم رأس الدبوس فسكنت دقات قلبها في الحال ووقفت دورتهـــا الدموية ، وبردت جثتها واصفرت بشرتها حتى لم يعد يشك من يراها بانهـا من الأموات ، كما تراها الآن .

فصاح ميلون : بربك يا سيدي أسرع ورد اليها حياتها ، فقـد فقـد منا الصبر .

.. اصبر الى ان اتم حديثي .

ثم عاد الى أجينور وقال : ان هذا المخدر الذي يميت هذا الموت الظاهري بمدة عشر ثوان لا يميت الموت الحقيقي إلا اذا مضى زمن طويل على شاربه فإذا أسقي ضده شفي في الحال وردت اليه الحياة .

ثم أخرج من جيبه زجاجة صغيرة ومبضعاً وكان في الزجاجة سائل أبيض وقال : ان هذا السائل هو ترياق ذلك السم ، وسأغمس به رأس هذا المبضع وأوخز ذراع الصبية فتختلج على الفور ويعود قلبهـا الى الاشتغـال ثم لا يمضي عليها دقيقة حتى تفتح عينيها وتعود الى ما كانت عليه من العافية .

فصاح ميلون : اسرع يا مولاي .

والتف الجميع حول السرير ودنا روكامبول من الفتاة فشمر عن ذراعها ثم فض ختم الزجاجة وغمس المشراط بسائلها وبحث عن عرق تجري به الدمـاء اكثر من سواه فوخز العرق بالمشراط وجعل ينتظر .

وبعد دقيقة مرت بأولئك الصابرين مرور لم تتحرك انطوانيت فاصفر وجه روكامبول ، ودق ميلون يدأ بيد وهو يقول : انها لم تتحرك وقـد قضي عليها .

وقال اجينور بلهجة الحزن الشديد : العلها ماتت ؟

فاضطرب روكامبول اضطراباً شديداً وقال : رباه ألعلي انتظرت اكثر من المدة اللازمة ؟

ثم جحظت عيناه وبدت على وجهه علائم اليأس .

وظل ينتظر ثلاث دقائق ، فكان ريكولو ممسكاً بأجينور وميلون جاثياً أمام انطوانيت يبكي بدموع غزيرة ويقول بصوت مختنق ، ماتت واأسفاه .

وكان أجينور يرثيها بأشجى العبارات وقد حاول الافلات من ريكولو والدنو منها .

فأوقفه روكامبول وعاود تجربته الأولى ولكنـــه وخز في هذه المرة ذراعها الأيمن ، فعاد الى الحضور بعض الأمل وجعلوا ينتظرون ، فكانوا كلهم

ينظرون إلى انطوانيت ما خلا فاندا فانها كانت تنظر إلى روكامبول تستطلع الحقيقة من عينيه .

ومضت دقيقة ايضاً وأنطوانيت لا تزال في غيبوبة الموت .

ولما رأى روكامبول انه اخفق في سعيه أخذ من جيبه مسدساً فأعطاه لأجينور وقال له : إني أسألك مهلة دقيقتين ايضاً فأجرب تجربة ثالثة فإذا لم تر بعد آثار الحياة تبدو على خطيبتك تكون قد ماتت موتاً لا ريب فيه وعند ذلك فاني أتوسل اليك أن تقتلني قبل أن تقتل نفسك .

فأخذ اجينور المسدس دون أن يجيب حتى ان ميلون نفسه الذي كان يعبد روكامبول عبادة لم ينتزع المسدس منه .

ودنا روكامبول من انطوانيت فكشف عن صدرها ووخزها مرة ثالثة ثم وضع إحدى يديه على قلبها وحمل باليد الثانية ساعته وجعل ينظر عقربها فان حياته كانت موقوفة على نجاح التجربة أما فاندا فكانت لا تزال ناظرة اليه .

ورفع روكامبول يده عن قلب انطوانيت ووضع اذنه عليه ثم رفع رأسه فجأة وصاح صيحة المنتصر : لقد ردت اليها الحياة فاني سمعت بأذني دقات قلبها .

وحدث عند ذلك ما يصعب وصفه من تأثر الحاضرين فأخذ روكامبول أجينور وأدناه من انطوانيت فوضع اذنه على صدرها وقال : وانا أسمع أيضاً دقات قلبها .

ثم أقبلت بعده فاندا ومرتون وميلون وكل من حضر وسمعوا جميعهم ما سمعه روكامبول فكان فرحهم لا يحيط به وصف

ثم تراجعوا عنها وفتحوا النافذة التماساً للهواء فقال لهم روكامبول : لقد زال عنها الآن كل خطر ، ولكن المخدر قد أثر بجسمها اللطيف تأثيراً شديداً فلو تأخرت ساعة عن إيقاظها لقضي عليها ولم ينفع الدواء ، أما الآن فإن يقظتها لا ريب فيها .

فقال له أجينور : متى تفتح عينيها ؟

– بعد ربع ساعة على الأقل ، والآن فلا يجب ان نبقى هنا فلنخرج جميعنا ما عدا النساء .

ثم خرج أمامهم فتبعه الجميع فلما توغلوا في الشارع لقي روكامبول تيميلون قادماً إلى منزل المصابة فدعاه باسمه ، وسمع اجينور هذا الاسم فقال : أهذا الذي كان يساعد عمي في أغراضه السافلة ؟

– نعم .. ولكني سحقته .

ودنا تيميلون من روكامبول وقال له بصوت يضطرب ، لقد وفيت بوعدي يا حضرة الرئيس الا تفي انت بوعدك ؟

– نعم فاذهب غداً في الساعة السادسة صباحاً إلى المحطة تجد فيها جواني الجلاد ..

– أهو يرشدني عن ابنتي ؟

– كلا بل انها ستكون معه وهو سيعطيك تذكرة سفر الى لندرا لأنك ستسافر اليها .

– أتنفيني من باريس ؟

– كلا ولكني انصحك ان تنفي نفسك فإن البوليس يبحث عنك وإذا بقيت في باريس إلى مساء غد قبض عليك .

– بأي تهمة يتهمونني ؟

– بسرقة مائة الف فرنك من منزل الفيكونت كارل دي موروليكس وهي التهمة التي كنت تريد أن تصمنا بها فقد كنت أشد منك دهاء وأنا انصحك الآن ان تهرب فان لدى البوليس برهاناً لا يدحض على أنك انت السارق .

– أين وجد هذا البرهان ؟

– وجد في منزلك فإن تلك المحفظة المكتوب عليها اسم كارل التي وضعتها في منزل ريكولو كي تثبت علينا التهمة أخذتها انا ووضعتها في منزلك وأرشدت البوليس اليها فكبس البوليس منزلك واخذ المحفظة .

فلما سمع تيميلون هذا البرهان الصريح صاح صيحة منكرة وهرب متعوذاً من مكر روكامبول ...

* * *

وبعد ساعة عاد روكامبول وأجينور وميلون وريكولو الى المنزل فأقاموا خارج الغرفة ينتظرون ان تصحو انطوانيت.

فلم يطل وقوفهم حتى خرجت اليهم مرتون تقول بصوت يتهدج من الفرح: أدخلوا . ادخلوا فقد صحت من رقادها .

فدخلوا يتقدمهم أجينور وحاول ان يدنوا من انطوانيت فمنعته فاندا وأجلسته على كرسي بأمر روكامبول ، وعند ذلك حركت انطوانيت ذراعها وتمتمت شفتاها كلمات لا تفهم ، فأسرع جميع الحاضرين اليها فما مر بها دقيقة حتى جعلت تفسر كلامها وكان اول ما فاهت به قولها اين أنا اني الفردوس ؟

فصاح ميلون يقول بملء الفرح : اني أسمع صوت أمها فهو هو بعينه .

وركع أجينور أمامها وجعل يقبل يديها ودموع السرور تسقط من عينيه عليها .

وعادت الى قولها : اين أنا .. أين أنا ؟

ولكن عينيها كانتا مغلقتان فلم تستطع فتحهما

وعادت إلى الكلام وقالت : نعم . نعم ..

لقد ذكرت اني مائتة ولكني طاهرة لم ارتكب اثماً فلا بد ان أكون الآن في السماء .

وجعل أجينور يناديها باسمها ويتلو عليها أعذب الألفاظ

ففتحت عينيها فجأة ونظرت الى اجينور امامها فارتعدت وقالت :

– أهذا أنت ؟

– نعم ايتها الحبيبة ، فان الفردوس هبط إلى الأرض .

فقال روكامبول : كلا بل ان الفردوس هو الحب الشريف .

ثم تراجع جميعهم عن العاشقين ولم تكن انطوانيت تسمع غير حديث حبيبها أجينور .

انتهت رواية « سجن طولون »

ويليها الجزء السادس من روكامبول « روكامبول في سيبريا »



الجزء السادس

روكامبول

في سيبيريا

روكامبول في سيبريا

- ١ -

ومضى ثلاثة أيام على البارون فيليب دي مورليكس دون أن يرى أخاه الفيكونت كارل ومضى خمسة أيام دون أن يرى ولده أجينور .

غير ان هذا البارون كان (كما يعرفه قراء رواية سجن طولون) منخلع القلب ضعيف الارادة فكان يخشى حدوث مصيبة من انقطاع أخبار أخيه وولده فلم يجرأ على السؤال عنها .

وكان لا يزال في فراشه يشكو صدع رجله . فلما كان اليوم الرابع جاءه خادم غرفته بالجرائد ففتح إحداها وقرأ فيها تلك المقالة التي عرفها القراء بعنوان حادثة سجن لازار .

فلما وقف على موت انطوانيت اضطرب اضطراباً شديداً ، وكبرت عليه جريمة قتلها ، وتمثل له خيال الطبيب فنسانت يعيد عليه قوله السابق : إندم كما ندمت عسى يغفر لك الله . وذكر ان ابنه يهوى الصبية فخشي أن تقتله مصيبته فيها .

وفيما هو على هذا الاضطراب دخل عليه أخوه الفيكونت كارل فلما رآه زاد اضطرابه فقال له بلهجة القانطين : أماتت الفتاة ؟

فأجابه كارل ببرود : كيف عرفت موتها ؟

— من الجرائد .

— تباً لهذه الجرائد فإنها تتداخل في كل شأن ولا تخفاها خافية . وبعد فما هذا الاستياء من موتها العلك لم تكن تتوقعه ؟

— وأنت فما هذه السكينة العل موت الفتاة لم يؤثر عليك ؟

— كيف يؤثر علي موتها ولا راحة لنا إلا بهذا الموت ولكنك إذا رأيتني اليوم ساكناً فقد كان لي بالأمس موقف شديد ترتعد له الفرائص .

— كيف ذلك ؟

— ذلك أن تيميلون الذي يدبر تلك المكيدة أوشك أن يخوننا أمس .

— أمن أجل المال ؟

— كلا بل لخوفه من رجل شقي هرب من سجن طولون وهو يدعى روكامبول . ألم تسمع بهذا الاسم ؟

— نعم فهو اسم لص شهير .

— هو ذاك وقد خافه تيميلون خوفاً شديداً حتى بات يتمثل له بكل مخيل لاعتقاده انه عارف بأمرنا وهو مصيب في اعتقاده . ألا تذكر انه عادك يوماً طبيب إنكليزي ؟

— نعم .

— فلم يكن هذا الطبيب غير روكامبول ، جاءك متنكراً للوقوف على أسرارنا .

ثم قص على أخيه جميع حوادث الليلة الماضية .

ولما فرغ من حديثه قال له البارون : إني أخشى ان يكون ظن تيميلون صادقاً وان يكون روكامبول هذا واقفاً على دخائل أسرارنا .

– وهبه كان صادقاً في ظنونه، وكان روكامبول متداخلاً في شؤوننا فإن ذلك يدل على ضعفه لأننا كنا نسعى إلى إخفاء انطوانيت وقد فزنا بكل ما نريد .

فقال البـــارون : أواثق أنت من موت أنطوانيت ؟ (إقرأ رواية سجن طولون قبل هذه) .

فضحك كارل وقال :أتحسب إن إدارة السجون تمزح بنقل الأخبار الكاذبة وتسجيل الوفيات الكاذبة ؟

– أماتت حقيقة مسمومة كأمها ؟

– نعم لأن تيميلون تعهد بتسميمها مقابل خمسين الف فرنك ستدفعها له أو لمن يرسله لأني سأبرح باريس بعد ساعة .

– أنت تسافر بعد ساعة وإلى أين ؟

– إلى روسيـا ، وإن المركبة تنتظرني على بابـك ، وأنا بملابس السفر كما تراني .

فزاد عجب البارون وقال : ماذا يدعوك إلى السفر الى روسيا ؟

– يظهر ان التعب قد أضعف ذاكرتك . أنسيت ان لأنطوانيت أختاً تدعى مدلين وإنها معلمة في روسيا كما أخبرني إبنك اجينور .

فاضطرب البارون وأدرك قصد أخيه الهائل فقال له : بربك يا أخي كفانا أثاماً وحسبك قتل انطوانيت فدع أختها ألا تخشى العقاب ؟

– لا يخشي العقاب غير البلهاء الذين يدعون البوليس يقبض عليهم .

– أما أنا فخوفي شديد .

– ممن ؟

– من الله .

فهز كارل كتفيه وقال : أما أنا فلا أخاف إلا من المشنقة وقد اتخذت ما ينبغي من الاحتياط بحيث بت في مأمن من الشرع .

– ولكنك قتلت انطوانيت لأنها عرفت اسم أمها وأما مدلين فكيف تخافها وهي لا علم لها بشيء ؟
– بل انها تعلم كل شيء وهي عائدة من روسيا الى فرنسا وأنا ذاهب للقائهم في الطريق .
– أتقتل كل يوم نفساً بشرية ، وترتكب كل يوم جريمة احتفاظاً بهذه الثروة ، وما هي بثروتنا لأنها مسروقة . رباه ان هذا الأمر شديد لا تحتمله النفوس .
– بل إنك ضعيف أبله فلا تغمس يدك بالجريمة فإني أتكفل بها وحدي ولا تنس ان تدفع لتيميلون ما وعدته به من المال .

ثم ودعه ومضى وبعد ساعة ركب القطار وهو يقول: فرغنا من أنطوانيت فلننظر الآن في شأن مدلين .

– ٢ –

ولنعد الآن الى خمسة عشر يوماً مضت ولنبرح فرنسا إلى روسيا .
قبل تلك الحوادث باسبوعين كانت مركبة بريد يجرها ثلاثة جياد تقطع تلك السهول التي يغمرها الثلج في أقسام روسيا ، وهي تسير إلى موسكو بين الغابات الكثيفة ، فكلما بلغت محطة أبدلت الجياد بسواها واستأنفت السير .

وكانت السماء مدلهمة والثلوج تمطر منها ، فكانت تنهمر وتجتمع أكداساً على الأرض وفوق سطوح المنازل وقباب الكنائس وفي كل مكان .

وكان في هذه المركبة رجل ملتف برداء مبطن بفراء السمور بينما السائق يحث الجياد على السير بصوته وسوطه .

وكان هذا الرجل أبيض الشعر يناهز الستين من عمره ، وقد ارتسمت على وجهه علائم الاهتمام ، وهو يدعى الكونت بوتنيف ، من نبلاء الروسيين ، وكان يتفقد أراضيه . فوصل اليه من امرأته في موسكو ، الكتاب الآتي :

« إن ولدنا ايفان انتهت مدة إجازته كما تعلم ، ولكنه لم يذهب الى بطرسبرج ، بل بقي في موسكو . وقد أخطأنا لعدم مراقبته فقد صرح لي اليوم أنه يهوى المدموازيل مدلين الفرنسية ، معلمة ابنتنا . وانه يريد ان يتزوجها ، فوقع هذا القول وقع الصاعقة على رأسي ، ولا أدري ماذا أصنع فاحضر » .

فاضطرب الكونت لهذا الكتاب الوجيز ، لأنه كان شديد الطمع ، وقد فقد جانباً عظيماً من ثروته ، فجعل يسعى لزواج ابنه بالكونتس فاسيليكا ، وهي من أعظم غنيات بطرسبرج ، فأحبط عشق ولده لمدلين جميع أمانيه ، ولهذا فانه أسرع بالقدوم من أراضيه الى موسكو كي يتلافى هذا الخطر .

وفي اليوم الثامن من سفره وصل الى الكرملين ، ولكن موسكو كانت لا تزال بعيدة وقد أنهكت قوى الجياد . فطلب من المحطة تغيير الجياد فأمر ناظرها باعدادها . وبعد ربع ساعة خرج سائق من الاصطبل وشد الجياد على المركبة فقال له الكونت إني أكافئك خير مكافأة إذا كنت تسرع بي إلى موسكو ولو هلكت الجياد فإني أدفع ثمنها .

فأجابه السائق بالفرنسية قائلاً : سأمتثل لأمركم خير امتثال

فارتعش الكونت عندما سمع صوت السائق ، وجعل ينظر اليه نظر الفاحص .

وكان هذا السائق قصير القامة طويل الوجه غائر العينين تدل سحنته على المكر والشر فسأله الكونت بعد أن تأمله ملياً : من أنت ؟

– إني أدعى بطرس .
– أأنت روسي ؟
– نعم .
– كيف اتفق انك تتكلم الفرنسية ؟

– كنت سائقاً عند البرنس دولو غوسكي ، فلما ذهب لفرنسا صحبني معه فتعلمت هذه اللغة فيها .

فقال الكونت في نفسه : ما هذا التشابه الغريب في الأصوات فقد خيل لي إني أسمع صوت ولدي ايفان . ثم قال له : لماذا امتهنت هذه المهنة ؟

– لأني لا مورد لي سواها .
– العلك مرتاح الى هذه المهنة ؟
– كلا لأني أوثر ان أكون سائقاً خاصاً في أحد المنازل لا سائقاً عمومياً كما أنا الآن غير ان هذا مستحيل لنكد طالعي .
– لماذا ؟

فأطرق السائق برأسه مستحياً وقال لأني ارتكبت جريمة قتل فيعنفوان شبابي وحكم علي بالنفي الى مناجم سيبيريا .

فارتعش الكونت ايضاً وقال له : سر بنا وأسرع كما قلت لك .

وكان في أثناء سيره لا يفكر إلا بهذا السائق وما وجده من التشابه بين صوته وصوت ولده ايفان . ولما وصل إلى موسكو خرج الكونت من المركبة فنفحه بكافأة حسنة وقال له : إذا أحببت ان تكون في خدمتي فاحفظ ما أقوله لك .

فبرقت أسرة وجهه سروراً وقال مر يا مولاي بما تشاء .

– أريد منذ الآن أن تمثل لدى جميع سكان هذا القصر وسائر الناس انك مصاب بالخرس فاذا رضيت ان تمثل هذا الدور لقيت عندي كل ما تطمع به وكنت من الراجحين .

ولما رأى منه حسن الامتثال تركه وصعد الى امرأته فقصت له ما كان بين تلك الفتاة الفرنسية اليتيمة وبين ابنها وكيف ان أشعة غرامها قد نفذت إلى قلبه حتى بات لا يجد بداً من زواجها .

فقال لها الكونت أهي تحبه أيضاً ؟

– الحب بينهما متبادل على السواء .

– إذن هي التي أوحت اليه هذا الغرام لدهائها طمعاً بمقامه وجاهه .

– كلا لأنه كان البادىء وقد أنكرت عليه غرامه زمناً طويلاً حتى سقطت في شراكه .

– يجب إطلاق سراحها وإرجاعها إلى بلادها .

– ولكنني أخشى على ايفان أن يتبعها ، وأخشى عليها ان تموت حزناً لفراقه .

ففتح الكونت نافذة الغرفة المشرفة على ردهة المنازل ونادى بطرس السائق الذي كان ينتظره فيها فصعد السائق اليه وجعل يقلد أشائر الخرس فقال له الكونت : تكلم .

فقال السائق إذاً بماذا يأمر مولاي ؟

ولكنه ما لبث ان قال هذا القول حتى اضطربت والدة ايفان وقالت : إن هذا الصوت صوت ولدي فما هذا التشابه الغريب ؟

وأشار الكونت إشارة إيجاب وقال لبطرس : إذهب الآن إلى الاصطبل ولا تنس إنك أخرس

ولما ذهب بطرس قالت والدة ايفان لزوجها : قل لي ماذا تريد ان تصنع في هذا الرجل ؟

– سأقول لك في الحال والآن إصغي إلي انك تعرفين ثروتنا ؟

– نعم وأأسفاه فانها أوشكت أن تضمحل بعد الخسائر الأخيرة ؟

– إذاً فقد وجب علينا تزويج ايفان بالكونتس فاسيليكا لأنها تحبه كما علمت

وأموالها لا تحصى .

– ولكن ايفان لا يرضى .

– لا بد له من الرضى متى اختطفت مدلين .

– أتظن ذلك ممكناً ؟

– كل شيء ممكن إنما يجب ان تعلمي مقاصدي وتشاركيني فيها .

– إني تعودت طاعتك .

– لي كلمة أقولها أيضاً وهي أنه إذا علمت مدلين ان ايفان لا يحبها أتمتنع من العودة إلى فرنسا ؟

– كلا إلا إذا ماتت من الحزن .

– ذلك ليس من شأننا والآن لنبدأ بالعمل .

– ٣ –

عندما عاد الكونت بونتيف الى موسكو، كانت مدلين تناجي نفسها باحلام السعادة وتفسح لديها الجمال ، فان ايفان كان يحبها وقد باح لها بغرامه وهو جاث على ركبتيه أمامها وأقسم لها انه لا يتزوج الكونتس فاسيليكا وانه لا يتخذ زوجة سوى حبيبته مدلين . ولم يكن ايفان كاذباً فيما قال ، لأنه كان يحب مدلين حباً صادقاً وكان واثقاً من موافقة أبويه على زواجه بها لشدة دلاله عليهما ولفرط حنوهما عليه .

فلما علم بقدوم أبيه من أراضيه أسرع اليه وباح له بهيامه بمدلين كما باح لأمه وأخبره عن عزمه على الاقتران بها فأصغى اليه أبوه دون ان تبدو منه بادرة غضب ولكنه قال له باكتئاب : إنك ستدفع بنا إلى هاوية الخراب إذا رفضت الزواج بالكونتس فاسيليكا

غير ان ايفان كان يحب مدلين حباً مبرحاً فلم يكترث لحالة أبيه وقد نزهه الغرام الصادق عن ان يبيع نفسه بيع السلع .

فلما رأى أبوه ما كان من عناده قال له : لا بأس انما استمهلك إلى الغد كي نبحث في هذا الشأن الخطير وابا حث مدلين ، فاعلم إذا كانت تحبك حقيقـة كما تحبها أنت .

– أتشك بذلك يا أبي ؟

– ان شرطي بسيط كما يظهر ، لا سبيل إلى رفضه .

– اني لا أرفضه يا أبي فافعل ما تشاء .

– تعدني انك لا تقول كلمة لمدلين إلى الغد .

فأجابه ايفان بملء البساطة ، سأجتهد ان أفي بهذا الوعد

– ما زلت تخاف ان لا تتمكن من الوفاء بوعدك فان لدي طريقة لحملك على الوفاء ، فأين هي مدلين الآن ؟

– انها مع أختي .

– إذن فاركب مركبـة وسر بها إلى منزل صديقي البرنس ك . فانه يبعد مرحلتين عن موسكو فبلغه سلامي وقل له اني عدت إلى موسكو ولا شك ان البرنس سيدعوك إلى العشاء بحيث انك لا تستطيع العودة إلا بعد نصف الليل أي بعد أن تنام مدلين وعلى هذا فانك لا تستطيع أن تراها قبل غد وأكون أنا قد رأيتها الليلة وحادثتها فيما أريد .

فلم يسع ايفان إلا الامتثال لاضطراره إلى ارضاء ابيه فركب مركبة وذهب وبعد ساعة كان في قصر هذا البرنس .

أما هذا البرنس فقد كان من قواد الجيش المعتزلين وكان شديد التمسك بالمبادي القديمة كثير السخط على المبادي الاصطلاحية الجديدة التي وضعها اسكندر الثاني فكان يجتمع اليه في منزله كثيرون من الناقمين أمثاله ويظهر كل منهم ما يعن له من أقوال السخط ويتمنون المحافظة على القديم .

فلما جاء ايفان برسالة أبيه انخرط بينهم وتمكن منه الشراب فاندفع مثلهم في هذا المجال فجعل يشكو شكوى مرة من بطيء الترقي في الجيش .

وفي الساعة الأولى بعد منتصف الليل حين انفض المجلس برحه ايفان فركب مركبته وحاول الرجوع الى موسكو .

فلما بلغ باب المدينة المقدسة سأله ضابط الحرس عن اسمه فذكره له فقال:
أنت ابن الكونت بونتيف ورتبتك ضابط في الحرس الامبراطوري ؟

— نعم .

— أما كنت قادماً من منزل البرنس ك. ؟

— نعم ، وهل علي حرج بقدومي من عنده ؟

— ولكني مأمور بالقبض عليك ، ثم اطلعه على الأمر وهو ممضي بتوقيع رئيس البوليس في موسكو .

فبذل ايفان جهده كي يأذن له بمقابلة ابيه غير ان الضابط أبى عليه اجابة ملتمسه فأنزله من مركبته وركب واياه في مركبة أخرى فسارت بهما في طريق بطرسبرج دون ان يستطيع كتابة كلمة الى ابيه او الى مدلين .

ولا بد ان يكون عرف القراء بأن صدور الأمر بالقبض عليه وارساله الى بطرسبرج لم يكن الا بايعاز من ابيه فانه فضل مفارقة ابنه فراقاً وقتياً على أن يراه زوجاً لفتاة فرنسية لا تعرف اسم ابيها .

وفي اليوم التالي اجتمعت والدة ايفان بمدلين وجعلت تمشي واياها قرب غرفة ولدها وهي تظهر لها من طباعه ما خفي عليها وتذكر لها عن طيشه وقلة وفائه اموراً جعلتها شبه مقدمة لما سيجيء .

ولما وصلت الى غرفة ايفان وقفت بها امامها فسمعت مدلين صوت السيوف تقرع على الأرض فعلمت ان ايفان يجتمع فيها باصحابه .

ثم سمعت صوت ايفان يتكلم ويضحك فوقفت كي تسمع وتشاغلت الكونتس عنها فسمعته يقول : ان أبي بولمي شديدا القسوة علي فقد تداخلا في

أمري مع هذه الفتاة الفرنسية وأفسدا جميع المساعي التي بذلتها حين كدت أبلغ مرادي من إغوائها .

فقال له أحد الحاضرين إذن لا صحة لما أشيع من انك ستتزوجها ؟

فسمعت مدلين صوت إيفان يضحك ويقول : ومتى صح ان يتزوج مثلي فتاة لا نسب لها ، ولكني كنت أعدها هذه الوعود إلى أن حال والدي دون قصدي وأنا مسافر إلى بطرسبرج للزواج بالكونتس فاسيليكا .

فلما سمعت كلامه هذا سقطت مغمياً عليها ، فأمرت الكونتس الخدم بحملها إلى غرفتها .

وفي اليوم التالي كتبت إلى اختها أنطوانيت ذلك الكتاب الذي تقدم ذكره في رواية سجن طولون .

ولم يكن الصوت الذي سمعته مدلين صوت إيفان بل كان صوت السائق بطرس وقد حمله الكونت وامرأته على تمثيل هذا الدور منعاً لزواج ابنهما ايفان بمدلين .

ولم يكن يرضي الكونت الشرس ان تبرح مدلين من روسيا إلى فرنسا ، بل كان يريد ان لا يدع سبيلاً لابنه كي يتبعها بعدما عرفه من هيامه بها كي لا يبقى حائل دون زواجه بفاسيليكا ، فخط خطة جهنمية وأمر في اليوم التالي ان تسافر مدلين وهي لا تزال تتلهب من الحمى .

فأرسلت في مركبة بريد كانت مسافرة فيها امرأة عجوز وأرسل معها السائق بطرس وقد تزيا بزي الخدم وجلس أمام السائق .

وكان الكونت قد عرف ما انطوى عليه هذا الرجل من الشر ورآه ينظر إلى مدلين نظرة المعجب بجمالها فاختلى به وقال له أراك تنظر إلى هذه الفتاة باعجاب فهل راقت لعينيك ؟

فضحك بطرس وقد أدرك قصده فقال له الكونت : إني لست بأبيها وما أنا بوصي عليها ولكني نفحتها بعشرين الف فرنك كي تكون مهراً لها وهي

تحمل هذا المال أوراقاً مالية في جيبها .

فنظر كلاهما الى الآخر نظرة تغني عن كل قول وصعد بطرس إلى مكانه أمام السائق وسارت بها المركبة تنهب تلك السهول الشاسعة ولسان حال مدلين يقول :

وتلفتت عيني فمذ بعدت ... عني لديار تلفت القلب

- ٤ -

وظلت تلك المركبة تجري بها ٨ ايام لا تستريح إلا في المحطات حين تغيير الجياد ، ولا أنيس لها غير تلك المرأة العجوز التي كانت منشغلة عنها بكلبها تداعبه وتضمه إلى صدرها وقاية من البرد .

وكانت مدلين لا تزال تحب ايفان بالرغم عما سمعته من حديثه كأنما قلبها كان يناجيها ان الحديث زور ، وكانت ترى انها سوف تجتاز حدود بولونيا إلى المانيا ومنها إلى فرنسا ، تلك البلاد العزيزة التي ربيت فيها بين انطوانيت ومربيتها مدام رينود فيخفق قلبها ، ولكنها لا تلبث أن تذكر إيفان حتى تنسي كل عزيز لديها في الوجود وتلتفت إلى ورائها كأنما تطمع أن ترى ذلك القصر وقد بعدت عنه ٨ أيام .

أما بطرس فكان ينظر اليها نظرات الهائم ولا يتكلم إلا بالاشارات ، وكان هذا الرجل وحشي الأخلاق ، فاسد السريرة منطوياً على الدهاء ، وهو على هذه الأخلاق شديد الشراهة إلى المال ، كثير التهور في مجاري الشهوات .

وقد قال له الكونت ان مدلين لديها ٢٠ الف فرنك ، فبات يطمع بمدلين وبمال مدلين ، وكان يقول في نفسه ان مدلين لا تستطيع الدفاع عن نفسها

وهذه العجوز منشغلة بكلبها فلا أخشى غير السائق ، إذ قد يتفق ان يكون شريف القلب فلا يوافقني في أغراضي .

وما زال يبحث منذ ٨ أيام عن طريقة تنيله اربه فلا يجدها ، وما زالت مركبة البريد تسير والثلج من تحتها ومن فوقها حتى توارت الشمس في الحجاب في اليوم الثامن لمسيرها من موسكو فوقفت أمام منزل معتزل وسط غابة كثيفة وهو إحدى المحطات .

وبينما كانوا يغيرون الجياد خرجت مدلين من المركبة وتبعتها العجوز إلى المحطة ليستريحا فيها وخلا عند ذلك بطرس بالسائق الجديد الذي يقود المركبة فقال له . ألا تريد ان تسرع بالسير ؟

— أسرع بقدر المكافأة .

وكانت علائم البلاهة بادية في وجه السائق فتمكن منه بطرس كل تمكن وبينما هو يحادثه أقبلت مدلين والعجوز فسكت لأنه كان يمثل دور الخرس ، وصعد إلى مكانه بقرب السائق ..

وانطلقت بهم المركبة في ذلك الغاب .

وكانت الشمس قد توارت وتكاثف ظلام الليل وقد اضنك التعب مدلين فأغمضت عينيها ونامت نوماً عميقاً .

و كان بطرس يلتفت اليها من حين إلى آخر ولما رأى انها توغلت في رقادها دفع السائق بكوعه وقال له : الا يوجد قرية قريبة أو فندق معتزل نـدركها قبل طلوع الفجر .

— إن هذه الغابة متسعة لا قرى فيها إنما يوجد فندق معتزل يبعد قليلاً عن هذا المكان الذي نحن فيه الآن .

— صف لنا الفندق .

— لا حاجة إلى وصفه بل أقول لك عنه ان من كان جائع أو ظمآن فلا

يجب أن ينزل فيه .

– لماذا ؟

– لأن الشراب فيه سيء والطعام قليل .

– إذن فهو منعزل اتم الاعتزال فلا يقيم فيه أحد ؟

– هو ما تقول لاسيما وان لهذا الفندق سمعة سيئة تبعد المسافرين عنه فقد حدثت فيه جرائم كثيرة على مرأى من صاحبته ، فكانت تتغاضى عن المجرمين وتدعهم يفعلون ما يشاؤون وفوق ذلك فـإن اسم ذلك الفندق ساوا ، وهو اسم طائر يتشاءم به الروسيون ويتطيرون منه أشد التطير وربما دعي بهـــذا الاسم لكثرة وجود هذا الطير في اكنافه فاذا سمع الروسي صوته هرب منـه كما يهرب من الخطر .

– كم يبعد هذا الفندق .

– يبعد مرحلتين ولكنكم تستطيعون تجنب الاقامة فيه إذا واصلنا السير حتى نبلغ إلى محطة أمينة .

– لا أجد سبيلاً لذلك فان سيدتي أضنكها التعب ولا بد لنا من الاستراحة في هذا الفندق ، أما أنت فتعود إلى المحطة أو تواصل سيرك كما تشاء .

– انك متفق معي على الوصول إلى بترهوف ولا بـــد من ان تدفع لي الأجرة كاملة .

– أدفعها وزيادة .

ففكر السائق هنيهة وقال : لا بأس فاني اتشاءم كسواي ولا أخشى أن يصيبكم سوء في هذا الفندق فأنا سأبقى معكم فيه وعند الصبـاح أعود إلى المحطة .

– كلا بل إنك تعود في الحال عند وصولنا واني أدفع لك مقـــابل ذلك عشرة ريالات إنما أطلب اليك الاسراع .

فأوشك السائق ان يجن سروراً بهذه الهبة وضرب الخيل بالسوط فاندفعت تمرق مروق السهم بين تلك الأشجار الكثيفة حتى انتهت إلى ذلك الفندق فوقفت عنده .

- ٥ -

وكان منظر هذا الفندق مهيباً يحمل على الخوف فقد كان مصبوغاً باللون الأحمر وهو معتزل اتم العزلة تكتنفه الأشجار الكثيفة من جميع جهاته بين غابة متسعة لا تحيط بها الأبصار .

ولما وقفت المركبة انتبهت مدلين من رقادها ونظرت وهي في المركبة إلى ما يحيط بها فوجف قلبها من الخوف ونادت بطرس وسألته لماذا وقفت المركبة أمام هذا الفندق . فأجابها بالايماء انه لا بـــد من المبيت في هذا الفندق إلى الصباح .

ولم تستطع ان تفهم منه ونادت السائق وقد كان علمة بطرس مـــاذا يقول ، فسألته عن السبب في وقوف المركبة عند هذا الفندق ، فأخبرها ان الذئاب تكثر في الليل في هذه الغابة وان المسافرين فيها ليلاً لا يسلمون من انيابها .

وكانت مدلين تسمع حقيقة عواء الذئاب فلم تشكك بكلامه ، ولكنهـا كانت تضطرب لمنظر هذا الفندق لاسيا حين فتح بابه على أثر وقوف المركبة فبرزت منه امرأة عجوز ما رأت في حياتها أقبح من سحنتها ولا أدل منهـا على الشر .

غير انها اضطرت مكرهة إلى التسليم ودخلت الى الفنـــدق مع بطرس ورفيقتها العجوز فكان أول ما رأته ردهة ضيقة بسطت فيها مائدة صغـيرة

وقد جلس حولها ثلاثة من القوزاق أعمى السكر بصائرهم وجعلوا ينظرون الى الداخلين نظرات جامدة .

ورأت صاحبة الفندق ضيوفها الجدد وبينهم تلك الفتاة الحسناء فعلمت ان في الأمر مكيدة ، وتبودلت بينها وبين بطرس نظرة سرية باغتتها مدلين ، فهلع فؤادها من الخوف ، وهاجت ظنونها بهذا الخادم الذي يصحبها

أما صاحبة الفندق فانها طردت اولئك القوزاق من نزلها فامتثلوا مكرهين وخرجوا ما خلا واحداً منهم لم يستطع المسير فصحبته العجوز إلى زاوية في الردهة والقته فيها على الأرض ، وهو لا يعي لسكره ، ثم أشارت إشارة خفية لبطرس محصلها ان هذا الجندي بات أشبه بالأموات فهو لا يضايقك في شيء ، فرأت مدلين ايضاً تلك الاشارة وأيقنت انها مقدمة على خطر عظيم .

ثم عادت صاحبة الفندق الى مدلين فدخلت بها الى غرفة وعرضت عليها طعاماً وشراباً وفراشاً فأبت وقالت . اني التف بردائي الى الصباح .

فتركتها وعادت الى العجوز التي كانت تصحبها فعرضت عليها ما عرضته على مدلين فقبلت شاكرة وجلست الى المائدة تأكل وتشرب ولكنه لم يكد الشراب يستقر في جوفها حتى تثاقلت اجفانها ونامت ذلك النوم العميق الذي يصاب به من يشرب المخدرات .

أما مدلين فانها أقامت في تلك الغرفة وقد علمت انها لا رجاء لها بتلك العجوز التي كانت تصحبها فقامت الى باب الغرفة فأوصدته من الداخل بالزلاج وجعلت تفكر بموقفها وبهذا الخادم الذي ارسله معها الكونت ، وبتلك النظرات السرية التي رأته يتبادلها مع صاحبة الفندق وذكرت انها اقامت في منزل والد ايفان سنتين فلم تر وجه هذا الخادم . وزادت هواجسها وأيقنت انه يريد بها شراً لا محالة ، ولكنها وطنت النفس على الدفاع واستوثقت من متانة الباب

وقالت في نفسها إن غاية ما يطمع به الخادم هو المال فاذا قوي على كسر الباب أعطيته ما بيدي وأمنت شره .

ثم استرسلت الى الافتكار بايفان وجعلت تناجيه بضميرها الطف مناجاة وتعيد ذكرى أيامها السابقة بقربه وما كانت تستشفه من حديثه من الغرام الصادق والحب الطاهر الشريف فكذبت أذنيها وقالت محال ان يكون ايفان من الخائنين وقد تسرعت بسوء الظن به .

وفيما هي على هذا التناجي إذ سمعت وقع أقدام على الثلج خارج الغرفة ثم جعل الصوت يقرب ويتدانى حتى انتهى عند باب غرفتها وسمعت طرق الباب فهبت مذعورة وقالت : من هذا ؟

فأجابها صوت من الخارج : مدلين هذا أنا إفتحي .

فصاحت صيحة فرح لا توصف وقالت : ايفان أهذا أنت ؟

ثم أسرعت وهي شبيهة بالمجانين ففتحت الباب .

- ٦ -

ولما فتحت الباب رأت مدلين أمامها بطرس ، فحسبت في البدء أن حبيبها ايفان واقف وراءه ، فظلت واقفة تنتظر دخوله على العتبة غير ان بطرس دفعها إلى داخل الغرفة فقالت له : أين ايفان وما لي أراه وقد سمعته يناديني ؟

فضحك بطرس ضحكاً شديداً وقال لها : عفوك يا سيدتي فان ايفان في بطرسبرج وهي بعيدة جداً عن هذا المكان .

فصاحت مدلين صيحة ذعر وقد علمت بلحظة كل شيء ، لأنها سمعت هذا يتكلم وهي تعهده أخرس ، وعلمت ان ايفان غير موجود ، وأن

صوت هذا السافل يشبه صوت ايفان ، فتراجعت وهي تنظر الى بطرس نظر القانط .

أما بطرس فإنه أقفل الباب وعاد اليها وقال : أكنت تحسبيني أخرس يا سيدتي ؟

فنظرت اليه مدلين نظرة احتقار وقد عاد اليها شيء من بسالتها فقالت له : من أنت أيها الرجل الذي يقلد صوت ايفان الى هذا الحد ؟

— أنا كما ترينني خادم الكونت بونتيف ولدت في المانيا ولما دخلت في خدمة الكونت كنت سائق مركبات عمومية .

فعادت المخاوف إلى مدلين بعد هذا الاقرار وقالت : ماذا تريد ؟

فقال وهو يتلعثم : إنما أتيت لأرى .. إذا كنت في حاجة إلى شيء .

— وكيف تجاسرت على أن تدعوني باسمي دون لقب ، كما يتنادى الاخوان ؟

— لأني خشيت أن لا تفتحي ، وتفطني لأمري لو ناديتك بلقب السيادة .

فظهر الغضب في وجه مدلين ، وأشارت بيدها الى الباب وقالت له بعظمة : أخرج .

فأطرق بطرس نظره وقد أثرت فيه كبرياؤها وحاول الخروج ممتثلاً ، ولكنه لم يمش خطوة الى الوراء حتى عادت جرأته فوقف وقال لها : إن لدي نبأ خطيراً يا سيدتي أحب إطلاعك عليه .

وكان قد عاد الى المظاهرة بالخضوع والوقوف موقف الخدم فخدعت مدلين بهذه الظواهر وقالت : ماذا تريد ان تقول لي ؟

— أريد ان أكلم سيدتي عن الفيكونت ايفان .

فنسيت مدلين كل شيء وقالت : ماذا عهد اليك ان تقول لي ؟

— لم يعهد إلي بشيء ولكني أريد أن أكلمك عنه .

تكلم .

– إني يا سيدتي لم أدخل في خدمة الكونت بونتيف إلا لما رآه من التشابه الغريب بين صوتي وصوت ولده .

– أمن أجل هذا التشابه لم تكن تجسر على الكلام أمامي ؟

– كلا ولكن الكونت نفسه قد منعني عن الكلام لأنه كان يخشى أن تعلمي الحقيقة .

فانقشع ضباب السر عن عيني مدلين وقالت : أية حقيقة تعني؟ تكلم قل إني أريد ان أعرف كل شيء .

– ولكن هذه الحقيقة سهل معرفتها يا سيدتي لأن الكلام الذي سمعتيه من غرفة ايفان لم يكن قوله بل قولي .

فصاحت صيحة منكرة وقالت : أهو أنت .. أنت الذي كان يذكر الكونتس فاسيليكا .

.. نعم يا سيدتي .

فاضطرب صوت مدلين وقالت : إذاً أين كان ايفان وقت حدوث هذه الجريمة ؟

– إن أباه أوعز الى البوليس كي يقبض عليه ، لأنه خشي أن يحول دون سفرنا .

– إذاً ، إن إيفان ما زال يحبني ! فاذهب بالله ، وقل للسائق أن يهيىء المركبة

– لماذا ؟

– كي نرجع على أعقابنا لأني لا أحب العودة الى فرنسا بل أريد العودة الى بطرسبرج .

. أظن ان سيدتي تمزح فيما تقول !

فحسبت مدلين ان هذا الرجل يطمع في مالها ، فقالت : قلت لك

إني أحب العودة إلى بطرسبرج . واذا كنت تريد مالاً ، أعطيتك ما تريد .

ثم أخذت كيسها وأخرجت منه ورقة مالية والقتها اليه .

غير ان بطرس لم يلتقطها ولم يتدان الى النظر اليها بل قال إن سيدتي كريمة الأخلاق ولكني لا أريد مالها .

– إذاً ماذا تريد ؟

فقال لها ببرود : أتعلمين ان هذا النزل يدعى باسم طائر يتشاءم منه الناس ؟

فهزت كتفيها إشارة الى عدم الاكتراث وقالت : وبعد ذلك ؟

– إن هذا النزل بعيد عن كل مسكن ، لا يزوره أحد من الناس ونحن في منتصف الليل .

فلم تفهم مراده وقالت : ماذا يهمنا إعتزال النزل ؟

– إن هذه العجوز التي كانت تصحبك نامت فلا رجاء بصحوها ، فقد شربت شراب القي فيه مخدر ولا تزال بقيته في الكأس على هذه المائدة وهذا القوزاقي بات صريع سكره فهو يشبه الأموات .

– وماذا يهمنا سكر القوزاقي أما العجوز فاننا نتركها في النزل ونسافر .

– ولا أريد ان أسافر .

ثم خطا خطوة اليها وهو يرمقها بنظر وحشي . فأدركت بعض قصده وتراجعت منذعرة الى الطاولة التي كانت تأكل عليها العجوز وقالت لا تريد ان نسافر ؟

– ألم تعلمي بعد ؟

– كلا .

– إذاً فاعلمي إني لا أريد لأني منذ ثمانية أيام أشعر ان دمائي تلتهب في

عروقي ولأني أصبحت معك في مكان منعزل لا أخشى فيه اعتراض أحد ولأني أحبك وقد أصبحت في قبضة يدي .

فصاحت مدلين صيحة منكرة ، وقفزت مسرعة ووقفت وراء الطاولة تحتمي بها .

- ٧

ولم يكن بين مدلين وهذا السائق السافل غير تلك الطاولة اتخذتها الفتاة متراساً لها فكان بينهما ما يكون بين الجلاد والضحية فان الجلاد يصمم على القتل والآخر يصمم على الدفاع فكان المنظر هائلاً إذ انه كان يناديها بألفاظ التحبب وهو يوشك ان يفترسها بأنظاره وهي تصيح مستغيثة وتفر منه .

وجعلا يدوران حول تلك المائدة وكلما اوشك أن يدركها أسرعت بالفرار منه حتى وقع بصرها على سيف ذلك القوزاقي السكران معلقاً في الجدار فانتزعته بسرعة البرق وجردته من غمده ووقفت وراء الطاولة تهدد بطرس به وتقول إذا دنوت مني خطوة قتلتك لا محالة .

وبينما كان بطرس واقفاً وقفة التردد يدفعه خلقه الوحشي إلى الاقدام ويمنعه عن الهجوم كانت مدلين تصيح وتستغيث وهي تنذره بالسيف ولا تغفل عنه طرفة عين .

ولبثت تصيح مدة طويلة دون أن يجيبها أحد فهجم عليها بطرس وقد خيل له انه وجد الفرصة موافقة للهجوم فطعنته بالسيف وسالت دماؤه ولكنه لم يتراجع عنها بل هجم عليها هجوم القانطين .

ولم يكن غير هنيهة حتى قبض عليها وجردها من السيف فألقاه وراءه وبدأ بينهما العراك العنيف وهي تستغيث وتصيح وتدفع عن نفسها بما بقي لها من القوة .

ودام هذا العراك بينهما نحو ربع ساعة حتى اوشك ان يتغلب عليها وشعرت أن قوتها قد تلاشت وكادت تصبح فريسة هذا الفاجر .

وعند ذلك سمعت صيحة منكرة وشعرت ان يدي هذا السائق الذي كان يحاول أن يلقيها على الأرض قد تخلتا عنها ففتحت عينيها فرأته غارقاً بالدماء ورأت وراءه ذلك الجندي القوزاقي .

وكان ذلك القوزاقي قد صحا من سكرته بعض الصحو وشعر بالبرد القارس فقام وهو يترنح من السكر إلى المائدة فرأى عليها كأساً فيه بقيـــة من ذلك الشراب الذي شربته العجوز فشربها بجملتها وسمع الفتاة تستغيث فالتفت وهو لا يعي ورأى سيفه على الأرض ورأى بطرس ثم رأى الدم يقطر من ذلك السائق فهاجه منظر الدماء وضربه بسيفه تلك الضربة الشديدة بين كتفيه وهو انمـا قتله رغبة في القتل وحده .

ولكنه كان لا يزال سكران فالتفت بعد مقتله إلى ما حوله فرأى عجوزاً نائمة لا تعي ورأى بطرس منطرحاً على الأرض يئن أنين النزاع ورأى مدلين واقفة تنظر اليه وهي لا تعلم أترجوه أم تخشاه .

فما لبث ان تفرس فيها حتى جعل يضحك ويقول أقوالاً لا تفهمهـا مدلين فعلمت انها أصيبت بخطر شديد .

وعاد القوزاقي إلى النظر اليها ثم وطد النفس على ان ينوب معها مناب ذلك السائق .

وأدركت غرضه السافل من عينيه فهربت من الغرفة وجعلت تصيح وجد في أثرها وهو يصخب ويلعن حتى خرجت من الفندق وجعلت تركض هائمـة على وجهها وهي تعلم انه اذا أدركها لا بد لها من الموت .

غير ان القوزاقي كان يركض في أثرها وهو بعيد عنهـا ولكنها تسمع وقع اقدامه الغليظة على تلك الأرض المفروشة بالثلج وتجن من ذعرها

وما زالت تركض وهو يجد في أثرها إلى أن تلاشت قواها فسقطت على

ذلك الثلج ثم شعرت بدنوه منها فهبت لديها قوة خفيـة ونهضت من سقطتها وجعلت تركض هائمة مذعورة لا تعلم كيف تسير في تلك الغـابة الكثيفة والظلام الشديد .

غير أن القوزاقي كان أشد منها على الركض فكان يعثر مرات كثيرة لسكره ولكنه ينهض ويجد في مطاردتها حتى تمكن من ادراكها وقبض عليها بيد من حديد. فصاحت تلك المسكينة صياح القنوط ووقعت في يده وقوع العصفور بين مخالب البازي فتلاشت قواها ووهت ركبتاها وانطبقت مقلتاها وقبل أن تسقط مغمياً عليها شعرت ان يد ذلك الضاري أفلتتها ولم تعد تعي بعد ذلك على شيء وكان آخر ما لفظته انطوانيت وايفان .

أما القوزاقي فانه لم يفلتها الا لأن دماغه قد تخدر بذلك الشراب الذي وجده في كأس ذلك العجوز فانطرح أمام مدلين وقد فقد رشاده وجعل يغط غطيط النائمين .

- ٨ -

ولم يطل اغماء مدلين ولكنه تحول إلى حمى شديدة محرقة فلم تكن تشعر بقوارص البرد وهي منطرحة على الثلج ولكنها كانت تحلم أحلاماً مختلفة وترى صوراً غريبة تشترك في تمثيلها لها الحمى والحقيقة فقد مثل لها انها تسير مع ايفان في حديقة قصره في موسكو وجعلت تناجيه ويناجيها ثم ذهب خيـاله عن بصيرتها فرأت مركبة قادمة اليها من مكان بعيد وسمعت أجراس خيلها تقرع اذنيها ثم رأت انواراً كثيرة ولكنها تختلف عن المصابيح الطبيعية .

وظلت هذه المرئيات تتعاقب على بصرها وهي بين النائمة والصاحية حتى فتحت عينيها فوجدت نفسها طريحة على الثلج .

ورأت مركبة قادمة اليها من مكان بعيد استدلت عليها من اجراسها ومن مصابيحها ثم رأت امامها نور ثلاثة مصابيح ولكنها علمت ان هذه الأنوار لا تشبه انوار المصابيح العادية فنهضت وحاولت ان تمشي غير انها ما خطت خطوة حتى رأت ان هذه الأنوار تضاعفت فجأة ثم رأت انها تضاعفت أيضاً وجعلت تدنو منها فكانت تشبه جمرة النار على الارض .

فوقفت تلك المسكينة وقد أخذ الرعب منها كل مأخذ فنظرت إلى المصباحين البعيدين فأيقنت انها مصباحا مركبة ولكنها تسير ببطء اليها ونظرت إلى تلك الجمرات فرأت انها لا تزال تتضاعف وتحدق بها وقد باتت منها على بضعة امتار وهي لا تزال آخذة بالدنو فعلمت في الحال انها باتت قرب قطيع من الذئاب المفترسة .

ولم يطل بها الأمر حتى رأت أجسامها بعد ان كانت لا ترى إلا عيونها الملتهبة ومع ذلك فإن المركبة كانت لا تزال بعيدة عنها غير ان الذئاب وقفت بالقرب منها ولم تجسر على مهاجمتها .

وكانت مدلين في مدة إقامتها في روسيا سمعت ان بعض الفلاحين افترستهم الذئاب لأنهم حاولوا الهرب منها وان من يريد السلامة من انيابها ينبغي له ان يظل محدقاً بها ويتراجع ببطء وما زال ناظراً اليها فلا تهاجمه لأنها تهاب نظرات الانسان فعلمت انها إذا هربت أدركتها الذئاب ، وإذا غفلت النظر اليها مزقتها ، وجعلت تتراجع ببطء وهي لا تحول نظرها عن عيونها الهائلة ولا تنظر إلى الطريق التي تسير بها .

وفيما هي تسير والذئاب تتبعها على خوف عثرت بذلك القوزاقي فلم تلتفت اليه ، ولم تصرخ ولكنها علمت ان الذي عثرت به كان جسم القوزاقي الذي كان يطاردها .

وعند ذلك علا غطيط القوزاقي فوقفت الذئاب وقد رأت ان ذلك الرجل قد تحرك .

فتراجعت مدلين وهي لا تزال محدقه بالذئاب حتى ابتعدت عن القوزاقي .

أما الذئاب فإنها لما سمعت غطيط القوزاقي ورأته يتحرك وهو لا ينظراليها هجمت عليه هجمة واحدة تمزقه تمزيقاً وهو لا يستطيع دفاعاً .

حتى إذا سمعت مدلين صوت تكسير عظامه تحت أنياب هذه الذئاب الضارية ، اضمحلت قواها ولم تعد تستطيع الرجوع وقالت ويلاه لقد فرغت منه وستبدأ بي .

- ٩ -

عندما وصلت مدلين مع بطرس والعجوز إلى فندق سيوا دخل في بترهوف رجلان وهما الفيكونت كارل دي‌موروليكس ورجل آخر من فرسوفوا يدعى هرتمن كان من أخص الذين عاونوا كارل على قتل اخته والدة انطوانيت ومدلين وهو الذي كان يطاردها في كل بلد ذهبت اليه فلم يفلح في قتلها ولكن كارل كان يعتمد كل الاعتماد عليه في شؤونه السرية .

ولما فرغ من امر انطوانيت وحسب نفسه انه قتلها اراد ان يتفرغ لمدلين فذكر عامله القديم وجاء إلى بلاده ، حتى إذا أطلعه على حقيقة قصده واتفق معه على اختطاف مدلين من قصر الكونت بونتيف ، سافر وإياه قاصدين موسكو فبلغا بترهوف عند هجوم الليل في الساعة التي وصلت بها مدلين إلى فندق سيوا .

وقد أراد كارل استئناف السفر فمنعه هرتمن وحذره من السفر ليلاً لكثرة الذئاب في تلك الغابة التي تمر بها فأبى الكونت وأصر على السفر لساعته .

فلم يجد هرتمن بداً من الاذعان ، وركب وإياه في تلك المركبة التي كانت مدلين ترى مصابيحها تدنو منها وهي واقفة في ذلك الموقف الرهيب أمام الذئاب .

وانطلقت بهما المركبة من بتزهوف وهي لا تبعد غير مرحلتين عن فندق سيونا . فلما بلغت بهما المركبة إلى تلك الغابة الكثيفة صاح السائق يقول هوذا الذئاب مقبلة بأجمعها .

فنظر كارل فرأى أشباحاً سوداء تتراكض خفافاً على جانبي المركبة فأخذ بندقيته وحاول ان يطلق النار فأمسك هرتمن يده وقال له : إياك أن تفعل .

وأطلق السائق العنان للجياد فمرقت بين الذئاب مروق السهم فكانت الذئاب تطاردها ولكنها لا تجسر ان تهجم عليها حذراً من نور المصابيح ، فكانت تسير في أثرها محاذية لآخر حد تبلغ اليه الأشعة وكان السائق يلتفت من حين إلى حين إلى الكونت ويحذره اطلاق النار .

غير ان الذئاب زادت في جرأتها وتجاسر احداها على الدخول في منطقة النور فجعل كارل ينظر اليه باعجاب ، ثم هاجت به عاطفة الصيد فلم يحفل برفيقه وانذر السائق وأطلق النار من بندقيته على الذئاب فسقط الذئب ميتاً على الثلج وجمحت الجياد منذعرة وجعل هرتمن والسائق يقذفان الشتائم ، أما الذئاب فقد شغلت عن المركبة إلى حين وأقبلت على رفيقها تنهشه بأنيابها ولكن ذئباً واحداً لا يشبع قطيعاً من الذئاب .

وظلت المركبة تجري والذئاب في أثرها وقد زادت جرأتها ولم تعد تحفل بالأشعة ، وكلما قتل كارل أو رفيقه ذئباً توقفت الذئاب هنيهة إلى أن تأكله ثم تعود إلى شأنها في مطاردة المركبة .

أما مدلين فانها لبثت واقفة تنظر تلك الوحوش الكاسرة تفترس القوزاقي وتنتظر ان يجيء دورها وقد ساد السكون في تلك الغابة المقفرة فلم تكن تسمع غير قرقعة عظام ذلك المسكين تحت أنياب الوحوش ، وأجراس تلك المركبة القادمة اليها فانها كانت تدنو منها بسرعة كثيرة فلا تجسر أن تستغيث حذراً من تنبيه الذئاب حتى مرت المركبة بها مسرعة فلم تتمالك عن الصياح غير ان المركبة لم تقف واستمرت في سيرها .

ولما سمعت الذئاب صوتها اقبلت عليها فوقفت مدلين تحدق بها تحديقاً كان يهولها فلا تجسر على الهجوم ثم صاحت مستغيثة صيحة يأس رن صداها في جوانب ذلك الفضاء ونظرت إلى تلك المركبة فرأتها وقد رجعت اليها ، ثم شعرت ان يداً قوية قد انتشلتها ووضعتها في المركبة وكان هذا آخر عهدها بتلك المناظر الهائلة ، وجهد ما تحملته قواها فسقطت بين كارل وهرتمن لا تعي وقد اغمي عليها .

ولبث كارل وهرتمن يطلقان النار على تلك الذئاب الضارية حتى تكاثرت عليهما ونفذ ما عندهما من الذخيرة فأيقنا بالموت .

وفيما هما حائران يتوقعان العراك بأيديهما إذ قال السائق لهرتمن لا تخشيا فقد دنونا من فندق سيوا فأنزع المصباح والقه بين الذئاب يتفرق شملها .

فامتثل هرتمن وما لبث ان رماها بذلك المصباح ورأت أشعته المتلألئة تتدفق على ذلك الجليد حتى تفرقت منذعرة ثم جمعت شملهـا وعادت إلى المطاردة ولكن المركبة كانت وصلت إلى الفندق وأمنت كل شر .

١٠ -

ولندع الآن مدلين هنيهة بقبضة كارل ، ولنذهب بالقارىء إلى قرية قريبة من فندق سيوا تدعى سنيديانكا ، وهي قرية أصبحت تاريخية لاقامة نابليون ليلة فيها قبل عبوره نهر البريزينا فانه في نفس الليلة التي التقى فيها كارل بمدلين كان جمهور عظيم من الناس مجتمعين قرب فندق القرية للفرجة على فلاح محكوم عليه بالجلد .

وكان في هذا الفندق رجل الماني وامرأته فانذهلا لاحتشاد الناس وسألا صاحب الفندق عن السبب فأخبرهما ولم يكن هذان الغريبان غير روكامبول

وفاندا وقد تنكر روكامبول بزي الالمان .

وجعل روكامبول يستقصي من صاحب الفندق عن تلك العادات الروسية فعلم ان الفلاحين الروسيين عبيد لأسيادهم يتصرفون بهم تصرفهم بالسلع وذلك قبل ان يصدر أمر الأمبراطور اسكندر الثاني بالغاء العبودية ، ومما علم منه ان هذا الفلاح ، المحكوم عليه بالجلد يشتغل في أراضي الكونت بونتيف ، وان الذي يصدر هذه الأوامر وكيله ، وهو رجل عات شرير تتري يدعى نقولا أرسوف .

وفيما هم يتحدثون وقد وقفت الجنود حول المحكوم عليه إذ أقبلت مركبة تجرها الجياد وفيها هذا الوكيل ، فخف الناس لاستقباله ووقف الفلاحون أمامه فوقف العبيد، فأصدر أمره بجلد المحكوم عليه وصعد إلى الفندق بأبهة واجلال فكان الخدم يتسابقون إلى الامتثال لأوامره .

ووقف الوكيل في المشرف المطل على ساحة الحكم وكان واقفاً بازائه روكامبول وفاندا ينظران إلى جلد هذا الفلاح المنكود وقلباهما يتقطعان من الاشفاق خلافاً لنقولا أرسوف فانه شغل عن ضحيته بالنظر إلى فاندا وقد اعجب بجمالها غاية الاعجاب .

ولما فرغ الجلاد من جلد هذا المسكين وتمت تلك الرواية الفظيعة نادى وكيل صاحب الفندق وقال : من هذه المرأة ؟

– هي زوجة هذا الألماني .

– إذن قل لهما اني ادعوهم إلى التشرف بمناولة الطعام على مائدتي

ولم يسع صاحب الفندق إلا الامتثال وابلغ روكامبول أوامره ، فابتسم روكامبول وأجابه بالقبول .

وبعد ساعة كان روكامبول وفاندا وهذا التتري جالسين حول مائدة وضعت عليها أصناف الشراب والطعام ، فأخذ نقولا كيساً من الجلد فأخرج منه كتاباً عليه كثيراً من الطوابع فقرأه بامعان ، وهو يتشاغل به عن

ضيفيه ، ثم أخرج كتاباً آخر وقرأه وأعاد الكتابين إلى الكيس وانعكف على الشراب .

وغمز روكامبول فاندا فجعلت تسقي هذا الوكيل بيدها وتجامله خير مجاملة ففتن بها وسألها الى اين ذاهبة مع زوجك .

– الى موسكو لحضور الميلاد .

– إن زمن هذا الاحتفال لم يحن بعد فهلا ذهبت معي الى قصري فأقمت اسبوعاً في ضيافتي ثم تذهبين إلى موسكو .

– إذا شاء زوجي الذهاب إلى قصرك قبلت دعوتك بالشكر الجزيل .

وكان روكامبول متشاغلاً عنها فلما عرضت عليه فاندا دعوة التتري اظهر سروراً عظيماً وقال : حباً وكرامة فإن لنا بذلك غايتين عظيمتين احداهما التشرف بزيارة هذا الرجل العظيم ، والثانية انا إذا كنا بحمايته أمنا الأخطار على ما لدينا من المال فقد قيل ان الطريق غير آمنة .

فسر التتري وعاد إلى الشراب فما زال يشرب وكلما فرغت كأسه أملتها له فاندا وروكامبول يحثها على ان تسقيه حتى ضاع رشده وقام إلى فاندا يريد تقبيلها فضعف ساقه عن حمله وسقط صريعاً من السكر .

فرفسه روكامبول برجله وأسرع إلى كيسه فأخرج منه الرسالتين اللتين قرأهما على المائدة قبل ان يصرعه السكر وفتحهما فرأى انها مكتوبتان باللغة الروسية ودفعها إلى فاندا وقال لها : انظري ما فيهما فان قلبي يحدثني انهما كتبا بشأن مدلين .

وقد صدق ظن روكامبول فان أحد الكتابين كان من والد ايفان الى وكيله التتري يخبره فيه انه ستمر به فتاة فرنسية تدعى مدلين ويأمره ان يعد وسائل السفر الى خارج الحدود الروسية ، والكتاب الثاني من هرتمن يخبره فيه انه قادم اليه مع الكونت دي مورليكس للمخابرة في شأن يعود عليه بالربح الجزيل فان الكونت من أهل الكرم الأغنياء .

ثم فحص روكامبول تاريخ الكتاب الأخير فعلم ان كارل لم يصل بعد فتنفس الصعداء ، وعند ذلك دخل صاحب الفندق ورأى التتري منطرحاً على الأرض فقال : لا تعجبوا فانه ما اتى مرة الى فندقي إلا صرعه السكر كما ترون .

فقال روكامبول : ألعل سكره يطول ؟

– نعم فانه يلبث على هذه الحال عدة ساعات فيحمل إلى مركبته ويعود به السائق الى بترهوف .

– إذن مر باعداد هذه المركبة فاننا سنذهب معه فيها فقد دعانا إلى قصره كما تعلم .

فامتثل صاحب الفندق وبعد حين نقل التتري الى المركبة وهو لا يعي لفرط سكره وركبت فاندا بازائه وركب روكامبول جنب السائق فسارت بهما المركبة إلى بترهوف .

ولما وصلوا إلى هذه القرية التي تبتدىء منها أراضي الكونت بونتيف غيروا جياد المركبة في محطتها ، ورأى روكامبول أثر عجلات مركبات فدخل الى ادارة المحطة وسأل مديرها عن الذين سافروا في المركبة التي تقدمت فقال له: ان رجلاً فرنسياً سافر بها مساء امس ، ولكن هذا الأثر الذي رأيته ليس من الأمس ، بل هو من هذا الصباح ، ذلك ان هذا الفرنسي لم يكد يتوسط الغابة حتى هاجمته الذئاب فلجأ إلى فندق سيوا ،وقد عاد في هذا الصباح فقال لي انه رجع عن السفر الى موسكو لما لقيه من أخطار الذئاب .

فقال روكامبول : أهي مخطرة الى هذا الحد ؟

– نعم ، فقد افترست أمس جندياً من القوزاق وأوشكت ان تفترس فتاة فرنسية لو لم ينقذها هذا الفرنسي ، ولكنها باتت شبيهة بالمجانين لما تولاها من الرعب وقد سافرت معه في هذا الصباح بمركبة البريد .

فاكتفى روكامبول بما علمه وخرج وهو يضطرب اضطراباً شديداً فصعد

الى جانب السائق ، وكانت فاندا مقيمة في المركبة والتتري بازائها وهو لا يزال صريع سكره ، فلما سارت بهما قال روكامبول للسائق : اني ازود أن تدرك المركبة التي تقدمتنا في هذا الصباح .

-- ان هذا صعب علي .

فحشا روكامبول مسدسه امام السائق وقال له : اختر بين أمرين ، اما ان تدركها فأعطيك عشرين ريالاً ، واما تعجز عن لحاقها فأقتلك بهذا المسدس .

- ١١ -

قبل هذه الحادثة ببضع ساعات كان كارل عائداً الى بترهوف من فندق سيوا يصحبه عامله هرتمن ومدلين .

وكانت مدلين جالسة بجانب كارل وهي تنظر الى ما حواليها نظرات تائهة وقد بدت عليها أعراض الجنون فلم تكن تذكر شيئاً مما جرى لها .

وكان الرجلان يتحدثان باللغة الالمانية فقال هرتمن لكارل :

– أرى انك اخطأت خطأ شديداً ..

– لماذا ؟

– ألم تحضر الى روسيا بغية اخفاء آثار هذه الفتاة فاذا كان هذا قصدك فكيف انقذتها من انياب الذئاب ؟

– هو الحق ما تقول ، ولكني لو تركتها عرضة للذئاب فافترستها فأين أجد البرهان الثابت على موتها ، اما وقد اصبحت في قبضة يدي فسوف انظر في أمرها .

– لقد أصبت ايضاً فان غرضنا ان نقبض عليها ولا بد لنقول أرسوف ان

يساعدنا على إخفاء اثرها من الوجود .

فنظر كارل إلى مدلين وهي منشغلة عنهما بالنظر إلى تلك البراري الشاسعة وقال . إنها بارعة في الجمال .

فابتسم هرتمن حين سمعه يعجب بجمالها وقال . لا يحق لي أن أسديك نصيحة غير انك إذا أذنت لي فعلت

– قل ما تشاء .

– ماذا تبغي من القبض على هذه الفتاة اليس الاحتفاظ بثروتها ؟

– دون شك . .

– أيوجد غير فتاتين تنازعانك هذه الثروة ؟

– كلا . .

– ألم تمت إحداهما وهي أنطوانيت ؟

– إنها ماتت في السجن .

– إذن لم يبق غير هذه الفتاة التي بقربك الآن ؟

– ماذا تعني ؟

– أعني إنك إذا تزوجت بها ألا تكون قنعت بجمالها الذي تعجب به ، وأبقيت لنفسك ثروتها التي تحافظ عليها ؟

فاضطرب كارل وقال : من انبأك انه لم يخطر لي هذا الخاطر ؟

ثم ساد السكون بينهما حتى وصلت المركبة إلى بترهوف فأبدلت جيادها ، وفي خلال ذلك أخبر هرتمن مدير المحطة بما جرى لهم مع الذئاب وانقاذهم الفتاة الفرنسية .

وهو الحديث الذي نقله المدير إلى روكامبول .

وبعد مرور مركبة كارل بساعة كانت مركبة روكامبول سائرة في أثرها وقد أوشك السائق أن يطير بها لطمعه بالمكافأة بل لخوفه من القتل ، ولما جرت بهم شوطاً بعيداً نظر ، روكامبول إلى التتري فإذا به لا يزال صريع

سكره ، فوثب من مكانه بجانب السائق إلى داخل المركبة وقـال لفاندا : يجب أن يصحو هذا الأبله .

فهزته فاندا بيدها ففتح إحدى عينيه ثم أغمضها السكر وعاد إلى مـا كان عليه .

فأخرج عند ذلك روكامبول زجاجة فيها أمونياك وأدناها من أنفه فما لبث أن شمها حتى صحا من سكرته وفتح عينيه ونظر إلى ما حواليه فرأى فاندا تبتسم له وروكامبول يتكلف هيئة البلاهة فقالت له فاندا أرأيت كيف اننا قبلنا ضيافتك وجئنا معك إلى قصرك ؟

فنظر اليها التتري نظرة إعجاب وقد هام بها فشكرها شكراً جزيلاً وأخذ يدها غير مكترث يريد تقبيلها ولكنه ما لبث أن أدناها من فمـه حتى رأى مسدس روكامبول مصوباً إلى رأسه وهو يقول له : إذا جسرت على شيء من هذا بعد فإن رصاص هذا المسدس يخترق دماغك .

وكان هذا التتري جباناً ولكنه كان قد خرج من رق العبودية منذ ٢٠ عاماً وأصبح وكيلاً مطلقاً يحكم على كثير من العبيد دون أن يجسر أحد من الناس على اعتراضه فيمايفعل فكبر عليه تهديدروكامبول وقال له: من أنت ايها الرجل؟

ـ أنا سيدك ومولاك بل أنا الذي ينبغي عليك ان تطيعني في كل مـا آمرك به .

فنظر اليه نظرة الانكار وقال : اني أعرفك سيداً لي ولا أمتثل لأوامرك.

فانبرت له فاندا عند ذلك وقالت : إذن تمتثل لأوامري .

فنظر اليها التتري فرأى انها استحالت وتلبست بملابس العظمة والكبرياء .

فهاله منظرها وكأنما قد جالت في خاطره ذكرى قديمة فجعل ينظر اليها نظرة المتردد في أمره إلى أن قالت له فاندا · لقد تغيرت عليك ملامحي كثيراً حتى انك لم تعرفني .

فتلعثم لسانه وقال : أهذا أنت يا سيدتي ؟

– نعم . أنسيت انك قبل أن تكون في خدمة الكونت بونتيف كان لك سيد آخر يدعى البارون شركوف ؟

– أأنت هي البارونة شركوف ؟

– نعم أنا هي أيها العبد .

فركع التتري أمامها وجعل يعتذر بكلام متقطع فقالت له فاندا : اصغ الي ايها العبد واستعد لطاعتي .

– إني مستعد للامتثال .

– ان رجلاً فرنسياً يسير الآن إلى قصرك .

– أتعرفين هذا ؟

– ان الفيكونت كارل دي موريليكس يصحبه رجل من أصحابك .

– نعم وهو هرتمن من فرصوفيا .

– وانك تنتظر قدوم فتاة فرنسية .

– نعم وهي مرشدة السيدة أولغا بونتيف .

– إذن فاعلم ان الفتاة والفيكونت سائران إلى قصرك وقد تقدمتنـــا مركبتها بنحو ساعة ولكن أتعلم مقاصد هذا الرجل ؟

– كلا !

– انه جاء اليك ليستعين بك على قتل الفتاة المسكينة أو تلويث شرفها .

– فأطرق التتري برأسه دون أن يجيب . أما فاندا فإنها نظرت اليــه نظرة ملؤها الكبرياء وقالت له : أما وقد عرفت اني البارونة شركوف فاعلم اني لا أريد ان تحدث هذه الجريمة .

وقال له روكامبول : وهي لن تحدث ما زلت أدعى روكامبول .

- ١٢ -

في مساء ذلك اليوم اجتمع في قصر التتري روكامبول وفـــاندا وكارل وهرتمن ومدلين ، وكانت مدلين قد ذهب ما بها ، وأوشكت تلك الهموم أن تزول من قلبها لوثوقها من حب إيفان لها بعد ما علمت حقيقة الخـدعة من بطرس ، وقد أمر التتري أن تخصص لها أجمل غرفة في القصر ، وتولت فاندا حراستها فلم تكن تفارقها متذرعة إلى ذلك أمام كارل بعامل الاشفاق وهي في الحقيقة لا تريد إلا حراستها لخوفها عليها من أعدائها .

ولم يكن لكارل أقل شبهة في روكامبول لمبالغته في التنكر ، فكان يحسب انه الماني وان فاندا زوجته ، لأنه لم يكن رآها من قبل ، خلافاً لعامله هرتمن فقد ارتاب بأمر هذين الزوجين ، وكان التتري حليفه وشريكـه في الآثام كما تقدم ، فلم يمض على إقامتهم في هذا القصر يومان حتى علم كل فريق حقيقة حال الآخر ، فعلمت فاندا ان كارل يهوى مدلين ، وعلم هرتمن من التتري ان فاندا هي إمرأة البارون شركوف سيده القديم وان الرجل الذي يصحبهـا يدعى روكامبول .

وكان التتري يهوى فاندا ويخشاها وقد لقي من احتقارهـا ما دفعه إلى الانتقام منها فباح لصديقه هرتمن بحقيقة أمره عله يساعده برأي يجد فيه سبيلاً إلى بلوغ مأربه منها .

ولما علم كارل من هرتمن حقيقة الأمر اضطرب فؤاده ، ولكنه بقي متردداً في تصديقها ، إذ لم يخطر في باله ان روكامبول يستطيع المبالغة إلى هذا الحد وان يتعقبه إلى هذه البلاد ، ولكنه بقي مضطرب الخاطر ونام تلك الليلة ويده على مسدسه .

وفي صباح اليوم التـالي جاء بريدان أحدهما للتري ، والآخر للفيكونت كارل دي مورليكس ، فصعد الخادم برسائل كارل اليه . فأخذ كارل رسالة

منها عليها كثير من الطوابع فأجفل حين رأى الخط إذ عرف انه خط تيميلون وقال في نفسه : ألعل أخي لم يدفع له الخمسين الف فرنك فأرسل يطالبني بها؟ ثم أسرع إلى فض الرسالة وقرأ فيها ما يأتي .

« سيدي الفيكونت ..

« ربما لا نلتقي إلى آخر العمر فإني مسافر بعد ساعة إلى أميركا حذراً من روكامبول وقد قبضت من أخيك البارون المال الذي اتفقنا عليه وهو يكفيني مع ما كان عندي للعيش في العالم الجديد .

« وإنما أنا هارب من روكامبول لاعتقادي انه قد تغلب علينا ، فإني حضرت جنازة أنطوانيت ورأيتها جثة هامدة في التابوت ، ولكني أعتقد أنها لم تمت .

« وبعد يومين من حادثة سجن سانت لازار كنت عبداً لروكامبول فإن ابنتي كانت رهينة عنده ولم يردها إلي إلا في الليلة التالية لدفن أنطوانيت .

« ثم ان هذا الداهية وضع محفظته المسروقة في منزلي ودفع البوليس إلى كبس منزله فوجد المحفظة وأصبحت أنا السارق فلم أجد بدأ من الفرار ولكني إذا كنت لا أستطيع ان أنتقم من روكامبول بيدي فلا بد لي من الانتقام منه بواسطتك فاعلم الآن ان انطوانيت لم تكن ميتة حين دفنت بل كانت مخدرة فأخرجت بعد دفنها من النعش ، أما ابن أخيك أجينور فقد عاد إلى باريس وهو له علاقة مع روكامبول .

« ثم اعلم اننا حين طوقنا منزله ضحك علينا كما يضحك على الأطفال وفر من ذلك المنزل من نفق تحت الأرض يتصل بالمقبرة .

« وآخر ما أقوله عن روكامبول ان له شريكة تدعى فاندا وقد كانت تدعى من قبل البارونة شركوف وهي من أشد النساء خطورة ، وقد اتهمتها الحكومة الروسية مرة بالمؤامرة مع البولونيين العصاة ولا يزال البوليس يبحث عنها إلى الآن ، فكن على حذر وارشد السفارة الروسية اليها كي تتخلص

منها فإنها خطر شديد عليك .

« هذا ما أكتبه اليك وأرجو أن تكون قيمة هذه الافادات تعادل قيمة ما قبضته منك دون استحقاق أجرة عن قتلي أنطوانيت لأنها لم تمت . »

« تيميلون »

فاضطرب كارل اضطراباً شديداً حين قراءة هذا الكتاب ولكنه كان شديد العزم قوي الإرادة فعول على دخول المعركة مع روكامبول .

أما بريد نقولا أرسوف التتري فقد كان بين رسائله رسالة من الحاكم العسكري في تلك المقاطعة يطلب اليه فيها أن يرسل ٣ من الفلاحين عنده أصابتهم القرعة العسكرية وان يسرع بارسالهم مخفورين.

وبعد ساعة اجتمع به كارل في القاعة العمومية فرأى عليه ملامح الاضطراب فسأله عن شأنه فأجابه ان الحكومة طلبت إلي إرسال ثلاثة من الفلاحين، ولا أعلم من أختار وقد وقع اختياري على اثنين احدهما الذي أمرت بجلده أمس والآخر رجل سكير لا ينفعني بشيء والقيصر أولى به مني ولا أعلم أين أجد الثالث .

فاضطرب كارل وقد خطر له خاطر هائل : أتقبل مني نصيحة ؟

- قل .

– ألعلك لا تزال تهوى إمرأة هذا الألماني ؟

فارتعش التتري وأجاب : لماذا تسألني هذا السؤال ؟

– ذلك لأنه حلت فرصة مناسبة للتخلص من زوجها .

وانذهل التتري من هذا الفكر الغريب وجعل كل من الاثنين ينظر إلى الآخر نظر لصين سيتفقان على جريمة هائلة .

ثم ساد السكون بينهما هنيهة إلى أن افتتح كارل الحديث فقال . لماذا هذا التردد .. ألا تحب إمرأة هذا الرجل ؟

- لم يعد حبي لها سراً من الأسرار .

– ولكنك تخشاها لأنها امرأة مولاك السابق ثم انك تخشاها لشدة حذرك من الرجل الذي يصحبها .

– الحق يقال انه رجل مخيف .

– إذاً فلماذا لا تسرع الى إرساله للخدمة في جيش القيصر بدلاً من أحد الفلاحين الذين أصابتهم القرعة ؟

– ذلك لأن المندوب الذي يرسله الحاكم العسكري لا ينخدع به، ولا يمكن ان يحسبه فلاحاً فانه يصرح باسمه وينقضي كل إشكال .

– إنك منخدع ، لأن هذا الرجل لا يجسر على التصريح باسمه ، بل هو يؤثر الف مرة ان يكون جندياً في جيش القيصر على ان يذكر اسمه أمام الناس .

فقال التتري بلهجة المشكك : أحق ما تقول ؟

– ليس هذا كل شيء ، بل ان تلك المرأة التي تخشاها لا يزال يبحث عنها البوليس السري الى الآن . .

ثم أطلعه على الفقرة التي تقدم ذكرها في كتاب تيميلون بشأن فاندا ، فانتعش فؤاد التتري وقال : ما زال الأمر كذلك ، فقد أصبحت تلك المرأة في قبضتي ، لأني أدرى الناس بأهمية تهمة المؤامرات في الحكومة الروسية .

– ولكنها لا تكون إلا إذا تخلصت من الرجل الذي يصحبها .

– إذا صح ما تقول وكان يؤثر التجند على الإباحة فان أمره مقضي .

– نعم ولكن ..

وظهرت على كارل علائم التردد ثم قال : إنك تحب فاندا ، وأنا أحب هذه الفتاة المريضة . فإذا أعنتني فيما أريد أعنتك أنا أيضاً على بلوغ قصدك ، إذ لا يمكن التسلط على مثل هذا الرجل الذي يدعونه روكامبول دون خطر شديد .

- لدي من المسدسات ما يكفي .

- ولكن هذا الرجل لا تغني معه المسدسات وإذا علم بشيء من مقاصدنا عبث بنا .

ففكر التتري هنيهة ثم قال : لدي طريقة أغل بها يديه عدة ساعات . إصغ إلي : عندما نريد إخضاع فلاح عصي علينا ، أو خشينا منه المقاومة ، نضع معه من يخونه في منزله . فيضع هذا الرجل في شرابه او طعامه شيئاً من الأفيون .

فابتسم كارل وقال : إن هذه الأمور لا تجوز على روكامبول ولا أحسب ان الأفيون يؤثر عليه .

- إن الأفيون يؤثر على أشد الناس بنية ، فيصعقه ويصيبه بالبلاهة عـدة ساعات بل عدة أيام حسب القدر الذي يشربه .

- إني لا أعرف جميع هذه الحقائق ولكني لاأدري كيف تدس له الأفيون في طعامه او في شرابه لأنه شديد الحذر .

- إذا تعذر دسه في الطعام والشراب ، فلا يتعذر دســـه في السيكار التي يشربها . وقد رأيت انه يخرج كل مساء بعـد العشاء ست سكاير من علبـة ويشربها بجملتها . وهو الآن قد خرج للصيد حسب عادته فهلم معي إلى غرفته لترى ماذا أفعل .

ثم تركه هنيهة وعاد بعد حين بالأفيون ودخلا سوية غرفة روكامبول وفتحا صندوق السكاير فجعل التتري يضع الأفيون في كل واحدة منها حتى أتى على آخرها فرتبها حسب وضعها القديم ثم خرج مع كارل وهو يقول : لقد قضي عليه إذ لا بد له من شرب السكاير وإرساله الى حاكم ستيديانكا

قبل أن يضع التتري الأفيون في سكاير روكامبول خلا روكامبول بفاندا وقال لها : لقد أدهشتك كيف اني لم أقتل كارل وأنا قادر على قتله ولكن اذا قتلته فمن يرد لنا ثروة الأختين ؟

— لقد أصبت ولكني لا أعلم إلى الآن لماذا أتينا إلى هنا .

— لإنقاذ مدلين .

— كيف تستطيع إنقاذها إذا لم تتخلص من كارل ؟

— إصغي إلي أتظنين مدلين تستطيع السفر ؟

— إنها لا تزال ضعيفة ولكنها قوية الإرادة ؟

— وهي لا تعلم من نحن إلى الآن أليس كذلك ؟

— نعم فإنها تحسب ان الأقدار أوصلتني اليها للعناية بها .

— إذاً أخبريها بعزمنا فقد آن الأوان .

— أتظن انها تصدقني ؟

— لا بد لها من تصديقك متى تكلمت معها عن ميلون وعرضت عليها كتاب انطوانيت أختها ويجب ان تخبريها الآن بكل شيء لأننا سنسافر بها في المساء . وقد اتخذت جميع الاحتياطات واتفقت مع هذا الفلاح الذي أمر التتري بجلده على الفرار مع امرأته وهو سيوافينا بمركبة عند انتصاف الليل فنسافر كلنا بمدلين فأخبريها بكل شيء واستعدوا .

ثم تركها ومضى الى ذلك الفلاح ، وأخبره ان الفرار قد تقرر في منتصف الليل وبعد ان استوثق منه ، وأعطاه التعليمات اللازمة ، تركه وعاد الى القصر .

أما فاندا فانها أخبرت مدلين بالحقيقة وأطلعتها على كتاب اختها انطوانيت ففرحت فرحاً شديداً وعلمت شدة موقفها ووافقت فاندا على الفرار وقد ردت

اليها العافية بهذا الخبر السار .

، ولما اجتمعت فاندا بروكامبول عند المساء أخبرته بما كان فقال لها : تأهبي وموعدنا منتصف الليل .

ثم خلا بنفسه وجعل يدخن تلك السكاير التي دس فيها الأفيون .

وعند منتصف الليل كانت مركبة الفلاح واقفة خارج القصر ، ومدلين متأهبة للرحيل ، وفاندا تنتظر قدوم روكامبول . ولما رأته تأخر عن ميعاده ذهبت إلى غرفته ، وكان بابها لا يزال مفتوحاً ، فدخلت ورأت روكامبول جالساً في كرسيه وهو نائم . فدنت منه ونادته باسمه بصوت منخفض فلم يرد عليها . فهزته هزاً عنيفاً فاستيقظ ، ولكنه لم يبرح مكانه وجعل يقول : دعوني أنام !

فقالت له فاندا : قم ألا تزال حالماً ؟

— إذهبي لحالك الله !

وقام ومشى خطوتين ، وهو يترنح كالسكارى ويقول : لقد أصاب غوليلو بقوله ان الأرض التي تدور لا الشمس ، لأني أشعر أنها تدور تحت قدمي . ثم جعل يضحك ضحك البلاهة .

فارتاعت فاندا وقالت : رباه انه سكران !

أما روكامبول فإنه عاد إلىالكرسي وجلس عليها وهو ينظر نظرات جامدة الى فاندا ثم ابتسم لها وقال : من انت أيتها الحسناء ؟ فإنك بارعة في جمالك ، ولكني ما رأيتك قبل الآن .

فصاحت فاندا صيحة يأس وقالت : رباه ! ماذا أصابه ؟ إنه أصبح لا يعرفني .

ولكن روكامبول لم يكترث لها ، بل جعل يضحك ضحك المجانين ويقول: إنهم يتوهمون أني روكامبول ، ولا شك ان الوهم قد أضاع رشدهم وإذا أردت أن تعرفي أين هو روكامبول فاذهبي إلى سجن طولون فانه يدعى فيه مـــائة

وسبعة عشر .

فصاحت به فاندا تقول : أسكت سوف تفضحنا .

ثم أخذت يده تريد الخروج فانتزع يده وقال لها : تباً لك من شقية خائنة فانك أنت التي قلت اني أدعى روكامبول .

ثم تغيرت سحنته وهاج غضبه ، وحـــاول ان يضربها ، ولكنه تراجع وقال : إني أعلم انك تبتغين ان تعرفي من أنا ، فاذا كان هذا قصدك فاعلمي اني أدعى الماجور أفاتار ، وقد حـــاربت مع الجيش الفرنسي في حصـــار سباستبول .

وضاع رشد فاندا وقالت ويحك أجننت ؟

وكأنما هذه الإهانة قد هاجت روكامبول ، فهجم عليها يريد ان يقتلها ، ولكنه تراجع وقال : ويح لي أأكون الماجور أفاتار وأقتل امرأة ؟

ثم جعل يبكي بكاء شديداً كبكاء الأطفال .

وفيما هما على ذلك سمعت فاندا وقع أقدام على السلم ، ثم رأت الفيكونت كارل دي موررليكس داخلاً الى الغرفة بملابس النوم وبيده مصباح ووراءه مدلين وهرتمن وبعض الخدم .

فلما رآهم روكامبول مسح دموعه فتأملت فاندا انه يصحو من سكره الغريب حين يرى هذه الجموع .

ولكن روكامبول عاد الى غضبه فوقف مشيراً بيده الى فاندا وقال : أترون هذه المرأة انها علة شقائي وهي التي قادتني الى الهاوية .

ثم وضع يده على لحيته المستعارة فانتزعها ، وجعل يخلع ثيابه ويلقي بها ساخطاً الى الأرض .

فقطب كارل حاجبيه ، واصفر وجه فاندا ، وساد السكوت على جميع الحاضرين .

أما روكامبول فانه بعدما خلع معظم ثيابه انطرح على مقعد طويل وقال

ليقتلوني كما يشاءون .. إني مستعد وأعلم إني أستحق الموت .

فقال كارل : إنه مجنون

وقالت فاندا : بل هو سكران .

وعند ذلك دخل نقولا أرسوف التتري ولم يكن قد سكر تلك الليلة خلافاً لعادته منذ ٢٠ عاماً .

ودخل في أثره ٦ رجال بالملابس العسكرية فتظاهر التتري أنه لم ير فاندا والتفت إلى رئيس اولئك الجنود وقال له : هذا هو الرجل الذي قلت لك عنه .

وأشار الى روكامبول وإلى لحيته المستعارة الملقاة على الأرض : ثم قال . إن هذا الرجل من عبيدنا ، ولد في أرضنا ، وهو يدعى جريجوار فرلوف ، وقد هرب من عندنا وهو في مقتبل الشباب ، وسافر الى المانيا .

فصاحت فاندا تقول : لا تصغ الى هذا الرجل فهو من الكاذبين .

ثم مشت الى التتري وقالت له بلهجة الوعيد : انك كاذب .

فلم يحفل بها التتري وقال لرئيس الجند : لا تصدقها فيما تقول لأنها شريكة لهذا الشقي وهو يطمع ان ينجو بتمثيله دور الجنون .

أما روكامبول فانه لما رأى الجنود أمامه قال : لقد عرفت السبب بقدومكم إنكم قادمون لقتلي . نعم إني أستحق الموت لانضمامي الى الأعداء . إفعلوا بي ما تشاءون .

ثم تقدم وانخرط بينهم .

فصاحت فاندا : ألا ترون ان هذا المسكين مصاب بالجنون ؟

ولكن روكامبول لم يرض ان يتهم هذه التهمة فقال : لا تصدقوا هذه المرأة لأنها سبب شقائي وما أنا بمجنون

فاضطربت فاندا ورفعت يدها فوق التتري وقالت : أيها العبد الذميم إذا لم

تقل الحقيقة سحقتك مثل الزجاج .

فتراجع التتري خائفاً ووقف حائراً لا يعلم ماذا يفعل فقالت له فاندا إركع أيها الوقح واعترف بالحقيقة .

وكان جميع الحاضرين قد اضطربوا حتى الجنود ، لما رأوه من نظرات فاندا الملتهبة ، وخشي كارل ان تضغط نظراتها على التتري فتحمله على الإقرار ، فتداخل في الأمر وقال لرئيس الجنود أتعلم من هي هذه المرأة التي تتكلم بهذه اللهجة ؟

فقالت بعظمة . إني البارونة شركوف :

فأجاب كارل : نعم ولكن البارونة شركوف جاسوسة بولونية والبوليس مجد في البحث عنها .

. فصاحت فاندا صيحة منكرة ونظرت إلى روكامبول نظرة يأس .

- ١٤ -

أما الضابط فانه لم يحفل بهذه الوشاية وقال لكارل : إني ما أتيت لمثل هذا بل أنا قادم لأخذ الجنود الثلاثة .

فقال كارل: والكني أشير عليك بالقبض عليها من باب النصيحة لأن الحكومة عينت جائزة الف ريال لمن يعثر بها .

فتغيرت ملامح الضابط وظهر عليه الطمع وقال : لا بد للبارونة من ان تسير معنا إلى الحاكم العسكري .

ورأى التتري أن الأمر جاء على غير مرامه ، وخشي ان تفلت فاندا منـه فقال للضابط : إذا صحت هذه الوشاية فان السيدة موجودة في قصري ولي الحق بنصف الجائزة ، ولكني أتنازل لك عن حقي وأبقي المرأة عندي بحيث أكون

مسؤولاً عنها الى ان تتحقق جنايتها فإذا ثبتت سلمتها للحكومة وكانت الجائزة كلها لك .

فرضي الضابط بالشرط وقال : بقي علينا الآن أن نأخذ الفلاحين الثلاثة ، فإني لا أجد منهم غير هذا الرجل .

– إن ثانيهما عندي وقد ذهب الخدم يبحثون عن الثالث .

ولم يكد يتم حديثه حتى دخل الخدم يقودون ذلك الملاح الذي وافق روكامبول على الهرب وقد وجدوه في المركبة مع زوجته تحت نافذة مدلين فأمر الضابط عند ذلك بالقبض على المزارعين وعلى روكامبول وسار بهم الجنود فشيعهم التتري حتى تواروا عن الأبصار .

ولبثت فاندا واقفة مع كارل وهي توشك ان تجن من يأسها ، فقال لها كارل ضاحكاً : لقد كان النصر في هذه المرة لي يا سيدتي ، اليس كذلك ؟

فلم تجبه فاندا ، فقال لها ولكنك إذا أردت أن نتفق ، كان اتفاقنا ميسوراً !

– ماذا تريد بذلك ؟

– أريد أن أطلق لك السراح ، بشرط أن لا تتداخلي بعد ذلك في شؤوني .

فنظرت اليه بانفة وكبرياء ولم تجبه بحرف . ثم خرجت من الغرفة وركضت مسرعة إلى غرفة مدلين وأقفلت بابها من الداخل وقالت لها والرعب باد في وجهها : هلمي بنا إلى الهرب قبل ان يقضى علينا .

– وروكامبول ؟

– لا أعلم ما جرى له فقد أصيب بالجنون .

ثم حكت لها بايجاز جميع ما مر وقالت . إن الحبل لا يزال معلقاً في النافذة وسنتدلى به فإما نسلم ونبلغ الى محل أمين وإما تفترسنا الذئاب وهو خير لنا من

الوقوع في قبضة هذين الأثيمين .

فوافقتها مدلين وهي تضطرب اضطراب الريشة في مهب الريح وأقبلت فاندا الى النافذة واعتصمت بالحبل وتدلت . ولكنها قبل ان تبلغ الى منتصف الجدار رأت خيالين يسترهما الظلام فحدقت بهما فرأت أنهما رجلان فذعرت لأنها أيقنت ان كارل قد وضعهما في ذلك المكان حذراً من فرارها بمدلين وعادت فصعدت إلى الغرفة واليأس ملء قلبها وأخبرت مدلين بما رأته قائلة لها . لم يبق لنا رجاء إلا بالدفاع حتى الموت

ثم وضعت جميع أثاث الغرفة أمام الباب وأخرجت خنجراً من صدرها وقالت لمدلين إنهم لن يصلوا اليك وبي رمق من الحياة .

وذرفت الدموع من عيني مدلين وقالت : إن الله من ورائنا غير اني أتوسل اليك أن تقتليني بخنجرك متى يئست من إنقاذي .

وبعد حين طرق باب الغرفة طرقاً عنيفاً فوقفت فاندا وراء البـــاب في موقف الدفاع ووقفت مدلين من ورائها ولما يأس الذين يطرقون الباب من فتحه كسروه ، فتبعثر الأثاث المكدس أمامه ، ودخل الغرفة خلق كثير يتقدمهم كارل . فانقضت عليه بخنجرها وطعنته طعنتين أصابتا ذراعه ، وحاولت أن تجهز عليه ولكنها شعرت بيد من حديد قبضت على كتفها والقتهـا الى الأرض . وكان الذي القاها الى الأرض هرتمن عـــامل كارل ، وركع فوق صدرها واستعان بالخدم على تقييد يديها ورجليها وكل ذلك والتتري واقف خارج الغرفة لايجسر على الدخول ولما رأى ما كان من تقييد فاندا سر سروراً وحشياً لا يوصف .

أما كارل فانه القاها في زاوية من الغرفة والدم يسيل من يدها وقال للتتري: أرجو أن تنتقم لي من تلك المرأة بعد سفري

أما مدلين فانها سقطت على الأرض من الرعب ، ولما رأت ما حل بفاندا ويئست من النجاة سقطت مغمياً عليها، فأمر كارل هرتمن أن يحملها الى المركبة

التي كانت معدة للسفر خارج القصر فامتثل هرتمن وخرج كارل في أثره فوضعا مدلين في المركبة وغطاها كارل بثوب كبير من الفرو وجلس بإزائها ثم صعد هرتمن الى مكانه أمام السائق . وسارت بهم المركبة تقطع تلك الفلوات الشاسعة ومدلين لا تعي على شيء .

وظلت تسير بهم حتى بلغت الى تلك الغابة التي اجتازها كارل منذ أربعة أيام وكارل يتفرس بها مندهشاً بجمالها وهي مغمي عليهـا الى ان افتتح هرتمن الحديث قائلاً : ألا تزال تحبها ؟

– بل لا أزال عازماً على الزواج بها .

– ولكنك مخطيء لسببين الأول ان انطوانيت لم تمت كما كنا نحسب من قبل والثاني أنها تحب إيفان .

– وماذا يهمني ذلك ؟

– أتريد برهاناً ثالثاً ؟ إذاً ، إسمع إن مـدلين لم توافق فاندا على الهرب إلا بعد أن علمت منها جميع أمرك . فهي تحتقرك وتكرهك ولا يعقل أن ترضى بك زوجـاً لها : على انك إذا شئت أن تعمـل بنصيحتي لنجوت من جميع المتاعب .

– وما هي نصيحتك ؟

– هي أن ترد للذئاب ما سلبته منها وها هي محدقة بنا كما تراها فارم اليها بالفتاة واخلص من المتاعب .

– أسكت أيها الشقي لأن هذا الخاطر الهائل لا يخطر في بال إنسان .

– ولكنك مضطر اليه وإذا لم تلقها فاتتك الفرصة ولا يبقى أثر للذئاب ، وإذا كنت تشفق عليها فأنا أتولى عنك الجريمة .

ثم هم ان ينزل إلى داخل المركبة ويلقيها فاعترضه كارل وقال له : مكانك أيها التعس ألا ترى جمالها الذي يدهش الأبصار ؟

– نعم ولكني أرى أيضاً ما يكتنف حبك لها من الأخطار ، فدع تلك

الأوهام ، وانتصح بما قلته لك ، فهو خير لك وأبقى . وهب أن الذئاب افترستها منذ ٤ أيام قبل أن تخلصها وليس حبك لها غير عرض يزول كما جاء في حين قصير .

وما زال به حتى رأى من ملامحه انه قد اقتنع فنظر حواليه فإذا الذئاب لا تزال تطارد المركبة وهي تخشى النور ، ونزل الى داخل المركبة وحاول ان يطرح مدلين وهي مغمى عليها الى تلك الذئاب الضارية . فهال كارل ما رآه من شناعة تلك الجريمة وقال له : عد الى مكانك ودعني أقتلها على الأقل قبل أن القيها كي لا تفترسها الذئاب وهي في قيد الحياة . ثم أخذ المسدس من جيبه وصوبه الى صدغها .

وأوشك أن يطلق النار على تلك الفتاة التي لم تتجاوز بعد عشرين عاماً بحيث قضي عليها القضاء المبرم ولا ينقذها من الموت غير أعجوبة من عجائب الله وقد جرت الاعجوبة فانه قبل ان يطلق النار عليها صحت من إغمائها وفتحت عينيها فأرجع كارل يده وجعل ينظر اليها وهو يضطرب .

أما مدلين فإنها أدركت لأول وهلة صعوبة موقفها فنظرت إلى كارل نظر المتوسل وقالت له رحماك أشفق علي !

فارتعش كارل حين سمع توسلها وخاف هرتمن أن يرجع عن قصده فجعل يحمسه باللغة الألمانية ويدعوه الى قتلها. ولكن مدلين كانت تتغلب عليه بتوسلها وظواهر انكسارها الى ان طال الحديث بينهما فقالت له إني أعرف يا سيدي من أنت إنك أخو أمي وإنك تريد قتلي وقتل أختي كي لا ترد لنا ثروتنا ولكني أقسم لك بالله إذا أشفقت علي فإني وأختي لا نطالبك بشيء ولا نذكر اسم أمنا مدى الحياة ونعيش من أشغال يدنا بملء الطهارة والشرف .

فقاطعها كارل قائلاً : إذا فعلت ما تريدين أتتزوجين بي ؟

فصاحت صيحة ذعر وجعلت تنظر اليه مروعة مضطربة .

— لا تنظري إلي هذه النظرات اني أريد أن تكوني امرأتي .

فتراجعت إلى آخر المركبة وقالت : كلا ان هذا لا يكون .

– بل يكون وسأرجع ثروتك وثروة اختك .

– إن يدك لا تزال ملطخة بدم أمي فاقتلني .

وصاح به هرتمن يقول : أسرع يا سيدي لأن الذئاب سترجع لأننا قربنا من المحطة .

وتحمس كارل وحاول ان يطلق عليها المسدس ولكنه رجع وقال: كلا لقد عزمت على ان تكوني لي ولا بد لي أن أنال منك ما أريد .

– قلت لك ذلك لا يكون . إفعل بي ما تشاء لقد سئمت الحياة .

ودنا منها وحاول تقبيلها فدفعته عنها بعنف شديد حتى أوشك ان يسقط على قفاه فارتد اليها قائلاً : لا بد ان تكوني لي كيفما اتفق .

– أقتلني ايها الفاجر السفاك فذلك خير لي

فتمكن منه الغضب وقال : سأقتلك كما تشائين .

ثم أخذ مسدسه وهم ان يطلقه عليها ولكن هرتمن صاح به قائلاً : قف لقد فات الأوان وقد بلغنا المحطة .

فتوقف كارل عن قتلها وبعد دقيقة وقفت المركبة عند منزل صغير وهو إحدى المحطات في تلك الغابة الكثيفة فغيروا الجياد والسائق .

أما مدلين فكان لا يزال لها بقية رجاء برحمة هذا الضاري فلبثت ساكنة ساكتة والدموع تنهمر من عينيها .

وخلا كارل بهرتمن فسأله : إن المركبة ستسير بنا فينبغي ان تعزم عزماً أكيداً فعلى ماذا عزمت ؟

– إني عزمت على ان أتخذها حليلة لي وإذا أبت جعلتها خليلة .

فلم يجبه هرتمن بحرف وصعد الى مكانه بجانب السائق وانطلقت بهم المركبة وسارت في أثرها الذئاب .

وجعل هرتمن يراقب السائق في الطريق ويتأمل وجهه فتعذر عليه ان يتبينه

لأنه كان لابساً قبعة نزلت إلى عينيه وحاولاان يباحثه فسأله : ألم تر جنوداً تقود ثلاثة من الفلاحين الذين أصابتهم القرعة ؟

فلم يجبه السائق فكرر عليه السؤال بالفرنسية والألمانية والروسية فلم يجب أيضاً بل ضرب الجياد بسوطه فاندفعت تجري .

فساء هرتمن هذا السكوت والتفت الى كارل فرأى الزبد يخرج من شدقيه لشدة غضبه على مدلين وكانت الذئاب قد بدأت تحيط بالمركبة فقال له كفاك يا سيدي تردداً .

– لا سبيل الى العزم الأكيد لأني أحبها .

وكانا يتكلمان باللغة الألمانية كي لا تفهم مدلين فقال له هرتمن انك لن تبلغ مراداً ما دامت على هذا العناد فاجهز عليها ولكن احذر من السائق ولا تطلق عليها النار ولا تحملها على الاستغاثة بل ادفعها خارج المركبة فتتولى عنك الذئاب مهمة القضاء عليها أسرع يا سيدي قبل ان تصل الى بترهوف او ستيد يا ذنكا فتستعين عليك بالجند وتنجو منك .

فقال بغضب : كلا إذ يجب أن تكون لي .

– قلت لك أسرع لأن أنوار مدينة بترهوف قد بدت لنا .

فلما رأى كارل ذلك أعاد السؤال عليها قائلاً : أتتزوجين بي ؟

– كلا إني أؤثر الف موت على الزواج بفاجر سفاك .

فهاج كارل هياجاً شديداً واحتمل الصبية يريد القاءها على الذئاب فصاحت صيحة عظيمة ثم تلا صياحها صيحة اخرى هائلة وكانت هذه الصيحة صيحة هرتمن لأن سائق المركبة حمله بيده والقاه على الثلج فريسة للذئاب .

أما مدلين فقد دافعت عن نفسها دفاع القانطين لا سيما حين سمعت صراخ هرتمن قد طبق أرجاء الفضاء وسمعت صوت أنياب الذئاب تكسر عظامه .

- ١٥ -

ولنعد الآن إلى روكامبول . لقد تركناه في المركبة مع الجنود تسير به الى الحاكم العسكري ، وهو سكران من الأفيون ومقيد اليدين والرجلين ، غير ان الأفيون لا يطول تأثيره بأصحاب الأمزجة العصبية ، فانه بعد ان ابتعدت المركبة ساعة عن قصر التتري صحا روكامبول من سكرته وعاد اليه كل صوابه فأوشك ان يفقده ثانية حين رأى نفسه مقيد اليدين والرجلين يكتنفه الظلام الدامس في مركبة تسير به سيراً حثيثاً .

ولو اتفق ما اتفق له لكل إنسان سواه ، لصاح وحاول ان يتخلص من قيوده . غير ان روكامبول لم يكن رجلا عادياً وقد تمرس في السجون وعرف فائدة الصبر في مواقف الأخطار ، فصبر وجعل يفتكر بما صار اليه بادئاً بالرجوع الى حوادث أمه ، فذكر انه اتفق مع الكسيس الفلاح على إعداد مركبة للفرار بها بمدلين عند منتصف الليل ، وانه عندما عاد الى قصر التتري أخبر فاندا بما جرى ، فأخبرته ان مدلين مستعدة للفرار فتعشى مع الحاضرين ، وقام الى غرفته فأشعل سيكارته وجعل يدخن فشعر بتثاقل أجفانه .

وهنا انقطع حبل تذكاره وبعد ان فكر هنيهة أيقن انه شرب مخدراً فغاب صوابه ولم يعد لديه شك في ان ذلك من صنع كارل وان مدلين وفاندا وقعتا في قبضته فاضطرب فؤاده وجحظت عيناه من الخوف عليهما .

وكانت المركبة مقسمة الى قسمين منفصلين قسم يقيم فيه الجنود وقسم وضع فيه روكامبول والكسيس والفلاح الآخر يغط في نومه فقد قبض وهو سكران أما الجنود فكانوا يغنون ويضحكون .

وبينما كانت المركبة تسير سمع روكامبول رئيس الجنود يقول للسائق : ألا تميل بنا الى الغرب فنعرج على فندق سيوا ونشرب فيه غيثاً من العرق لأن

البرد شديد ؟

– إفعل ما تريد على ان تشاركني في شرابك .

– حباً وكرامة فعرج بنا .

وسمع روكامبول هذا الحديث ، وكان قد عرف أخبار هذا الفندق ، فقال في نفسه : إذا قام اولئك الجنود مدة في الفندق يشربون فلا أعدم وسيلة للنجاة .

ثم جعل يفحص ما حواليه فسمع انتحاب الكسيس وعرفه من صوته فزحف اليه وقال همساً : كفاك انتحاباً وأنا روكامبول وسأنقذك .

فسكت الكسيس وقد اطمأن باله ثم سأله روكامبول قص علي ما جرى فقد عاد إلي صوابي.

فحكى له الفلاح جميع ما عرفه وكيف ان التتري اغتنم فرصة جنون روكامبول وادعى عليه انه من عبيده الذى أصابتهم القرعات العسكرية . فعلم روكامبول سر المكيدة وقال لألكسيس : العلك موثق مثلي ؟

– نعم .

– إذاً نم على بطنك .

ففعل وكانت يداه مشدودتان بحبل الى ظهره ، فجعل روكامبول يعالج عقدة الحبل بأسنانه حتى فكها . ولما أطلقت يد الكسيس قال له : أطلق يدي كما أطلقت يديك .

ففعل ، ثم حل كل منهما قيوده وعادا الى موضعيهما ، بعد أن أشار روكامبول على رفيقه بالعودة الى الانتحاب . وعند ذلك وصلت تلك المركبة المزدوجة الى فندق سيوا ، فنزل الجند ورئيسهم والسائق ، ودخلوا الى ذلك الفندق فرحين يترنحون ، فوجدوا تلك العجوز الشمطاء ، وبطرس السائق ، وقد أوشك ان يشفى من مرضه ، فطلبو مداماً وجلسوا يشربون .

أما الكسيس وقد حسب ان روكامبول سيفر من المركبة مغتنماً فرصة غفلة الجنود فتأهب للوثوب منها .

غير ان روكامبول أمره ان يبقى في مكانه وحمل الأسير الثالث السكران والقاه خارج المركبة ثم صعد مكان السائق وهو يخاطب الكسيس : إني لاأحب الفرار على الأقدام .

وضرب الجياد بالسياط ، فاندفعت تجري في تلك الغابة ، وتمر مرور السحاب .

ولما سمع السائق والجنود صوت مسير المركبة تراكضوا اليها وهم يحسبون ان الجياد جمحت فوجدوا الأسير السكران ملقياً على الأرض والمركبة قد توارت فجمدوا في أماكنهم جمود تلك الثلوج الواقفين عليها وقد فطنوا للمكيدة وعلموا أن الأسيرين قد هربا .

وكان روكامبول يفتكر بفاندا ومدلين فلما ابتعدت المركبة وأفاق الكسيس من ذهوله قال لروكامبول : الى اين تسير بنا ؟

– الى قصر التتري .

– أتعود اليه كي نقع في قبضته مرة أخرى ؟

– كلا بل هو الذي سيقع في قبضتنا هذه المرة ، ثم لا يخلق بنا ان ندع إمرأتك وتينك المرأتين في أسر ذلك الوحش .

– أصبت ولكننا لا نبلغ المحطة الأولى حتى تنهك جيادنا ولا مال لنا لاستئجار سواها .

ويذكر القراء ان روكامبول حين اشتدت عليه عوارض الجنون جعل ينزع ثيابه ويرمي بها الى الارض وحين قبض عليه الجنود أشفق عليه أحدهم من البرد فألبسه جميع ملابسه فلما قال له الكسيس لا نقود لنا مد روكامبول يده الى جيبه فوجد فيها محفظة الاوراق المالية مكدسة وقال ، طب نفساً فسنجد ما نستأجر به خيلاً جديدة .

ولبثت المركبة تجري وروكامبول يفكر في كارل ويضع لنفسه خطة يجري عليها ، وقد علم ان كارل خصم شديد يكون كفوءاً له فقال في نفسه . إما أن يكون هذا الرجل الآن في معركة شديدة مع فاندا فإنها لا يمكن أن تتخلى عن مدلين وفيها رمق من القوة ، وعلى هذا الافتراض فإن مدلين لم تسقط بعد في يد عدوها ، وإما أن تكون فاندا غلبت ويكون كارل فر بمدلين فاذا صدق الفرض الأول فان الوقت لا يزال فسيحاً لدي ، وإذا صدق الفرض الثاني فلا بد لي ان التقي بكارل ومدلين في طريق بترهوف .

وقد صح حساب روكامبول كما سيجيء فان مركبته بعد أن سارت غاصة في تلك الغابة ، وقفت في المحطة الأخيرة قبل بترهوف فنزل روكامبول إلى مدير المحطة فأخرج من جيبه بعض أوراق وقال : اني أريد جياداً لمواصلة السفر .

– ذلك محال يا سيدي فان الجياد التي عندنا محجوزة لأمر غريب سيمر بنا قريباً .

– من أين هو آت هذا الرجل ؟

– من قصر الكونت بونتيف .

فاضطرب روكامبول وقال : كيف عرفت هذا ؟

فأشار المدير بيده إلى رجل كان نائماً قرب المستوقد وقال : عرفت من هذا الرجل فقد أرسله إلي نقولا أرسوف منذ ساعة لحجز الجياد .

– إذن فسأضع جيادي في اصطبلك إلى ان تستريح فاستأنف السير .

لا بأس وإن شئت ان تنام تجد فراشاً من القش بجانب السائق الذي سيقود المركبة

ثم أعطاه مصباحاً ودخل إلى غرفته كي ينام فيها ودخل روكامبول مع الكسيس إلى الاصطبل فقال له الكسيس على ماذا عولت ؟

– سوف ترى .

من عادة السائق الروسي في تلك المحطة أن ينفق معظم فراغـه في النوم ولا يوقظه غير سائق المركبة التي يحل محله فيها ويكون نائماً بملابسه فينهض من فراشه إلى خيله فيشدها بالمركبة ويسير بها إلى أول محطة .

ولما دخل روكامبول وجد هذا السائق نائماً على فراش من القش وهو متشح بوشاح من الفرو الغليظ ولابس قبعة عظيمة تغطي أذنيه فدنا منه روكامبول وأيقظه فلم يستفق فصفر بأذنه كما يفعل سواق المركبات فهب من رقـاده في الحال وأسرع إلى الخيل حسب المعتاد غير ان روكامبول هجم عليه وضغط على عنقه وقال له . إذا فهت بكلمة قتلتك .

ثم القاه على فراشه وركع فوقه وقال : لا تخف فاني لا أريد بك شراً بل اني أريد لك كل الخير وإذا أطعتني فيما أريد أعطيك مائة ريال .

ومثل هذا المبلغ يعد ثروة عظيمة لدى سائق لا يكسب في يومـه ربع ريال ، فظهرت علائم الطمع بين عينيه وسأله : ماذا تريد أن أصنع لك مقابل هذه المحبة ؟

– أريد أن تطيعني .

– مر بما تشاء . أتريد أن أشد جيادي إلى مركبتك ؟

ونهض روكامبول عنه بعد وثوقه من حسن طاعته وقال له كلا ليس هذا الذي أريده منك بل أريد منك ثلاثة أشياء وهي سوطك وقبعتك ورداءك .

– ألعلك تريد أن تسوق أنت المركبة ؟

– نعم .

– وأنا ماذا أصنع ؟

– تعود وتنام إلى أن يشرق الصباح .

– ولكن إذا فعلت هذا الفعل أفقد مركزي .

– اني أعوضك عنه بخير منه وهذه مقدمة هباتي لك .

ثم أخرج محفظتـه وأعطاه مائة روبل فلم يصدق السائق ما يراه وأسرع إلى خلع رداءه وقبعته وجزمته فأخذها روكامبول ولبسها جميعها ثم قـال للسائق : عد الى فراشك .

فامتثل السائق وهو يوشك أن يجن من فرحه بهذه الثروة .

وعند ذلك سمع صوت قدوم مركبة فأخرج الجياد المرتاحة بمساعـدة الكسيس وقال له : انتظرني هنا فلا أعلم متى أعود اليك ولكن لا بد لي من الرجوع قريباً فكن مطمئن الخاطر.

وقد عرف القراء الآن ماذا حدث فان هذا السائق الذي القى هرتمن إلى الذئاب لم يكن إلا بطل هذه الرواية روكامبول فانه كان جالساً بازاء هرتمن لا يهم بمدلين ولكنه كان يصغي إلى حديثه مع كارل وحثه إياه على القـاء مدلين فاراد ان يعاقبه بنفس الموت الذي كان يتوقمه لتلك الفتاة الطاهرة التي أثرت الموت في سبيل الدفاع عن عرضها وشرفها .

ولما القي هرتمن إلى الذئاب وثب إلى داخل المركبة فقبض على كارل بيـد من حديد وقال لمدلين ، لا تخافي فقد سلمت من الموت ثم نزع القبعـة عن رأسه ونظر إلى كارل وقال . اعرفتني الآن يا حضرة الفيكونت ؟

فذعر كارل وقال : روكامبول !

فانتزع روكامبول من يده ذلك المسدس الذي كان يتهدد به مدلين وقال له : انك يا حضرة الفيكونت قد ارتكبت كثيراً من الفظـائع والآثام ولكن الله قد يعفو عنك إذا تبت اليه توبة صادقة فاستغفر الله انك ستموت .

فركع كارل وقال مستغيثاً أصفح عني بالله .

وحسبت مدلين وقد رأت المسدس بيد روكامبول انه سيطلق عليه النـار فقالت له رحماك اشفق عليه ..

– أتظنين يا سيدتي انه يحق لك ان تصفحي عن قاتل امك ؟

فتنهدت مدلين وسكتت ، أما كارل فانه نظر اليه نظرة المتوسل وقال له: اصفح عني ارد كل شيء .

— كلا أيها الشقي بل سأميتك أشر ميتة تكون بها عبرة لامثالك .

ثم قبض عليه من وسطه واحتمله كما يحمل الطفل فألقـاه على ذلك الجليد قرب هرتمن الذي كانت تأكله الذئاب والقى عليه مسدسه وهو يقول : اني لا أريد لك ان تموت من غير دفاع فهجمت عليه الذئاب المفترسة من كل جانب .

وعاد روكامبول إلى مدلين وهي توشك ان يغمى عليهـا لرعبها من هذا المنظر الهائل وقال لها : اخبريني الآن ماذا حدث لفاندا ؟

— عندما اسرني هذان الشقيان كانت فاندا موثقة اليدين والرجلين ولا بد ان تكون الآن في قبضة التتري .

فطاش رأس روكامبول من خوفه عليهـا فوثب في الحال إلى مقعد السائق وضرب الجياد بالسوط فاندفعت تجري إلى قصر التتري

وبعد دقيقة سمعوا صوت اطلاق المسدس فقال روكامبول هوذا قضاء الله قد بدأ ينفذ في ذلك الشقي .

١٧

لقد تركنا فاندا موثقة اليدين والرجلين ملقية في زاوية غرفـــة مدلين عندما اختطف كارل مورليكس مدلين وفر بها فبقيت فاندا تحت رحمة ذلك الوحش التتري .

وقد دخل اليها وعيناه تبرقان باشعة الأمل ولكن فاندا اجالت فيه نظرها فتوقف في وسط الغرفة وأطرق وجلا مستحيياً غير انه تجلد وأتم مسيره اليها ، فاضافت فاندا صوتها إلى نظراتهـا وقالت له . قبحت من عبد يريد اتيان

الموبقات ولا يجسر عليها ويحك انك اردت أن تحبك امرأة من النبلاء ولكنك خشيت لفظاعة اثمك وخفت أن تنطبق السماوات عليك فابقيت تلك المرأة موثقة اليدين والرجلين انك رجل وأنا امرأة وانت مطلق وأنا مقيدة ومع ذلك فانك لا تجسر على الدنو مني أيها النذل الجبان .

فأثر كلام فاندا عليه كما كانت تتوقع لأنه توقف أيضاً متردداً اكثر من قبل فقالت له ماذا تخشى مني فان الرجل الوحيد الذي يدافع عني اصبح بعيد وأنت رئيس هذا القصر الحاكم فيه وكل من فيه يخضعون لأمرك ألعلك خشيت أن أهرب فاقفل هذا الباب وانا ضامنة لك اني لا أفر .

فاضطرب التتري وقال . ألعلك تمزحين ؟

– كلا وأنا لا افتكر بنفسي الآن بل افتكر بك أيها الأبله فانك ستلقي النار بيدك في منزلك .

ولم يفهم مرادها ولكنه توقف عن الدنو منها وقالت له بصوت الهازىء : حل على الأقل قيد رجلي كي أستطيع الوقوف ألا تخجل أيها العبد أن تطمع بحب إمرأة لك وهي على هذه الحال ؟

وكان خنجر فاندا الذي طعنت به موروليكس لا يزال على الأرض فأخذه التتري وقطع به قيد رجليها وهو يقول . إني أفعل لك ما تريدين ولكنك إذا حاولت الفرار مني قتلتك لا محالة .

ووقفت فاندا وكانت يداها لا تزالان موثقتين وراء ظهرها ثم نظرت اليه تلك النظرات الساحرة وقالت أحقيقة تحبني ؟

فاضطرب التتري وأجابها بصوت يتهدج أتسأليني هـذا السؤال وقد ارتكبت الجرائم من أجلك .

– وإذا أحببت ساعة وأنا صاحبة الاسم النبيل رجلاً سافلاً مثلك أتقتلني بعد ذلك ؟

ثم قالت بلهجة العظمة والكبرياء إصغ الي فاني احب ان أقص عليك

تاريخي قبل كل شيء .

فاندهل التتري وأجاب أي تاريخ تعنين ؟

– أتظن أيها الأبله إنني لو كنت إلى الآن البارونة شركوف تلك السيدة الروسية العظيمة أكنت تراني هنا مع رجل أجنبي أخضع له كما كنت تخضع لي أنت من قبل ؟

– وماذا حدث لك وكيف أنت الآن ؟

قبل أن أخبرك بحالي أريد أن أعرف كيف بات مولاك الكونت بونتيف فقيراً بالنسبة اليك . اليس كذلك ؟

– لا أعلم ..

– بل أنا أعلم فان صاحب الأرض بات فقيراً وبات وكيله عليها غنياً ، قل الست بغني ؟

– ربما !.

– وإذا أردت أن تجتاز إلى تلك الهوة العميقة التي تفصل بين الضفة والنيل فكيف تجتاز ؟

– على جسر من الذهب .

– ولكني أرجوك أن تحل قيد يدي فقد ضاقت أخلاقي

ففعل التتري وهو غير موجس خوفاً منها لأن الخنجر كان بيده فلما أفلتت يديها وضعتهما على كتفه وقالت له بدلال هل ظننت أن قلوب النساء تشترى بالخناجر وتقييد الأيدي ؟ فاجلس أمامي ولنتحدث ، انك قلت لي إنك غني اليس كذلك ؟

فاضطرب فؤاده لما رأى من دلالها وأراد أن يظهر أمامها بمظهر العظمة فأجاب : ان أموالي لا تحصى .

– ولكني أريد أن أجعلك فقيراً .

وضحك ضحكاً عالياً قائلا إن هذا مستحيل ..

– أين أودعت أموالك ؟
– في محل أمين لا يصل اليه أحد .
– اني أحب أن أعرف هذا المكان .
فاضطرب التتري وقال : يستحيل علي أن أخبرك عن مكانه فاني أعطيك كل ما تشائين ولكني . .
وقاطعته وقالت بغنج إذن أحب أن أكون الآمرة الناهية في قصرك هذا وان تطيعني في جميع ما أريد كما كنت تطيعني من قبل .
– مري بما تشائين فلا أخالف لك أمراً .

– اني أريد أن تحتفل الآن حفلة لا مثيل لها وتدعو إلى خـدمتي جميع خدمك ونشرب سوية من خير خمورك فاني سأغدو منذ الآن ملكة هذا القصر .
ثم طوقت بذراعها عنقه فجن من اضطرابه وجعل يدعو الخدم فيفدون اليه أفراداً وأزواجاً ويلقي اليهم الأوامر اللازمة لإعداد تلك الحفلة .

وكانت الساعة الثانية بعد منتصف الليل ، وفي الساعة الثامنة ، أي بعد أن تمكن الشراب من التتري ، أصبحت فاندا الحاكمة المطلقة عليه بعد أن كانت مقيدة ، وكان الخدم يرقصون ويغنون من حوله حسب أمره وهم يقولون لقد أصبح الآن عاشقاً ولا بد أن يرق قلبه ويغنمه غرامه من عذابنا .

ولم يطل به الأمر حتى سكر فأطلقت فاندا سراح الخدم وعادت تسأله عن كنزه المخبوء فكان لا يزال مصراً على الكتمان بالرغم عن سكره .
ونظرت فاندا ورأت خنجرها على المائدة واختطفته وصوبته اليه وهي تقول : قل أين خبأت أموالك ؟

فخاف أن تقتله وحاول الهجوم عليها ولكنها تراجعت وهي تقول والخنجر بيدها قل أين خبأت المال ؟
أما التتري فقد ذكر ما رآه من فاندا منذ ثلاث ساعات حين انقضت بخنجرها انقضاض الصاعقة على كارل وكادت تبطش به لولا أن انقض عليها

هرتمن من الوراء وهلع قلبه لاسيا وان السكر قد هد حيله وأضعف أعصابه وجلس في مكانه وجعل يضحك قائلا إنك تمزحين دون شك .

– كلا . فاني أريد أن أعرف أين خبأت مالك !

– ولماذا .. أتريدين أن تأخذيه ؟

– ربما ..

– كلا ، فاني أعطيك ما تريدين ولكني .

– وأنا أريد أن أعرف أين خبأت مالك ، ثم ابتسمت له الطف ابتسام .

وطاب قلبه ودنا منها وهو يقول لها : أحبك ..

فابتسمت له فاندا ولكنها أشارت اليه بخنجرها أن يقف بعيداً وقالت : أريد أن أعرف مكان هذا الكنز .

– ولكني أعطيك منه ما تشاءين .

– كلا .. بل أريد أن آخذ منه بيدي ما أشاء .

– أتريدين أخذ كل المال ..

– كلا .. إنما أريد أن أعرف ذلك المكان لأعلم إذا كنت ماهراً في اختيار الأماكن الصالحة لدفن الكنوز .

فابتسم ابتسام الاعجاب وأجاب : إنها مخبوءة في مكان لا يخطر في بال انسان وانه يوجد من الذهب ما يملأ عشر مركبات .

– إذا كان ذلك ما تقول فكيف تخشى أن أحمل هذا المال الكثير ؟ ولكني لا أصدق ما تقول فانك تحاول إغرائي .

وتغلب السكر والغرور على الحكمة قائلا : كلا ، بل ما قلته لك هو الحقيقة بعينها فاذا كشفت لك هذه الخبايا أتحبينني ؟

– أحبك دون شك ولكني لا أحبك الا متى عرفت مكان كنزك .

– إذن فاعلمي انه ليس في القصر بل في الحديقة .

– العله مدفون فيها ؟

– كلا ، بل هو معرض للهواء ولكنه لا تبصره العيون فهلم بنا اليه .

ثم خاصر فاندا وسار بها إلى الحديقة فكان يتعـثر لسكره وهي تسنده والخنجر بيدها حتى انتهيا إلى حوض وكانت جدران الحوض عالية مبنيـة بالرخام الأبيض والقمر يتلألأ في السماء وجعل الليل نهاراً فوقف التتري مع فاندا أمام الحوض وقال لها : انظري هذا الحوض فانه لا يخلو من الماء غير ثلاثة أيام في العام وهي الأيام التي أجبي فيها المال من الفلاحين فاذا انقضت هذه الأيام الثلاثة فتحت تلك الحنفية الكبيرة المشرفة عليها وتنصب فيه المياه ويبقى الحوض ملآن كل العام .

– وأية علاقة بالماء وجباية الضرائب ؟

– ألا تنظري في أرض هذا الحوض حلقة سوداء ؟

فحدقت فاندا وقالت : نعم .

– إني إذا جذبت الحلقة انزاحت بلاطة كبيرة وظهر من تحتها كنزي المخبوء

وتظاهرت فاندا بالانذهال الشديد وقالت : اني أريـد أن أرى كل شيء فافتح أمامي باب الكنز .

ولم يكن للحوض سلم ينزل اليه بها على عمقه بل كان يوجد فيه حبل مربوط بتلك الحنفية الضخمة وهو ينتهي عند أسفل الحوض ، فقال التتري . سمعـاً وطاعة ، ثم تمسك بذلك الحبل ونزل إلى الحوض فاتقدت عند ذلك عينا فاندا بأشعة الحقد الدفين .

ولم يكد هذا التتري يمسك الحلقة بيده ويحاول جذبها حتى أحس برشاش الماء على رأسه ، لأن فاندا فتحت حنفية الماء .

ولم يفطن التتري للأمر وقال لفاندا اقفلي الحنفية لقد أصابني ماؤهـا والبرد شديد .

غير ان فاندا لم تجب وظل الماء يسقط عليه فالتجأ إلى آخر الحوض وصاح بها قائلاً : اقفلي اقفلي .

فضحكت ضحك المتهكم وقالت . لا شك انك ابله .

فأسرع راكضاً إلى الحبل المدلى من الحنفية وتمسك به يحاول الصعود فلم تعترضه فاندا وتركته يصعد والماء ينصب عليه من فم تلك الحنفية الواسعة كأفواه القرب .

ومازال يصعد وفاندا تضحك وهي جالسة على طرف الحوض قرب الحنفية حتى اوشك ان يدنو منها فأسرعت فاندا وقطعت ذلك الحبل بخنجرها فاندفع يهوي الى الأرض وقد صاح صيحة شديدة اجابته عليها بضحك أشد ثم قالت له : لقد نجا الناس من شرك أيها العبد الزنيم فلا انت بضارب عبيدك ولا أنت بسارق سيدك ، ولا تجسر شفتاك على التصريح بالغرام للنساء الشريفات ، فاذا كنت تؤمن بالله فاستغفره فان كنزك سيكون قبرك .

وجعل التتري يركض وهو يصيح ويستغيث فأجابته فاندا : مهما بلغ من صراخك فانه لا يسمع وهب انهم سمعوك فاني باشارة ارجعهم ، ألم تجعلني السيدة المطلقة أمامهم في هذا القصر ؟

وكان الماء لا يزال ينصب في الحوض وكلما انصب ارتفع حتى بلغ إلى ركب التتري وجعل يصيح بها ويقول : اقفلي الحنفية ايتها الخائنة العلك تريدين إغراقي ؟

وكانت تجيبه هازئة وتقول . كنت أريد لك شراً من هــذا الموت فانك تستحق أعظم منه ولكن إذا لم يكن ما تريد فأرد ما يكون .

وجعل هذا المسكين يصيح صياحاً مؤلماً وهو كلما استقر هنيهة في الحوض يشعر انه تجمد من حوله لشدة البرد بحيث لم يعد يستطيع أن ينقل قدماً وقد ضغط عليه الماء المتجمد ضغط القيود وكلما انصب قدر من الماء علا من حوله وتجمد ، حتى بلغ إلى صدره وشعر بدنو أجــله ، فجعل تارة يشتم وطوراً يتوسل الطف توسل ويستعطف فاندا أن تقفل الحنفية وتغيثه وهي تعبث بــه وتضحك عليه وتقول : لو جسرت ايها الشقي أن تنظر الي وأنا البــارونة

شر كوف لقضيت عليك جلداً بالسياط ولكنني ما تمكنت من قتلك إلا بالحيلة ، والموت واحد مهما تنوعت الأسباب .

وظل الماء يصعد ويتجمد حتى بلغ إلى عنقه وضغط عليه ضغط الحديد فلما رأته على هذه الحال قالت : سأفعل الآن ما تريد واقفل الحنفية . ثم أقفلتها فانقطع الماء ولكن لم يبق غير رأس التتري .

وكان الفجر قد بدأ ينفجر فوقفت فاندا تراقب هذا الشقي غير مكترثة بذلك البرد الشديد الذي يهز جسمها حتى رأت علائم النزع بدأت تظهر من عينيه ففتحت ساعتها وجعلت تعد دقائق نزعه الهائل الأليم .

بينما كانت فاندا تعاقب ذلك التتري ذاك العقاب الشديد ، كانت مركبة تنهب الأرض سائرة الى قصر ذلك الرجل تنقل مدلين وروكامبول ؛ وهو يجهد الخيل بسوطه ، ويكرر اسم فاندا . فلما بلغت روح التتري التراقي كانت المركبة قد وقفت عند باب القصر وخرج منها روكامبول فاندفع في ردهة القصر اندفاع القانطين قائلاً : أين فاندا ؟

فاستقبله أحد الخدم وقال له : إنها باتت الآن الحاكمة المطلقة على القصر وساكنيه .

ثم اجتمع من حوله جميع الخدم فكان بعضهم يضحكون لاعتقادهم أن روكامبول زوج فاندا وبعضهم يتمايلون من السكر ولكن علائم السرور كانت بادية في تلك الوجوه .

ولما الح عليهم روكامبول السؤال عن فاندا ذهبوا به الى تلك الحديقة فرأوا فاندا واقفة عند الحوض تراقب نزع ذلك الرجل الذي تجاسر على ان يكاشفها بغرامه بعد ان كان عبداً لها ، فأسرع الخدم الى ذلك الحوض وقد أوجسوا شراً من وقفة فاندا ، فرأوا سيدهم محصوراً بين الثلج فلم يقدم أحد على إنقاذه بل إنهم أظهروا سروراً لا يوصف عندما أيقنوا أنه أسلم الروح لشدة ما يلقونه من مظالمه .

ثم التفتت فاندا فرأت بالقرب منها روكامبول ينظر الى التتري وقد أدرك كل شيء فصاحت صيحة الدهش وقالت : ومدلين ؟

— لقد نجت .

فسرت فاندا وقالت : لقد كنت أتوقع كل ذلك .

ثم انطرحت على ذراعيه تعانقه ، فقال لها روكامبول : لقد فرغنا الآن من روسيا فهلمي بنا إلى فرنسا .

- ١٨ -

قبل ان نسير بالقارىء في أثر روكامبول وفاندا العائدين الى فرنسا بمدلين، نعود الى أحد أعضاء هذه الرواية فقد تخلينا عنه منذ حين وهو ايفان دي بونتيف عاشق مدلين ، بعد أن تركناه في شر حالة ، وقد قبض عليه بوليس موسكو وسار به الى بطرسبرج .

ولا يوجد بين البلاد على اختلاف حكامها بلاد كالبلاد الروسية في خضوع شعبها للحكام والشرطة ، لأن الطاعة واجبة ملازمة فيها من أحقر خادم إلى أشرف سيد ، ولذلك فان ايفان على علو منزلة أسرته لم يعترض بكلمة ، ولم يداخله أقل ريب بأن نكبته إنما كانت من أبيه ، بل كان مطمئن البـــال لكثرة أصدقائه في البلاط الروسي ، ولاعتقاده أنه لم يخطىء خطأ يستوجب العقاب ؛ فاجتاز تلك المسافة الشاسعة بين موسكو وبطرسبرج وهو لا يفكر إلا بمدلين .

وقد أذن له الضابط الذي يصحبه الى بطرسبرج أن يكتب إلى أبيه إذا شاء ، فلما بلغا أول محطة كتب الى أبيه والى مدلين وقد رجـــا أباه في آخر كتابه أن يسرع بموافـــاته إلى بطرسبرج ، حتى إذا كان القي القبض عليـــه

بوشاية بعض أعدائه ، يتمكن من إنقاذه بما له من النفوذ في تلك العاصمة .

وبعد خمسة أيام مرت به في هذا السفر الشاق وصل إلى بطرسبرج فذهب به الضابط الى القلعة المعدة لإيقاف الضباط ، وأعطى حاكم القلعة التقرير المرسل اليه بشأنه . فلما أطلع عليه الحاكم قال له : إنك ستبقى ضيفي في هذه القلعة الى ان يصدر أمر آخر بشأنك ، إنما يسرني أن أخبرك أن أمرك غير خطير .

ثم أمر ان يوضع في غرفة خاصة ، وأن يعين جندي لخدمته ، فاستبشر ايفان خيراً بهذه الرعاية ، وأقام في سجنه يومين دون ان يجيئه أحد ، لأنه كان واثقاً أن أباه سيسرع اليه لإنقاذه ، فتوالت الأيام دون أن تتحقق ظنونه .

وكان الحاكم يتلطف معه ويدعوه كل يوم لمناولة الطعام على مائدته إلى ان طالت الأيام عليه في ذلك السجن الفسيح وهو يحسبها دهوراً فجعل يتضجر أمام الحاكم ويشكو من ان رسائله لا تصل الى أبيه .

فقال له الحاكم : أتحسب أن أباك مهتم بك ؟

– إذا لم يهتم بي فبمن يهتم ؟

– يهتم بشؤونه .

– ماذا تعني بما تقول ؟

فابتسم الحاكم وقال له أيروق لك ايها الشاب ان نتحادث قليلاً عنك ؟

– كيف لا يروق لي حديثك عني وأنت تراني على أحر من الجمر .

– قل لي لأي ذنب قبض عليك ؟

– لأنهم رأوني عائداً من منزل البرنس ك وفي هذا المنزل يبحثون المباحث السياسية .

– وما دعاك الى الذهاب الى ذاك المنزل ؟

– إنه صديق لعائلتنا . وقد أرسلني أبي اليه كي أخبره بعودته من أراضيه

وإبلاغه سلامه .

فابتسم الحاكم وقال : أتظن أنه لو حسب بوليس موسكو ان وجودك خطر وإنك تجري في أعمالك على مناهج المقاومة وتمثل لمبادىء ذلك البرنس أكان يحضر بك الى بطرسبرج ويتكلف عناء الأسفار ؟

– وماذا كان يصنع بي في مثل هذه الحال ؟

– كان يزجك أولاً في سجن من سجون موسكو .

– وبعد ذلك ؟

– ينتظر أول مركبة تسير بالمجرمين الى سيبيريا فيوصلك معهم . ولكن بوليس موسكو لم يفعل شيئاً من هذا بل انه جاء بك الى هنا حيث أصبحت تعامل بملء الرعاية والإكرام خلافاً للمسجونين اليس كذلك ؟

– ذاك أكيد .

– وليس ينقصك شيء في السجن ؟

فابتسم ايفان وقال : ما عدا الخروج للنزهة في الشوارع العمومية .

– إني آذن لك بالتنزه إذا كنت تعود الى سجنك من تلقاء نفسك كل مساء وأن تتعهد لي بعدم الفرار .

– أتعهد .

– وأنا أرضى بتعهدك على ثلاثة شروط .

– قل شروطك .

– أولها انك لا تدخل الى السراي الامبراطورية ولا تطلب مقابلة أحد من رجال البلاط ولا تعرض أمرك على البوليس أو سواه من كبار الموظفين .

– رضيت بهذا الشرط فهات الثاني .

– والثاني انك لا تكتب عريضة الى الامبراطور .

ثم ضحك وقال : لا بد لي من أن أقول لك الحقيقة ، وهو أني مأمور بحجز عرائضك الى الامبراطور . ولهذا لم يصل إلى جلالته شيء من

عرائضك السابقة .

فظهر الاستياء على ملامح ايفان وقال :إذا كان الأمر كذلك فأنا لا أستطيع القبول بهذا الشرط .

فأجاب الحاكم ببرود . لك أن تختار بين أمرين إمـــا أن تمتثل لشروطي فتخرج من سجنك كل يوم الى حيث تشاء وتعود اليه في المساء وإما ان ترفضها فتبقى فيه سجيناً كما كنت .

فتمعن ايفان هنيهة وقال : قـد رضيت بشرطك هذا ، فـلا أكتب الى الامبراطور .

– إذاً إسمع شرطي الثالث .

– ها أنا مصغ .

– إنك لا بد ان تلتقي بكثير من أصحابك إذا خرجت من السجن فإن كان ذلك فلا يحق لك أن تخبرهم بأنك سجين .

– ولكن جميع ما تقوله يدل على أن في الأمر سراً لا يدرك .

– بل يدرك إذا عرفت أن تزيح النقـاب عنه ، فابحث وفتش عن المرأة كما يقال .

ثم انصرف الحاكم وغادره عرضة للاندهاش والاضطراب .

وبعد ذلك بساعة دخل اليه الجندي الذي يخدمه فأعطاه من قبـــل الحاكم محفظة ففتحها ووجد فيها بعض أوراق مالية وكتابة من الحاكم يدل على ان المال أرسل من الكونت بونتيف .

فزاد اندهال إيفان وقال : لا شك ان أبي في العاصمة .

ثم جعل يلبس ثيابه على عجل .

وكان ذلك الوقت ظهراً والجو صاف والشمس تسطع في قبة السماء ، فخرج ايفان من محبسه وتيقن أن الحاكم لم يهزأ به فإنه كلما بلغ باب حياه الجندي الذي يحرسه ولم يعترضه في خروجه .

ولما انتهى الى خارج القلعة ركب مركبة وقال لسائقها : سر بي إلى الجسر. وذلك لأن والد ايفان كان يقيم ضيفاً حين قدومه الى العاصمة في منزل الكونت كالوجين الكائن قرب ذلك الجسر .

وكان يفكر مدة سيره بكلام الحاكم وجمل يتمعن بما قاله وهو ان يفتش عن المرأة فلم يخطر في باله غير ابنة عمه فاسيليكا .

ولم يكن يخطر لايفان في بال أن يتهم أباه ، فحصر تهمته بالكونتس فاسيليكا ، وذلك لأنها كانت هائمة به وترغب في زواجه . ثم انها هي التي سعت دون شك في القبض عليه كي تبعده عن حبيبته مدلين فهاج غضبه هياج المجانين على تلك المرأة وقال للسائق : سر بي الى بوبورج . وهو شارع على ضفاف نهر نيفا .

وكانت تلك السيدة المثرية الحسناء تقيم في قصر لها في ذلك الشارع ، وهي التي أراد والد ايفان ان يزوجه بها طمعاً بثروتها ، وأبى ايفان زواجها لشغفه بمدلين .

وبعد ساعة وقفت المركبة أمام باب قصرها فنزل ايفان وهو يرغي ويزبد قائلا : سوف نرى أيتها المرأة .

- ١٩ -

كانت الكونتس فاسيليكا واسرتوف ارملة وهي في السادسة والعشرين من عمرها بارعة الجمال بيضاء كالزنبقة شقراء الشعر .

وكانت رشيقة القوام سوداء العينين حادة النظر تدل شفتها على احتقار ما يبدو لها وجميع ملامحها تشير الى إرادة ثابتة وقوة عقلية كما يدل تركيب جسمها على القوة البدنية .

وكانت واسعة الثروة وهي مطلقة التصرف في جميع أموالها وإنما شغفت بايفان لأنه قبل أن يعرف مدلين كان يتزلف منها ويتصبب اليها حتى وثقت من غرامه بها فهامت به وجعلت زواجه نصب عينيها ومحط آمالها .

ثم ان عائلتها وعائلة بونتيف كانت تربط بينهما صلات القربى وكانت تعلم أن زواجها بابن بونتيف ينقذ تلك العائلة من وهدة الخراب بعدما أصيبت به من الخسائر الفادحة .

وكان ايفان قد كتب اليها خمس مرات بعدما برح بطرسبرج ، فكانت رسائله الأولى تشف عن غرام أكيد ، ثم جعلت لهجتها تخف تباعاً وذلك بعد هيامه بمدلين .

غير ان فاسيليكا كانت تحسب انها محبوبة فكانت تتمادى في حبها . وقد كتبت الى والد ايفان تخبره انها توافق على الزواج بابنه .

أما ايفان فانه حين وصلت مركبته الى قصرها ، خرج منها خروج المجانين ودخل الى القصر مغضباً فاعترضه أحد الخدم وقال له : إن سيدتي منحرفة الصحة .

فلم يكترث له ايفان وقال : إني أريد أن أراها في الحال . ثم أبعد الخادم من طريقه ودخل .

وكانت فاسيليكا متمددة في مقعد شرقي مفروش عليه بساط من جلد النمر وحولها الزهور المختلفة النادرة لأنها كانت شديدة الولوع بالأزهار .

فلما رأت ايفان داخلاً اليها نهضت بتكاسل فمدت اليه يدها وقالت : أهذا أنت ؟ وحاولت ان تجلسه بقربها على المقعد .

غير ان ايفان كان مصفر الوجه تدل ملامحه على الاضطراب فقالت له: من أين أتيت أمن موسكو ومتى أتيت ؟

فهاج هذا السؤال غضب ايفان وكان قد استمر واقفاً فقال لها: إنك تعلمين أكثر مني .

فنظرت اليه بانذهال شديد كان يجب ان يقنعـــه ، ولكن الغضب والاضطراب أعميا بصيرته فقال بلهجة الغضب : إني مسجون منذ عشرة أيام بسعيك وبأمرك .

فزادت دهشتها وقالت : أأنت مسجون ؟

– نعم وقد قبض علي في موسكو منذ نصف شهر .

– ولكن لماذا قبض عليك ؟

فضحك ايفان ضحكاً عالياً بدت منــه علائم الهزء والاحتقار وقـــال : تسأليني أيضاً ؟

– أسألك دون شك .

فضرب الارض برجله مغضباً وقال : إن النساء خائنات ماكرات .

فوقع هذا الكلام على فاسيليكا وقع الصاعقة فنهضت كما تنهض الملكات حين الاهانة وأشارت بأصابعها الى الباب فقالت له : أخرج من هنا .

وعلم ايفان انه جرى شوطاً بعيداً فلفق بعض الاعذار ، غير ان الكونتس أعادت إشارتها وأدارت له ظهرها .

فلما رأى ايفان ان اعتذاره لم يقبل ، وانها مست كبرياءه عاد اليــــه الغضب فوقف في مكانه وقال : إني لا أخرج من منزلك قبل ان أقف منك على الحقيقة .

فنظرت اليه نظراً جامداً وقالت أية حقيقة تعني ؟

– أريد أن أعرف لماذا سعيت في سجني .

– أنا ؟

– نعم لان ذلك كان بأمرك

وكان يقول هذه الاقوال وهو يضطرب اضطراب الريشة في مهب الريح حتى خشيت أن يكون قد أصيب بالجنون فعادت الى محادثته بلطف قائلة : إصغ إلي وعد الى رشدك فلست أنت الذي يجب ان تسألني عن الحقيقة بل انا الذي ينبغي

ان أسألك فلقد قلت لي انهم قبضوا عليك في موسكو منذ ١٥ يوماً فقـــل لي الآن بأية حجة .

– إن اتخاذ الحجة للقبض علي سهل فقد انتحلوا لذلك أسباباً سياسية .

– إذا كان ذلك يا ابن عمي العزيز فثق اني لا شأن لي مع رجال البوليس ولا علاقة برئيسهم .

– ولكن اليس لك علاقة مع أبي ؟

– هذا لا ريب فيه لا سيا وانه قد دار بيننا مرة حديث زواج

فضاع صواب ايفان وقال : نعم فإنك لم تسع في القبض علي إلا لأني ارفض هذا الزواج .

ولما سمعت الكونتس هذه الإهانة فرغت جعبة صبرها فأخذت جرساً عن الطاولة وقرعته قرعاً شديداً فأسرع اليها وكيل قصرها ومعه اثنان من الخدم فقالت له أرشد المسيو دي بونتيف الى الباب .

ثم فتحت باب الغرفة فخرجت منها ، وقد تركت ايفان لا يعي لفرط اضطرابه .

وما لبث ايفان ان ذهبت فاسيليكا حتى ذهب غضبه وعلم انه أهان ابنة عمه إهانة لا تغتفر فأخذ عصاه وقبعته من يد الوكيل وخرج الى المركبة التي كانت تنتظره فقال للسائق عد بي الى القلعة .

وجعل ايفان يفكر أثناء سيره فيا فعل ، وقنع لمـا رآه من فاسيليكا انها كانت تقول الحق فعقب الغضب السكينة ، وتلا السكينة الإمعان المرتب . فعلم انه أتى منكراً لا يأتيـه سواه ، وانه قد تجرأ على الكونتس جرأة نادرة .

فلما دخل الى سجنه طلب مقابلة الحاكم فقيل له انه خرج . فكتب الى الكونتس فاسيليكا كتاباً طويلاً اعتذر فيه عن إساءته . ثم بسط لها الأسباب التي حملته على تصرفه المنكر ، وباح لها بغرامه بدلاً بسلامة تدعو الى الرأفة

به ، ثم التمس منها في ختام كتابه أن تسعى في سبيل إطلاق سراحه وأرسل الكتاب اليها .

فما مرت ساعة حتى ورد منها الكتاب الآتي :

« يا ابن عمي العزيز

« ما زلت أحسبك مجنوناً بعد انصرافك من منزلي ، حتى ورد إلي بريد موسكو يثبت جميع ما قلته لي في كتابك. وعلى ذلك فقد وثقت بجميع أقوالك وجميع ما كتبته لي عن شغفك بالآنسة مدلين فأسرع يا ابن عمي العزيز إلى اللحاق بهذه الحسناء .

« ولأجل ذلك أرجو ان تقبل نصحي وأن تثق بكلامي ، فان حبيبتك مدلين ليست في موسكو ، فلا يجب ان تبحث عنها في تلك البلاد ، لأن أباك الذي كان يطمع أن يسترد أملاكه المفقودة ، بما كنت سأحمله اليك من المهر ، أرسل تلك الفتاة الى فرنسا . إذن يجب أن تذهب اليها في بلادها .

« وأنت تعلم يا ابن عمي العزيز اني أحترم القربى ، وإني أود خدمة أهلي بكل ما استطعته . ولما كنت عالمة بأحوال أبيك الحاضرة ، وانه لا يستطيع أن يعطيك ما تحتاج اليه من النفقات في هذه الرحلة ، فقد أرسلت اليك في طي هذا الكتاب حوالة على البنك الألماني بخمسين الف ريال ، وحوالة أخرى على بنك روتشيلد في باريس ، وبالقيمة نفسها . وإنما أرسلت اليك هذا المال على سبيل الإعارة ، وأنا أرجو لك ولمن تهواها كل خير » .

« فاسيليكا واسرنوف »

(حاشية) : « لقد نسيت انك سجين وسأكتب الى شقيقي ، وهو من أركان حرب جلالة الامبراطور فيسعى في إطلاق سراحك في الحال . أما أنا فإني سأبرح بطرسبرج بعد انتهاء هذا الكتاب لأتجول في أراضيّ . »

فلما أتم ايفان تلاوة الكتاب دهش دهشاً عظيماً وقال : ما هذه المرأة انها ملك كريم ، فقد أحسنت إلي غاية الإحسان بعد أن أساءت اليهـــا كل الإساءة .

وبعد حين استدعاه الحاكم فقال له : لقد صدر إلي الأمر باطلاق سراحك إنما يشترط عليك ان تبرح العاصمة هذه الليلةوان رئيس البوليس قد أرسل اليك جواز سفر بحيث يمكنك ان تسافر مدة عامين .

فشكره ايفان وخرج . ولما برح القلعة لقي رجلاً بملابس السفر دنا منه فحياه وقال له باللغة الفرنسية : إني يا سيدي خـادم الكونتس فاسيليكا ، وقد رحلت رحلات كثيرة وأتقنت الكلام بمعظم اللغات الأوروبية . وقد رأت سيدتي الكونتس اني قد أكون نافعاً لخدمتك في سفرك ، إذا تنازلت الى قبول خدمتي والسفر في هـذه المركبة التي أرسلتها اليك سيـدتي ، على سبيل التذكار .

فسر ايفان بما أظهرته فاسيليكا من العواطف الكريمة وقال: إني أقبل هديتها شاكراً ممتناً وأقبل خدمتك أيضاً .

فابتسم الخادم إبتسامة سرية وصعد في العربة الى مكان السائق وصعد ايفان في المركبة فسارت به وهو لا يعلم ان انتقام فاسيليكا يسير معه .

وواصل ايفان سفره هذا الليـــل والنهار . وهو لا رفيق له إلا خادم الكونتس فاسيليكا .

وكان هذا الرجل إيطالي الأصـل ، ولكنه كان يتكلم بجميع اللغـات الأوروبية وقد طاف جميع البلاد . فكان يعرف جميع الفنادق وطرق السرعة في السفر . وهو ما كان يتمناه ايفان لأنه كان يود لو كان له أجنحة ليطير الى من يحب .

فكان يعطي النقود بسخاء كي لا يعيقه شيء عن قصده . وانه خشي أن يدركه أبوه قبل وصوله فيتمكن من القبض عليه وإرجاعه عن قصده !! له

من النفوذ .

ولبث ثمانية أيام يسير مع هذا الأيطالي ، حتى وصل إلى ولاية لأبيه فيها أراض وا سعة ، ولكنها كانت مرهونـــة . فلم يكن يأسف عندما يرى تلك الثروة المتسعة آخـذة بالخروج من يده ، لانـه لم يكن يفكر إلا بحبيبته مدلين .

وقد خطر له ان يمر بوكيلهم نقولا ارسوف عساه يقبض منه شيئاً لعلمه ان زمن الجباية قد حان فأمر السائق ان يسير به الى بترهوف كي يغير الجياد في محطتها ويذهب منها إلى قصر ذلك الوكيل التتري .

فلما وصل إلى تلك المحطة دخل الى غرفة وكيلها كي يصطلي بنار مستوقدها إلى أن يفرغو من إعداد الجياد .

وكان في هذه الغرفة المتسعة كثيرون من المصطلين يتدفئون حول المستوقد ، فيتحدثون ويتسامرون ، وقد استرعى أسماعهم حديث سائق فانضم ايفان اليهم وجعل يسمع معهم حديث هذا السائق الغريب فسمعه يقول ما يأتي :

— إن البرنس ماروبولزف من أغنى أغنياء البلاد الروسية وان جميع المجاورين من الاغنياء أصحاب الاملاك الواسعة يحسبون بالنسبة اليه فقراء فإن لديه في أراضيه مئة الف فلاح وله مناجم تستخرج منها الفضة في جبـــال اورال فهو يستطيع عند الاقتضاء ان يجهز فرقة على نفقاته وهو على هذه الثروة الواسعة لا يتجاوز الثلاثين من عمره وله في الصيد ولع شديد .

وقد صحب الامبراطور اسكندر مرة الى صيد الدب حين كان ولياً للعهد ولكنه لا يوجد دبب في هذه الاقاليم التي يقيم فيها الآن غير ذئاب كثيرة ، كما تعلمون ولعه في اقتناص الذئاب والمخاطرة في صيدهـــا لا يحيط به وصف فإنه ما كانت تتوارى الشمس في الحجاب ويسدل الظلام نقابه حتى يبرح قصره الفخيم على ضفاف البريزينا ، ويذهب الى الشمال أي الى جهات

موسكو ، يصحبه ٧ أو ٨ من أصدقائه في العاصمة ، فيركبون مركبة تجرها جياد لا يرى أشد منها . فيدفعها بسوطه وصوته فتندفع فوق الجليد اندفاع السيل .

ويكون خادم جالساً في مؤخرة العربة يحمل جدياً صغيراً فمتى توقفت المركبة في الغابات جعل الخادم يشد اذن الجدي فيصيح وتسارع الذئاب عند سماع صوته فيطلق البرنس وأصحابه النار عليها دون انقطاع ويلبثون على ذلك الى ان يشرق الصباح فيرون جثث الذئاب جامدة على الثلج وهي أعظم ملذات هذا الامير ، فإنه عندما تشرق الشمس في الغابات ترجع الذئاب إلى أوكارها ، فترجع مركبة البرنس في الطريق التي قدمت منها ، والخدم يلتقطون الذئاب المقتولة . فإذا بلغوا بها القصر نزعوا جلودها وحفظوها فيه .

وقد اتفق اول أمس مساء ان البرنس أمر رجاله ان يشدوا المركبة وقد خطر له صيد الذئاب وعند غياب الشمس خرجت المركبة به وبأصحابه وجلس خادم في مؤخرة المركبة وبيده الجدي وجلس آخر بقربه وقد تكدست أمامه البنادق والذخيرة فكلما فرغت بندقية حشاها .

وتابع السائق : وكنت أنا الذي أسوق تلك المركبة ، فلما انسدل الظلام ودخلنا في الغاب صهلت الجياد وهجمت الذئاب ، فأطلق البرنس وأصحابه النار فكانت الذئاب تسقط فرادى وأزواجاً والمركبة سائرة في سيرها الحثيث . فما مرت ساعة حتى قتل من الذئاب مقدار كبير .

ثم خرجنا من الغابة الى سهل منيع ولكن الذئاب بقيت تطاردنا .

فما توغلنا في ذلك السهل حتى سمعنا صوت إطلاق النار . فاستاء البرنس وقال : من هذا الذي يتجاسر ويصطاد في أرضي ، في نفس اليوم الذي أصطاد أنا فيه ؟

ثم أمرني أن أسرع الى الجهة التي خرج منها الصوت ، فدفعت الجياد

دفع التيار .

وبعد هنيهة سمعت البرنس يأمرني ويقول : أسرع ما استطعت لاني أرى رجلاً في خطر الموت وهو عرضة لانياب الذئاب .

فامتثلت ثم سطع ضوء القمر على نحو ثلاثين ذئباً يأكلون ذئبين ورأيت على مسافة عشر خطوات منها رجلاً واقفاً من غير حراك وبيديه مسدسان فرغ رصاصها دون شك .

فلما اقتربت المركبة من الذئاب لم تحفـل بها ، ولبثت تنهش الذئبين القتيلين بأنيابها . غير اني رأيت ثلاثة ذئاب منها هجمت على ذاك الرجل ولم تبعد عنه غير مئة متر ، فسمعنا صياحاً شديداً ، ثم رأينا أحد هـذه الذئاب قد سقط على الارض ، وذلك ان الرجل صدعه بجديد مسدسه فهجم عليه ذئب آخر وتعلق في عنقه ، وعند ذلك أطلق الرئيس بندقيته فسقط الذئب وسقط الرجل .

ثم رأينا الرجل قد نهض ، فعلمنا ان الرصاصة قد أصابت الذئب دونه ، فهجمت الذئـاب عند ذلك بجملتها على ذلك الرجل . ولكن المركبة قد بلغت اليهـا لحسن حظه ، فصلاها البرنس وأصحابه نيرانـاً حاميـة ، وعقد دخـان بارود البنادق ضباباً كثيفاً فوق الذئـاب ، وفوق الرجل .

ولما انقشع هذا الضباب رأينا الرجل لا يزال واقفاً وكان دامي الجسد ، ساهي الطرف يوشك ان يجن من يأسه فرمى اليه البرنس في الحال حبلاً مسك طرفه الآخر فتعلق به الى المركبة وهي تجري فسلم المسكين من الموت ولكنه لم يسلم من الجنون .

ووقف السائق في حكايته عند هذا الحد فاضطرب ايفان لهذه الحكاية وسأله : من هو هذا الرجل ؟

– لم أعرف اسمه وكل ما عرفته عنه انه فرنسي .

وكان رئيس المحطة واقفاً فدنا من ايفان وقال : أنا أعرفه

– ٢٠ –

فنظر ايفان الى وكيل المحطة وسأله : ماذا تعرف من أمر هذا الرجل؟

– أعرف انه فرنسي من النبلاء وانه كان مسافراً مع رجل الماني فمرا من هنا منذ ستة أيام وكانا ذاهبين الى قصر الكونت بونتيف الى لفروا أتعرف هذا الكونت يا سيدي ؟

– كيف لا أعرفه وهو أبي .

فحياه الوكيل باحترام وذهب به الى الغرفة وقال له : أحقيقة يا سيدي انك ابن الكونت بونتيف ؟

– دون شك .

– وأنت ذاهب الآن الى قصر أبيك في لفروا ؟

– نعم .

– إذاً قد علمت بما جرى فيه حديثاً .

فدهش ايفان وسأله : ماذا جرى ؟

– إن وكيلك قد مات .

– نقولا أرسوف ؟

– نعم .

فذعر ايفان لهذا الخبر لانه كان يرجو أن يقبض مالاً من وكيله وسأله : كيف مات ؟

– مات محصوراً بالجليد وقد قتلته تلك المرأة الشقراء .

- ماذا تقول وعن أية امرأة تتكلم ؟
- إني لا أعني بها تلك الآنسة الحسناء التي اختطفها الفرنسي ، بل المرأة الاخرى .

فزاد ذهول ايفان وقال : إني لا أفهم شيئاً من هذه الالغاز .

- سأوضح لك هذه الالغاز مبتدئاً من البدء كما يقولون. وذلك انه منذ ستة أيام عند هجوم الليل مر بهذه المحطة ذلك الرجل النبيل الفرنسي الذي قلت لك عنه وطلب إلي ان يغير جياد مركبته في الحال فإنه كان عازماً على مواصلة السفر بالرغم عن اشتداد البرد .

فأعطيته الجياد وسافر ولم يوشك ان يتوغل في الغابة حتى طلعت عليه الذئاب فأطلق عليها النار كما يفعل البرنس مارزوبولوف ، وقد تمكن من إنقاذ فتاة كادت تفترسها الذئاب لولا إسراعه اليها وهي فتاة لم أر أجمل منها وقد ظهر لي انها فرنسية .

- أهي شقراء الشعر ؟
- نعم .
واضطرب إيفان وسأله : أتعرف أسمها ؟
- أتذكر اني سمعت الرجل الفرنسي يدعوها مدلين .

وصاح إيفان صيحة شديدة وقال : أعرفت من أين كانت قادمة ؟
- نعم إنها كانت قادمة من موسكو إلى فندق ساوا ويظهر ان الخادم الذي كان يصحبها في رحلتها أراد الاعتداء عليها في ذلك الفندق ثم أخذ يعاملها معاملة وحشية .
فاصفر وجه إيفان من الخوف وسأله : وبعد ذلك ؟ أسرع بالاجابة .
- وبعد ذلك تمكنت تلك الفتاة الطاهرة من الفرار ولحسن حظها سقطت منهوكة القوى على الجليد واتفق مرور ذلك الفرنسي فأنقذها .

وفي اليوم التالي عاد الثلاثة فمروا بهذه المحطة وهم الفرنسي والالماني والفتاة

وذهبوا إلى قصركم في لفروا .

وزال عند ذلك كل ريب من فؤاد إيفان وأيقن أن هذه الفتاة الفرنسية التي نكبت هذه النكبات هي مدلين نفسها وان أباه بونتيف أرسلها دون شك إلى وكيله نقولا أرسوف كي يرسلها إلى المانيا ولكنه عاد إلى وكيل المحطة وسأله : وماذا جرى بعد ذلك ؟

– بعد أن سافر الفرنسي وأخبرنا كيف انقذ الفتاة مر بهذه المحطه في أثره وكيلك نقولا أرسوف وكان عائداً من ستيديانكا حيث كان يجلد فيها أحد الفلاحين وكان يصحب معه رجلا المانياً وامرأة .

ويظهر ان نقولا أرسوف قد شغف بها فإنه كان ينظر اليها نظرة تشف عن غرامه ، ولا أعلم ما حدث في قصركم منذ خمسة أيام ولكن الذي أعلمه ان الرجل الالماني والمرأة الشقراء والفتاة الفرنسية قد مروا بهذه المحطة صباح أمس وهم ذاهبون إلى الحدود الالمانية ، وبعد سفرهم بساعة جاء أحد الفلاحين وأخبرنا ان وكيلكم نقولا أرسوف وجد في بركة فيحديقة القصر محصور بالجليد إلى عنقه وهو ميت فسافر رجال الشرطة في الحال ولا بد أن يكونوا الآن عندكم يحققون .

فلم يكترث إيفان لموت وكيله بل قال له : وهي ماذا حدث لها ؟

– لقد قلت لك يا سيدي إنها مرت بهذه المحطة أمس مع الالماني وامرأته ويظهر انها غير خائفة بل انها كانت تبتسم .

وارتاح فؤاد إيفان وتنهد تنهد المنفرج بعد ضيق فقال له ناظر المحطة : انه لا بد لك يا سيدي من الذهاب إلى القصر فان كل شيء قد انقلب فيه بعد موت الوكيل ، ويحسن بك بعد ذلك أن تعرج في طريقك على فندق ساوا .

– لماذا ؟

– لأن ذلك الخادم الذي حاول الاساءة إلى مدلين لا يزال جريحاً في ذلك

الفندق فاذا لقيته وقفت منه على الحقيقة بتفاصيلها .

فاتقدت عينا إيفان بشرر الغيظ وقال : لقد أذكرتني هذا الشقي وكنت قد نسيته وسأجعله عبرة لأمثاله .

وعند ذلك دخل الخادم الايطالي الذي يصحبه إيفان في رحلته وقال له : إن الجياد شدت إلى المركبة وهي على أهبة السفر .

ووقف إيقاف وقفة المتردد وذلك انه بات واثقاً الآن كل الثقة ان حبيبته مدلين التي يسافر للبحث عنها قد سافرت إلى الحدود الالمانية وهي ستسير منها إلى فرنسا ، إذن لا بد له من اللحاق بها وماذا يهمه موت نقولا أرسوف لأن الاهتمام به من شؤون أبيه ثم ماذا يهمه ما طرأ بعد موته من الحوادث بعد أن عرف الطريق التي سارت بها مدلين .

غير انه تذكر ان ذلك الخادم الذي كان يصحب حبيبته قد تجاسر برفع نظره اليها فهاجت في فؤاده عوامل الانتقام .

ثم قال في نفسه من هو هذا الرجل الذي يذكرون مرة انه سائق ويقولون عنه مرة انه خادم أرسله أبي مع مدلين ألا يمكن أن يكون أبي علة هذه الموبقات وسبب هذه النكبات التي أصابت مدلين ؟

ولما دار في خاطره ذلك الخاطر قال : لا بد لي من أن أرى هذا الرجل .

ثم التفت إلى وكيل المحطة وسأله أأنت واثق ان هذا الرجل لا يزال في الفندق ؟

— نعم ..

ولم يشأ إيفان أن يعلم اكثر مما علم وخرج يتبعه الايطالي فركب المركبة وأمر السائق أن يسير به إلى فندق ساوا .

وبعد ساعتين وقفت المركبة عند باب الفندق وكانت السكينة تكتنفه ولا يسمع في جوانبه غير حفيف الأشجار ويجاوب ذلك الطير الذي لقب الفندق باسمه وكان كل شيء حوله يدل على انه غير مأهول .

ولكنه كان لا يزال يوجد فيه ثلاثة أشخاص : وهم تلك المرأة العجوز التي شربت المخدر وتلك الداهية الشمطاء صاحبة الفندق وذلك الخادم السافل الذي كان يصحب مدلين .

وكانت العجوز تبكي كلبها الذي شاركها في شرب المخدر فمات ، وبطرس السائق يعالج جراحه ويأسف لافلات مدلين من يده وصاحبة الفندق تتوقع فرصة جديدة واثماً جديداً تبلغ به خير أمانيها من الكسب الشائن .

ودخل إيفان وكان أول من رآه رجلاً نائماً على مقعد بادية في وجهه علائم التألم وهو بملابس الفلاحين الروسيين .

غير ان ايفان عرفه في الحال فانقض على عنقه انقضاض العقاب وقال له : أيها الشقي ماذا فعلت بمدلين اني سأقتلك شر قتل ولكني أريد قبل ذلك أن تعلم اني أنا إيفان دي بونتيف .

ولم يكن بطرس يعرف إيفان لأنه لم يكن رآه من قبل فاصفر وجهه وارتعدت فرائصه وسقط جالساً على ركبتيه ثم ضم يديه مستعطفاً وقال له بلهجة المتوسل : رحماك لا تقتلني فاني لم أكن غير آلة بيد أبيك.

فأحدث هذا التصريح رد فعل لا يوصف في نفس ايفان وقد زال غضبه وجعل ينظر الى ذلك الرجل المضطرب أمامه لضعفه وخوفه وقال له : تكلم اني أريد أن أعرف كل شيء .

وكان بريتو الخادم الايطالي قد دخل مع ايفان فانذهل انذهالاً شديداً حين سمع صوت بطرس يتكلم لما رآه من التشابه بين الصوتين خلافاً لايفان فقد كان منشغلاً بما فيه عن الانتباه إلى هذا التشابه الغريب

- ٢١ -

لا بد لنا قبل التوغل في الحديث من أن نبين حقيقة ما رواه السائس على البرنس مارسوبولف في محطة بترهوف .

لقد صدق في ما قاله عن ذهاب هذا البرنس إلى الصيد مع أربعة من أصحابه ، وصدق في قوله ان البرنس أنقذ الرجل الفرنسي بحبل رماه اليه فاجتذبه والمركبة سائرة .

غير ان الذي اخطأ به السائق هو ما توهمه من جنون هذا الفرنسي وهو الفيكونت كارل دي موروليكس كما لا بد ان يكون قد تبادر الى ذهن القراء.

وحكايته ان روكامبول حين القاه الى الذئاب ورمى اليه مسدسه لم يكن يريد بذلك ان يعد له وسيلة للنجاة فان السلاح مع الذئاب يكون أدعى إلى قتله ، بل انه اراد ان يعد له موتاً هائلاً يعادله ذنوبه العظيمة .

ولكن كان يقول في نفسه : انه إذا قدر له أن ينجو بعجيبة من أنياب الذئاب لا بد له أن يعود الى باريس فأعاقبه عقاباً هائلاً لا يخطر في بال انسان .

وكان كارل قد تعلق بالمركبة كما تقدم فاستمرت المركبة على سيرها الحثيث تجنباً للخطر الشديد الذي كان محدقاً بها .

وذلك لأنه ما زالت المركبة تجري لاتجسر الذئاب على مهاجمتها بل تطاردها مقتفية أثرها فاذا قتل واحد منها توقفت هنيهة الى ان تأكله ثم تعود الى ما كانت عليه من مطاردة المركبة .

والويل لركابها اذا وقفت بهم والذئاب تطاردها فانها تهجم عليهم وتمزقهم كل ممزق مهما بلغ من بسالتهم وعددهم وذخيرتهم .

ولذلك كانت حياة اولئك الصيادين موقوفة على الجياد والسائق فكان البرنس يختار اشهر الجياد وأمهر السواق لهذا الغرض .

ولما أنقذوا الفيكونت كارل وضعوه في المركبة بينهم ولكنهم لم يكونوا يستطيعون العناية به لاهتمامهم بالذئاب وإطلاق النار المتواصل عليها .

أما كارل فقد كانت ثيابه ممزقة ملوثة بالدماء فان بعض تلك الذئاب نهشت ذراعه ويده ، وكان الدم يتدفق منهما وكان وجهه مصفراً يشبه لون الأموات وعيناه ساهيتان ولم يكن يفرق في شيء من المجانين .

وكان أول من تنبه له أحد أصحاب البرنس فإنه نظر الى ملابسه ورأى انها غير ملابس الفلاحين وانها تدل على ان لابسها من النبلاء .

ودنا منه وسأله باللغة الروسية : من أنت ؟

وأجابه كارل : انني فرنسي ..

ثم سقط في المركبة لضعفه وقد سحق الخوف واليأس قوته وظلت المركبة تجري .

وكان القمر قد توارى في السحاب وغارت النجوم في سمائها وبدت أشعة الفجر وخرجت المركبة من مواقف الخطر بعد أن اجتازت تلك الغابة الكثيفة وبعدت بعداً شاسعاً عن نهر البريزينا وعن قصر البرنس وهبت الذئاب عند طلوع الصباح ووصلت المركبة الى المحطة .

وأمر البرنس السائق أن يعود بالمركبة الى القصر وقال لأصحابه : إننا لا نبعد الآن غير ستة فراسخ عن قصر صديقي الكونت كوروف فهلم بنا نتغدى عنده فإنه من أحب الناس الي .

وتلقت الجماعة هذا الاقتراح بالقبول والاستحسان وقال واحد منهم : لقد نسيتم أيها الرفاق انه يجب علينا الاهتمام بهذا المنكود الذي أنقذناه من أنياب الوحوش .

ونظر البرنس الى كارل فوجده نائماً في المركبة وهو لا يتحرك كأنما قد فاجأه الموت .

وكانت أشعة الشمس قد أنارت الفتاة فجعل البرنس يتأمل وجه كارل ويقول : ما هذه الهيئة إنها لا تشبه وجوه الروس في شيء ؟

فأجابه رفيق : انه فرنسي .

ورد آخر : يظهر انه من النبلاء فإن آثار ملابسه تدل على إنه من كبار القوم .

وقال ثالث : هوذا حقيبة معلقة في وسطه ولا بد ان يكون فيها ما يدل على منزلته .

وكانت هذه الحقيبة محشوة بالأوراق المالية وقد بالغ كارل بالحرص عليها حتى انه شدها الى وسطه حذراً عليها من الضياع .

ثم انهم رأوا في خنصره خاتماً من الماس ففحصه البرنس وقال : يظهر اننا قد انقذنا رجلا من كبار النبلاء أو هو من وجهاء قومه على الأقل .

فأجابه صديقه ولكن كيف اتفق وجوده وحيداً في المكان المخيف الذي وجدناه فيه .

ورد البرنس : إن ذلك سر من الأسرار الغامضة لا نستطيع ان نعلمه إلا من فمه إذا قدر له أن يستفيق فإني أرى عليه علائم الموت .

وأجاب آخر : وهبه استفاق فلا بد ان يكون ذهب الذعر بصوابه فإني رأيت عليه علائم الجنون .

وعند ذلك تحرك كارل ولكنه لم يفتح عينيه فغطوه بما لديهم من الفرو وقاية له من البرد ثم تركوه وشأنه الى أن يستفيق وجعلوا يتحدثون بحوادث العاصمة وملذات الشتاء .

أما كارل دي موررليكس فإنه لم يكن نائماً ولم ينم منذ انقاذه وكان قد أصيب بذهول شديد بعد نجاته من ذلك الموقف الرهيب حتى أوشك عقله ان

يذهب ولكن هذا الذهول لم يطل فإنه ما لبث أن وثق من النجاة حتى جعل صوابه يعود اليه تباعاً فنفض عنه غبار الجنون كما نفض غبار الموت .

ولكنه كان يتظاهر بالنوم كي يتسنى له أن يفتكر كما يريد وينظر في أمره وما صار اليه ويضع الخطة اللازمة للمستقبل .

وكان أول ما خطر في باله روكامبول فتمثل في خاطره بشكل هائل يحمل الرعب وذكر في الحال ما كان يجده من اضطراب تيميلون عند ذكره ومخاوفه من هذا العدو الشديد .

ولم يكن في حاجة إلى الامعان الكثير كي يذكر حالته وما مضى ومـــا سوف يكون فلقد أيقن ان روكامبول لا بد له من أن يعود إلى ليفروا لانقاذ فـــاندا من قبضة التتري ، وانه أي الفيكونت كارل بينما هو نائم في تلك المركبة ، لا بد أن يكون روكامبول سائر في مركبة أخرى مع مدلين إلى فرنسا .

ولكنه كان إذا افتكر بأن مدلين أفلتت من يده يلتهب من غيظه غير انه لم يقنط من الفوز النهائي وقال في نفسه : انه مهما بلغ من الخذالي مع هذا الداهية روكامبول فقد يبقى لي أرجحية عظيمة عليه وهي اعتقاده اني من المائتين فمتى عدت إلى فرنسا حاربته متنكراً وصببت عليه الويل وهو لا يعلم من أين تأتيه هذه الكوارث .

وبينما كان كارل يناجي نفسه بمثل هذه الأماني كان البرنس وأصحابـه يتحدثون وكان البرنس يحدثهم عن صديقه الكونت كوروف فيقول : إنه خير رجل عرفته بدماثة الأخلاق ولين الطباع فإنه رجل رحلات كثيرة وأقام في باريس زمناً طويلاً فاكتسب لين أهلها وظرف آدابها وهو فوق ذلك ميال إلى الآداب ولا يحيط به غير الكتاب والشعراء والمصورين والممثلين وكل من شغف بفن جميل .

فسأله أحد الحضور : ألعلك لم تره منذ عهد بعيد ؟

ـ منذ ستة أشهر .
ـ إذن سيبدو لك بشكل لم تعهده فيه من قبل .
ـ كيف ذلك العله أصيب بمكروه؟
ـ انه بات منقبض الصدر حزين الفؤاد تبدو عليه آثار الكآبة فلا تفرح نفسه بشيء .
ـ لماذا وكيف انقلب هذا الانقلاب ؟
ـ لأن قلبه كان خالياً من الهوى فتمكن الغرام منه كل تمكن .
إنك تدهشني فيما تقول ومن عسى تكون الفتاة التي شغف بها ؟
ـ إنه يهوى إمرأة لا تهواه وهي الكونتس فاسيليكا .
ـ أهي مدام وأسرنوف الحسناء ؟
ـ هي بعينها .
ـ ولماذا لا تريد الزواج به العلها لا تزال طامعة بزواج ابن عمها إيفان دي بونتيف ؟
ـ إنها لا ترضى سواه على فقره .
ـ اني أشفق على هذا الشاب فإنه سوف يجد عناء شديداً مع هذه الكونتس فقد عرفت أخلاقها وهي تشبه الفرس الجموح .
وأجاب آخر : إن إيفان لا يستطيع ترويض هذا الفرس .
ولما سمع كارل اسم إيفان ، اضطرب وانتبه انتباهاً شديداً لما يجري من الحديث .

وعاد البرنس إلى افتتاح الحديث فقال :أحق ما تقوله ان الكونت كولوف أصبح على هذه الحال ؟

– هي الحقيقة فقد تدله بغرامه .

– إذن قد اخطأنا بما عزمنا عليه من الذهاب لزيارته إذ لا يروق له وهو في هذه الحال أن يرى انيساً ولا أحب له من الاختلاء ومناجاة من يحب .

– وأنا أرى عكس ما تراه فانه سوف يتعزى بقربنا عما هو فيه وربما باح لنا بغرامه فآسيناه .

وعند ذلك تحرك كارل فقـال البرنس : هوذا الرجل قد استفاق فلننظر في مسألته .

وكان كارل قد فتح عينيه ونظر إلى حواليه نظراً حائراً وهو يتكلف الانذهال والدهشة ، ثم نظر الى الأشخاص المحدقين به وقال : أين أنا ؟

فاجابه البرنس باللغة الفرنسوية : انك عندنا في محل أمين بعيد عن انيـاب الذئاب فوقف كارل عند ذلك وتكلف هيئة الذعر وقال· نعم نعم فقد ذكرت كل شيء الآن .

فحياه البرنس التحية المألوفـة في القاعات الكبرى وقال له : اني اهنئك بنجاتك .

فرد كارل التحية باحسن منها وقال : لا بد لي أيها السادة قبل أن اشكركم عما احسنتم به إلي من انقاذي من الوحوش الضارية ان استأذنكم واتشرف بذكر اسمي لكم فاني ادعى الفيكونت كارل دي مورليكس من اشراف الفرنسيين .

فانحنى الجميع امامه باحترام وجعل كل منهم يذكر اسمه وألقابه .

فلما تم التعارف حسب العادات المتبعة سأله البرنس : أتؤلمك كثيراً هذه الجراح التي اصابتك بها الذئاب ؟

– كلا ، فانها قد خدشتني ولولا ثخانـة ملابسي لكانت افترستني قبل ان تتمكنوا من انقاذي فقد كنت في معترك شديد .

– أتأذن لي يا سيدي ان اسألك كيف اتفق وجودك فرداً في ذلك المكان الهائل الذي وجدناك فيه ؟

– انني كنت عائداً من موسكو إذ كنت فيها لقضاء بعض اشغال خصوصية وكنت راكباً في المركبة مع خادم غرفتي الذي كان جالساً بازاء السائق وقد طال بنا السير فنمت ثم استفقت مرعوباً وقد سمعت صراخاً مزعجاً وشعرت ان المركبة تسير بسرعة فائقة الحد .

فحسبت اننا معرضون لخطر السقوط في هوة من الجليـد او ان الخيل قد جمحت فاسرعت في الحال ووثبت من المركبة بغية النجاة دون ان يشعر بي السائق وخادمي الجالس بجانبه .

اما الصراخ الذي كنت سمعته واسراع المركبة بالسير فلم يكونا ناجمين عما توهمته من خطر السقوط في هوة او جموح الجيـاد بل كانا لخطر مخيف وهو ان الجياد رأت عصابات الذئاب فتراكضت مذعورة تجر المركبة بسرعة البرق واما أنا فقد سقطت بين الذئاب واستمرت المركبة في سيرها دون ان يشعر سائقها بسقوطي ويسمع ندائي .

وكانت حكاية كارل على تلفيقها ظاهراً الصدق فيها لا يستطيع أحد ان يحملها على شيء من محامل الريب .

واغتنم كارل تلك الفرصة فجعل يحدث الجماعة بارق الأحاديث ويظهر من لطف آدابه وحسن تخريجه ورقة عشرته ما يدهش الحاضرين حتى شغف البرنس بحديثه وقال له : اني ارجوك يا سيدي الفيكونت ان تأذن لي بدعوتك إلى قصري فتقيم فيه اسبوعاً قبل عودتك إلى فرنسا .

فانحنى كارل اشارة إلى الشكر والقبول وأتم البرنس حديثه سنذهب سوية قبل ذلك لزيارة صديقي الكونت كورولوف في قصره القريب من هنا وهو كائن بين الأشجار الملتفة التي تراها .

وأشار البرنس بيده الى مكانها فرأى كارل قصراً عظيماً أبيض بجدران عالية تحدق به الأشجار من كل جانب .

وبعد ساعة دخلت مركبة البرنس في ردهة ذلك القصر يحف به الفيكونت دي مورلينكس وبقية اصحابه فاسرع الكونت كارولوف الى ملاقاة ضيوفه .

وقد اندهش أصحاب البرنس حين رأوا هذا الكونت على غير ما كانوا يتوقعونه من انقباضه وانكماش نفسه مما ذكروه عن غرامه فإنه كان باسم الثغر طلق المحيا ولا أثر في وجهه للحزن والكآبة .

وبعد أن نزلوا جميعهم من المركبة وجلسوا هنية يتحادثون ودخلوا إلى قاعة الطعام .

وفيما هم يأكلون ويتنادمون قال البرنس لصديقه الكونت أرجوك أن تقبل تهنئتي .

– بماذا ؟

– لأني أراك قد تعافيت وشفيت .

فأجابه منذهلا كيف اني شفيت ومتى كنت مريضاً ؟

– لقد قيل لنا انك كنت مريضاً بداء الغرام .

– هل اتصل بك ذلك أيضاً ؟

– نعم وهل مثل غرامك المبرح يخفى على أحد من أصدقائك ؟

– إذن إعلم إذا كنت لم أتنصل تماماً من هذا الداء فإنه معي على طريق الشفاء .

– العلك رجعت عن حب الكونتس فاسيليكا ؟

– كلا ، بل ان حبي لها قد استحال إلى عبادة .

– إذن كيف تقول انك آخذ بالشفاء ؟

- ذلك لأنه قد ترجح زواجي بها بعد شهرين .

– وإيفان ؟

فضحك الكونت وأجاب . ان رأيي في النساء هو ان كل من يجسر على القول بأنه يعرف قلب المراة فهو أبله لا محالة

فوافقه البرنس على الضحك وقال له : وأنا من رأيك أيضاً فإن النساء صناديق مقفلة .

– إن الكونتس فاسيليكا قد غادرتني حليف اليأس في العام الماضي ، فإذا شكوت لها غرامي هزأت بي وإذا بكيت أمامها ضحكت علي .

وقد قلت لها يوماً انك بالغت في الجور علي فإذا قتلت نفسي فماذا تصنعين ؟ فضحكت وقالت : لا أعلم ولكني أؤكد لك اني لا انتحر .

فتركتها وتركت بطرسبرج لأجلها وجئت إلى هنا واليأس ملء قلبي وكنت عازماً عزماً اكيداً على الانتحار .

ولكن وردني منها خطاب منذ يومين .

فصاح البرنس يقول : كتاب من الكونتس ؟

- نعم فإن الغيم يعقبه الشتاء والظلمة يجيء في أثرها النور ولا بد للازمة متى اشتدت من الانفراج .

ثم فك ازرار سترته وأخرج من جيبه كتاباًوقال للحاضرين: اسمعوا سأقرأ لكم هذا الكتاب .

وأصغى اليه الحاضرون كل الاصغاء وقرأ لهم ما يأتي :

« أيها الكونت العزيز .

« لا بد أن تكون قد أخطأت في حكمك علي فإذا كان ذلك فإن الحيف واقع عليك ، وإذا كان لا يزال في قلبك شيء من الأمل فقد يكون ذلك لخيرك وخيري ، لأني أحبك وأرضى بك زوجاً لي وأعدك بالاتفاق على الزواج في الربيع إذا كنت لا تزال في قيد الحياة ولم يقتلك اليأس .

« واسمح لي أن أقول لك أيها الصديق العزيز اني ما أحببت إيفان بونتيف ولكني كنت وعدت رجلاً أن أتزوج به وهو الان قد مات فتخلصت من هذا الوعد وهذا الذي كان يدعوني إلى ما كنت أعاملك به من الجفاء .

« أما إيفان فقد أصبح الان من المجانين لأنه يهوى فتاة فرنسية تـدعى مدلين وهو لا بد له من زواجها لفرط شغفه بها .

« أما هذه الفتاة فلا توجد إلا في مخيلته لأنها غير كائنة في الوجود إنمـا الجنون مثل له هذا الغرام وهذه الفتاة .

« وقد سافر إلى باريس للبحث عن هذه الفتاة الوهمية فأرسلت معه أحد خدمي للعناية به ولمراقبته طبقاً لارادة أبيه الذي أوشك أن يجن من يأسـه وإشفاقاً عليه .

« أما جنون إيفان فليس من نوع الجنون المطبق ولكنـه منحصر في أمرين أحدهما هيامه بتلك الفتاة الفرنسية وهي لم توجد في العالم ، والثـاني اعتقاده انهم سجنوه في قلعة بطرسبرج كي يكرهوه على الزواج بي ، وفي ما خلا ذلك ، فهو عاقل بحيث لا تظهر عليه أعراض الجنون إلا في هـذين الأمرين .

« فإذا كنت لا تزال تحبني أيها الكونت العزيز فتعال وقف قربي شهراً من شهور الشتاء في باريس عاصمة الفرنسيين فإني مسافرة هذا المساء في طريق البحر .

« فإذا أردت موافاتي الى باريس فإنك تجدني في شارع بيبينيار اذ أكون ضيفة في قصر الكونت أرتوف زوج باكارا .

« والسلام عليك من التي تهواها وتهواك » .

« فاسيليكا واسرنوف »

فلما فرغ الكونت من تلاوة الكتاب نظر الى الحضور نظرة المستطلع وقال: ما رأيكم في هذا الكتاب ؟

فقال البرنس : إن الذي أراه أنا هو انه لولا جنون ايفان لما ورد اليك هذا الكتاب .

فابتسم الكونت ابتسام الحزين وأجاب : ربما ، بل إني أرجح رأيك كل الترجيح .

– وهل عزمت على السفر إلى فرنسا ؟

– سأسافر بعد غد .

– ولكن كيف جن هذا المسكين ؟

– لا أعلم سبب جنونه وما علمت هذا الجنون إلا من الكونتس .

وقال أحد الحاضرين : لقد بلغني انه كان يفرط من شرب الابسنت وكأنه كان يحب الكونتس حباً شديداً ولكنها كانت تسيء اليه وتعده مع ذلك فيضطرب فؤاده بهذا التباين .

– هذا نفس ما سيتفق لك .

فرد الكونت : أما أنا فإني اؤثر العبودية للنساء على السيادة عليهن وأفضل أن أمتثل وأطيع على ان انهى وآمر .

وبينما كانوا يتحدثون بقصة هذه الكونتس واطوارها كان الفيكونت كارل دي مورليكس يحدث نفسه فيقول وعسى ان لا تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وان الشر قد ينتج منه الخير ولو لم يلحقني روكامبول ويطرحني إلى أنياب الذئاب لما استطعت ان أعرف ما عرفته الآن وهو ان ايفان دي بونتيف يسير الى باريس في اثر مدلين وان الكونتس فاسيليكا يهمها ان يظهر إيفان بمظاهر الجنون .

ان هذه المرأة أعظم عون أرسلته إلى جهنم وعاد الأمل فحل في فؤاده محل القنوط .

لقد تركنا ايفان في فندق ساوا يقول لبطرس السائق إذا كنت تؤمن بالله واليوم الآخر فاستغفر الله لأنك ستموت وقل لي كل شيء .

وكان بطرس جباناً منخلع القلب فكانت نظرات ايفان اليه ومظاهرغضبه كافية لحمله على الاقرار بتفاصيل الجناية .

وكان إيفان يضطرب اضطراباً شديداً وقد أحمرت حدقتاه من الغضب فنظر بهما إلى بطرس وقال : اني أريد ان أعرف كل شيء وقد أخذ مسدسه من جيبه ووضعه على الطاولة .

وارتجف بطرس من خوفه سيدي لست أنا الجاني بل هو أبوك

- أبي ؟

- نعم .

- إذن أوضح كل شيء بالتفصيل .

وقد تكلف اللطف حين قال له هذا الكلام وعاد الى بطرس بعض الأمل وحسب ان إقراره ينجيه من الموت .

وكان خادم فاسيليكا الايطالي قد دخل في أثر ايفان وسمع كل شيء فإن بطرس السائق لم يكتم عن ايفان شيئاً من جميع الحوادث المتقدمة دقيقها وجليلها فذكر له كيف لقيه أبوه وكيف استلفت انظاره اليه تشابه الصوتين وكيف انه عهد اليه حين وصوله الى موسكو ان يتظاهر بالخرس الى ان عهد اليه بالذهاب مع مدلين واطلاق السراح له معها كيف شاء .

وكان ايفان واضعاً يده فوق صدره وهو يسمع خيانة أبيه من فم هذا السائق فيصفر وجهه ويصغر في عيني نفسه .

فلما أتم السائق حديثه قال لايفان : اعلم يا سيدي ان اباك لم يكن يريد ان تنظر مدلين ، فأبعدها عنك ثم قدر انه يتفق اجتماعك بها فأراد أن تجدها

ساقطة الى الحضيض بحيث يستحيل عليك أن تجعلها امرأتك بعد سقوطها .

فرد ايفان ببرود : وبعد ذلك ؟

— وبعد ذلك رأيتها جميلة وراقت لعيني .

— ويح لك أيها الشقي ماذا تقول ؟

— ألم تأمرني يا مولاي ان اعترف بكل شيء ؟

— حسناً قل .

— ان اباك يا سيدي قال لي حين سفرنا ان هذه الفتاة لديها في كيسها عشرون الف فرنك وهذا المبلغ مهر لها فقلت في نفسي انني قد اكون كفؤاً لها كغيري من الأزواج .

فرشوت السائق وجاء بنا الى فندق ساوا وهنا اتفقت مع صاحبة الفندق فوعدت ان تأذن لي بفعل ما أريد .

— وبعد ذلك قل وأسرع .

— وبعد ذلك حاولت ان أغتصب الصبية بكل ما يبلغ اليه الجهد .

— ويحك قل ألم تدافع عن نفسها ؟

— انها دافعت دفاعاً لم يكن يخطر لي في بال وهذا الجرح الذي تراه في صدري أثار دفاعها الهائل .

— وهذه المرأة ماذا فعلت ؟

— لم تفعل شيئاً بل كانت متناومة متشاغلة عنا .

فهاج ايفان هياج العواصف وأخذ صاحبة الفندق من يدها فاجتذبها فوقعت على الأرض والذعر ملء قلبها فسألها : اصحيح ما يقوله هذا الرجل ؟

فلم تجب بحرف لما تولاها من الرعب وجعلت تنظر اليه نظرات الخوف الشديد دون ان تستطيع الكلام لتلعثم لسانها .

فقال لها ان ذنبك أشد من ذنب هذا الرجل فيجب ان تعاقبي قبله . ثم نظر في ساعته فوجد انه لم يبق غير ساعة من النهار .

وكانت المركبة لا تزال واقفة على باب الفندق والسائق جالساً مكانه فيهـا فنادى ايفان خادمه بيريتو وقال له : اتبعني .

ثم احتمل تلك المرأة وهو يلتهب من الغضب وسار بها الى المركبة ووضعها فيها والتفت الى الخادم الايطالي : إنك اذا اردت ان تبقى في خدمتي فـما عليك الا ان تنفذ اوامري والذي آمرك به هو ان تركب المركبة بجانب هذه المرأة الأثيمة وتسير بها في طريق موسكو وعندما يهجم الظلام وتصـل الى غابة تلقيها وتعود بحيث تموت من البرد والجوع او تفترسها الذئاب .

فصاحت المرأة صياحاً منكراً وجعلت تستغيث غير ان الخادم لم يجد بدأً من الامتثال وركب بجانبها وامر ايفان السائق بالمسير ، وسارت جيـــاده تنهب الأرض .

– اما ايفان فإنه عاد الى الفندق وجلس بسكينة قرب المستوقد .

وكان بطرس واقفاً امامه لا يجسر ان يفوه بكلمة ولكن حسب انه نجا من خطر القتل المحدق به لأنه كان ينظر الى ايفان فيجده غارقـــاً في لجج تصوراته لا ينظر اليه ولا يفتكر فيه .

وما زال ايفان يدخن بسكينة وهو غير مكترث لشيء نحو ساعة وكانت الشمس قد توارت في حجابها وساد الظلام .

وعند ذلك سمع أجراس مركبة قادمة الى الفندق وهي المركبة التي سار بيريتو الخادم ، فوقف ايفان على عتبة الباب وجعل ينتظر ولمـــا رأى بيرتو وحده ايقن انه انفذ امره والقى العجوز في الغابة .

وعند ذلك عاد الرجل الى بطرس ونظر اليه نظرة هائلة ما شكك المسكين بعدها انه من الهالكين فقال له : استغفر الله فإنك سوف تموت .

- ولكن يا سيدي .

– قلت لك استغفر الله وصلي اذا كنت تعرف الصلاة ايها الاثيم .

ثم اخرج المسدس ووضعه امامه على المائدة .

وركع بطرس قائلا : اعف عني يا سيدي وارحمني يرحمك الله .
– كلا . لا رحمة لك ولا امهلك غير عشر دقائق لاتمام الصلاة .

وجعل بطرس يستعطف ويتوسل وايفان يتشاغل عنه بفحص زناد مسدسه والنظر من حين الى حين في ساعته لمراقبة سير دقائقها ؛

وعند ذلك سمع صوت أجراس مركبة اخرى قادمة الى الفندق فاضطرب ايفان وبرقت اسرة بطرس باشعة الأمل لرجائه ان ينقذه القادمون في المركبة من الموت .

غير ان ايفان اظهر انه لم يحتفل بالقادمين فأعاد النظر في ساعته فقال لبطرس : لم يعد لك غير سبع دقائق فاستعد للموت .

وعاد بطرس الى التوسل والاستعطاف وعيناه تنظران المرة بعد الاخرى الى الباب لأنه سمع وقع خطوات اولئك القادمين في المركبة التي وقفت على باب الفندق .

اما هذه المركبة فكانت مركبة البرنس ماروبولف ولما دخل مع اصحابه رأى ايفان فدنا منه وصافحه .

ولكن ايفان كان الغضب بادياً في وجهه ورد تحية البرنس بلطف متصنع قائلا له : ارجوك يا سيدي البرنس ان تعود من حيث اتيت .

غير ان البرنس لم يحتفل بكلامه واجابه : ما هذا الاصفرار البادي في وجهك ولماذا ارى هذا المسدس في يدك ؟

فأشار ايفان بيده الى بطرس واجابه : اترى هذا الرجل ؟

– نعم ..

– انه يجب ان يموت .

– لماذا ؟

– لارتكابه جريمة هائلة يقل في عقابها الموت .

– وما هي هذه الجريمة ؟

فأجابه ايفان بصوت يتهدج من الغضب : إنه أهان فتاة أنا أحبها تدعى مدلين وحاول تدنيسها .

فنظر البرنس عند ذكر اسم مدلين نظرة سرية الى أصحابه تشير إلى أن الكونت كورلوف قد أصاب بما رواه عن جنون ايفان .

- ٢٤ -

(من البرنس ماربولوف الى الكونت كورلوف في باريس)

« صديقي العزيز

« لا ريب عندي انك قد سافرت الى باريس في أقرب الطرق المؤدية اليها لأننا غادرناك منذ ثلاثة أيام تتأهب للسفر فاذا اضطررت الى الكتابة اليك فلا بد لي من إرسال كتابي الى باريس .

« ولا ريب عندي ، انك ستصل الى العاصمة الفرنسية قبل ان يصل كتابي اليها ، فإن ذلك الفرس الكريم الذي تصفه شعراء العرب ، وذلك البرق الخاطف الذي يخترق حجب الظلام ، وتلك الرياح التي تمر مرور التصور في الخواطر لا تبلغ من السرعة ما يبلغه عاشق ولهان يجب في أثر من يحب .

« والآن أتعلم لماذا أكتب لك ؟

« إني لا أكتب اليك لأشكرك عما لقيناه في قصرك من حسن الضيافة بل لأخبرك ببعض أمور تتعلق بمزاحمك المسكين ايفان دي بونتيف .

« أرى بعين التصور انك ستبدي إشارة دهش حين تقرأ اسم ايفان ، إذ لا يخطر في بالك إنني رأيته ، وحقيقة إنني لقيته فاصغ إلى ما أقصه عليك من شأنه .

« إننا برحنا قصرك منذ ثلاثة أيام في الساعة الحادية عشرة صباحاً ، بعد أن استرحنا عندك كل الليل ، وبعد ذلك بخمس ساعات أصبحنا على مقربة من بترهوف .

« وبينما كنا نسير بتلك السرعة التي تعهدها في أسفاري إذ لقينا مركبة تعدو أمامنا فأدركناها بعد ربع ساعة .

« وكانت المركبة خالية ، ولكنه كان قد صعد بجانب السائق رجل عرفه أحد أصدقائنا وقال : إن هذا الرجل هو بييريتو خادم غرفة الكونتس فاسيليكا .

« والتفت هذا الخادم فرأى صديقي وعرفه فحياه باحترام .

« فسأله صديقي : إلى أين ذاهب ومن أين آت ؟

« فوجه كلامه لنا جميعاً قائلاً : إنني لا شك ، أتعس إنسان في هذا الوجود !

« فسأله صديقي . ماذا دهاك العل الكونتس طردتك من خدمتها ؟

« — كلا ، ولكنها عينتني لخدمة رجل أكاد أبلغ معه حد القنوط ، لأنه مجنون .

« فذكرنا عند ذلك ما قرأته لنا في كتاب الكونتس من أنها عينت خادم غرفتها لخدمة ايفان في رحلته الى فرنسا . واستزدنا الخادم من الحديث فأخبرنا بكل ما قرأناه في كتاب الكونتس ، وان ايفان يعشق فتاة لا وجود لها وان الوهم قد مثلها فتاة فرنسية بات يدعوها باسم مدلين .

« ثم أخبرنا انه سافر مع ايفان الى بطرسبرج منذ ثمانية أيام ، وان ايفان يسأل عن أخبار مدلين كل راكب وفي كل محطة وكلما رأى امرأة حسبها مدلين فهي ممثلة له في كل تخيل .

« وليس ذلك بشيء يذكر في جانب ما حدث لي معه منذ ساعتين ، فإننا أوقفنا مركبتنا هنا أمام فندق منعزل يدعونه فندق ساوا .

« فنزل ايفان فيه ، وكان يوجد في ذلك الفندق إمرأة عجوز ورجل ، فلما نظر اليهما ايفان ، صاح صيحة منكرة وقال : هذان هما اللذان خدعا مدلين .

« فجعل الرجل والمرأة ينظر كل منهما الى الآخر نظرات الانذهال ، فهاج ثائر ايفان وانقض في الحال على المرأة كما ينقض العقاب على فريسته ، فحملها وذهب بها الى المركبة ، وأمرني ان أسير بها إلى الغابة فأطرحها فيها طعماً للذئاب .

« فصحنا جميعاً منذعرين : العلك فعلت ؟

« فضحك الخادم وأجاب : قد امتثلت لأمره بالظاهر ولكني في الحقيقة ذهبت بالعجوز إلى أول قرية مررت بها وأعطيتها عشرة ريالات وتركتها فيها وها أنا عائد الى سيدي المجنون .

« غير انه ليس هذا كل ما حدث له لأني أخشى ان يكون قد قتل في مدة غيابي ذلك الرجل المسكين الذي تركته وإياه ينذره بالقتل .

« فلما سمعنا حديث بييريتو تشاورنا في الأمر كي نهتدي الى وسيلة نتمكن بها من إنقاذ ذلك الرجل . فاتفق رأينا على أن يتقدمنا بييريتو بمركبته الى الفندق ببضع دقائق ، فإذا كان ايفان لم يقتل الرجل بعد يحول بينه وبين قتله بما يستطيعه من الوسائل الى أن نحضر اليه .

« وتم ما اتفقنا عليه فتقدمنا بييريتو وسرنا في أثره على مسافة غير بعيدة .

« ولما وصلنا الى الفندق رأينا ان الرجل لم يزل حياً ولكن ايفان كان متقد العينين أصفر الوجه منبوش الشعر والمسدس في يده .

« ورأينا ذلك السائق المسكين المتهم باهانة مدلين جاثياً أمامه يتوسل اليه ويستعطفه ان يبقى عليه وكانت المهلة التي عينها له ايفان للاستغفار والصلاة قد انتهت وهو عازم على ان يقتله .

« وكان اول ما فعلناه اننا تألبنا عليه وجردناه من سلاحه فجرى بيننا

جدال عنيف ثم هاج علينا واتهمنا باننا نبالغ بالاعتداء عليه وان له الحق المطلق بقتل هذا الرجل حتى أوشك أن يقاتلنا جميعاً .

« ولكن خطر لأحد أصدقائي خاطر لطيف تمكن من إقناع ايفان على وجوب الإبقاء على هذا السائق

« وذلك ان ايفان قص علينا تلك الحكاية التي حصر بها جنونه ، فأخبرنا أن أباه يعترض عزمه على الزواج بمدلين ، وانه عهد الى هذا السائق بقتلها أو تدنيسها

« وكان يتكلم بلهجة يتضح الصدق منها حتى أوشكنا ان نصدقه لو لم ينظر الينا ببيريتو ويبتسم إبتسام الحزين المشفق عليه فزعزع أركان ثقتنا ، وعلمنا ان جنونه منحصر بمدلين .

« وعند ذلك دنا منه صديقي كولوكين ، ودار بينهما الحديث الآتي ، فقال كولوكين :

« — أهو أبوك يا صديقي ايفان الذي يأبى أن تتزوج مدلين ؟

« — هو دون سواه .

« — أهو ايضاً الذي أمر الرجل ان يفعل ما فعل ؟

« — نعم .

« — إن ما تقوله واضح بأتم الجلاء .

« — إذاً ألا يكون هذا الرجل مذنباً ؟

« — دون شك .

« — ومثل ذنبه الفظيع ألا يجب ان يعاقب عليه بالموت ؟

« — بل هو يستحق أكثر من الموت .

« فحاول ايفان أخذ مسدسه وقال : إذاً لماذا تمنعوني عن قتله ؟

« — لأنك إذا قتلته لا يبقى لديك شهود على مدعاك .

« — كيف ذلك ؟

« ـ ذاك لا ريب فيه ألا تريد ان تجد مدلين ؟

« ـ نعم .

« ـ ألا تريد ان تتزوجها ؟

« ـ دون شك .

« ـ إذاً يجب مصادقة أبيك على زواجك لها .

« ـ أو مصادقة القيصر ، لأن مثل هذه الأحوال تتقدم مصادقة القيصر على مصادقة الأب .

« ـ إن ذلك دليل آخر على وجوب الحرص على الرجل .

« ـ ولكن لماذا ؟ إني لم أفهم شيئاً .

« ـ لأنك عندما تجد مدلين لا بد لك من العودة بها الى بطرسبرج وعرض أمرك على القيصر واذا لم يكن لديك مثل هذا الشاهد فكيف تثبت ما تدعيه على أبيك ؟

« فاقتنع ايفان بهذا البرهـــان ، وتمكن صديقي بهذه الخدعة من إنقاذ ذلك الرجل المسكين ، الذي لا يزال لسانه معقوداً إلى الآن ، لفرط ما ناله من الرعب .

« وبعد ذلك رجعنا جميعنا الى قصري ومعنا ايفان ، فأبقيته عندي يومين ولكنه في اليوم الثالث سئم البقاء وأصر على السفر .

« فسافر وأنا مطمئن عليه كل الاطمئنان ، إذ كان يتولى حراسته بيبريتو خادم فاسيليكا وذلك الرجل الفرنسي النبيل الذي يدعى مورليكس

« ومن غرائب الاتفاق او غرائب الجنون ان ايفان بات يثق بهذا الرجل الفرنسي ثقة غريبة وكان يؤثره علينا جميعنا بصداقته ، فجعله مستودع سره ولم يكن يفارقه لحظة .

« وقد سافروا جميعهم في هذا الصباح الى فرصوفيا ، فودعنا ايفان ونحن مشفقون عليه ، لأن جنونه لا يظهر إلا حين الكلام عن مدلين . وفيما خلا

ذلك فهو على أتم الظرف والعقل ، وقد صفح عن بطرس السائق وجعله من خدمه .

« أما الفيكونت دي موروليكس فانه يعرف في باريس طبيباً حاذقاً بمداواة المجانين وهو يرجو ان يتمكن من شفاء ايفان .

« وقد كتبت اليك ايها الصديق العزيز جميع هذه التفاصيل لاعتقادي انها تروق لك وللكونتس فاسيليكا التي صرت عبداً لها فاقبل تحياتي ودعائي لك بحسن التوفيق » .

« البرنس ماربولوف »

وقد كتب البرنس هذا الكتاب وهو واثق كل الثقة من صحة ما كتب ، فكانت ثقته داعية الى انتصار موروليكس مرة ثانية

وسافر الفيكونت كارل دي موروليكس مع ايفان كما ورد في كتاب البرنس ماروبولوف .

ولم يكن يجهل ايفان انهم كانوا يحسبونه مجنوناً فكان لا ينفك عن محادثة كارل بغرامه وهو يحسب هذا العدو الألد أصدق صديق له .

وكانت المركبة تسير بهما دون ان تقف إلا لتغيير الجياد ، فاجتازت نهر البريزينا ، ثم اجتازت الحدود الروسية وبلغت بولونيا ، وفي اليوم الثالث وصلت الى فرصوفيا .

فنزل كارل مع ايفان في أحد فنادق المدينة للاستراحة ثم تركه كارل في الفندق وذهب إلى إدارةالبريد ، لأنه كان يرجو ان يلقى رسائل واردة اليه من فرنسا .

فما أخطأ ظنه لأنه وجد رسالتين إحداهما من أخيه فلم تستلفت أنظاره ، ولكنه لما قرأ عنوان الثانية اختلج لأنه عرف ان الخط خط تيميلون .

وقد زاد عجبه لأن تيميلون أخبره في آخر رسالة أرسلها اليه انه سافر إلى البلاد الأميركية . ولكنه عندما فحص الطوابع وجد ان الرسالة مرسلة

من باريس .

ومع كل عجبه وضعها في جيبه ، وبدأ بقراءة خطاب أخيه ، فقرأ ما يأتي :

« أخي العزيز

« أكتب اليك الى فرصوني ولكن قلبي يحدثني انك في باريس .

« ولا أدري اذا كنت مخطئاً بما أوحاه إلي تصوري ولكن ان المخاوف قد عادت إلي فتمكنت مني وحرمتني طيب الرقاد .

« ولكن أرى كلما مرت بي الأيام يزيد تمثل آثامنا القديمة لي ولهذا أرجو أيها الأخ العزيز ان تمتنع عن مطاردة الصبية وترجع عن قتلها إذا لم تكن يدك قد انغمست في دمها الطاهر .

« واعلم يا أخي انك لست بأب ، فلا تشعر بما يشعر به الآباء في مثل هذه المواقف ، وحسبي عذاباً ان ابني الوحيـــد في باريس ، وانه يهرب مني كي لا يراني ، ولا يـدعني أراه . اليس ذلك وحده ما يكفي لعقـابي عن جريمتنا ؟

« ألم تضربه في قلبه ضربة شديدة قد لا يبرأ منها ؟ ألا يحب انطوانيت دي ميلر إبنة اختنا ألم تقتل الفتاة المسكينة كما قلت لي ؟

« غير ان نفسي تحدثني ان هذه الفتاة التي قلت لي انك قتلتها لا تزال حية ترزق خلافاً لما تعتقد وان اولئك الذين توهمت انهم خدموك بامانة وإخلاص قد خدعوك شر خداع .

« واصغ إلي الآن يا أخي العزيز انك سافرت منذ شهر وتكون انطوانيت قد ماتت منذ شهر . فكنت انتظر كل يوم ان يعود إلي أجينور وهو مجنون من اليأس .

« ولقد قلت لي اذا كنت تذكر انه أصيب بضربة سيف أثر مبارزة فاضطر الى البقاء في انجر ولكن شيء من ذلك لم يحصل لان اجينور عاد الى باريس في

يوم سفرك منها .

« ولا أقول هذ الكلام وأنا مشكك فيه ، بل أنا منه على أتم الثقة . فقد خرجت يوماً أتنزه في المركبة فرأيت مركبة قابلتني وفيها أجينور فرأيته ورآني ولكني ناديته فما رد علي واحتجب بمركبته عن أنظاري . فحسبت انه سيأتي إلي في منزلي عند المساء فمضت أيام دون ان يزورني وهو يعلم اني لا أزال مريضاً .

« ونعم اني ما رأيته إلا لحظة ، ولكني لم أر على وجهه ما يدل على كآبة لا بد ان تبدو في وجه من تموت حبيبته . فانشغل قلبي وسألت عنه فعلمت انه في باريس ، منذ رحلت عنها . ولكني لم أعلم السر في احتجابه عني .

« والآن فإن كتابي هذا قد يصل اليك ، وانت لا تزال في روسيا ، فاذا كنت لم ترتكب تلك الجريمة مع مدلين . فأستحلفك بالله ان ترجع عن هذا القصد وان تعود الى باريس كي تندم فعسى ان ينفع الندم وعسى أن نتمكن من إصلاح ما أفسدناه وعندي رأي نافع لك وهو ان تتزوج بمدلين بدلاً من ان تقتلها وتزوج انطوانيت لولدي اجينور فينقضي كل إشكال ولا يفوتك شيء من تلك الثروة التي اختلسناها » .

« أخوك فيليب »

فلما قرأ كارل هذا الكتاب ارتعش واصفر ، فمزقه ورمى به مغضباً الى الأرض وهو يفتكر بايفان الحائل بينه وبين مدلين . ذلك الفتى الساذج الذي اتخذ كارل اصدق صديق له وهو اعدى عدو .

ثم عاد الى كتاب تيميلون فقرأ فيه ما يأتي :

« سيدي

« بينما كنت مسافراً الى روسيا كان خادمك الأمين يتأهب للسفر الى اميركا ، وقد قبضت الخمسين الف فرنك . وعزمت على السفر بابنتي التي لولا

حنوي عليها لما هربت من روكامبول ولما تمكن من الفوز علي

« وقد كنت تركت في باريس بعض جواسيس من عمالي لمراقبته ليس لمجرد خدمتك بل مدفوعاً بعامل الانتقام لاني لا أنسى تنكيله بي

« وفي اليوم الذي عزمت على السفر فيه ، ورد الي من أحد الجواسيس تلغراف يقول فيه ان روكامبول سافر مقتفياً اثر موروليكس الى روسيا ، فهاج بي الانتقام ، وبدلاً من ان أسافر وضعت ابنتي في محل أمين وعدت الى باريس .

« وليس روكامبول بالعدو السهل ، ولكني ارجو ان تكون قد فزت بالنجاة منه على الأقل ، فاذا كان ذلك فأعلم ان ابن أخيك اجينور وانطوانيت عائشان بملء السعادة ، ولا ينتظران غير عودة روكامبول بمدلين ، كي يتزوجا .

« ولكني عكرت عليهما كأس هنائهما ، فإن انطوانيت قد وقعت في قبضتنا أيضاً. ولا استطيع ان أزيد على ما قلته شيئاً فإذا سلمت من روكامبول وعدت إلى باريس ، فأسرع الى شارع لندره نمرة ٢ ، واطلب ان ترى المسيو جيبين » .

« خادمك المطيع »

« تيميلون »

فلما اطلع كارل على هذا الكتاب دهش دهشة شديدة فأعاد تلاوته وهو يتعجب . ثم قال في نفسه : لا شك ان انطوانيت في قبضة تيميلون وان هذا الرجل لم يعد الى باريس ، إلا وقد وجد حيلة يتمكن فيها من الفوز على روكامبول . وفي الحال أسرع الى الفندق فأخذ ايفان وبرح فرصوفيا عائداً به إلى فرنسا .

- ٢٥ -

لا بد لنا ، قبـــل التوسع في الحديث ، أن نبسط للقراء كيف غادر روكامبول وفاندا ، وكيف كانت الحالة قبل سفرهما لإنقاذ مدلين ، فإن روكامبول سافر آمناً مطمئناً لأن كارل كان قد سبقه الى روسيا فأمن كيده . ولم يكن يخشى أخاه والد اجينور لما يعلمه من ضعفه وندمه . وكان يعتقد ان تيميلون لا يجسر على العودة الى باريس لخوفه من الحكومة لأن جريمة السرقـة كانت ثابتة عليه ولذلك لم يكن يخشى على انطوانيت .

ولكنه أبى ان يغادر باريس قبل ان يتخذ الاحتياطات اللازمة مبالغة في الحرص عليها .

فلما استيقظت انطوانيت من رقادها كما قدمنا ، نزل بها يصحبه أجينور وميلون وفاندا فركبوا مركبة وساروا بها الى منزل كان أعده لها كي تختبىء فيه الى ان يعود اليها من روسيا .

ولما وصلوا الى هذا البيت ، دهشت انطوانيت دهشاً عظيماً حين رأت فيه مربيتها مدام رينود ، فهجمت عليها وجعلت تعانقها وهي تذرف دموع الفرح بلقائها .

وقـد اغتنم روكامبول فرصة انشغـالهما فخلا بأجينـور ، ودار بينهما الحديث الآتي :

فقال روكامبول : إنك تعلم شروطي .

فأطرق أجينور برأسه الى الأرض وأجاب : نعم .

– إني لم أرد اليك انطوانيت إلا بعد ان اشترطت عليك طاعتي .

– وأنا مستعد للامتثال .

– إذاً إصغ إلي إن لأنطوانيت اختاً وهي معرضة لأشد من الخطر التي كانت معرضة له انطوانيت . وذلك ان عمك وثق من موت انطوانيت فذهب لقتـل

مدلين ولولا ذلك لم يبرح باريس .

ـ ولكني أدافع عنها وأرد كيده الى نحره .

ـ لست، أنت الذي سينتقم بل أنا !

أما أبوك فإني أحمل الأختين على الصفح عنـــه . ولكنك في مقابل ذلك تخليت الي عن عمك كارل بانطوانيت . ثم يجب ان تعلم ان ما تجده الآن من السعادة في اجتماعك بانطوانيت يشبه تلك القصور التي يبنيها اللاعبون بأحجار الدومينو إذا لمستها يد او نفخ فيها فم تقوضت أركانها وتهدمت فلا يتم هناؤك الصحيح ما بقي عمك في الوجود .

أما عمك فقد سافر الى روسيا كما قلت لك ، ولكنــه أبقى في باريس عيوناً وأرصاداً عليك يرصدونك كيفما مشيت فلا يجب ان يعلم بوجودك أحد مدة غيابي .

ـ كيف ذلك الملك عازم على السفر ؟

ـ سأسافر الى روسيا للدفاع عن مدلين. أتعدني ان لا تدع انطوانيت تخرج من البيت مدة غيابي وانك لا تقابل أباك ؟

ـ أعدك وعداً صادقاً.

فلما وثق منه روكامبول تركه وعاد الى ميلون فأوصاه وصايا كثيرة وبعد ساعتين برح باريس مع فاندا .

وبعد سفره بشهر عاد الى باريس مع فاندا ومدلين . فلما وصل الى كولون أرسل الى ميلون هذا التلغراف :

(نصل في الساعة الرابعة من صباح غد . إحضر لملاقاتنا في محطة الشمال) .

فلما وصل القطار بهم الى باريس خرج روكامبول وجعل يبحث عن ميلون في قاعات الانتظار وخارج المحطة فما وجده . فاسودت الدنيا في عينيه وشعر بحدوث مصاب جلل .

ورأت فاندا علائم الاضطراب بادية في وجهه ، فدنت منه وسألته عن

السبب فقال لها : لقد حدث مصاب عظيم دون شك . وهو إما أن يكون ميلون قد مات ، أو انه سجين . إذ يستحيل أن يتأخر عن الحضور لغير هذين السببين . والآن إصغي إلي فانه لا يجب ان نعرض مدلين للخطر بارسالها الى حيث تقيم انطوانيت ، بل يجب ان تذهبي بها الى المنزل الذي نسكن فيه باسم الماجور أفاتار .

– ولكننا وعدنا مدلين أن نجمعها بأختها .

– نعم . ولكني لم أكن أتوقع غياب ميلون .

ثم التفت الى مدلين وقال لها . لا أكتمك يا سيدتي اننا متى برحنا باريس بغية إنقاذك تركنا اختك مريضة . ولذلك أخشى إذا قابلتها أن تؤثر عليها المباغتة فتؤذيها فاذهبي الآن مع امرأتي الى منزلي وانا اسرع الى اختك وأخبرها بقدومك ثم أرجع فأعود بك اليها .

فقبلت مدلين على الكره منها وسارت مع فاندا وروكامبول الى منزله .

وكان روكامبول قد ترك في البيت نويل الذي كان حداد سجن طولون وفر معه . فلما وصل روكامبول أسرع نويل الى استقباله ، ورآه روكامبول مصفر الوجه فسأله : ماذا أصابك ؟

– لا شيء ، سوى اني لا أعلم ماذا جرى لميلون ، لأني لم أره منذ ثمانية أيام .

فاستغرب روكامبول ولم يعد لديه شك بوقوع الشر . فإنه كان أمر ميلون أن يأتي كل يوم الى المنزل كي يرى اذا كان يوجد فيه رسائل باسمه ورجع الى مدلين فقال لها : إني ذاهب الآن لأري أختك .

– أتجيء بها إلي ؟

– نعم . إلا اذا كانت لا تزال مريضة فأذهب بك اليها .

ثم تركها وانصرف الى البيت الذي ترك فيه انطوانيت ، فنزل في مركبته وطرق الباب ففتح له بواب البيت وكان أول سؤال القاه عليه : أين ميلون ؟

فأجاب البواب : إنك تعرف يا سيدي مقره أكثر منا لأنه سافر منذ ثمانية أيام لموافاتك .

– لموافاتي أنا ؟

– نعم وقد سافر مع المدموازيل انطوانيت .

فتراجع روكامبول منذعراً الى الوراء . وعند ذلك أسرع اليه اجينور ، وقد سمع طرق الباب ، فلما رآه سأله باضطراب : العلك جئت بانطوانيت ؟

فاضطرب روكامبول وأمسك اجينور وهزه بعنف وسأله : قل لي ماذا حدث ؟

فكان أجينور ينظر اليه نظراً ساهياً وهو لا يفهم شيئاً فسأله روكامبول : قل أين ميلون ؟

– إنه سافر .

– وأنطوانيت ؟

– سافرت معه .

– ولكن متى والى اين ؟

– الى كولون حيث ضربت لهما موعداً لموافاتك بالتلغراف الذي أرسلته وهذا هو :

ثم أخرج تلغرافاً من جيبه وقدمه له فقرأ روكامبول ما يأتي :

« يسافر ميلون مع انطوانيت في قطار الساعة العاشرة من هذا المساء الى كولون حيث اضطررت الى البقاء فيها لأن مدلين مريضة » .

« الماجور أفاتار »

وكان تاريخ التلغراف منذ ثمانية أيام ، فاختلج روكامبول واضطرب حتى أوشك ان يسقط وتابع : إني لم أكتب هذا التلغراف .

غير ان روكامبول لم يطل اضطرابه وما لبث ان عاد اليه رشده وتأنيه فجعل يخاطب نفسه: من عسى يكون الخاطف لانطوانيت؟ أهو والد أجينور أم أخوه كارل ام تيميلون ؟ ثم يرجع فيتابع : ان كارل قد طرحته للذئاب فلا أظنه سلم من أنيابها ووالد اجينور لا يقدم على هذا المنكر لضعفه وسلامة نيته ، بقي تيميلون ولكن هذا الداهية لا يستطيع ان يعود الى فرنسا ، اذ يخشى ان يقبض عليه .

وطال به التفكير دون ان يهتدي الى وجه صواب ثم أخذ التلغراف وجعل يفحصه فوجد انه وارد كولون فقال : هوذا قد عدنا الى استئناف المعارك اذ يجب ان نجد انطوانيت وميلون .

وكان لاجينور ثقة عظمى برو كامبول فسأله وهو يوشك ان يجن من يأسه لاختطاف انطوانيت : انك ستجدها دون شك ؟

– هذا ما أرجوه ، ولكني اريد ان أعرف كل شيء بالتدقيق ، فقل لي كيف ذهبت انطوانيت .

– كنا منذ ثمانية أيام جالسين على المائدة فورد هذا التلغراف الى ميلون فقرأته ، ثم دفعته الى انطوانيت . فلما اطلعت عليه قالت وهي تضطرب : هلم بنا الى السفر .

وقد حاولت ان اسافر معها غير ان ميلون اعترضني قائلاً : يجب طاعة الرئيس فلو ارادك ان تصحبنا لكان ذكرك في التلغراف .

فأذعنت مكرهاً وكانت انطوانيت مضطربة لمرض اختها فوعدتني ان تكتب لي من كولون وقد كتبت لي وهذا كتابها .

فأخذ روكامبول الكتاب منه وما لبث ان اطلع على خطه حتى صاح صيحة منكرة قائلاً . قد عرفت الآن من اين أتتنا هذه النكبة .

فدهش اجينور وسأله : اليس الخط خطها ؟
— كلا فهو زور ولكنه محكم التقليد .

وكانت خلاصة الكتاب ان انطوانيت وصلت الى كولون ولقيت اختها مريضة ولكنها أخذت بالعافية حين رأتها وغير ذلك . فأعاد روكامبول نظره في الكتاب وقال لاجينور أعيد عليك ما قلته وهو ان الكتاب قد زوره رجل ماهر أعرفه حق المعرفة .

فأجابه اجينور بصوت مختنق : العله عمي كارل ؟

— كلا بل هو هذا الشقي تيميلون الذي اخطأت في الابقاء عليه . ولكن لا بأس لاني لم أقنط من إنقاذ انطوانيت إصغ الي الآن انه يجب ان تركب في مركبة وتذهب مسرعاً الى ابيك فتقول له بملء الايجاز ما معناه (اني اذا لم اجد انطوانيت من الآن الى الغد مساء قتلت نفسي) .
— سأذهب .

— إسمع ايضاً ان انطوانيت لا خطر عليها ولكنها اسير في احد البيوت والذي اراه ان تيميلون الذي طردته من باريس اغتنم فرصة غيابي عن باريس فعاد اليها ونصب لكم هذا الفخ فوقعتم فيه وأصبح ميلون وانطوانيت في قبضة يده الآن .

فقاطعه اجينور قائلاً : ألا يمكن ان يكون البوليس قد قبض على ميلون لهربه من السجن ؟

— ان البوليس لا يمكن ان يهتدي اليه الا اذا ارشده تيميلون ، وتيميلون لا يستطيع ان يظهر امام البوليس لان البوليس يبحث ايضاً عنه والذي أرجحه ان ميلون وانطوانيت اسيران لدى تيميلون وعصابته في بيت خفي من بيوت باريس ، ولكني لا يخفاني خافية في هذه العاصمة ، وسيكون لي مع هذا الشقي الغادر شأن .
— ولكن اية غاية لهذا الرجل من القبض عليها ؟

. انه ينتظر رجوع عمك من روسيا .فيبيعه انطوانيت بأغلى الأثمان . إنما إطمئن لان عمك لم يعد بعد وقد يكون تيميلون اخبر أباك بقبضة على انطوانيت فإذا تهددته بالانتحار ارجعها اليك دون شك حالاً .

وعند ذلك افترق الاثنان فأسرع اجينور الى بيت أبيه وذهب روكامبول الى منزله الذي ترك فيه فاندا ومدلين .

وكان روكامبول يسير وهو يقول في نفسه مخاطباً تيميلون . لقد اخطأت ايها الغادر بالعودة الى باريس والتعرض لي في شؤوني لاني غير مشفق عليك في هذه المرة .

وكانت المركبة تسير به وهو غارق في هواجسه لا يكترث لشيء فلم ينتبه لمركبة كانت تسير في اثره حتى وصل الى منزله ونزل من مركبته فرأى تلك المركبة قد وقفت ايضاً امام بابه وخرج منها ثلاثة رجال .

فاصفر وجه روكامبول حين نظرهم إذ رأى انهم بملابس الجنود وفي الحال دنا منه رئيسهم وسأله : الست انت الماجور افاتار ؟

فاضطرب اضطراباً قليلا واجاب : نعم انا هو .

فأشار الضابط للجنديين ان يقفا في سبيله وقال له : إني مأمور بالقبض عليك يا حضرة الماجور .

فابتسم روكامبول واجابه بسكينة : إني اعلم السبب فان السفارة الروسية اوعزت الى الحكومة المحلية ان تقبض علي لاتهامي بدسائس سياسية فلما علمت بقدومي اليوم من فرصوفيا ..

فقاطعه الضابط قائلاً : انك منخدع .

.. إذاً باية تهمة يتهمونني ؟

— إنهم يتهمونك بالهرب من سجن طولون حين كنت فيه ١١٧ وان اسمك الحقيقي روكامبول وليس الماجور أفاتار .

ورأى روكامبول انه قد وقع في قبضتهم فتجلد وقال للضابط : اني قادر على اقناعك واثبات خطأك باسطع برهان غير اني أعلم ان الجدال مع رجال الشرطة محال إذ لا بد لهم من تنفيذ الأوامر الصادرة اليهم ولذلك لا أضيع الوقت عبثاً بالجدال ولكني التمس منك قضاء أمر أرجو أن لا تأباه علي .

ـ ذلك يتعلق بالطلب .

ـ كن مطمئناً فإن ما سأطلبه اليك سهل ميسور لأني لا أسألك أن تأذن لي بالدخول إلى منزلي وأخذ اوراقي ولا أحاول الفرار منك ، ولكن الذي أطلبه اليك هو أن تأذن لي بمعانقة امرأتي على عتبة هذا الباب .

وقبل أن يجيبه الضابط أسرع إلى الباب وطرقه طرقتين متواصلتين كانتا إشارة متفقاً عليها دون شك فإن الباب لم يفتح على أثرها بل فتحت منها نافذة وبرز منها رأس فاندا وعلمت لأول وهلة كل شيء .

أما روكامبول فإنه قال لها باللغة الفرنسية : تعالي عانقيني .

ثم تابع باللغة الروسية : إني وقعت في الشرك واختطفت انطوانيت فاحضري لي حبة من الحبوب السوداء ، وأنت وحدك الآن قادرة على انقاذ الجميع .

وكان روكامبول يتكلم بملء السكينة وليس بين الجنود من يعرف الروسية فلم يشككوا بشيء مما قاله .

وبعد حين اتت فاندا فقال لها روكامبول : لقد تعاظم اضطهادي فانهم يتهمونني بأني كنت في السجن وهربت منه .

وابتسمت فاندا فقالت : لا بأس يجب ان نحتمل كل شيء .

ثم أقبلت تعانقه وتقبله فدست في فمه تلك الحبة السوداء دون أن يراها أحد ثم صافحته بيدها وتبادلت معه نظرة خفية ، وأخذ الجنود روكامبول

ثم صعدوا به إلى المركبة وسارت بهم في طريق السجن .

ففيما هم على الطريق افتتح روكامبول الحديث فقال : ان امبراطور روسيا قد شرفني تشريفاً عظيماً لاهتمامه بي إلى هذا الحد .

فأجاب الضابط : انك مخطىء كما قلت لك فإننا لم نقبض عليك إلا بتهمة الهرب من السجن .

– نعم لقد قلت لي هذا القول ولكن ما هو الاسم الذي لقبتني به ؟

– روكامبول .

– إنه اسم جميل ولكن لا بد لي ان اقول لك يا حضرة الضابط ان البوليس الفرنسي لا يحق له مساعدة البوليس الروسي والقبض على رعايا القيصر إلا إذا تذرع بحجة .

فغضب الضابط واجابه : إني أدعوك إلى السكوت فإنك تطعن بالبوليس الفرنسي وهو لا يتداخل بشأن من شؤون القيصر .

– إذن لماذا قبضت علي ؟

– ذلك ما يكشفه قاضي التحقيق فإنك ذاهب اليه .

– سوف ترى اني لم أكن أنا المخطىء بل أنتم المخطئون .

ثم سكت الاثنان فجعل روكامبول يفتكر بحالته الحاضرة وهو غير مهتم بالقبض عليه فإن من يفر من سجن طولون لا يصعب عليه الفرار من سجن باريس ولكنه كان يفتكر مهتماً بسواه أي بميلون وبهاتين الأختين اللتين اصبحتا مرة ثانية في قبضة عدوهما وليس لهما نصير .

وكان يحسن ظنه بفاندا وبنويل ولكنه كان يعلم انهما على ذكائهما ومهارتهما لا يستطيعان مقاومة تيميلون لا سيما إذا نجا كارل وانضم اليه .

ثم حسب ان اليوم يوم السبت وان القاضي قد لا يحقق في أمره إلا يوم الاثنين فلا سبيل له إلى الخروج من السجن بالتبرئة أو بالفرار قبل الاثنين فاغتم غماً شديداً لشدة حاجة الاختين له في هذه المدة ولكنه أظهر الجلد ولم

يبد شيئاً من دلائل الكآبة .

وظلت المركبة سائرة حتى بلغت إلى باب السجن فنزل الضابط والجنديان ونزل روكامبول بعدهم ، وفيما هو ينظر الى ما حواليه رأى رجلاً واقفاً على الرصيف فارتعش عندما رآه لأنه كان تيميلون وعرف في الحال ان تيميلون قد تعهد للحكومة أن يسلمها روكامبول مقابل صفحها عنه وهو مـــا يتفق كثيراً للصوص فقال في نفسه : لا شك ان هذا الشقى أقوى مما كنت أعهده، ثم نظر إلى تيميلون نظرة نارية تدل على ما أعد له من الانتقام الهائل .

ولما مثل روكامبول أمام رئيس البوليس قال : اني أدعى الماجور افاتار وليس لي أقل اتصال بالرجل الهارب من السجن فأرجو اجراء التحقيق على الفور .

فأجاب الرئيس : يستحيل استنطاقك اليوم إذ يجب مقابلتك مع رجل كان يعرفك في سجن طولون .

فابتسم روكامبول ابتساماً يشف عن الاحتقار ثم قال : وبعد ذلك ؟

– وان هذا الرجل الذي كان مقيداً معك بقيـد واحد في ذلك السجن يدعى ميلون .

فضبط روكامبول نفسه جهد الطاقة وسأله : لماذا لا تجمعوني به الآن ؟

– ذلك مستحيل الآن لأن هذا الرجل قبض عليه في محطة فالانسيان وهو يحاول اجتياز الحدود ولم يصل به إلى الآن .

– متى يصل ؟

– بعد يومين او ثلاثة .

– إذن ليكن ما تريد .

فأخذه الحراس الى السجن ولما خلا بنفسه فيه وضع رأسه بين يديه وقال بلهجة القانط : ان ميلون أبله لا حيلة له فإذا قبض عليه فقدنا كل شيء .

لقد أصاب روكامبول بما ظنه بتيميلون فإن هـذا اللص كان يكره روكامبول كرهاً لا حد له ، لاسيما وانه قد غلبه وهو يعتقد في نفسه انه اكثر خبرة من روكامبول في أساليب المهنة فعد اندحاره معه عـار لا يزول إلا بأخذ الثأر .

فبينما كان يتأهب للسفر مع ابنته إلى البلاد الأميركية ورد من أحـد جواسيسه في باريس هذا التلغراف .

(موررليكس سافر . قبضت المال . روكامبول برح باريس)

فاطمأن قلبه لسفر روكامبول وثارت فيه عوامل الانتقام فوضع ابنته عند عائلة انكليزية عرفها في ليفربول وبرح ليفربول الى دوفر .

وجعل يخابر من تلك المدينة رئيس البوليس في باريس فأفضت المخابرات الى الاذن لتيميلون بالعودة الى باريس ويكون مطلق السراح فيها شرط ان يقبض على روكامبول في مدة شهر .

وبعد ذلك بيومين عاد الى باريس وكان أقصى همه أن يبحث عن أجينور دي موررليكس وانطوانيت لاعتقاده انه لا يهتدي الى روكامبول إلا بواسطتها فتنكر وذهب الى منزل اجينور فسأل عنه البواب فأخبره انه غير مقيم في باريس وانه يحضر مرة او مرتين في الأسبوع لاستلام رسائله .

وجعل تيميلون يكمن له كل يوم ولكن انتظاره لم يطل فإن اجينور أقبل في اليوم التالي في مركبة لأخذ رسائله حسب العادة وكان تيميلون كامناً له عند الباب ، ولما عاد في المركبة ركب تيميلون مركبة أخرى وسار مقتفياً اثره وعرف البيت الذي يقيم فيه مع انطوانيت ومرتون .

وفي اليوم التالي خطر له اختطاف انطوانيت بذلك التلغراف الذي تقدم ذكره فأرسل عاملاً من عماله الى كولون فأرسل منها الى ميلون ذلك التلغراف

باسم الماجور افاتار .

ولما وصل التلغراف كان تيميلون متنكراً بزي سائق وواقفاً بمركبته قرب ذلك البيت فخرج ميلون مع انطوانيت وركب تلك المركبة فذهبت بهما الى المحطة .

وهناك بينما كان ميلون مهتماً بنقل الأمتعة الى القطار كان تيميلون قددخل الى المحطة ورأى فيها رجلا وامرأة فدلهما باصبعه على ميلون وانطوانيت واشار لهما اشارة خفية وانصرف .

فدنا الرجل وكان عليه ملامح الجلال والمهابة من ميلون وقال له العلك مسافر مع تلك السيدة الى كولون ؟

— نعم ، وانا مسافر ايضاً مع ابنتي اليها .

ثم صعدوا جميعهم الى القطار فسافر بهم وكان الرجل والفتاة يظهران لميلون وانطوانيت من التلطف والايناس ما وطد بينهما المحبة فأصبحا يثقان بهما كل الوثوق .

أما تيميلون فإنه اسرع الى رئيس البوليس فقال له : اني لم اعثر بعد بروكامبول ولكني عثرت باحد رفاقه في السجن .

— من هو ؟

— هو الذي كان مقيداً معه بقيد واحد .

- ميلون ؟

— هو بعينه . .

— وأين هو الآن ؟

— في القطار المسافر الى كولون .

— اذن صف لي هذا الرجل وملامحه وكل ما يعرف به .

فوصفه له تيميلون وصفاً تاماً فأرسل الرئيس تلغرافاً الى بوليس فاليسيان يأمره فيه بالقبض على ميلون بعد ان اوضح جميع صفاته بالتلغراف واخبره ان

هذا الرجل يدعى ميلون وان لديه جواز سفر مكتوب اسمه فيه بالدوني وانه مسافر مع رجل عجوز تصحبه ابنته الى غير ذلك من الأدلة التي تساعد البوليس على الاهتداء الى ميلون .

أما هذا الرجل العجوز وابنته اللذان سافرت معهما انطوانيت وميلون فقد كانت تدل هيئته وملابسه على انه من رجال الوجاهة والخير والصلاح وهو في الحقيقة عامل من عمال تيميلون وكان يدعو نفسه الكولونيل جيين ويتظاهر أمام ميلون وانطوانيت بالنفوذ والبساطة ، أما ابنته فكانت تلاطف انطوانيت ملاطفة شديدة مدة السفر وهي طويلة إلى أن استأنست بها ووثقت منها كل الوثوق .

وعند منتصف الليل وصل القطار إلى فاليسيان فلم يكد يقف حتى فتح البوليس باب المركبة المقيمة فيها انطوانيت وقال يخاطب المسافرين ، من منكم يدعى المسيو بالدوني ؟

وقف ميلون وقال له بملء البساطة : هو أنا .

إذن تفضل بالنزول واتبعني إلى غرفة المدير .

فامتثل ميلون وتبعه وهو يحسب أن الأمر يتعلق بامتعته إذ لم يخطر له في بال أن البوليس يقبض عليه بعد أن ضمن له روكامبول النجاة من السجن

ولما نزل تبعته انطوانيت فتبعها الكولونيل وابنته بعد أن نظر اليها نظرة خفية حتى إذا دخلوا إلى غرفة المحطة وجد ميلون فيها قائداً من قواد البوليس فاصفر وجهه وشعر بوقع المصاب .

وعند ذلك سأله الضابط : ماذا تدعى ؟

- جوزيف بالدوني .

- وما هي مهنتك ؟

- خادم غرفة المدموازيل ، وأشار إلى انطوانيت .

- أأنت واثق من انك تدعى فرنسوا ميلون ؟

فاضطرب ميلون وعلم الحقيقة ولكنه تجلد وقال: اني لا أدعى بهذا الأسم

– اني أتمنى لك أن تكون صادقاً وأن تكون الحكومة منخدعــــة فانها تعتقد انك فرنسوا ميلون المحكوم عليه بالسجن عشرة أعوام والهارب من سجن طولون .

– انها مخطئة فاني ما دعيت بهذا الأسم وما هربت من السجن .

– ذلك ما تثبته في باريس أما أنا فلا بد لي من القبض عليك الآن .

فاضطربت انطوانيت واصفر وجههـا اصفراراً شديداً ووهت رجلاهـا حتى أوشكت أن تسقط ولكن ابنــة الكولونيل اسرعت اليها فلما نظرها ميلون على هذه الحالة وهي قريبــة من الأغماء جعل يبكي وينتحب ويشجعها بالطف الأساليب .

أما البوليس فنظر إلى انطوانيت وقال لها : ليس لدي يا سيدتي اوامر خاصة بك فانك تستطيعين مواصلة السفر إلى كولون ، ثم أمر جنديين بالقبض على ميلون ، فاكبت انطوانيت على عنقه تودعه وكان لوداعهما تأثير شديد على الحاضرين .

وكان الاثنان يبكيان دون ان يحتجا على البوليس فان انطوانيت لم تكن تعرف الكذب حتى أن البوليس لو سألها (ألا يدعى هذا الرجل ميلون ؟) لأطرقت بنظرها إلى الأرض ولم تجب .

ولما خرجوا بميلون الى السجن وخرج الكولونيل وابنتـه بانطوانيت سمعوا صفير القطار الذي كانوا فيه وقد سافر دونهم الى كولون فتظاهر الكولونيل بالغضب حين رأى الجنود ذاهبــة بميلون ، قال للبوليس : اواثق انك غير منخدع بهذا الرجل ؟

– اني لم أفعل غير ما أمرني به رئيسي بتلغرافه الوارد إلي من باريس .

فالتفت الكولونيل عند ذلك الى انطوانيت وقال لها بلهجة الحنو ليس لي يا سيدتي ما يدعوني الى السرعة بمواصلة السير ولا أطيق أنا وابنتي ان ندعك

منفردة فاعلمي اني أدعى الكولونيل جيبين ولي نفوذ عظيم فلنعد الى باريس وانا أضمن لك خلاص هذا الرجل في بضعة أيام .

فنظرت انطوانيت الى هذا الرجل الذي كان يكلمها بملء الثقة من نفوذه نظرة استعطاف فصدقت كلامه وقالت له : أتفعل ما تقول ؟

— دون شك .

ثم أخذها مع ابنته وسار بها الى محل الانتظار في المحطة وهي تبكي فكان يعزيها الطف عزاء ويقول لها : إن القطار الذي سيحضر من كولون إلى باريس سيمر قريباً ونعود به إلى باريس حيث نصل اليها في الساعة الرابعة صباحاً واني أعدك باطلاق سراح هذا المسكين قبل ظهر اليوم التالي .

وبعد هنيهة سمع صفير القطار القادم من كولون فتركها الكولونيل مع ابنته وذهب ليشتري تذاكر السفر .

وكانت انطوانيت تفكر باختها المريضة في كولون وبميلون الذي سيبيت ليلته في السجن وبأجينور الذي لا يعلم الآن بما تقاسيه من العذاب .

ولولا ان اجينور في باريس لترددت عن الرجوع إلى أعقابها ولكنها افتكرت ان أجينور سوف ينضم إلى الكولونيل فيسعيان إلى إنقاذ ميلون فلم يبق في فؤادها أثر للتردد وركبت القطار مع الكولونيل وابنته فسار بها وهي لا تزال تبكي ميلون .

- ٢٩ -

وكانت انطوانيت حين السفر تشكو للكولونيل وابنته ، والكولونيل يطمنها ويذكر صداقته مع كبار الموظفين وشدة اتصاله بالوزراء وكثرة نفوذه وهو يكلمها بحنو وإشفاق ضامناً لها انقاذ ميلون ، فحكت له انطوانيت بملء

الاخلاص حكاية ميلون وانه هرب حقيقة من سجن طولون ولكنه لم يرتكب جريمة تستوجب العقاب بل انه كان بريئاً وقد كاد له أحد الخائنين فأتهمه بتهمة وهو بريئاً منها .

فأظهر الكولونيل سروراً عظيماً وقال : لقد أحسنت بما قلته لي فإن برائته تعينني على إخراجه .

ووصل القطار بهم إلى باريس في الساعة الرابعة بعد منتصف الليل فخرجوا منه جميعهم ثم ركبوا مركبة ، وأمر السائق أن يذهب بهم إلى شارع بلفوند نمرة ٢١ .

وكان الكولونيل قد اخبر انطوانيت في القطار انه يسكن في ذلك الشارع وهو قريب من المحطة وطلب اليها أن تذهب مع ابنته فتبقى فيه إلى أن يشرق الصباح ، فيذهب إلى دار الحكومة ويعود اليها بالخبر اليقين عن ميلون .

وحاولت انطوانيت أن تأبى هذه الدعوة وأن تذهب إلى اجينور ولكن الكولونيل كان يلح عليها ويكلمها بلهجة ملؤها الحنو والاخلاص فلم يسعها إلا القبول .

وسارت بهم المركبة حتى بلغت منزلاً تكتنفه حديقة متسعة فوقفت عند بابها ودخلوا جميعهم .

فصعدوا بضع درجات وفتح الكولونيل باب البيت بمفتاح كان بجيبه فولجه الى ردهة متسعة فأدخلت ابنة الكولونيل انطوانيت الى غرفة وقالت لها : اني ذاهبة لأحضر لك المصباح وأوقظ الخادمة كي توقد لك النار في المستوقد فتنامين الى ان يعود ابي .

ولما دخلت انطوانيت وأصبحت وحدها في تلك الغرفة هاجت بها الهواجس وتوقعت السوء وهي لا تعلم ما يدفعها إلى هذه المخاوف .

ثم حاولت ان تفتح النافذة لترى ما يحيط بها فإن الفجر قد بدأ ينبثق

ولما أزاحت ستائر الغرفة وحاولت فتح النافذة وجدت انها لا تفتح فاضطرب فؤادها وتمكن منها الخوف فأسرعت إلى الباب تفتحه فوجدت أنه موصد من الخارج .

فجعلت تنادي ابنة الكولونيل فلم تجبها ولما طال نداؤها لها دون أن يجيبها غير الصدى جعلت تستغيث وتقول : إلي يا أهل النجدة . وقد أيقنت انها وقعت في فخ نصبته لها هذه العائلة .

ثم سمعت صرير مفتاح في القفل فخجلت من نفسها وحسبت ان ابنة الكولونيل قدمت اليها ولكنها ما لبثت أن رأت الباب قد فتح حتى تراجعت إلى الوراء واختنق صوتها ولم تعد تستطيع الكلام .

ذلك انها رأت على عتبة الباب امرأة حاملة مصباحاً بيدها جعلت تنظر اليها وتقول بلهجة الهزء : إذا كنت قديسة كما كانوا يقولون عنك في السجن فهذه فرصة لاختراع العجائب .

وكانت تلك المرأة مدلين الملقبة شيفيوت وهي التي كانت عدوة انطوانيت في سجن سانت لازار وحاولت تسميمها بأمر من تيميلون كما يذكر القراء في الرواية المتقدمة التي عنوانها سجن طولون .

ولما رأت شيفيوت ما كان من رعب انطوانيت جعلت تضحك وتقول لها: لا فائدة من صراخك إذ لا يجيبك غير الصدى .

وسمعت عند ذلك صوت رجل يقول : وأنا أيضاً فاني لا أزال هائماً بهذه الحسناء .

ثم ظهر هذا الرجل ولما رأته انطوانيت شهقت شهقة عظيمة وسقطت مغمياً عليها .

أما هذا الرجل فقد كان اللص المدعو بوليت .

وهو الذي ادعى حين قبض على انطوانيت وسيقت الى سجن لازار في

في الرواية السابقة انه كان خليلها .

وأما الكولونيل وابنته فقد اختفيا ولم يظهر لهم أثر .

- ٣٠ -

ولندع الآن أنطوانيت في قبضة شيفيوت وبوليت ولنعد الى فاندا تلك المرأة الشديدة الذكية الصبورة التي اختارها روكامبول عوناً له وجعل جل اعتماده عليها في انقاذ انطوانيت .

فان فاندا حين فتحت النافذة ونظرت منها الجنود وروكامبول علمت كل شيء فقالت لمدلين انتظريني قليلا سأعود اليك .

ثم دخلت الى غرفة روكامبول وأخرجت من خزانته علبة كان فيها ست حبات سوداء صغيرة لا يزيد حجم الواحدة منها عن رأس الدبوس .

وكان لهذه الحبوب تأثير عظيم ولم تكن فاندا تعلم حقيقة نتائجها ولكنها ذكرت ان روكامبول قال لها مرة : إذا قبض علي يوماً فابذلي جهدك بايصال حبة إلي من هذه الحبوب وأنا أتدبر فيها .

وسألته : العل فيها سم ؟

– نعم ، ولكنها لا تميت من يبتلعها ولا يخلص من تأثيرها إلا بعد ست ساعات .

واكتفت بهذا الجواب المبهم

وعندما فتحت تلك العلبة أخذت حبة منها ووضعتها تحت لسانها ونزلت لمقابلة روكامبول فودعته وعانقه ونقلت الحبة من فمها الى فمه حين التقبيل .

ثم خرج الجند بروكامبول وعادت فاندا الى الداخل وهي تردد في نفسها كلمات روكامبول واعتماده عليها في إنقاذانطوانيت فدخلت الى مدلين وقالت

لها : إنك نجوت من فظاعة بطرس السائق ، ومن أنياب الذئاب ومن سفـــالة كارل مورليكس ولكن الأخطار لم تنته بعد .

فـأجفلت مدلين وقالت · رباه ماذا حدث العل الخطر قـد داهم اختي وميلون ؟

-. لا أعلم شيئاً .

– وروكامبول ؟

– إن الجنود قبضوا عليه ، وهو الآن في طريق السجن ، ولكـني لا أخشى عليه .

– رباه ، وأنطوانيت ماذا جرى لها ؟

– سوف انقذها .

وعند ذلك دخل نويل وعليه علائم الذعر والاضطراب وقال : لقد قبضوا على روكامبول . .

فنظرت اليه فاندا نظرة إنكار وقالت . العلك خفت فاعلم الآن انه إذا كان قد قبض على الرئيس فأنا للرئاسة مكانه .

– وأنا مستعد للخضوع .

– إذن فاعلم انه يجب ان تذهب بهذه السيدة الى منزل أمك .

– في شارع سربنت ؟

– نعم !.

فقالت مدلين : لماذا لا أبقى معك ؟

– ذلك لأن كارل مورليكس الذي يريد لك الموت إذا كان قد ا كلتــه الذئاب كما اتمنى فانه ليس الرجل الوحيد الذي يسعى الى إعدامك واعـدام أختك ، فقد ترك في باريس حين سفره الى روسيا معاونين له اغتنموا فرصة غيابنا واختطفوا انطوانيت ، واحتجب ميلون وكادوا لروكامبول ، على ان روكامبول لا يشغل بالي فإن جدران السجون لا تعترضه اذا أراد الخروج منها

ولكن الذي يشغلني ميلون وانطوانيت .

– أتنقذين اختي اليس كذلك ؟

– ذلك لا بد منه ولا أستطيع انقاذها إلا اذا رأيتك ممثلة لي في جميع ما أريد .

– سأكون معك أطوع من بنانك .

– إذن فأعلمي انهم اذا كانوا قبضوا على روكامبول عند باب هذا المنزل فهم يعلمون اننا نقيم فيه ولا أكون آمنة عليك ولهذا أحببت أن تذهبي مع نويل فسيري معه على بركات الله وثقي به كما تثقين بروكامبول .

– وأنت ماذا تصنعين ؟

فابتسمت وقالت : اني اريد أن أبرهن لروكامبول بأني أهل له .

ثم قالت لنويل : سر الآن بهذه السيدة واعلم انك مسؤول عنها ثم اعلم انه يجب أن أراك في هذه الليلة فأين أجدك ؟

– أتريدين أن أنتظرك في شارع سربنت ؟

– كلا .. فقد يمكن أن يقتفوا أثري .

– اذن أين تريدين ؟

ففكرت فاندا هنيهة وقالت : في الساعة الثامنة من هذا المساء وراء تياترو فاندسور .

– سأحضر في الوقت المعين .

ثم خرجوا جميعهم فذهب نويل ومدلين في مركبة وذهبت فاندا في مركبة أخرى الى المنزل الذي كانت تقيم فيه أنطوانيت فرأت أن أجينور قد ذهب ولكنها بقيت هناك مرتون الحسناء وهي شبيهة بالمجانين لخوفها على انطوانيت فقالت لها فاندا : الا تثقين بي كما كنت تثقين من قبل ؟

وكان هذا الكلام بلسماً لجراحها وقالت لها : نعم فإني أعلم انك قادرة .

– اني أقدر على كل شيء إذا كنت أجد حليفاً مساعداً .

فنظرت اليها مرتون بعينين تتقدان وقالت : مري فإني أطوع من العبيد .
— اذن فاتبعيني اذ لا بد لنا من ايجاد أنطوانيت .
ثم خرج الاثنان وركبتا مركبة وذهبتا .

- ٣١ -

بعد يومين من الحوادث المتقدمة وفي الساعة السابعة من الصباح وقفت مركبة أمام قصر كارل دي مورليكس ووراءها مركبة أخرى تحمل أمتعة فكان في مركبة الأمتعة خادمان وهما بيريتو الإيطالي وبطرس السائق وفي المركبة الأولى مسافران وهما كارل دي مورليكس وايفان دي بونتيف .

وكانت المودة استحكمت بين كارل وايفان في مدة السفر حتى بات ايفان يثق بكارل ثقة لا حد لها وأخص أسباب هذه الثقة ان كارل وعده ان يجد له مدلين .

ولما وقفت المركبة نزلا منها فأخذه كارل بيده قائلاً . هلم معي فان هذا القصر قصرك وقد أعددت لك فيه الدور الأول

ثم صعد به الى محل الذي أعده له ، وكان بيريتو يظهر حنواً عظيماً على ايفان ،فإنه بينما كان الخدم يخرجون الأمتعة من المركبة كان يظهر لهم اشفاقه وخوفه على سيده ايفان وانه مجنون وأعراض جنونه ناتجة عن هيامه بفتاة لا وجود لها .

فكان الخدم ينظرون الى ايفان ساكتين مشفقين وكلهم واثقون ان ايفان من المجانين .

وبينما كانوا يتباحثون في جنون ايفان وغرامه ، كان كارل مورليكس في غرفته يفض اختتام رسائله ويطالعها وقد عثر بينها على رسالة من تيميلون

ففضها بيد مرتجفة وقرأ ما يأتي :

« سيدي الفيكونت .

« مررت أمس بمنزلك فأخبرني البواب انه ورد منك تلغراف من برلين وهو ما يدل على انك رجعت من روسيا فلا تضع الوقت عند عودتك واسرع الى المدموازيل جينين فانها تنتظرك في شارع لندرا وقد قبضت على انطوانيت فليطمئن بالك فانها في محل امين »

« تيميلون »

ثم فتح كتاباً آخر علم انه وارد اليه من طبيب خاص بمعالجة المجانين يقول له فيها انه مستعد لمعالجة الضابط الروسي (أي ايفان) وانه يؤمل أن يشفيه بوقت قريب ولكنه لا يستطيع الجزم قبل أن يرى المريض ، ولذلك فهو سيزوره غداً في منزله فإذا وجد المريض ممكناً شفاؤه أخذه اليه بحجة من الحجج .

فلما قرأ الفيكونت هذا الكتاب نظر في ساعته فإذا بها قد بلغت الثامنة فقال في نفسه : كنت اود ان اذهب الى ابنة جيبين ، ولكن لا بأس فلننتظر الطبيب .

ولم يطل انتظاره فإنه سمع بعد ربع ساعة ان الباب الخارجي يطرق فأطل من النافذة ورأى ان الطارق طبيب المجانين فأمر بادخاله اليه .

وخلا الطبيب بكارل ، فأخبره الفيكونت عن نوع جنون ايفان وبالغ ما شاء بثروة عائلته كي يطمعه ثم قال : انك لا تستطيع ان تدرس الآن نوع جنونه الا بالمحادثة وستتم أبحاثك حين يغدو عندك ، والآن فإننا على وشك العودة من سفر طويل وقد اخذ منا الجوع فسنجلس جميعاً على المائدة وأقدمك لايفان بصفتك من اصحاب الأملاك .

وهو لا يعرف باريس فتعرض عليه منزلك في شارع باسي كي يقيم فيه مع حبيبته مدلين وهي لا وجود لها إلا في مخيلته كما أخبرتك ، فاذا بلغت الى

منزلك ، حجرت عليه مع من عندك من المجانين ، وعالجته كما تشاء ، فيكون لك غنم كبير إذا تمكنت من شفائه . فانه وحيد أبيه ، وهو من أغنى الأغنياء .

وبعد ساعة كانوا جميعهم على المائدة ، فلما فرغوا من الطعام جعلوا يتحدثون فكان كارل يدفع ايفان الى الكلام عن مدلين ، وهو أحب حديث لديه فيندفع في الكلام عنها ويذكر حوادثه السابقة بشكل يدفع الطبيب الى الثقة بجنونه لا سيما بعد ان أخبره كارل بما أخبره عنه .

ثم جعلوا يتنقلون في الحديث الى ان أخبره الطبيب انه يوجد لديه بيت خال يليق ان يقيم فيه مع حبيبته مدلين ، وسأله اذا كان يريد ان يراه بعد ان بالغ في وصفه . فتاق ايفان الى مشاهدته ودعاه الى الذهاب معه . وكان كارل قد أعد المركبة فاستأذن منه وخرج مع الطبيب ، وهو يحسبه من أصحاب الأملاك كما عرفه به كارل ، ثم ركبا المركبة فسارت بهما الى شارع باسي .

وكانت هي المرة الأولى التي قدم فيها ايفان الى باريس ، فكان يدهش من مناظر شوارعها الجميلة وقد انشغل بها عن محادثة الطبيب .

فبينما كانت المركبة تسير في شارع مزدحم بالمركبات وايفان ينظر الى المارة نظر المندهش اذ حانت منه التفاتة الى مركبة مرت بجانبه فصاح صيحة عظيمة قائلا : هذه هي مدلين .

فانذعر بيبريتو الخادم وخاطب نفسه . إذا كانت هذه مدلين حقيقة فقد فسد حساب فاسيليكا وذهبت مساعي انتقامها ادراج الرياح .

أما ايفان فإنه استوقف السائق ، فأجفل الطبيب وسأله : ماذا تصنع ؟

– هوذا مدلين قد مرت .

ثم وثب من المركبة وهو لا يلوي على أحد وجعل يركض وراء المركبة التي رأى فيها الفتاة ويصيح بالسائق ان يقف وينادي مدلين .

فوقفت المركبة واحتشد الناس من حول ايفان وتلك الفتاة ، وقد دهشوا حين رأوه دنا منها وجعل يكلمها بلهجة الحب الشديد وهي تنظر اليه منذهلة لا تفهم ما يريد الى ان قالت له : إنك واهم يا سيدي لأني لا ادعى مدلين بل كارولين وما رأيتك من قبل .

فلما سمع ايفان صوتها تراجع عنها بعد ان اعتذر اليها الطف اعتذار . وكان الطبيب قد أسرع اليه وعاد به الى المركبة . فلما رأى الناس الطبيب يصحبه وهو مشهور بينهم ، عرفوا ان الفتى مجنـــون ، فتفرقوا وهم بين ضاحك لما اتفق ، وآسف لحالة هذا الشاب وجنونه وهو في مقتبـل العمر وريعان الصبا .

أما ايفان فإنه جلس بجانب الطبيب فسارت بهما المركبة وهو يقول : مـا أعجب التشابه فإني لولا صوتها لما شككت انها مدلين .

ولكن الطبيب لم يبق لديه بعد هذا القول ، أدنى شك انه من المجانين ، فقال له . عجباً ! كيف ان هــذه الفتاة كارولين تشبه حبيبتك مــدلين هذا الشبه ؟

— إن ذلك من غرائب الطبيعة ولكني سمعتك تقول ان هذه الفتاة تدعى كارولين فهل لك بها معرفة .

— أعرفها كما يعرفها اكثر أهل باريس لانها من شهيرات بنات الهوى .

فأطرق ايفان هنيهة ثم عاد يـنزه نظره في الشوارع والمركبة تسير بهما على عجل حتى اجتازت مسافة بعيدة ..

وقبل ان تدخل في شارع باسي رأى ايفان مركبة تسير بسرعة شديـــدة ورأى فيها رجلاً وامرأة فصاح صيحة جديدة قائلاً لا يمكن ان أكون مخطئاً هذه المرة فهذه هي مدلين .

ثم حاول ان يثب من المركبة فمنعه الطبيب وقبض عليه بيد من حديد .

ولم يكن ايفان مخطئاً لان التي رآها في المركبة كانت مدلين نفسها وهي

ذاهبة مع نويل . وقد رأته هي ايضاً فاضطربت اضطراباً شديداً وضغطت على ساعد نويل .

أما الطبيب فإنه منعه من الوثوب الى المركبة وقال : انك لا تستطيع ان تدرك مركبتها الآن لانها تسير بسرعة شديدة .

وكان الطبيب قد تبادل نظرة سرية مع بيبريتو ولم يعد لديه أقل ريب بجنونه لأنه ادعى مرتين انه رأى مدلين فتعاون الخادم عليه وقال له : لا حاجة الى وثوبك من المركبة والعدو لان ايجادها من أسهل الأمور .

- كيف أستطيع ايجادها ؟

- ذلك لأني عرفت نمرة المركبة التي تسير فيها وهي ٣١١٩ .

- وإذا كنت عرفت النمرة ؟

- نذهب الى إدارة شركة المركبات بعد زيارة منزلي فنعرف من النمرة السائق وهو يدلنا على المنزل الذي ذهب اليه بمدلين .

فوثق ايفان من قوله ، وكانت المركبة قد بعدت بعداً شاسعاً في خلال الحديث فاستمرت في سيرها حتى بلغت ذلك المسكن الذي أعده الطبيب مستشفى للمجانين .

فدخلت المركبة في ردهة المسكن وأسرع الخدم الى استقبالها فأقفلوا في الحال الباب الكبير دون ان ينتبه ايفان لما يفعلون . ثم دخل الطبيب إلى قاعة فسيحة وقرع جرساً فأقبل اليه ثلاثة عليهم ملابس رجال الصحة فدفع اليهم ايفان قائلاً لهم : هوذا ضيف جديد اريد ان تعتنوا به كل الاعتناء ، وأن تبدأوا بعلاجه بالماء البارد الى ان أعود .

ثم تركهم وانصرف .

فأحاط الثلاثة بايفان وقد دهش دهشة شديده لما رآه فقال لهم : ماذا تريدون مني ؟

فجعل كل منهم ينظر الى الآخر ويبتسم الى ان قال له أحدهم : هلم معنا

الى الحمام البارد لانه ينفعك .

فصاح ايفان صيحة منكرة وقد علم من ملابسهم وكلامهم أنه في مستشفى المجانين .

أما الثلاثة فانهم هجموا عليه وقادوه بالعنف فكان بيبريتو الخادم يضحك من ورائه معجباً بسيدته فاسيليكا وبانتقامها الغريب .

- ٣٢ -

ولنعد الآن الى كارل دي موروليكس ، فانه بعد أن خرج من منزله الطبيب وايفان أسرع بالخروج في أثرهما ، فركب مركبة وذهب بها الى شارع لندره حيث كتب له تيميلون ان يقابله ، في بيت عينه له ابنه الكولونيل جيبين .

فلما وصل رأى تلك الفتاة بانتظاره فقال لها : إني الفيكونت كارل دي موروليكس .

فانحنت الفتاة أمامه باحترام وقالت : إني أعلم يا سيدي ، السبب في قدومك . فتفضل بالانتظار هنيهة الى ان يعود تيميلون ، فقد ذهب أبي يدعوه .

– من أين ؟

– من المحل المحبوسة فيه الصبية لانها ليست في هذا المكان .

وبعد هنيهة جاء تيميلون فأطلق سراح الفتاة وجلس بازاء الفيكونت ودار بينهما الحديث الآتي :

قال تيميلون : إن انطوانيت باتت في قبضة يدي الآن .

– لقد كتبت لي عن ذلك .

– وهي لا تفلت مني في هذه المرة .
– ما دام روكامبول موجوداً لا أثق بشيء .
– أوثقت من قوته الآن ؟
– كل الوثوق .
– أظن انك التقيت به في روسيا ؟

فهز كارل رأسه إشارة الى المصادقة وقد اصفر وجهه لذكر تلك الحوادث.
فابتسم تيميلون وتابع : لقد علمت ببعض حوادثك معه فقد ظفرت بمدلين ثم أنقذها منك .

فعض الفيكونت شفته من الغيظ وأجاب : لا بد لي من إيجادها .
– وأنا كذلك .
– ولكن روكامبول لا بد ان يكون حذراً عليها كل الحذر .

فضحك تيميلون وأجاب : ستقص علي حوادثك فيما بعد . والآن ، إسمع حوادثي فإني تركت ابنتي في إنكلترة إذ لولاها لما غلبنا روكامبول في المرة الأولى وعدت الى باريس ولكن أتعلم الى اين ذهبت ؟
– كلا وكيف تريد ان أعلم ؟

– إني ذهبت تواً الى إدارة البوليس فسلمت نفسي لاني كنت متهماً بسرقة منزلك ولكنهم أطلقوا سراحي أتعلم لماذا ؟
– العلك أثبت لهم براءتك ؟
– لم أتكلف الى ذكر كلمة بهذا الشأن ولكني عرضت عليهم تسليم روكامبول مقابل إطلاق سراحي .

فهز كارل رأسه وأجاب: لقد جريت شوطاً بعيداً في أحلامك لان روكامبول لا يؤخذ .
– إنك منخدع يا سيدي الفيكونت فانه سجين منذ ساعة .
فوثب كارل عن كرسيه وهو لا يصدق ما يسمع وسأله : أحقيقة ما تقوله

أم أنت تهزأ بي ؟

– كلا فلا أقول لك غير الحق .

– ولكنه سيفر من السجن .

– إنهم قد اتخذوا الاحتياطات الشديدة فلم يبق له سبيل الى الفرار .

– ولكنهم سيعيدونه الى سجن طولون وسيفر كما فر من قبل .

– كلا إنك منخدع ايضاً لأن روكامبول قد اتهم في سجن طولون بالاشتراك بقتل أحد وكلاء السجن الذي قتله أحد أصحابه انتقاماً لكلبه فهم سيحكمون عليه بالاعدام وليس بالسجن كما توهمت الآن فاذاً لم يبق خوف من روكامبول . فلنتحدث فان روكامبول قد عاد من روسيا بمدلين .

فبدت علائم الاضطراب في وجه كارل وقال : اين هي مدلين ؟

– ستكون في قبضتي حين أشاء .

– إذاً ستقبض عليها في الحال .

– كلا إذ يجب قبل ذلك ان نتفق .

– إنك تريد ان نتفق على مبلغ جديد ؟

– دون شك .

– قل إني مصغ اليك .

– إن العيش في انكلترا أدعى الى النفقة منه في فرنسا ومن عاشر الانكليز ونظر إلى نفقاتهم يحسب الفرنسيين فقراء بازائهم .

– وبعد ذلك ؟

– إن من يكون دخله ٢٥ الف فرنك في فرنسا يحسب نفسه غنياً واما هذه القيمة في انكلترا فهي تدل على المسكنة وأنا أحب العيش في تلك البلاد .

فحملق كارل بعينيه وسأله قل ماذا تريد ؟

– أريد أن أبيعك اولئك الثلاثة الذين حرموك لذة الرقاد مبتدئاً بروكامبول فكم تقدر ثمنه ؟

ـ لا أعلم

ـ ثم انطوانيت ثم مدلين . أما روكامبول فلا حاجة الى الاهتمام به الآن ، وأما الاختنان فان شأني معها غير شأني مع روكامبول على اني اسلمهما لك او افعل بهم ما تريد .

ـ كم تطلب مقابل ذلك ؟

فأجابه تيميلون ببرود مليون فرنك فقط .

ـ مليون فقط ! لا شك انك مجنون .

فنهض تيميلون عن كرسيه واجاب: إني كنت أتوقع منك مثل هذا الجواب ولكن يجب ان تعلم اني لا أنقص شيئاً من مطالبي .

ـ وأنا أعيد اليك ما قلته وهو انك مجنون .

ـ إنك مخير بين الرفض والقبول .

فضرب كارل الأرض برجله ورد : ويحك كيف تجسر على مثل هذا الطلب ألا تعلم كم يبلغ المليون ؟

ـ لا أنكر انه ثمن فاحش ولكني أعرف رجلاً آخر يعطيني هذا المليون دون تردد .

ـ من هو هذا الرجل ؟

ـ هو ابن اخيك اجينور دي موركيس .

فنظر الفيكونت الى تيميلون نظرة منكرة . وساد بين هذين اللصين سكوت فصيح دل على ان حياة الأختين اليتيمتين معقودة على كلمة تصـدر من فم الفيكونت .

ولنعد الآن إلى انطوانيت فلقد تركناها جاثية على ركبتيها وقد ملأ الذعر قلبها وهي تستعيذ بالله من شر بوليت وشيفيوت .

فكان بوليت يقول لها وقد بدت في وجهه ملامح الفرح الوحشي : إنك لا تنكرين حي ولا تفلتين من يدي هذه المرة .

وكانت شيفيوت تدنو منها متهددة منذرة فتقول إنك خرجت من السجن ميتة ، ثم ردت اليك الحياة . ولكنك ستموتين هنا ، ولا ترد اليك الحياة !

ثم تهددها بقبضتها وتحاول ضربها .

وكانت انطوانيت راكعة تصلي دون ان تحاول الدفاع .

ولكن يد شيفيوت قبل ان تصل الى انطوانيت قبض عليها بوليت من وسطها والقاها بعيداً عنه في أرض الغرفة وهو يقول : احذري بعد ذلك ان تمسي هذه الفتاة بسوء .

غير ان شيفيوت لم تكترث لما أصابها من بوليت ، فنهضت من سقوطها وهجمت مغضبة على انطوانيت . فحال دونها بوليت ، وجرى بينهما قتال عنيف .

وكانا يتشاتمان بأقبح الفاظ السجون ، فيتلاكمان ويتضاربان ويفترقان ويتلاحمان . كل ذلك وانطوانيت تنظر الى هذين المدونين الهائلين نظرات الرعب وهي تتمنى النصر لشيفيوت لأنها تؤثر الف مرة ان تموت بضرباتها على ان تقع في قبضة ذلك الفاسق الذي يدافع عنها .

وفيما هما يتقاتلان وقد يئست انطوانيت من النجاة ، فتح الباب ووقف على عتبته رجل ، فاضطرب لمنظره المتقاتلان وتراجعا الى الوراء وقد صبغ وجههما بحمرة الخجل

وكان هذا الرجل تيميلون فانتعش فؤاد انطوانيت حين رأته لأنها لم تكن رأته من قبل، فحسبت انه قادم لإنقاذها فأسرعت اليه وقالت له بلهجة المتوسل: أنقذني يا سيدي بحق السماء .

غير ان تيميلون لم يجبها بل نظر مغضباً الى بوليت وشيفيوت وقال لهما : أوضحا لي أسباب هذا الخصام .

فدنت شيفيوت وقالت : إن هذه الفتاة أساءت إلي إساءة شديدة في سجن سانت لازار ولما رأيتها اردت ان انتقم منها فمنعني بوليت .

فقال تيميلون لبوليت : وانت ماذا تقول ؟

– إن أمري بسيط ، وهو اني أحببت هذه الفتاة ، ولا أريد أن يضربها أحد .

– اني لا أوذن لأحد منكما بالإساءة اليها فاني وضعتكما معها لحراستها ومنعها عن الفرار فاخرجا الآن واعلما انكما اذا عصيتما أوامري أرجعتكما الى السجن انكما لا تخرجان منه إلا بوساطتي .

فخرج الاثنان وعلمت انطوانيت انهذا الرجل الذي كانت ترجو ان ينقذها كان ألد أعدائها .

أما تيميلون فانه أقفل الباب ودنا منها فقال : ألا تعرفيني يا سيدتي ؟

فقالت وهي ترتجف من الخوف: هذه هي المرة الأولى التي أراك فيها ولكني أسألك بالله يا سيدي ان توضح لي ما يكتنفني من الأسرار .

– إن الأمر بسيط فانك تعرفين تاريخك حق العرفان ولا سبيل الى كتمان الحقيقة عنك فأنا الذي قبضت على ميلون وان الكولونيل الذي رأيته كان من خدمي وتلك الفتاة التي كانت تصحبه من بنات الهوى ، وإنما مثلنا هذا الدور للقبض عليك وعلى ميلون .

فاشمأزت انطوانيت من حديثه وقالت له : ماذا تريد من القبض علي وبماذا أسأت اليك ؟

– إنك ما اسأت إلي بشيء ، ولكن وجودك مثقل على بعض النــاس ، وقد وضعوا المبالغ الطائلة في سبيل القبض عليك وحبسك في هذا المكان . ثم تركها وانصرف دون ان ينظر اليها او يسمع ما تجيب .

أما انطوانيت فانها أيقنت بان عدوها واحد ، وانه هو نفس الذي القاها في سجن سانت لازار . فركعت وجعلت تصلي ملتمسة بصلاتها عزاء عما هي فيه . فلما فرغت من صلاتها ذهب عنها ما كانت تلقاه من الخوف وباتت تعتقد انه لا بد لروكامبول واجينور من إنقاذها .

وكان باب الغرفة مقفلاً من الخارج والنافذة مقفلة أيضاً ولا سبيل إلى فتحها لالتصاق خشبة فوق مصراعيها وضعت خاصة لمنع فتحها ، فكانت انطوانيت في ظلام دامس لولا بقية شمعة كانت تنير الغرفة . فلمـــا انتهت تلك البقية وانطفأت الشمعة ساد الظلام فعاد الرعب والهواجس إلى فؤادها .

ولكن بعد هنيهة سمعت ان الباب انفتح ، ثم رأت شيفيوت داخـــلة تحمل شمعة ، وفي أثرها بوليت يحمل مائدة عليها بعض الطعـــام . فوضعت شيفيوت الشمعـــة في مكانها ، ووضع بوليت الطعام أمـــام انطوانيت . ثم خرجا دون ان يفوها بحرف واحد . ولكنهما نظرا اليها نظرتين كانتا تشف إحداهما عن الحقد الشديد ، والأخرى عن الغرام الأكيد ، فكانتا أبلغ من كل كلام .

وظلت انطوانيت على هذه الحالة سبعة أيام لا ترى أحداً من النـــــاس غير هذين الحارسين وهي لا تراهما إلا حين يحضران الشمعة والطعام .

ولقد لقيت في أثرها عناء شديداً ، فكانت تارة تصلي فترجو ، وتارة تذكر حبيبها وكلام فيميلون فتبكي وتقنط . وتفكر فيما تجده من نظرات بوليت وشيفيوت فتضمحل قواها من الخوف ، وتسقط على الأرض واهيـــة . وقد تمكن منها الهزال في هذه الأيام السبعـــة حتى أيقنت بقرب الموت ، وجعلت تشتهيه .

ولما كان اليوم السابع وهي لا تعلم أكان ذلك في النهار أم في الليل ، لأنها كانت في غرفة لا ينفذ اليها أقل شعاع من نور السماء سمعت حديثاً خارجاً من الغرفة المجاورة لها فدنت من الجدار وجعلت تصغي الى الحديث فعلمت من صوت المتحادثين انهما تيميلون وشيفيوت فسمعت منهما ما يأتي :

قالت شيفيوت : إني أرى على وجهك علائم السرور والارتياح ، فهل قضي الأمر ؟

– نعم فقد قبضت المال ونلت جميع ما طلبت .

– إذاً فان انطوانيت أصبحت لي دون منازع أنتقم منها كما أشاء .

– كلا بل هي لك ولبوليت على السواء .

– ولكني لا أرتضي بهذه الشركة .

– لماذا ؟

– لأن بوليت يحبها فلا يأذن لي بقتلها .

– ربما كنت مصيبة .

– وهي إذا بقيت في قيد الحياة تفسد جميع أموركم. وإذا كنت قد قبضت ثمن موتها فلماذا تريد الإبقاء عليها ؟

– لقد أصبت فافعلي ما تشائين .

ففرحت شيفيوت فرحاً وحشياً ، وهمت ان تدخل إلى انطوانيت . فأوقفها تيميلون وقال : إحذري من ان تدفعيها الى الصياح ! لان الجيران كثيرون .

– لا تخف لاني سأخنقها خنقاً ولا أدعها تصيح .

– وبعد ذلك ؟

– لا يعنيني أمرها فانه متعلق بك .

– نعم انه يوجد لحسن الحظ قبو ندفنها فيه فافعلي ما تشائين وسأعود اليك بعد ساعة لأعد معدات دفنها .

ثم خرج فسمعت انطوانيت وقع أقدامه ، وسمعت شيفيوت تشتم أقبح الشتائم الدالة على الوعيد . ثم انقطع صوتها فعلمت انها قادمة اليها وان الساعة الرهيبة قد دنت .

فتراجعت انطوانيت الى النافذة المسدودة وقد قنطت من الحياة وعولت على الدفاع حتى الموت . ولكنها ما وصلت الى النافذة حتى سمعت من ورائها صوت قرع عليها فسرت الى فؤادها روح الحماسة ، وأيقنت انه لم يقرع النافذة غير القادمين لنجاتها .

فوضعت فمها على تلك النافذة وقالت : اكسروها فإنها مسدودة . أنجدوني فسوف يقضى عليّ ..

وعند ذلك فتح باب الغرفة ودخلت منه شيفيوت .

- ٣٤ -

ولنعد الآن الى فاندا التي تركناها مع مرتون آخذين بالبحث عن انطوانيت فان فاندا كانت تخرج معها كل يوم متنكرين فتطوفان انحاء باريس ولا تدعان وسيلة للبحث والتنقيب ، ثم تعودان خائبتين دون ان تظفرا بأثر يرشدهما الى انطوانيت .

وظل هذا دأبهما الى اليوم السابع فإنهما بينما كانتا تطوفان في أحد الشوارع رأت مرتون بوليت خارجاً من خمارة وهو يتهادى من سكره فنبهت فاندا اليه وقالت لها : هوذا الرجل الذي كان معنا حين قبض البوليس علينا مع انطوانيت وأرسلنا إلى سجن لازار ، ولا بد ان يكون لخروجه من السجن علاقة بانطوانيت .

– وكيف ذلك ؟

ــ ذلك انه هو الذي اختطف انطوانيت اول مرة بايعاز من تيميلون وجاء بها الينا لاننا كنا عصابة واحدة ثم سجن معنا فحكم عليه بثلاثة أعوام على الأقل ولو كان هرب من السجن كما هربنا منه لما تجاسر ان يمشي في مثل هذا الشارع المطروق في رائعة النهار .

ــ هو الحق ما تقولين .

ــ والذي أراه ان الحكومة أطلقت سراحه بطلب تيميلون وان تيميلون قد دخل في خدمة البوليس كما كان يفعل من قبل ولما كان هو الذي اختطف انطوانيت في المدة الأولى فلا بد ان يكون هو الذي اختطفها الآن .

ــ وهذا ايضاً لا ريب فيه .

ــ إذاً فلا بد ان يكون بوليت عارفاً اين توجد أنطوانيت . فهلم بنا إلى اقتفاء أثره .

فاستحسنت فاندا رأيها وأيقنت من صوابه وسارتا في أثره .

أما بوليت فقد كان أخذ السكر منه مأخذاً عظيماً فجعل يسير وهو يعربد ويتمتم ويذكر اسم انطوانيت ثم يذكر تيميلون مغضباً ويقول لا بد لي من الاستيلاء عليها ولو كره تيميلون .

وكان يمشي ومرتون وفاندا بأثره وهو لا يشعر بهما حتى وصل إلى الغرفة التي كان يقيم فيها قبل ان يسجن .

وكانوا قد أخذوا منه مفتاحها في السجن فلم يكترث لذلك وأخرج خنجره من جيبه كي يكسر به القفل فانكسر الخنجر ولم يفتح الباب ، فغضب غضباً شديداً وتراجع متحفزاً ثم صدم الباب صدمة قوية فكسر ودخل الى غرفته القديمة فدخلت المرأتان على الفور في أثره فلم يشعر إلا وهما واقفتان عند مدخل الغرفة تمنعانه عن الخروج

فدنت مرتون وهي تقول لفاندا إبقي مكانك يا سيدتي فلا يخلق بمن كان مثلك ان يتدانى الى محادثة هذا الشقي وانا كفوء له .

فوقفت فاندا عند الباب كي تحول دون فراره اذا حاول الفرار وعلم بوليت انه أخطأ خطأ عظيماً لكسره خنجره .

ولكن السكر أضل صوابه فلم يحذر في بدء أمره من هاتين المرأتين إلى ان دنت منه مرتون ورأى في عينيها ما يدل على الشر فتراجع قليلاً وقال لها : ماذا تريدين ؟

– إني أتيت مع هذه السيدة قصد ممازحتك .

– ولكني لا أعرف هذه السيدة .

– لا بأس فسأعرفك بها .

فضحك بوليت ضحكاً عالياً دفعه اليه السكر فاقتربت مرتون خطوة منه وقالت له . أراك قد كسرت خنجرك

– كسرته حين معالجتي قفل الباب .

– إن خطأك لم يقتصر على كسر خنجرك فإنك قد أكثرت من الشراب حتى ذهب السكر بعقلك .

فغضب بوليت وقال وماذا يهمك امري الملك إمرأتي ؟

– إني لا الومك هذا اللوم إلا لخيرك لان إفراطك بالسكر يؤذيك .

– وما يهمك كل ذلك ؟

فتقدمت خطوة ايضاً وقالت : قلت ان ذلك لا يهمني بل يهمك فلولا سكرك لبقي لك خنجرك تدافع به عن نفسك عند الاقتضاء ولولا سكرك لما أصبحت بهذا الضعف حتى انك لا تستطيع الوقوف .

– أتظنين اني ضعيف لهذا الحد ؟

– بل أؤكد .

– ولكني لم افهم شيئاً مما تريدين فماذا تقصدين من هذه الأقوال ؟

فاقتربت منه وقالت : أولا اريد ان أمازحك .

– وثانياً ؟

- أريد أن اعرف كيف أصبحت مطلق السراح ، وقد غادرتك في السجن ؟

- ذلك لأني هربت منه .

- كذبت .

- كيف عرفت اني كذبت ؟

- لأني علمت ان تيميلون أخرجك منه ، وهو ما يدل على انه عاد الى خدمة الحكومة .

فما تجاسر بوليت على الانكار . وعند ذلك وضعت مرتون يدها على كتفه وقالت له :

- قل لي كيف حال انطوانيت ؟

فارتعش بوليت لهذا السؤال واصفر وجهه وقال لها ولسانه يتلعثم : ماذا يهمك أمرها ؟

- أحب ان أعرف شيئاً عنها .

فأجاب بلهجة وحشية : إنها على خير حال ولا أزال على هيامي بها .

ولكنه قبل ان يتم كلامه هجمت مرتون عليه وصدمته صدمة شديدة ، فسقط على الأرض لسكره فركعت فوق صدره وقبضت على يديه حتى لم يعد يستطيع حراكاً فجعل يصيح ويستغيث ولكن غرفته كانت منعزلة في شارع مقفر فقالت له : لا تزعج نفسك بهذا الصياح إذ لا يسمعك احد .

- إذاً ماذا تريدين مني ؟

- قلت لك اني أريد ان امازحك .

ثم نظرت الى فاندا التي كانت لا تزال واقفة دون حراك نظرة سرية ، ففهمت قصدها ، وللحال فكت أزرار صدرها وأخرجت ذلك الخنجر الذي طعنت به كارل دي موروليكس ثم تقدمت ودفعته لمرتون .

وكان بوليت جباناً ، وقد زاده سكره خوفاً وحطة . فلما رأى نصل

ذلك الخنجر يبرق في يد مرتون ، ارتعدت فرائصه جزعاً وقال لها : ماذا تريدين ؟

فوضعت الخنجر فوق عنقه وقالت . إنك تعرفني من انا وتعلم اني لا اخلف بما أقول فاذا لم تقل اين انطوانيت . .

فاضطرب بوليت لذكرها وقال : إني أحبها .

ولكنه شعر ان الخنجر قد وخز عنقه ، فصاح صيحة الخائف وقال : لا تفعلي !

– إذاً قل لي اين الفتاة وإلا قتلتك دون إشفاق .

فتردد هنيهة كأنه يحاول ان يختلق قولاً ، فما أمهلته مرتون ووخزته بالخنجر فجّرحته جرحاً خفيفاً أسال دمه وقالت له . إذا لم تسرع بالقول أغمدت هذا الخنجر في عنقك .

– كفى ! كفى بالله !

– أتقول اين هي الفتاة ؟

– أقول كل شيء فارفعي هذا الخنجر .

فرفعت مرتون خنجرها وهي لا تزال رابضة على صدره وقالت : قل أين الفتاة ؟

– إنها في قبضة تيميلون .

– أعرف ذلك ولكن اين هي ؟

– في شارع بلفوند .

– في أي منزل ؟

– نمرة ٢١ .

– ومن يحرسها الآن ؟

– تيميلون وشيفيوت . إنهضي عني بالله فقد عرفت كل شيء .

– قل إذاً يجب ان تخبرني بجميع ما حدث .

ـ لا أعلم شيئاً سوى أن تيميلون أخرجني من السجن مع شيفيوت وعهد الينا بحراسة انطوانيت فاذا خرجت شيفيوت توليت مكانهـا وإذا خرجت تولت مكاني .

– وهل تسيء شيفيوت معاملتها ؟

ـ لا تستطيع الاساءة اليها وأنا هناك .

وعند ذلك رأت فاندا ان الحديث قد انتهى مع هذا الرجل وانه آن لها لها تتداخل فدنت منها وقالت لمرتون: يجب أن نستوثق من صدق هذا الرجل لأني لا آمن أن يكون حديثه زوراً ، وحكايته مختلقة فابقي أنت بقربه وأنا ذاهبة إلى ذاك المنزل الذي وصفه لأتحقق صدقه وإنما أريد أن أعـلم شيئاً عن صفة هذا البيت وعن الغرفة التي تقيم فيها انطوانيت .

فأجاب بوليت : انه بيت ذو طـــابقين يقيم في الدور الأعلى منه عائلة انكليزية ، وانطوانيت في الدور الثاني وبهذا البيت حديقة تحيط به من جميع جهاته ، والغرفة التي تقيم فيها انطوانيت تشرف على الحديقة ولها نافذة تشرف على رواق ولكنها مقفلة كي لا تجد سبيلاً الى الفرار منها .

فاكتفت فاندا بما سمعت ومضت في شأنهاوبقيت مرتون أمام بوليت تنذره بخنجرها ولا يستطيع الدفاع لسكره .

وذهبت فاندا فتنكرت بملابس الغسالات ومضت إلى ذلك المـنزل ترود حوله، ورأت تيميلون خارجاً منه دون أن يراها ، ورأت شيفيوت مطلة من نافذة ورأت الحديقة والغرفة المسجونة فيها أنطوانيت ، والرواق الكائن تحت النافذة المقفلة المشرفة على الحـــديقة فوثقت من صدق بوليت وامتحنت سور الحديقة وعلمت أسهل الطرق الموصلة اليها .

وعند ذلك عادت مسرعة إلى البيت المقيم فيه نويل مع أمـه ومدلين ، وقالت فاندا لنويل : اني محتاجة اليك في هذا المساء فانتظرني إلى أن أرى مدلين .

ثم تركته وصعدت إلى مدلين ، فلما رأتها فرحت بها فرحاً لا يوصف ، وطوقت رأسها بذراعيها وجعلت تبكي وتقول : رأيت ايفان ورآني وهو الآن في باريس .

وجعلت تقص عليها ما لقيته من التأثر الشديد حينما رأت ايفـــان في المركبة فنظرت اليها نظرة المؤنب وقالت: يجب علينا الآن أن نفتكر بأختك أنطوانيت .

فاصفر وجه مدلين وقالت عفوك يا سيدتي فلقد ذهب الطيش بصوابي حتى نسيت تلك الأخت العزيزة وما هي فيه .

ـ لا بأس لأنك قد أصغيت لصوت قلبك ولقد قلت لي ان ايفـــان في باريس ، وهو ما قدم اليهــا دون شك إلا للبحث عنك ومتى كان كل من العاشقين يبحث عن الآخر فلا بد لهما من الالتقاء ولكن يجب علينا قبل كل أمر أن نجد انطوانيت فاني قد وقفت على أثرها .

وصاحت مدلين صيحة فرح وقالت : أحق ما تقولين ؟

ـ لا أستطيع أن أزيد شيئاً على ما قلته ولكني أدعوك إلى الرجاء .

ـ أن لي كل الثقة بك وبروكامبول .

ـ أن روكامبول سينجو بنفسه وسترينه .

ثم أخذت يدها بين يديها وقالت لها : أتكونين طائعة لي ؟

ـ كل الطاعة .

ـ وتعديني انك لا تخرجين من هنا إلا معي أو مع روكامبول ؟

ـ أعدك وعداً صادقاً بالامتثال .

ـ يجب أن تعلمي أن عدوك وعدو أختك واحد وإنك معرضة للخطر الذي أصابها نفسه ، فاذا خالفتني أقل مخالفة مدة غيابي وقعت في فخ العدو .

ـ أقسم لك اني لا أخرج من هنا إنما أرجوك أن تخبريني متى نجد ايفان .

ـ بعد إنقاذ انطوانيت .

ثم تركتها ورجعت إلى الغرفة التي تركت فيها نوبل ينتظرها فقالت له : قلت لك اني محتاجة اليك في هذه الليلة .

– متى ؟

– عند منتصف الليل وسأجيء اليك متنكرة بزي الغلمان فتنكر أنت أيضاً وأعد المعدات اللازمة لتسلق جدار وكسر نافذة وانتظرني إلى أن اعود اليك ولا تنس أن تتسلح بمسدس وخنجر .

فاحنى رأسه إشارة الى الامتثال لأنه بات يخضع لفاندا كما كان يخضع لروكامبول .

* * *

لقد تركنا أنطوانيت في أحرج موقف بين يأس يتولاها من دخول شيفيوت عليها بعدما سمعته من حديثها مع تيميلون وانه أطلق لها السراح بقتلها ، وبين رجاء بالنجاة حينما تراجعت مذعورة الى النافذة وسمعت قرع طارق عليها ووضعت فمها عليها وقالت : أدركوني واكسروا الباب فانها مسمرة من الداخل .

أما شيفيوت فانها فتحت باب الغرفة وهجمت عليها هجوم العقبان الكواسر دون ان تكترث لصياحها وهي تقول : انك لا تسلمين مني هذه المرة لأن الرئيس أباح لي قتلك .

وجعلت تضغط على عنقها ضغطاً شديداً حتى أوشكت أن تخنقها .

فدافعت انطوانيت عن نفسها دفاع اليأس وأفلتت منها وجعلت تصيح وتستغيث ، فقالت لها : ان صياحك لا يطول إذ لا بد لك من الموت .

ثم وثبت عليها وثبة ثانية فتخلصت منها انطوانيت بعد عراك طويل وجعلت تستغيث إلى ان أعادت عليها الكرة مرة ثالثة ففازت عليها والقتها

على الأرض ، فركعت فوق صدرها وطوقت عنقها بيديها فأغمضت انطوانيت عينيها واستسلمت للموت لعجزها عن الدفاع .

ولكن شيفيوت لم توشك ان تضغط على عنق انطوانيت حتى سمعت البيت قد ارتج ورأت النافذة قد كسرت ووثبت منها فاندا بملابس الغلمان فأطلقت نار مسدسها على شيفوت فوقعت الرصاصة في صدرها وسقطت تلك الشقية على الأرض وهي تشتم أقبح شتم والدماء تخرج من صدرها .

- ٣٥

ولندع الآن فاندا ونويل آخذين بانقاذ انطوانيت عائدين إلى روكامبول حيث تركناه في السجن كما قدمنا .

وبعد ان قابله مدير الشرطة حبس في سجن البوليس ساعتين ثم نقل إلى سجن مازاس ، وذلك مما يؤيد ما قاله رئيس البوليس وهو انه لا يمكن استنطاقه والتحقيق في امره إلا بعد ان يحضروا ميلون ويقرنونه اليه .

وأقام روكامبول في السجن اربع وعشرين ساعة وهو سجن هائل يقيم فيه السجين وحده في غرفة مظلمة فلا تحين ساعة استنطاقه حتى تضعف قواه ويتلاشى ..

ولكن روكامبول لم يكن من أولئك الذين تهولهم السجون .

فان من أقام عشرة أعوام في سجن طولون مقيداً بالحديد تحيط به الأرصاد والعيون دون ان يضجر أو يبوح بسره لأحد ، لا يتعبه سجن بسيط يقيم فيه يوماً أو يومين .

ومع ذلك فان روكامبول كان يشعر بانقباض شديد في صدره ولم تذق عينيه طعم الرقاد في تلك الليلة حتى انه بكى في سجنه بكاء الأطفال .

ولم يكن بكاؤه لخوفه من السجون ولصدور الحكم عليه بالاعدام فان من يتوب توبة صادقة لا يكترث للموت والعذاب غير انه كان يبكي لاشفاقه على الأختين اللتين تركهما في قبضة عدو شديد ولا ناصر لهما غير فاندا .

ثم لما فرغ من بكائه شعر بحرج موقفه فجثا على ركبتيه فصلى إلى الله مبتهلا وختم صلاته بقوله :

« رباه أني ما هربت من عقاب الانسان إلا لأندفع إلى غمرات الخير وأفعل من الحسنات ما اكفر به عن ذنوبي السابقة فاغثني برحمتك وهبني من لدنك عوناً على إتمام ما شرعت به ومهد لي السبيل لانقاذ الأختين مما يكيده لهما رجال الشر ، وأذن لي أن أرى مرة تلك المرأة التي أحببتها دهراً طويلا حب الأخاء ثم أعود إلى السجن فأقيم فيه إلى ان تحين ساعة لقياك الرهيبة .

ولا ألتمس منك منذ الآن إلى أن تحين تلك الساعة إلا أن تأذن لي بأن أنكر حقيقة أمري امام القضاة وان تغتفر لي هذا الكذب إذ لا أريد به غير النجاة لانقاذ الأختين وأنت أعلم بما في القلوب » .

وعند الساعة الثامنة من الصباح كان روكامبول لم ينم بعد فجاءه السجان بالطعام أشكال مختلفة تدل على انه كان مشمولاً بالرعاية .

وذلك أن مدير سجن مازاس اعجبه كبرياء روكامبول ومظاهر جلاله فحتم أن البوليس مخطيء وانه قائد روسي لا شك فيه فبالغ في اكرامه لاعتقاده ان القضاء سوف يكشف ظلامته متى تبين خطأه وأمر أن يؤتى له بالطعام الشهي وبالكتب لمطالعتها وتسلية أشجانه فيها .

وكان بين هذه الكتب التي ارسلها اليه لمطالعتها كتاب ضخم يتضمن تاريخ لويس الثالث عشر وقد جيء به من مكتبة الثكنة الحربية .

وكان السبب في وجود هذا الكتاب في سجن مازاس أن أحد الصحافيين كان مسجوناً فيه فطلب مراجعة هذا التاريخ ، ثم خرج من السجن وبقي

التاريخ في السجن دون أن يرجعوه إلى المكتبة فارسله المدير مع ما لديه من الكتب إلى روكامبول .

ومن جملة عناية هذا المدير بروكامبول انه أذن له بالكتابة إلى من يشاء ، فكتب رسائل كثيرة إلى موسكو وبطرسبرج إيهاماً لرقبائه انه روسي محض لا غش فيه .

وبعد أن فرغ من هذه المكاتيب جعل يقرأ تاريخ لويس الثالث ، ثم خطر له خاطر فكتب فوق حاشية صفحة من صفحات الكتاب عـــدة سطور بحروف صغيرة متلاحمة لا يمكن تلاوتها إلا بنظارة مكبرة ، ثم أخذ قطعة من الخبز فانتزع قطعة من لبابها وعالجها بالماء حتى باتت أشبه بالغراء فطلى بها جانباً من تلك الصفحة التي كتب عليها والصق بها الصفحة التي تقابلها فباتت الصفحتان واحدة .

أما الذي كتبه روكامبول فلا يستطيع تلاوته غير فاندا . بقيت الطريق التي يمكن بها إيصال هذا الكتاب إلى فاندا وهو ما يستحيل تنفيذه ويشكل أمره على رجل غير روكامبول .

ولكن روكامبول كان يقول في نفسه انه من حين قبض علي لا بد ان تكون فاندا اوقفت رقيباً أمام الحقانية فأما أن تقف هي بنفسها او نويل او مرتون .

ثم قال . ان المركبة التي تنقل المسجونين الى السجون تقف عندباب الحقانية وبين هذا الباب وغرفة قاضي التحقيق مسافة يجتازها المسجونين وخفراءهم على الأقدام بين جماهير الناس فلا بد لي أن أرى واحداً من اصحابي الثلاثـة بين الجماهير ومتى رأيت واحداً منهم هان علي الباقي .

فلما ختم روكامبول الصفحتين كما قدمناه رفع الكتاب إلى الحارس وقال له أرجوك أن تلتمس لي من المدير الجزء الثاني من هذا الكتاب .

فأخذه الحارس إلى المدير ثم عاد بعد هنيهة وقال لروكامبول . ان المدير

قال ان تصبر إلى الغد فان الجزء الثـاني في مكتبة القلعة وسيرجع اليها الجزء الأول ويحضر لك غداً الجزء الذي تطلبه .

فاحنى روكامبول رأسه اشارة الموافقة وكان هذا جميع ما يبتغيه .

ومع ذلك فان هذا الرجل القوي الذكي لم يتمالك عن البكاء فجعل يبكي طول ليله بكاء المستغفر النادم لشدة إشفاقه على الأختين .

على انه كان في قلبه جرح بليغ لا يشفيه إطلاق سراحه ولا تدمـــله الحرية .

وفي اليوم التالي جاء الشرطي عند الصباح كي يسير به إلى دار الحقـانية فلبس ملابسه وتأنق فيها بعض التأنق وذلك انه كان طلب ان يحضروا له ملابسه من منزله فأرسلت الحكومة بوليسها لاحضار هذه الملابس لتفتيش منزله وحجز أوراقه .

وبعد أن فرغ من لباسه خرج به أحد رجال الشرطة فركب وإياه المركبة الخاصة بالمسجونين .

ولم يكن هذا الشرطي معتاداً أن يقود مثل هذا المسجون فكان ينظر اليه من حين إلى آخر نظرة إعجاب ولا يتمالك عن الوقوف في موقف الاحترام كما أن روكامبول كان يقلد حركات كبار الضباط فيحذو حذوهم باشاراته وكلامه كي لا يبقى شك انه الماجور أفاتار .

وكانت المسافة بين سجن مازاس وبين الحقانية طويلة ولا يمنع النظام الجنود عن محادثة المسجونين .

وجعل روكامبول يتحدث عن حرب القرم وكان هذا الجندي من الذين حضروا حصار سباستبول فدهش مما سمعه منه من التفاصيل الصحيحـــة والدقيقة .

ثم استطرد روكامبول الحديث إلى ذكر الحكومة الروسية والطعن باحكامها الاستبدادية إلى أن قال لهذا الجندي ان الحكومة الروسية تضطهده لأنه

من أحزاب الدستور المجاهرين بافكارهم الحرة .

فأعجب الجندي من كلامه وجعل يستزيده من الحديث فيباحثه عن بولونيا وهو يتدفق كالسيل ، ويذكر المبادىء الحرة ، وما تقاسيه تلك الشعوب من المظالم .

وكان الجندي يفتح من حين إلى حين علبة تبغ فيلف سيكارة ويدخنها وهو مصغ إلى محدثه أتم الاصغاء ، وقد طلب منه روكامبول سيكارة فسر الجندي سروراً عظيماً وعد ذلك تنازلاً منه واسرع وقدم له ما طلب وقد أعجب به اعجاباً شديداً حتى قال روكامبول في نفسه : إن هذا الجندي بات خليقاً ان يشهد انه رآني فوق أسوار سباستبول .

وبعد حين وصلا إلى دار الحقانية فنزل الشرطي ونزل روكامبول وهـو يقول له : ان انتظارنا لا يطول اليوم .

فقال له روكامبول ببساطة : العلنا نحتاج إلى الانتظار في غير هذا اليوم ؟

– نعم فقد يتفق اننا نضطر إلى الصبر ساعات في بعض الأيام مثال ذلك ما حدث لنا أول أمس فقد أتيت الى المحكمة باحد المجرمـين واضطررنا إلى الوقوف ثلاث ساعات .

– أأنت في الخدمة كل يوم ؟

– كلا بل يوم خدمة ويوم راحة .

– إذن ستكون أنت حارسي إذا عدت إلى المحكمة بعد غد .

فانحنى أمامه باحترام وقال له : نعم يا حضرة الماجور .

ولكن احترامه لم يمنعه عن أن يضع القيد في إحدى يديه حسب النظم المرعية .

وبينما هما يجتازان الممشى إلى المحكمة وقد ازدحم الناس قرب سلمهـا رأى روكامبول شاباً أشقر الشعر نحيل الجسم ينزل درجات ذلك السلم فارتعش إذ علم ان هذا الشاب فاندا قد تنكرت بملابس الغلمان

ولما رأته فاندا تظاهرت أن قدمها قد زلت فنزلت أربع درجات مرة واحدة بحيث التطمت بروكامبول ، فشتمه ثم أظهر أن الغضب قد تمكن منه وجعل يتكلم باللغة الروسية بلهجة الشتائم فكان ما قاله لفاندا : تاريخ لويس الثالث عشر المجلد الأول : مكتبة الثكنة الحربية .

وكان يقول هذه الكلمات مغضباً وهو يقطعها تقطيعاً، ثم ذهب مع حارسه وجعل يضحك ويقول : إن المرء عند الغضب تتغلب عليه لغته الأصلية فلا يطلق لسانه إلا بها .

أما فاندا فقد برحت ذلك المكان لتذهب إلى حيث أمرها الرئيس .

ولقد أصاب الحارس فيما قاله فإن المحكمة لم تكن أشغالها كثيرة في هذا اليوم ، فإن قاضي التحقيق قد أجل النظر في كثير من الأمور للانصراف إلى قضية روكامبول ، إذ قال في نفسه انه إذا وجد تيميلون قد قال الحق وكان هذا الماجور روكامبول الهارب من السجن ولا بد من التأني في استنطاق مثل هذا الشقي الجسور .

فلما وصل الحارس بروكامبول أمر القاضي أن يدخلوه في الحال .

وكان هذا القاضي في عنفوان الشباب ولكن مخائل الذكاء تجول بين عينيه ولما مثل روكامبول بين يديه رأى على طاولته كثيراً من الأوراق ، علم أنها اوراقه ضبطت من منزلة وكان معظمها رسائل وردت اليه من روسيا .

ولكن كان بينها أوراق تؤيد خدمة الماجور افاتار بالجيش الروسي والفرامان الذي يثبت تعيينه موقع عليه بتوقيع الأمبراطور .

فقال له قاضي التحقيق : ان الأوراق التي ضبطت في منزلك والبراءة الموجودة أمامي بتعيينك برتبة ماجور وشهادة المركيز ب الذي قدمك إلى النادي وعرفك بأعيان الباريسيين تدل جميعها على أنك الماجور أفاتار .

فلم يظهر عليه شيء من علائم الفرح لأنه كان يعلم ان قضاة التحقيق يبدؤن بتطمين المتهم وينصبون له الشرك فأجابه : لا أسهل علي من ان أبرهن على هذه الحقيقة على انك لو كنت واثقاً من براءتي من هذه التهمة لما أوقفتني هذا الموقف ولأطلقت سراحي .

— هو الحق ما تقول ولكن إذا كان ما لدي يثبت انك الماجور أفاتار فلا

يزال لدي أيضاً تهمة موجهة اليك يجب النظر فيها :

— ما هي ؟

— هي انهم يقولون انك تدعى جوزيف فيبارت الملقب بروكامبول

— أهذا كل شيء؟

فقلب القاضي الأوراق بين يديه وقال إذا صدقت هذه التهمة كنت من الذين حكمت عليهم المحكمة الاسبانية بالسجن المؤبد فسجنت في قـادیس ثم هربت من السجن .

— وبعد ذلك ؟

— وبعد ذلك عدت إلى فرنسا فحكم عليك بالسجن ٢٥ عاماً مع الأشغال الشاقـة .

فقال روكامبول بانفة : لقد كنت عولت يا سيدي على ان لا أجيب بحرف ولكني رأيت بعد التفكير انه لا بد لي من الايضاح .

- قل فإني مصغ اليك .

— إذا كنت حقيقة كما تقولون اي اني مجرماً هارباً من السجن فلا أسهل عليكم من ان تضعوني أمام أولئك المسجونين وتسمعوا ما يقولون إذ لا بد لهم أن يكونوا قد عرفوني مدة اقامتي معهم .

فلم يجب القاضي بشيء ، ولكنه قرع جرساً فدخل حاجب فأشار القاضي إشارة فهم معناها وخرج .

فاطرق روكامبول رأسه إلى الأرض وانقطع الحديث بينهما وبعـد هنيهة فتح الباب ودخل منه رجل مع الحاجب ولكن روكامبول لم ينظر اليه أمـا هذا الرجل فكان ميلون .

فحدق القاضي بميلون وهو يقول في نفسه : إنه إذا كانت تقارير تيميلون صادقة فلا بد لميلون أن يظهر اضطرابه حين يرى روكامبول لأنـه صديقـه ورئيسه وهو لا يعلم انه قد قبض عليه .

غير ان ميلون لم يبدو منه شيء مما يتوقعه القاضي بل انه نظر إلى الماجور أفاتار نظرة تدل على عدم الاكتراث ونظر اليه روكامبول نظرة مثلها فلم ير القاضي ما يدل على انهما متعارفان

ثم نظر القاضي الى روكامبول وقال له مشيراً إلى ميلون : أتعرف هذا الرجل ؟

– كلا .

فسأل ميلون نفس السؤال فأجاب سلباً .

وقد سر روكامبول سروراً عظيماً لأنه كان يخشى ان يضغط القاضي على ميلون لبلاهته فيحمله على الاقرار ثم استأنف حديثه مع القاضي : عفوك يا سيدي فقد قلت لك اني لا أعرف هذا الرجل ولكني تذكرت الآن اني رأيته مرة واحدة في حياتي .

– أين ؟

– في سجن طولون وذلك عندما انتهت حرب القرم وعقدت شروط الصلح فإن كثيرين من الضباط الروسيين جاءوا في ذلك العهد إلى طولون وزاروا سجنها فكنت بينهم ورأيت هذا الرجل .

فلم يجب القاضي بحرف وأشار الى الحاجب فذهب بميلون ، فخرج ميلون دون ان ينظر إلى روكامبول وقد استحال على القاضي ان يفاجئهما بنظره .

فلما اصبح وحده مع روكامبول قال له : اني أعترف لك بأني أصبحت مشككاً في اعتقادي .

فابتسم روكامبول وقال وانا يا سيدي لا يسعني إلا أن أبدي أسفي واعلم يا سيدي ان المرء لا يموت في السجن بل انه قد يستطيع النجاة منه كما رأيته من هذا الرجل فإذا كانت الحكومة الفرنسية تعتقد ان الماجور أفاتار هو ذلك الشقي الذي يدعونه روكامبول فانها تخدم الماجور أفاتار خدمة جليلة

– لم افهم ما تقول .

– أريد بما قلته ان من كان بمنزلتي وله مقامي ثم يقبض عليه كما يقبض على أشقياء المجرمين فلا بد أن يكون له أعداء أشداء

فامتعض القاضي وقال له بجفاء . إن الحكومة لا تعادي أفراد الناس .

– عفوك يا سيدي إذ يظهر اني أسأت البيـان وسأوضح أفكاري بجلاء أوفى وذلك اني ضحية من ضحايا السياسة الروسية الاستبدادية ، وان الحكومة الروسية لا تريد أن يرسل بي إلى السجون الفرنسية بل انهـا تريد أن أعرض أمري إلى سفارتها في باريس .

– لأي قصد ؟

– بقصد أن تعوض علي السفارة شروطها .

– كيف ذلك ؟

– ذلك انها تظللني بحمايتها وتثبت إني الماجور أفاتار وفي مقابل ذلك ترسلني إلى بطرسبرج .

– وبعد ذلك ؟

– يقبضون علي في بطرسبرج ويرسلونني إلى سيبيريا ، وان السجين في طولون قد يعود من سجنه واما سجين سيبيريا فلا يعود .

وقد كان روكامبول يقول هذا القول بملء السكينة .

وقطب القاضي جبينه إذ لم يعرض له من المجرمين أدهى من هـذا الرجل فقال : اني كنت اعتمد أن اتثبت منك شيئاً من ذلك وجميع مـا لدي من الأدلة يثبت انك الماجور أفاتار غير اني لا أستطيع إطلاق سراحك قبـل استنطاق امرأتك .

ثم أشار إلى الحاجب وقال له : ادخلها .

فقال روكامبول في نفسه : لا شك ان هذا القاضي ينصب لي فخـاً فإني حادثت فاندا الآن وهي لم يقبض عليها .

وأمر القاضي أحد الحجاب فأخذ روكامبول إلى غرفة خارجة عن القاعة، وأمر حاجباً آخر أن يدخل الرجل الذى قبضوا عليه حديثاً .

* * *

وبعد حين دخلوا برجل كان يمشي مشية السكران وقد اصفر وجهه حتى أصبح كالأموات والدموع سائلة على خده .

وكان هذا الرجل جواني الجلاد والذي أنقذه روكامبول من السجن وقد لقيه أحد عمال تيمبلون في خمارة فأرشد اليه البوليس وجاء به إلى السجن .

ولم يجد سبيلاً إلى الانكار .

فلما مثل بحضرة القاضي قال له أأنت المدعو جواني ؟

– نعم ..

– أأنت الهارب من سجن طولون ؟

– نعم ..

– أأنت الذي كنت جلاد ذلك السجن ؟

فركع جواني وقال :

– رحماك يا مولاي ، فما دعاني إلى الفرار من السجن ، غير هذه المهنة فاحكم علي بالاعدام فإن ذلك خير لي من الحكم علي بالعودة إلى هذه المهنة الفظيعة .

– إن ذلك محال فلا بد من عودتك إلى السجن والاشتغال بما كنت تشتغل فيه .

ثم أشار القاضي إلى الحاجب كي يدخل بروكامبول

ففتح الباب في الحال ودخلوا به ، فلما رآه جواني اضطرب وقال : الرئيس ! .

ثم دنا منه وقال له بلهجة المتوسل : انك قادر على كل شيء أفلا تنقذني هذه المرة كما انقذتني من قبل .

فدفعه روكامبول بيده وقال : إنك أفسدت علي جميع أموري أيها الأبله .

ثم التفت إلى القاضي وقال له وهو يبتسم لا أريد الانكار بعد الآن فأنا حقيقة روكامبول .

- ٣٧ -

وقد أثرت هذه الكلمات الأخيرة التي فاه بها روكامبول تأثير رضى عظيم على القاضي لشدة ما لقيه من اشكال تلك القضية .

وأوشك جواني أن يجن من يأسه لأنه كان رأى روكامبول أمام القاضي فلم يخطر في باله انه مصر على الانكار فجعل يبكي وينتحب .

غير ان القاضي أمر الحاجب باخراجه .

وبقي وحده مع روكامبول فقال له . إنك قد أقررت بالحقيقة فهل توقع على هذا الاقرار بخطك ؟

فابتسم روكامبول وقال : إنك تعلم يقيناً يا سيدي ان إقرار هذا الرجل لم يضل صوابي فيدفعني إلى أن أقول الحقيقة لو لم يكن لدي أسباب قوية تحملني على الاعتراف .

فقال له القاضي ببرود . ما هي الأسباب ؟

اني يا سيدي غير ما تعتقده ، فقد يتبادر إلى ذهنك لأول وهلة اني من

أشد المجرمين خطراً واقداماً ، وانك ستسرع إلى إعـادتي إلى السجن حذراً من الافلات وارتـكاب أثام جديدة ، ولكنك لو تمنت في أمري لعلمت اني غير ذلك الرجل .

– من أنت ؟

– اني رجل دخلت في قلبه أشعة التوبة الصادقة وكنت أوثر ان أموت في السجن غير اني ما هربت منه الا للتكفير عن أثامي .

فابتسم القاضي وقال بلهجة المتهكم : اي تكفير هذا ؟

– اني حين وطدت النفس على الاعتراف اليك ، حسبت انك ستصغي الي إلى النهاية .

– وأنا مصغ اليك فقل ..

– إن ما سأطلبه اليك كانت تجري عليه الحكومات من قبل ، وهي لا تجري عليه اليوم ، فإن سامرني رئيس البوليس في عهـد لويس الخامس عشر دعا اليه مرة واحدة أحد كبار المجرمين وقال له : أتريـد ان تخدم في البوليس ؟

فقاطعه القاضي قائلاً :

– لقد اصبت فيما قلته ان الحكومات لا تنهج هذه المناهج إذ لا يجب يكون اللصوص من أعضائها .

– اصغ الى النهاية يا سيدي فإني اعلم اني إذا طلبت اليك مثل هذا الطلب تهزأ بي ولكن ليس هذا الذي أريده .

– إذن ماذا تريد ؟

– إن الذي أريده هو انه يوجد في باريس صبيتان اختان يضطهدهـما رجل قتل أمهما ، وسرق ثروتهما وهو يحاول الآن قتلهما ، والذي أطلبـه ان تأذن لي برد هذه الثروة للأختين والانتقام لأمهما ، ثم أعود إلى السجن

وأموت فيه .

فابتسم القاضي وقال : ان الحكومة قادرة على معاقبة المجرمين ورد الثروة المسروقة وحماية الأختين .

– ولكنها لا تستطيع شيئاً من ذلك في ظروف هذه الحادثة .

– لماذا !

– ان إحدى الأختين تحب ابن القاتل السارق فإذا تداخلت الحكومة افتضح الأمر وامتنع زواج العاشقين .

فقرع القاضي جرساً أمامه ثم قال لروكامبول : ليس لأحد من الأفراد في فرنسا حق الانتقام والعقاب وكشف الظلامات .

وعند ذلك دخل الحاجب فقال له القاضي : خذ هذا الرجل .

فقال روكامبول : كلمة ايضاً يا سيدي .

– قل ..

– اني إذا سألتك إطلاق سراحي ثمانية أيام فقط ثم أعود إلى السجن أترفض طلبي ؟

– دون شك .

– إذن يحق لي أن لا أوقع على إقراري .

– كما تشاء .

وخرج الحاجب بروكامبول فسلمه إلى الجندي فأركبه المركبة التي جاء بها فسارت بهما وروكامبول يقول في نفسه : لقد أرحت ضميري الآن وعرضت على القاضي كل شيء فلا أبالي الآن برفضه لأني سأطلق السراح لنفسي وليس سجن مازاس بأصعب من سجن طولون .

أما الجندي الذي كان يحرسه فلم يزل على سابق اعتقاده به فقال له : أقضي الأمر ؟

– كلا ..

– إذن فإنهم لا يريدون إطلاق سراحك ؟

– لا بد لهم من ذلك يوم الأربعاء .

– إذا كان يوم الأربعاء ، كما تقول ، فسأكون أنا في خفارتك ، ولكنك ستضطر الى الانتظار الطويل في ذلك اليوم ، إذ هو يوم تكاثر فيه أشغال التحقيق .

– لا بأس فسننتظر إذا اقتضت الحال .

* * *

وظلت المركبة تسير بهما حتى وصلت إلى السجن فأخرج روكامبول منها وأعيد الى غرفته .

وبعد حين جاءه الحاجب بالجزء الثاني من تاريخ لويس الرابع فدفعه اليه وقال له : لا شك ان مدير السجن معجب بك ، ويريد إرضاءك والعناية بك كل العناية .

– لماذا ؟

– لأنه أرسلني الى مكتبة الثكنة كي أحضر لك الكتاب الذي طلبته فقيل لي انهم يقرأون به وأمرني أن أعود في اليوم التالي بعد أن رأيت الذي كان يقرأ به وهو شاب أشقر .

فاضطرب روكامبول إذ علم ان هذا الشاب فاندا .

وتابع الحاجب : فعدت إلى المدير وأخبرته بما كان فأمرني أن أعود إلى المكتبة وأن أنتظر فراغ القارىء فأعود بالكتاب فامتثلت وانتظرت الى ان فرغ هذا الشاب من الكتابين لأنه قرأ في الجزء الأول والثاني وأتيت به اليك .

فابتسم روكامبول وقال : أرجو أن تتولى عني شكر المدير .

ولما خرج الحاجب أسرع روكامبول الى الكتاب وقلب أوراقه فوجـــد

صفحتين ملتصقتين ففصلهما فوجد مكتوباً على الهامش كتابة خاصة لا يفهمها غير فاندا وروكامبول وكانت هذه الكتابة جواباً على ما كتبه فقد كان كتب اليها ما يأتي :

(يجب ايجاد انطوانيت مهما تكلفت من العناء والخطر وبعد ان تجيبني في هامش الجزء الثاني من هذا الكتاب ، ارجعي في اليوم التالي الى المكتبة واكتبي لي جميع ما يحدث لك على هامش الكتاب لأني سأطلبه .

أما جواب فاندا فقد كان كما يأتي :

« السعد يخدمنا فإن انطوانيت نجت ، وشيفيوت قتلت ، وتيميلون هرب ، وأجينور ذهب إلى أبيه ولم يعد ».

فلما تلا روكامبول هذا الجواب تنهد تنهد المنفرج بعد ضيق وقال في نفسه : لقد انفتح لي المجال في اعداد وسيلة الفرار . ثم أخذ ورقة وكتب عليها الى قاضي التحقيق ما يأتي :

« سيدي

« لقد رجعت عن أفكاري السابقة ورضيت بالعودة إلى الليمان ولكني أرجو أن تأذن لي باطلاعك على أمور خطيرة جداً » .

« روكامبول »

وفي صباح اليوم التالي أرسل كتابه الى قاضي التحقيق لاعتقاده انه سوف يطلبه في اليوم الذي يليه لسماع أقواله وهو الذي اختاره روكامبول للفرار .

وقد أصاب روكامبول فيحسابه فإنه بقي طول ذلك الليل في غرفة سجنه دون أن يطلبه القاضي لتأخر ورود الرسالة اليه .

ولما أقبل الليل تولته الكآبة الشديدة وغاص في بحار التأملات فلم يكن يفتكر بالفرار لأنه كان قد وضع الخطة التي عول على اتباعها ووثق من فوزه فيها بل انه كان يفتكر بأمر آخر دعاه الى هذه الكآبة فكان يتقلب على فراشه تقلب الملسوع ويلفظ من حين الى آخر بصوت متقطع اسماً جعله يتمنى الموت لما كان يلقاه بسببه من العذاب .

ولما أصبح الصباح وهو اليوم الذي كان يرجو روكامبول ان ينجو من السجن فيه نهض من فراشه دون أن يتمكن من الرقاد فلبس ثيابه وهو يقول لا أدري اذا كنت أسعد من الآن حين كنت في عداد المجرمين فقد نجوت من عقاب الناس ولا يزال أمامي عقاب الله .

ولذلك فلم يكن يهتم أقل اهتمام بأمر فراره مما كان ينساله من تقريع الضمير في خلواته بعد توبته الصادقة .

وفي الساعة الثامنة من الصباح أقبل اليه ذلك الجندي الذي صحبه في المرة الأولى ، وكان يلقبه دائماً ماجور وكذلك سائر الموظفين في سجن مازاس فإنهم كانوا يحترمون روكامبول احتراماً شديداً .

وكانوا يعتقدون انه الماجور افاتار وانه متهم بمؤامرة سياسية .

فسار الجندي بروكامبول إلى المركبة فسارت بهما الى المحطة وجعل روكامبول في مدة السير يتكلم عن حرب القرم ، والجندي معجب به كل الاعجاب حتى وصلا الى باب المحكمة الخارجي فوقفت المركبة ونزل منها

روكامبول والجندي .

وكان رجل واقفاً داخل الردهة قرب الباب عندما وصلت المركبة فجعل ينظر الى روكامبول نظرة المتعجب المنذهل .

وكانت تدل هيئته وملابسه على انه من الانكليز . فلما رأى روكامبول سائراً ووراءه الجندي مشى اليه مشياً مستعجلاً وهو يتكلف عدم الانتباه ، بحيث اصطدم بروكامبول صدمة شديدة ، فالتفت اليه وقال : أسألك المعذرة يا سيدي .

ثم ما لبث ان رآه حتى صاح صيحة فرح ، وقال : من أرى ؟ الماجور أفاتار !

– أنا هو بعينه يا حضرة الميلورد .

– أنت هنا أيها الصديق العزيز .

ثم دنا منه وجعل يعانقه دون ان يظهر انتباهاً الى الجندي .

أما روكامبول ، فقد عرف للحال ، ان هذا الانكليزي لم يكن غير نويل ، فقال له وهو يعانقه : أحضر مركبة ، وانتظرني بها على الباب الخارجي .

وقد نظر روكامبول نظرة توسل خفية الى الجندي كأنه يقول له بها : أرجوك ان لا تفضح امري مع هذا الصديق .

ففهم الجندي قصده وابتعد عنه قليلاً مراعاة له فتحادثا هنيهة ثم افترقا . فودعه الانكليزي وانصرف وهو يتظاهر انه لم ير الجندي ولا مركبة المجرمين التي نزل منها روكامبول .

ثم دنا الجندي من روكامبول فوضع يده بيده وسار به بين تلك الجماهير التي كانت محتشدة في ردهة تلك المحكمة الواسعة .

وكان بين باب السراي الكبير وبين غرفة قاضي التحقيق مسافة شاسعة وسلالم كثيرة ينتشر فيها الناس ، من شاهد دعي الى المحكمة للشهادة ، ومحام

ومدع ومتفرج ، الى غير ذلك من طبقات الناس الذين يشاهدون عادة في المحاكم .

ولذلك لم يكن فرار المدعوين الى الاستنطاق مستحيلاً، لا سيما وانه لا يصحب المدعي عليه غير جندي واحد .

ولكنه كان نادراً فقد كان يتفق ان يكون هذا المدعي عليه قوي البدن شديد العضل فيتخلص بالقوة من الجندي ويفر منه . ولكنه يندر ان ينجو إذ لا يسير مائة خطوة حتى تسير في أثره الفرسان فتدركه وتعود به مكبلاً إلى حيث كان

وكانت غرفة قاضي التحقيق في الدور الأعلى من العدلية وهي باتم مظاهر البساطة ليس على باب غير حاجب واحد يقف في داخلها .

ويوجد قبلها غرفة متسعة فيها مقاعد من خشب ينتظر فيها المدعى عليهم مع خفرائهم ، الى ان يحين زمن التحقيق في أمرهم ، فيدعون الى غرفة القاضي كل بدوره

ولما وصل روكامبول مع الجندي ودخل الى هذه الغرفة ، وجد فيها رجلين وامرأة يخفرهم جندي فقال له الجندي : لا بد لنا من أن ننتظر ساعة على الأقل ، الى ان يفرغ القاضي من التحقيق في أمر هؤلاء المجرمين .

ثم جلس على المقعد الخشبي وجلس بازائه روكامبول .

وأخذ الجندي علبة عطوسه وفتحها فمد روكامبول يده وأسرع الجندي الى تقديمها اليه قبل ان يأخذ منها .

قدس روكامبول فيها تلك الحبة السوداء ، التي أخذها من فاندا ، وتظاهر انه يتنشق من ذلك السعوط . والحقيقة انه حبس نفسه ، فلم يشم شيئاً .

أما الجندي فقد أخذ مقداراً كبيراً واستنشق مدة طويلة وهو لا يعلم ما

خبأته له الأقدار .

وعند ذلك قدم حاجب من غرفة قاضي التحقيق ، ودعي الرجلين والمرأة الى المثول بحضرة القاضي وذهب . فخرج بهم الجندي وأدخلهم الى غرفة التحقيق .

وعاد الى غرفة الانتظار فجلس على مقعد بجانب الجندي الذي يخفر روكامبول وقال إنهم سيقيمون أكثر من ساعة لدى القاضي لأن مسألتهم مشكلة تقتضي البحث الطويل .

فأجفل روكامبول لعودة الجندي وجعل يفكر بأمره وهو واجف القلب من عودته إذ لم يكن يخطر له ذلك في بال .

وبعد ان دار الحديث بين الجنديين ، أخذ حارس روكامبول علبة سعوطه وقدم منها الى روكامبول فأبى .

ثم قدم الى الجندي الآخر فأخذ منها بلهف وتنشق من ذلك السعوط عدة مرات كما فعل رفيقه من قبل .

ثم جعل الاثنان يتحادثان نحو نصف ساعة أحاديث مختلفة ، وروكامبول منشغل عنهما غائص في بحار التأمل والتفكير .

إلى أن سمع الجندي يقول لرفيقه : ما هذا النعاس الغريب الذي أصابني فان عيني لا تفتحان ؟

فسأله رفيقه : هل كان دورك في السهر للحرس هذه الليلة ؟

— نعم .

- إذاً إن هذا النعاس من ذاك السهر ولكن إذا أحببت ان تنام قليلاً فلا بأس لأني سأتولى مكانك حراسة أسيرك .

ومد يده إلى علبة السعوط فأخذ منها واستنشق مرة ثانية .

أما حارس روكامبول فانه شكر رفيقه الجندي بالاشارة ، إذ لم يعد يطيق الكلام ، وأطبق عينيه فنام نوماً عميقاً وقد أسند رأسه الى الحائط

ومد رجليه .

أما روكامبول فظل على ما كان عليه من التظاهر بالتفكير والذهول . ولكنه كان من حين إلى آخر ينظر إلى حارسه الجديد ، ويراقبه بطرف خفي .

وكان يراه قد شعر بالنعاس ولكنه كان يقاوم مقاومة عنيفة ويتثاءب غير ان عينيه لا تزالان منفتحتين .

ثم رأى أن منديله قد سقط من يده ثم أطبق عينيه وأصابه ما أصاب الآخر من النوم العميق .

فصبر عليه روكامبول دقيقة ومشى في الغرفة بضع خطوات ، فرأى أنه لم ينتبه .

فدنا منه وناداه فلم يجب فهزه فلم يستفق . فأيقن روكامبول ان المخدر أثر تأثيره بالاثنين وانه أصبح حراً .

فزرر سترته العسكرية وأخرج من جيبه زراً روسياً فوضعه في عروة سترته إشارة الى رتبته ، وخرج من تلك الغرفة يمشي بخطوات متوازنة .

وكانت الردهات غاصة بالناس من جنود وقضاة ومتقاضين ومحامين وكلهم ممتزجون يجيئون ويذهبون في أغراضهم الخاصة .

فدنا روكامبول من أحد الجنود وقال له : أرجوك ان تدلني على محكمة الاستئناف

فقال له : إنها في الغرفة الأولى من الدور الثاني ، فانزل اليها من هذا السلم .

فشكره روكامبول ونزل في ذلك السلم ، كما أخبره الجندي فكان اذا نظر اليه الناس او الجنود يحسبه بعضهم متفرجاً ويظنه آخرون شاهداً وهو سائر لا يلوي على أحد .

ومثل روكامبول لا تخفى عليه مخارج العدلية ومداخلها فسار يمشي بقدم

الواثق المطمئن حتى بلغ الى الباب الخارجي .

وهناك أتت مركبة وفيها ذلك الانكليزي المتنكر أي نوبل .

فصعد اليها حالاً وأمر السائق ان يسير . وقد عجب نوبل لنجاته فسأله : كيف نجوت ؟

- نومت الحراس .

- بماذا ؟

- بحبة سوداء طحنتها بيدي ووضعتها في علبة سعوط يحملها الجندي . وسأقص عليك بعد ذلك بالتفصيل أما الآن فهلم بنا نتغدى ، فقد أنهكني الجوع .

- أين تريد أن نتغدى ؟

- في شارع سانت دينيس ، عند منعطف ستراسبورج ، إذ يوجد فندق هناك .

فأمر نويل السائق ان يسير الى ذلك الفندق . فسارت بهما المركبة تنهب الأرض .

يوجد في باريس فندق للطعام لا يتردد عليه غير الممثلين والكتاب وأصحاب الفنون الجميلة .

وكان مكتوباً على بابه عنوان « بائع خمور » غير ان الخمور على اختلافها كانت فيه من أفضل أنواعها حتى أطلق عليه اسم فندق « الكتاب » لأنها باتت خاصة برجال الإنشاء والفنون .

ومن عادة البوليس في العواصم الكبرى ، ولا سيما في باريس ، أن يراقب المطاعم والفنادق مراقبة شديدة لكثرة تردد الأشقياء عليها واغتنامهم جهل الغرباء المقيمين فيها .

غير ان البوليس لم يكن يدنو من ذلك الفندق ، إذ ثبت لدى جميع الحكومات أن أقل الناس شراً هم رجال الأقلام ، وأكثرهم عفافاً ومروءة أولئك الذين يتيهون في عالم الخيال لصيد شوارد المعاني

فكان ذلك الفندق ، في عرف رجال البوليس ، أشرف فنادق باريس .

ولهذا فان روكامبول أمر نويل إن يسير به الى ذلك الفندق كي يكون آمناً فيه من المراقبة إلى أن يفرغ من طعامه ويلجأ إلى محل أمين .

وكان هذا الفندق على اقتصاره على الكتاب لا يرفض من يقدم اليه ممن تدل ظواهرهم انهم من رجال الخير .

وليس في ملامح الاثنين ما يدل على شيء من الشر لان نويل كان متنكراً بزي نبلاء الانجليز وروكامبول متنكراً بزي ماجور . فليس في ظواهرهما ما يحمل على الشبهات .

فلما وصلا الى الفندق أطلقا سراح المركبة ودخلا اليه ، فاستقبلا فيه استقبالاً حسناً وجلسا حول طاولة منعزلة . فأسرع الخدم اليهما واحضر لهما من الطعام ما طلباه .

وعندها بدأ الاثنين الحديث فسأله نويل :

– إني قبل ان أخبرك أيها الرئيس بما أعرفه أحب ان أعلم ..

– ماذا تريد ان تعلم ؟

– أحب ان أعلم كيف خرجت من سراي العدلية .

– إن الأمر على غاية البساطة .

– أتخرج من مكان يتهمونك فيه انك روكامبول ، ثم تقول ان الأمر بسيط ؟

– ألم أقل لك إني نومت الحارسين وخدعت الجنود ؟

ثم قلت لك أيضاً إني وضعت في علبة سعوط أحدهما مخدراً ليس أشد منه تأثيراً بين المخدرات فان من يتأثر به ينام بعد دقائق قليلة فلا يستفيق إلا بعد ست ساعات إذا كان قوي البنية .

وكانوا في سجن مازاس يعتنون بي فأذنوا لي باحضار ملابسي فلبست أفخرها حين ذهابي الى العدلية .

فلما ذهبت من غرفة الانتظار في دار العدلية ، اختلطت بالناس وخرجت الى دار الحرية ، فلم يحمل أحد خروجي على محمل الشبهات لأن ظواهري تدل على اني من النبلاء .

والآن قل لي انت ما جرى مدة غيابي

– إن انطوانيت نجت وهي عندنا .

– عرفت ذلك .

– ولكن أجينور لم نره منذ ثلاثة ايام .

– هذا ما عرفته أيضاً .

ثم أطرق برأسه الى الأرض ، ثم سأله بصوت خافت : ومدلين ؟

فنظر اليه نويل فاذا بوجهه قد اصفر واضطرب حين ذكر اسم مدلين ، فلم يجبه عنها بل أجاب : ان ايفان دي بونتيف مقيم في باريس .

فقطب روكامبول جبينه وعاد الى الذهول .

فاستأنف نويل الحديث قائلا : إنه قدم الى باريس للبحث عن مدلين .

— وماذا جرى ؟

— إنه في اليوم الذي قبض فيه عليك عهدت الى فاندا حراستها .

— وبعد ذلك ؟

— إن ايفان قدم الى باريس مع خادم ، وهذا الخادم متفق مع الفيكونت كارل دي مورليكس .

فصاح روكامبول صيحة منكرة قائلا : مورليكس !

— أجل إنه لم يمت .

— أأنت واثق مما تقول ؟

— كل الثقة فانه عاد الى باريس بعد القبض عليك وقد رأيته بعيني .

فعض روكامبول على شفته من الغيظ وقال : يجب ان نعود الى ما كنا فيه ونستأنف القتال .

ثم تابع بصوت خافت : ولكني قد ضعفت وسئمت وبت أحب العودة الى السجن فإني لا أجد الراحة الصحيحة إلا فيه .

أما نويل فانه لم يسمع كلماته الأخيرة فعاد الى إتمام حديثه قائلا :

— لقد قلت لك ان خادم الكونتس فاسيليكا ومورليكس متفقان وقد عادا من روسيا سوية وأحضرا معهما ايفان .

— وبعد ذلك ؟

— أظهرا للناس انه مجنون . ولا أعلم كيف فعلا فان فاندا لم تعلم

ذلك بعد . ولكن كل ما علمناه أن ايفان مقيم عند الدكتور لامبرت ، الطبيب الخاص بالمجانين ، ومنزله في شـارع اوتيل . وانهم يعالجونه كل يوم بالماء البارد .

– والكونتس فاسيليكا ؟

– هي ايضاً في باريس .

– أتعلم اين هي مقيمة ؟

– إنها مقيمة في منزل تعرفه جيداً يا حضرة الرئيس .

فاضطرب روكامبول وقال : قل أين تقيم ؟

– في منزل الكونتس ارتوف في شارع بيبينيار .

– في منزل باكارا ؟

– هي نفسها .

فاختلج روكامبول اختلاجاً عظيماً عند سماعه اسم باكارا وهي أشـد أعدائه هولاً . ثم سكت مدة طويلة وغاص في بحار الهواجس والتأملات .

وبعد حين نظر الى نويل وقـال له : إدفع ثمن الطعام ، وأحضر لي مركبة .

فامتثل نويل وخرج .

أما روكامبول فانه جعل يحرق الارم من الغيظ ويذكر اسم باكارا بلهجة غريبة لا توصف فيقول : أقدر لي ان القاك أيضاً في طريقي ؟

وبعد هنيهة عاد نويل بالمركبة ، فركب روكامبول بجانبه وأرخى ستائر المركبة .

فسأله نويل : الى اين تأمر ان نسير يا سيدي ؟

– الى ذلك المنزل الذي استأجرته لي أي ذلك المنزل الذي تشرف نوافذه على حديقة قصر الكونت دي اشمول فأرى منها تلك المرأة الصالحة التي طالمـا دعوتها باختي أيام غروري .

- أيها الرئيس إن نفسك حزينة حتى الموت .
- إنك تقول الحق
- العلك خائف من أن يقبض عليك ايضاً ؟
- كلا .

ثم نفض روكامبول ما كان أصابــه من الدهش وقال لنويل : العل حقيبة المعدات معك ؟
- إنها لا تفارقني .

وأخرج من جيبه حقيبة من الجلد ، كان فيهــا ما يحتاج اليه الأشقيــاء واللصوص .

وفي جملة ما كانت تحتويه شاربين وشعراً للرأس من لون واحد ، وموسي ومقص ومبرد .

فأخذ روكامبول الموسى فحلق بها شاربيه ، ثم أعطاها لنويل وأمره ان يحلق له شعر رأسه ففعل .

ولما فرغ منوضع ذلك الشعر المستعار ووضع ذينك الشاربين بدلاً منشاربيه ثم خاطب نويل : لنغير الآن ملابسي بملابسك .

فخلع نويل ملابسه الانكليزية فلبسها روكامبول بسرعة ، ولبس نويل ملابس روكامبول

وكانت ستائر المركبة مرخية فلا يراهما أحد . ولما أتم روكامبول لباسه نظر اليه نويل متأملاً وأردف : ليس الآن من يشــك بأنك إنكليزي ، لا غش فيه .

وكانت المركبة سائرة فوصلت عند ذلك الى شارع سرسنس ، وظلت سائرة حتىوصلت الى بيت الكونت فابياندي اشمول زوج بلانش دي شمري التيطالما دعاها روكامبول اخته ، فأوقف المركبة ثم ترجل منها وخاطبنويل : إذهب انت الآن فلم يعد لي بك حاجة .

ـ متى أراك يا سيدي ؟
ـ لا أعلم .
ـ ولكن ماذا أخبر فاندا ؟
ـ قل لها إني نجوت من السجن .
ـ ألا تراها ؟
ـ لا أعلم .

ثم تركه وانصرف فدخل الى المنزل الذي استأجره له نويل ، وهو البيت الذي تشرف نوافذه على حديقة الكونت فابيان .

وقد دخل وهو يعض على شفته ويكرر من حين الى آخر اسم باكارا .

انتهت رواية « روكامبول في سيبريا »

ويليها الجزء السابع من روكامبول « العاشقة الروسية »



الجزء السابع

العاشقة الروسية

العاشقة الروسية

- ١ -

كان كثير من المدعوين جالسين قرب منتصف الليل حول مائدة وضعت فوقها اقداح الشاي وهم يتحدثون ويتسامرون منذ الساعة التاسعة في منزل الكونتس ارتوف .

وليست الكونتس ارتوف إلا تلك التائبة الحسناء التي كانت تدعى باكارا قبل أن يطهر الحب الصحيح نفسها من ادران الفساد فتابت توبة صادقة وباتت ضالة الفقراء ومحط رجاء كل بائس مسكين .

إلى أن راد الله مكافأتها عن توبتها الصادقة فلقيها الكونت ارتوف وهي في نضارة الشباب وقد بلغ من الثروة والنبل ما لم يبلغه سواه فتزوج بها وذلك منذ أحد عشر عاماً كما يذكر قراء الأجزاء السابقة .

ولكن ما لقيته باكارا مع زوجها من الهناء والنعيم زاد نضارة شبابها ومد في عمر جمالها فكان من يراها يحسب انها في الثامنة والعشرين من عمرها وهي قد بلغت الأربعين

فكانت تفتح قاعاتها لفتيات باريس الحسان وهي لا تخشى أن تكسف تلك النجوم شمس جمالها الباهر فان الجميلات كن يحشرن تحت لوائها .

وكان جالساً بجانبها تلك الليلة فتاة جميلة شقراء وهي الكونتس فاسيليكا واسرنوف تلك المرأة المنتقمة الجبارة التي انقلب حبها لأبن عمها ايفان بونتيف إلى بغض شديد وحقد عجيب بحيث باتت لا يهنأ لهـــا بال إلا بعد أن تدرك بغيتها من الانتقام .

وفي جملة الذين كانوا حاضرين في تلك الحفلة على كثرتهم الكونت كوروف وهو الذي وعدته فاسيليكا بالزواج بعد يأسها من ايفان ، ثم ثلاثة او اربعة من اصدقاء باكارا القدماء بينهم الفيكونت فابيـــان دي اسمول زوج بلانش دي شمري تلك الفتـــاة الطاهرة التي كان يدعوها روكامبول زمناً بعيداً اخته حين كان يلقب نفسه المركيز دي شمري كما تقدم في روايتي الغادة الأسبانية وانتقام باكارا .

كان الحديث دائراً عن ايفان بونتيف ..

قالت فاسيليكا : انه مجنون واأسفاه وهو وحيـد ابيه ولا يزال في مقتبل الشباب .

فقالت باكارا : أأنت واثقة من جنونه ؟

– كل الثقة ولم يبق مجال للريب فان تلك الفتاة التي يهواها ويدعوها مدلين لا وجود لها إلا في مخيلته .

فنظرت باكارا اليها نظرة شك وقالت : ألا تظنين انك منخدعة ؟

ثم اسرعت بالاستطراد قبـل ان تدع لها وقتاً للجواب فقالت : وهذا البارون دي موروليكس الذي لم يكن يفارق ابن عمك عندما عاد به إلى فرنسا فاني لم أره منذ حين .

– وأنا أيضاً لم أره منذ عهد بعيد .

ثم نظرت فاسيليكا إلى باكارا نظرة خفيـة ملؤها الضغينة لأنها خشيت أن تكون أدركت شيئاً من اسرار قلبها .

وعند ذلك أنقطع الحديث عن ايفـان الذي كان لا يزال سجيناً في منزل

الدكتور اليوت طبيب المجانين لأن الأنظار قد اتجهت الى زائر جديد دخل إلى القاعة فقطع ذلك الحديث القديم .

وكان هذا الزائر شاباً يبلغ الثامنة والعشرين من عمره وهو من رجال المحاماة ، ولكنه كان يمتهن هذه الحرفة لشغفه بها لا للكسب منها ، لأنه كان من الأغنياء ، فكان يدافع عن كل ما يسأل الدفاع دون أجرة وفي الليل يزور منازل أصحابه فيروي لهم جميعما يراه في نهاره من غرائب الدعاوى فيعجبون بأحاديثه لفصاحة لهجته وزلاقة لسانه .

فلما دخل إلى القاعة واتجهت اليه الأنظار قال لهم : أتعلمون ماذا حدث؟

وقال بعض الحاضرين وقد بدت عليهم ملامح الاهتمام : ماذا جرى ؟

– لقد قبضوا على روكامبول .

فاضطربت باكارا ونظرت نظرة أسف إلى الفيكونت فابيان .

وسألت فاسيليكا قائلة : من هو روكامبول هذا ؟

فأجابها المحامي إنه رجل تكتنفه الأسرار وقد كثر الحديث عنه منذ بضعة أعوام فـــانه كان رئيس عصابة شديدة فملت كثيراً من المنكرات في باريس .

– ولكن اسمه جميل .

– وهو جميل أيضاً وقد ظهر انه أقام في سجن طولون ستة أعوام ثم يظهر انه احتاج يوماً إلى الهواء الطلق فترك السجن .

وقالت فاسيليكا إذن قص علينا حكاية هذا الرجل فإنها لطيفة كما يبدو من مقدماتها .

– إني سأقصها عليك بملء الرضى .

وقد قال ذلك وهو لا يدري انه سيتكلم عن رجـــل عرفه كثير من الحاضرين حق العرفان .

أما فاسيليكا فقد سرها من جميع ذلك الحديث عن روكامبول انه أراحهـــا

من عناء الحديث عن ابن عمها إيفان .

وعاد المحامي إلى الحديث فتدفق في كلامه تدفق السيل وجعل يقص على الحاضرين حكاية روكامبول كما يعرفها . أي كما هي شائعة على الألسن .

ولكن الذي لم يعرفه من أمره ولم تكن تعرفه المحاكم أن رئيس تلك العصابة الهائلة القديمة ، وذلك الهارب من سجن طولون كان يدعى في باريس قبل سجنه المركيز دي شمري .

وتنفست باكارا وفابيان تنفس المنفرج بعد أن فرغ المحامي من حكايته ، وعلما انه لا يعلم شيئاً من حقيقة أمر روكامبول ونظر كلاهما إلى الآخر نظرة تشف عن الاطمئنان .

وعادت فاسيليكا إلى سؤال المحامي وقالت : أحقاً أن هذا الرجل هرب من السجن ؟

– ذلك لا ريب فيه فإنه هرب بطريقة عجيبة ، ثم قص على الحاضرين كيف هرب روكامبول على ما قرأه في جريدة المحاكم منذ ثمانية أشهر .

ولما انتهى من رواية الجريدة قال أما هذا الرجل فإنه لم يفر وحده بل هرب معه ثلاثة ، ولم يهرب بطريق البر كما يفعل سواه من المسجونين بل أنه بطريق البحر على سفينة استولى عليها .

وكان البحر هائجاً هياجاً عظيماً حين فراره في تلك الليلة المدلهمة حتى أنه أشيع في اليوم الثاني ان المجرمين هربوا من السجن فغرقوا بالبحر . وظل هذا الاعتقاد سائداً على الناس ستة أشهر .

– وبعد هذه المدة العلهم وقفوا على آثار روكامبول ؟

– نعم يا سيدتي .

– وكيف ذلك ؟

– ذلك انه منذ ستة أسابيع حدثت سرقة مائة الف فرنك في منزل تعرفون صاحبه جميعكم .

– من هو هذا الرجل ؟

– الفيكونت كارلدي موريليكس .

فابتسمت باكارا ابتسام الاحتقار .

وقالت فاسيليكا : ومن الذي أتهم بهذه السرقة اليس هو روكامبول ؟

– هو بعينه .

– إذن فهو لم يسرق ؟

– كلا . وقد ثبت أنه هو السارق

– فاعترضته باكارا وقالت اني أعجب أيها الصديق كيف تتحدث بمثل هذه الخرافات.

– أية خرافات تعنين ؟

– هذه السرقة التي تنسبها لروكامبول .

– ولكن اسمه قد ذكر في المحكمة .

– انك لو كنت تعرف روكامبول حق المعرفة لما صدقت أمر هذه السرقة فإنه لا يتدانى إلى سرقة مثل هذا المبلغ الحقير بالقياس إلى علو نفسه وشدة مطامعه .

– إذن أنت تعرفينه ؟

– ربما بل اني قد أستطيع أن أحدثكم عنه بأمور كثيرة والآن أرجوك أن تتم حديثك عنه فإننا مصغون اليك .

– ٢ –

وعاد المحامي إلى تتمة حديثه فقال : سواء أخطـــأوا أو أصابوا فإنهم كانوا يتهمونه بهذه السرقة في ذلك العهد وجعل البوليس يبحث عن روكامبول

في كل مكان فلا يجده .

فقالت باكارا : ان الأمر بسيط وهو غرق دون شك حين محاولته الفرار من السجن .

— ليس الأمر كا تظنين فاسمعي بقية الحديث ، إنهم بعد أن بحثوا عنه ستة أسابيع قبضوا على رجل محتال كان يدعو نفسه الماجور أفاتار ، وكان هذا الماجور صديقاً المركيز ب فعرفه نبلاء باريس وكان يشهد فيه خير شهادة ومع ذلك فإن البوليس قبض عليه .

فاضطربت باكارا وقالت : وبعد ذلك ؟

— انه حين مثل هذا الماجور أمام قاضي التحقيق اعترف انه متنكر وانه نفس روكامبول .

فزاد اضطراب باكارا وقالت : أحقيقة ما تقول ؟

— نعم يا سيدتي غير ان هذا البوليس الذي افتخر بالقبض على روكامبول لم يدم سروره لأنه نجا أيضاً من السجن .

فانذهل الجميع وصاحوا بصوت واحد : كيف هرب ؟

— انه هرب في صباح هذا اليوم حين جاءوا به إلى قاضي التحقيق .

فقال واحد من الحاضرين : إن الفرار على هذا الشكل صعب .

— بل هو مستحيل ولكنه هرب .

— كيف فعل ؟

— لا يعلمون فإنه أدخل إلى قاعة الانتظار مع جندي كان يتولى حراسته وكان هناك جندي آخر .

ولما حان دور التحقيق بأمره جعل القاضي يقرع الجرس قرعاً عنيفاً فلم يجبه أحد فدخلوا إلى قاعة الانتظار فوجدوا الجنديين نائمين يغطان ولم يجدوا روكامبول

— العله نومهما ؟

– نوماً يشبه الموت لأنهم بذلوا كل جهد في إيقاظهما فـلم يستفيقا حتى جاءوا بطبيب فأثبت أنهما أعطيا مخدر شديد التأثير .

وقالت فاسيليكا : الحق أنه رجل شديد الذكاء يستحق الاعجاب .

أما باكارا فلم تجب ولكنها نظرت إلى فابيان نظرة ملؤهـا القلق والاضطراب .

ودقت الساعة عند ذلك مشيرة إلى انتصاف الليل وهو موعـد انصراف المدعوين فبدأوا يتفرقون .

وكان أول من انصرف الكونتس فدخلت فاسيليكا إلى مخدعها لأنها كانت في ضيافة باكارا ثم انصرف بعدها جميع المدعوين مودعـين باكارا حتى إذا انتهى الدور إلى الفيكونت فابيان استوقفته وقالت له : ابق قليلاً فقـد وردتني أخبار الكونت أرتوف الذي لا يزال في روسيا وهو سيعود منها في الأسبوع القادم .

ولما خلا المكان بهما قالت : ما رأيك في هذه الحوادث ؟

– أرى أنها قد تكون حقيقية .

– أتظن أن هذا الرجل روكامبول حقيقة ؟

– بل أثق فإن هذا الفرار لا يقوى عليه سواه .

– إني قرأت في الصيف الماضي حين كنت في روسيا خبر فرار أربعة أشقياء من سجن طولون فإذا كان روكامبول منهم وجب علينا الحذر الشديد .

– من أي شيء نحذر ؟

– انك تعلم حق العلم ان إمرأتك لم تعرف حتى الآن ان روكامبول كان منتحلاً اسم أخيها وأنها إذا عرفت هذه الحقيقة كان الخطر شديداً عليها .

– والخطر الذي أخشاه الآن أن هذه الحقيقة قد تظهر .

– كيف ذلك ؟

– ذلك أن روكامبول قـد يقع أيضاً في قبضة البوليس فيفتضح الأمر

وتتناقله الجرائد التي لا تكتم شيئاً وهي تباع بالملايين في هذه الأيام فإذا جرت محاكمته في باريس فقد تفضي المحاكمة إلى إذاعة ذلك السر القديم .

– على أن الذي أرتاح اليه بعض الارتياح إن ذكر روكامبول قـــد دار مراراً على الألسن فكانت الاشاعات عن عودته تقيم إدارة البوليس وتقعدها إلى أن يتحقق فساد هـــذه المزاعم ، وقد تكون حادثة اليوم من قبيل الحوادث الماضية .

– إني أرجو أن يكون الأمر على ما ذكرت ولكن قلبي يحدثني انك مخطئة فيما تتوهمين فاني ذكرت الآن حادثاً غريباً جرى لي منذ شهر ولم أكترث له إلا الآن .

– ما هو هذا الحادث ؟

– تعلمين أن هذا القصر الذي فيه تكتنفه حديقة واسعة وإن ولدي يلعب كل يوم في هذه الحديقة وان أمه تصحبه اليها بعض الأحيان ، ويوجد عنـــد سور الحديقة منزل قد أعده أصحابه للأجرة تشرف نوافذه على الحديقة .

فبينما كنت يوماً ألاعب ولدي في الحديقة حانت مني التفاتة إلى نوافذ ذلك البيت فرأيت وراءها رجلاً أصفر الوجه ما لبث أن أصابـــه نظري حتى احتجب وتوارى عن عيني فخيل لي اني رأيت روكامبول

– وبعد ذلك ؟

– لم أره أبداً فاني لبثت مدة طويلة أتربص له في الحديقة وأختبىء أحياناً بين الأشجار وأنا أراقب النوافذ فلا أراه حتى مللت المراقبة وأيقنت أنه شبه له فلما سمعت اليوم ما سمعته من المحامي ولم يعد لدي ريب في صحة ما قال ولا شك أن روكامبول هو المتنكر باسم الماجور أفاتار .

ففكرت باكارا هنيهة ثم قالت : لا بأس عـــد الآن إلى إمرأتك وولدك فسأنظر في هذا الأمر وارجع الي فاني أحب أن أراك .

– متى .

— غداً إذ يجب أن أعرف الحقيقة من غير هذا المحامي .

فذهب الكونت فابيان ودخلت باكارا إلى غرفتها المشرفة على الحديقة وهي مفكرة مهمومة فلبثت نحو ساعة جالسة قرب النار وهي غائصة في بحار التأملات .

وكان قلبها يحدثها بان روكامبول عاد إلى الظهور فكانت تخشى أن يكدر صفو عيشها السعيد وحياتها الهادئة .

وفيما هي تفكر هذا التفكير إذ طرق مسامعها صوت وقع اقدام في الحديقة فارتعشت ودنت من باب الغرفة ففتشته ولكن الظلام كان شديداً فلم تر أحداً وأصغت إصغاء تاماً فلم تسمع حساً فاقفلت ذلك الباب وعادت إلى ما كانت عليه من الهواجس والتفكير .

ولكن ما لبثت هنيهة حتى سمعت ذلك الصوت قد اقترب منها فاسرعت إلى المشرف مضطربة واجفة فرأت خيال رجل وراء الزجاج .

ثم رأت قبل أن تبلغ إلى المشرف أن الزجاج قد قلع بخاتم من الماس وأن يداً قد مدت ففتحت الباب ثم دخل رجل إلى الغرفة .

فصاحت باكارا صيحة ذعر لأن هذا الرجل كان مسلحاً بخنجر وقد عرفته لأنه كان روكامبول .

- ٣ -

سبق العهد بباكارا انها شديدة جريئة لا تضطرب أمام مثل روكامبول بل ان روكامبول وأمثاله يضطربون امامها .

ولكنها قد مر على هذا العهد بها عشرة أعوام تغيرت في خلالها احوالها وضعفت عزيمتها السابقة بما توالى عليها من رخاء العيش وراحة الفؤاد وصفاء البال فاصبح منظر عدوها القديم يهولها .

وكان اول ما خطر لها أن هذا العدو اللدود قد قذفته يد الخالق بعد أن كاد يبلغ ذروة المجد فيشوهت وجهه وألقته في السجن وعذبته أشد عذاب فلا بد أن يكون قد أعد لها انتقاماً هائلاً .

فلما رأته باكارا والخنجر مشهور بيده ايقنت انها مائتة فتراجعت منذعرة وعزمت على أن تقرع جرساً على الطاولة كي تستغيث به ولكن روكامبول وثب اليها ومسك يدها وقال لها : لا تستغيثي ولا تقرعي هذا الجرس فاني لا أريد لك شراً .

وقفت باكارا ضائعة الرشد ولكن هذا الرعب الذي كان قد تولاها ذهب عنها فجأة لأنها شعرت أن لهجة روكامبول قد تغيرت ولم تعد تلك اللهجة التي عرفتها من قبل وذهبت منه أثار التهكم الذي كان يدل على نفسه الوحشية فكان يشير إلى حزن دفين حتى أن وجهه لم تبق فيه تلك الملامح القديمة الدالة على الجرأة والميل إلى الفتك وفي الجملة فقد رأت أن الفرق بين طباع روكامبول الأمس وروكامبول اليوم عظيم ولكن الرجلين واحد .

ثم قال لها روكامبول بلهجة المتوسل : سيدتي اطمأني فاني أقسم لك انني لا أريد بك شراً .

– إذن ماذا تريد ؟

– اني دخلت اليك متسلقاً جدار الحديقة بسلم من الحرير ثم كسرت زجاج هذه النافذة ونحن الآن في الساعة الأولى من منتصف الليل .

فزاد انذهال باكارا من كلامه ومن خطته وقالت : ماذا تريد أن تقول ؟

– أقصد أمراً بسيطاً يا سيدتي وهو اني أريد العودة إلى السجن ولكني سأقول لك السبب الذي أتيت من أجله ومتى فرغت من حديثي تقرعين هذا الجرس وتدعين خدمك يقبضون علي ويرجعونني إلى السجن فلا أخرج منه في قيد الحياة .

– لماذا إذن خرجت من السجن إذا كنت تريد الرجوع اليه ؟

فابتسم روكامبول ابتسام الحزين وقال . أنظري إلي يا سيدتي ألا تجدين اني قد تغيرت ؟

ــ أراك تجاوزت حد الصبى .

ــ أهذا كل ما ترينه بي من التغيير ؟

ــ وأرى أيضاً أن صوتك قد تغير .

فاجاب بملء الكآبة : أن نفسي التي تغيرت يا سيدتي .

فرأت باكارا أن الحقيقة بادية في صوته فقالت له : ألعلك أصبحت من التائبين ؟

فاطرق روكامبول برأسه إلى الأرض دون أن يجيب .

واستأنفت باكارا الحديث فقالت : لماذا عدت من السجن ؟

ــ لأتمم امراً أراه فوق مقدرتي فقد بدأت أشعر اني لا طاقة لي به .

فجلست باكارا على كرسي وجعلت تنظر اليه والخنجر لا يزال بيده وقالت أوضح ما تقول . .

فمشى روكامبول إلى طاولة رآها أمامه فوضع فوقها خنجره ثم رجع فوقف بملء الاحترام أمام باكارا وقال : أتثقين بالتوبة والندم ؟

فترددت هنيهة وهي تنظر اليه نظر الفاحص وقالت : ربما . .

ــ سيدتي . . اني كنت منذ ربع ساعة واقفاً في الشارع تجاه قصرك مختبئاً وراء باب الحديقة فرأيت رجلاً خرج من منزلك وهذا الرجل أعرفه إنه فابيان.

ــ نعم ، هو بعينه .

فقال لها بصوت خافت . . وهي ؟

وكان صوته يضطرب حين فاه بهذه الكلمة وقد أصفر وجهه اصفراراً شديداً .

فأخذت باكارا يده وقالت : لقد عرفت الآن كل شيء . .

فسقطت دمعة على وجه روكامبول وقال : ألم تعلم هي شيئاً ؟

ـ كلا فقد بالغنا بالكتمان حرصاً عليها .

ـ أتعلمين اليوم الذي دخل فيه شعاع التوبة الصادقة إلى قلبي فطهره من أدران الاثم والفساد . إنه ذلك اليوم الذي زارت فيه مع زوجها سجن طولون ولم تعرفني حين رأتني وقد بلغ من حبي لها اني بت أعتقد انها حقيقة أختي .

ثم مسح تلك الدمعة التي كانت تنحدر ببطء على وجنته وقال : إني ما أتيت اليك إلا لأكلمك عنها .

فأشفقت باكارا على هذا الرجل الذي عرفت ماضيه وتبينت من لهجته وظواهر يأسه أنه صادق في توبته فقالت له : أجلس أمامي ولنتحدث .

ـ كلا .. اني لا أجسر على الجلوس أمامك .

ولبث واقفاً وعاد إلى حديثه وقال : اني أقمت في السجن عشرة أعوام لا يخطر لي الفرار منه في بال إذ كان أقصى أماني أن أموت فيه لأني وجدت الراحة الصحيحة بالموت .

ولكني لم أنقطع عن التفكير بتلك المرأة الطاهرة التي دعوتها أختي وهي يجب عليها أن تكرهني وترتجف لذكر اسمي .

واتفق يوماً بأني علمت أن بلانش لم تعلم شيئاً من حادثة قاديس بفضلك وبفضل مادموازيل سالاندريرا .

وخطر لي عند ذلك الفرار وقلت في نفسي ، اني سأنجو من السجن فأعود إلى باريس وأختبيء في منزل يجاور منزلها ، فأراها حين دخولها وخروجها كل يوم .

ومنذ ذلك الحين بدأت تتنازعني العوامل فكان عامل الفرار يتغلب علي رجاء أن أنقلب إلى الخير وأكفر بالأعمال الصالحات عن سيئاتي الماضية .

فقاطعته باكارا وقالت : وأخيراً نجوت .

ـ اصغي الي يا سيدتي لقد كان لي في السجن رفيق كنت مقيداً وإياه بقيد واحد ، وكان هذا الرجل خادماً في أحد المنازل وقد القته في السجن يد

أثيمة على براءته لاتمام عمل منكر ، فكان يبكي وهو معي أثناء الليل وأطراف النهار ويناجي أولاده .

ولقد حسبت في بدء الأمر انه متزوج وله بنون ولكنه أخبرني بحكايته وعلمت انه يذكر حين بكائه وتوجعه أولاد سيدته التي ماتت مسمومة وهم بنتان يتيمتان فقيرتان فقلت في نفسي : هوذا الفرصة قد لاحت للتكفير عن ذنوبي الماضية بالاحسان إلى هاتين اليتيمتين اللتين يضطهدهما أعداؤهما ولذلك هربت من السجن .

– وقالت باكارا : أكان حديث فرارك كما روي لنا ؟

– نعم .

– تمم حديثك فاني مصغية اليك .

فحكى روكامبول عند ذلك جميع ما اتفق له منذ ستة أشهر من الوقائع التي ورد تفصيلها في رواية (روكامبول في سيبريا) وذكر لها كيف وجد مع ميلون أنطوانيت ، وكيف أخرجها من سجن سانت لازار ، ثم حكى بالتفصيل حكاية مدلين في روسيا ، وكيف قبضوا عليه إلى أن تخلص من السجن .

ولما فرغ من حكايته قالت له باكارا : ان الحكاية التي رويتها لي عن روسيا تشبه أتم الشبه حكاية رواها لي أمس الكونت أرتوف ،فقد ذكر لي قصة فتاة هاجمتها الذئاب فكانت نجاتها من العجائب .

– هي مدلين . .

فأثر ذكر هذا الاسم تأثيراً غريباً على باكارا وقالت : مدلين ؟

– نعم يا سيدتي فهي إحدى الأختين اليتيمتين .

– أكانت معلمة في روسيا ؟

– نعم .

– في منزل الكونت بوتنيف .

– هو بعينه .
– وكان ايفان ابن هذا الكونت يحبها ؟
– ولا يزال يعبدها عبادة .
فبرقت عين باكارا وقالت : إذن إن الكونتس فاسيليكا تخدعني خداعاً عظيماً ، والآن قل لي إسم هذا الرجل الذي يضطهد هاتين الأختين ويريد لهما الموت .
– انه يدعى الفيكونت كارل دي مورليكس .
– لقد خطر لي شيء من هذا ، فما كنت أجسر على أن أتمادى في هذه الظنون .
فأخذ روكامبول يدها وقال : سيدتي إن عملي لم يتم بعد ولا أجسر على إتمامه ، ولذا فقد خطر لي أن أعهد اليك حماية هاتين الأختين فانك غنية قادرة على كل شيء .
– وأنت ؟
– أعود إلى السجن .
– لماذا ؟
فأطرق برأسه وقال : إن هذا سر لا أبوح به .
فأخذت باكارا يده بدورها وقالت له: إني كنت أصغيت اليك فما ذلك إلا لأني غفرت لك منذ عهد طويل فلا يجب أن تكتمني أسرارك .
وجعل روكامبول يرتجف ارتجاف تلك الورقة الصفراء التي تحركها رياح الخريف ولم يجب بشيء .
فقالت باكارا : تكلم فاني أريد أن تبوح لي بكل شيء .
فحاول أن يتكتم أيضاً ولكنه غلب على أمره فقال بصوت مختنق : « أحب مدلين » .

وساد السكوت هنيهة بين باكارا وروكامبول فكان هـذا الرجل الذي طالما انغمست يده بالدماء واقفاً وقفة المضطرب، والعرق البـارد ينصب من وجنتيه وجميع ملامحه تدل على تلك العاصفة الهـائلة التي ثارت في نفسه من ذلك الاقرار .

ثم رفع رأسه وضحك ضحك القانطين وقـال : أرأيت يا سيدتي كيف ان ذلك اللص السفاك ، بل ذلك الوحش المفترس قد تحول إلى إنسان وصار له قلب كقلوب الناس فهبط اليه الحب كما تهبط أشعة الشمس في محل قذر ؟

إن هذا القلب الذي عهدته من الأموات حين سرت اليه عاطفة هذا الغرام حاولت خرقه بهذا الخنجر ولكني كنت عاهدت نفسي وعاهدت الله على انقاذ الأختين ، فاذا هلكت هلكتا .

وجعلت أعارك نفسي وأصدها عن شهواتها حتى شعرت أني بت مغلوباً ، فلا أستطيع أن أضبط نفسي إذ قد يتفق ساعة سوداء يرتفع بها بصري إلى ذاك الملاك فيهين طهارته المقدسة .

وهنا توقف هنيهة ثم قال : وعنـد ذلك افتكرت بك وقلت ان المرأة التي قـدرت أن تسحق روكامبول تستطيع دون شك أن تسحق كارل دي موراليكس .

ــ وسأفعل ..

ــ لا شك عندي فيما تقولين ..

ثم فتح سترته وأخرج من جيبه ملفاً من الورق فأعطاه لبـاكارا وقال : إنك تجدين يا سيدتي في هذه الأوراق كل ما تحتاجين اليه من المعلومات .

فأخذته باكارا وقالت : أحب أيضاً أن أعلم ما أريده من فمك .

ــ سلي سيدتي أجيبك .

– أليس لكارل موروليكس أخ ؟

– نعم وهو والد أجينور .

– يجب أن نرفق بهذا الرجل أليس كذلك ؟

– دون شك ،لأنه لولا هذه العقدة ، ولولا ما أخشاه من افتضاح أجينور بافتضاح أبيه واستحالة تزوجه بأنطوانيت بعد هذه الفضيحة، لذهبت في هذا الصباح إلى قاضي التحقيق وكشفت له هذه الحقيقة الهائلة وعرضت عليه براهين تسميم البارونة والدة الأختين فيقبض البوليس على كارل وأخيه فيضربهما الشرع ضربة قاضية ، ولكن والد أجينور لا ينبغي أن يمس ، لأن ولده يحب أنطوانيت .

– هو الحق ما تقول .

– إذن يجب عقاب كارل موروليكس عقاباً شديداً قاضياً لا يشعر به أحد ولهذا أتيت اليك .

– ولكن موروليكس لا يعاقب وحده .

– ومن تريدين أن تعاقبي معه ؟

– إمرأة مقيمة في ضيافتي وهي تخدعني منذ أيام .

– العلها الكونتس فاسيليكا ؟

– هي بعينها ..

ففكر روكامبول هنيهة ثم قال : إذن هي التي أوهمت الناس ان ابن عمها ايفان مجنون وحبسته في منزل الطبيب ؟

– نعم بالاتفاق مع موروليكس .

– أتعدينني بحماية الأختين ومعاقبة كارل ؟

– أعدك وعداً صادقاً لا ريب فيه .

– إذن أرجوك أن تنادي خدمك الآن وأن تأمريهم بالقبض علي وتسليمي إلى الشرطة .

وقد قال هذا القول بلهجة جدية لم تدع لباكارا أقل مجال للشك في إخلاصه فنظرت اليه نظرة إشفاق وقالت : كلا اني لا أفعل شيئاً من هذا .

- لا تفعلين !

- كلا .. فاني لا أحب أن تعود إلى السجن .

فتراجع روكامبول خطوة إلى الوراء ودلائل اليأس بادية في ثنايا وجهه ، فأوقفته بإشارة وقالت له : اصغ الي إنك تعلم أكثر مما يعلم سواك ما سيأتي ، وقد عرفت من أمري اني كنت في عهدي من أشهر بنات الهوى ثم تبت توبة صادقة وتزوجت رجلاً نبيلاً ففتحت لي أبواب العائلات وبات لي في مجالس النبلاء خير حظوة ومقام .

فاضطرب روكامبول وقال : ماذا تريدين بهذا القول ؟

- أريد أن كل ما لقيته إلى الآن من سجن وعذاب لم يفد في عقابك وكل ما سوف تلقاه من عناء السجون لا يكفر عن أثامك ، أما العقاب الصحيح الذي قد تكفر به عن ذنوبك وربما نلت بعده الغفران الذي ترجوه فهو ..

ثم توقفت هنيهة تنظر إلى روكامبول الذي كان مطرق الرأس يضطرب وقالت : إن هذا العذاب هو حبك لتلك الفتاة الطاهرة فاذا كنت تريد من توبتك الصادقة فلا تجده إلا في شقائك في هذا الحب .

فأن روكامبول أنين الموجع وقال : أتظنين أني أطيق تحمل هذا الشقاء ؟

- انك تقيس هذا الشقاء إلى ذنوبك السابقة فتدفع عقابك عنها .

فوضع روكامبول يده فوق صدره وقال بلهجة القانط : كفاني يا سيدتي ما لقيت دعيني أعود إلى السجن .

- كلا فلا يطهر الآثام غير الحب وإن الشقاء مثل النار ينفي كل دخل .

فرفع روكامبول عينيه اليها وهما غارقتان بالدموع وقال : لقد أصبت فسأتحمل كل عناء واستمر عاملاً في خدمة الخير .

وأنا أريد أن تكون حليفاً لي في هذه المهمات .

— ليكن ما تريدين غير اني لا أستطيع أن أفيدك فائدة كبرى ويمكن أن يقبضوا علي إذا عثروا بي .

فابتسمت باكارا وقالت له . تعال معي.

ثم أخذت مصباحاً وسارت أمامه وهو يتبعها من غرفة إلى أخرى حتى انتهت إلى غرفة متسعة وقالت له : نم هنا فستكون آمناً ما دمت في منزلي وغداً عند الظهر أعود اليك وربما عدت اليك بما يسرك .

ثم تركته وانصرفت وكان روكامبول لم ينم نوماً طيباً منذ عدة ليال فانطرح على السرير بملابسه وما لبث أن بلغ السرير حتى غفا ونام نوماً عميقاً.

ولما أشرق الصباح لم يستيقظ وبزغت أشعة الشمس تسطع فوق وجهه المصفر النحيل فلم يستفق إلى أن حان الظهر فاستيقظ من نومه لسماعه صوت فتح الباب .

وكان الذي فتح باب الغرفة باكارا فلما رآها داخلة أسرع إلى النهوض من سريره فوثب من فوقه إلى الأرض ووقف أمامها وقفة الاحترام .

فابتسمت له باكارا وقالت : لقد أصبحت الآن حراً بالذهاب في شوارع باريس كيف تشاء ، وأن تعود إلى النادي الذي كنت تزوره وأن تحفظ لنفسك اسم الماجور أفاتار .

فانذهل روكامبول وقال : ماذا تقولين ؟

— الحقيقة .

— ولكن البوليس ؟

— ان أحد العظماء في هذه العاصمة توسط هذا الصباح في أمرك فأنت الآن حر لا يستطيع أحد أن يقبض عليك وربما صدر الأمر بالعفو عنك بعد زمن قريب .

فركع روكامبول وقال : رباه ماذا أسمع أنا في حلم أم في يقظة ؟

— كلا بل أنت في يقظة وقد استحقيت هذا العفو لأنك أصبحت حليف

باكارا، فاعلم الآن اني أنفقت ليلة أمس في مطالعة تلك المذكرات التي اعطيتني إياها فعرفت منها كل شيء وأيقنت من براءة ميلون .

فقال روكامبول : ولكن هذا المسكين مقبوض عليه وسيعود إلى الليمان لا محالة لأني لا يخلق بي الآن انقاذه من قبضة البوليس بعد موافقة الحكومة على التخلي عني .

فمشت إلى الباب وفتحته ، وعند ذلك صاح روكامبول صيحة دهشة لأنه رأى ميلون واقفاً على عتبة الباب فشكر روكامبول باكارا وقال : إذن لنبدأ بالعمل .

- ٥ -

في ليلة اليوم نفسه كان كثيرون في قاعة منزل باكارا منهم الفيكونت فابيان والمحامي والكونتس فاسيليكا وغيرهم .

وقد بدأت باكارا الحديث فقالت للمحامي : ألا تقص علينا الليلة شيئاً عن روكامبول ؟

— إنهم يبحثون عنه .

فابتسمت باكارا وقالت : اني أرجو أن يقبضوا عليه .

وقالت الكونتس فاسيليكا : ما هذا الرجل الغريب الذي تدعونه بروكامبول فقد مثلتموه لي مارداً من مردة الجن .

فأجابتها باكارا : بل ربما كان أعظم يا سيدتي .

أجابت : يلوح لي يا سيدتي من خلال حديثك عنه انك تعرفين عنه ما لا يعرفه الناس

— هو ما تقولين .

ـ الملك عرفتيه شخصياً ؟
ـ نعم يا حضرة الكونتس .
فسألها المحامي : إذن انك تعرفينه دون شك إذا رأيتيه .
ـ ذلك لا ريب فيه .
وكان فابيان جالساً وهو حائر مضطرب فنظرت اليه باكارا نظرة معنوية ظهر له منها أنه لا موجب للخوف فهدأ اضطرابه واطمأن .

ثم التفت إلى فاسيليكا وقالت لها : إذا كنت تريدين يا سيدتي الكونتس أروي لك ما أعلمه عن روكامبول .

وصاح جميع الحاضرين يقولون : تكلمي تكلمي .
فقالت باكارا : منذ خمسة عشر عاماً حدثت في باريس حوادث هائلة اضطرب لها جميع أغنياء الباريسيين وكبارهم ، وذلك لأنه تألفت جمعية سرية كانت تقدم على أمور هائلة وترتكب أفظع المآثم .

فقالت فاسيليكا : العل روكامبول كان رئيس هذه الجمعية ؟
ـ إسمعي ان هذه الجمعية كان من جملة مآثمها قتل الأزواج وحمل الزوجات على حب أعضائها ولم يكن رئيسها كما توهمت بل كان السير فيليام .

وبعد حادثة لا سبيل إلى بسطها في هذا المقام لأن الحديث عن روكامبول احتجب هذا الرئيس أي السير فيليام عن الأنظار .
فاختلفت الاراء في احتجابه ، فمن قائل انه قتل ، ومن قال انه شحن على سفينة إلى بلاد القبائل المتوحشة ، بعد أن فقأ أعداءه عينيه إلى غير ذلك من الاشاعات .
فقالت فاسيليكا وروكامبول ؟
ـ إن روكامبول كان تلميذ ذلك الرئيس بل رئيس أركان حربه فلما أصيب رئيسه بتلك النكبة تمكن هو من الفرار وقد أخذ معه أوراقاً كانت للسير فيليام مكتوبة بخط هيروغليفي لا يفهمه أحد غير روكامبول

وكان لهذه الأوراق فائدة عظيمة عنده فإن السير فيليام كان يصرف كل اهتمامه باحثاً عن الأعمال العظيمة فإنه بعد سرقة المائة الف فرنك مسكنة لا يقدم عليها غير أصاغر اللصوص ، أما هو فلم يكن يبحث إلا عن الملايين .

وكان هذا الرئيس الهائل قد وقف على سر عائلة تدعى عائلة المركيز ش. وأن هذه العائلة أرسلت ابنها الى الهند وهو في سن الحداثة ولم تكن هـذه العائلة أرسلت ابنها إلى الهند وهو في سن الحداثة ، ولم تكن هذه العائلة مؤلفة إلا من هذا الولد وأمه وأخته .

وبعد عشرين عاماً من ذهاب الغلام إلى الهنـــد ، وبعد خمسة أعوام من روكامبول جاء إلى هذه العائلة شاب بملابس الضباط فجعل يقبل الأم والأخت وقد أثبت لهما انه ابن الأولى وأخو الثانية بأسطع البراهين .

فقالت فاسيليكا : العله كان روكامبول ؟

— هو بعينه ، ولكن اسمعي ما جرى بعد ذلك، انه مر عدة أعوام والناس لا يشككون بهذا المحتال ويحسبونه المركيز ش. حقيقة فقد كان حلواً رشيقاً متعلماً ، والغريب أنه كان يحب أخته كما لو كانت أخته حقيقة .

فقاطعتها فاسيليكا وقالت : لقد عرفت البقية .

— لا أظن يا حضرة الكونتس .

— ان المركيز الحقيقي عاد من الهند وكشف الاحتيال

— لم يعد على الأثر فإن روكامبول كان يحسب أنه قتله ، غير ان روكامبول لم يكن ليقنع بملايين المركيز واسمه ، بل أن نفسه الطـامحة طمعت بالزواج بفتاة وافرة الغنى فكانت السبب بخسارته كل شيء .

— كيف ذلك ؟

— ذلك أنه ارتكب آثاماً كثيرة في سبيل الوصول الى هذه الغـاية ونكل بأعدائه وهم كثيرون ، فهـــاج حقد إمرأة كانت أوشكت أن تصفح عنه وتنساه .

ـ ومن هي هذه المرأة يا سيدتي ؟

ـ هي فتاة كانت من قبل معوجة السيرة ، لا تسير في طريق الهدى ، ثم تابت عن ذنوبها وطهر الحب قلبها فانصرفت إلى الخير تكفر عن ذنوبها الماضية .

وقد قدر نكد الطالع لهذا المحتال أن تعترض هذه المرأة سبيله إذ عرفت انه روكامبول .

فكان بين الاثنين معارك شديدة هائلة انتزعت فيها عوامل الرحمة والاشفاق من القلوب ، فسلمت المرأة من مكايده ولقيت المركيز الحقيقي وفازت في تلك المعركة الهائلة على روكامبول فأرسلته إلى الليمان .

فقالت فاسيليكا بلهجة الاعجاب : من هي هذه المرأة يا سيدتي ؟

ـ أيروق لك أن تعرفيها ؟

ـ بل أتمنى

ـ إنها كانت تدعى باكارا

ـ ما هذا الأسم الغريب ؟

ـ ولكنها اليوم تدعى باسم آخر وهو الكونتس أرتوف أي أنا .

فاضطرب الجمهور اضطراباً شديداً لهذه المفاجأة ما خلا فابيان ووقف المحامي أمام باكارا فقال لها بلهجة احترام : إنك تتمنين على نفسك يا سيدتي فما عرفنا عنك السوء وما عهدناك إلا ملاكاً طاهراً في كل حين .

أما فاسيليكا فلم تفه بحرف ولكنها كانت تنظر إلى باكارا نظرات الرعب والحذر ، وقد زاد ريبها بها وذكرت قولها أنها لا تصدق جنون ايفان فزادت مخاوفها .

ولكنها أخفت اضطرابها وقالت لباكارا : إذن أنت تعرفين روكامبول أكثر مما يعرفه سواك ؟

ـ هذا لا شك فيه بل يوجد بيننا الآن شخص آخر يعرفه كما أعرفه أنا

وأرجو أن لا يظهر نفسه .

– رجل آخر بيننا الآن ؟

– نعم .. وقد كان حيناً من الدهر من أخلص أصدقائه إذ كان يعتقد أنه المركيز ش حقيقة .

– وتقولين أن هذا الرجل موجود بيننا الآن ؟

– نعم ..

فسكتت فاسيليكا وقال المحامي : إن ما ترويه يا سيدتي يشبه القصص وهي قصة مدهشة .

فابتسمت باكارا وقالت : ولكنها طويلة .

وقال فابيان : ومن يعلم أيضاً إذا كانت انتهت .

وقال المحامي : لا أراها قد انتهت بعد نجاة روكامبول من السجن وانتحاله اسم الماجور أفاتار .

ولم يكد يتم المحامي قوله حتى دخل خادم يحمل رقعة زيارة على صينية من الفضة فتناولتها باكارا ، وما أوشكت أن تقرأها حتى صاحت صيحة انذهال وقالت : أرى القصة لم تنته بعد .

فقالت فاسيليكا : ماذا تعنين بذلك ؟

– إن هذه الرقعة التي بيدي هي رقعة زيارة الماجور أفاتار نفسه وهو يلح على أن أستقبله بالرغم عن هذه الساعة المتأخرة وفوات موعد الزيارات .

فاندهش الحاضرون وقالوا بصوت واحد : روكامبول ؟

وقالت باكارا إذا كان هو روكامبول حقيقة فلا يخفيه عني تنكره مهما برع فيه ، وقد قلت لكم أنه يوجد بيننا رجل آخر يعرفه كما أعرفه أنا .

فقال القاضي على ماذا عولت أتأذنين له بالدخول ؟

– دون شك لأني أريد أن أعرف حقيقة أمره .

ثم التفتت إلى الخادم وقالت له : ادخل الماجور أفاتار .

فاتجهت الأنظار إلى الباب وكانت نظرات الحضور ممزوجـــة بالرعب والانذهال .

- ٦ -

وقد جعل كل واحد من الحاضرين يرسم في ذهنه خيال روكامبول كما تمثله له حكاياته وذلك في خلال المدة الوجيزة التي خرج بها الخادم لادخال الماجور .

وكانت فاسيليكا تمثله في خاطرها برجل قبيح المنظر قصير القـامة صغير العينين وان عينيه تتقدان بلهب الذكاء .

وكان المحامي يراه رجلا عميقاً كبير اللحيه والشاربين وقال آخر ليكن كيف شاء ، على أن لا يدخل مسلحاً .

فأجابه المحامي، لا خطر علينا فإننا كثيرون .

ثم دخل الماجور أفاتار فكانت الدهشة عامة إذ لم يجده أحد من الحاضرين يشبه الشكل الذي رسمه في ذهنه بل وجدوه رجلا تدل ملامحه على انه يبلـغ الأربعين من العمر جميلا رشيقاً أسود الشعر خفيف شعر الشاربين .

ووجدوا في عينه حلاوة وفي سائر ملامحه ما يدل على النبل والذكاء .

فلما دخل روكامبول ورأى ما كان من انذهال الحاضرين وقف في مكانه وقفة الحائر المتردد وجعل ينظر إلى النساء الموجودة في القاعـة نظر المستطلع كأنه يريد أن يعلم من هي الكونتس أرتوف صاحبة المنزل .

ولما رأت باكارا ما كان من تكلفه الاضطراب تظاهرت أنها أدركت قصده فوقفت وعند ذلك مشى اليها ووقف أمامها بملء الاحترام وقال : أسألك يا سيدتي الكونتس معذرة عن جسارتي على زيارتك في مثل هذه الساعة المتأخرة فاني لم أكن أجرؤ على ذلك لو لم تدفعني أسباب خطيرة .

فانحنت باكارا وأظهرت أنها تريد سماع هذه الأسباب .

وهمس المحامي في أذن فاسيليكا قائلاً . انظري الى الكونتس ارتوف فانها مندهلة مثلنا ولا شك ان هذا الرجل غير روكامبول .

ـ ربما .

ولكن ظواهر الشك كانت ظاهرة بين عينيها .

أما باكارا فانها أشارت إلى روكامبول بالجلوس أمامها فجلس وقـــال على مسمع من جميع الحاضرين :

ـ إني برحت يا سيدتي بطرسبرج منذ ستة أشهر بعد ان نلت من جلالة القيصر إجازة بالقدوم إلى باريس .

وقد حملني أصحابي كثيراً من رسائل التوصية ، منها رســـالة اليك من البرنس كاشرين .

فقالت باكارا : إن بيننا وبين هذا البرنس صداقة متينة .

وأخذت الكتاب من روكامبول فتلته . ولمـــا فرغت من تلاوته استأنف روكامبول الحديث قائلاً :

ـ إنك تظنين ، يا سيدتي دون شك ، إني لم أقدم في هذه الساعة المتأخرة لأعطيك هذا الكتاب بل لأخبرك بامر خطير وهو أني قد احتقرت وأهنت في باريس .

فجعل الحاضرون ينظر كل منهم الى الآخر وقد ساد السكون عليهم . أما فاسيليكا فان نظرها لم يكن يفارق باكارا .

وتابع روكامبول : إنهم يا سيدتي قبضوا علي والقوني في السجن وانتحلوا لي اسم رجل شقي قالوا انه هرب من سجن طولون

فقال المحامي : روكامبول ؟

فأجابه الماجور ببرود . نعم ، ويظهر ان هـذا الشقي كان بيني وبينه شبه عظيم .

فقالت باكارا : إني رأيت يا سيـدي الماجور مرات كثيرة هـذا الرجل

الذي يدعونه روكامبول ، وهو لا يشبهك في شيء على الإطلاق وبينك وبينه فرق بعيد .

فتنفس الحاضرون الصعداء، وقد وثقوا ان الماجور أفاتار غير روكامبول

وأتمت باكارا حديثها قائلة : إن حضرة المحامي المسيو مشقين كان يقص علينا حكايته قبل دخولك ، فكان يقول انهم يعتقدون في العدلية ان روكامبول اللص الشهير وأنت واحد ، ولا أدري كيف اتفق لهم هذا الخطأ على شدة الفرق بينكما .

فقال المحامي مخاطباً باكارا : إذاً ان حضرته يا سيدتي الكونتس ليس روكامبول .

ـ لقد قلت مرتين ان الفرق بعيد بين الاثنين .

ونظر روكامبـول الى المحامي وسأله : لعلك رأيت عـلى ملامح اللصوص يا سيدي ؟

ـ كلا بل أرى عليك مخايل النبل والشرف ولكن ...

فابتسم روكامبول وقال : ولكن ماذا ؟

ـ ألم تهرب من السجن في الصباح أمس ؟

ـ نعم ولا .

ـ ما هذا الجواب المتناقض ؟

ـ سوف أوضح لك وذلك إني هربت من السجن صباح أمس كما تقول ، ولكني عدت اليه في المساء .

فانذهل الحضور انذهـالاً شديداً ، وقال له المحامي : إذاً ، فقد هربت مرة ثانية ؟

ـ نعم ولا .

ـ كيف نعم ولا ؟

ـ سأوضح لك ذلك أيضاً . إنه لي أعداء كثيرون في روسيا فأبلغوا إدارة البوليس أن لي علاقة مع البولونيين الثائرين . ومن هنا فاجأتني هـذه النكبة وبت عدة ليالي في السجن .

أما الذين اتهموني انني روكامبول فهم يعلمون ان من خدم مثلي عشرين عاماً في الجيش الروسي يسهل عليه إثبات حقيقة اسمه ولكنهم أرادوا بهذه التهمة ان يبعدوني عن منزلي بعد القبض علي ويستولوا على أوراقي .

فقالت فاسيليكا : إذاً إن أوراقك تحمل على الشبهات

ـ ليس بين رعايا القيصر يا سيدتي رجل أشد مني وفاء لعرشه ، غير ان لي صديقاً وهو أخي في السلاح متهم بالثورة الأخيرة وكانت أوراقه عندي فلو عثر عليها البوليس الروسي صدر الأمر باعدامه في الحال .

فلما رأيت ، وأنا في غرفة الانتظار للمثول أمام قاضي التحقيق ، أن إثبات نسبي قد يطول ، اغتنمت فرصة نوم الحارس وخرجت آمناً دون أن يشعر بي أحد .

فقال المحامي : ولكنهم يقولون ان هذا الحارس نام بتأثير مخدر .

فهز روكامبول كتفيه وقال : إنها إشاعات باطلة يريدون بها تجسيم الحادثة . ثم أضاف : إني لما رأيت ان أوراقي باتت في مـأمن من الاغتصاب عدت إلى سجن مازاس .

وفي صباح اليوم الثاني جاء ضابطان روسيان وأخرجاني من السجن وكفلاني لدى الحكومة . ونعم ان الحكومة أطلقت سراحي دون تصعب ، ولكن هذا لا يكفيني .

فقالت باكارا : وماذا تريد أيضاً ؟

ـ أريد شهادتك يا سيدتي . فقـد ظهر لي في إدارة البـوليس انه ليس فيها من يعرف روكامبول ، وقد قابلوني بكثير من رجال الشرطة فقـال بعضهم اني روكامبـول ، وأنكر الآخرون هذا الشبـه . ولكني سمعت

رئيس البوليس يقول أمس أنهُ لا يوجد من يعرفه في باريس حق المعرفة إلا الكونتس أرتوف .

ولذلك تذكرت يا سيدتي ذلك الكتاب الذي حملني إياه صديقي راجياً ان تشهدي بعد تلاوته أمام الذين يحضرون مجالسك إني لست روكامبول .

– إني أشهد هذه الشهادة في كل مكان يا حضرة الماجور .

فنهض روكامبول عند ذلك مستأذناً بالانصراف . غير ان باكارا منعته عن الرحيل ، ودعتــه الى شرب الشاي على مائدتها . فامتثل وجعــل يحدثها عن بطرسبرج وموسكو بحيث لم يعد أحد من الحاضرين يشكك انه الماجور أفاتار ما عدا فاسيليكا فانها ادعت انها مصابة بصداع فاستأذنت من الحاضرين ودخلت الى مخدعها وهي تعض شفتها من الغيظ وكتبت الى الفيكونت كارل دي مورليكس هذين السطرين :

« لقد خدعنا أعدائنا وعبثوا بنا ، وأصبحت باكارا حليفة روكامبول فلنحذر ! » .

– ٧ –

كانت هذه الكونتس فاسيليكا ، التي لم تذكر شيئاً عنها الآن ، بارعة في جمالها رشيقة حلوة الكلام تدل ظواهرها على بلوغها أقصى درجــات اللطف واللين ولكنها كانت في الحقيقة وحشية الأخلاق كثيرة الحقد إذا أرادت الانتقام بلغت به أبعد غاياته .

فلما برحت قاعة باكارا الى مخدعها الخاص في القصر ، كانت عواصف الحقد ثائرة في نفسها . فمن كان يراها تمشي في غرفتها بخطوات غير موزونـــة وهي منبوشة الشعر كما تمشي اللبوة الثائرة في قفصها لا يشك ان هذا الهيكل الجميــل

يستر قلباً جهنمياً لا تنبض فيه غير عروق الشر والحقد .

ولقد كانوا يحدثون عن مبلغ فتك هذه المرأة ان وكيل أراضيها الشاسعة تجاسر مرة ان ينظر اليها نظرة غرام فقتلته جلداً بالسياط .

وروي عنها أن ضابطاً روسياً شاباً قال مرة في أحد المجالس مفتخراً انه حظي بلقاء بعد موعد من الكونتس فاسيليكا . فلما كان خارجاً في الليلة التالية من الأوبرا أصابته طعنة خنجر في قلبه فقضي عليه حتى لقد ذكر بعضهم أن زوجها مات مسموماً لأنها كانت كارهة له تريد التخلص منه .

وكانت هذه الأرملة الجميلة تسير في غرفتها مضطربة على ما وصفناها وهي متقدة العينين مصفرة الوجه وقد شوه غضبها الوحشي جمالها ، فجعلت تعض على شفتيها من قهرها ، وتخاطب باكارا : أأنت أيتها المرأة السافلة التي رفعها الى مقام الأشراف حب ذلك الزوج الأبله لها ، سوف ترين ما يكون مني بعد أن حالفت أعدائي وحاولت منعي عن الانتقام من ايفان !

وظلت تمشي في غرفتها على هذا الاضطراب زمناً طويلاً وهي تفكر كيف تنتقم ثم نادت خادمة غرفتها وهي فتاة قدمت معها من روسيا تشبهها بقوامها ، فأسرعت الخادمة الى تلبيتها .

وكان غرض فاسيليكا ان ترسلها إلى موروليكسن بالرسالة التي كتبتها غير انها افتكرت ان هذه الخادمة لا تعرف كلمة من اللغة الفرنسية ، فلا تصلح لمثل هذه المهمة الخطيرة فخطر لها ان تذهب بنفسها بعد ان تتنكر بزي الخادمة لأنها خشيت ان تسرع باكارا عند الصباح فتخرج ايفان من منزل الطبيب فأمرت خادمتها وأمرتها ان تبقى في الغرفة .

وكانت الساعة الثانية من منتصف الليل ، وجميع من في القصر نيام حتى البواب . فخرجت فاسيليكا من غرفتها وجعلت تسير من رواق إلى رواق ، ومن ردهة إلى ردهة حتى انتهت إلى الباب الخارجي ، فأيقظت البواب وكان قد رأى فاسيليكا مراراً مع خادمتها ففتح لها البـــاب دون ان يفوه بحرف ،

وخرجت منه الى الشارع .

وكان الشارع مقفراً فنظرت إلى يمينها ويسارها كي ترى إذا كان يتبعها أحد ثم سارت الى بيت كارل دي مورليكس .

ولم تلق أحداً في طريقها غير انها قبل ان تصل الى بيت كارل لقيت رجلاً واقفاً في الشارع فلم تكترث له واستمرت في سيرها حتى وصلت الى المنزل ، فقرعت الباب دون ان تنتبه الى هذا الرجل الذي كان يراقبها .

وظلت تقرع الباب حتى جاءها البواب مذعوراً ، ففتح لها وقال : ماذا تريدين ؟

– أريد ان أرى الفيكونت كارل دي مورليكس .

فجعل البواب يتأمل ملابسها هنيهة ثم قال : إن هذا مستحيل

– لماذا ؟

– لأن الفيكونت لا يزال في النادي .

فقالت له بلهجة السيادة : إذهب الى النادي وادعه الى الحضور .

ولما رأته يتردد في الامتثال قالت له ببرود إصغ إلي واعلم انك إذا أحببت البقاء في عملك فما عليك إلا تنفيذ أمري ، وإذا أبيت فان الفيكونت يطردك غداً .

فخاف البواب شر هذا الوعيد ، وتبين من لهجتها صدقها في تنفيذه ، فلبس ملابسه مسرعاً ثم دخل بها إلى إحدى القاعات بعد أن أنارها وخرج ليدعو مولاه .

ولم يطل انتظار فاسيليكا فانه بعد نصف ساعة أقبل كارل فحسب في بدء الأمر انه يرى خادمة الكونتس ولكنها لم تلبث ان رفعت النقاب حتى عرفها فقال لها منذهلاً : من أرى ! هذا أنت ؟

– نعم أقفل الباب وتعال نتحدث .

– يظهر انك مضطربة .

- ذلك لأني رأيت روكامبول .

فاصفر وجه كارل وقال : أنت رأيتيه ؟

- نعم .

- متى ؟

- في هذه الليلة .

- إذاً لقد هرب من السجن ؟

- منذ صباح أمس .

- أين رأيتيه ؟

- في منزل الكونتس أرتوف .

فتراجع كارل مذعوراً الى الوراء لأن تيميلون كان قد أخبره بالحوادث التي جرت بين باكارا وروكامبول وقال : كيف يجتمعان ؟

- ذلك لأنهما متحالفان .

- أواثقة مما تقولين ؟

- كل الثقة . وأزيدك أنهما متحالفان عليك ، وأنا لا أعلم الى الآن غايتك السرية التي تسعى اليها ، ولكني أتيتك لأقترح عليك محالفة مثل تلك المحالفة . فاذا ساعدتني في انتقامي ساعدتك في أغراضك التي تسعى اليها . فواحدة بواحدة .

فنظر اليها كارل نظرة المشكك في أمرها وقال : سيدتي ماذا تقولين ؟

- أقول ان الوقت حرج ولولا ذلك لما جئتك بعد منتصف الليل بل تأخرت الى الغد .

- ليكن ما تريدين فاني أساعدك .

- إذاً يجب في صباح غد ان تخرج إيفان من عند الطبيب لامبرت .

- لا أرى حاجة لذلك فان الطبيب واثق كل الثقة من جنونه .

- ولكنهم إذا جاؤوه بمدلين ، وهي عندهم الآن ، فماذا يقول الطبيب ؟

فاضطرب كارل عند ذكر مدلين ، واصفر وجهه اصفراراً شديداً لم يخف على فاسيليكا فقالت له بلهجة الفرح : إنك تحبها دون شك ؟

ولم تدع له وقتاً للاجابة فقالت له: طب نفساً فاني سأساعدك في كل ما تريد وستنال بسببي كل أمانيك فاني شديدة الظمأ إلى الانتقام .

- ٨ -

أما ايفان فانه كان لا يزال في سجن الطبيب ، وقد احتج احتجاجاً شديداً على سجنه وحاول مراراً ان يثبت للطبيب أنه عاقل وان مدلين موجودة حقيقة ، ولكن الطبيب كان يبتسم له عند كل احتجاج ويأمر رجاله بصب الماء البارد عليه .

وهذا الماء البارد في الشتاء أشد ما يلقاه الذين يقضى عليهم بالمعالجة به ، فكان المجانين حقيقة يهدأون حين إنذارهم بهذا العلاج ومن كان عاقلاً يضطر الى التسليم بجنونه الوهمي لخوفه من هذا الماء .

وقد كان ايفان قوياً شديداً . فكان في بدء أمره في عراك دائم مع اولئك الممرضين ، ولكنه لم يلبث ان يغلبوه بعد تلك المقاومة بما يرد اليهم من النجدات ، فيكبلونه بالقيود ويعالجونه بذلك الماء البارد حتى رأى أخيراً ان الجنون خير من العقل ، ورضي ان يكون مجنوناً الى ان يقدر له الله الخلاص من هذا العذاب .

ولكنه كان يفتكر ليله ونهاره بالفرار على استحالته من ذلك المنزل الحصين وتناوب الحراس فيه الى ان خطر له خاطر بسيط وهو ان يتغلب على حارسه بعد انتصاف الليل فيسد فمه ويلبس ملابسه ويقف مكانه في موقفه الى ان يحضر الذي يأتي دوره بعده بالحراسة فيوقفه في موقفه ويخرج آمناً .

ففي الليلة نفسها التي خرجت فيها فاسيليكا من منزل باكارا إلى منزل كارل كان ايفان يتأهب لتنفيذ هذه الخطة التي رسمها .

وكان الممرض الذي يحرسه نائماً معه في غرفة واحدة وقد خدعه ايفان بظاهر سكينته حين حاول على الفرار فاصبح واثقاً منه بحيث بات ينام على كرسيه بقرب سريره دون أن يخشى شره .

وفي ذلك الوقت كان الحارس نائماً فنزل ايفان من سريره وسار رويداً إلى غرفة المائدة فأضاء ورأى صحون الطعام الفارغة لا تزال فوقها وفيها سكين من سكاكين المائدة غير حاد النصل ولكن من كان قوي الساعد يستطيع اغمادها في عنق خصمه .

فقبض عليها وعاد إلى الممرض النائم فايقظه ففتح المسكين عينيه وما لبث أن رأى ايفان ينذره بسكينة حتى هلع قلبه من الرعب .

أما ايفان قال له : احذر أن تفوه بكلمة أو أقتلك في الحال شر قتل .

فسكت الممرض ولم يفه بحرف فاخذ ايفان منديله وربط به فمه ثم أخذ سجادة كانت في أرض الغرفة فقطعها أربع قطع طويلة وربط بها يديه ورجليه دون أن يبدي هذا الممرض أقل شيء يدل على الاعتراض لأنه كان يفضل خسارة منصبه على خسارة حياته وقد علمه الاختبار وجوب التحذر من المجانين لأنهم لا يمزحون .

أما ايفان فانه لبس ملابس الممرض وبحث في جيبه عن مفاتيح الغرف والأبواب فوجدها مربوطة بحلقة ، ثم خرج بعد أن أنذر هذا الممرض الأخير انذار آخر .

وجعل يسير من غرفة إلى غرفة ومن رواق إلى رواق حتى وصل الى الحديقة فوجد هناك حارساً مستنداً إلى شجرة وهو نائم فخفف وطأة مشيه حتى وصل إلى باب الحديقة الخارجي فاخذ من جيبه تلك المفاتيح وجعل يجربها في القفل واحداً واحداً إلى ان عثر بمفتاح ذلك الباب .

وفيما هو يفتحه إذ استيقظ الحارس من رقاده وصاح به يقول : من أنت ؟

فتكلف ايفان تقليد صوت الممرض جهد الطاقة وقال . ألم تعرفني أنا ممرض الروسي وقد أرسلني الطبيب لاحضار دواء من الصيدلية .

وكأنما هذا الحارس قد ارتاب بحديثه فدنا منه كي يتحقق أمره ولكن ايفان فتح الباب مسرعاً وأركن إلى الفرار فانطلق الحارس في أثره .

وقد أيقن ايفان من النجاة ولكنه لم يعد بضع خطوات حتى سمع صوتاً من نافذة المنزل ينادي رجلاً كان في الشارع فيقول أقبض عليه .

فأسرع هذا الرجل وأنقض على ايفان انقضاض الصاعقة ، وقبل أن يتمكن من الافلات منه أقبل الحارس وساعد الرجل في القبض عليه ، ثم علا الصياح في المنزل واستيقظ النيام فأسرعوا بجملتهم إلى ايفان فأعادوه الى حيث كان وكبلوه بالقيود حذراً عليه من الفرار ، وقد استيقظ الطبيب ولما رآه قال لولا تهاونكم في صب الماء البارد عليه لما عادت اليه أعراض الجنون بهذه الشدة .

فتمزق قلب ايفان من القهر وقال : انك لست طبيباً بل انك غر جاهل وانك لا تعرف من الطب إلا بقدر ما أعرف أنا من البرازيلية وانك أقرب الى الحيوان منك الى الانسان .

فصاح الطبيب بأعوانه : اسرعوا بالماء البارد . خذوه الى المغطس ..

فحملوه بالرغم عنه وهو يشتم أقبح شتم فوضعوه في المغطس وفتحوا الحنفيه فجعل الماء البارد ينحدر على رأسه فيزيده لوعة وهماً حتى تلاشت قواه وانقطع عن الصياح فحملوه الى حيث نام نوم القانط وهو يتمنى الموت في كل حين .

ونام ايفان بعد ما لقيه من العناء نوماً متصلاً ثماني ساعات فلما استفاق وجد أن اشعة الشمس قد ملأت غرفته ورأى انهم عينوا لحراسته رجلا شديداً لا يستطيع التغلب عليه .

فنظر اليه ايفان نظراً ساهياً فدنا منه الحارس وقال له بلطف : كيف أنت اليوم ؟

— اني على شر حال أكاد أختنق فافتح هذه النوافذ .

فامتثل الحارس ودنا ايفان من النافذة المشرفة على الحديقة فلم يكد يجيل نظره فيها حتى جعل يضطرب وصاح صيحة دهش ذلك انه رأى رجلين وامرأة يسيرون في الحديقة ويتحدثون .

فكان أحد الرجلين الدكتور لامبرت وثانيهما الفيكونت كارل دي مورليكس أما المرأة فكانت الكونتس فاسيليكا ابنة عمه .

فمد يديه الى كارل وابنة عمه وكلمها بعينيه بلهجة المتوسل لأن الاضطراب حبس لسانه عن الكلام وقد ظن أن الله أرسل اليه ابنة عمه لانقاذه .

أما كارل فانه كان قد جاء مع فاسيليكا الى منزل الطبيب فأخبره انها ابنة عم ايفان فسألته عن حاله فقال لها الطبيب ، انه قد بلغ أشد أطوار الجنون ليلة أمس ، ثم حكى لها عما جرى له أمس حين محاولته الفرار وانه يجب ان يستمر على معالجته مدة طويلة .

فلما فرغ من حديثه قالت له فاسيليكا لقد قال لك حضرة الفيكونت اني ابنة عم المسكين وأزيدك ان أباه قد جعلني ولية أمره في غربتـه فأنا قادمة لاخراجه .

فارتعد الطبيب لأنه كان يرجو ان يكسب مالاً وفيراً في حبسه ايفان . وقال كارل دون أن يحفل بما رآه من امتعاضه : ان الكونتس مسافرة في مساء اليوم الى بطرسبرج وقد عهد اليها أن تصحب معها ابن عمها الى روسيا .

ولما كان كارل هو الذي أدخل إيفان إلى منزل لامبرت لم يستطع هذا الطبيب اعتراضه على إخراجه فانحنى أمامه إشارة إلى الامتثال .

فسألته الكونتس إذا كان يمكن مشاهدة ايفان الآن قال نعم وسأدعوه من غرفته .

وبينما كانت فاسيليكا تسرح نظرها تطلعت إلى النافذة المشرف منها إيفان فلما وقع نظرها على نظره حلت عقدة لسانه وناداها باسمها نداء المستنجد المستغيث .

فابتسمت وقالت : طب نفساً يا ابن عمي فإني قادمة لنجدتك .

ثم صعدت إلى غرفة الطبيب وبعد دقيقتين كان ايفان قد حضر فجعل يعانقها وينظر إلى الطبيب و كارل نظرات الحقد الهائل ويقول : إن هذين الشقيين قد دعياني مجنوناً .

– لا بأس يا ابن العم فانهما كانا واهمين

– أترين بي شيئاً من علائم الجنون ؟

– على الإطلاق .

– إذن هذا الطبيب حمار بصورة إنسان .

ثم نظر اليه نظرة هائلة وهم أن يهجم عليه .

فسكنت فاسيليكا ثائره وقالت له كفاك .

-- لا أكتفي ولا أطمئن إلا اذا أخبرني هذان الرجلان عن السبب الذي حملاني من أجله ما لقيته من العناء .

– أنا أوضح لك ما جرى وأكفل إنك تصفح عنهما .

– كيف ذلك ؟

– اصغ الي وأجبني على أسئلتي ، أين لقيت الفيكونت كارل دي موروليكس أول مرة ؟

– في إحدى الفنادق في روسيا .

ـ ألم يكن هذا اللقاء حين محاولتك قتل السائق ؟
ـ لا أنكر عزمي على قتله في ذلك العهد فإنه أهان مدلين .
ـ إن اسم هذه الفتاة كان علة جميع ما لقيته .
ـ كيف ذلك ؟
ـ ألم يكن البرنس ماروبولوف مع الفيكونت موروليكس حين لقيته في ذلك الفندق ؟
ـ نعم ..
ـ أليس هو الذي ذهب بك إلى قصره ؟
ـ نعم ..
ـ إذن فاعلم إن هذا البرنس كان ممازحاً بارداً ثقيلا فإنه هو الذي أقنع دي موروليكس أن مدلين غير موجودة إلا في مخيلتك وانك مجنون .
ـ يا له من شقي .
ـ فجاء بك موروليكس إلى هنا لاعتقاده ان مدلين لا أثر لها في الوجود.
وقال الطبيب : لاسيا وانك كلما رأيت امرأة تحسب انها مدلين.
فرد ايفان : إني إذا عذرت المسيو دي موروليكس في خطأه وانخداعه فكيف أعذر هذا الرجل وهو من الأطباء بمعالجة المجانين .
فأجاب الطبيب أرجوك المعذرة يا سيدي فإن الطب لم يصل بعد إلى الجزم في أمراض الجنون .
وقالت الكونتس : لا بأس يا ابن عمي فإن الخطأ قد حدث وكلا الرجلين معذور فودع الطبيب وهلم معي فإني ما أتيت إلا لأجلك
فصافح إيفان الرجلين وقد انفرجت كربته ثم ذهب إلى غرفته فلبس ملابسه وعاد فخرج مع فاسيليكا من المنزل الرهيب .
وكانت مركبتها تنتظرها فركب فيها الاثنان وانطلقت بهما تنهب الأرض .
أما الطبيب فإنه جعل يودع تلك المركبة بالنظر ويقول : لاحظ لي مع

أولئك الروسيين فلو بقي هذا الرجل عندي لكنت أويت منه .

ولما احتجب عنه عاد إلى أعماله يمشي مشية الحزين .

ولكنه لم يكد يستقر في غرفته حتى دخل اليه الخادم برقعتين من رقـاع الزيارة فوجد مكتوباً على إحداهما الكونتس أرتوف وعلى الثانية الماجور أفاتار ففرح بهما وقال هوذا الدهر قد عاد يبتسم لي مع هؤلاء الروس .

- ١٠ -

بكرت باكارا في ذاك اليوم بنهوضها من فراشها ففتحت نافذة غرفتهـــا تجديداً لهوائها ، ورأت فاسيليكا قد بكرت في النهوض وهي تتنزه في الحديقة وعليها ملابس الركوب ، ثم رأت أحد الخدم جاءها وأشار اليها إشارة تدل على أن أوامرها قد نفذت فعلمت من ملابسها أنها تريد النزهة على الجواد .

ثم خرجت فاسيليكا وعادت باكارا إلى غرفتها فلبست ملابس الصبـاح وخرجت إلى غرفة الجلوس وجعلت تطالع تقرير روكامبول .

وبعد حين دخلت عليها خادمة غرفتها تستأذن للماجور افـاتار بالدخول اليها فقالت : ادخليه في الحال فإني بانتظاره .

ثم دخل روكامبول وعليه علائم الاضطراب وقال : أتعلمين مـا حدث يا سيدتي فإن الكونتس فاسيليكا خرجت أمس من قصرك في الساعة الثانية بعد منتصف الليل .

— أخرجت من المنزل ؟

- نعم وكانت متنكرة بزي خادمتها

— وما كان قصدها ؟

- لقد تبعها أمس أحد رجالي المدعو نويل وكنت عهدت اليـــه مراقبة

منزل موورليكس .

– إلى أين كانت ذاهبة ؟

– الى كارل موورليكس فأقامت معه أكثر من ساعة .

– إن هذا غريب .

ثم نادت خادمتها وقالت لها : ادعي البواب .

فلما جاء أخبرها إن خادمة الكونتس خرجت حقيقة بعد منتصف

وعادت إلى روكامبول وسألته : أهذا كل شيء ؟

– كلا فإن الكونتس قد خرجت من هنا أيضاً منذ ساعة .

– نعم لقد كانت راكبة جواداً يتبعها خادمها .

– إنها ذهبت على جوادها إلى الشانزليزه حيث كانت مركبة تنتظرها .

– العلها كانت مركبة كارل ؟

- دون شك وكان هو فيها ، فنزلت فاسيليكا عن جوادها فأعطته لخادمها ، ثم صعدت إلى المركبة بجانب كارل الذي قال للسائق : اذهب بنا الى أوتيال .

– ما المراد من ذهابهما الى هذا الشارع ؟

– ألا تعلمين ان إيفان مسجون في منزل الطبيب المقيم في ذلك الشارع ؟

– وماذا يريدان منه بعد سجنه ؟

– انهما يريدان اختطافه حذراً منه والله يعلم ما تفعل أيديها الأثيمة فيه .

فاضطربت باكارا وقرعت جرساً كبيراً قرعاً عنيفاً فأسرع اليها الخادم وقالت له : قل للسائق أن يسرع باعداد المركبة ، وبعد حين كانا في منزل الطبيب

أما الطبيب فإنه حين قرأ اسم الكونتس أرتوف والماجور وعلم انهما روسيان عاد اليه بعض الرجاء وأسرع لاستقبالهما فافتتح روكامبول الحديث معه فقال : لقد كان عندك مجنون روسي يدعى ايفان بونتيف وكان جنونه

منحصراً بذكر فتاة تدعى مدلين .

– نعم هو بعينه وقد أحضرته الى منزلي منذ ثلاثة أيام وفيما أنا قادم بـه رأى في مركبة فتاة من شهيرات بنات الهوى فوثب من مركبته اليها وجعل يناديها باسم مدلين .

– لقد عرفت هذه الحكاية ولكني لم أعلم اسم تلك الفتاة .

– ولكنها مشهورة يا سيدي وهي تدعى كلوريند .

– لا أنكر ذلك غير اني كنت غائباً عن باريس أعواماً طويـلة ولم تكن هذه الفتاة مشهورة حين إقامتي فيها أتعلم أين تقيم ؟

– كلا ، ولكن جميع الناس في باريس يعلمون .

ولم يخطر لباكارا في بال السبب في اهتمام روكامبول بتلك الفتاة فقالت : انما أتينا للبحث عن ايفان

فقال روكامبول لقد أصبت ..

ثم سأل الطبيب : ألا يمكن أن نرى ايفان ؟

– ذلك مستحيل يا سيدي .

– لماذا ؟

– لأنه لم يعد في منزلي

فاصفر وجه باكارا وقالت : كيف ذلك ومتى خرج ؟

– في صباح اليوم جاءت ابنة عمه وطلبت اخراجه فذهبت به .

ونظر روكامبول الى باكارا نظرة مآلها أنه لا فائدة من اخبار الطبيب بانه كان آلة لإجراء هذه الدسيسة السافلة .

ثم ودعاه وخرجا فشيعهما الى المركبـة وهو لا يدرك شيئاً من أسرار اضطرابهما .

أما روكامبول فكان مقطب الجبين تبدو بين ثنـايا وجهه آثار الهم والتفكير على غير عادته فنظرت اليه باكارا وقالت : ماذا نعمل والى أين ذهبت

به هذه الماكرة ؟

– انها لم تذهب به اليك دون شك وأنا لا أخشى كارل ولا تيميلون ، ولا سواهما ولكني أخشى تلك الغادة

فاتقدت عينا باكارا وقالت : أما أنا فلا أخشاها وسأتفرغ لها .

– اذن هلم بنا الى العمل .

– ١١ –

ولنعد الآن الى ايفان فإن فاسيليكا وكارل خرجا به من منزل الطبيب الى المركبة التي كانت تنتظرهما فركب معها وسارت بهم تنهب الأرض .

وكانت علائم السرور بادية على ايفان لتنشقه نسيم الحرية وجعل ينظر الى ابنة عمه نظرات ملؤها الشكر والامتنان .

وسارت بهم المركبة تجتاز شوارع باريس الكبرى فتتمثل تلك العاصمة لايفان بملء عظمتها وبقيت نفسه سارحة في تلك المناظر البديعة حتى جرت المركبة شوطاً بعيداً ، واحتجبت تلك المناظر فكان أول كلمة نطق بها : مدلين .

فابتسمت فاسيليكا وقالت . أتحبها كثيراً ؟

– اني أعبدها عبادة واستعذب الموت في هواها .

– كلا . انك لا تموت فانها في باريس وسوف تجدها .

– أتعلمين أين هي ؟

فتبسمت له أيضاً ابتسام الواثق وقالت : قلت لك سوف تجدها .

فأخذ ايفان يدها وقبلها شاكراً ثم قال : الى أين أنت ذاهبة بي ؟

الى منزلي .

- أأنت مقيمة في باريس ؟

- اني مقيمة فيهـا منذ ثمانية أيام ، ألم اكتب لك اني سأبرح بطرسبرج الى باريس ؟

- نعم ..

- ذلك كي أسبقك الى هذه العاصمة فأحميك وأساعدك على ايجـاد مدلين ولكني لسوء الحظ وصلت متأخرة قليلاً فعلمت نتيجة ذلك المزاح البارد الذي أجراه البرنس ماروبولوف فألقاك في سجن المجانين .

ولم يتمالك ايفان عن أن ينظر نظرة حقد الى كارل الذي لم يفه بكلمـة حتى الآن .

وعادت فاسيليكا الى اتمام حديثها فقالت :

- ان لي قصراً في هذا الشارع وسأقدمه هدية لك ولمدلين لحين زواجكـا لأني أحب أن تكونا سعيدين .

فصدق ايفان لبساطة قلبه قول ابنة عمه وقبل يدها مرة ثانية .

وكانت المركبة قد اجتازت عند ذلك محـــل البوربون وبلغت الى شارع كاسيت فقالت فاسيليكا : لقد وصلنا .

وكان شارع كاسيت يشبه الأديرة فإن كل منزل يشبه صومعة الرهبان فدخلت المركبة تحت قبة عالية .

وكانت مناظر تلك البيوت التي تمر بها تشبه القبور فانقبض صدر ايفان .

وما زالت المركبة تسير في ذلك الشارع حتى وقفت عند باب منزل قديم ففتح بابه للحال ونزلت فاسيليكا وقد أخذت ايفان بيده وقـــالت له : ادخل معي .

فامتثل ايفان وهو يشعر برعب شديد وبقي كارل في المركبة ، ولما دخلا اقفل الباب من ورائهما ورجعت المركبة بموريليكس .

وكانت نوافذ هذا المنزل مقفلة مما يدل على انه غير مأهول ولم يكن فيه بواب كأنما يد خيالية فتحت الباب حين وصول المركبة .

فسارت فاسيليكا مع ابن عمها في رواق طويل مظلم حتى انتهت إلى بابه ، فنادت بريتو .

وعند ذلك أسرع بريتو وهو الخادم الايطالي الذي صحب ايفان ، فوقف أمام ايفان في موقف الاحترام .

فلما رآه غضب غضباً شديداً حتى هم ان يضربه وقال له : إنك علة نكبتي أيها الشقي .

فقالت له فاسيليكا : إصفح عنه يا ابن عمي ، فإنه لم يكن مخطئاً الى الحد الذي تتصوره .

– كيف ذلك ألم يستطع هذا التعس ان يشهد اني غير مجنون ؟

– نعم . ولكنه فقير وقد أغراه البرنس ماروبولوف بالمال الكثير فاضطر الى السكوت .

فلم يقبل ايفان العذر وضم قبضته متهدداً وهو يقول سأميتك جلداً بالسياط أيها الشقي .

– لا تسيء اليه لاننا محتاجون الى خدمته .

أما بريتو فلم يظهر علائم الخوف من إنذار ايفان ، ففتح مصراعي باب كبير أمام فاسيليكا ، فظهرت قاعة متسعة تشرف نوافذها على حديقة باسقة الأشجار .

فأجلست فاسيليكا ايفان قرب نافذة مفتوحة وجلست بجانبه تحادثه قائلة : ثق يا ابن عمي العزيز فاني سأجد مدلين قبل ان ينقضي يوم غد .

– إن هذا اليوم بمثابة دهر ولا طاقة لي على الصبر .

– ولكن يجب الانتظار وسنجد طريقة لإنقاص ساعات هذا اليوم الطويل وذلك اننا نبدأ بالغداء .

وأشارت الى بريتو . فانصرف وعـاد بعد دقيقة بمائدة صغيرة عليهـا فاخر الطعام .

وكان الجوع قد بلغ مبلغاً شديداً من ايفان ، فان سلطانه لا يرحم أحداً حتى العشاق فجلس حول تلك المائدة يأكل بشهية عظيمة ، ولا سيا وان فاسيليكا كانت لا تفتر عن محادثته بشأن مدلين ، وهي في خلال ذلك تملأ كأسه كلما فرغ وهو يشربه كلما امتلأ ، وكلما شرب زاد شوقه إلى الحديث عن مدلين .

وفيما هو على ذلك شعر فجأة ان الأرض تدور به ثم أحس بنعـــاس شديد وجعل يقاومه بعنف دون ان يستطيع التغلب عليه .

فقالت له فاسيليكا . أراك بحاجة شديدة إلى النوم .

– نعم فان معركة الأمس قد أنهكت قواي ولو تعلمين كيف كان يعاملني هذا الطبيب لأشفقت علي .

– لا بأس فقد نجوت بحمد الله .

فأخذ ايفان سيكارة وأشعلها راجياً ان يذهب ما به من النعاس بالتدخين ولكنه ما لبث دقيقة حتى أطبقت عيناه وأصبح كالأموات على كرسيه وسقطت سيكارته من فمه .

وعند ذلك قامت فاسيليكا فنادت خادمها بريتو ، وعيناها متقدتان بنار الحقد والانتقام ، أقبـل قالت له : هوذا أسـيرك وأنت المسؤول عنه بعد الآن .

ثم مشت فاسيليكا الى الحائط فضغطت فيه على زر غير منظور وعند ذلك جعلت الأرض التي عليها المائدة وايفان وكرسيـه تسقط سقوطاً متتابعـاً وقد انفصلت عن القاعة وايفان يسقط معها الى أعماق مجهولة .

وعندما عادت باكارا إلى منزلها دهشت دهشة عظيمة إذ أخبرها الخدم ان الكونتس فاسيليكا عادت يصحبها شاب حسن الملابس ، وهي مختلية به في غرفتها .

وكان روكامبول يصحب باكارا ، فجعل كل منهما ينظر إلى الآخر نظرة الإعجاب لاعتقادهما أن هذا الشاب ايفان فقالت باكارا : ماذا تريد أن تصنع به ولماذا جاءت به الى منزلي ؟

فأجاب روكامبول : لا بد ان يكون لها غاية هائلة يجب ان نعرفها .

وفيما هما على ذلك جاءت خادمة فاسيليكا فقالت لباكارا : إن سيدتي الكونتس ترجوك ان تصعدي الى غرفتها .

فأشارت لها باكارا انها ذاهبة اليها. ولما انصرفت الخادمة قالت لروكامبول: أعرفت ايفان بونتيف ؟

— كلا فما اتفق أن رأيته .

— ولا أنا أيضاً ، مع اني أقمت في بطرسبرج عدة أعوام فما لقيته في قاعة من القاعات . والآن إصغ إلي ، إن قلبي يحدثني بوجود مكيدة ، وأحب أن تسمع حديثي مع هذه المرأة . فاخرج من هذا الباب تجد سلماً من الرخام على يمينك فاصعد عليها تجد عند آخرها غرفة وهي مجاورة لغرفة فاسيليكا من الجهة الأخرى لا يفصل بينهما غير باب رقيق من الخشب فاذا وقفت على هذا الباب وأصغيت سمعت كل شيء .

فامتثل روكامبول وتسلق ذلك السلم وخرجت هي من باب آخر حتى وصلت الى غرفة فاسيليكا فرأتها جالسة قرب المستوقد ورأت بقربها شاباً لابساً أفخر الملابس الدالة على البسطة والجاه .

فاستقبلتها فاسيليكا بملء البشاشة وقالت: إسمحي لي ان أقدم لك ابن عمي

المسيو ايفان بونتيف .

فحيته باكارا ورد لها التحية بشكل فهمت منه باكارا انـــه غير عريق بعادات الأشراف وقد رأت انه لابس ثياب الأعيان غير انها لاحظت من إشاراته وملامحه انه ليس منهم في شيء .

وعادت فاسيليكا الى الحديث فقـــالت : إني اصطلحت مع ابن عمي وأنقذته من ذلك المنزل الذي لم يقده اليه غير مزاح البرنس مـــازوبولوف وأحد أصحابـه الكونت كوروف الذي لا يزال طامعـاً بزواجي ، والذي يظهر أن مدلين موجودة حقيقة ، وما زالت موجودة فلا سبيل إلى اتهام ابن عمي بالجنون .

فأجابت باكارا: هذا أكيد ، وفوق ذلك فإني لا أجد فيه إلا ما يدل على العقل الراجح .

فانحنى الرجل شاكراً فلاحظت باكارا خطأ باتباع العادات .

ثم قالت فاسيليكا : إني أسألك يا سيدتي ان تأذني لي بضيافة ابن عمي إلى ان نجد مدلين .

فأجابتها باكارا بلطف ودار الحديث بينهم ، فكانت باكارا تفحص هذا الرجل فحص الخبير ، فلا تجد في هيئته وأخلاقه ما يدعو مثل فاسيليكا إلى الهيام به ثم قالت لها على سبيل العرض : إن زوجي الكونت أرتوف سيعود غداً من روسيا .

فاضطربت فاسيليكا وقالت : الكونت ارتوف يصل غداً ؟

— نعم وربما وصل هذا المساء .

فامتعض وجه فاسيليكا ، بالرغم مما بذلته من الجهد في إخفاء اضطرابها لأنها خشيت أن يكون للكونت معرفـة بايفان ، فيفتضح أمرهـا ، وتفسد حيلتها .

وما خفي هذا الاضطراب وأسبابه عن باكارا ، فحادثتها هنيهة ثم ودعتها

وخرجت بعد ان جاملت ذلك الرجل ودعته الى مناولة الطعام .

وخرجت باكارا مسرعة الى المكان الذي كان مختبئاً فيه روكامبول فوضع إصبعه على شفتيه وأشار لها ان تدنو من الباب فتسمع .

فأسرعت باكارا مسرعة الى الباب فسمعت كل مـــا دار من الحديث بين فاسيليكا وهذا الرجل الذي ادعت انه ابن عمها.

وكانا يتكلمان باللغة الروسية ، غير ان باكارا كانت تعرف هذه اللغـة معرفة تامة بعد إقامتها مدة طويلة مع زوجها في روسيـــا ، فلم يفتها من حديثهما شيء .

وعند ذلك سار بها روكامبـــول الى آخر الغرفة وقال لها همساً : ألم تقرأي بين الأوراق التي قدمتها لك كتاباً من مدلين إلى أختها تقول لها فيه انها سمعت ايفـان يصرح بعدم حبـه إياها ، وإنه يحاول الاقتران بفاسيليكا ؟

ــ نعم قرأت هذا الكتاب .

ــ إذاً فاعلمي ان هذا الصوت الذي سمعته مدلين لم يكن صوت إيفان نفسه بل كان صوت خادم استخدمه والد ايفان لما وجده من التشابه بين صوته وصوت ولده .

ــ أهو ذلك الخادم الذي أهان مدلين في فندق ساوا ؟

ــ هو بعينه وهو الآن يحاول تمثيل دور ايفان مرة أخرى ، ولكنه يمثله الآن بأمر فاسيليكا لا بأمر والده .

فابتسمت باكارا ابتساماً يدل على وثوقها من مقدرتها وقالت : ان هذا التمثيل لن يطول .

وفي المساء اجتمع على الطعام فاسيليكا وباكارا وذلك الرجل ، فكانت باكارا تظهر أنها منخدعة به وأنها معتقدة كل الاعتقاد أنه ايفان .

فلما فرغوا من الطعام قالت له باكارا : إن ابنة عمـك كسلى ، تحب

الراحة والتدخين بعد الطعام ، فهل تريد أن تصحبني إلى الحديقة ، فنتنزه فيها ؟

– حباً وكرامة .

وتأبط ذراعها وخرج بها الى الحديقة .

وكان القمر مشرقاً فمشت به باكارا وهي تشاغله بالحديث ، حتى انتهت الى غرفة كان فيها مصباح يضيء فقالت له : أتريد أن ترى مكتبتي التي أنشأتها في هذه الغرفة ؟

– إني أرى فيها مصباحاً فهل يوجد فيها أحد ؟

– ربما كان فيها وصيفتي .

وسار الاثنان حتى وصلا اليها ففتحت بابها وأوعزت اليه ان يدخل ففعل ودخلت باكارا في أثره فأغلقت الباب .

ولكنه لم يسر ثلاث خطوات حتى توقف فجأة إذ لقي أمامه خادمين ضخمين وبيد كل منهما كرباج هائل يعده الروسيون خاصة للجلد .

– ١٣ –

وكان هذان الرجلان اللذان رآهما ضخمي الجثة وفوق ذلك فقد كانت تبدو على وجهيهما علائم الغلظة والبعد عن الرفق .

ولما دخل هذا الذي يدعي انه ايفان وأغلقت باكارا الباب وراءه خاطبته كما يخاطب الأسياد خدام أراضيهم في بلاد الروس فقالت : أيها العبد إنك روسي ، ومن كان روسياً فهو يعرف دون شك كيف يعاقب من يتجاسر على تزوير اسم سواه .

وحاول الرجل الانكار قائلا : سيدتي ماذا تقولين ؟ إني لا أفهم شيئاً

عما تمنين ؟

– ماذا تدعى ؟

– ايفان بونتيف .

– إنك منافق كذاب .

– سيدتي ؟

– نعم أنت كذاب لأنك تدعى بطرس السائق .

فاصفر بطرس اصفرارا شديداً حين رأى انها تعرف اسمه وجعل يضطرب دون أن يجيب .

– أيها العبد إنك ستعاقب عقاباً شديداً عما جنيت .

ثم أشارت بيدها الى الرجلين ، فانقضا عليه انقضاض الصاعقة والقياه إلى الأرض .

فجعل بطرس يصيح مستغيثاً فقالت باكارا للرجلين : إذا توالى صياحه فاقتلاه !

فلما رأى بطرس ان الانكار لا يجديه جعل يستعطفها قائلا رحماك يا سيدتي إشفقي علي .

فلم تجبه باكارا .

– إصفحي عني أخبرك بكل شيء .

– ماذا تعني بكل شيء ؟

– أعني أني أخبرك لماذا تسميت باسم ايفان بونتيف .

فلم تأمره باكارا بالكلام ، وبدأ الرجلان بنزع ثيابه كي تقع السياط على جلده .

– سيدتي إن الكونتس فاسيليكا أمرتني أن أفعل ما فعلت .

ولم تحفل به باكارا أيضاً .

فعاد الى حديثه وقال إنهم حبسوني منذ ثمانية أيام ، وهم يعلمونني

كل يوم أن أقلد حركات الأعيان ، كي أستطيع أن أقلد ايفان عندما أسمى باسمه .

– لماذا عينوك لهذه المهمة ؟

– لأن صوتي يشبه صوته أتم الشبه .

وبعد أن نزع الرجلان ثيابه العليا نزعا قميصه ولكنهما لم يضرباه لأنهما كانا ينتظران إشارة من باكارا .

غير ان باكارا أحبت الصبر الى أن تتم استنطاقه فقالت له : أتعلم أين هو ايفان الآن ؟

– كلا يا سيدتي !

– إحذر فقد أعفو عنك إذا قلت لي أين هو ؟

– أقسم بالله يا سيدتي أني لا أعلم شيئاً لأن الكونتس فاسيليكا لم تكن تطلعني على أسرارها .

– لم يكن ذلك إلا لسوء حظك لأنك لو كنت مطلعاً على أسرارها لنجوت من العذاب .

ثم قالت للرجلين بعظمة : خمسون جلدة فقط .

وفتحت الباب وخرجت .

فلم تمش بضع خطوات حتى رأت روكامبول قد خرج من بين الشجر فقالت له : العلك عرفت شيئاً ؟

– لم أعلم غير أمر واحد وهو أن جواسيسي شاهدوا كارل خارجاً بمركبته من شارع كاسيت .

– ليس هذا بالشيء القليل .

– وقد تبعه الرقيب الى محل الصليب الأحمر ، وكان الرقيب لسوء الحظ تبعه بمركبته أيضاً فازدحمت المركبات كما يتفق كثيراً بحيث احتجبت مركبة كارل عنه ولكنه رأى في تلك المركبة كارل وفاسيليكا وإيفان .

وكان هذا الرقيب نويل فلما رأى أن المركبة قد احتجبت عنه ترك مركبته وأقام يبحث عنهم ساعتين فلم يهتد إلى أثرهم الى أن رأى مركبتهم عائدة من شارع كاسيت ولكنه لم ير فيها غير كارل .

– إذاً يجب غداً أن نبحث في شارع كاسيت

فارتعد روكامبول وقد سمع صراخ رجل يتألم ، وسألها : ما هذا الصوت ؟

– إنه صوت بطرس السائق .

– لقد أحسنت في تأديبه والآن أتأمرينني بشيء .

– كلا لست محتاجة اليك في هذا المساء وسنجتمع غداً ، إنما قل لي قبل ذهابك أرأيت تلك الفتاة التي تشبه مدلين ؟

– سأجتمع بها في الساعة السادسة فانها تنتظرني .

ثم تركها وانصرف ، ولكنه لم يخرج من الباب العام ، بل ذهب إلى أقصى الحديقة ، ففتح باباً فيها كانت باكارا أعطته مفتاحه ، وخرج منه الى الشارع .

* * *

أما فاسيليكا فكانت مضطجعة على مقعد طويل تدخن سيكارتها ، فيعقد دخانها ضباباً كثيفاً في سماء الغرفة وهي تنظر اليه آمنة مطمئنة ساكنة كأنما فؤادها خال من كل شاغل .

ثم سمعت وقع أقدام فنظرت فاذا باكارا داخلة اليها وهي تقول : إن البرد شديد فلم أستطع البقاء في الحديقة .

– أين ايفان ؟

– تركته يدخن في الحديقة .

فاطمأنت فاسيليكا وأشعلت سيكارة أخرى .

أما باكارا فإنها جلست قربها وجعلت تحادثها قائلة لها : أحقيقة أنك تحبين ابن عمك ؟

– أحبه حباً لا حد لوصفه .

– وكيف رجعت عن عدم الزواج به ؟

– لم أجد بدأ من ذلك لأنه لا يحبني .

ثم تنهدت وقالت : مسكين فلقد بلغ به سوء الحظ أنه شغف بعملة كانت من نساء أمه .

فابتسمت باكارا وقالت : إني أعجب كيف أن ايفان يشعل بفؤادك مثل هذا الغرام ؟

– لماذا ألا ترينه جميلاً ؟

– إن الأذواق تختلف في الجمال .

– ولكنه شجاع باسل .

وكانت قاعدة المائدة التي كانت باكارا مقيمة فيها مع فاسيليكا ، تشرف على الحديقة وكانت إحدى نوافذها مفتوحة ، فسمعت فاسيليكا صياحاً وقالت : ما هذا الصياح ؟

– ماذا تسمعين ؟

– أسمع صياح رجل يستغيث .

– وأنا أسمع أيضاً ما تسمعين .

– اليس هذا الصياح من الحديقة ؟

– هو ما تقولين .

فوقفت فاسيليكا متنصتةوقالت: إني أعجب كيف تسمعين أصوات الاستغاثة تخرج من حديقة منزلك ثم لا تظهرين شيئاً من الاهتمام .

– ذلك لأني أعلم ما يجري ، لأن خدمي يعاقبون رجلاً تجاسر على

احتقاري .

– رجلاً تجاسر على احتقارك ؟

– وعلى الهزء بي فإن هذا الوقح قد انتحل اسم رجل من نبلاء الروسيين وما هو إلا عبد حقير .

فتراجعت فاسيليكا منذعرة الى الوراء .

أما باكارا فأتمت كلامها قائلة : إن هذا الرجل يدعى بطرس السائق وقد تجاسر على الجلوس الى مائدتي والقول انه ابن عمك .

فتراجعت عند ذلك فاسيليكا منذعرة الى الوراء تراجع الليث يتحفز للوثوب ونظرت الى باكارا نظرة هائلة وقالت : إنك أردت أن تعترضي سبيلي وسوف ترين لمن يكون الفوز .

ثم فتحت أزرار ثوبها بعنف وأخرجت خنجراً كان مخبوءاً في صدرها ، وهجمت على باكارا هجوم الكواسر تحاول أن تغمده في قلبها .

- ١٤ -

تقدم لنا وصف فاسيليكا وما كانت عليه من مظاهرات اللطف ، وهي في الباطن من أفظع خلق الله . فلم يكن تمدنها غير قشرة ظاهرية ، إذا حكتها أظافر الحقد زالت وانكشفت ما تحتها من الهمجية الوحشية .

فلما هجمت على باكارا بخنجرها وتبينت في عينيها ذلك الغضب الهائل أسرعت الى اتقائها فاندفعت فاسيليكا بثوبها إلى آخر الغرفة .

وعند ذلك وقفت باكارا وراء المائدة فجعلتها متراساً لها ، إلى أن تجد سبيلاً أضمن لاتقائها أو فرصة للهجوم عليها ، لأنها كانت أشد منها بنيـة غير أن فاسيليكا لم تمهلها فوثبت عليها وثبة ثانية وطعنتها بخنجرها ، فمالت

باكارا عنها بحيث لم يصبها الخنجر إلا إصابة خفيفة في كتفها فخدشه . وعند ذلك انقضت عليها باكارا فحملتها من وسطها ودفعتها بعنف شديد فرضت عظامها وسقط الخنجر من يدها . فركعت باكارا فوق صدرها وأسرعت الى التقاط الخنجر ثم نظرت اليها نظرة المنتقم الفائز وقالت لها : إنك لم تعلمي أني كنت أدعى باكارا في الزمن القديم . والآن إعلمي أنك إذا عصيتني فيا أريد قتلتك في الحال دون إشفاق .

فتمتمت فاسيليكا بعض كلمات تشير إلى أنها مغلوبة خاضعة للشروط .

فنهضت باكارا عنها وهي غير خاشية بأساً لأن الخنجر كان بيدها ولأنها وثقت من انها أشد منها .

فنهضت فاسيليكا من تحتها وهي صفراء الوجه كأنها من الأموات وقد أطفىء ذلك اللهب الذي كان يتوقد في عينيها فجلست على كرسي قرب عدوتها وأطرقت برأسها إلى الأرض .

فقالت لها باكارا: إن من أعجب العجائب يا حضرة الكونتس أن المائدة لم تنقلب خلال هذا العراك الذي لا يخلق بأمثالنا ولو حدث شيء من ذلك لتسارع الخدم وافتضحنا فضيحة كبرى .

فإن ما جرى بيننا لم يضطلع عليه أحد ، وأنا مستعدة لنسيانه إذا أمكن أن نتفق .

وكانت فاسيليكا قد عادت اليها سكينتها فنظرت اليها بأنفة واستكبار وقالت : على ماذا تريدين أن نتفق ؟

– عجباً أتسألينني على أي شيء يجب الاتفاق وأنت تسممين صوت هذا الرجل المتألم ؟

– دون شك لأني لا أعلم ماذا تعنين ؟

– لقد أصبت إذ يجب علي أن أكون البادئة بالاقتراح .

– إني مصغية اليك .

فاقتربت باكارا منها والخنجر لا يزال في يدهـــا وقالت : إنك أتيت إلى باريس مدفوعة بعوامل الانتقام الهائلة

-- هو الحق ما تقولين .

-- وإن كنت تحبين ايفان بونتيف .

-- ربما !

-- وأنت الآن تكرهينه ، حتى انك تشتهين له الموت . وقد اختطفته وحجبته .

-- وماذا يهمك ؟

-- لا تنسي ، يا حضرة الكونتس ، إنك الآن تحت سلطاني ، وإني أعيد عليك وعيدي السابق ، وهو أنك إذ لم تخبريني أين حبست ايفان قتلتك لا محالة .

فابتسمت فاسيليكا وقالت : إنك سألتني أسئلة كثيرة فهل تسمحين لي أن أسألك أنا أيضاً ؟

-- سلي ما تشائين .

-- إني أكره ايفان لأني أحببته ، وأريد الانتقام منه لأنه سحق كبريائي بقدميه . وأما أنت فماذا يهمك من أمره أرأيته مرة في حياتك ؟

-- كلا .

-- أكنت تعرفين اسمه منذ أسبوع ؟

-- كلا

-- إذاً حق لي قبل أن أجيبك على أسئلتك أن أسألك بدوري .

. لقد عرفت ما تريدين أن تقولي لي ، بأنك تريدين أن تعلمي سبب اهتمامي بايفان .

-- دون شك .

-- إني أهتم به لأنه يهوى مدلين ومدلين تهواه .

ـ هل تعرفينها ؟
ـ لم أرها في حياتي .

فنظرت عند ذلك محدقة الى باكارا وسألتها. أتقسمين لي بحياة زوجك أن الماجور أفاتار هو غير روكامبول .
ـ لا أحب أن أجيبك على هذا السؤال .

فابتسمت ابتسام المنتصر قائلة : أرأيت كيف أني عرفت سرك كما عرفت سري .

إن روكامبول عدوك القديم قد جاءك مسالماً فقررت مساعدته وهو يتولى حماية ايفان ومدلين .
ـ وأنا أيضاً أتولى حمايته ، ولذلك سألتك أن تخبريني أين يوجد ايفان ؟
ـ وإذا لم أخبرك ؟
ـ أقتلك دون إشفاق .

فابتسمت فاسيليكا ابتسام المستخف قائلة : ربما تمكنت من قتلي ، لأنك صادقة العزم فيه . ولكني أستطيع أن أردك بكلمة واحدة عن هذا القصد .
ـ كيف ذلك !
ـ ذلك لأني أعددت لايفان عقاباً أشد هولاً من الموت ، وأن حياته لا قصان من الأخطار إلا إذا صينت حياتي ، فاني قد أقمت على حراسته رجلاً أطوع لي من عبيدي ، وأمرته أن يقتل ايفان بخنجره ، إذا لم يرني بعد ٣٦ ساعة .

فامتعضت باكارا وشعرت انها مغلوبة مع هذه الداهية ، وعضت على شفتها من القهر . فقالت لها فاسيليكا بلهجة المنتصر المتهكم : أقتليني بعد ذلك إذا أردت .

ثم نهضت قائلة : لا ريب أنه لم يبق سبيل لإقامتي في منزلك ، بعد

الذي جرى بيننا فيه فاني سأبيت هذه الليلة وأبرحه غداً إلى حيث أعد معدات قتالك .

– انه سيكون قتال هائل يا كونتس .

– ولكننا سنكون متكافئين بالسلاح فانك لا تستطيعين أن تلجأي إلى الشرع ما زال حليفك روكامبول .

ثم تقدمت إلى الباب بملء العظمة والكبرياء ولكنها لم تكد تصل اليه حتى فتح فجأة ودخل منه رجل يعول ويقول : انتقمي لي يا سيدتي فقد جلدوني أعظم جلد .

فانتهرته فاسيليكا وقالت له : احذر أيها الشقي أن تبوح بأمرك لأحد أو تعرض شكواك على أحد من الناس إذ أقتلك جلداً بالسياط .

ثم مدت يدها إلى باكارا وقالت لها : أودعك الآن يا عدوتي الحسناء .

فقالت لها : إلى اللقاءايتها المنتقمة الجميلة وسوف نرى لمن يكون الانتصار.

ثم افترقتا بعد أن رشقت كل منهما الاخرى بنظرة ، ولكنها نظرة من نار .

– ١٥ –

يعجب قراء الروايات ولا سيما هذه الرواية حين يقرأون فيها عن شخصين متشابهين ، كما اتفق مع باكارا وأختها ، ومع مدلين وكلورند حين خدع بها ايفان ، ولكن من يطلع على نوادر التشابه بين الناس في هذه الأيام لا يستغرب ما يراه منها في الروايات .

لقد ذكروا ان للملك ادوار السابع ملك انكلترا الحالي شبيهاً يشبهه مشابهة غريبة ، حتى ان هذا الرجل كان مرة في أحد فنادق الطعام فلما رآه

الحاضرون على المائدة أيقنوا أنه الملك وحسبوه متنكراً فجعلوا يهتفون له وينحنون أمامه بالاجلال الملكي ، فلم يسع هذا الرجل إلا الهرب .

ومن ذلك أن الأمبراطور نقولا ، أمبراطور روسيا الحالي ، يشبه ابن خالته ولي عهد انكلترا شبهاً عجيباً بحيث إذا صورا صورة واحدة لما أمكن التفريق بينهما .

ومن ذلك أيضاً المستر روزفلت رئيس جمهورية الولايات المتحدة فإن له شبيهاً من قومه لا يفرقه أحد عن الرئيس بشيء ، ولولا امتزاجه مع العامة لما ميزوا بينه وبين الرئيس ، حتى لقد روي عن روزفلت قوله على سبيل المازحة « إني أخشى أن يختطفني هذا الرجل ويتولى الرئاسة مكاني ولا يعلم بجريمته أحد لما بيننا من الشبه العجيب » .

ومن ذلك الأمبراطور فرنسوا جوزيف ، فإن أحد السفراء في عاصمته ، ونظنه سفير المانيا ، يشبهه شبهاً غريباً ، فإذا اجتمع به في حفلة رسمية جعل الناس ينظرون اليهما ويعجبون .

وقد رسمت مجلة (لكتير بورتوس) التصويرية الفرنسية صور هؤلاء الملوك والذين يشبهونهم بعد أن عقدت مقالة مسهبة على تشابه الناس ، فما ذكرته عن غير الملوك حكاية اختين توأمين كثر تشابههما حتى تعذر على أمهما التفريق بينهما وجعلت تعقد شعر إحداهما بشريطة حمراء ، والأخرى بشريطة زرقاء فلا تستطيع التفريق بينهما إلا بهذه العلامة .

وقد اتفق ان فتى هام باحدى الأختين وطلب إلى أمهما الاقتران بها فقالت أي بنتي تريد ؟

– تلك التي أراها تمر كل يوم بمخزني في شارع كذا .

– إن كلتيهما تمران بهذا الشارع فهل تريد صاحبة الشريطة الحمراء أو الزرقاء ؟

فحار الفتى في أمره وقال لا أعلم فإن التي أهواها أراها تعقد شعرها

تارة بالشريط الأزرق وطوراً بالأحمر .

هذه نتف يسيرة من نوادر التشابه بسطناها توطئة لما سيجيء من حوادث هـذه الرواية عن تشابه مدلين وكلورند كي لا يتوهم القارىء ان مؤلف هـذه الرواية يعتمد في مواضيعها على ما يجتاز حد المعقول .

كانت كلورند هذه فتاة من بنات الهوى ، لا نذكر شيئاً من أوصافها لما تقدم من وصف مدلين فان الشبه بينهما كان عجيباً ، حتى ان ايفان نفسه خدع بهذا الشبه ، ولكنها كانت في العشرين من عمرها تندفع في حلبـة الغرور والطيش فيتهافت عليها الأغرار فلا تكترث لهم لأنها كانت تهوى أحد المصورين فتنفق في استرضائه ما تصل اليه يدها من المال .

وقد طال زمن شغفها به وكثر بذخها فنفد مالها وجعلت تستدين وترهن ما لديها من حلى وعقار بحيث أصبحت على شفار الخراب .

وبينما هي جالسة ذات يوم مفكرة مهمومة بما صارت اليه حالها، ووصيفتها بجانبها تؤنبها لهيامها بهذا المصور وتنصحها بالابتعاد عنه قبل أن يشعر بافلاسها فيبتعد عنها إذ دخل اليها الخادم يحمل رقعة زيارة فأخذتها كلورند وقرأت : (الماجور أفاتار) .

وحاولت أن تمتنع عن مقابلته غير أن وصيفتها أسرعت وقالت للخادم : أدخل الماجور أفاتار .

ثم التفتت إلى كلورند وقالت : هوذا مصدر جديد للثروة فان هذا الرومي لا بد ان يكون محشواً بالروبلات .

ودخل روكامبول وكان لابساً ثياباً بسيطة تدل على التناهي في سلامـة الذوق ، فحيى المرأتين بأدب وحشمة متكلفاً هيئة الوجل الخائف .

وكان روكامبول في السادسة والثلاثين من عمره ولكن هيئته كانت تدل على انه لا يزال في ريعان صباه فجلس أمام كلورند وقال : أسألك العفو يا سيدتي عن زيارتي لك من غير موعد فاني قد أسافر هذه الليلة سفراً طويلاً .

فوقفت وصيفتها وقالت بدلال : إن سفرك بعد خيانة يا سيدي .

فابتسم روكامبول وقال : إن سفري منوط بها فاذا شاءت بقيت وإذا شاءت رحلت .

ولما رأت الوصيفة أن باب الحديث قد انفتح تركتها وانصرفت .

فتغيرت هيئة روكامبول فجأة عند ذلك واتقدت في عينيه أشعة الذكاء المتوقد ونظر الى كلورند تلك النظرات الغالبة، التي تغلب بها على فاندا وسائر رجال عصابته ، فعلمت كلورند للحال أنها جالسة بحضرة رئيس لا يغلب .

ثم بدأ روكامبول الحديث فقال لا أطيل جلوسي معك يا سيدتي ولكني أحب أن نكون منفردين لا يكدر خلوتنا أحد ، فمري خدمك أن يحافظوا على أبوابك .

فقالت بصوت مضطرب إنني لا انتظر زيارة أحد الآن .

فاطمأن روكامبول وقال : إنك ستندهلين من كلامي دون شك ، لأني واقف على حقيقة أمرك ، فانك مدينة بمائة الف فرنك ، وقد رهنت جميع مجوهراتك ، وان منزلك أيضاً مرهون وهو سيباع بعد شهر لأنك لا تستطيعين دفع الدين .

ولا تضطربي لكلامي يا سيدتي وتظني انني من أولئك المتمولين الغلاظ الأكباد الذين يغتنمون مثل هذه الفرص فاني غير طامع بمالك إذ لا مال لك ولا رجاء لي بغرامك لأنك تهوين ذلك المصور الجميل الذي سوف يتخلى عنك حين يعلم ما أصبحت عليه من الفقر

فظهرت علائم الحزن على وجهها لأنها سمعت هذه النبوءة عن جفاء حبيبها لها مرتين في ساعة واحدة .

فقال روكامبول : واني قد جئتك بأمر إذا وافقت عليه وفيت دينك واسترجعت مجوهراتك ، وعاد اليك منزلك وأمنت جفاء حبيبك، ولا تظنين اني أريد غرامك فلا متسع بفؤادي للغرام .

فوقفت كلورند مضطربة منذهلة وقالت : إذن ماذا تريد ؟ .

– أريد أن أجملك آلة طائعة خاضعة لي مدة شهران ، وان استخدم جمالك ومشابهتك الغريبة لاحدى النساء في تنفيذ غاية سرية أسعى اليها منذ عهد بعيد .

وسأدع لك فرصة هذه الليلة للتفكير والامعان ، ولا يبرح عن بالك اني قد عرضت عليك ثروة ، بل أعظم من ثروة ، وهو ثبات حبيبك على قرانك دون أن أدع له أقل مجال للغيرة مني ، فامعني النظر وسأعود اليك في الساعة التاسعة من صباح غد ، فاذا لم ترق لك مطالبي فلا حاجة الى الاذن لي بالدخول اليك .

ثم قام فودعها وانصرف إلى ذلك المنزل الذي استأجره قرب منزل الفيكونت فابيان ، فدخل إلى الغرفة المشرفة على حديقة ذلك المنزل وأنار شمعة وجعل ينظر من النافذة بمنظار طويل فرأى نوراً ينبعث من غرفة فيخترق الأشجار .

حدق طويلا وهو مقطب الجبين ثم ابتسم ثغره وانبسط جبينه ولمعت عيناه ولبث زمناً طويلا ينظر إلى تلك الغرفة بمنظاره وقد أشغله من كان فيها عن كل أمر بحيث فتح باب غرفته دون ان ينتبه الى الداخل منه فما شعر إلا بيد قد وضعت على كتفه فالتفت فرأى فاندا .

فتنهد روكامبول حين رؤيتها وأعطاها المنظار الذي بيده وقال : انظري إلى هذا الوجه الجميل الذي ينبعث منه الطهر والسلامة .

فأخذت فاندا المنظار ونظرت إلى تلك الغرفة التي كان ينبعث منها النور فرأت بلانش دي شمري زوجة فابيان التي طالما دعاها روكامبول بأخته ولم يحمله من التائبين غير حبه لها .

ثم عادت فاندا ونظرت إلى روكامبول فاضطربت وقالت : ماذا أرى ولماذا تبكي ؟

– إن البكاء يفيد والدموع تخمد الأشجان .

ثم أخذ المنظار فوضعه في مكانه . وقال : أجلسي الآن لنتحدث وقولي لماذا أتيت الي ..

- ١٦ -

فلم تجبه فاندا لأنها كانت لا تزال منشغلة عنه بدموعه فقال لها روكامبول: لماذا أتيت ؟

– أتيت لأني لا أعلم ماذا يجب أن أعمل ، إن انطوانيت ومدلين في شارع مربنت وقد عثرنا على انطوانيت ولكن اجينور لا يزال مختفياً وقد أوشكت انطوانيت أن تجن من يأسها وكذلك مدلين فاني لا أعلم ماذا اجيبها عن إيفان .

– اخبريني قبل كل شيء عما حدث لتميلون .

– اني عندما اطلقت النار على شيفيوت أسرعَ تيميلون لنجدتها وكان معي مسدس آخر اشهرته عليه فصاح بي لا تفعلي فاني أعرف انك امرأة روكامبول وأنا لا أتدخل في شؤونكم بعد الآن .

وكان يقول هذا القول وهو يضطرب اضطراباً شديداً فقلت في نفسي لا بأس من امهاله ربع ساعة إلى أن أخرج بانطوانيت من ذلك السجن وقلت له : إذن امش أمامنا وأفتح لنا جميع الأبواب إلى أن تجد مركبة وحذراً أن تبدر منك بادرة تحمل على الريب بك فاني أقتلك شر قتل .

وقد رأيت من اضطرابه انه لا خوف منه فمشى أمامنا إلى الحديقة وفتح بابها بمفتاح كان بجيبه فخرج إلى الشارع وخرجنا في أثره .

وكانت الساعة الثالثة بعد منتصف الليل والشارع مقفراً فمشى حتى وجد

مركبة فأشار إلى سائقها بالوقوف ثم أشار إلي وقال: اني لست كفوءاً لكم فلا تخشوني لأني مسافر .

– إلى أين ؟

– الى محطة الشمال فاركب القطر الذي يسافر في الساعة الرابعـــة الى كاليس فان كارل موراليكس قد دفع لي مبلغاً أكتفي به . ثم تركنا وسار مسرعاً الى حيث قال .

أما أنا فاني ركبت المركبة وذهبت بها الى شارع سربنت وقد جئت اسألك إذا كان يجب أن أبقى في ذلك الشارع .

– لا .

– إذن أين أذهب ؟

– تذهبين في الصباح الى شارع سربنت وتنتظرين هناك الى أن ترسل الكونتس أرتوف من يأخذ الأختين اليها فانها عزمت على أن تبقيهما في منزلها بحيث تكونان آمنتين ، والآن فلننظر في أمر أجينور فأين يمكن أن يكون ؟

– ألم تقل له قبل أن يقبضوا عليك بساعة أن يذهب الى أبيه ؟

– نعم .

ألم تقل له أيضاً أن ينذر أباه بالانتحار او يعرض الأمر على الحكومة إذا لم يرجع اليه انطوانيت ؟

– دون شك .

– انه منذ ذهب ممتثلاً لأمرك لم يعد ولم تره منذ ذلك العهد .

– ان اختفاءه يذهلني .

– ولماذا أتحسب ان أباه حجز عليه ؟

– كلا ، ان البارون فيليب دي موراليكس يحب ابنه اجينور وفوق ذلك فان ضميره يبكته أشد تبكيت فلا يجسر على شيء من ذلك .

– ولكن أخاه كارل قد عاد يوم القبض عليـــك وليس له شيء من هذه

المبادىء ، فاذا لم يكن هو الذي حجز على اجينور فلا بد أن يكون ذلك من صنع تيميلون .

– لقد أصبت فقد يكون تيميلون أختطفه بحيلة حين خروجه من المنزل الى لقاء أبيه ولكن كيف لم يقل الك تيميلون شيئاً من هذا ؟

– لم يخطر ذلك في باله لشدة ما كان به من الاضطراب .

فتنهد روكامبول وقال: ان جميع هذا لا يشغل بالي فاني لا أخاف تيميلون ولا أخشى كارل موروليكس .

– ولكن ممن تخاف ؟

– أخاف امرأة وهي روسية مثلك .

– ومن هي هذه المرأة ؟

– هي التي احتقرها ايفان وآلت على نفسها ان تستميت في سبيل الانتقام منه .

– ولكننا سنتغلب عليها كما تغلبنا على سواها .

– ذلك لا ريب فيه والآن فاذهبي عني فاني محتاج إلى الانفراد .

غير ان فاندا لم تمتثل وبقيت جالسة في مكانها وقالت له : ألا تريد ان تقول لي شيئاً بعد ؟

– كلا !.

فقالت له بصوت متهدج : ولكني عرفت سرك .

- اسكتي فلا تعنيك أسراري .

– كلا .. لا أسكت فقد عرفت انك تحب .

فغضب روكامبول وقال : أتسكتين أو ..

فلم تكترث لغضبه وقالت له : انك تحب مدلين .

– أيتهـــا التعيسة انك تريدين إخراجي عن دائرة الصواب وان انقض عليك فأخنقك .

- اني سأسكت ، ولكني أشفق عليك لما تلقاه من العذاب .

– إن هذا العذاب هو عقاب الله لي عن ذنوبي الماضية .

فركعت فاندا أمامه وقالت له والدموع في عينيها :إن لكل عقاب نهاية ، وسوف يصفح عنك الله .

- قلت لك اذهبي .

فامتثلت فاندا هذه المرة وخرجت وهي مطرقة برأسها إلى الأرض ، فأقفل روكامبول الباب وراءها وانطرح على سريره بملابسه فنام إلى أن لسعته أشعة الشمس .

ولما استيقظ أسرع إلى النافذة فرأى أخته القديمة ، تسير متنزهة في الحديقة ومعها طفل صغير يبلغ الخامسة من عمره وهو يناغيها الطف مناغاة وهي تنظر اليه نظرات حنو لا يدرك أسرارها غير قلوب الأمهات .

ولبث واقفاً قرب هذه النافذة ، ينظر إلى الطفل وأمه ، إلى أن دقت الساعة التاسعة ، فهب من غفلته وذكر موعده مع كاورند ، ووجوب اجتماعه بها . ليعلم إذا كانت ترضى بشروطه ، فلبس الملابس التي زارها فيها بالأمس وخرج .

فما بلغ الباب الخارجي حتى رأى ميلون واقفاً بانتظاره على الباب فأسرع اليه وقال : إن مركبة الكونتس أرتوف ذهبت لاحضار الأختين وأنا أنتظر عودتها فتعال معي يا سيدي .

فاضطرب روكامبول وقال . لماذا تريد أن اسير معك ؟

- لنرى الأختين حين مرورهما

- ما هذا الجنون ، ألا تستطيع أن تراهما إلا إذا كنت معك ؟

– ليس هذا ما أريد ، ولكني لم أر مدلين بعد منذ عودتي من السجن وأشعر اني لا استطيع الوقوف أمامها من الاضطراب .

فأجابه روكامبول بعنف : ليس لي وقت للذهاب معك فاذهب .

ثم تركه وانصرف .

فجعل ميلون يشيعه بالنظر ويقول : لست أنا المجنون بل ان الرئيس بانت على وجهه علائم الجنون .

- ١٧ -

كان كارل دي موريليكس والكونتس فاسيليكا مختليين في غرفة يتباحثان في شأنيهما ، فبدأت فاسيليكا الحديث فقالت : يجب علينا قبل أن نجري شوطاً بعيداً في مضمارنا، ان نعلم إلى اين نحن سائران، ولنبحث الآن في شأنك إذاً فخطتك الأساسية هي انك لا تريد ان ترجم للأختين ثروة البارونة ميلر ، وقد ارتكبت كثيراً من الجرائم للبلوغ إلى هذه الغاية فحبست إحدى الأختين في سجن لازار .

ولما تمكن روكامبول من اخراجها حاولت قتله والحكم عليه بالاعدام . ثم انك ذهبت إلى روسيا كي تبحث فيها عن مدلين

فاصفر وجه كارل وتنهد .

وتابعت . وقد ظفرت بمدلين مرة حين كانت بين أنياب الذئاب ، فأنقذتها وكانت تحت مطلق سلطانك فما جسرت على قتلها ، لأنها أوقدت في قلبك الأثيم نار غرام لا تخمد ، فعدت إلى فرنسا بعد أن سلبت منك فوجدت ان أختها قد انقذت ايضاً

والآن ليس روكامبول الذي يحميها وحده فقد اشتركت معه الكونتس ارتوف فوضعتهما في منزلها وهو أمنع من الحصون .

فتنهد موريليكس وقال : الحق هو ما تقولين واأسفاه .

فقالت : والآن فأين أنت من مساعيك الخائبة ، فإنك لم تتقدم خطوة في

سبيل غرضك ، ولا تزال على ما كنت عليه في اول يوم ظهرت لك فيه غيوم هذه المشاكل فانك اختطفت ابن أخيك اجينور ، ولكن روكامبول سوف ينقذه كما أنقذ انطوانيت فيعود إلى مطالبتك بدم البارونة ميلر أمام الشرع ، ولو أفضى ذلك إلى إهانة اسمه فإن حقده عليك شديد .

انك التجأت إلى رجل سافل من الرعاع فهزأ بك وقبض مالك وتخلى عنك ولو كنت معك من قبل لما انخذلت هذا الخذلان ولكنت من الفائزين .

- ماذا كنت تفعلين ؟

- الأمر بسيط ، وهو اني كنت أخلو ، لو كنت مكانك بابن اخيك اجينور فأقول له : إنك تحب أنطوانيت فاختر بين أمرين ، إما أن اعرقل مساعيك إلى ان تقاضيني امام الحاكم فيتلوث شرفك وينثلم عرضك بعد الحكم علي ، واما ان تتنازل عن مهر الصبية ، وانت غني ، وثروتك تكفي اثنين فلا اعارض زواجك بمن تحب .

- اتظنين انه كان يقبل ؟

- دون شك فان من كان في مثل عهده من الشباب يكون كثير الكرم عديم الاكتراث

ثم انه إذا بلغ الرجل ما بلغت اليه من العمر واصيب بداء الغرام ، فلا رجاء له بالشفاء ، فان ابن الثلاثين قد يتناسى ويستبدل غرامه بغرام ، واما ابن الستين فلا سلوى له عن حبه مهما تقادمت عليه الأيام .

ولقد سنحت لك الفرص لقتل مدلين ولم تكن تريد غير قتلها احتفاظاً بتلك الثروة التي ما وصلت اليك إلا بعد ارتكاب الذنوب ولكن يدك ضعفت عن قتلها ، لأنك لم تعد تريد ثروة الأختين بل مدلين .

فأن كارل انين الموجع وقال بصوت أجش : نعم ، نعم ، فلم يعد لي مطمع بمال ، ولا رجاء إلا بهذا الجمال .

قالت وستناله ، فمتى اطمأن قلبك من أجينور ، ومتى أزوجته انطوانيت

تزوجت أنت مدلين .

– كفى بالله تطمعيني بهذه الأماني ، ألا تعلمين انها هائمة بايفان دي بونتيف ؟

فابتسمت فاسيليكا ابتسام الاحتقار وقالت له وإن لم اكن أعلم بهذا الحب لما رأيتني عندك فان مدلين تحب ايفان ،وقد عقد الحب بين قلبيهما برباط وثيق ولكني آليت على نفسي أن افرق هذين القلبين إلى الأبد .

– ولكن ذلك لا يفيد فان مدلين سوف لا تحبني .

– ماذا يهمك من حبها إذا كانت ترضى أن تكون زوجة لك ؟

– لا أخال ذلك من الممكنات .

– من يعلم ؟

فاتقدت عينا كارل بأشعة الأمل وقال : أنت تستطيعين البلوغ إلى هذه النتيجة ؟

– اصغ الي فانك قد تلطخت بالجرائم وطبعت نفسك على الآثام ، أما انا فلا ازال طاهرة ولم ارتكب جرماً بعد ولم تلطخ يدي بدم بشري إلى الآن على ان هذه اليد لا تزال نقية بيضاء قد تنغمس يوماً بدم ايفان .

ولذلك فلا أريد ان اكون شريكة لك في جرائمك ولكنك إذا خدمتني أفيدك برأيي واعلم انه إذا تزوجت انطوانيت اجينور وتخلت عن مهرها فلا بد ان توافق مدلين على الزواج بك إذا أزيلت العقبات من سبيلك وليس أمامك غير عقبتين وهما الكونتس ارتوف ورروكامبول .

اما انا فاني اتعهد بهذه الكونتس وسيكون القتال بيننا شديداً هائلاً ، ولكن لدي وسيلة لا الجأ اليها إلا في الساعة الأخيرة ، وفي اخفاقي الأخير .

– وما هي هذه الوسيلة ؟

– اني احمل رجال البلاط القيصري على استدعائها إلى روسيا فانها من رعايا القيصر ومتى أمر القيصر وجبت الطاعة .

– إذن انت نافذة الكلمة في بطرسبرج .
– ربما .
– ولكن بقي علينا روكامبول .
– ان امره يتعلق بك .
– كيف لي بالتغلب عليه وما انا من رجاله ؟
– ذلك لأنك لا تعرف مواضع الضعف منه ولو عرفتها لتغلبت عليه اتعلم سر هذا الرجل ؟
– كلا ..
– انه يحب حباً شديداً لا اعلم إذا كان حب اخاء او حب غرام .
– من عساه يحب ؟
– امرأة كان يدعوها اخته ، حين كان منتحلا اسم المركيز دي شمري ، فاذا أردت ان تضله عن صوابه وتمنعه عن التعرض لك ، وجب عليك ان تجعل ضربتك الشديدة ، في ذلك البيت ، وأن تجعل امرأة الفيكونت فابيان في خطر ، فإذا فعلت تجـــد كيف ان روكامبول يتحول عنك وينصرف عن الاهتمام بشؤون الأختين .
– أي خطر ؟
– لا أعلم فالحث في قريحتك الجهنمية عن فخ تنصبه ولا تنس ان لمـدام اسمول زوجاً وابناً .
– ماذا تعنين بذلك ؟
– اعني انه قد تعرض أسباب تحمل على المبارزة وقد يوجد يد أثيمة تخطف الابن ، فابحث فان ذلك من شأنك ، وانا اتكفل بتلك التي كانوا يدعونها باكارا .
فاضطرب ،ورليكس اضطراباً شديداً وقال : انك شديدة هائلة فان مثل هذه الأمور لا تخطر لي في بال .

- ذلك ما أوحاه الي الانتقام ولو كنت تكره روكامبول كما اكره ايفان لما تعذرت عليك أسباب المكايد .

ثم قامت فودعته وحاولت الخروج فقال لها متى اراك ؟

- غداً في مثل هذه الساعة ، وخرجت .

فلما اصبح وحده وضع رأسه بين يديه وجعل يتمعن بخلاصة ما قالته فاسيليكا ، وهو انه لا يأمن شر روكامبول إلا إذا نكبت بلانش دي شمري بنكبة ، وهي قتل زوجها بمبارزة ، او اختطاف ابنها ، فلبث مدة طويلة وهو حيران لا يعلم أيحجم عن هذا الذنب الهائل أو يقدم عليه .

- ١٨ -

ولبث ساعة وهو على هذه الحالة من الهم والتفكير ، إلى ان تنبه من غفلته ، وقد سمع صوت جرس الباب الخارجي ، ثم رأى بعد ذلك خادم غرفته قد دخل عليه وقال : ان صبية تريد مقابلتك وهي في أشد حالة من الاضطراب ؟

فانذهل كارل وقال : من هي هذه الفتاة ألم تذكر لك اسمها !

- كلا ، ولكنها قالت لي ان اخبرك انها قادمة من روسيا وهي الآن في قاعة الاستقبال .

فزاد انشغال كارل وقال له : اني قادم لاستقبالها فاذهب انت في شأنك .

وبعد هنيهة ذهب كارل الى قاعة الاستقبال وهو خافق القلب مضطرب القدم ، لا يعلم من هي تلك الفتاة القادمة من روسيا .

فلما فتح باب الغرفة ودخل ذعر ذعراً شديداً وقال : من أرى ، مدلين !

فنهضت تلك الفتاة وقالت بصوت خافت : نعم انا هي مدلين .

وكانت تضطرب أمامه كما كانت تضطرب مدلين حين إنقاذها من الذئاب وحين كان يحاول قتلها فأنقذها روكامبول، فما شك أنها مدلين وجعل يضطرب كاضطرابها .

ثم رآها قد مدت اليه يدها ، شأن المتوسل ، وقالت له : أعف عني وانقذني !

فزاد ذهول كارل حين رأى تلك الفتاة تسأله إنقاذها والعفو عنها ، وهو قاتل أمها وألد أعدائها ، فلم يفه بحرف وجعل ينظر اليها نظر الحائر الوجل .

أما هي فإنها ذهبت الى الباب فأقفلته وعادت اليه وقالت : إصغ لي ياسيدي الفيكونت إنك أنقذتني من الموت اليس كذلك ؟

– هذا أكيد .

– وقد حميتني ووعدتني بالبحث عن إيفان وقد اختطفتني في إحدى الليالي من ذلك القصر الذي كنا فيه ، فحسبتك أنك تريد قتلي ، وما أنت إلا منقذي .

– كل ما تقولينه صحيح

– ثم القيتني في مركبة فأغمي علي ، ولم أعد أعلم بعد ذلك ما حدث لي ولكني عندما استفقت من إغمائي وفتحت عيني لم أجدك أمامي ، بل وجدت أمامي مكانك ذلك الرجل ، الذي كان يدعي انه تاجر ألماني ومعه إمرأته .

وقد خدعني هذا الرجل وامرأته إذ أنه حكى لي حكاية محصلها انك قتلت أمي بالسم وسلبتها ثروتها .

فاضطرب كارل وقال بصوت مختنق : وبعد ذلك ؟

– وبعد ذلك حاولت قتلي ، وإنك من قبل حاولت قتل أختي أنطوانيت .

ثم اندفعت في البكاء وقالت : مسكينة اختي فقد خدعوها وضغطوا عليها ضغطاً عظيماً حتى باتت واثقة من صدق هذه الحكاية المؤثرة .

أما أنا فقد ملت الى تصديقهم في بدء الأمر لا سيما حين انضم اليهم خادم أمي القديم وهو ميلون .

– كيف اتضح لك فساد مزاعمهم الآن ؟

– ذلك لأني عرفت اولئك الناس الآن حق العرفان . فإن زوجة هذا الرجل الذي يدعي انه تاجر ألماني هي أحدى بنات الهوى التي اشتهرت باسم نيشيت .

– والرجل ؟

– مجرم سفاك هرب من سجن طولون وكان يدعى روكامبول .

فكان كارل ينقلب بين الانذهال والاضطراب ولكنه زال اضطرابه وعاد اليه رشده فجعل يقيس كلامها بقياس العقل .

أما هي فعادت الى الحديث قائلة : أتعلم الى أين ذهبوا بي وبأختي ؟

– كلا .

– انهم ذهبوا بنا الى منزل امرأة كانت تدعى باكارا وهي من أشهر بنات الهوى أما اليوم فإنها تدعى الكونتس ارتوف لأن هذا الرجل هام بحبها فتزوجها وجعلها من الأشراف .

– إن هذه المرأة جارتي .

– نعم ولكني لما رأيت إلى أية حالة صرت وفي أي منزل أنا مقيمة انفتحت عيني للصواب وعلمت اني سقطت في هوة فنجوت من هذا المنزل وأسرعت اليك راجية أن تنقذني .

وكان صوتها وملامحها ولهجتها تدل على الصدق الأكيد فيما تقول فلم يبق في فؤاد كارل أقل مجال للريب .

وكان يرى تلك الفتاة المضطربة أمامه فلا يشك أنها مدلين لشدة الشبه ولأنه

لم ير مدلين إلا في الليل وفي مثل هذا الاضطراب

ثم أن هذه الفتاة كانت مرتدية بالملابس نفسها التي كانت تلبسها مدلين في فندق ساوا حين انتشلها كارل من أنياب الذئاب . فلم يكن يخطر له غير أمر واحد وهو أن مدلين قد التجأت اليه لأنها علمت أن باكارا وفاندا من بنات الهوى وان روكامبول من رجال الشر. فنظر اليها نظرة ملؤها الحنو والاشفاق وقال لقد أحسنت بالتجائك إلي .

- أتحميني ؟

- دون شك وسأكون لك بمثابة أب .

فنظرت اليه نظرة النادم المستغفر وقالت: كيف يداخل الشك قلبي برجل جليل مثلك بيضت شعره الأيام ؟

فابتسم كارل وقال لها سأوضح لك كل شيء يا بنيتي فإنك ابنة اخي ، ولكني ما قتلت امك بالسم فإنها ماتت بعلة معروفة لدى الأطباء. غير ان ميلون هذا الذي تذكرينه قد أثر على عقلها تأثيراً شديداً فخافت مني ومن أخي خوفاً عظيماً بحيث أخفتك وأخفت أختك لحذرها منا . ونحن نبحث عنكما منـذ خمسة عشر عاماً .

- رباه ! ولكن . هذه الثروة .

- إنها موجودة وأنا مستعد لردها اليك حين تشائين .

- لي أنا ؟

- لك ولأختك .

- إذاً لست أنت الذي سجنت اخي ؟

- كلا بل ذلك من صنع روكامبول وميلون .

- لم يعد لدي أقل شك في هذه الحقائق ، ولكن أختي لا تزال على عينيها غشاوة من الوهم .

- سنزيل هذه الغشاوة .

— متى ؟

— منذ تزوجت بأجينور وتزوجت أنت ايفان .

فلم يكد يتم عبارته حتى أكبت على عنقه تعانقه وتقبله ، مظهرة شكرها واغتنائها . فطفح قلب كارل سروراً وقال في نفسه . لقد عاد الحمل الى قبضة الذئب وهو لا يفلت هذه المرة .

- ١٩ -

ولنعد الآن الى اجينور دي موركيكس فإن روكامبول لبث يبحث عنه أربعة أيام دون أن يهتدي إلى آثاره .

وقد ذكره انه أرسله الى أبيه كي ينذره بالانتحار اذا لم يجد انطوانيت . ولكن انطوانيت وجدت فاختفى اجينور .

وكان روكامبول قد أرسل جميع عصابته للبحث عنه ، فلم يرجع أحد منهم بنبأ صحيح .

وهذه حقيقة ما جرى له ، فان فاندا أصابت بظنها حين قالت أن لتيميلون يداً في احتجابه .

والحكاية انه حين عاد روكامبول من روسيا جعل تيميلون يراقب المنزل الذي كان مقيماً فيه اجينور مع انطوانيت .

فلما خرج اجينور الى منزل أبيه كما أمره روكامبول ركب مركبة وأمر السائق ان يسير به الى الشارع المقيم فيه أبوه وهو يبعد مسافة شاسعة فسارت به المركبة حتى انتهت الى شارع يقل فيه مرور الناس ، فسمع صوت استغاثة ، فأطل من العربة ورأى شيخاً كلل رأسه الشيب باسطاً يديه وهو يستغيث .

فما تمالك اجينور من إغاثته ، وأوقف المركبـــة ووثب منها وأسرع الى الشيخ .

وكان هذا الشيخ واقفاً بازاء مركبة فلما رأى اجينور مسرعاً اليه قال له: أغثني بربك فان ابنتي ستموت .

فنظر اجينور الى داخل المركبة فرأىفتاة حسناء مصابة بداء النقطة وهي في أشد حالات الهزال فرأى ان الشهامة تقضي عليه باغاثة الفتاة.

أما الشيخ فإنه قال له : إني أدعى يا سيدي الكولونيل جيبين ، وهـذه ابنتي العزيزة أصيبت بداء النقطة منذ ثلاثة أيام . فلما خرجنا من منزلهـا وهو قريب من هنا ، أصابتها النوبة في المركبة وأنا أخشى إذا استأذنت وهي في الطريق ان تقتل نفسها ، فإنها بعد استفاقتها من كل إغماء تثـور وتطلب الانتحار .

وقد يذكر القراء حكاية الكولونيل وابنته مع انطوانيت ، فإنهما كانا من عمال تيميلون .

وبينما كان الشيخ يحدث اجينور بحـديثها وهو يوشك أن يجن من يأســه ، استفاقت الفتاة وحاولت الوثوب من المركبة وهي تقول : دعوني أقتل نفسي فلا خير لي في الحياة !

فأسرع اليها أبوها ومنعها عن الوثوب .

ولما رأى اجينور ضعف هذا الشيخ عن ضبطها قال له : طب نفساً يا أبتاه فسأسير معك الى منزلك .

ثم أطلق سراح مركبتهوصعد الى مركبة الشيخ فجلس أمامها وأمر السائق أن يعود بهم الى المنزل .

فكانت تلك الفتاة تغمى وتستفيق في الطريق ، وما زالت على ذلك حتى وقفت المركبة أمام باب منزل ، فقال الكولونيل : هوذا المنزل .

فنزل اجينور من المركبة وحاول ان يذهب في شأنه .

ولكن الفتاة عادت الى الهياج فعاد الشيخ الى الاستغاثةولم يجد أجينور بداً من الدخول معها الى المنزل .

ولما رأى شدة هياجها احتملها ودخل الى المنزل مكرهاً فأسرع الكولونيل وأقفل الباب ودخل في أثره .

ثم أسرع وتقدم اجينور كي يرشده الى الغرفة المعدة لابنته ، فجعل يدخل الى غرفة ويخرج من غرفة واجينور يتبعه مع الفتاة ، حتى دخل إلى غرفة مظلمة .

وهناك زاد هياج الفتاة فأفلتت من اجينور ، ولكنه أسرع وقبض عليها من وسطها .

وبينما هو يحسب انه قد أنقذها من خطر عظيم إذ شعر بيدين قويتين ضغطتا على عنقه وأوشكتا أن تخنقاه فأفلتت الفتاة وحاول النجاة من الذي قبض عليه فانقضت عليه الفتاة مع أبيها ولم يكن غير هنيهة حتى القياه على الأرض فكبلاه وسدا فمه بمنديل .

وقالت له تلك الفتاة : أنقذ الآن انطوانيت إذا استطعت .

فعلم المسكين انه وقع في قبضة أعدائه ، وان إغماء الفتاة لم يكن غير فخ منصوب .

- ٢٠ -

إجتمع الكولونيل جيبين بابنته في ذلك المنزل الذي سجنوا فيه اجينور ، فقال الكولونيل لابنته : هوذا أربعة أيام قد مرت بنا دون ان نرى تيميلون أي منذ ذلك اليوم الذي انقده الفيكونت دي مورليكس ما طلبه من النقود ،

العله عبث بنا ؟

فقالت الفتاة : لا أظنه يفعل ذلك لشدة علاقته بنا ، ولكنه قد يكون حبطت مساعيه .

– وكيف ذلك ؟

– لأن روكامبول قد فر من السجن وليس تيميلون من أكفائه .

– مهما يكن من الأمر فإني لا أصبر بعد اليوم . وإذا لم يرسل الينا ثلاثين الف فرنك التي وعدنا بها ...

– ماذا تفعل ؟

– أطلق سراح أسيرنا اجينور .

– أسكت فإنهم يقرعون الباب الخارجي .

– إنه تيميلون دون شك .

ثم أطل من النافذة المشرفة على الباب الخارجي وعاد قائلاً : كلا انه ليس تيميلون بل موزع البريد .

ونزل ففتح الباب وأخذ من الموزع رسالة باسمه وصعد الى ابنته ، فكان انذهالهما عظيماً ، لأنهما علما من طوابع البريد ان الكتاب مرسل من لندرا ، ولم يكن لهما فيها علائق مع أحد . غير ان الفتاة نظرت الى الخط وصاحت صيحة دهش وقالت هذا الكتاب من تيميلون فقد عرفت خطـــه ولكني لا أجسر على فتحه .

وقال أبوها بلهجة القانط : لا شك انــه لا يحتوي شيئــاً من النقود ، لأنه رقيق .

– لقد عبثت بنا ايها الخائن .

– بل عرضنا للأخطار وهزأ بنا كما يهزأون بالأطفال .

وعند ذلك فضت الفتاة الكتاب مغضبة وقرأت ما يأتي :

« إفعلوا بأجينور ما تشاءون ، واغتنموا منه قدر ما تستطيعون ، لأن

أمره أصبح منوطاً بكم . أما انا فقد تنحيت عن جميع هذه الأمور ، فلا أتداخل في شيء » .

« تيميلون »

فسقط الكتاب من يد الفتاة بعد تلاوته . أما الكولونيل فقال ببرود . لقد اصاب تيميلون لأن اجينور سوف يدفع كل ما رجوناه .

وساد السكوت هنيهة بين الاثنين الى ان عادت الفتاة الى الحديث قائلة لأبيها : على ماذا عولت ؟

— على ان ابيع اجينور حريته بمائة الف فرنك .

— ولكن فاتك انه ليس لديه مائة الف فرنك .

— سيدفع بعد إطلاق سراحه .

— لا شك انك بسيط ساذج القلب .

— كيف ذلك ؟

— ذلك انه حين تخرجه من هنا يذهب اجينور الى دائرة البوليس لتسليمك قبل ان يذهب الى البنك ليدفع لك النقود .

— اذا بدر منه شيء من ذلك نقتله في الحال .

— وأية فائدة لنا من قتله ؟

— إذاً ماذا يجب ان نصنع ؟

— لا أعلم لأني لا أعرف ماذا حدث ولكنني أظن اني عرفت الحقيقة إذ لولا ذلك لما سافر تيميلون الى لندرا .

— ما تظنين ؟

— أرى ان روكامبول قد نجا من السجن بعد ان أثبت للقضاء بالأدلة الراجحة انه الماجور افاتار .

— وبعد ذلك ؟

— وبعد ذلك بحث عن انطوانيت فوجدها وأنقذها ، فخاف تيميلون

وفر هارباً .

– ليس لجميع ما تقولينه علاقة بأجينور .

– كلا وسوف ترى فإننا حبسنا هذا المسكين منذ ثمانية أيام وهو لا يزال في أسرنا موثق اليدين والرجلين حتى انه بات يؤثر الموت .

– وماذا كان يقول لك حين كنت تذهبين اليه بالطعام ؟

– لا شيء سوى انه كان يتفوه بكلمات متقطعة لا معنى لها ، ويردد بينها اسم انطوانيت .

– والخلاصة ؟

– إنه يجب ان نعرف اين هي انطوانيت .

– وبعد ذلك ؟

– علي إتمام البقية متى عرفنا محل وجودها .

– ولكن كيف تعرفين محلها ؟

– اني سأذهب وأطوف في باريس ولا أعود اليك الا بالخبر اليقين .

وبينما هي تتأهب للذهاب إذ طرق الباب ثانية فأطل الكولونيل من النافذة فرأى بوليت واقفاً على الباب ينتظر ان يفتح له .

وبوليت هذا هو الذي اختطف انطوانيت اول مرة ، فكان السبب في ذهابها الى سجن لازار وهو الذي اسرته فاندا ومرتون وعلمنا منه محل وجود انطوانيت كما تقدم في الرواية السابقة .

ففتح له الكولونيل وكان شديد الاضطراب وسأله : ماذا أصابك ؟

– ان روكامبول اطلق سراحه ولم يبق علينا غير الهرب .

– وماذا جرى لأنطوانيت ؟

– أنقذوها بعد ان بت بأسرهم يومين .

فتشاور الأب والفتاة بالنظر ثم قالت له الفتاة ألا تزال شديد العزم ، يا بوليت ؟

- لا أعلم لأن هاتين المرأتين قد اضلتا صوابي بأسرهما لي ولولا تغلب السكر علي لما بقيت في قيد الحياة .

- أنستطيع الاعتماد عليك بضربة خنجر ثمنها الف فرنك ؟

- كل الاعتماد .

- إذاً سنبدأ بالعمل .

ثم أخذت شمعة فأنارتها ، فقال لها أبوها : الى أين انت ذاهبة ؟

فخرجت وهي تضحك وتقول : إني ذاهبة للمخابرة في عقد قرض قيمته مائة الف فرنك .

* * *

مضى سبعة أيام على أجينور وهو يكابد من عذاب اليأس ما لا تحتمله النفوس إذ لم يعرف مصيره ومصير الفتاة التي يهواها .

وقد رأى القارىء كيف انه هوجم على غرة في غرفة مظلمة ، ثم القي على الأرض وكبل بالقيود وسد فمه . فلم يصدق ما جرى له وحسب نفسه حالماً ، ولكن الحقيقة لم تلبث ان تجلت لعينيه حين سمع ابنة جيبين تقول له : إبحث عن انطوانيت الآن إذا استطعت .

فعلم كل شيء وأيقن ان الذين اختطفوا انطوانيت هم الذين كادوا له هذه المكيدة الهائلة .

فجعل يقول في نفسه : ماذا يريدون ان يصنعوا بي ؟ ثم يعود الى الافتكار بأنطوانيت فيقول : ماذا عسى ان يكونوا صنعوا بها ؟

وأقام على هذه الحالة سبعة أيام دون ان يهتدي الى مراد أو يوفق الى حل هذا اللغز .

ولكن غاية ما علمه ان أعداءه أعداء انطوانيت ، وإن جميع هذه المكائد

السافلة من صنع كارل دي موروليكس شقيق أبيه ، إذ كان يقول في نفسه : ان الرجل الذي يستحل قتل اخته بالسم لا يخشى قتل ابنتها ولا تقف يده الأثيمة عن قتل ابن اخيه .

فلما تمكنت هذه الظنون من مخيلته هاج هياج الأسود في أقفاصها ، وحاول مرات كثيرة قطع قيوده ولكنها كانت شديدة فقنط من النجاة وجعلت قواه الأدبية والطبيعية تضعف وتنحط كل يوم .

وفيما هو على هذه الحال من القنوط فتح باب سجنه المظلم وهو قبو عميق تحت الأرض وظهرت له ابنة جيبين تحمل بيدها مصباحاً فنظر اليها نظرة ازدراء ولم يتدان الى محادثتها .

أما هي فإنها وضعت مصباحها فوق حجر في ذاك القبو ودنت منه فابتسمت له وقالت إني أتيت يا سيدي لإطلاق سراحك .

فكانت لهذه الكلمات تأثير الكهربائية عليه ، فاتقدت عيناه بشعاع الأمل .

فأتمت حديثها قائلة إني ما أتيت لإطلاق سراحك فقط ، بل لأخبرك أين تجد خطيبتك المدموازيل انطوانيت ميلر .

ولكن لا بد لي قبل ذلك ان أخبرك عن السبب في سجنك أسبوعاً وعن الأسباب التي حملتني أنا وأبي على ان أفعل معك ما فعلنا .

فأعلم اني أنشأت مع أبي جمعية ، لك ان تدعوها جمعية النصب والاحتيال أو كما تشاء ، وأدخلنا فيها كثيراً من الأعضاء فتوزع مكاسبنا بيننا كلاً على قدر اجتهاده .

ومن أعمالنا اننا اختطفنا انطوانيت خطيبتك واحتبسناها في محل سري على رجاء ان تعطينا مئة الف فرنك على الأقل متى أرشدناك اليها .

فارتعد اجينور وقال . تباً لكم من لصوص أشقياء !

فابتسمت الفتاة وقالت إني لا أحاسبك الآن يا سيدي على الألفاظ لأن

الوقت غير فسيح لدينا .

فقال بلهجة احتقار · وإذا أعطيتكم مئة الف فرنك ؟

– أفك قيودك .

– وتطلقين سراحي ؟

– دون شك .

– وتقولين لي اين توجد انطوانيت ؟

– هذا لا ريب فيه .

– ولكنك تعلمين ان مئة الف فرنك لا يمكن ان تحمل بالجيب ولا يمكن الحصول عليها إلا اذا ذهبت الى منزلي .

– لقد حسبنا كل شيء إذ لا يمكن أن نطلق سراحك ونرشدك الى محل انطوانيت على ان ترسل لنا بعد ذلك المال المتفق عليه .

– إن من كان مثلي لا يحنث بوعده متى وعد .

– لا ريب عندنا بصدق ما تقول . غير اننا نؤثر العاجل على الآجل فمتى قبضنا المال أرشدناك الى من تحب .

– ليكن ما تريدين .

– إن لأبي صديقاً قوي البنية شديد الفتك فسأذهب معه في مركبة الى منزلك وتكون معنا فلا بد ان يكون لديك في منزلك أوراق مالية تعادل القيمة المطلوبة .

– عندي ما تريدون .

– فتدفع لنا النقود ونهديك الى انطوانيت ، ولكن لا بد لي أن أحذرك من أمر .

– ما هو ؟

– هو انك اذا بدر منك أقل إشارة تنبه الينا البوليس فإن صديق ابي يقتلك في الحال .

— فكي إذن قيودي فستقبضون المال .

فامتثلت الفتاة ولم تكد تفرغ من إطلاق يديه ورجليه حتى سمعت دوي مسدس شديد فأسرعت خافقة القلب مصفرة الوجه الى باب القبو فسمعت دوياً آخر فخرجت مذعورة لا تلوي على شيء .

- ٢١ -

لا بد لنا قبل الايضاح عن هذين الطلقين الذين سمعت ابنة جيبين دويهما فهربت مذعورة ، ان نرجع بالقارىء الى العهد الذي أنقذت فيه انطوانيت ، كما تقدم في الرواية السابقة .

فقد يذكر القراء ان فاندا تركت مرتون حارسة لبوليت الذي صرعته الخمرة . وفي صباح اليوم التالي بعد ان وضعت انطوانيت في محل أمين وجمعتها مع مدلين في منزل واحد ، عادت الى مرتون فوجدت انها لا تزال في موقفها ، وان بوليت لا يزال نائماً .

فجعلت المرأتان تتشاوران ، فقالت فاندا : إن تيميلون قد وصل من باريس ، وهذا الرجل الصريع أمامك لا يخشى منه ، لأنه كان آلة بيد تيميلون .

فقاطعتها مرتون قائلة : إني لو كنت مكانك يا سيدتي لما غفلت طرفة عين عن بوليت .

— ربما كان رأيك المصيب غير اننا لا نستطيع البقاء هنا .

— كلا ولكني لو أحضرت الكلب .

— أي كلب هذا ؟

— لقد فاتني ان أخبرك بحديث هذا الكلب العجيب . فاعلمي أنه يوجد

كلاب خصت بذكاء غريب وهي التي يستخدمها رجال الجمارك لمطاردة المهربين فإذا شمت رائحتهم أدركتهم أينما كانوا ثم ان البوليس يستخدم هذه الكلاب ايضاً لمراقبة المجرمين فإذا دل أحدها على واحد منهم لاينفك يراقبه ولا يستطيع الاحتجاب عنه مهما بالغ في التنكر .

وإن لنا كلباً من هذه الكلاب كان يحرس دكان ابي وهو صانع أحذية فاتفق مرة ان أحد اللصوص سرق حذاء من الدكان وفي اليوم التالي عاد به الكلب وقد سرقه من السارق فأراد ابي ان يعرف هذا السارق فأشار الى الكلب ان يسير أمامه اليه ففعل وما زال يسير أمامه حتى انتهى الى خمارة فدخل اليها وهجم على رجل كان فيها وكان هو السارق .

هذه نادرة بسيطة عن ذكاء هذا الكلب ، أوردها لك عن سبيل المثال . فإذا سمحت لي ذهبت إلى ابي وأحضرت الكلب وعهدت اليه بمراقبة بوليت .

فقالت لها فاندا : إذا كان هذا ما تقولين أسرعي بإحضاره فقد يكون لنا خير عون على مراقبته .

فانطلقت مرتون وعادت بعد ساعة مع كلبها ، وكان بوليت لا يزال نائماً ، فأشارت مرتون الى الكلب إشارة فهمها فجعل يشم بوليت من رأسه الى قدميه .

وبعد ذلك خرجت فاندا ومرتون فتبعهما الكلب حتى اذا وصلتا الى الباب الخارجي قالت مرتون للكلب · إبق هنا .

ثم أشارت له الاشارة التي تفيد هذا المعنى، وهي قد عودته عليها وأشارت بإصبعها الى الغرفة التي كان نائماً فيها بوليت كأنها تقول له اوصيك به فلا تغفل عنه . وانصرفتا .

فبقي الكلب في ذلك الشارع يطوف فيه ثم يعود الى الباب .

أما بوليت فانه لما صحا من سكرته خرج الى شارع ليفوند حيث كان يقيم

تيميلون فلم يجده فيه فعاد الى خمارة تعود ان يقيم فيها .

وفي اليوم التالي عادت مرتون مع فاندا ، فرأت الكلب يطوف في ذلك الشارع فنادته وسألته بالاشارة عن بوليت فسار أمامها حتى انتهى الى تلك الخمارة فرأته يتعاطى المدام وهو منزو في إحدى الزوايا ، وأشارت اليه بمواصلة مراقبته والقت اليه ما أحضرته له من الطعام ومضت .

أما روكامبول فقد أعياهُ البحث عن اجينور دون ان يقف له على أثر حتى قنط من لقائه . فحكت له حكاية الكلب وقالت مرتون : لا بد لكلبي أن يدرك موضعه باقتفائه اثر بوليت .

وقد صدقت ظنونها فان بوليت خرج من الحانة وذهب الى حيث كان يقيم تيميلون فوجد البواب حائراً في أمره لأنه لم يعد منذ أيام فكسر بابه ودخل معه بوليت فوجدا شيفيوت مضرجة بدمائها لا تزال عليها آثار الحياة ، فذعر بوليت وخرج هائماً على وجهه فكان الكلب يتعقبه اينما ذهب .

ثم خطر له ان يخبر الكولونيل جيبين بما اتفق ، وسار الى منزله كما عرف القراء .

وبعد حين أقبل روكامبول وميلون وفاندا ومرتون فأرشدهم الكلب الى حيث كان بوليت .

فلما وصلوا الى باب ذلك المنزل ، وكانت ابنة جيبين تتفق مع اجينور ، طرقوا بابه .

ففتح لهم الكولونيل فأسرع روكامبول بالدخول تتبعه العصابة ثم أقفل الباب وقال له : انا هو روكامبول .

فلم يكد يسمع الكولونيل هذا الاسم الرهيب حتى ركض الى غرفته فأخذ مسدسين وأطلقهما على القادمين فجرح ميلون بكتفه جرحاً خفيفاً فلم يكترث له وانقض على الكولونيل انقضاض الكواسر فجندله .

وأما بوليت فإن اسم روكامبول وحده كان كافياً لغل يده .

ثم خرجت ابنة جيبين والذعر ملء قلبها فانقض عليها روكامبول فطرحها الى الأرض وغل يدها عن الدفاع وبعدها ببضع دقائق نجا اجينور .

- ٢٢ -

ولنعد الآن الى كازل دي موورليكس فإنه لم ير فاسيليكا منذ ثلاثة أيام ، ولكنه كان في خلال هذه المدة يبيت بليلة الملسوع لما ناله من غرام تلك المومس التي كان يحسب انها إبنة أخته مدلين .

وقد هام بها هياماً لا يوصف لا سيما بعد ان لجأت اليه وباتت في منزله ، وأتت تستجير به من أعدائها ، فكان يعاملها بالظاهر ابنة اخته ، فيلاطفها ويحن عليها . ولكن نار الحب الفاسد كانت تتأجج فيه ، فتحرق قلبه الأثيم .

غير ان مدلين او كلورند لم تكن تتظاهر بفهم مراده ولا تحمل نظراته وأقواله إلا على محمل الحنو الشريف والحب الصادق .

وكانت مدلين لاتتكلم أمامه إلاعن ايفانولا تدعو خالهاإلا بلقب فيكونت فتثني عليه كل حين بأعذب الألفاظ لوعده إياها بالبحث عن ايفان ، وإذا ورد ذكر روكامبول اتفاقاً ارتعشت وتظاهرت بالخوف الشديد ونظرت الى خالها نظرة استعطاف كأنها تتوسل اليه ان يحميها من شر هذا الرجل .

وكان أعد لها أعظم قسم من قصره ودعا لها أشهر خياطات باريس فصنعن لها أجمل الملابس غير انها لم تكن تخرج من المنزل ، فاذا دعاها الى الخروج معه للنزهة تمتنع وتقول . لقد آليت على نفسي أن لا أخرج إلا متكئة على ذراع ايفان .

فكانت نفس هذا الشيخ تهيج هياج البراكين ، وطالما خطرت له أفكار

أثيمة غير انه كان يخشى الفضيحة فان كلوريند منعت بابها وكان جل قصده أن يحملها على حبه ولا يتيسر له ذلك إلا إذا حملها على كره ايفان .

فلما سدت في وجهه أبواب الحيل افتكر بحليفته فاسيليكا وكتب اليها يسألها الحضور اليه .

فجاءته بعد ساعة وقالت وهي تبتسم : العلك افتكرت بما عرضته عليك ؟

– اني لم أفتكر بشيء بعد .
– كيف ذلك ؟
– ذلك لأني لم أستطع أن أفتكر إلا بمدلين .
– العلك رأيتها ؟
– إنها عندي .
– عندك في منزلك ؟

فقص عليها كارل جميع ما اتفق له فكانت فاسيليكا تسمعه وقد ظهرت عليها ملامح الريب ، فلما انتهى من حكايته قالت له : أأنت واثق من ان الغرام لم يذهب بعقلك ؟

– أتعنين اني مجنون ؟
– أو أنك حالم .
– ولكنك ترينني أكلمك واسمعك فكيف أكون حالماً .
– إذن أنت منخدع ، اتظن التي عندك هي مدلين نفسها ؟
– وأين مجال الشك في هذه الأمور ، وكيف أحبها هذا الحب وانخدع إلى هذا الحد ؟
– ألم تسمع بحديث تلك الفتاة التي يدعونها كلوريند وهي التي خدع بها ايفان نفسه وحسبها مدلين حين كان الطبيب ذاهباً به إلى مأوى المجانين ؟

فاصفر وجه كارل وقال : إن هذا محال ، إذ لا يمكن أن تتشابه الوجوه الي هذا الحد .

- كل شيء ممكن غير انه يوجد أمر يذهلني في هذه الحكاية .
- ما هو ؟
- أليست مدلين عندك منذ ثلاثة أيام ؟
- نعم .
- ألم تقل انها هربت من منزل الكونتس أرتوف ؟
- نعم ..
- إذن كيف ان باكارا ورو كامبول لم يبحثا عنها إلى الآن ؟
- لا أعلم .
- إني أريد ان أرى هذه الفتاة .
- مدلين ..
- نعم .

فنادى كارل أحد خدمه وقال له اصعد إلى غرفة السيدة وقل لها ان خالك يريد أن يراك في قاعة الاجتماع .

- فخرج الخادم ، وفي الوقت نفسه قرع جرس الباب الخارجي فأطل كارل من النافذة المشرفة على الباب فصاح صيحة دهش .

فقالت له فاسيليكا : ماذا أصابك ؟

فقال بلهجة الرعب الشديد : ان أجينور قد حضر .

ثم أسرع فنادى الخادم الذي أرسله يدعو كلورند وقال له : قل للسيدة أن تبقى في غرفتها فسأحضر اليها .

ثم التفت الى فاسيليكا وقال لها : ادخلي الى هذه الغرفة تسمعين منها كل حديثنا إذ يجب أن لا يراك اجينور .

وبعد دقيقة دخل اجينور وهو مصفر الوجه تتقد عيناه بنار الغضب فأقفل الباب وراءه ، وأخذ كرسياً فجلس عليها قرب عمه وقال له دون ان يسلم عليه اجلس لنتحدث .

فضبط كارل نفسه وأخفى اضطرابه جهد طاقته ثم قال له : ما بالك ، وماذا أصابك ؟

– أتسألني ما أصابني وأنت أعلم الناس بحالي ؟

– أرى انك شديد الاضطراب ، فقل لي من اين انت قادم .

– من قبو بت فيه ثمانية ايام مغلول اليدين والرجلين .

– أنت ؟

– أتتجاهل أيضاً وانت الذي القيتني في هـذا السجن بمساعدة حليفـك السافل تيميلون .

– أرى انك قد أصبت بالجنون فاني لم أسمع بحياتي هذا الاسم .

فقال له أجينور ببرود : لا تضيع الوقت يا عماه بالانكار ، فإني أعرف كل شيء .

– ماذا تعني بكل شيء ؟

– اعني جرائمك وآثامك ، فـإنك انت الذي القى أنطوانيت في سجن سانت لازار .

– إذا كان قدجرى ما تقول فلم يكن يراد به غير خيرك منعاً لزواجك بها .

– لم يكن ذلك قصدك يا عماه بل كنت تريد ان تمنع ابنة اختك ان تطالبك بتلك الثروة التي اختلستها ، وبدماء امها التي سفكتها .

– اسكت ايها التعس .

– إذن انت تعترف بصحة ما تقول .

– اسكت ..

– عماه لم يبق مجال للسكوت إلا إذا اردت ، وقد جئت لأخيرك بـين ثلاثة أمور وهي إما ان تنتحر امامي في الحال فأرجع مالك للأختين ، لأني وريثك الشرعي .

أو انك ترجع المال المسروق من تلقاء نفسك وتوقع على صك زواجي لأني

سأتزوج انطوانيت بعد ثمانية ايام .

او اذهب في الحال إلى ادارة البوليس فاكشف لها آثار آثامك ولا يكون جزاؤك بعد ذلك غير الشنق .

هذه هي شروطي الثلاثة فاختر منها ما تريد .

فانقلب اضطراب كارل إلى ذعر شديد وجعل يتمتم كلاماً لا يفهم .

فقال له اجينور : وليس هذا كل ما أتيتك لأجله ، فان اخت انطوانيت اي الابنة الثانية لتلك الام التي قتلتها مقيمة عندك في منزلك ، وقد هربت من المنزل الذي كانت فيه هرب المجانين ، وجاءت اليك تسألك حمايتها ، وهي لا تعلم انها لجأت الى قاتل سفاك ، لا تزال يده ملطخة بدماء أمها .

– اسكت ..

– يجب ان ترد لي مدلين .

فهاج كارل عند هذا الطلب وقال : ان هذا محال .

– لماذا ؟

– لأني أحبها .

– لا شك انك مجنون يا عماه .

– اني احبها وسأتزوجها .

– انت قاتل امها تتزوج بهـــا ، اني اعجب للسماء كيف لا تنقض عليك وانت تجدف هذا التجديف .

فركع كارل امـــامه وقال : وإذا استغفرت الله عن ذنوبي وأصبحت من التائبين ، وصرفت بقية أيامي بعمل الخير والمبرات الا يصفح الله عني ؟

فنظر اليه اجينور محدقاً وقال : انت صادق فيما تقول ؟

فصاح كارل صيحة فرح وقد حسب انمدلين ستغدو له وانه نجا من الخطر

ثم اطرق برأسه الى الأرض مستحيياً وجلاً خائفاً من نظرات ذلك الشاب النبيل الذي يتكنى باسمه فقال له اجينور : لا اعلم يا عماه إذا كانت مدلين تهواك في مستقبل الأيام ، غير ان الذي اعرفه انها تهوى ايفان بونتيف وانك قد اختطفته أيضاً .

— انا اختطفته ؟ وقد انكر اشد الانكار بلهجة تبين منها الصدق ، وأوشكت ان تزعزع اعتقاد اجينور ثم قال له ان كل ما قلته عني صحيح ما خلا هذه التهمة .

— انت واثق مما تقول يا عماه ؟

— اني واثق من امر واحد ان ايفان يحب مدلين كي يتخذها خليلة له .

— كلا .. بل انه سيتزوجها .

— انك تقول هذا القول لأنك تجهل ما صارت اليه أسرة هذا الشاب ومطامعها فقد اضاعت ثروتها وغاية ايفان ان يتزوج ابنة عمه .

— الكونتس فاسيليكا ؟

— نعم ، واذا اردت ان تعرف اين يوجد ايفان فاسأل عنه الكونتس .

فنهض اجينور وقال : ان اعتقادي فيك لن يتغير ولكني أمهلك اربع وعشرين ساعة كي تتممن بشروطي وسأعود اليك غداً في مثل هذه الساعة .

ثم هم بالخروج فأوقفه عمه باشارة وسأله : اتحسب ان ثروة الأختين عظيمة ؟

فأجابه بجفاء : كلا ، ولكنها تبلغ ثلاثة او اربعة ملايين ومهما يكن مقدارها يجب ردها الى اصحابها يا عماه .

ثم تركه ومضى .

ولما ايقنت فاسيليكا من ذهابه خرجت من مخبئها فقال لها كارل : كيف رأيت الا تزالين في ريب ؟

– كلا ، لم يبق مجال للشك بعدما سمعت ولكني أوصيك بالاحتراس .

– ممن ؟

– من روكامبول والكونتس ارتوف .

– إذا كان ابن اخي مواليا فلا اخشاهما .

– ولكن ابن اخيك لا يستطيع اكراه مدلين على الزواج بك وما زالت مدلين تهوى ايفان ..

فتنهد كارل وقال : العلك تجدين طريقة لمنع هذا الحب ؟

– ربما !

– كيف ذلك ؟

فابتسمت ابتساماً يشف عن الاحتقار وقالت : كنت احسب انك وجدت تلك الوسيلة من تلقاء نفسك وانك استغنيت عني حذراً من ان تكون مديناً لي بجميل ولكني اصفح عنك لأننا لا نزال حليفين ، اليس كذلك ؟

– دون شك !

– إذن اصغ الي وافترض ان ايفان رأى مدلين متكأة على ذراعك وان ظواهرها تدل على انها تهواك .

– ولكن ذلك محال .

– قلت لك افترض فان كل شيء ممكن .

– وبعد ذلك ؟

– تدب عقارب الغيرة إلى فؤاد ايفان فيكتب اليها كتاباً تمليه عليه تلك العواطف الثائرة .

– وبعد ذلك ؟

– يبرح فرنسا على اثر ارسال الكتاب او يتظاهر بالسفر وكلاهما واحد ، فتتألم لكتابه ولهجته الشديدة وتقنط من ايفان فتحتاج عند ذلك الى من يحبها ويسليها عن مصابها وانت معتمدها الوحيد فتبدأ ان تحبك كأب ثم ترضى

بتعاقب الأيام ان تحبك حب الزواج .

– ان كل ما تقولينه ممكن الحدوث غير ان قلبي يحدثني بأنه لن يحدث .

فضحكت وقالت . ذلك لأنك عاشق وهذا شأن العشاق .

– ولكن كيف عزمت على ان تفعلي ؟

– سوف ترى .

فاضطرب الشيخ وقال : كيف تدعين ايفان يعتقد ان مدلين تحبني ؟

– ان الأمر بسيط فافترض انك تتنزه في حديقة منزلي في ليلة مقمرة .

– مع مدلين ؟

– دون شك ، وانك خالها وهي لا تمتنع عن الاتكاء على ذراعك .

– وبعد ذلك ؟

– تسير وإياها ذهاباً واياباً في الحديقة في مكان وساعة اعينهما لك ، ثم تقول لها اني انتظر زائراً يا مدلين يريد ان يكلمك فتضطرب دون شك ، وتنظر اليك فتقول لها متبسم ابتسام الرضى ، ان ايفان سيحضر في هذا المساء كي يخطبك .

فتصيح عند ذلك صيحة فرح وتطوق عنقك بيديها .

فانذهل كارل لانه لم يفهم شيئاً وقال لها : وبعد ذلك ؟

فابتسمت فاسيليكا وقالت : افترض انه حين كانت تعانقك يكون إيفان مقيماً في موضع يشرف عليكما وانه رأى كل شيء .

فاضطرب وقال : ايمكن هذا الاتفاق ؟

– قلت لك كل شيء ممكن وهذا هو مشروعي فتمعن به وإذا احببت ان تجربه فاكتب لي ، والآن استودعك الله .

– اتذهبين .

– نعم فإني ذاهبة لأطلع على اخبار ايفان . ثم ابتسمت ابتساماً يشف عن قصد هائل مخيف ، وخرجت دون ان تنتظر جواب كارل .

وكانت مركبتها تنتظرها على الباب فامرت السائق أن يسير بها إلى شارع كاسيت في ذلك المنزل الذي حبست فيه إيفان .

فلما وصلت اليه فتح الباب خادمها بريتو فدخلت إلى تلك القاعة التي هبطت أرضها إلى أعماق مجهولة بايفان وسألت خادمها قائلة : أحدث حادث جديد ؟

– كلا .

– كيف حال الأسير ؟

– لا يزال هائجاً هياج الكواسر وهو يتوعدك دائماً بالقتل .

– سوف نرى ..

فنظر اليها الخادم بانذهـــال وقال : ماذا تفعلين أتتجاسرين على النزول إلى محبسه ؟

– نعم .

– ولكنه أصبح كاللبوة فقدت أشبالها .

– لا بد من هياجه شأن كل من يصاب بما أصيب .

– انه شديد العضل وقد زاده اليأس قوة .

– أعرف جميع ذلك .

– وهو قد ينقض عليك يا سيدتي فيحدث ما لا تحمد عقباه .

– ألعله أصابك بمكروه منذ توليت حراسته ؟

– كلا ولكني لا أدخل الى سجنه بل اوصل له الطعام من النافذة .

– أما أنا فسأدخل اليه وسوف ترى ، فهات مصباحك واتبعني .

فامتثل بريتو واضاء المصباح ثم نزل الاثنـــان في سلم طويلة تحت الأرض فكان بريتو ينير لها الطريق حتى نزلا ثلاثين درجة .

فتوقف بريتو وقـــال لها : أسمعي يا سيدتي ألا تصل إلى اذنيك أصوات انذاره ووعيده ؟

– نعم اني سامعة ما تسمع فانزل امامي ولا تخف .

كان هياج ايفان عظيماً منذ حبس في منزل الدكتور لامبرت بتهمة الجنون فان هذه التهمة وحدها كافية لهذا الهياج .

وقد كان سروره لا يوصف حين رأى ابنة عمه فاسيليكا قادمة إلى منزل الطبيب لأعتقاده انها قادمة لانقاذه إذ لم يخطر في باله انها أعدى عدو له وانها ستنتقم منه إلى هذا الحد .

وقد يذكر القراء انه قد تناول الطعام مع فاسيليكا وهما مختليسان ثم نام وانفتحت تحته ارض الغرفة فنزل نزولاً بطيئاً إلى هوة عميقة وسيرى القراء كيف كانت هذه الهوة الهائلة .

ان ايفان بعد أن فتح عينيه رأى نفسه في قبو لا يزيد طوله عن ستة أقدام وكان مصباح ضعيف معلقاً في سقف ذلك القبو يرسل نوراً ضعيفاً تنقبض النفس له . .

فحسب ايفان في بدء أمره انه حالم او انه مصاب بالكابوس . .

ولكن عندما وقف شعر ان أعضاءه لينة تتحرك وفق مراده وان عينيه منفتحتان يبصر بهما ما حواليه من الحشرات التي تقشعر لمنظرها الأبدان .

فوقف وقفة الحائر المنذهل لا يعلم أين هو ولا يذكر كيف وصل إلى هذا الحضيض .

ثم جعل يذكر فكان اول ما خطر في باله بيت المجانين الذي كان فيه .

وكيف انه حاول الهرب ولم يفلح ، ثم ذكر قدوم فاسيليكا وكارل موريكس للبحث عنه .

ثم ذكر اخيراً انه بينما كان يأكل مع ابنة عمه فاجأه نعاس غريب لم يستطع مقاومته فاطبقت عيناه ولم يذكر شيئاً بعد هذا العهد .

وكانت هذه الذكرى كافية لاتساع مجال الشك والظنون لديه بتلك المنتقمة الجبارة

فجعل يفحص ذلك القبو ، وتلك القبة المعلق فيها المصباح فرأى رسم باب في السقف فعلم انه هبط إلى القبو من ذلك السقف .

ثم طاف في هذا القبو فرأى باباً ، وكان هذا الباب متيناً مصفحاً بالحديد وفي وسطه نافذة مقفلة فوضع عينه على قفله وحاول ان ينظر ما وراءه فلم ير غير الظلمات الكثيفة .

وعاد إلى الطواف في ذلك القبو الضيق كما يطوف الأسد في القفص ، وفيما هو يطوف صاح صيحة رعب شديدة وتراجع منذعراً مكفهراً إلى الوراء .

ذلك انه رأى جثة رجل ربط عنقها بقيد من حديد شد إلى حائط وقد جرد تقادم الأيام تلك الجثة البشرية من اللحم فباتت هيكلاً من العظام .

ولقد كان ايفان شجاعاً باسلاً ، غير ان هذا المنظر المخيف أحنى على شجاعته فذعر ذعراً شديداً وجعل يصيح صياح الخائفين فلم يجبه غير الصدى .

ثم ثارت فيه قوة اليأس فجعل يضرب الباب الحديدي بيديه ورجليه حتى أدماهما دون أن يظفر بطائل ، فانقلب وقد أعياه التعب آسفاً حزيناً وهو يقول : لقد أصابوا بما أتهموني به فلا شك اني مجنون .

وعاد اسم مدلين يجول بين شفتيه فكان معزياً له في مصابه غير انه ما لبث أن عقبه اسم فاسيليكا ابنة عمه حتى انجلت غمامة الشك عن مخيلته وجعل يسأل نفسه فيقول : كيف ان فاسيليكا جاءت إلى فرنسا ولماذا أتت تبحث عنه ؟

أما هذا القادم فقد كان بيرتو ، وقد جاء يحمل الطعام لإيفان بيد ويحمل باليد الأخرى مصباحاً ، فنظر ايفان من ثقب قفل الباب فرأى القادم وعرف انه بيرتو ، علة نكبته ووصوله إلى هذا السجن ، فلم يعد لديه أقل ريب بأن ما أصابه كان من صنع ابنة عمه وان هذا الخادم من أخص رجالها الذين تعتمد عليه في شؤونها .

فقال عند ذلك في نفسه . لا شك ان هذه السلة التي بيده تحتوي على طعام

مرسل لي ، ولا بد لهذا السافل أن يفتح الباب كي يدخل إلي بالطعام . وإذاً هي التي أدخلتني منزل طبيب المجانين ، وان لهـا غرض من تعيين ذلك الشقي بيرتو في خدمتي فدفع بي إلى بيت المجانين .

وعند ذلك أدرك قصد ابنة عمه وعلم انها تريد الانتقام لأنه احتقرها وتجرأ على حب سواها فهاجت منه عواطف الشر والحقد وعاد إلى مهاجمة ذلك الباب الحديدي دون أن يظفر من فتحه بمراد .

وفيما هو على ذلك سمع صوت وقع أقدام من الخارج فتوقف وسمع وقع تلك الأقدام تنزل على درجات سلم طويلة .

وحبس انفاسه ووقف بازاء الباب وهو يضمر الشر .

فقال : إذا أتى انقض عليه انقضاض الصاعقة وأجندله .

وعند ذلك حبس أنفاسه وكمن وراء الباب .

ووصل بيرتو إلى الباب فقال بصوت سمعه ايفان : هوذا التأثر قد بدأ ، العله أصيب بسكتة في الدماغ ؟

فلم ينبس إيفان بحرف وظل كامناً وراء الباب .

وجعل بيرتو يناديه ويقول : اين أنت يا سيدي ايفان ؟

وكرر النداء مراراً فلم يجبه .

وعند ذلك أخرج مفتاحاً من جيبه ووضعه في القفل ، ولما سمع ايفان صريره خفق فؤاده وقال لقد دنت ساعة الانتقام.

غير ان بيرتو كان أشد دهاء وحكمة مما كان يظنه إيفان، فـانه لم يفتح بمفتاحه باب القبو ، بل فتح تلك النافذة الحديدية التي فيه وادخل الطعـام من تحت قضبانها الحديدية ثم أقفلها .

ولما رأى إيفان خيبة رجائه صاح صيحة منكرة .

وضحك بيرتو ضحك الساخر وقال : يسرني يا سيدي أن أراك حياً فقد حسبتك من المائتين .

فأجابه إيفان بالشتم القبيح فضحك بيرتو أيضاً وقال له : انك إذا لبثت يا سيدي تشتمني اضطر إلى الذهاب .

فهاج إيفان هياجاً عظيماً ولكنه ادرك في الحال انه إذا استمر على سياسة العنف مع هذا الخادم ، لا يعلم منه شيئاً فتغلبت الحكمة على عواطف الغضب وناداه بلهجة الدعة والايناس فقال :بيرتو أين أنت ؟

أجاب بيرتو باحتراس : هوذا أنا يا سيدي وراء النافذة فماذا تريد ؟

– أريد أن أعرف أين أنا .

– لا أسهل من معرفة ذلك يا سيدي فإنك في قبو ذلك المنزل الذي أكلت فيه صباح أمس .

– العلي نزلت اليه وأنا نائم ؟

– نعم .. فإن المخدر الذي شربته ، ممزوجاً بالخمر نومك ستاً وثلاثين ساعة .

– ولماذا القيت في القبو ؟

– بأمر الكونتس فاسيليكا .

فأن إيفان أنيناً مزعجاً وقال : ماذا تريد هذه المرأة ؟

– تريد أن تبقى هنا ..

– وإلى أمد طويل ؟

فأجابه بيريتو ببرود : ربما بقيت فيه إلى الأبد .

ثم انصرف عنه دون أن يجيب ، ومر على ذلك أربعة أيام كان ايفان عرضة فيها لعوامل اليأس ، فبدأ بامتناعه عن الطعام لحذره أن يكون مسموماً .

ولكن الجوع تغلب عليه فأكل على خوف شديد من الموت ، إلى ان مرت به عدة ساعات كان يتوقع الموت في كل دقائقها ..

ولكنه لم يمت .

ثم عرض له فكر كان أشد عليه مما كان يتوقعه من عذاب الموت وهو انه إذا كانت فاسيليكا سجنته في هذا القبو فهي تضطهد مدلين دون شك مبالغة في الانتقام .

وعند ذلك استحالت اخلاقه وبات شبيهاً بالوحوش الضارية فعـــاد إلى ضرب الباب بيديه ورجليه بعنف شديد حتى دميت يداه وتلاشت قواه فسقط على الأرض مغمياً عليه .

ولما استفاق عاد إلى ما كان عليه فلم يلق إلا الفشل .

ولبث على هذا اليأس والعناد أربعة أيام وهو يذكر فاسيليكا ويود لو تقع في قبضته فيمزقها بأسنانه .

إلى أن كان اليوم الرابع فسمع وهو رابض في سجنه وقع أقدام فنظر من ثقب الباب فرأى بيريتو وبيده مصباح ووراءه امرأة .

فالتهب فؤاده بنار الانتقام وخرج شعاعها من عينيه إذ عرف إن هـذه المرأة كانت ابنة عمه فاسيليكا .

- ٢٥ -

وكان بيريتو يقول لفاسيليكا ، سيدتي لا تدخلي فانه شديد الهياج .

فتجيبه بسكينة : لا بأس .. سوف نرى .

حتى وصلت إلى الباب فنادت ايفان تقول : اي إبن عمي أين أنت ؟

فأجابها : ماذا تريدين مني الملك قادمة للاجهار علي ؟

ـ كلا ، بل أنا قادمة المباحثة معك .

وكانت تقول له هذا القول بسكينة .. ولكن لهجة صوتها لم تكن تخلو من التهكم ..

ثم التفتت إلى بيريتو وقالت له : إفتح الباب فـلا تروق المباحثة من خلال النوافذ .

فهاج إيفان عند ذلك هياج المجانين ولم يتمالك عن الوعيد فقال : احذري أن تفتحي هذا الباب الحائل بيني وبينك .

– وإذا فتحته ؟

– انقض عليك انقضاض الصاعقة و . .

– إذن تجد أمامك نار مسدسي الحامية .

ثم أخذت من جيبها مسدساً اميركياً وقالت للخادم :

– قلت لك افتح الباب .

فامتثل الخادم وفتحه . .

وصوبت فاسيليكا مسدسها إلى ايفان وقالت له : تراجع الى الوراء يا ابن عمي وإلا أطلقت مسدسي فإني ما أتيت إلا لمباحثتك .

ولم يخف ايفان من الموت فإنه كان باسلاً وقد زاده الحقد شجاعة غير انه انف من الهجوم على امرأة لاسيا وقد قالت له انها آتية لمباحثته فـتراجع حتى التصق بالجدار وقد التطم بالجثة التي كانت في ذلك القبو .

وقالت له بصوت الساخر : أرأيت هذه الجثة وأثرها الهائل ؟

وكانت واقفة على عتبة الباب وبينها وبين إيفان مسافة تبلغ ثمانية اقدام وهي مسافة لا تتجاوز مدى رصاص المسدس .

فأجابها العلك آتية يا سيدتي لايضاح ما كان ؟

– ربما ؟

– تكلمي واخبريني عن السبب في وجودي هنا .

– ذلك لأنك أهنتني وجرحت قلبي جرحـــا لا يندمل إلا بالانتقام وأنا انتقم واتداوى .

– إذن فقد كنت تحبينني من قبل ؟

– بقدر ما أكرمك الان .

– وأنت تريدين الانتقام ؟

– انظر الى هذه الجثة المقيدة التي باتت هيكلا من العظام لما تقادم عليها من الأيام .

فأجابها بتهكم : العلك كتبت لي في لوح المقدور مثل هذا العقاب ؟

– كلا .. فإن صاحب هذه الجثة قد مات من الجوع كما يظهر وأنت يحضرون لك الطعام في كل يوم .

– اشكر فضلك فاني لا انسى كرمك ما حييت

– اطمئن يا ابن عمي العزيز فإن اسرك لا يكون الى الأبد .

– أحق ما تقولين ؟

– واني لم اسجنك الا لما كنت أخشاه من عرقلتك لأعمالي ، لو كنت مطلق السراح .

فأجابها بلهجة المتهكم كيف أعرقل مساعيك ؟

– انك تعلم اني سأتزوج .

فقال ايفان بلهجة المتهكم : بمن ستتزوجين ؟

– بالكونت كوروف .

فضحك ضحكاً يشف عن الاحتقار واستند الى الحائط وقال :

– كيف يخطر لك يا سيدتي العزيزة اني أحول دون هذا الزواج فاطلقي سراحي وكوني مطمئنة البال إذا كان هذا كل الذي تخشينه مني .

ثم جعل يضحك ضحك الساخر .

الا ان فاسيليكا منعت ضحكه إذ قالت له : اني واثقة من انك لا تحول دون زواجي ولكني كنت أخشى أن تحول دون زواج آخر .

– أي زواج تعنين ؟

– زواج مدلين

فصاح إيفان صيحة منكرة ودنا خطوة منها .

ولكنه توقف حين أنذرته فاسيليكا بالمسدس وقال لها : مدلين تتزوج ؟

— بدون شك .

— إنك كاذبة تمامة .

— كلا ، ولكنك رجل فاسد التربية والأخلاق ، أما مدلين فإنها ستتزوج بعد ثمانية أيام ، وأنا لم أحضر اليك إلا لأخبرك بهذا الزواج .

فاصفر ايفان اصفراراً شديداً وذهبت أثار غضبه وتهكمه وجعل ينظر إلى ابنة عمه نظراً حائراً كأنه يريد ان يتبين صدقها أو كذبها من عينيها .

إلى أن قالت له : ولكن طب نفساً فإن مدلين لا تتزوج مختارة بل مكرهة على هذا الزواج .

فصاح إيفان صيحة فرح وقال : لا شك إنهم نصبوا لها أحبولة فأكرهوها على الرضى بما لا تريد .

— كلا ، واني اقسم لك على صحة ما أقول .

— إن مدلين تحبني .

— لقد كانت تحبك قليلا من قبل .

فنظر اليها نظرة المغضب وقال : أتجسرين على القول انها لا تحبني الآن ؟

— إنها تحاول أن تنساك على الأقل .

— لماذا ، ولأي ذنب جنيت ؟

فأجابته بسكينة إن ذنبك بسيط وهو انك روسى وجميع الفرنسيين يعتقدون ان الروسيين أغنياء .

— وبعد ذلك ؟

— إن معلمة فرنسية كمدلين اذا طمعت بزواج رجل واسع الثروة نبيل لا يمكن إلا ان تحبه .

— ماذا تعنين ؟

- أعني انها عندما رجعت إلى باريس ، عرفت حقيقة حبك ، وعلمت ان عائلتك قد فقدت ثلاثة أرباع ثروتها ، ولما رأت ذلك انفتح لديها مجال للتأمل والتروي .

فأجابها بلهجة الاحتقار : ان مدلين لا تحسب هذا الحساب

- أتظن ؟

- بل أؤكد .

- ولكني قلت لك انها ستتزوج .

- بمن ؟

- بالفيكونت كارل دي موروليكس .

فأدرك ايفان كل شيء وقال : تباً له من شقي منافق .

فابتسمت فاسيليكا ابتسام الهازىء وقالت :

- أتريد يا ابن عمي العزيز أن تنظر مدلين النظرة الأخيرة قبل أن تدعى الفيكونتس دي موروليكس .

فصاح إيفان صيحة فرح وقال اذا تيسر لي أن أراها فاني أمنع هذا الزواج دون شك .

فضحكت وقالت : ذلك شأنك لا شأني .

- إنك من اشد النساء ، ولا أشهى لديك من الانتقام .

- ربما ..

- غير انك لو كنت كريمة الأخلاق ..

- ماذا كنت أعمل ؟

- كنت تقتليني الآن بمسدسك .

- كلا فاني أريد لك الحياة واحب أن ترى مدلين

- أحقاً ما تقولين ؟

- دون ريب .

– أين هي الآن ؟

– في بيت مورليكس .

– هي . مدلين في منزله !

– نعم ..

– وتقولين انك تسمحين لي بالخروج من هنا ؟

– اقسم بشرفي على صدقي فيما أقول .

– متى أخرج من هنا ؟

– متى رضيت أن تخرج منه كما دخلت اليه .

– لم أفهم ما تقولين .

– انك دخلت الى هنا وأنت نائم اليس كذلك ؟

– نعم ..

– وستخرج نائماً كما دخلت بمخدر أسقيك اياه .

ثم اشارت الى بيريتو الذي كان واقفاً معها ففهم قصدها وانصرف .

أما ايفان فقد قال لها : اني ارضى بما تريدين ولكني أسألك ألا تريدين تسميمي ؟

فأجابت : اني اقسم لك بعائلتي التي هي عائلتك اني لا أريد بك شيئاً من هذا ؟

وبعد هنيهة عاد بيريتو يحمل على صينية زجاجة فيها نبيذ أصفر وكأساً فارغاً فصبت النبيذ بالكأس وأمرت خادمها ان يقدمها لايفان .

فتردد ايفان هنيهة عن شربه الى ان قالت له : لا رجاء لك برؤيتها الا اذا شربت ما في الكأس .

فأخذ الكأس عند ذلك وشرب ما فيها جرعة واحدة ولم يكد يستقر الشراب في جوفه حتى صعق وسقط على الأرض لا يعي .

فالتفتت عند ذلك فاسيليكا إلى بيريتو وقالت له ببرود :

– اذهب الآن .

ثم خرجت من ذلك القبو وقد غادرت فيه تلك الجثة البالية وايفان منطرحاً أمامها لا حراك فيه .

- ٢٦ -

ولنعد الآن إلى روكامبول فانه بعد ان وجد اجينور جعل يهتم بالبحث عن ايفان .

وقد كانوا وجدوا أثاره من منزل طبيب المجانين الى شارع الصليب الأحمر وهناك فقد نويل أثر مركبة مورليكس كا يذكر القراء .

ثم رآها بعد ساعة في شارع الحمامة القديمة غير ان ايفان وفاسيليكا لم يكونا فيها .

ثم رآها بعد ساعة في شارع كاسيت وقصر اهتمامه على البحث عنه في ذاك الشارع .

ثم خطر له ذاك الكلب الذي أعان مربون على اقتفاء أثر بوليت وعرف منه موضع الكولونيل جيبين فقال في نفسه ان الكلب ايضاً قد يساعدنا على اقتفاء أثر ايفان اذا اطلقناه في اثر فاسيليكا .

وكانت تقيم في الشانزليزه في اليوم التالي لخصامها مع باكارا وخروجها من منزلها ولكنها لم تكن تبرح منزلها الجديد الا نادراً .

وكان روكامبول قد بث الأرصاد ووضع الجواسيس حول منزلها فلم يرها أحد خرجت من منزلها الا مرات قليلة حيث كانت تخرج ماشية على الأقدام فتتنزه هنيهة ثم تعود ، وكانت على اشد الحظر كما كان يظهر من تلفتها حين ذهابها وايابها كي ترى اذا كان يتبعها أحد .

وبعد ان مر بها ثلاثة أيام على هذه الحال كتب اليها موروليكس يستدعيها فعزمت على الذهاب اليه

ولما خرجت جعلت تتلفت عن يمينها ويسارها فلم تجد ما يحمل على الشبهة ولم تر غير بنائين كانا جالسين في ظل باب يأكلان خبزاً اسود وامامهما كلب يرميان اليه فتاة ذلك الخبز من حين الى حين فلم تحفل بهما وظلت سائرة على قدميها حتى بلغت محطة المركبات فركبت وسارت بها الى منزل كارل .

فأطلق احد البنائين الكلب في أثرها وقال له : ابحث عن هذه المرأة .

فهرول الكلب حتى بلغ المركبة وجعل يسير وراءها مقتفياً آثارها .

وبعد حين عاد الكلب اليهما فأمراه أن يسير أمامهما الى حيث وقفت المركبة وتبعاه حتى وصلا الى منزل موروليكس فوقف بازاء المركبة التي كانت واقفة عند الباب .

وكان هذان الرجلان روكامبول ونويل وهما متنكران بملابس البنائين فقال روكامبول: هذا منزل موروليكس ولا بد ان يكون اجينور فيه الآن لأني أرسلته لمقابلة عمه فعسى ان لا يجتمعا .

ثم قال له بعد ان افتكر هنيهة : اذهب الآن الى هذه القهوة الكائنة أمام الثكنة وعد الى هنا بعد ساعة .

فرد عليه نويل : وماذا أنت صانع ؟

– اني سأنصرف ايضاً لأني اخشى اذا بقيت ان تراني فاسيليكا ، اذ قد تعرفني مهما بالغت في التنكر .

ثم تركه وانصرف، فأخذ نويل الكلب وسار به الى تلك القهوة التي اخبره عنها روكامبول .

وبعد ساعة عاد نويل بالكلب الى قرب منزل موروليكس كما امره روكامبول فما لبث الكلب ان شم التراب حتى علم ان فاسيليكا خرجت من المنزل فسار في اثرها وتبعه نويل .

فسار الكلب في شارع هوسمان حتى بلغ شارع ملهرب وهناك نظر الى نويل فأشار اليه نويل ان يسير في اثر المركبة فامتثل ، وما زال يسير حتى دخل في شارع كاسيت ووقف عند باب ذلك المنزل الذي حبست فيه فاسيليكا ايفان فجعل يضرب بيديه بابه فعلم نويل ان فاسيليكا داخل هذا المنزل وان ايفان مسجون فيه .

وعند ذلك اشار له نويل بيده الى الجهة التي ترك فيها روكامبول امام منزل موروليكس وقال له : اذهب وادع الرئيس .

فانطلق الكلب انطلاق السهم وجعل نويل يطوف حول المنزل وهو يحمل عدة البناء ويراقب ذلك المنزل اتم المراقبة .

وفيما هو يطوف حول المنزل ، اذ رأى بابه انفتح وخرج منــه رجل ما لبث ان رأى نويل حتى ظهرت على وجهه عـلائم السرور ، وكان هذا الرجل بيريتو .

اما نويل فإنه تظاهر انه لم يره وظل سائراً في طريقه .

فأسرع بيريتو في اقتفائه وهو يناديه :

– ايها البناء قف اني في حاجة اليك .

فالتفت نويل اليه وهو يتكلف هيئة الانذهال وقال له : تدعوني أنا ؟

– نعم أيها الرفيق فإني محتاج اليك .

– ماذا تريد مني ؟

– أريد ان اشغلك ان كان لا لاشغل لك .

– لقد اخطأت فإني ذاهب الى عملي .

– نعم ، ولكنك تشتغل كل يومك فلا تكسب اجرة يوم ، بيـد انك ستشتغل عندي ساعة فقط .

– كم تعطيني ؟

– عشرين فرنكاً ..

فاندلع لسان نويل وتظاهر بالفرح الشديد وقال : أحقيقة ما تقول ؟
- نعم وهوذا البرهان .
ثم أعطاه عشرين فرنكاً وقال له : إننا نمنحك ضعف هـذا الجزاء ، إذا أتقنت العمل .
- ولكن ماذا تريدون ان أعمل ؟
- سوف ترى فاتبعني .

فتبعه نويل حتى دخلا باب المنزل ، فأغلقه بيريتو وقال لنويل : إنك تعلم يقيناً ، أن مثل هذه الأجرة ، لا تدفع عن شغل ساعة ، إلا لعمل سري .
ثم أخذ منديلاً من جيبه ودنا منه فذعر نويل وقال له : ماذا تصنع ؟

- إني أريد ان أعصب عينيك كي لا ترى طريق المكان الذي ستشتغل فيه فإذا لم يرق لك ذلك أرجع لي ما دفعته اليك .
- ليكن ما تريد فاعصب عيني .
فعصب بيريتو عينيه ثم أخذ بيده وقال له : إتبعني .

- ٢٧ -

عندما صعق ايفان المخدر الذي شربه ، وطلبت فاسيليكا الى بيريتو ان يحضر لها بناء قال لها الخادم : ماذا تريد سيدتي من البناء ، العلها تنوي سد باب القبو ؟
- كلا بل أبغي عكس ذلك وهو اني أريد ان أفتح نافذة فيه .
فنظر اليها بيريتو باندهال شديد حتى أوشك ان يتهمها بالجنون .
فقالت فاسيليكا : ألا ترى قبة هذا القبو ؟

— نعم يا سيدتي .

— انه يوجد فيها حجران كبيران إذا أرشدت البناء الى موضعهما يستطيع ان ينزعهما في الحال .

— ولكن هذا القبو يا سيدتي يبعد ثلاثين قدماً عن سطح الأرض .

— ماذا تعني ؟

— أعني انه إذا كان القبو في جوف الأرض فأية فائدة من النافذة وعلى أي مكان تشرف ؟

فلم تتدان فاسيليكا الى إجابته ، وقـــالت له بلهجة السيادة : إذهب وائتني ببناء .

فامتثل بيريتو وأخذ المصباح فمنعته وقالت له : دع المصباح في مكانه لأني باقية هنا ولا تساوم البناء فادفع له ما يريد . ولكن إحذر ان تدعه يعرف طريق القبو ، ولا تدخله إلا معصوب العينين .

ولما ذهب بيريتو بقيت فاسيليكا وحدها تنظر إلى ايفان المنطرح أمامهـا وشفتاها تبسمان لما أدركته من لذة الانتقام .

ولبثت قريرة العين ناعمة البال بهذا المنظر الى ان عاد بيريتو ومعه نويل يحمل عدة البناء وهو معصوب العين .

فنظرت فاسيليكا الى بيريتو وأشارت اليه إشارة ، فحمل ايفان ووضعه وراء الجثة . وطرحت فاسيليكا فوقه رداء كبـيراً فاحتجب عن الأنظار . ثم أمرت بيريتو باشارة اخرى أن يقف أمام الجثة كي يحجبهـا أيضاً عن نظر نويل .

ولما فرغت من ذلك ، دنت من نويل وفكت عصابة عينيه . فتكلف نويل مظاهر الخوف الشديد ، وجعل ينظر نظر الوجل والرعب الى جميع ما ظهر له .

فقالت فاسيليكا : إطمئن ايها الرجل فليس هنا ما يخيف .

— ماذا تريدين ان أصنع لك يا سيدتي ؟
— ان الأمر بسيط ، إصعد فوق هذه الطاولة وخذ بيدك المطرقة لأني أريد ان نفتح نافذة في قبة هذا القبو .

فصعد نويـل وضرب السقف بالمطرقة ثم قال : إن الحجر صلب ، يا سيدتي .
— ليس في كل مكان فاضرب هنا .
ثم أشارت له بيدها الى موضع عينته فبدأ العمل . وما لبث ساعة حتى فتح بتلك القبة منفذاً متسعاً يستطيع ان يمر به إنسان .

وكان بيريتو يراقب عمله وهو يذوب شوقاً الى معرفة ما وراء هذا المنفذ ، ولكنه لم ير منه غير ظلام حالك وعلم ان فوق هذا القبو قبواً آخر يتصل به من هذه النافذة .
أما نويل فانه لما فرغ من عمله هذا نظر الى فاسيليكا كأنه ينتظر أوامر جديدة .
فقالت له فاسيليكا ، لم نعد في حاجة اليك فانزل .

ثم قالت لبيريتو : كم وعدت هذا الرجل أن تعطيه ؟
— أربعين فرنكاً .
فأخذت فاسيليكا من جيبها ، ورقة مالية قيمتها مئة فرنك ، وأعطتها لنويـل .
فتظاهر نويل بسرور لا يوصف وجعل يقلب الورقة بين يديه بمظاهر العجب حتى ان فاسيليكا لم تتمالك عن الضحك وقالت له انك تستطيع الآن ان تذهب لأن شغلك قد انتهى .

فجاءه بيريتو وعصب عينيه ثم أخذ بيده وقال له : إتبعني .

* * *

ولنعد الآن الى روكامبول ، فإنه بينما كان نويل يشتغل في ذلك القبو ، كان روكامبول يسير وراء الكلب الذي أرسله نويل اليه .

فما زال يسير حتى وصل الى شارع كاسيت ووقف امام باب ذلك المنزل المسجون فيه ايفان .

فعلم روكامبول ان فاسيليكا فيه ، وذهب الى منعطف الشارع فكمن هنالك وهو ينظر الى المنزل مفكراً ولكنه لم يطل التفكير فانه عرف البيت وذكر حوادث جرت له فيه .

وبعد هنيهة رأى نويل خارجاً من الباب يقوده بيريتو ورآه يفك عصابة عينيه فلما فرغ منه أطلق سراحه وعاد الى المنزل .

فصفر روكامبول لنويل صفيراً عرفه ، فجاء اليه وخلا الاثنان فقال له روكامبول : ماذا كنت تصنع ؟

– اني كنت أشتغل بحرفتي ، ولكني رأيت أموراً لم أفهم منها شيئاً الى الآن .

ثم قص عليه جميع ما اتفق له ، وانه تمكن ان يزيح العصابة قليلاً عن عينيه وهو في القبو ، فرأى رجلاً صريعاً ملقياً في زاوية القبو ، ورأى فاسيليكا طرحت فوقه رداء كبيراً ، ثم أخبره انه رأى ايضاً في ذلك القبو جثة بالية .

وسأله روكامبول : أما علمت لماذا فتحت النافذة في سقف القبو ؟

– كلا .

– ماذا كان وراء الثقب ؟

– لا أعلم .

– أما ذكرت هذا البيت الذي دخلت اليه ؟

– كلا لأني ما عرفته من قبل .

فوضع روكامبول يده فوق جبينه كمن يتذكر أمراً ثم قال : نعم انك لا

تعرف هذا البيت لأنك لم تكن يوم حوادثه في عصابة السير فيليام ، حينما دخلت أنا وإياه .

ثم أخذ بيده وقال : هلم بنا الى هذه الحانة ، نشاهد منها كل من يدخل الى المنزل ويخرج منه ، وأقص عليك ما جرى لنا فيه من الحوادث ، أيام الغرور .

- ٢٨ -

كان روكامبول ونويل متنكرين بملابس البنائين فلم يكترث لهما أحد من الذين كانوا في تلك الحانة .

وقد طلب روكامبول الى الخمار زجاجة من الخمر وجلس يتعاطاها مع رفيقه في زاوية من الحانة ويراقب من نافذتها باب منزل فاسيليكا .

وقد دار الحديث بينهما كما يأتي ، فقال روكامبول :

– تقول انك رأيت هيكلاً من العظام في القبو مشدوداً الى الجدار ؟

– نعم .

– وانك رأيت رجلاً يشبه النائمين كان منطرحاً على الأرض ؟

– نعم أيها الرئيس .

– أأنت واثق انه لم يمت ؟

– لقد حسبته ميتاً في بدء الأمر وانهم لم يحملوني على فتح النافذة في قبة القبو إلا لتكون قبراً له ولكن ...

– ولكن ماذا ؟

– ولكنهم لم يسألوني سدها ، فاستنتجت من ذلك ان الرجل نائم غير ميت .

– وانا أرى ما تراه . واظن ان هذا الرجـــل النائم هو ذلك الشاب الروسي الذي نبحث عنه وان فاسيليكا لم تقتله وانها تعد له انتقاماً شراً من كل قتل .

– إذاً قص علي يا سيـدي الرئيس حكاية هذا المنزل ، التي وعـدتني بحكايتها .

– هذه هي فاسمع . إن هذا المنزل الذي دخلت اليــه ، بقي دهراً طويلاً مهجوراً لا يسكنه أحد وكان له سمعة سيئة تنفر عنه الناس . ويظهر ان هـذه الوصمـة لا تزال لاحقـة به ، لان الحوادث الفظيعـة لا تزال تجري فيه .

– من كان صاحب هذا البيت ؟

– إمرأة عجوز كانت تقيم في الريف ولم تعـد الى باريس منذ ثورة يوليو سنة ١٨٣٠ .

– وهل استأجره أحد بعدها ؟

– لم يستأجره أحد قبل سنة ١٨٤٠ وبقي مهجوراً عشرة أعوام وقد ماتت العجوز وتركت المنزل لورثتها .

اما تلك العجوز فقد كانت في أيام صباها حسناء وكان لهـا زوج يبالغ في الغيرة عليها مبالغة تزهق الأرواح .

وقصتها تبدأ في سنة ١٨٠٠ اي في بدء عهد الامبراطورية فان زوجها كان من الضباط ولم يكن يستطع العسكريون في عهد نابليون الأول ان يقيموا مع زوجاتهم لكثرة لانشغالهم بالحروب .

وكان هذا الضابط في ذلك العهد في المانيا مع جيش نابليون المنتصر فورد اليه كتاب دون توقيع يخبره بأن امرأته تخونه .

فترك الجيش وهرول الى باريس ولم يحضر الى منزله ، لكنه استأجر منزلاً مجاوراً لمنزلها وأقام فيه يراقبها وهي لا تعلم شيئاً من أمره

وكان لهذه المرأة الخائنة خليل يزورها كل ليلة فانتظرته في إحدى الليالي حسب عادتها ولم يحضر واتفق لها مثل ذلك في اليوم التالي. ثم تعاقبت عليها الأيام والليالي وهي لا تقف على أثر من آثار هذا العاشق المنكود .

ثم تغير نظام المملكة وسقطت الامبراطورية ورقي زوجها الضابط إلى رتبة جنرال في باريس فأقامت معه أعواماً طويلة دون ان تسمع منه كلمة تعنيف أو تبدر منه بادرة تشير الى انه يشك بطهارتها .

غير ان حبها لعشيقها كان قد بات ملء نفسها الفاسدة فرق جسمها لفراقه واشتد هيامها حتى باتت تشتهي الموت كل حين .

وكان أشد ما يشغلها انها لم تكن تعلم اذا كان هذا العاشق ميتاً فتبكي شبابه أو حياً فتبكي ولاءه .

وفي سنة ١٨٣٠ قتل زوجها الجنرال في شوارع باريس فبرحت الأرملة ذلك المنزل ، وكان لها منزل آخر في شارع باريس لورين ، فأقامت فيه الى أن أدركتها الوفاة .

ـ أماتت دون أن تعرف مصير عاشقها ؟

ـ هكذا يظهر .

ـ ولكن ماذا جرى لهذا العاشق ؟

ـ جرى له أمر هائل وذلك انه كان للجنرال خادم يخلص له غاية الاخلاص فقبض الاثنان على العاشق في ليلة كمنا له فيها في حديقة المنزل فسدا فمه كي يمنعا صراخه وقيدا يديه ورجليه .

ثم حملاه الى ذلك القبو الذي خرجت منه الآن فوضعا قيداً في عنقه ورجله وربطا هذا المسكين بسلسلة في الجدار .

ـ إذا هذه الجثة التي رأيتها كانت جثته ؟

ـ نعم .

ـ وقد مات في هذا القبو ؟

ـ دون شك ولكن ليس هذا كل الحكاية فاصغ الى النهاية .

إني عندما كنت اشتغل في عصابة اندريا الملقب بالسير فيليام ، كان هذا الزعيم الهائل لا ينظر مرة الى منزل هذه المرأة إلا تخامره الظنون بعزلة أصحابه ويقول لا بد لهذه العزلة والسكينة من أسرار غامضة ولا بد ان تكون الكنوز مخبوءة في هذا المنزل ،فتهيج منه عوامل الشر حتى تتغلب عليه ويتأهب لجلاء الغامض عن هذه الأسرار .

إلى ان قال لي يوماً : قد تحققت انه لا يوجد في هـذا المنزل غير خادم عجوز لا يخرج منه على الاطلاق ، فإذا شئت دخلنا اليه ولا بد ان يكون فيه مال كثير .

اجبته : إن الأمر اليك . ودخلنا في ليلة حالكة الى المنزل بعد ان فتحنا أبوابه بمفاتيح خاصة ووجدنا الشيخ مقيماً في غرفة أقفل بابها وكان ينبعث منها نور ضعيف .

فدنا اندريا من الباب ووضع عينيه على ثقبه فرأى الشيخ لا يزال ساهراً وكان راكعاً أمام صليب وهو يصلي بصوت ضعيف ويقول :

« يقال ان الأموات لا تحضر أرواحهن الى الأحياء فإذا كان الحق ما يقولون فابعث لي بروحك كي تحلني من تلك اليمين التي حلفتها ، فأدفن بقايا هذا المسكين » .

فلما سمع اندريا هذه الأقوال أحب ان يدرك أسرارها فرفس باب الغرفة فانفتـح .

وهجم على الشيخ بخنجره قبل ان يتمكن من الصيـاح وقال له : إذا فهت بكلمة فأنت من الهالكين .

فذعر الشيخ وبلغ منه الخوف مبلغاً شديداً فباح لنا بكل شيء ونزل بنا إلى القبو وأرانا تلك الجثة المقيدة بالسلاسل .

ثم ضرب يده على الجدار وقال . يوجد وراء هذا القبو قبو آخر وقد ثقبه

الجنرال زوج المرأة ووضع في القبو الثاني باباً صفحه بمرآة طويلة اذا فتح أشرف على الحديقة ووضع فوق الثقب مرآة تقابل المرآة الأولى فاذا فتح باب القبو المشرف على الحديقة وفتح ثقب هذا القبو تنعكس أشعة المرائي فيرى المقيم في القبو تلك الحديقة ومن يكون فيها .

وقد عاش صاحب هذه الجثة عشرة أعوام . ولما مات سدت الثقب كي لا تعرف أسراره .

فقاطع نويل روكامبول وقال : إني لا أفهم هذه الألغاز .

– إن الأمر واضح . إن النافذة التي فتحتها في القبو بارشاد فاسيليكا هي نفس الثقب الذي فتحه الجنرال ووضع فيه تلك المرائي في القبو الآخر المشرف على الحديقة .

وقد كان عقاب الجنرال لصاحب هذه الجثة الذي كان يعشق امرأته عقاباً هائلاً لا يخطر على بال إنسان .

إن هذا المنكود أقام في القبو عشرة اعوام وكان يحضر له طعاماً كل يوم ولكنهم ينقصونه بالتدريج حتى مات جوعاً .

وليس هذا كل عقابه بل انه كان يرى كل يوم إمرأة الجـــنرال تتنزه في الحديقة كئيبة حزينة لاحتجابه وهو يراها من الثقب المفتوح بواسطة انعكاس أشعة المرائي .

– ولكنه عقاب هائل لم يرو مثله في القرون الغابرة .

– هو ما تقول ، ويظهر ان فاسيليكا قد عرفت سر هذا القصر ، وانها تعد لايفان عقاباً شبيهاً بعقاب الجنرال . ولكني لا بد لي أن اعلم كيف وقفت على سره .

– وما صنعتم بالخادم العجوز ؟

– طعنه اندريا بخنجره طعنة قاتلة ثم نهبنا البيت وخرجنا .

ولم يكد روكامبول يتم حديثه حتى رأى باب المنزل قد انفتح وخرجت

منه فاسيليكا فقال لنويل : ها هي خرجت فاذهب في أثرها .

فامتثل نويل واقتفى أثرها حتى رآها ركبت مركبة ، ثم عاد الى روكامبول ، وأخبره بما رآه ، فقال له : هلم بنا إذن إلى دخول هذا المنزل .

- ٢٩ -

حسب روكامبول ونويل انه لا بد للكونتس فاسيليكا من مدة ساعة على الأقل ، كي تذهب الى منزلها في الشانزليزيه وتعود الى منزلها في كاسيت، هذا إذا كانت تنوي العودة اليه . وهذه المدة كافية للدخول الى المنزل وتفقد القبو .

فذهب الى الباب وقرع الجرس المعلق بسلسلة بارزة مدلاة غير ان الباب لم يفتح فقرعه نويل ثانية وثالثة فلم يجبه احد . .

ولكن الباب الكبير فتح رتاجه ، وبرز منه وجه بيريتو . فأسرع روكامبول الى الاختفاء وراء الباب كي لا يراه ، ولم يبق ظاهراً له غير وجه نويل .

فانذهل حين رآه وقال له : ماذا تريد ولماذا تقرع الباب ؟

فتكلف نويل هيئة الحزن والكآبة وقال له : أرجوك ان تعذرني يا سيدي إني لم أعد اليك إلا لأني أصبت بويل عظيم .

- كيف ذلك ، وماذا دهاك ؟

- ألم تعطني تلك السيدة الجميلة ورقة مالية قيمتها مائة فرنك ؟

- نعم .

- إني أضعتها وأسفاه .

ــ ويحك أين أضعتها ؟

ــ لا أعلم ولكني اظن اني فقدتها على السلم او في صحن الدار .

ــ إذاً عد بعد ساعة فسأبحث عنها وإن وجدتها أرجعتها لك

ثم أغلق الرتاج بوجهه وانصرف .

ولكن هذا الذي كان يريده نويل فانه تمتم بعض كلمات شكر ونظر الى روكامبول كأنه يستشيره فيما ينبغي ان يفعل .

وكان روكامبول مقطب الحاجبين يظهر منه انه كان يتذكر أمراً بعيداً، ثم سار بنويل بضع خطوات وقال له : أهذا الذي عصب عينيك ؟

ــ نعم ايها الرئيس .

ــ إذاً فهو خادم فاسيليكا .

ــ دون شك .

ــ أما هو قصير القامة عريض المنكبين اسود الشعر خفيف اللحية ؟

ــ هو بعينه .

ــ لقد عرفته من صوته .

ــ إذاً أنت تعرفه من قبل ؟

ــ نعم وسر بنا الآن .

ــ إلى أين أرجعت عن عزم الدخول إلى المنزل ؟

ــ ألا ترى انه لا يريد ان يفتح ؟

ــ أأطرق الباب ايضاً ؟

ــ كلا لقد قال لك ان تعود بعد ساعة .

ــ أتريد أن أعود اليه ؟

ــ سأعود معك .

وبينما كان روكامبول ونويل يبتعدان ، كان بيريتو واقفاً وراء الباب وقد ذعر لعودة ذلك البناء فانه كان واثقاً من ان نويل يكذب فيما ادعاه من ضياع

الورقة لأنه رآه قد وضعها في طرف منديله وعقد عليها ووضعها في جيبه فاضطرب لرجوعه وحمله على محامل الشر .

وكان بيريتو هذا جريئاً مقداماً إلا حين يلتقي بعدو شديد فيضعف أمامه وتذهب جرأته وقد كان سمع من فاسيليكا ان رجلاً هائلاً يسعى إلى انقاذ ايفان وان هذا الرجل يدعى روكامبول .

فاستولى عليه الخوف حين رأى نويل عائداً اليه وكان اضطرابه شديداً حتى انه حين أغلق رتاج الباب أي نافذته التي في داخله في وجه نويل نسي أن يقفلها بالمزلاج .

وقد قال في نفسه أن الكونتس لديها مفتاح للباب وأنا لا انتظر أحداً فاذا عاد البناء فليطرق الباب قدر ما يشاء فاني لا أفتح له ، ثم ذهب إلى إحدى غرف المنزل وانزوى فيها يضرب اخماساً لأسداس .

وبعد ساعة عاد نويل وروكامبول فحاول نويل أن يدق الجرس غير أن روكامبول منعه لأنه لاحظ ان نافذة الباب غير محكمة الاقفال .

وكان ذلك الشارع مقفراً لا ينتابه أحد ففتح روكامبول تلك النافذة ومد يده منها إلى مزلاج الباب فرفعه ورفس الباب فانفتح ، ثم دخل الاثنان واقفلا ذلك الباب .

وكان بيريتو جالساً في تلك الغرفة التي أكل فيها مع فاسيليكا ولكنه فتح النافذة المشرفة على الردهة .

ولم يكد ينظر منها حتى دنا روكامبول ونويل من تلك الغرفة فسمع وقع اقدام فحسب أن فاسيليكا القادمة وأسرع إلى فتح الباب لاستقبالها .

ولكنه ما لبث أن فتحه حتى شاهد نويل مسلحاً بمطرقته وروكامبول بمسدسه فجعل يصيح ويستغيث .

ولم يطل صراخه فان روكامبول هجم عليه فضغط على عنقه وقال له : اسكت أو أقتلك .

ثم أخذه بيده وقاده إلى تلك النافذة لكثرة نورهـا وقال له : تفرس في وجهي وانظر إلي بإمعان . أما عرفتني ؟

فصاح بيريتو صيحة رعب وقال · أأنت المئة وسبعة عشر (اسم روكامبول في سجن طولون) .

ــ نعم ، أنا هو ألا تذكر حين كنا مقيدين في سجن طولون بسلسلة واحدة ثم التفت إلى نويل وقال له : أما عرفته ؟

ــ كلا ، إني ما رأيته في ذلك السجن .

ــ لقد أصبت فانك لم تحضر إلى طولون إلا بعد عـــام من قدومي اليها وكانت قد انقضت مدة سجن هذا اللص حين قدومك ولكني تقيدت معه في قيد واحد مدة شهرين .

أما بيريتو فقد كان شديد الذعر فقال له روكامبول : لقد عرفت اني كنت ادعى ١١٧ ولكنك لم تعرف اني ادعى أيضاً روكامبول . .

ــ أنت روكامبول ؟

ــ نعم أنا هو واني أخيرك الآن بين أمرين وهما : أما أن تكون من رجالي المخلصين بملء الطاعة والانقياد ، وأما ان أغمد خنجري في صدرك

فلم يتردد بيريتو بالجواب وقال : اني أطيعك ولا أحب إلي من الاندماج في سلك عصابتك ، ولو كنت أعرف مكانك لمـــا فضلت خدمة هذه المرأة على خدمتك .

وعند ذلك قرع الجرس فذعر بيريتو وقال : هوذا السيدة قد عادت .

ــ أهي الكونتس فاسيليكا ؟

ــ نعم .

ــ إذن يجب أن تخبئنا كي لا ترانا .

فاتقدت عينا بيريتو باشمة خاطر خطر له وقال للاثنين : قفا هنا .

وأشار لهما أن يقفا في ذلك القسم المتحرك من الغرفة ، ففعلا ثم اسرع الى

الجدار ، وأدار لولباً فيه ، فهوت أرض الغرفة وتوارى روكامبول ونويل عن الأنظار .

- ٣٠ -

مضى على هذه الحادثة المقدمة يومان كان كارل دي مورليكس وفاسيليكا يجتمعان في خلالهما مرات كثيرة .

وكان هذا الشيخ الفاسد الأخلاق قد استحالت أخلاقه ، ولم تعد بادية على وجهه ظواهر القلق ، واضطراب النفس ، ذلك لأن أجينور قد اتفق وإياه ، فوافق على أن لا يعارض زواجه بمدلين إذا رضيت بهذا الزواج .

أما مدلين فإنها كانت لا تزال تدعوه خالها ، لكنهـا لم تعد تردد اسم ايفان حسب العادة ، فحسب كارل انها قد بدأت بنسيان عشيقها ، وان ايفان قد أساء اليها إساءة لا تغتفر لعدم بحثه عنها .

ثم ان فاسيليكا أقسمت له انها ستزوجه مدلين وكان يثق بها ثقـة شديدة فاطمأن خاطره .

إلا ان فاسيليكا لم يرق لها إلا تعكير صفائه وتكدير أمانيه ، فإنها جاءت اليه في الصباح وقالت له :

– إن كل شيء قد تهيأ وقد أعددت لك في منزلي كل ما يروق ولم يبق إلا اقناع مدلين على الذهاب إلى هذا المنزل .

فسر كارل وقال : إنها تسير معي إلى حيث أشاء إذ لم تعد تجفوني ذلك الجفاء القديم .

– إذن كل شيء يجري وفق ما تريد ولكن ..

فاضطرب كارل وقال . ولكن ماذا ؟

– إني أخشى روكامبول .
– الا تزالين تخافيه ؟
– نعم .. واني أخشى أيضاً الكونتس أرتوف ، لأن انطوانيت لا تزال عندها .
– لا سبيل إلى الخوف منها ما زال أجينور موالياً لي .
– إنك مخطىء في اعتقادك ، ولو سمعت نصيحتي ، لفعلت ما أشرت به عليك .
– بما أشرت علي ؟
– باتباع الطريقة التي تغل يد روكامبول .
– وما هي ؟
– هي أن تصيب أحد أحبائه بمكروه شديد يشغله عنا .
– نعم ، أذكر ذلك ولكني أرى انه لا فائدة منه .
– إن العاقل يجب أن يحذر ويتوقع كل شيء ، فإن السفن قد تغرق في الموانىء وهي تحسب نفسها آمنة فيها .
– لقد أصبت . ولكن ماذا يجب أن أفعل !.. أأقتل الوالد ، أم اختطف الولد ؟
– اني اؤثر اختطاف الولد ، فإنه بينما يكون روكامبول يجد في البحث عنه أكون أنا قد انتقمت من إيفان ، وأنت تزوجت مدلين ، وهو مشتغل عنا بالتفتيش عن الغلام .
– سأفعل ما تشائين إذا كان لا بد من اختطاف الولد .
فابتسمت فاسيليكا ابتسام الساخر وقالت : يظهر أن سوء التفاهم قد اشتد بيننا .
– كيف ذلك ؟
– ذاك اني أسدي اليك نصائح ولا القي عليك أوامر فاني اصبحت واثقة

من الظفر بانتقامي وما أشير عليك به الآن محض الاخلاص .
وما عسى أريد أنا سوى تعذيب ذاك الأبله الذي رفض غرامي تعذيباً شديداً قبل موته لأني أعددت له موتاً هائلاً ..

وقد حان زمن انتقامي الرهيب ، أما أنت فإنك لم تجر خطوة في في سبيل أغراضك .

فقال كارل وقد بدت عليه ملامح الاضطراب : العله يوجد من يوقفني في هذا السبيل ؟

— يوجد رجل واحد وهو روكامبول ، واضغ الي الآن فلقد سمعت ابن أخيك يقول لك منذ يومين ان مدلين هربت من قصر الكونتس أرتوف والتجأت اليك .

— ماذا تريدين بذلك ؟

— أريد اني لا أصدق هذه القصة ، فإن تلك الفتاة التي تشبه مدلين لا يزال أمرها مثيراً لظنوني ، فإني ما رأيت واحدة من هاتين الأختين ، وأظن اني إذا رأيت تلك الفتاة التي عندك أعرف الحقيقة لأول نظرة .

وقاطعها كارل مبتسماً : سأزيل شكوكك .

ثم نادى أحد الخدم وقال له : قل للسيدة مدلين أن تحضر إلي .

وبعد هنيهة جاءت مدلين وكانت لابسة ملابس غاية في البساطة .

فقال لها كارل بلهجة حنو أبوي : إني دعوتك كي أعرفك بالكونتس واسرنوف لشدة اتصالها بأسرة بونتيف .

فصاحت كلورند صيحة فرح وضغطت بيدها على يد فاسيليكا .

غير ان فاسيليكا ، لم تكن من النساء اللواتي يؤخذن فجأة بمثل هذه الظواهر .

وكانت تحب إيفان فهي بالطبع تكره مدلين ، ونظرت اليها نظرة هائلة ذعرت لها ، حتى أن كارل نفسه اضطرب ، غير انها رأت أنها قد جرت

شوطاً بعيداً ، فعادت الى الابتسام وقالت لها : اطمئني أيتها الآنسة فإني قد رجعت عن حب إيفان .

فأجابتها كلورنيد بصوت تبينت منه لهجة الالتماس : انك ما زلت تظهرين بهذه المظاهر النبيلة فكوني يا سيدتي كريمة للنهاية .

– انك تريدين أن تعلمي أين هو إيفان اليس كذلك ؟

فضمت كلورنيد يديها كما يفعل المتلمس وقالت : نعم ، نعم يا سيدتي فقولي بالله اين هو ..

– إذن فأنت تحبينه ؟

– حباً اكيداً صادقاً تضيق به الصدور

فابتسمت وقالت : اني أعدك بارشادك إلى مكانه فاحضري غداً إلى منزلي في شارع كاسيت .

– مع خالي ؟

– دون شك ، وسأخبرك بانباء ايفان . وأرجو أن تكوني سعيدة وإياه .

ثم نهضت فودعتها وأشارت إشارة خفية إلى موروليكس فقدم لها ذراعه وسار بها كي يوصلها إلى الباب الخارجي .

ولما اختليا بالحديقة سألها : الا تزالين على ريبك القديم ؟

– نعم ، بل ان هذا الريب قد زاد عندي فإن هذه الفتاة تشبه مدلين شبهاً غريباً وتمثل دورها أبرع تمثيل .

فاضطرب كارل وسألها : ألم تنظري كيف احمر وجهها وارتجفت حين ذكر أمامها إسم إيفان ، ثم ألم تسمعي تلك الصيحة التي خرجت من أعماق نفسها سروراً به ؟

– نعم ، ولكن ..

– ولكن ماذا ؟

– إن قلبي لم يمل إلى كرهها ، ولم أجد بعد محادثتها من الانقباض ما تجده

المرأة حين ترى مزاحمتها فيمن تهواه .

- أهذه كل براهينك ؟

- ومع ذلك فصبراً الى الغد وسوف ترى .

- وماذا تفعلين غداً ؟

- أخبرك إذا كانت هذه التي عندك مدلين أو كلوريند .

- وكيف تعرفين ؟

- ذلك سر لا أبوح به الآن ..

ثم ودعته وانصرفت ، وقد غادرته مفكراً مهموماً فلما دخل الى غرفته قال في نفسه : انها مدلين دون شك ولكن يظهر لي انها هناك .. في روسيا لم يكن لها هذا الصوت .

- ٣١ -

كانت فاسيليكا ماهرة في تركيب السموم والمخدرات فإنها أخذت هذه الصناعة عن خادمة لها شركسية وكانت الخمرة التي شربها ايفان ممزوجة بمخدر شديد صعق ايفان عند شربه وسقط صريعاً على الأرض كما تقدم .

غير انه لم يمت بل انه أصيب بسبات شديد يشبه الموت كما حدث لأنطوانيت حين أخرجها روكامبول من سجن سانت لازار بمخدر ، فإن المخدرين كانا واحداً . الا ان روكامبول جعله حبوباً وفاسيليكا جعلته سائلاً .

ولبث ايفان صريعاً ثلاثة أيام حدث في خلالها أمور كثيرة في ذلك القبو بينما كان نائماً فيه نوم الأموات .

ثم جعلت أعراض التخدر تزول تباعاً فتنبهت في البدء حاسة السمع ثم الشم ، ففتح عينيه فوجد المصباح لا يزال يضيء في موضعه من القبة .

ثم وجد الجثة البشرية لا تزال مشدودة في موضعها من الجدار .

وكانت أعضاءه لا تزال مخدرة بحيث لا يستطيع الوقوف ولكنه كان يجيل نظره فرأى ثقباً كبيراً في سقف القصر لا يخرج منه غير الظلام .

وحار في امره وقال في نفسه : من ثقب هذا الثقب وما المراد منه العلي أجد به منفذاً الى الخارج

وعاد اليه شيء من الرجاء وجعل يفتكر في ماضي أمره فذكر ان فاسيليكا وعدته باخراجه ولكنها قالت له . انه سيخرج نائماً كما دخل وها هو قداستيقظ ولا يزال في القبو ، العلها كاذبة فيما وعدت ؟

ولبث على هذه الحالة ساعتين وهو لا يستطيع الوقوف لما أصابه من التخدير ثم شعر فجأة ان قواه قد اشتدت فنهض وأسرع إلى كرسي في القبو قدوضعت تحت الثقب وحاول الصعود عليها .

ولكنه قبل أن يصعد رأى ان باب القبوفتح ودخلت منه فاسيليكا وحدها وهي تحمل مصباحاً بيدها .

فنظر اليها نظرة منكرة ولم ير بيدها ذلك المسدس وقال : أهكذا يكون وفاء الوعود ؟

فابتسمت له وقالت : طب نفساً فاني ما أتيت إلا لأفي بوعدي .

– إذن سأخرج من هنا .

فأقفلت باب القبو بسكينة وقالت له : كلا . .

– كيف هذا وما هذا المخدر الذي سقيتني اياه ؟

– انه لم يكن بد منه .

– لماذا ؟

– لثقب هذا الثقب مدة نومك .

– وما هذا الثقب ؟

– انك سترى منه مدلين ، فانظر .

ولم تكد تفوه بهذه الكلمة حتى بزغت الأنوار من ذلك الثقب .

ذلك انها ادارت لولباً في الجدار فانعكست أشعة المرائي فدهش ايفان دهشاً عظيماً ورأى حديقة المنزل بجملتها قد ظهرت لعينيه .

ثم رأى اشعة الشمس تسطع في تلك الحديقة ورأى رجلا وامرأة يتأبط كل ذراع الاخر وهما يتنزهان .

فانقبض صدره انقباضاً شديداً اذ عرف ان الرجل هو كارل موروليكس، ثم ما لبث ان عرف المرأة ايضاً وهي مدلين فاصفر وجهه وانحبس نفسه وظهرت ملامح الغضب الوحشي بين عينيه .

وكانت مدلين تبتسم وتدل ظواهرها انها سعيدة .

أما كارل فكان يظهر لايفان انه يضغط على يدها وان الاثنين يتحدثان بحديث غرام .

ثم حان الوقت كما يظهر فأخبر كارل مدلين ذاك الخبر السار عن خطبة إيفان لها كما اتفق عليه مع فاسيليكا ، ورأى ايفان من انعكاس تلك المرآة ان مدلين قد طوقت عنق كارل بذراعيها وجعلت تقبله .

فهاج ايفان هياج الضواري وصاح صيحة منكرة وعند ذاك ادارت فاسيليكا اللولب فاحتجبت الحديقة وانسدل الظلام على الثقب ولم يعد يرى الفتاة ولا الشيخ . بل رأى امامه ابنة عمه فاسيليكا تبتسم ابتسام المنتصر وتقول له كيف رأيت يا ابن عمي العزيز أكنت كاذبة فيما قلته لك ؟

فضم ايفان قبضته وقال بلهجة القانطين : لا بد لي من قتلها كي تنال جزاء الخائنين .

— كلا لا حق لك بالانتقام من امرأة لا تحبك .

— إذن كيف تنتقمين مني انت؟

فضحكت وقالت : انك مخطىء بما تتهمني به فإني لا ابغي الانتقام منك بل احاول ان اعلمك علماً قد يفيدك في مستقبل الأيام .

– كيف ذلك ؟

– بل اردت ان ابرهن لك انه حين يتدانى رجل له منزلتك ومقامك الى حب مثل هذه الفتيات فلا بد له ان يلقى ما يكره والآن فهات يدك واصفح عني كما صفحت عنك .

– ماذا تقولين اتطلقين سراحي ؟

– دون شك ولكن بشرط واحد.

– ما هو ؟

– هو انك لا تحاول ان ترى تلك الفتاة التي عبثت بك والتي ستغدو قريباً الكونتس دي موورليكس .

– سأفعل ما تريدين ولكني أحب ان اكتب لها على الأقل .

– لماذا ؟

– لأخبرها اني بت احتقرها بقدر ما كنت أحبها .

فأجابته من غير اكتراث : ليكن ما تريد .

ثم أخذت يده وقالت له : هلم بنا فاتبعني .

وفتحت باب القبو وهي تحمل مصباحاً باحدى يديها وبيد ايفان بيدها الأخرى ، وخرجت به فتبعها منقاداً انقياد الطفل الى ان بلغت به تلك الغرفة التي خسفت ارضها فيه ، ورأى في وسطها الطاولة في موضعها الأول غير انه لم يجد عليها صحون الطعام كالمرة الأولى بل وجد ادوات الكتابة .

فقالت له فاسيليكا : اجلس على هذه المائدة واكتب ما تشاء .

فأخذ إيفان القلم وكتب بيد ترتجف من الغيظ ما يأتي :

« مدلين ..

«اني اكرهك واحتقرك فلا تطمعي أن تريني بعد الان فإني مغادرباريس في هذه الساعة » .

« ايفان »

ثم أخذ الورقة ودفعها إلى فاسيليكا .

فأخذتها منه وهي تبتسم وقبل ان ينهض عن كرسيه أسرعت إلى الجدار وأدارت لولباً فيه .

وعند ذاك فتحت أرض الغرفة وهبط ذاك القسم الذي كان جالساً عليه فهوى به إلى تلك الأعماق السرية .

واستحالت هيئة فاسيليكا وظهرت عليها ملامح الحقد والانتقام ، فقالت تخاطب ذاك المنكود وهو يهوي : إنك لن تخرج من هذا السجن وسأدفنك في القبر حياً .

- ٣٢ -

لم يعد لايفان أقل مجال للريب هذه المرة بأنه بات من الهالكين .

وقد كان سقوطه سريعاً حتى انه لم يستطع ان يفوه بكلمة فانتقل فجأة من النور إلى الظلمة وشعر انه استقر على محل لين .

وكان الظلام حالكاً فلم يدر أين هو وقد حسب لأول وهلة من خسوف أرض الغرفة به انه سقط في هوة وانه سيقع فوق صخور حادة .

غير انه حين استقر بعد سقوطه اطمأن ونهض فجعل يطوف في ذاك الموضع طوف الأعمى لشدة الظلام ، ثم رأى ان نوراً قد انبعث فجأة فأجال نظراً حائراً ، في ذاك الموضع فاندهش حين رأى انه سقط في نفس القبو الذي كان فيه .

وقد رأى المصباح في موضعه من القبة والجثة في مكانها من الجدار ثم رأى ذاك الثقب الذي رأى منه مدلين في الحديقة ، فحار في أمره حيرة شديدة وقال : ما هذا الذي أراه احقيقة ما أنا فيه أم اني من الحالمين ؟

ثم هرع إلى الباب فوجده محكم الاقفال ولكنه وجد الرتاج مفتوحاً فوقف وقفة المضطرب وذكر كيف سقط وقال في نفسه :لا شك أن فاسيليكا لا تريد موتي ولكنها تريد سجني لأغراض لها .

وعندها وقف أمام الباب وجعل ينادي ابنة عمه بصوت مرتفع .

ولم يطل صياحه حتى وافته ابنة عمه وجعلت تكلمه من وراء البـــاب المقفل فقالت : اني أتيت يا ابن عمي العزيز كي أقص عليك حكاية قبل أن أودعك الوداع الأخير .

ثم ضحكت ضحك الساخر وقد برقت عيناها بأشعة الانتقام الهائل فأيقن ايفان انه قضي عليه بالموت لا محالة فاضطرب اضطراباً شديداً على بسالته لأنه لم يعلم أي موت سيموت .

أما فاسيليكا فانها عادت إلى حديثها وقالت له بلهجة المتهكم: الا ترى يا ابن عمي العزيز هذه الجثة التي استحالت إلى هيكل من العظام ؟

فقال لها باحتقار : ماذا يهمني أمرها إذاكنت لا أخشى الموت ، واي موت أخشاه بعد أن علمت بفضلك خيانة من أحب ؟

– لقد قلت الحق فإنك ما عرفت خيانة مدلين إلا بفضلي .

– اذن تعرفين ؟

– دون شك فإني أنا التي أقنعت مدلين من الزواج بكارل موررليكس .

– تباً لك من شقية .

– اصغ يا ابن عمي الجميل فإني سأقص عليك حكاية هذه الجثة .

– لا أريد أن أعرفها .

– ولكنها تفيدك

فسكت ايفان واستأنفت فاسيليكا الحديث وقالت : كان يقيم في هـذا المنزل منذ أربعين عاماً إمرأة تخون زوجها

فقبض الزوج على العاشق وصيره جثة بالية كما تراه وهو الذي اخترع تلك

الآلة التي تظهر فيها حديقة المنزل من ذاك القبو المظلم .

ثم صفقت بيديها ثلاثاً فاستنار الثقب وانعكست أشعة المراتي فنظر ايفان والعرق البارد ينصب من جبينه فرأى تلك الحديقـــة ورأى فيها مدلـين وموروليكس جالسين على بساط من الخضرة وهو آخذ يدها بين يديه يحادثهـا وينظر اليها نظرات الهيام وهي تبتسم له ابتسام الرضى .

ثم استأنفت فاسيليكا حديثها فقالت : وكانت هذا العاشق الذي ترى جثته يستطيع ان يرى تلك الزوجة الخائنة كل يوم بفضل هـذه الآلة وهي تبكيه إذ لا تعلم أين هو فظل على هذه الحال إلى ان ادركته الوفاة .

فصاح إيفان صيحة منكرة وقال : يا للهول .

فابتسمت فاسيليكا وقالت له : إن المرأة التي تكون مثـــلي يا ابن عمي العزيز إذا انتقمت بلغت بانتقامها أبعد غاية .

ولنعد الآن إلى حديثنا فإن هذا المنزل انتقلت ملكيته من قوم الى آخرين حتى وصل الى موروليكس ، فهو الان منزل مدلين وانت سترى مدلين كل يوم كما كان يرى صاحب هذه الجثة تلك المرأة وأعدك وعداً صادقاً انك ستراهـا كل يوم ما زلت في قيد الحياة .

ثم ضحكت ضحكاً عالياً وقالت : يجب ان تطمئن فاني لا أطيل عذابك وسأدعك تموت في هذا القبو من الجوع .

وعند ذاك أقفلت النافذة ورحلت ، فسمعها ايفان تقول لبيريتو : إحذر ان تطعم هذا الرجل كسرة من الخبز ولو دفع لك ثمنها ملايين فاني اقتلك شر قتل إذا خنتني فيه وأنا سأحضر كل يوم لأستوثق من طاعتك.

فقال لها بيريتو : لتثق بي سيدتي الكونتس كل الثقة فاني لا أخالف امرها في شيء ، ثم ذهب الاثنان .

أما ايفان فإنه لما وثق ان مدلين لم يعد له فيها اقل رجاء وانه لا بد له ان يموت من الجوع يئس يأساً شديداً والقى نفسه على الأرض .

وفي الأمثال السائرة ان الفرنسي يرجو إلى آخر دقيقة ، ولكن الروسي لا يعرف الرجاء متى وثق من النكبة ، وقد رأى ايفان انه سيبقى اسيراً الى ان ينقذه الموت ، وانه سيرى مدلين كل يوم إلى ان يدركه الموت ، فكبر عليه ان يرى تلك الفتاة التي أهانته وكتب اليها ذاك الكتاب الشائن وهو لا يزال يهواها .

ومرت به ساعة وهو في أشد حالة من الجوع حتى ذهب صبره واستسلم لليأس فعول على الانتحار وحاول ان يسحق رأسه بالجدار فيموت ويستريح .

ولكنه ما لبث أن عزم العزم الأكيد ومشى إلى الجدار بقدم القانط الواثق من راحة الموت حتى حدث له حادث عجيب لم يكن يخطر له في بال .

ذاك ان المصباح المعلق في قبة القبو انطفأ فجأة واسود الثقب المستنير واحتجب منظر الحديقة ومن كان فيها وبات هذا المنكود في ظلام دامس والذعر ملء قلبه ، وتوقف هنيهة عن الانتحار إذ سمع صوت حركة فوق رأسه فرفع عينيه إلى قبة القبو فرآها قد انفتحت في المكان نفسه الذي كان معلقاً فيه المصباح ثم رأى نوراً أضاء وزنبيلاً مدلى من تلك القبة وفيه رجلان

وكان احد الرجلين يحمل مصباحاً والزنبيل ينزل نزولاً بطيئاً متدرجاً حتى استقر على الأرض .

وعند ذاك خرج الرجلان من الزنبيل ولم يكن ايفان يعرف احداً منهما .

فدنا منه الذي كان بيده المصباح وقال له : اني قادم لانقاذك .

فدهش ايفان وقال : من انت ؟

– انا رجل لا تعرفه ولو ذكر لك اسمه فإني أدعى روكامبول .

ولم يكن ايفان قد سمع روكامبــول من قبل فقال له : نعم فــإني لا أعرف اسمك ولم أرك .

– إني صديق المرأة التي تحبها .

– مدلين ؟

– نعم .

فهز ايفان رأسه وقال : إني لا أحب مدلين يا سيدي بل ...

– تريد أن تقول بل هي لا تحبك ؟

فوضع ايفان يده على جبينه كالقانط من الحياة وقال له : إنك آت لإنقاذي كما تقول ولكن أية فائدة لي من الحياة دون مدلين ؟

فابتسم روكامبول وقال له : سكن روعك يا سيدي واجمع حواسك كي تستطيع ان تصغي إلي .

وكان يكلمه بلطف ويضغط عليه بنظراته الشديدة حتى اجتذبه اليه فقال له ايفان : ماذا تريد ان تقول لي وأي كلام يعزيني عما انا فيه ؟

– ألم يجعلك مورليكس من المجانين ؟

– نعم .

– ألم يدفعك الى رجل قال لك انه مسجل ، وهو طبيب خاص بمصلحة المجانين ؟

– هو ما تقول .

– ألا تذكر حين كنت ذاهباً معه في المركبة الى منزل له انك لقيت فتاة خدعت بها وحسبتها مدلين ؟

فصاح ايفان صيحــة غريبة ، كأنما غمــام الشك الكثيف قــد انقشع عن مخيلته .

فقال له روكامبول إن هذه الفتاة هي نفسها التي رأيتها منذ ساعة وحسبت أنها مدلين .

فصاح ايفان صيحة اخرى وقال · رباه ! ماذا تقول ؟

فلم يجبه روكامبول و لكنه دنا من الثقب الذي فتحته فاسيليكا في سقف القبو ونادى قائلاً : أزح الستار يا بيريتو .

وللحال استنار الثقب وعاد رسم الحديقة الى الارتسام فوق المرآة فظهرت مدلين لايفان .

وكان روكامبول واقفاً بجانبه يرى ما يراه فقال له: أمعن النظر جيداً بهذه الفتاة ألا تجد فرقاً بينها وبين مدلين الحقيقية ؟

– لم أجد فرقاً بينهما من قبل إلا بالصوت لأن صوتيهما يختلفان وكيف أستطيع ان أسمع صوتها ؟

– إنك ستسمعه في الحال ، إذ يجب أن تسرع بالخروج من هذا المكان .

– إلى اين ؟

– إلى حيث ترى مدلين الحقيقية .

فسالت دموع ايفان لفرط سروره وقال لروكامبول : من أنت أيها الرجل الملك مرسل من الله ؟

– كلا واأسفاه ولكني أخدم اللذين أحبهم .

– كيف تحبني وانا لم أرك في حياتي ؟

– وانا لم أرك ايضاً .

– إذاً انت تعرف مدلين ؟

– عرفتها منذ ثمانية أيام ولكني صديق لرجل لا بد ان تكون مدلين ذكرت لك شيئاً عنه .

– من هذا الرجل العله ميلون ؟

فأجابه ذلك الرجل الذي كان مع روكامبول في الزمبيل : نعم أنا هو يا سيدي .

ثم أخذ يده بين يديه وضغط عليها بلهف وقال : أتحبها حباً أكيداً أتجعلها سعيدة بعد الذي كابدته من العذاب ؟

– إني لا أحبها حباً بل أعبدها عبادة ، وسأجعلها من أسعد النساء في الوجود .

وعند ذلك قال روكامبول لميلون : إن الوقت ضيق الآن عن الأبحاث ، فاخلع ثيابك .

فانذهل ايفان وقال : لماذا يخلع ثيابه ؟

– كي يستبدلها بثيابك .

– لماذا ؟

– لأنه يجب ان يبقى مؤقتاً في مكانك

– في مكاني انا ؟

– دون شك . لأن فاسيليكا لا بد ان تجيء كل يوم كي تتفقدك ، وتحضر نزعك .

– ولكني لا أرضى ان يضحي هذا المسكين نفسه عني .

فابتسم روكامبول وقال له : كن مطمئناً ، لأن ميلون سوف يتقن تمثيله كل الاتقان ، فإن قامته تشبه قامتك ، وسيدير وجهه إلى الجدار كي لا تراه ويمثل دور متألم من الجوع . ولكن طعامه يحضر اليه كل يوم فلا يموت جوعاً .

– من يحضر له الطعام ؟

– بيريتو .

– هذا الشقي خادم فاسيليكا ؟

– نعم ولكنه لبث مخلصاً في خدمتها الى ان رآني فأخلص في خدمتي انا

فلا يخونني لأنهم يعلمون مقدرتي .

وبعد هنيهة وجيزة أتم ميلون خلع ملابسه فلبسها ايفان وقال روكامبول لميلون : إحذر ان تنسى شيئاً مما علمتك إياه ، فإذا سمعت وقع أقدام فأكثر من الأنين .

فقاطعه ايفان وقال : إن فاسيليكا قد تدخل إلى القبو فيفتضح الأمر .

ـ إذاً يكون دخولها من نكد حظها ، فإني اقسمت يميناً صادقة ان لا أهرق دماً بشرياً إلا حين الأضطرار الشديد فاذا انخدعت بميلون مدة خمسة أيام وهي المدة اللازمة لوقايتك ووقاية مدلين من شرها كان انخداعها من حسن حظها واذا عرفت الحقيقة قتلها حالاً بطعنة خنجر اذا لم يخنقها ميلون بيديه .

وعندها ودع روكامبول ميلون وقال له· ستخرج من هذا المنزل بعد خمسة أيام اي في يوم زواج ايفان بمدلين

ثم دخل الى زنبيل وتبعه ايفان وصفق ثلاثاً فارتفع هذا الزنبيل واحتجبا عن ميلون .

بعدها بدقيقة كان رؤكامبول مع ايفان في غرفة متسعة تشرف نوافذها على الحديقة .

وكانت تلك النوافذ مقفلة ولكن ايفان وروكامبول كانا يستطيعان ان يريا من داخلها الذين في الحديقة فرأيا مدلين وموريليكس .

فقال روكامبول لايفان : إصغ جيداً تسمع صوتها .

فأصغى ايفان هنيهة ثم انقلب وعلائم السرور بادية في وجهه وقال : رباه ! ليس هذا الصوت صوت مدلين !

ـ ألم أقل لك انهم خدعوك فإن هذه الفتاة هي كلوريند التي أخبرتك عنها والآن إتبعني .

ثم سار الإثنان من غرفة الى غرفة حتى بلغا الى الباب الخارجي ، ففتحه روكامبول بسكينة وخرج منه مع ايفان الى الشارع العام .

فما سارا هنيهة حتى رأيا مركبة واقفة للانتظار فقال له روكامبول : هلم بنا اليها واحذر ان يؤذيك الفرح .

فلما وصل ايفان الى المركبة رأى مدلين قد فتحت له يديهـــا وقالت له ودموع الفرح بين عينيها : لقد رأيتك اخيراً .

وكان سرور العاشقين لا يحيط به وصف فصعد روكامبول في اثر ايفان الى المركبة وقال للسائق : سر بنا إلى منزل الكونتس ارتوف .

- ٣٤ -

كان مورليكس أتى بكلوريند وهو يحسبها مدلين الى منزل فاسيليكا بحجة ان هذا المنزل سيكون لها بعد زواجها بايفان .

وكانت كلوريند عالمة بما سوف يحدث فكانت تمثل دورها اتقن تمثيل .

وقد عانقت كارل بلهف شديد حين أخبرها عن زواجها بايفان، وتظاهرت بالاضطراب المظيم حين رأت فاسيليكا .

ويذكر القراء ان فاسيليكا كانت وعدتها بأن تجيئها بأخبار ايفان ولكنه مضى نصف ذلك اليوم ولم تحضر .

وفي المساء بينما كان كارل مع كلوريند ينتظران فاسيليكا في شارع كاسيت إذ وردت له رسالة حملها اليه بيريتو ، فأسرع كارل الى فض الرسالة وقرأ ما يأتي :

« سيدي الفيكونت

« إنك لن تراني اليوم إذ ليس لدي أخبار حسنة أرويها للعزيزة مدلين ، ولكني أرجو ان أرد ايفان إلى الصواب وأحنن قلبه » .

(صديقتك فاسيليكا)

فاهتزت أعطافه سروراً وقال في نفسه : لا شك أن فاسيليكا من أهل الوفاء فقد وفت بوعدها .

أما كلوريند فقد تظاهرت بالانشغال وقالت له ما هذا الذي تقرأه ؟

— لا شيء .

— ولكني أراك قد اضطربت ثم اختطفت منه الرسالة فدافع دفاعاً خفيفاً وابتعدت عنه فقرأت الرسالة وقالت بصوت مختنق ، هذا ما كنت أخشاه فان قلبي يحدثني بهذا المصير .

— اني لم أفهم شيئاً من هذه الرسالة .

— أما أنا فقد فهمت كل شيء ..

— ماذا تعنين ؟

فوقفت كلوريند وهي تتكلف هيئة الحزن الشديد وقالت : لنعد إلى منزلنا ولنبرح هذا المنزل المشؤوم .

وكانت تكلمه بلهجة الآمر فما وسعه مخالفتها وخرج بها فركبا مركبة سارت بهما إلى منزل كارل حتى إذا وصلا اليه تظاهرت بالاسترسال إلى الحزن وقالت له : انك يا خالي لم تفهم شيئاً من هذه الرسالة ولكني قد فهمت كل شيء ..

— اوضحي ما تقولين .

— كلمة واحدة تغني في هذا السبيل .

— ما هي ؟

— الكونتس فاسيليكا .

— أتظنين بها السوء ؟

— كل السوء فانها لا بد أن تكون قد وشت في الوشايات الكاذبة إلى إيفان فتغير قلبه علي ..

ثم جعلت تبكي بكاء شديداً وتلتمس من كارل أن يدعها وحدها فلم يسعه

إلا الامتثال فخرج من غرفتها إلى غرفته وجعل يضحك ضحك الفائز المسرور ويقول لله درك يا فاسيليكا ما أشد دهائك .

وما لبث أن استقر في غرفته حتى دخل اليه خادمه وقال له : لقد جاء يا سيدي رجل اثناء غيابك يحمل كتاباً إلى المدموازيل مدلين وأعطاني عشرين فرنكاً مشترطاً على أن أسلم هذا الكتاب اليهـا حين تكون وحدها في المنزل فأخذت منه الكتاب ووعدته بالامتثال ولكني رأيت أن أخبرك بأمره قبل أن أفعل شيء من ذلك .

ـ حسناً فعلت ، ثم أخذ الكتاب بلهف وفضه فقرأ فيه ما يأتي.

« إذا اردت أن ترى ايفان الذي لا يزال يهواك فاهربي من هذا المنزل الذي أنت فيه » ..

وكان الكتاب خالياً من التوقيع فلما قرأه كارل قال في نفسه : هذه إحدى مكائد روكامبول ولقد صدقت فاسيليكا إذ يجب الحذر من هذا الرجل وغل يده عن أذيتنا .

أما مدلين او كلوريند فاستمرت تمثل دورها فانها بقيت في غرفتها متظاهرة بالحزن الشديد .

وفي صباح اليوم التالي كتبت فاسيليكا تقول : انها وضعت كتاب إيفان إلى مدلين في البوسطة وعهدت اليه أن يتهيأ قبل ورود الكتاب اليها ويمهد لها سبل احتمال الضربة القاضية وانها ستزوره في المساء .

وأقام كارل ينتظر ورود الكتاب بفـــارغ الصبر إلى أن دقت الساعة العاشرة فطرق الباب الخارجي ودخل موزع البريد فاخرج من حقيبته كتاباً وقال بصوت مرتفع : هوذا كتـــاب للمدموازيل مدلين ملر فاسرع أحد الخدام وأخذه منه .

وكانت كلوريند جالسة قرب النافذة المشرفة من غرفتها على الباب فرأت موزع البريد وسمعته يذكر اسمها فأسرعت إلى غرفة كارل وتناولت الكتاب

فما اوشكت أن تقرأ عنوانه حتى صاحت صيحة فرح وقالت : انه من ايفان فأني أعرف خطه ..

فأطرق كارل برأسه وقال : رباه كم تحبه ..

أما كلوريند فانها فتحت ذلك الكتاب وهو الكتاب الذي كتبه ايفان إلى مدلين حين كان يعتقد أنها خانته فلما قرأته كلوريند صاحت صيحة منكرة وسقط الكتاب من يدها وتظاهرت انها اصيبت بنوبة عصبية ثم سقطت مغمياً عليها بين يدي كارل .

فحملت إلى سريرها وأمر كارل باحضار الطبيب وجلس أمام سريرها وهو يوشك أن يجن هياماً بها واشفاقاً عليها ويكلمها باعذب الألفاظ .

وبعد حين رأت كلوريند انه قد حان لها أن تستفيق من اغمائها فاستفاقت ولكنها جعلت تقلد المصابين بالحمى فتهذي وتذكر اسم حبيبها إيفـان واسم فاسيليكا .

ثم عادت إلى صوابهـا فاخذت يد كارل وقالت له : ان كل ذلك يا خالي لم يكن إلا صنع تلك المرأة التي تدعى فاسيليكا .

ولم تكد تتم حديثها حتى ظهرت فاسيليكا أمام سريرها فنظرت اليهـا كلوريند نظرة هائلة ملؤها الحقد .

غير ان فاسيليكا لم تكترث لظواهر حقدها وقالت لها بلطف : لا يحق لك أن تتهميني فاننا بهذه النكبة سواء وكلانا فقد ايفان على انك لو تمعنت لعلمت انك أنت التي جنيت على نفسك باعتمادك على لص شقي يدعى روكامبول .

فمدت كلورند يدها إلى فاسيليكا وقالت لها : لقد علمت الآن كل شيء فاصفحي عني واخبريني بما تعلمينه عن حقيقة أمر ايفان فأين هو ؟

— انه سافر .

— إلى بطرسبرج ؟

— نعم .

فأنت كلوريند أنين الموجع ، وسكنت سكوتاً هائلاً ، ثم أظهرت باشارة انها تحب أن تبقى وحدها، فخرج كارل والكونتس وتركاها منفردة كا أرادت

فلما اختليا قال لها : إنني خائف أشد الخوف .

– مما تخاف ؟

– من ان يقتلها الحزن :

فنظرت اليه فاسيليكا نظرة اشفاق وقالت له : لقد بالغت بغرامك أبعد غاية فهل تتزوجها ؟

– من لي بزواجها إذا كانت ترضى فإنها غاية مطمعي .

فأجابته بلهجة المتهكم : كن مطمئناً فإنها ترضى .

ثم ودعته وخرجت الى المركبة التي كانت تنتظرها على البـاب الخارجي وفيها بيريتو .

فقالت له وهي تبتسم : انهم يهزأون بكارل دي موروليكس كا يهزأون بالأطفال فإن هذه الفتاة ليست مدلين بل هي شبيهتها كلوريند وقـد تمكن روكامبول من العبث به كا يشاء ، والآن فاصغ الي فإني أريد أن أقصر مـدة نزع ايفان حذراً من أن ينقذه روكامبول فاحذر أن تعطيه طعاماً .

– إذن فهو يموت بعد ثلاثة أيام .

– وبعد خمسة أيام نبرح باريس وليعبث روكامبول بموروليكس كا يشاء .

ثم أمرت السائق بالمسير دون ان ترى ابتسام بيريتو الذي كان يريد به : ان روكامبول لا يعبث بموروليكس وحده بل بك ايضاً .

- ٣٥ -

بعد ذلك بيومين كان كارل موركيكس خارجاً من منزله إلى شارع سانت جرمين .

وكانت علائم الهرم ظاهرة بين ثنايا وجهه حتى ليقال انه قد بلغ مـــائة عام لفرط ما لقيه في هذين اليومين من الهم والخوف على كلوريند التي يحسبها مدلين .

وقد تبدلت طباع هذا القاتل السفاك ، واستحالت أخلاق ذلك المجرم الجسور ، فأصبح فاتر الهمة ، منخلع القلب ، متراخي العزيمة ، لا يشغل باله غير ذلك الحب الذي ملأ قلبه الفاسد ، فتمكن بفضل ما كانت تجربه كلوريند من أساليب المكر والحيلة كي تهيج مكامن غرامه فانها كانت تارة تستسلم للقضاء وتذعن لأحكامه ، وتارة تسترسل إلى اليأس فتقلبه بين الخوف والرجاء ،وتثير عواصف الحب في قلبه حتى أصبح لا يطمع بغير مدلين ، ولا يكترث بتلك الأموال التي اختلسها على فرط حرسه على المال .

وكانت كلوريند قد لزمت فراشها يومين وفي صباح اليوم الثالث غادرت سريرها ودخلت فجأة إلى غرفة كارل .

وكانت صفراء الوجه كئيبة ، ولكنها كانت ساكتة هادئة فقالت له : اني احب ان اختلي بك لأباحثك في شأن خطير .

فاضطرب الفيكونت اضطراباً عظيماً ووقف أمامها موقف الخاشعين .

فقالت : لقد عرفت يا خالي العزيز ان كل ما اتهمت به كان حقيقة فانك قتلت امي بالسم ، وسرقت ثروتي وثروة اخي انطوانيت ، ولكني أسامحك باسم أمي المائتة ، وباسم اخي وباسمي على شرط ان ترد لنا تلك الثروة .

وكأنما ذكر الثروة أعاد اليه مطامعه الأشعبية ، فاتقدت عيناه وحاول ان يجيب ، غير ان كلوريند حالت دون قصده فاستأنفت حديثها وقالت: إن قلبي قد انسحق وبت شاعرة بدنو الأجل فان احتقار ايفان لي وتخليه عني قد قتلاني ، ولكني احب قبل الموت ان أضمن مستقبل اختي ومستقبل الرجل الذي تحبه وهو ابن أخيك أجينور .

وأنا أعيد عليك ما قلته وهو ان الضربة قد أصابت قلبي ، فلا رجاء لي بالحياة ، ولا أطمع بالعيش اكثر من ثلاثة أشهر ، لذلك فاني استطيع أن أضحي تضحية أخيرة .

وأنت تعلم انه يوجد أشقياء يعلمون أسرار أسرتنا الهائلة ، فأحب ان أدفع عنك شرهم وأصون عائلتنا من تلك الوصمة ولا أستطيع ذلك إلا بتلك التضحية .

ثم نظرت اليه محدقة وقالت له بثبات : أتريد ان تتزوجني ؟

فصاح كارل صيحة فرح وركع امامها وجعل يقبل يديها .

أما كلوريند فلم تكترث لمظاهره وقالت : اني إذا أصبحت امرأتك لا يستطيع احد بعد ذلك ان يتهمك بقتل امي .

فسالت الدموع من عيني كارل وقال : لا شك انك من الملائكة الأطهار .

– ولكن يجب ان تستحق ذلك العفو الذي منحتك اياه مع شقيقتي .

– تكلمي أيتها الحبيبة ومري بما تشائين .

– اني أريد ان ترد جميع الأموال ..

– لمك ؟

– لي ولأختي ، فاذهب إلى اخيك فيليب واعقد معه عقد زواجي وزواج اختي انطوانيت .

– اني مستعد لاعطائك كل شيء .

– كلا اني لا أريد مال فاني سأموت ولا حاجة لي بالمال .

فضمها كارل إلى صدره وقال : انت تموتين ولا تزالين في أول شوط من حلبة الشباب .

– إذ لم أمت فاني أحب ان أعيش فقيرة وان تكون فقيراً مثلي .

– إذن لمن تريدين أن أرجع هذه الثروة ؟

– لأخي ولا أرضى بزواجك إلا هذه الشروط .

فلم يجد بداً من الامتثال وذهب صاغراً لمقابلة أخيه .

ولم يكن هذا العناء قاصراً على كارل بل انه شمل أخاه والد أجينور فان تقريع ضميره قد انهك قواه حتى انقطع عن الناس ولزم منزله، لا يقابل أحداً ولا يخرج منه للاجتماع بأحد .

ولما وصل كارل إلى منزل أخيه أسرع اليه الخادم وقال له : اسرع يا سيدي فانك قد لا تعرف أخاك لفرط ما قد تغير .

فذعر كارل وسأله : ويحك ما أصاب أخي العله لا يزال مريضاً .

– كلا ، ولكنه بات شبيهاً بالمجانين ، فهو لا يأكل ولا يشرب ولا ينام ، ولا يخرج من المنزل ولا يسمح لأحد أن يراه إلا ولده أجينور، ولكن أجينور لم يحضر اليه منذ شهر .

فلم يجب كارل الخادم بشيء وتبعه إلى الغرفة التي يقيم فيها أخوه فانذهل حين رآه ، إذ لقيه أبيض الشعر وقد أحنى ظهره الهم .

فلم يحفل والد اجينور بانذهال أخيه ، ولم يرد تحيته بل قال له : لماذا اتيت الي العلك ندمت وعلمت ان يد الله قد انقضت علينا ؟

فارتعش كارل وقال له : ماذا تعني بما تقول ؟

– أعني ان ولدي يهرب مني ويحتقرني .

فجلس كارل بازائه وقال له: نعم ان الله كان أخذ بعقابك غير ان ملائكته شفعت بك اليه لتوبتك الصادقة ، وأنا يا أخي قد أصبحت مثلك من التائبين وأتيت اسألك المساعدة .

- لماذا ؟
- لنصلح خطأنا ونمحو ذنوبنا السابقة .
- أتقول الحق ؟
- نعم ، إذ يجب علينا أن نرد لهاتين اليتيمتين أموالها التي سرقناها .
ففرح فيليب فرحاً شديداً وقال له : أتوافق على رد الثروة للاختين ؟
- نعم فان احداهما تحب ابنك اجينور وستصبح امرأته .
- ولدي أنا ؟
- نعم ..
- الثانية ؟
فتلعثم لسان كارل وجعل يردد لفظة الثانية دون أن يجسر على القول .
فسأله والد أجينور : والثانية ما أصابها وما بالك لا تجيب ؟
- إنها توافق ..
- على ماذا ؟
فأطرق كارل برأسه استحياء وقال : إنها توافق على الزواج بي .
فصاح والد أجينور صيحة ذعر وقال : تتزوجك أنت وأنت خالها ؟
- أواه ان حبها تملك قلبي حتى أوشكت أن أجن بهواها ، فلا تلمني يا أخي وارسل من يدعو لنا المسجل ، إذ يجب علينا أن نرد الثروة لأصحابها قبل كل شيء .
فوضع فيليب يده على جبينه وقال : رباه ماذا أسمع العلي من الحالمين !
فأجابه صوت رجل ظهر على عتبة الباب : كلا يا أبي فانك في اليقظة .
فالتفت فيليب ورأى ولده أجينور فأسرع اليه وقد جال الدمع في عينيه لسروره وقال له وهو يعانقه : انت ولدي عدت الي ؟
- نعم أنا هو وقد عدت اليك بخصوص الأختين .

عندما يشبع النمر من فريسته يلحس بلسانه شفتيه ويذهب إلى عرينه فيقيم فيه نائماً مطمئناً ناعماً إلى ان تنتهي مدة هضمه بسلام .

وهكذا فعلت فاسيليكا التي لا تفرق بشيء من أخلاقها عن تلك الضواري المفترسة ، فانها طربت لانتصارها كما يطرب اولئك الظلام الشرقيون الأقدمون الذين كانوا يجلسون في مقاعدهم فيأتيهم الخدم في صباح كل يوم برؤوس أعدائهم مقطوعة فينظرون اليها دون ان يظهر عليهم أثر من آثار الاشفاق .

وقد أقامت فاسيليكا ثلاثة أيام في منزلها ، إذ لم تكن تكترث لباريس ولا يهمها أمر موروليكس ، فكانت تقول عنه ان روكامبول قد عبث بهذا الأبله ، وغاية ما همني أن لا يعبث ثم ، ثم تمددت فوق مقعدها وجعلت تدخن وتهضم انتقامها كما يهضم النمر الفريسة .

وكان بيريتو يجيء مرتين كل يوم اليها بالتقارير عن حالة ايفان فكان يبالغ في إظهار ما يقاسيه من الآلام بغية ارضائها ، ويقص عليها ما يكابده من العذاب في اول عهده بالجوع الى حين تمكنه منه فيثير منها عواطف الانتقام ، وتفرح فرحاً وحشياً لبلوغها أقصى أمانيها من الانتقام .

وقد جاءها ليلة فقالت له : منذ كم ساعة يقيم الأسير في القبو ؟

- منذ سبعين ساعة .

- كم بقي له دون طعام ؟

- نحو ثمانين ساعة ..

- إذن فقد مات .

فاضطرب بيريتو وخاف إذ وافق على موته ان تحاول ان تراه بعد الموت فقال : كلا يا سيدتي انه لم يمت بعد ولكنه في حالة النزاع .

ولم يكد بيريتو يقول هذا القول حتى أبرقت عيناها بأشعة الفرح وقالت ما أجمل هذا المنظر يا بيريتو وما أحلى الانتقام ، فهلم بنـا اني أحب ان أراه بين أنياب الموت .

فارتعش بيريتو وعلم ان حيلته لم تفده ، وان مجادلة هـذه المرأة محال إذ لا يثنيها شيء عما تريد .

وخرجت فاسيليكا فخرج في أثرها وبعد نصف ساعة وصل الاثنـان إلى ذلك المنزل الذي حفرت فيه فاسيليكا قبر ايفان .

وكان بيريتو اصفر الوجه يضطرب اضطراباً شديداً غير ان فاسيليكا كانت منشغلة بلذة انتقامها غير ملاحظة اضطرابه .

فلما وصلا إلى مدخل سلم القبو قالت: انر المصباح ،فأخذ عوداً من الكبريت وحك به الحائط التماساً للنور فلاحظت فاسيليكا ان يده كانت ترتجف .

ثم أضاء المصباح وتقدمها في السلم المؤدية الى القبو فلاحظت فـاسيليكا ان قدميه كانتا تضطربان فداخلها الريب بوفائه فوضعت يدها على صدرها افتقاداً لخنجرها وقالت : حسناً سوف نرى .

واستمر بيريتو في نزوله وهي تتبعه دون ان تسمع حساً إلى ان وصلت الى آخر درجة من السلم فسمعت انيناً مزعجاً .

فوقفت واصغت اصغائاً تاماً فعلمت ان الأنين الذي تسمعه شديد لا يدع على النزع فوضعت يدها على قبضة خنجرها وقد تمكن منها الريب ومشت في اثر بيريتو . ولما وصلا الى الباب انقطع صوت الأسير وعاد بيريتو إلى فـاسيليكا وقال لها : اظن انه قد مات .

– أتظن ؟

– بل أؤكد فإن صوته قد انقطع

– إذاً إفتح الباب .
– ولكن يا سيدتي ...
– إفتح .
وكانت تتكلم بلهجة السيادة فلم يسع بيريتو مخالفتها ففتح الباب .

وعند ذلك أخذت فاسيليكا منه المصباح فحملته بيدها اليسرى ويدها اليمنى على قبضة خنجرها وجعلت تبحث في ذلك القبو .

وكان ميلون ، الذي كانت تعتقد انه ايفان ، منطرحاً على الأرض وهو حابس أنفاسه .

فلما دنت منه بمصباحها اضطرب بيريتو اضطراباً شديداً وقال في نفسه : لم يعد لي بد من الامتثال لروكامبول وخنق هذه المرأة .

غير ان فاسيليكا كانت أسرع منه ، فإنها علمت لأول نظرة ان هذا الرجل غير ايفان فقالت : يا للخيانة ! وانقضت بخنجرها على بيريتو فأغمدته في صدره .

فسقط بيريتو قتيلاً مضرجاً بدمائه . ولم يقل غير جملة واحدة وهي : إلي يا ميلون !

وكان المصباح قد سقط من يد فاسيليكا فانطفأ ، ونهض ميلون يتعقبها . غير ان الظلام كان حالكاً فلم يهتد اليها ، وجعل يسير في الجهة التي خرج منها صوتها .

ولا بد ان يدرك القراء ان الاتفاق كان تاماً بين بيريتو وأسيره منذ ثلاثة أيام ، فكان بيريتو عندما يثق بأن فاسيليكا غير قادمة الى المنزل يخرج ميلون من القبو فينام فوق سرير ناعم ، بحيث عرف مداخل المنزل ومخارجه .

فلما طعنت فاسيليكا بيريتو تلك الطعنة القاتلة ، ورأت ان المصباح قد انطفأ أسرعت الى الخروج من القبو وخنجرها يقطر دماً بيدها ، فأسرع ميلون

إلى إدراكها وضغط عليها ضغطة أوشكت ان تقتلها فصاحت صياح الألم ولكنها تمكنت من التخلص منه وطعنته بخنجرها طعنة لم تعلم اين وقعت منه لاشتداد الظلام وأركنت الى الفرار .

فصاح ميلون حاقداً متألماً واقتفى أثرها راكضاً وراءها فوق درجات سلم القبو التي صبغت بدمائه ، فأدركها عند آخر درجة من درجاته ، وأمسك طرف ثوبها .

فارتدت اليه وطعنته طعنـــة اخرى ، ثم أفلتت منه ، وقد تمزق ثوبها وانـــدفعت تجري في الردهة . واندفع في أثرهـــا حتى أدركها في آخر الردهة حيث تبدد ظلام القبو وملأ تلك الردهـــة ضوء النهار وهجم عليهـــا هجوم الأسود .

وكانت فاسيليكا قد أصابته بجرحين في كتفه وساعده ، فلما رأت انهـــا لا مناص لها منه التصقت بالجدار وقالت في نفسها: إذا لم أطعنه الطعنة القاضية هذه المرة هلكت إذ يخنقني لا محالة .

وكان ميلون قد تألم ألماً شديداً من جراحه فهجم عليها وهو يقول: ان الرئيس أمرني بقتلك ولا بد لك من الموت .

وطعنته طعنة ثالثة وصاح ايضاً ميلون صيحة ألم ولكنه لم يسقط لأن خنجر فاسيليكا أصاب أضلاعه فحالت دون دخوله الى القلب .

واستأنف الكرة عليها ، وضغط عليها ضغطاً قوياً حتى سقط خنجرها من يـــدها ، فألقاهـــا على الأرض ووضع ركبتـــه فوق صدرها . ثم التقـــط الخنجر وأشهره عليها ، فرأتـــه فاسيليكا يلمع فوق رأسهـــا ، وأيقنت أنها من الهالكين .

وكان دم ميلون يتدفق من جراحه عليها فخضب ملابسها وقال لها : تأهبي للموت ، لقد أمر الرئيس ان تموتي .

وكانت فاسيليكا قـــد تلاشت قوتها . ولو فقدت رشدها في ذلك

الحين لهلكت دون شك ، ولكن قريحتها الجهنمية لم تخمد ، فقالت لهـذا الرجل السـاذج القلب : أقتلـني إذا أردت ، ولكنـك إذا قتلتني لا تعرف شيئاً .

فتوقف ميلون عن طعنها وجعـل ينظر اليها نظر السائل فأسرعت فاسيليكا الى استئناف الكلام فقالت إني قتلت بيريتو ولا يوجد الآن أحد في هذا المنزل ثم اني الآن في قبضتك ولم يكن لي من الدفاع غير هذا الخنجر الذي جردتني منه وتسلحت به .

فقاطعها ميلون قائلاً : إنك إذا أردت ان تصلي وتستغفري الله فـلا أمنعك ، ولكني أقسم لك انك ستموتين بعد الاستغفار لأن الرئيس يريـد أن تموتي .

— اليس هو روكامبول الذي تلقبه باسم الرئيس ؟

— هو بعينه .

— إذاً اقتلني لأني أنتقم لموتي بالموت .

فاضطرب ميلون اضطراباً شديداً لبساطة قلبه وإشفاقه على روكامبول حتى انه نهض عن فاسيليكا فنهضت في أثره .

غير أن الخنجر لا يزال في يد ميلون ولا تزال حياتها في يده .

فقالت له فاسيليكا : الست أنت الذي يدعونه ميلون ؟

— نعم .

— أأنت مخلص لروكامبول ؟

— كل الاخلاص .

— إذاً اقتلني بخنجرك لأن روكامبول يقتل بمثل هذا الخنجر .

فهز ميلون رأسه وقال إنك تهزئين بي لأني لا أصدق ما تقولين .

— سيان عندي .

فاضطرب ، ثم كشفت عن صدرها وقالت بملء الثبات : أضرب .

ولما رأته يتردد قالت له: إذاً اصبر واصغ الى ما أقول وأنت مخير بعد ذلك بقتلي او الابقاء علي .

وكانت الدماء لا تزال تقطر من جراحه الثلاثة ، فكان يشبه ثوراً هارباً من المجزر فوقف أمام الباب كي يمنعها من الفرار ، وقال لها : تكلمي .

– إني لا أكره روكامبول ولكني أكره ايفان .

– إننا أنقذناه وأصبح آمناً انتقامك .

– أعرف ذلك . ولكن روكامبول عرض نفسه بانقاذه لأشد من ذلك الخطر .

– كلا لا خطر عليه لأني سوف أنقذه

– سوف ترى انك منخدع

وكانت فاسيليكا وجمالها وعدم اكتراثها للموت وخوفه على روكامبول ، قد أثر به تأثيراً عظيماً فاغتنمت فاسيليكا فرصة اضطرابه وقالت له . اني اشتري منك حياتي التي هي الآن في قبضتك بحياة روكامبول إذا كنت تحبه كما تقول .

فقال ميلون بملء البساطة : أحق ما تقولين وان حياة روكامبول معرضة للخطر .؟

– إذا مت أنا مات هو دون شك . والآن إصغ إلي لأني قبل قدومي إلى هذا المنزل كنت مشككة في بيريتو ، ومتوقعة تلك الخيانـة ، فأتيت إلى هنا للتحقيق .

وانه يوجد رجل يحبني حباً شديداً وله اتصال بروكامبول وإذا لم أعد اليه بعد ساعة قتله غدراً حسب اتفاقي معه .

فخاف ميلون خوفاً شديداً ولكنه تجلد وقال لها : من يضمن لي انك تقولين الحقيقة ؟

– أتريد برهاناً على صدق ما أقول ؟
– دون شك .

– هوذا قطعة حبل أمامك في هذه الردهة ، واربط بها يدي ورجلي كي لا أهرب وسد فمي بمنـديل كي لا أصيح ثم اذهب واحضر مركبة واحملني اليهـا لأذهب وإياك الى ذلك المكان الذي سيلقى فيه روكامبول حتفـه إذا قتلتني .

فسقط ميلون في هذا الفخ وقال لها : لا حاجة الى تقييدك ، وهلم معي لأني كنت في السجن ولا أخشى الرجوع اليه ، وسيري أمـامي . ولكن إحذري أن تبدر منك بادرة تدل على الرغبة بالنجاة لأني أغمد خنجري بين كتفيك .

– ليكن ما تريد .

ثم سارت أمامه من تلك الردهة الى القـاعة ، وأصلحت ما أخل من نظام شعرها .

ثم نظرت إلى ميلون وقالت له : إن هيئتك تشبه هيئة الجزار وهذا وشاح بيريتو أمامك إتشح به ستراً لآثار الدماء .

واتشح ميلون به وأمرها ان تسير أمامه فسارت واقتفى أثرها .

وكان ميلون يقول في نفسه : لقد نزف مني كثير من الدماء ولكني لا أزال قوياً أستطيع الصبر الى ان ادرك روكامبول .

ولما خرجا الى الشارع ، تأبط ميلون ذراعها حذراً من فرارهـا ، وسار وإياها .

ولما شعرت فاسيليكا انه يمشي مشية السكارى لما نزف من دمائه ، أسرعت في مشيتها حتى رأت مركبة فاستوقفتها وصعدت وإياه اليها ثم قالت للسائق: سر بنا الى الشانزليزيه .

ولما سارت المركبة شعر ميلون بدوار في رأسه ونظرت فاسيليكا إلى وجهه

ورأته قد اصفر ، فسرت سروراً لا يوصف. غير ان ميلون كان لا يزال قابضاً على خنجره .

- ٣٧ -

فقال لها : إلى أين أنت ذاهبة ؟

- إلى الشانزليزيه .

- غير ان الرئيس غير مقيم هناك .

- ولكننا سنذهب من الشانزليزيه الى شارع اونوريه .

وكانت فاسيليكا تقول هذا القول بغية كسب الزمن . غير ان ميلون انخدع بأقوالها ، وحسب أنها تعرف أحد المنزلين اللذين يقيم فيهما روكامبول لأن أحدهما كان في شارع اونوريه والآخر في شارع سرسنس ، وقال لها : حسناً فلنسر اليه .

وكانت فاسيليكا تنظر اليه من حين إلى آخر مراقبة له ، فكانت ترى دماءه تسيل ، وكلما سالت زاد اصفرار وجهه ، حتى رأت ان العرق ينصب من جبينه فابتسمت وقالت له بلطف : أأنت شديد الاخلاص لروكامبول ؟

- دون شك .

- لماذا ؟

- لأنه صديقي وأخي ومنقذي .

- إذاً أنت تكره كل من يكرهه .

- دون ريب .

- واللذين يكرهونه ؟

– أسحقهم كما أسحق الزجاج .

وابتسمت الطف ابتسام وقالت له : ولكني لا أكره روكامبـــول بل إني معجبة به كل الاعجاب .

– إنك تعجبين به ولماذا ؟

– لقد عرفت أفكارك فإنك تقول في نفسك كيف لا أكره روكامبول وانا متفقة مع أعدائه .

– هو ما تقولين .

– لماذا يحب ايفان وانا أكرهه ؟

– وأنت لماذا تكرهين ايفان ؟

فقالت بلهجة حزن ذلك كان خطيبي فخدعني وخانني ولو علمت كم كنت أحبه لعذرتني وأشفقت علي .

وتنهد ميلون لسلامة قلبه ولم يدر كيف يجيب .

واستأنفت الحديث قائلة : إني أعلم حق العلم انك انت وروكامبول تحميان تلك الفتاه التي يهواها ايفان .

– حبذا لو كنت تعرفينها انها من أجمل النساء .

وتحولت تلك النمرة المفترسة الى امرأة وسالت دمعة من عينيها حن لها ميلون ثم تنهدت تنهداً طويلاً قائلة : لقد حاربت في هذا المعترك ففشلت وأنا الآن أصفح عن ايفان .

ثم جعلت تبكي .

فأشفق عليها ميلون إشفاقاً شديداً ولم يعد يفتكر بنفسه وبتلك الدماء التي كانت تسيل من جراحه فتضعف قواه .

فقالت فاسيليكا : إني صفحت عنه كل الصفح ، وسأبرح باريس هذه الليلة وأعود الى بطرسبرج . لأني إذا كنت قد صفحت عن ايفان لا يجب أن أحضر عرسه .

وعندها وضع ميلون يده فوق جبينه فسألته : ما بالك ؟

ـ لا أدري . إني أشعر ان الأرض تدور بي وان عيني لا تفتحان ... رباه ! ماذا أصابني ؟

ثم أطبق عينيه وسقط مغمياً عليه قرب فاسيليكا ، لفرط ما نزف من دمائه .

وابتسمت فاسيليكا ابتسام الظافر وقالت لقد تعودت هذا الاغماء والآن فلأغتنم الفرصة .

ثم أرخت ستائر المركبة وأمرت السائق ان يقف ، فخرجت من المركبة وأعطت السائق ٢٠ فرنكاًقائلة له : سر بهذا الرجل وهو خادمي الى قصري في شارع بيبينيار واني أدعى الكونتس ارتوف .

فسارت المركبة في طريق منزل باكارا ، وسارت فاسيليكا في طريق منزلها وهي تعض شفتيها من الغيظ وتقول : سوف ترى يا روكامبول لمن يكون الفوز ، لأني لا أريد حياة ايفان الآن بل حياتك ، لأن كرهي له قد تحول اليك .

بعد ذلك بعشرين دقيقة كانت فاسيليكا سائرة الى منزلها على مهل وقد عادت اليها سكينتها وكانت الأنظار تحوم عليها لجمالها الباهر .

حتى إذا اوشكت ان تصل الى منزلها رأت مركبة جميلة مرت بها ، والتفتت اليها وارتعشت لأنها رأت فيها رجلاً في عنفوان الشباب ومعه طفل جميل . فعرفت ان الرجل هو الفيكونت فابيان زوج بلانش دي شمري التي طالما دعاها روكامبول أخته ، والطفل ولده الذي طلبت الى كارل موروليكس أن يختطفه .

فابتسمت ابتساماً هائلا وقالت : هنا سيكون انتقامي من روكامبول وسأضربه باختطاف هذا الغلام الضربة القاضية

ثم أسرعت في سيرها حتى بلغت منزلها ولم يبق لديها من تعتمد عليه غير

بطرس السائق وهو ذلك الرجل الذي تنكر بزي ايفان في منزل باكارا فجلدته جلداً مؤلماً كما تقدم .

وكان شديد الحقد عليها لا يحلم إلا بالانتقام منها ، فلما دخلت فاسيليكا الى منزلها دعته وقالت : ألا تزال ظمآن الى الانتقام من باكارا ؟

– لا يهنأ لي عيش يا سيدتي بغير هذا الانتقام .

– إذاً إركب جواداً ومر به في جهات الشانزليزيه حتى ترى مركبة جميلة يجرها جوادان أشهبان وفيها رجل وطفل فاقتفي اثر تلك المركبة وراقب من فيها أشد المراقبة ثم عد لتخبرني بما رأيت .

وامتثل بطرس وخرج صادعاً بأمر فاسيليكا .

– ٣٨ –

كان ثلاثة مجتمعين في مجلس الكونتس أرتوف ، وهم باكارا وروكامبول وايفان .

وقد أخبروا ذلك الشاب الروسي بجميع مـا مضى من الحوادث منذ شهر ، وعن علائق اجينور خطيب انظوانيت بعمه كارل ، الذي يضطهد الأختين .

وكان هذا الاجتماع في الوقت نفسه الذي علمت فيه فاسيليكا بخيانة بيريتو وقتلته بخنجرها .

فقال ايفان بعد ان وقف على جميع هذه الحوادث : أي عقـــاب أعددتم لكارل موررليكس ؟

إبتسم روكامبول وقال : ان عقابه يبدأ يوم يرى مدلين الحقيقية مستندة على ذراعك في الكنيسة حين حفلة الزواج .

– ماذا يحدث له ؟

– انه يموت من قهره .

فهز إيفان رأسه إظهاراً لريبه فقالت باكارا : إن هذا العقاب سيقضي عليه لا محالة فانه شغف بمدلين شغفاً عجيباً قتل في فؤاده الأثيم كل عاطفة خلا الغرام فان هذا السفاك الذي طالما سفك دماء طاهرة للمحافظة على ثروته المختلسة تخلى عن جميع تلك الثروة باشارة من التي يعتقد انها مدلين ولم يبق لنفسه غير ايراد ٢٠ الف فرنك لو شئنا أيضاً لحرمناه اياها

– وكيف تخلى عن هذا المال ؟

– بصك قانوني كتب أمام المسجل تنازل فيه عن جميع ماله للأختين .

– ومتى عرف الحقيقة يلغي هذا الصك ؟

فقال روكامبول : انه سيعرفها بشكل لا يدع له عقلاً لاسترجاع المال وسترى .

وفيما يقول هذا القول فتح الباب ودخل اجينور .

وكان أصفر الوجه ولكن علائم السرور بادية في عينيه فقال : لقد قضي الأمر ، ثم أخرج من جيبه محفظة محشوة بالأوراق المالية وعرض تلك الأوراق على أنظار الحاضرين وقال : انظروا فأن الحب قد سلب عقله فدفعه إلى ارجاع جميع المال وهذه الأوراق المالية هي كل ما يملك وهذه صكوك الأراضي والقصور التي كان يمتلكها في بوهيميا وهنغاريا وفرنسا وقد تحولت بجملتها إلى الاختين .

فقالت باكارا . هل أعددت معدات الزواج ؟

– نعم فقد اتفقت مع عمي على أن يكون زواجي قبل زواجه باسبوع .

– وأنا قد ذهبت إلى السفارة الروسية وأعددت معدات زواج ايفان بعد الاتفاق مع رجال السفارة على كتمان زواجه بحيث لا يعلم به أحد إلا ساعة عقده .

فقال ايفان وهو يختلج سروراً : متى يكون هذا اليوم السعيد يا سيدتي؟
– غداً يكون الزواج المدني في السفارة وبعد غد يعقد لك على مدلين في الكنيسة الروسية .
– وبعد ذلك أنسافر في الحال ؟
– دون شك ، ثم ابتسمت وقالت له : إلى أين تريد السفر ؟
– لا أعلم فاني اسافر إلى حيث تريد مدلين .
– ولماذا لا تبقى في باريس ؟

فقطب روكامبول حاجبيه وقال: كلا، اني لا أشير عليها بالبقاء في باريس.
– لماذا ؟
قال وهو يضطرب : اني أخشى عليها من فاسيليكا .
– لا اخالها قادرة على الأذية بعد اليوم ومن يعلم ما كان من امرها فقد تكون الآن في عداد الهالكين .

فاضطرب ايفان وقال : كيف ذلك ؟
– ذلك انه صدر الأمر إلى الرجل الذي اقام في القبو مقامك بخنقها .

ولم تلبث أن تتم كلامها حتى دخل خادم عليه هيئة الذعر وقال : سيدتي دخلت مركبة الى ردهة القصر وفيها رجل أشيب مدرج بالدماء وقد قال السائق ان امرأة كانت معه في المركبة ادعت انهـا الكونتس ارتوف وأمرته أن يحضر الى هنا .

فذعر الجميع وأسرعت باكارا ومن كان في مجلسها فكان السابق الى المركبة روكامبول فرأى ميلون مغمياً عليه وهو يشبه الأموات .

فحمله وأخرجه من المركبة وسار به الى المنزل وهو يقول لباكارا . لا حاجة للبحث عن ضاربه فانها فاسيليكا وهي أشد منا دهاء دون شك .

ولم يكن بين جراح ميلون جرح قاتل وكان روكامبول خبيراً بالجراحة فعالج ميلون حتى استفاق من اغمائه وفتح عينيه فلما رأى روكامبول واقفاً فوق رأسه

تنهد تنهد المنفرج وقال : الحمد لله فقد زال عنك الخطر .

فدهش روكامبول وقال : ويحك أي خطر تعني ؟

– خطر الموت الذي لم يكن لك مناص منه .

– يظهر انك محموم ومصاب بالهذيان .

– كلا ، فان فاسيليكا قد أكدت لي ما أقول .

– وماذا قالت لك ؟

– اني إذا قتلتها أكون قد قتلتك في الوقت نفسه .

– وكيف برهنت لك على ذلك ؟

– بقولها انك في قبضة رجالها وانهم اذا لم يروها في ساعة معينة قتلوك .

ثم قص عليه جميع ما حدث له معها الى أن أخبره كيف انه ركع فوق صدرها وأشهر عليها الخنجر .

– ألم تغمده في عنقها ؟

– كدت أفعل لو لم تقل لي ...

– اني معرض لخطر الموت ؟

– نعم ، ألم يكن ذلك حقيقة ؟

فهز برأسه وقال : لا يوجد غير حقيقة واحدة وهي انك أبله وستبقى على بلاهتك ما حييت

فبكى ميلون وقال : أرجوك العفو يا سيـــدي فلم يكن انخداعي إلا لاشفاقي عليك .

فلم يجبه روكامبول والتفت الى باكارا وقال : لا بد لنا من العودة لما كنا فيه وتجديد العراك .

فما اجابته باكارا لانها كانت ساهية مفكرة أما روكامبول فقد اتقدت عيناه باشمة خاطر سريع فخرج من ذلك المنزل وهو يقول : سنعود الى القتال وسوف ترى لمن يكن النصر .

يذكر القراء إن فاسيليكا أرسلت بطرس السائق ليقتفي أثر الفيكونت فابيان اليها في الليل يخبرها بما رآه فقال :

ذهبت ممتطياً جوادي فقطعت به الأرض نهباً حتى بلغت غابة بولونيـا فرأيت هناك تلك المركبة وعرفتها من جيادها ورأيت الرجل والغلام .

فطافت المركبة حول بحيرة الغابة ثم وقفت في أرمنوفيل فنزل منها الوالد والولد، فشرب الوالد كأس خمر وأكل الولد قطعة من الحلوى، ثم ركبا المركبة وذهبا إلى شارع الأمبراطورة ، ثم عطفت بهما إلى شارع برسبورج ووقفت عند باب معمل لصنع المركبات .

فترجلت عن جوادي حين رأيتهما دخلا إلى ذلك المعمل ودخلت في أثرهما ووقفت بعيداً وقبعتي بيدي وقفة الاحترام .

وسمعت صاحب المعمل الذي لم ينتبه الي يقول للفيكونت : إن مركبة سيدتي الفيكونتس قد تم صنعها ، ولكني لا أستطيع أن أريك إياها لأنها في معمل آخر .

-- ومتى تحضرها من ذاك المعمل ؟

-- غداً .

-- إذن سأعود غداً مع الفيكونتس .

ثم رجع يريد الانصراف .

وعند ذاك رآني صاحب المعمل فقال لي : ماذا تريد .

ووقف الفيكونت أيضاً ينظر الي ، فأجبته : اني روسي ومهنتي سائـق مركبات وحداد ، وأنا الآن أروض الخيول لحساب تجارها الى أن أوفق إلى الخدمة في أحد المنازل ، وقـــد أتيت راجياً أن تذكرني إذا طلب اليك سائق خبير .

فقال لي صاحب المعمل : عد إلي غداً .

وبينما أنا أحاول الذهاب ناداني الفيكونت وقال لي : إذا كنت ماهراً في صناعتك كما تقول فاذهب إلى قصري غداً فقد أجعلك في خدمتي .

ثم ذكر لي اسمه وأرشدني إلى منزله .

ولما انصرف الفيكونت قال لي صاحب المعمل : وأنا أيضاً محتاج إلى حداد فإذا لم ترق لك خدمة الفيكونت كنت في خدمتي .

فأنا الآن أستطيع الدخول إلى اصطبل الفيكونت ومعمل المركبات .

فسرت فاسيليكا بتقرير خادمها وقالت له :متى تحضر مدام اسمول لمشاهدة مركبتها في المعمل ؟

– غداً .

– إذن ادخل منذ صباح غد في خدمة صاحب المعمل وسأرشدك صباح غد إلى ما ينبغي أن تعمل .

فانحنى بطرس وخرج ولكنها دعته قبل أن يصل إلى الباب وقالت له : انك ذكي الفؤاد فلا يجدر المبالغة بالتكتم مع مثلك ، فقل لي الآن الا تكره الكونتس ؟

– كرهاً لا يوصف .

– لا يجب أن يكون حقدك قاصراً عليها ، بل على الماجور أفاتار أيضاً فإنه السبب في ما أصابك من جلد السياط .

– أتريدين أن أقتله ؟

– كلا ، إذ لم يحن الوقت بعد ، ولكن يجب اختطـــاف الطفل الذي رأيته اليوم .

– ابن الفيكونت اسمول ؟

– هو بعينه ، فإننا إذا اختطفناه نفعل بالكونتس أرتوف والماجور أفاتار كل ما نريد .

فانحنى بطرس وقال : لقد فهمت كل شيء ، وسأفعل ما تريدين .

ثم تركها وانصرف فاتكأت فاسيليكا على مقعد طويل وجعلت تفكر بروكامبول وإيفان ، لأنها باتت تكره روكامبول أكثر مما تكره إيفان .

وفيما هي تجهد فكرها في استنباط وسائل الانتقام إذ سمعت ان الباب قد فتح وأقفل ، والتفتت فرأت رجلا مشهراً خنجره بيده ، وكان هذا الرجل روكامبول .

فذعرت فاسيليكا ذعراً شديداً غير ان روكامبول وضع سبابته على شفتيه انذاراً لها بعدم الصياح ، ثم دنا منها وقال . انك علمت مني يا سيدتي ما لم يعلمه سواك ، وعرفت اني لا أحجم في امر من الأمور ، فإذا كنت تصغين الي بسكينة أقسمت لك أن أخرج دون أن أمسك بسوء ، وإذا استغثت ، أو جاء اليك أحد خدمك ، قتلتك قبل أن يصل .

وكانت فاسيليكا وضعت لخنجرها على منضدة حين دخولها الى المنزل فأخذه روكامبول حين رآها تنظر اليه وضعه في جيبه وقال لها : لنتحدث الآن .

ثم جلس بازائها على المقعد .

فنظرت اليه نظر الأفعى وقالت له : ماذا تريد مني ؟

فأخذ روكامبول يدها بيده وقال لها .

– إن الاتفاق على البغض يجمع بين القلوب

– البغض .. ومن عساك تكره ؟

– لا أكرهك أنت ..

– إذن من تكره ؟

فضحك روكامبول ضحكة هائلة تعلمها من أستاذه القديم أندريا وقال : أتسألينني من أكره

دون شك ، إذ كيف يتسنى لي أن أعرف دخائل قلبك ؟

فاستمر روكامبول على ضحكه وقال : كيف يخطر في بالك ان روكامبول

يسالم باكارا باخلاص .

فصاحت فاسيليكا صيحة دهش وجعلت تنظر اليه نظر إعجاب .

- ٤٠ -

وكان روكامبول لابساً أفخر الملابس يمثل بهيئته لصوص الروايات الذين يميل اليهم بعض النساء ،فوقف أمام فاسيليكا وقال لها بصوت حنون: أتأذنين لي يا سيدتي أن أوضح لك أفكاري ؟

فأشارت له فاسيليكا بالجلوس على كرسي أمامها وقالت له : تكلم .

غير ان روكامبول أبى الجلوس وقال لها وهو يبتسم : لقد ذكروا لك يا سيدتي حكايتي مرة في منزل أرتوف فلا فائدة من إعادتها .

ولقد ألجأتني الحوادث إلى التصدي لك في سبيل أغراضك فكنا عدوين ، وكنت مكرهاً على هذا العداء فاني أقمت في سجن طولون أعوامـــاً كثيرة صادفت في خلالها رجلاً ..

فقاطعته فاسيليكا وقالت : أعرف ان هذا الرجل يدعى ميلون وانه يحب مدلين كابنته ، وانك تحب ميلون وتريد أن تجعلها سعيدة آمنة .

– نعم ، لقد فعلت ما أستطيع فعله وقد أتيت الآن أقترح عليك الصلح.

– علي أنا ؟

– نعم يا سيدتي ..

– بأي شروط ؟

فتظاهر روكامبول انه يتردد بالجواب ثم قال : أتظنين يا سيدتي ان عذاب عشرة أعوام في سجن طولون من الأمور التي تنسى ، ألا تعلمين ان باكارا هي التي أرسلتني إلى ذاك السجن ؟

– وأنت تكرهها ؟
– كرهاً شديداً لا مبلغ لوصفه ..
– أتظن اني أكرهها أنا أيضاً ؟
– ربما .

فنظرت اليه فاسيليكا محدقة كأنها تريد أن تخترق أعماق نفسه وتكشف الحجاب عن أسراره ثم قالت له إذا كنت تريد محالفتي فأنا أمد لك يدي على شروط المساواة فهل تسلمني ايفان ؟

فاطرق روكامبول برأسه وقال : مستحيل يا سيدتي .

– لماذا ألعل حبك لميلون أشد من كرهك لباكارا ؟
– كلا ..
– ألعلك تخشى أن تسحق قلب مدلين إذا حرمها الزواج ممن تحب ؟
– كلا ..
– إذاً أوضح معمياتك .

وكانت تبتسم له فجلس روكامبول ، ولكنه لم يجلس على الكرسي التي قدمتها له ، بل جلس ملاصقاً لها المقعد فلم تظهر استياء مما أبداه من الجسارة ولم تأنف من مجالسة لص هارب من السجن بل لبثت تبسم .

فقال لها روكامبول : انك تسأليني لما لا أسلمك إيفان ؟
– نعم فاني أعجب لذلك بعد أن صرحت بعدم اهتمامك بمدلين .
– لأني أخشى أن يكون باقياً في قلبك بقية من حبه .
– وماذا يهمك حبي إياه ؟

– ألا تعلمين ان المفسدة تجلب المفسدة ، وان أهل الشر يتحابون وان امرأة هائلة مثلك تجذب بمغناطيس أخلاقها الفاسدة رجلاً هائلاً مثلي .
– أحق ما تقول ؟
– كل الحق فان من يخاصم امرأة مثلك يجب أن يعاقب بحبها .

ثم أخذ يدها بين يديه دون أن تعترضه وقال : انك امرأة عظيمة النفس ذكية الفؤاد ، ومن كان مثلك لا تخفاه خافية فاني ما أحبك إلا حين كرهي لك ، وقد كنت أمرت ميلون في صباح اليوم أن يقتلك ، ولكنه عاد إلي مضرجاً بدمه وعلمت انك لا تزالين في قيد الحياة فكاد الفرح يقتلني فاني أحبك لأن بـ ين جنبيك قلب شيطان ، وأنت في صورة الملائكة الأطهار ، ولأنك فاسدة الأخلاق شديدة الولوع بالآثام فلا تعجبي لغرامي فان الطيور على على أشكالها تقع .

ثم اندفع روكامبول بحديثه مظهراً لها غرامه بـأرق العبارات وقد ركع أمامها وجعل يقبل يديها .

وقد طالما مثل روكامبول هذه الأدوار فيما مضى من أيام شبابه غير انه ما برع مرة براعته هذه المرة فانه كان يظهر التدله بغرامها ويتنهد تنهد الوالهين ويكلمها بلغة العيون كلمات حلوة لا تفصح عنها الألسنة .

كل ذلك وفاسيليكا تنظر اليه مصغية باسمة إلى أن قالت له : أتعلم إنك جميل تروق لعيون النساء ؟

فأظهر روكامبول سروراً لا يوصف وقال لها :

— ما أعذب هذه الكلمات من فمك الجميل فهلم بنا أيتها الحبيبة الحسناء نبرح باريس إلى مكان يحجبنا عن العيون .

فقالت بصوت المؤنب : ولماذا الرحيل ألا يمكن أن تحبني وأحبك في باريس ؟

كلا أيتها الحبيبة فاني أغار عليك من كل عين في عاصمة العواصم وأريد أن نكون منفردين نتناجى الغرام فلا يكدر خلوتنا رقيب .

— وأنا أريد ما تريد .

— إذن هلمي بنا أيتها الحبيبة ولنسافر فان الوقت غير فسيح

ولم يكد يتم كلامه حتى أفلتت فاسيليكا من يديه وضحكت ضحكاً

شديداً وقالت : إن من يسمع لهجة غرامك يحسبك صادقاً ولكني لا أصدق هذا الغرام .

فتراجع روكامبول مجفلاً وقال لها . لماذا لا تصدقين ؟

– انك لا تحبني أنا أيها العاشق الجميل وأنا سأذكر لك إسم التي تحبها .

فتحسب روكامبول انها تعني فاندا فقال لها : انك واهمة فـاني لا أحب هذه المرأة .

– إني لا أتـكلم عن فاندا .

– إذن عمن تتكلمين ؟

– عن مدلين فان حبك إياها عقاب الك وهو نصف انتقامي منك وانك لم تأتني وتظهر لي غرامك الكاذب إلا لتخدعني فانك ترهبني بقدر ما تكرهني .

فاصفر وجه روكامبول وقال : ان قوتك فوق مـا كنت أحسبه ولكن قوتك هذه سبب ضعفك .

– أتظن ؟

– بل اؤكد لأني أصبحت مكرهاً على قتلك .

ثم هجم عليها بخنجره ، ورأت فاسيليكا ان برق عينيه أشد لمعاناً من بريق سلاحه فوجف قلبها من الرعب وقالت له : رحماك .

– أتطلبين رحمة من روكامبول أم تحسبين اني ميلون ؟

فاصطكت اسنانها من الخوف وسقطت جاثية على ركبتيها وضمت يديها كما يفعل المتوسل فقالت : رحماك اني أرجع عن انتقامي وأسافر .. في هـــذا المساء . بل الآن ، فارحمني .

– كلا فلا رحمة لك بقلبي ولكني لا أريد أن تموتي دون توبة استغفار فأملك خمس دقائق للصلات إلا إذا استغثت فاني أقتلك على الفور .

ثم خطرله خاطر سريع وقال : اني لا أحب سفك الدماء فهل تريدين الحياة فوثبت واقفة بعد أن كانت راكعة وقالت : نعم نعم فاشترط علي ما تشاء

— يجب ان تموتي خمسة أيام .

فنظرت اليه منذهلة وقالت : كيف ذلك ؟

— نعم فانه في مدة هذه الأيام الخمسة يتزوج إيفان مدلين فيبرح باريس ولا يخشيانك فيجب أن تكوني ميتة في هذه الأيام .

— لا أفهم ما تقول ..

وكان في اصبعه خاتم فأراها اياه وقال لها: انك تعرفين قصتي فلا بد أن تكوني عرفت كيف انقذت انطوانيت من سجن سانت لازار .

— نعم ..

— اذن ابتلعي حبة سوداء من تلك الحبوب المخزونة في فص الخاتم أو أغمد هذا الخنجر في صدرك .

ـ تباً لك من شيطان فانك تفعل ما تقول . ثم اخذت الحبة من يـــده وابلعتها فما استقرت في جوفها حتى صعقت وسقطت صريعة على الأرض .

فتنهد روكامبول تنهد المنفرج وقال . انها لا تضايقني بعد الآن .

ثم فتح الباب وخرج من ذلك المنزل كما دخل اليه دون أن يراه احد .

— ٤١ —

يوجد في باريس قهوة تدعى قهوة مارينيان يختلف اليها الناس على اختلاف طبقاتهم .

وكان من الذين يترددون عليها شاب مصور بارع في مهنته وهو عـــاشق كلوريند التي تمثل دور مدلين .

وكان هذا الشاب كثير الزهو تبدو عليه ملامح البساطة والهناء وله كثير من المحبين ، ولكن أخلاقه تبدلت فجأة فأصبح كثير الهم والتفكير لا يرى

إلا كئيباً منقبضاً غير انه لم يخلف عادته وظل يتردد كل يوم على تلك القهوة في ساعة معينة فينهمك بمطالعة الجرائد تلطيفاً لهمه دون ان يكلم احداً من الناس.

فبينما هو جالس ذات يوم في تلك القهوة إذ دخل اليها رجل لا يتجـــاوز الخامسة والثلاثين من عمره، ولكنه كان مرتدياً بملابس غاية في البساطة وسلامة الذوق تدل على أنه من كبار القوم .

فمشى هذا الرجل حتى وقف أمام المصور وحياه فالتفت اليه المصور ورد تحيته دون اكتراث فقال له الرجل : أسألك العفو يا سيدي وأرجوك أن تأذن لي بالاختلاء معك .

فنظر اليه المصور نظرة المبهوت وقال له. اني لم أتشرف بمعرفتك ياسيدي.

- اني قادم اليك من قبل كلوريند ، وأنا أدعى المـــاجور أفاتار الملك حسبتها خائنة ؟

فاضطرب المصور وقال بل هي شر من ذلك .

- إنك منخدع بظنونك ، فـــإن كلوريند لا تزال تهواك . أتعلم أين هي الآن ؟

فتنهد المصور وقال واأسفاه فـإني أذهب في كل صباح وفي كل مساء إلى منزلها فيقولون لي انها مسافرة وانهم لا يعلمون مقرها

- إنهم خدعوك ايضاً .

- أين هي الآن ؟

- في باريس أتريد أن تراها اليوم ؟

- أرجوك أن لا تمزح يا سيدي فإني القى من بعادها عناء لا يوصف .

- اني لا أمزح على الاطلاق ، وقد قلت لك انك ستراها اليوم وأزيد انها سترجع اليك فلا تفارقك بعد الآن .

فوقف المصور ولكنه كان يترنح من فرحه ترنح السكارى . فأخـــذ روكامبول يده وقال : هلم معي.

– ولكن إلى أين تذهب بي ؟
– اتبعني وسوف ترى .
وخرج الاثنان من القهوة وفيما هما سائران لقي الماجور طبيباً من أصدقـائه فسلم عليه وسأله : من أين آت ؟
فأجابه كنت قادماً من عيادة احد المرضى .
فابتسم المصور وقال له على سبيل المزاج · مسكين هذا الرجل .
فرد الطبيب : ليس المريض رجلا بل امرأة
– إذن مسكينة هذه المرأة .
– إنك تمزح ولكنك لو عرفت علة تلك المرأة التي أعالجهـا لتخليت عن المزاح وسألتني عنها الأسئلة الكثيرة .
– كيف ذلك ؟
– لأني أعالج امرأة بارعة الجمال وهي روسية تدعى الكونتس فاسيليكا وقدأصيبت بمرض غريب فتراخت أعضاؤها وانحلت قواها وأطبقت عيناها .
فقاطعه المصور وقال قل انها ماتت ..
– كلا إنها لم تمت بعد ، إلا ان عينيها كانتا مطبقتين ، فـإن قلبها ينبض ولسانها يتكلم ، وقد تعذر عليها تحريك أعضاء جسمها ، ولكنها تتمتم بشفتيها كلمات لا يسمعها إلا من يضع إذنه فوق فمها .
– إنها تهذو دون شك ؟
– كلا بل إنها تتكلم كلام العاقلين .
– كم بقي لها في هذه الحالة ؟
– أربعة أيام .
– أترجو لها الشفاء ؟
– نعم . ولكنها لا تشفى في زمن قريب .
– كيف أصيبت بهذا المرض ؟

– ذلك ما لم أعلمه الى الآن وقد اشترك معي في فحصها اثنان من مشاهير الأطباء ولم يعلما شيئاً .

– ولكنها تتكلم كما تقولين ؟

– هي ايضاً لا تعلم شيئاً ولكنها تقول انها اصيبت فجأة بهذا الداء .

وهنا افترق عنهما الطبيب فسار في شأنه ، وسار روكامبول والمصور في شأنيهما .

– ٤٢ –

كان ذلك اليوم موعد زفاف انطوانيت الى اجينور ، وكان ينبغي أن يحضره كارل موروليكس ومدلين امرأته المستقبلة

وكان كارل قد أخنى الغرام على قلبه فبات كالمعتوه لا يخالف امراً لكلوريند التي يحسب أنها ابنة اخته مدلين .

وقد مثلت تلك الفتاة دورها أبدع تمثيل ، وعبثت كل العبث بهذا الشيخ الذي بيضت شعره الأيام ، وسودت وجهه الآثام . فبدأت تمثل دور اليأس لعدم حضور ايفان ، ثم دور السلوان ، ثم أخذت تمثل دور الميل إلى ذلك الشيخ الولهان ، حتى أصبح لا عقل له ولا رجاء إلا بزواج من يحب .

وقد كان دفع جميع أمواله الى اجينور ، وهي أموال الاختين . فلما بلغت منه كلوريند ما تريد بفضل إرشاد روكامبول ، رضيت بزواجه واشترطت ان يكون زواجها بعد مرور أسبوع على عرس انطوانيت .

وقد تقدم لنا القول ان ذلك اليوم كان موعد زفاف انطوانيت ، فلبست

كلوريند خير الملابس وقالت لكارل : هلم بنا الآن الى الكنيسة ، فقد آن الأوان .

فامتثل خاضعاً وركب وإياها مركبة ، فسارت تنهب بهما الأرض إلى الكنيسة .

وكان كارل مفكراً مهموماً فقالت له وهي تتظاهر بالانشغال عليه : ما بالك مفكراً ؟

فأطرق برأسه وقال : إني أفكر بهذا الأسبوع ، وأود لو يسلبه الله من عمري .

فابتسمت له مدلين وجعلت تؤانسه حتى وصلا الى الكنيسة .

وكان اجينور أراد ان يكون زواجه بسيطاً ولم يدع غير القليل من خواص الأصدقاء . فكان أبوه راكعاً قرب الهيكل يصلي ويبكي وبالقرب منه امرأتان تبكيان أيضاً ولكن بكاء فرح فإنهما كانتا مربية انطوانيت ومرتون رفيقتها في السجن .

ولم يكن غير هؤلاء إلا شهود العريس وهم من أصدقائه .

فدخل كارل وكلوريند ووقفا مع المصلين ، دون أن يكترث بهما أحد .

وتمت حفلة القران بملء البساطة ، وعانق اجينور أباه ثم مد يده الى عمه وودعه ببرود ونظرت انطوانيت الى كلوريند فحيتها تحية بسيطة .

ثم خرج العروسان وركبا مركبة كانت تنتظرهما خارج الكنيسة وسافرا بها الى إحدى قرى باريس ليقضيا فيها شهر العسل .

وعند ذلك تأبطت كلوريند ذراع كارل ، وسارت به الى مركبتها ، وتبعها كارل منقاداً إنقياد الطفل ، وهو ينظر اليها نظرات الإعجاب والهيام .

ولما صارا في المركبة قال لها : إلى أين نسير ؟

– الى الكنيسة الروسية .

فانذهل كارل وقال : أي شأن لنا في هذه الكنيسة ؟

– اننا نذهب لحضور عقد زواج آخر .

– زواج من؟

– سوف ترى .

– ولكني أحب ان أعرف من هذا الذي نحضر زواجه .

– هو ايفان بونتيف ؟

وكان حتى كارل ان يعلم كل شيء ويفطن للحيلة ، ولكنه قد تدله فلم يبق الغرام على شيء من صوابـه ، وخشي أن تستاء لرفضه فقـال لها : ليكن ما تريدين .

فانطلقت المركبة بأمر كلوريند تسابق الرياح إلى الكنيسة الروسية .

ووجدا ردهتها غاصة بالمركبات والكنيسة غاصة بالناس. فنزلا من المركبة وأخذته كلوريند بيده وهي تقول . تعال لقد بدأت الحفلة .

فتبعها ودخلا ولكنه ما لبث ان دخل حتى جعل يضطرب . وكان العروسان لم يقفا بعد في موقف الاكليل ولكن الذي دفع كارل الى هذا الاضطراب هما رجلان وامرأة رآهما وقوفاً عند مدخل الكنيسة .

وكان أحد الرجلين ميلون ذلك الخادم الأمين الذي أرسله كارل إلى سجن طولون وثانيها الماجور افاتار أي روكامبول . وأمـــا المرأة فقد عرفها كارل ايضاً واقشعر وارتعش لأنها كانت فاندا رفيقة روكامبول التي اغتصب من يديها مدلين في روسيا وجعل يقول في نفسه : من هذان اللذان سيتزوجان في هذه الكنيسة وأية علاقة لهؤلاء الثلاثة بهما ؟

وعند ذلك فتح باب قرب الهيكل ودخل منه العروسان ، فصاح كارل صيحة هائلة دوت لها الكنيسة واضطرب جميع من كان فيها ؟

ذلك ان ايفان بونتيف ومدلين الحقيقية دخـلا وركعا أمام الكاهن ليعقد

زواجها .

ونظر كارل الى كلوريند فرآها تضحك ضحك بنات الهوى وتقول : كيف رأيت ايها الخال العزيز ؟

فسقط كارل على الأرض صريعاً وأطبقت عيناه وأسرع بعض الحاضرين وحملوه خارج الكنيسة وبينهم روكامبول .

وكانت كلوريند قد تبعتهم ايضاً والمصور واقفاً ينتظرها فلما رأى ما كان قال لها هلم بنا الآن .

فنظرت كلوريند الى روكامبول كأنها تستشيره بالنظر فدنا من المصور وقال له : أرجوك ان تمهلنا أيضاً يوماً واحداً .

وكان المصور قد عرف الحقيقة ولم يعد يمل الانتظار ، فانحنى أمام روكامبول إشارة الى الرضى .

وذهبت كلوريند بكارل موروليكس وهو لا حراك به الى منزله .

وبعد ساعة من هذه الحادثة بينما ايفان ومدلين كانا يخرجان من الكنيسة بعد انتهاء حفلة الاكليل كانت فاندا ماسكة بيدها روكامبول وكانت يده باردة كأيدي الأموات فقالت له : إنك لم تضرب كارل موروليكس ، بل إنك ضربت نفسك .

فزجرها روكامبول وتجاسر على أن ينظر الى ذينك الزوجين السعيدين نظرة وداع فما وقع نظره على مدلين حتى ترقرق الدمع في عينيه وقال بصوت يتهدج : رباه ان رحمتك شديدة ولكن عقابك أشد .

فجذبته فاندا الى الخارج وقالت له : هلم معي ايها الرئيس والصديق بل أيها الزوج المعبود تعال معي انا عبدة ما حييت .

ثم اخترقت به الجموع إلى خارج الكنيسة ، وأدركها ميلون وقال لروكامبول وهو يبكي : إن الأختين سعيدتان الآن ولم يعد لهما بي حاجة وأنا لك ما حييت .

ثم خرج الثلاثة وساروا بين صفوف الناس حتى انفسحت لهم الطريق وتواروا عن الأنظار .

- ٤٣ -

ولنعد الآن الى فاسيليكا فإن هذه الفتاة الوحشية الأخلاق التي لم تستطع بطرسبرج والمدينة الحديثة نزع تلك البذور الهمجية منها كانت لا تزال مصعقة بالمخدر الذي سقاها إياه روكامبول .

وكان تخديرها غريباً كما وصفه طبيبها للمصور لأن جسمها كان ساكناً سكون الموت ولا حياة فيها إلا للفكر .

وبقيت يومين لا أثر عليها من آثار الحياة حتى ذعر خادمها بطرس ونادى الطبيب وكاد يحكم بموتها لو لم يسمع دقات خفيفة في قلبها .

وفي اليوم الثالث من مرضها بينما كان بطرس واقفاً أمام سريرها ينظر اليها ذهل انذهالاً عجيباً لأنه رآها قد فتحت شفتيها وسمعها تقول : لا أزال في قيد الحياة .

فصاح بطرس صيحة فرح ، ودنا منها فقالت له : إني أسمع كل ما يقال أمامي .

وكان الطبيب واقفاً أيضاً أمامها فقال لها : العلك شربت يا سيدتي سماً هندياً ؟

ولم تجب فاسيليكا بشيء .

واستأنف الطبيب السؤال قائلاً لها: إذا كنت أعرف نوع السم الذي شربته أشفيك في الحال !

— لا أعلم .

ثم رحل الطبيب وهو يتخبط في دياجي الشك وبقي بطرس بقربها فقالت له : أنحن وحدنا الآن يا بطرس ؟

– نعم يا سيدتي .

– إذاً إصغ إلى ما أقول لأني سأبقى على الحالة التي تراني عليها خمسة او ستة أيام تتصرف فيها بالنيابة عني حسب تعليماتي .

ثم أصدرت اليه أوامرها .

وفي اليوم الخامس لإصابتها جاءها بطرس يخبرها بما فعل وقال : إن ايفان ومدلين يا سيدتي قد تزوجا أمس .

واضطربت نفسها وبذلت مجهوداً كبيراً كي تتحرك او تفتح عينيها فلم تستطع وقالت : وبعد ذلك ؟

– ثم سافرا على اثر الزواج وكذلك اجينور وانطوانيت تزوجا قبلهما بساعة وسافرا ايضاً إلى جهة لم أعلمها .

– وماذا صنع الفيكونت كارل ؟

– إنه سقط منصعقاً حينما رأى مدلين وايفان ؟

– ألم يمت ؟

– كلا لأن كلوريند ذهبت به الى منزله وأقامت معه فيه ولما استفاق من إغمائه هاج هياجاً شديداً وعاوده داء الغرام ولكنه الآن هائم بكلوريند لشبهها بمدلين وهو يطلب ان يتزوجها وهي تأبى هذا الزواج .

– إذاً سيموت قهراً .

– ذلك لا ريب فيه .

– وروكامبول ؟

– إنه يتأهب للسفر وستصحبه فاندا الروسية وميلون .

– يجب ان تبذل كل ما لديك من الجهد لتحول دون هذا السفر .

– كيف ذلك ؟

ـ باختطاف الغلام .

ـ ذلك ما كنت أنويه ولكني كنت أنتظر أوامرك .

ـ ألا تزال عند صاحب معمل المركبات ؟

ـ نعم إني أصنع عنده الآن مركبة أتماهل فيها كسباً للزمن .

ـ هل أتت إمرأة فابيان لترى المركبة التي أوصي زوجها عليها ؟

ـ نعم أتت مرتين .

ـ وهل كان ابنها معها ؟

ـ نعم يا سيدتي وقد خطر لزوجها ان يصنع مركبة على الطراز الروسي وسيصنعها له صاحب المعمـــل دون شك ، ولكن الصعوبة بايجاد جياد صالحة لجرها .

ـ يجب أخذ جيادي لأنها مدربة أحسن تدريب .

ـ العل سيدتي نسيت ان امرأة فابيان تعرف باكارا ؟

ـ كلا ، ولكني سأرشدك إلى طريقـة شراء جيادي ، دون أن يعلم فابيان انها لي .

ـ إذاً إني أدخل في خدمته بصفة سائق ، ولا أسهل علي عند ذلك من اختطاف الولد .

ـ إني أسمع دقات الساعة وأعد الساعات ولكن حسابي قد ضاع ، ولا أستطيع التمييز بين الليل والنهار لأني لا أستطيع فتح عيني. قل لي كم بقي لي في هذه الحالة ؟

ـ ستة أيام يا سيدتي .

ـ ولكن روكامبول قال إني سأستفيق بعد خمسة أيام

ـ ربما كان منخدعاً. ولكني سمعت الطبيب يحادث طبيبك الآخر في هذا الصباح ويقول له ان ما أصاب هذه السيدة يندر حدوثه في أوروبا ، ولكني أعرف سماً هندياً يدعى كيرال يصاب شاربه بما أصيبت به هـــذه السيدة .

وإذا كانت السيدة فاسيليكا قد شربت منه فإني أشفيها في الحال ، ولكني أخشى ان أعالجها بدواء هذا السم لأنها إذا لم تكن قد شربتـه وعالجتها بهذا فإنه يقتلها .

وكانت فاسيليكا قـــد عرفت من روكامبول نوع السم الذي شربته فسرت وقالت للخادم : ألم يقل الطبيب شيئاً عن الدواء ؟

– نعم يا سيدتي . لقد قال ان دواء هذا السم الحقن تحت الجلد بالستركنين وهو أشد السموم كما تعلمين .

وسكتت فـاسيليكا هنيهة ، ثم قالت : لا بـأس من المخاطرة بالحيـاة حين إرادة الانتقام . واعلم يا بطرس انك ستكون طبيبي ، ولا أريـــد طبيباً سواك .

– أنا أكون طبيبك يا سيدتي ؟

– نعم ، ويجب ان تحضر كميـة من الستركنين ، وحقنة خاصـة للحقن تحت الجلد .

– ولكن . . سيدتي .

– يجب تنفيذ أمري في الحال . والآن قل لي متى يأتي الطبيب ؟

– في هذا المساء .

– وفي أية ساعة نحن الآن ؟

– في الظهر .

– إذاً إذهب وعد في الحال .

ومرت ساعة أقامت فاسيليكا فيها تعد وسائل الانتقام من روكامبول ، لأن كل قواها العقلية كانت حية خلافاً لأعضـــائها ، فإنها كانت مائتة لا تتحرك .

وبعد ساعة عاد اليها بطرس فقالت له : أأحضرت الآلة والدواء ؟

– نعم يا سيدتي .

– إذاً إبدأ العمل .

فاضطرب بطرس وقال : ولكني أخشى ان أقتلك .

– قلت لك إمتثل لأمري واعمل ما قلته لك .

– سأمتثل لما تريدين .

– إبدأ الآن بنزع الثياب عن ساعدي وبعد ان تفرغ من ذلك أدخل شيئاً من الدواء بأحد العروق في ساعدي .

فتردد بطرس هنيهة ولكنه لم يجد بدأمن الامتثال فغمس المشراط بالستركنين وضرب به عرقاً أشارت اليه فاسيليكا .

ولم تمض هنيهة وجيزة حتى حدث لها نفس ما حدث لأنطوانيت حين أحياها روكامبول .

ولكن تأثير الدواء بفاسيليكا كان أسرع من تأثيره بأنطوانيت ، ففتحت عينيها فجأة ثم جعل جسمها ينتفض تباعاً وقلبها ينبض نبضاً منتظماً وقد تلون خداها وذهبت عنها آثار الاصفرار .

وبعد ربع ساعة ، وثبت من سريرها الى الأرض وثوب النمر ، وقد عادت اليها جميع قواها ، فجعلت تصطك أسنانها من الغيظ وتقول : روكامبول .

– ٤٤ –

عرف القراء مما تقدم ان الفيكونت فابيان أوصى معمل المركبات على مركبة روسية ضخمة وان بطرس كان يشتغل فيها .

وقد تم صنع هذه المركبة بعد اسبوع وأرسلت اليه للتجربة وكان بطرس قد دخل في خدمته كسائق واشترى ثلاث جياد روسية من فاسيليكا .

ثم دنا اليوم الذي عينوه لتجربة تلك المركبة فشد بطرس الجياد الثلاثة اليها وجلس في مجلس السائق .

ولم يكن فيها غير فابيان وابنه ، فأحب الولد ان يجلس بجانب السائق وخرجت أمه بمركبة وحدها تسير في أثر المركبة الضخمة .

وكان بطرس قد مرن تلك الجياد الروسية فصار بها على ما يريد ، وطاف في تلك الجهات المجاورة لمنزل الفيكونت فابيـــان ، حتى إذا استوثق فابيان من تمرين تلك الجياد استوقف الســائق وخرج من تلك المركبة إلى مركبة إمرأته .

أما ابنه فإنه أبى إلا أن يظل بجانب السائق ، وكان فابيان قد اطمأن عليه لما رآه من حسن تمرين الجياد ومهارة السائق ، فتركه بقربه . وكانت المركبة الروسية تسير سيراً يناسب سرعة المركبة التي كان راكباً فيهـا فابيان وامرأته ، والغلام يلتفت كل حين إلى ورائه فيحيي والديه بألطف ابتســام .

ولكن امرأة فابيان كانت كئيبة فقال لها زوجها . ماذا أصــابك وما هذا الاكتئاب ؟

– إني خائفة .

– من أي شيء تخافين ؟

– لا أدري ولكن نفسي منقبضة من يوم أمس وقلبي ينذرني بمصاب .

فنظر اليها بملء الحنان وقال لها : لا تسترسلي الى هذه الهواجس ايتها الحبيبة فليس في سماء حياتنا غمامة تكدر صفاءها .

فقالت له وعيونها محدقة بابنها لو كنت تعلم ؟

– ماذا حدث ؟

– إني رأيت رجلاً أصفر الوجه ينظر إلي وعيناه مغرورقتان بالدموع .

واضطرب فابيان عند هذه الكلمات اضطراباً أنساه ولده والمركبة التي

كانت مسرعة حتى انها سبقت مركبته مسافة غير بعيدة .

أما امرأته فإنها ضغطت على يده وقالت له بصوت مضطرب : إصغ إلي يا فابيان إني بكيت زمناً طويلاً وكابدت عناء شديداً دون ان يعلم أحد منكم سبب شقائي .

– ماذا تعنين بهذا القول ؟

– أعني اني أعرف كل شيء .

إصفر وجه فابيان واستأنفت امرأته الحديث فقالت : إن هذا الذي كتب لي من الهند،وهو فيها مع امرأته منذ عشرة أعوام،هذا الرجل هو أخي الحقيقي وليس هو ذلك الرجل الذي كان يدعي انه أخي وكنت أحبه كما تحب الأخت أخاها وباركني قبل الموت .

– بربك كفى .

– كلا إني أعرف كل شيء وان هذا الرجل الذي كنت أحسبه أخي كان لصاً شقياً مزوراً سفاكاً وانك انت والكونتس ارتوف وجميع الأصدقاء موهتم علي وكتمتم الحقيقة دون جدوى،وإني عرفت هذه الحقيقة وعلمت ان هذا الرجل يدعى روكامبول .

وقد رأيته منذ ساعة واقفاً في نافذة منزل تشرف على حديقتنا وهو ينظر إلي ويبكي .

– بلانش كفى كفى !

ولكنها بدلاً من ان تجيبه صاحت صيحة هائلة ، فذعر زوجها ونظر فإذا بالمركبة التي يقودها بطرس وفيها ولده قد جمحت جيادها وجعلت تسير سيراً لا انتظام فيه .

ورأى فابيان ان بطرس بات عاجزاً عن كبح جماح الجياد وان ولده يصيح صياح الذعر ويستنجد بأمه وأبيه فطار فؤاده ذعرا وصرخ بسائق مركبته قائلاً أقتل الجياد وأدرك المركبة لأنها سوف تسقط في البحيرة .

ولكن اين لجيادهما ان تدرك تلك الجياد الروسية فسبقتها بمراحل وطبقت أصوات استغاثة تلك الأم جوانب الفضاء .

واندفعت تلك المركبة الروسيـة تمرق مروق السهم ، حتى توارت عن أبصار فابيان وامرأته ، والناس ينظرون إلى هذين الأبوين المنكودين حيارى آسفين .

- ٤٥ -

واليك بيان ما حدث لتلك المركبة التي سار بها بطرس هذا السـير المنوي من قبل ، فإنه جلد جيادها بسوطه جلدا قويا ، فاندفعت تجري وصاح بطرس عند ذلك صيحة رعب وتعلق به الطفل ، وقـد ملأ الخوف فؤاده الصغير ، فكان ينظر متلفتاً الى الوراء وينـادي امه باكياً ولا يجدها ، فيقول له بطرس : لا تخف وتمسك بي جيدا ، فلا خطر علينا وسأتمكن من إيقاف الجياد .

وجعلت الجياد تسير كما يريد بطرس والناس يحسبونها جامحة ، فاجتازت جميع الطرق المألوفة وبلغت الى شارع ضيق كانت فاسيليكا اكترت منزلاً فيه سكنته متنكرة باسم غريب .

وكانت فاسيليكا بعد ان عادت اليها العافية أوهمت جميع من يعرفونها في باريس انها عائدة الى بطرسبرج وباعت أثاث منزلها وودعت أصحابها وركبت القطار الذي يبرح باريس في الصباح .

ولكنها عادت اليها في قطار الليل واختبأت في ذلك المنزل ولم يكن يعلم سر احتجابها فيه غير خادمتها .

فلما وصلت المركبة الى ذلك الشارع رأى بطرس بساطاً من العشب فأشار

على الغلام ان يثب الى الأرض وامتثل الطفل المسكين والقى بنفسه على ذلك المشب فأصاب رأسه حجرا فجرحه وأدماه .

وهذا جل ما يريده بطرس فسار بالمركبة مسافة قصيرة ثم اوقفها وحاول الرجوع كي يأخذ الغلام بالظاهر فوجد مركبة سبقته اليه .

وكان الغلام يبكي وينادي أمه وقد اجتمع الناس من حوله فخرجت امرأة من تلك المركبة وهي فاسيليكا ففرقت جموع الناس الذين كانوا يهابونها لما رأوا من مظاهر الجلال ودنت من الغلام وحملته بين ذراعيها .

وعند ذلك عاد بطرس بمركبته يحاول اخذ الغـــلام فتظاهر انه لا يعرف فاسيليكا ، فأبت ان تسلمه إياه إشفاقاً عليه وحذرا من جموح الجياد مرة أخرى ثم سألته على مسمع من الحاضرين اسم أبيه وقالت : إني سأهتم بارجاعه الىأهله فاذهب انت في شأنك .

فامتثل بطرس ومضى واخـذت فاسيليكا الغلام فعصبت رأسة الدامي بمنديل وحملته الىمركبتها ثم امرت السائق ان يذهب بها الى منزلها وهي تقول: لقد وقع الطفل في قبضتي وسيأتي دور من يحميه .

وكان الطفل مغمياً عليه فحملته الى سرير وعالجته حتى استفاق وكان اول كلمة لفظها : اين أمي ؟!!

وجعل ينظر الى فاسيليكا نظر الخائف فقالت له بلهجة حنو : اشكر الله يا بني فقد نجوت من خطر شديد .

– نعم لقد خفت كثيرا .

– وكذلك امك فقد كان خوفها عليك اشد من خوفك على نفسك .

– واين هي الآن أمي ؟

– ستحضر للبحث عنك في هذا المساء .

فنظر اليها منذهلاً وقال : من أنت ايتها السيدة ؟

– صديقة لأمك يا بني .

– ولكني ما رأيتك مرة عندنا ؟
– رأيتني مرات كثيرة ولكنك لا تتذكرني الآن .

فوضع الطفل يده على رأسه وقال : إن رأسي يؤلمني كثيرا .
فقبلته وقالت : لا بأس عليك فستشفى غدا .
– واين انا الآن يا سيدتي ولماذا لا تأخذني امي اليها ؟

– إنك في منزلي ولا يوافق ان تراك أمك على هذه الحالة فتحزن . أتريد ان تحزنها ؟
– كلا كلا ولكن متى أشفى ؟
– غدا .
– أأنت واثقة من ذلك ؟
– دون شك .
وبعد حين تغلب التعب على الغلام فنام نوماً هادئاً وقد انتهك جسمه الصغير من الخوف والألم .

وفي الليل جاء بطرس الى فاسيليكا وقص عليهـا ما جرى له ، فقال لها انه أقام نحو ساعة في الموضع الذي اختطفت فيه الغلام ، الى أن تمكن فابيان وامرأته من الاهتداء اليه بعد طول البحث ، وكانت امرأته شبيهة بالأموات لما تولاها من الرعب . فلما سألت عن ولدها أخبرها بما اتفق له ، واستشهد باللذين حضروا الحادثة من رجال ذلك الشارع ونسائه ، فأيدوا قول بطرس ، وأخبروا الزوجين أن امرأة عليها مظاهر النبل أخذت الغلام ، حذرا عليه من جموح الجياد مرة اخرى ، وســارت به إلى منزل أهله .

فطابت نفس فابيان وامرأته ورجعا الى المنزل أما بطرس فإنه أوصل المركبة الى معمل المركبات وتوجه الى إحدى القهاوي المعتزلة واختبأ الى ان جن الظلام فجاء الى منزل فاسيليكا كي لا يراه أحد .

ولما فرغ من قصته تركته فاسيليكا هنيهة وهي لابسة ملابس الرجال وقد تنكرت بهـا أتم تنكر وقـالت لبطرس : اذهب وائتني بمركبة واذكر انك مسؤول في مدة غيابي عن هذا الطفل.

ولكن بطرس لم يذهب وجعل ينظر إلى ملابسها وشاربيها المستعارين وهو مندهش لمهارتها في التنكر .

فقالت له وهي تبتسم : انك لا تعلم الآن إلى أين أنا ذاهبة لأن ذلك لايخطر لك في بال ، لأني ذاهبة إلى استاذ المبارزة اتعلم عنده المبارزة بالسيف؟

– وما تهمك المبارزة بالسيف ؟

– لأني استنكف من قتل روكامبول غيلة وغدراً فإنه أعظم من أن يقتـل بالخنجر أو بالسم ، وأنا أريد قتله بالسيف في مبارزة عادلة فيكون عقابه أشد حين يموت من يد إمرأة .

فأطرق بطرس برأسه وخرج لاحضار المركبة .

- ٤٦ -

بين أشخاص هذه الرواية رجل أغفلنا ذكره منذ عهد بعيد وهو الطبيب النادم الذي استخدمه مورليكس لقتل أخته والدة انطوانيت ومدلين .

وكان هذا الطبيب ندم ندامة صادقة عما اجترمه وأصبح من الزهـــاد والناسكين يصلي أثناء الليل وأطراف النهار ويستغفر الله عن ذنبه القديم .

وبينما هو جالس في صباح قرب نافذة غرفته ينظر نظراً ساهياً إلى ما يحيط به ، إذ فتح باب غرفته ودخل عليه الماجور أفاتار .

فارتعش الطبيب حين رآه وقال له باندهاش : أهذا أنت ؟

– نعم وقد اتيت اليك للذهاب بك إلى مريض مشرف على الموت .

-- ومن هو هذا المريض ؟

– هو مورليكس بعينه الذي اقتصت منه يد الانسان وستقتص منه يد الله .

– ما هي علته ؟

– انه مصاب بعلة غريبة لك أن تسميها باللغة الطبية كما تشاء ، أما أنا فإني أدعوها جنون الغرام .

– أبمثل هذا العمر يعشقون وكم عمره الآن !

– كان عمره ٥٥ عاماً منذ ثلاثة أشهر ، أما الآن فإن عمره مئة عام .

وكانت المركبة واقفة عند باب المنزل فركب بها الاثنان وسارا إلى منزل مورليكس، فلما بلغاه دخل روكامبول من باب سري وتبعه الطبيب فصعدا إلى غرفة وبلغا منها إلى غرفة لا نور فيها وقد غطي بابها بستار .

فأزاح روكامبول الستار وقال للطبيب : انظر .

فظهر له كارل دي مورليكس بملابس النوم وهو واقف في وسط الغرفة وقفة المجانين وقد سقط شعر رأسه بجملته ونحل جسمه ، واصفر وجهه وبرزت عيناه فكانتا تتقدان بأشعة تدل على الجنون وتشبهان فحمتين متقدتين .

وكان يعض كفه من القهر واليأس ويكلم نفسه بشكل متقطع فيقول:

كلوريند ، مدلين أحبك كيف كنت ومهما تكوني . لماذا رحلتي عني وهربت مني .. تعالي الي أعطيك كل ما عندي .. ولكن يجب أن تكوني امرأتي ..

نعم فإنك مهما كانت ذنوبك فقد ارتكبت فيما مضى من ايامي جرائم أعظم فأنا أستحق أن تكوني لي .. وماذا تريدين أن اقترف بعد من الذنوب ؟ ان يدي لا تزال قادرة على حمل الخنجر وخزائني لا يزال يوجد فيها سموم : كلوريند عودي إلي فاني لا أحب مدلين بل كلوريند .

ثم عاد إلى عض يديه وركع على ركبتيه فجعل ينظر إلى ما حواليه نظراً

ساهياً حائراً .

وفيما هو على هذه الحال وركامبول والطبيب ينظران اليه إذ دخلت كلوريند ، فصاح صيحة فرح ونهض وهجم عليها فدفعته وهي تضحك عليه ضحكاً عالياً ، فعاد إلى الركوع أمامها وحاول تقبيل يديها فدفعته أيضاً ، فجعل يتوسل اليها وهي تضحك عليه إلى أن قال لها : ماذا تريدين أن اصنع اتريدين ثروتي ؟

فقالت له : أية ثروة تعني ايها الأبله ، الا تعلم انك وهبت مالك لابنة اختك وابن اخيك ؟

— ولكني استرد المال واقتلهم جميعاً إذا كنت توافقين على الزواج بي .

فضحكت وقالت : تباً لك من أبله كيف يخطر في بالك اني أحبك واستبدلك بذلك المصور الجميل .

فغضب كارل غضباً شديداً وقال سأقتل هذا المصور ايضاً .

وعندها دخل المصور فجأة وقال : ولكنك لا تقتلني من غير اذني يا عماه ثم دنا من كلوريند وقال لها : هلمي معي ايتها الحبيبة ولندع هذا الشيخ وشأنه .

فامتثلت كلوريند وتأبطت ذراع عشيقها وحاولت الخروج فهجم عليها كارل وقد اهتز اهتزاز الشجرة دهمتها العاصفة فاحتمله المصور وقذف به فهوى إلى آخر الغرفة .

فصاح صيحة شديدة وحاول ان ينهض ولكنه سقط وحين رأى كلوريند انصرفت بعاشقها صاح صيحة اخرى وسقط لا يتحرك ولا يتكلم وكان نزعه شديداً طال نحو ساعتين .

وكان روكامبول والطبيب ينظران اليه من وراء الستار فرأياه في معترك شديد مع الموت يحاول النهوض ، فيسقط ويرجو الكلام فلا يستطيع ، ثم جحظت عيناه ، وانحلت عقدة لسانه فصاح صيحة ملؤها اليأس والقهر .

وشتم شتماً قبيحاً ، وكان هذا السباب آخر ما خرج من فمه ، فمات غير تائب ولا نادم .

فذعر الطبيب لما رآه وقال : ربما قدر لي أنا ايضاً هذه الميتة الشنعاء دون ان يغفر لي عن ذنوبي السابقة ؟

فقال له روكامبول : كلا ، فان الله يغفر للتائبين وهذا كتاب الصفح عن زلتك السابقة .

ثم ناوله كتاباً معنوناً باسمه ففضه الطبيب بلهف وقرأ فيه ما يأتي :

« لقد صفحنا عنك باسمنا وباسم أمنا التي في السماء فليصفح عنك الله » .

« انطوانيت ومدلين »

فجثا الطبيب على ركبتيه ونظر إلى روكامبول نظرة ملؤها الشكر بعينين يغرورق فيهما الدموع فقال له روكامبول : انهض أيها الصديق وكن واثقاً من رحمة الله فان صلاة الأختين تشفع بك عند الله .

- ٤٧ -

في الساعة الثامنة من مساء ذلك اليوم كان روكامبول جـــالساً في غرفة منزله المطلة نافذتها على حديقة منزل الفيكونت فابيـــان وهو يكتب على منضدة وضعها قرب النافذة ، وينظر من حين إلى آخر من تلك النافذة باحثاً عن ذلك الغلام وأمه فلا يجدهما .

وهذه صورة الكتاب الذي كان يكتبه إلى باكارا .

« الى الكونتس أربوف ..

« سيدتي !.

« ان عملي قد تم ومهمتي قد انتهت فإن الأختين اليتيمتين عـــادت اليهما

ثروتهما وهناؤهما ولقي كارل مورليكس جزاء ما اقترفت يداه ومات في هذا الصباح فلم يبق لروكامبول عمل يعمله في هذا الوجود وهو يسألك الصفح عن يأسه من حياته وقطعه حبل هذه الحياة .

« اني أقسمت من قبل أن أموت في السجن وقد حنثت بهذا اليمين لأني سمعت حكاية هذين اليتيمتين فاثرت بفؤاد روكامبول السفاك وشعرت أن التوبة الصادقة قد حلت في قلبي محل ذلك الفساد القديم فاستغفرت الله وعزمت على أن انفق ما خصني به من الذكاء والجرأة في سبيل الخير .

« وقد فعلت ما فعلت يا سيدتي حتى اتممت ما خرجت لأجله من السجن وكنت أحسب أن عذابي ينتهي بانتهاء تلك المهمة فاذا به لا ينتهي إلا بانتهاء هذه الحياة التي قدر لي أن لا أرى فيها يوم هناء .

« ولو تعلمين يا سيدتي ما لقيت من العذاب حين رأيتها متكأة على زراع زوجها ايفان فقد تنبهت في عواطف روكامبول القديم وثارت في نفسي عوامل الميل الى الشر فبت وحشاً ضارياً ملأ الحسد قلبه واصبح متأهباً للقتال .

« وكنت إذا تشاغلت بالنوم عن هذا الفكر الشائن يتمثل لي في الحلم السير فيليام فيجلس بإزائي ينظر إلي تلك النظرات الجهنمية ويقول انك تحب مدلين يا ابني ولكن لا شيء يمنعك عنها لا سيما وهي غنية حسناء وأنت لا تزال جميلاً وفي عهد الشباب واذا كان ايفان يثقل عليك فاطعنه بخنجرك طعنة نجلاء تصبح الفتاة لك دون منازع .

« فانتبه من رقادي مضطرب النفس كاسف البال فلا ازال استغفر الله حتى يزول أثار هذا الحلم .

« والآن فان مهمتي قد انقضت وكنت قبل ذلك مع نفسي في نزاع دائم ، أما وقد انقضت تلك المهمة ولم يعد أحد في حاجة إلي ولا استطيع العودة بفضلك إلى السجن فلم يبق لي غير الموت وهو غاية ما أطمع به .

« وسيقارن الله بين ذنوبي وندمي وآثامي وشقائي ورجائي برحمته وطيد ؟

« فالوداع يا سيدتي وسأكون جثة باردة حين يصل اليك كتابي هذا وقد عولت على الانتحار دون أن أخبر احداً بخنجر أطعن به قلبي وأنت تعلمين أن يدي لا تخطيء .

« أما فاندا وميلون فقد سافرا الليلة إلى ليون حيث قلت لهما أن ينتظراني فيها والله يغفر لي هذه الكذبة الأخيرة .

« وهنا أرجوك رجاء آخر ، وهو أن انطوانيت ومدلين ضمنا مستقبل ميلون ونويل ، فأوصيك خيراً بفاندا .

الوداع وعسى أن يغفر لي الله كما غفر لك » .

« روكامبول »

فلما أتم روكامبول كتابة الكتاب طواه وختمه ووضعه على المنضدة ، ثم أخذ الخنجر ودنا من النافذة كي يزود تلك التي يدعوها باخته وابنها النظر الأخير ، ولكنه لم ير أحداً بالحديقة خلافاً لمألوفه ولم ير نوراً ينبعث من نوافذ المنزل ، فأن أنين الموجع وقال : أقدر لي أن أموت دون أن أراها ، فلا حول ولا قوة إلا بالله .

ثم عاد الى المنضدة فأخذ الخنجر وحاول أن ينتحر ولكنه تراجع منذعراً لأنه رأى الباب قد فتح فجأة ودخلت منه فاندا وميلون فانقضت فاندا عليه واختطفت منه الخنجر .

وكان ميلون وراءها يبكي ويقول : لقد اصابت فاندا بظنونها فأبت أن تسافر لأن قلبها انذرها بما أنت عازم عليه .

فاتقدت عينا روكامبول بأشعة الغضب وقال : أخرجا من هنا فاني أطردكما لأنكما جسرتما على عصيان اوامري .

فقالت فاندا : لا ننكر اننا عصيناك ولكنك لا يحق لك ان تنتحر .

وقال ميلون : ان الله يمنع الانتحار .

فزاد غضبه وقال : اخرجا .

فجلست فاندا على ركبتها أمامه وقالت : أيها الرئيس اني أعلم لماذا تريد الانتحار ، وأعلم ذلك الحب الهائل الذي ملأ قلبك فاقبل هذا العذاب واحسبه عقاباً اخيراً لك عن ذنوبك السابقة ، فإن الناس قد غفروا لك ، وبعد عفو الناس ، عفو الله ، وأنا وميلون نقيم معك فنكون عبدين لك ونعزيك ونحدثك عمن تحب .

— اسكتي ، ولا تذكري اسمها بشفتيك .

وركع ميلون وقال : مولاي ان الأختين أصبحتا سعيدتين بفضلك ولكن من يضمن لهما المستقبل ؟

— ان زوجيهما يحميانهما .

— ولكن لا يحق لك أن تنتحر .

فنظر اليه روكامبول نظرة هائلة وقال : من يحتاج الي الآن ومن يستطيع أن يقول لي لا حق لك أن ترتاح بالموت ؟

فبرزت امرأة من الباب وقالت : أنا ..

فاصفر وجه روكامبول واضطرب حتى أوشك أن يسقط على الأرض، أما هذه المرأة فقد كانت بلانش دي شمري زوجة الفيكونت فابيان.

وركع روكامبول أمامها وقال : أنت .. أنت هنا .

— نعم اني أعرف كل شيء وانك لست باخي ، ولكني أعلم أيضاً انك تحبني كما لو كنت أختك حقيقة وقد جئت كي أقول لك لا حق لك بالانتحار لأنهم اختطفوا ولدي .

فصاح روكامبول صيحة هائلة واتقدت عيناه بأشعة من اللهب فكان كالأسد النائم تنبه لخطر .

مضى على ذلك ثلاثة أيام وروكامبول لا تفتر له همة عن البحث عن الغلام دون أن يقف على أثر من آثاره ، ولكنه علم من أول ساعة تلقى فيها خبر اختطافه ان ذلك من صنع فاسيليكا وانها لم تقصد باختطافها الطفل إلا نكايته والانتقام منه .

وقد علم بفراسته المعهودة ان فاسيليكا برحت باريس أمام جميع معارفها ، ولكنها عادت اليها خفية لتنتقم منه فإن كرهها لإيفان قد تحول اليه .

وقد كان علم أيضاً ان خادمها بطرس قد خدم في معمل المركبات بصفة حداد ، ثم دخل في خدمة الفيكونت فابيان ،وانه هو الذي ساق تلك المركبة التي جمحت جيادها .

فكان أول ما أجراه انه اقتفى أثر تلك المركبة من المكان الذي جمحت الجياد فيه ، إلى المكان الذي سقط الغلام منه وأخذته تلك السيدة الشقراء بغية رده إلى أهله في مركبتها ، وكان يشغله ثلاث مسائل وهي : ما جرى لتلك للسيدة وأين ذهبت المركبة ، وأين يوجد الطفل .

ولكنه على فرط جهده وما بذله نويل وميلون وفاندا من المساعي في التفتيش لم يحل رمزاً من رموز هذه المسائل الثلاث .

غير ان روكامبول كان واثقاً كل الوثوق ان الغلام غير بعيد عن الموضع الذي اختطف منه وكانت عصابته تطوف في أنحاء باريس وكان هو يكثرالتردد على هذا المكان قاصراً همه على البحث والاستقصاء .

وكان كلما جاء اليه مرة يتنكر بزي جديد ، وانتهى بعد ثلاثة أيام إلى معرفة كل منزل من منازل ذلك الحي وكل حانة من حاناته .

وفي مساء اليوم الثالث قال لميلون : تعال معي الليلة فلا شك اننا سنجد مقر الغلام في هذا الحي .

وكانت فاندا تسمع الحديث فقالت : وأنا أحضر معك أيضاً فإني معتقدة نفس اعتقادك .

ثم ذهب الثلاثة متنكرين وكانت فاندا متنكرة بزي غلام والثلاثة مسلحون

وكان الظلام حالكاً والمطر ينهمر وروكامبول يتقدمهما عدة أمتار فبينما هو يسير في ذلك الشارع المهجور اصطدم برجل يسير سيراً مستعجلاً فشتم الرجل بلهجة مجهولة واستمر في مسيره فارتعش روكامبول عند سماعه الصوت وجعل يقتفي أثر هذا الرجل دون أن يستطيع أن يتبين وجهه لاشتداد الظلام ، وميلون وفاندا يتبعانه على بعد مائة خطوة حتى انتهى الرجل إلى حانة منورة بنور ضعيف فدخل اليها .

فوقف روكامبول حتى وصل اليه ميلون وفاندا فقال لفاندا : أظن اننا عثرنا به .

فقالت فاندا : من هو العله بطرس السائق ؟

– هو بعينه .

فقال ميلون : إذا كان هو نفسه كما تقولون فإني سأخنقه بضغطة واحدة .

فزجره روكامبول وقال : احذر أن تصنع شيئاً إلا بأمري .

ثم ترك الاثنين وذهب تواً إلى تلك الخمارة ، فوقف عند بابها وكان من الزجاج الشفاف فرأى ذلك الرجل جالساً وأمامه زجاجة من الخمر وهو يشرب الكأس تلو الكأس فاستوثق انه بطرس السائق .

ولما فرغ من شرب الزجاجة دفع ثمنها للخمار وبرح الحانة وهو يترنم ترنم السكارى ولكنه لم يسرع عدة خطوات حتى هجم عليه روكامبول هجوم العقبان فضغط باحدى يديه على عنقه وأشهر بيده الأخرى خنجره فصوبه إلى قلبه وقال : لقد عثرت بك أخيراً أيها الشقي .

فعرف بطرس انه بات في قبضة روكامبول وقال له وقد ملىء قلبه ذعراً : رحماك يا سيدي وابق علي اخبرك أين يوجد الغلام .

ولم يكن يوجد أحد في الخمارة التي خرج منها بطرس وكان الظلام حالكاً والشارع مقفراً ، فألقى روكامبول بطرس على الأرض وقال له : احذر من أن تستغيث فانه قبل أن ترد اليك النجدة تغدو من الهالكين .

فأجابه بطرس قائلاً : اني لا أصرخ ولا أستغيث ، وإذا كنت تدفع لي كما تدفع لي الكونتس فاسيليكا خدمتك كما أخدمها، بل كنت أصدق في خدمتك لأنك أشد دهاء منها .

ثم ضحك ضحكاً دل على سفالة أخلاقه .

فقال روكامبول : انك ستكسب مني أكثر مما تكسب من فاسيليكا فان أهل الغلام أعظم ثروة منها ، فقل كم تريد أن ندفع لك ؟

– مائة الف فرنك .

– سيكون لك ما تريد .

– متى ؟

– غداً .

– اني لا أثق بالوعود إلا حين انجازها .

– ولكني اقتلك إذا لم ترشدني إلى موضع الغلام .

– انني أعرف ذلك حق العرفان .

ثم فتح صدره أمام روكامبول إشارة إلى أنه لا يرهب الموت وقال . اني رجل فقير نشأت على الشقاء والذل وكنت فلاحاً في روسيا أعامل كما يعامل الحيوان ، فلم أحفل بهذا الوجود إلا على رجاء أن أنال ثروة وكدت أن أنال ثروة وكدت أن أنال ما طالما طمعت فيه لو انك لم تتصد لي في طريقي فان فاسيليكا لم تعد محتاجة الي وقد عزمت على ان تدفع لي غداً هذا المال ولكني لقيتك لسوء حظي وانا واثق من انك ستقتلني إذا لم اتكلم .

فراع روكامبول ما رآه من ثبات جأشه وأيقن انه يؤثر الموت حقيقة على فقد هذا المال فقال له : وإذا أعطيتك مائة الف فرنك ؟

- إذهب بك إلى حيث يقيم الطفل .

- انه حي على الأقل .

- لا يزال حياً ولكني لا أعلم إذا كان يبقى في قيد الحياة إلى الغد فان هذه المرأة من أشد النساء واغلظهن فؤاداً .

فارتعش روكامبول وامره أن ينهض ويسير معه ، ثم تأبط ذراعه حـذراً من فراره وسار به مستعجلاً إلى نهر السين .

وبعد ربع ساعة وصلوا إلى جسر ذلك النهر فقال له روكامبول : يجب ان تجتاز هذا النهر كي تحصل على ما تطلبه من المال من منزل الكونتس أرتوف ففي أي شارع تقيم فاسيليكا ؟

- في تلك الجهة .

- والغلام ؟

- معها فانها لا تغفل عنه طرفة عين ولا تفارقه في الليل والنهار

- إذن فلننتظر هنا .

ثم نادى فاندا وقال لها اركبي مركبة بعد ان تجتازي النهر واسرعي بها إلى شارع بيبينار عند الكونتس أرتوف واحضري من عندها مائة الف فرنك فان من كان له ثروتها يوجد في منزله مثل هذا المبلغ واسرعي ما استطعت فان قلبي يحدثني بأننا أضعنا الوقت .

فأسرعت فاندا وبقي روكامبول وميلون مع بطرس .

فقال له بطرس أتعلم ما تريد أن تصنع فاسيليكا بالغلام ؟

- كلا !

- تريد ان تميته جوعاً بغية الانتقام لأنها تعلم انه اذا مات الولد تجن أمـه وربما ماتت وهاتان الضربتان تكونان قاضيتين عليك لأنها لا تبغي الانتقام

إلا منك

فارتعش روكامبول واجاب : ان فراستها لم تخطىء فان قتل الغلام يقتلني دون شك .

فقال ميلون متحمساً : ولكنها لا تستطيع أن ترتكب هذه الجريمة ونحن في اثرها .

وكأنما بطرس قد تنبه لكلام ميلون فالتفت الى روكامبول وسأله : إنني إذا اخبرتكم بمحل الغلام ثم قبضت منكم المال فمن يضمن لي انكم لا تسترجعون ذلك المال وانتم ثلاثة وأنا واحد ؟

فقال روكامبول : إن من كان مثلي يفي بوعده .

– إذن اصدق وعدك .

ومضى على ذلك ساعة ثم سمعوا صوت مركبة تسير على الجسر حتى وصلت إلى حيث كانت الجماعة فوثبت فاندا الى الأرض وقالت لروكامبول هوذا قد عدت بالنقود .

ثم أعطته لفافة من الأوراق المالية فأخذها منها ودفعها لبطرس قائلاً : خذ ثمن خيانتك وتكلم .

فمشى بطرس امامهم قائلاً : اتبعوني ارشدكم إلى موضع الغلام .

وساروا جميعهم على ذلك الجسر حتى بلغوا إلى الضفة الثانية من النهر فسار امامهم حتى دنا من بيت معتزل فوقف بعيداً واشار لهم بيده

فنظر روكامبول إلى حيث اشار سائلاً : أهو هذا الكوخ الذي تكتنفه الحديقة ؟

– نعم .

– وما هذا النور الذي ينبعث من بين الأشجار ؟

– هو نور غرفة فاسيليكا الخاصة وهي فيها وحدها مع الغلام تنتظرني ، ولكن احذر اذ يجب ان تدخل دون ان يشعر بك احد وان تكون وحدك .

ـ لماذا وحدي ؟

ـ لأنها اذا سمعت وقع خطواتك تحسب اني انا القادم فلا تستعد لشيء ، وأما إذا سمعت وقع اقدام كثيرة تتأهب ويحدث ما لا تحمد عقباه .

ثم اعطاه مفتاحاً وقال : هذا مفتاح الحديقة المشرف بابها على الرصيف ، وهذا مفتاح الباب الخارجي المشرف على الشارع فادخل من ايهما شئت اما انا فسأهرب .

ـ كلا انك لا تستطيع الفرار الآن قبل ان استوثق منك فاني اخشى ان تكون خدعتني .

ثم التفت إلى ميلون وفاندا وقال : اني ائتمنكما على هذا الرجل .

فقال ميلون : اني اتعهد به .

وقالت فاندا : الا تريد ايها الرئيس ان اذهب معك فاني خائفة عليك؟

فهز كتفيه وقال : لا سبيل الى الخوف فأبقي مع ميلون لحراسة الرجل .

ثم تركهم وذهب إلى باب الحديقة ففتحه بالمفتاح ودخل .

وبقي ميلون وفاندا خارج الباب وكان ميلون قابضاً على بطرس وكانت فاندا تضطرب وقد ملأت قلبها الهواجس .

اما روكامبول فانه اقفل الباب وراءه واحتجب عن الأنظار فاتقدت عينا بطرس بشعاع غريب كأنما ساعة الانتقام قد دنت ثم انقطع كل صوت ودخل روكامبول إلى منزل عدوته اللدودة

وكانت فاسيليكا وحدها في غرفة ضعيفة النور تشرف على الحديقة وقد وضعت في إحدى زواياها سريراً وعلى هذا السرير الغلام .

وكان رأس الغلام لا يزال معصوباً وهو مصاب بالحمى منذ ثلاثة أيام لم يذق في خلالها طعاماً .

وكانت فاسيليكا قبل ان تنشب فيه براثنها تلاطفه وتملقه وتعده الوعود الجميلة وتعلله بقرب دخول امه ، فانتظر الطفل صابراً ، ولكن الساعات توالت والأيام تعاقبت دون ان تحضر امه ، فخاف وعاد إلى البكاء ، فأزعج صوت بكائه فاسيليكا ، فحبسته في الغرفة وحده وخرجت إلى غرفة أخرى ، فاستحال خوف الغلام إلى رعب شديد وجعل يصيح صياحاً مؤلماً .

فصبرت هنيهة على صراخه ، ولكنه لم ينقطع عنه فهاجت أعصابها ودخلت اليه وبيدها كرباج ، فإن هذه المرأة الوحشية كانت متعودة ان ترى الفلاحين في أراضيها يموتون تحت السياط ، فلم تأخذها شفقة على تلك الزهرة المقطوفة من جنة عدن ، ولم تعطفها الرحمة بطفل خلق ليكون رسول المحبة واستاذ الرفق ولم تحن على تلك الدموع التي كانت تقضي في بيت أبيه جميع حوائجه فانهالت على جسمه الصغير بذلك السوط تضربه ضرباً مؤلماً متصلاً حتى خاف الطفل واضطر مكرهاً إلى السكوت على فرط آلامه وأوجاعه .

واكتفت فاسيليكا بسكوته وقالت له : احذر أن تصيح بعد الآن فإني أعود إلى جلدك بهذا السوط .

وجعل ذلك المسكين يبكي بالسر وهو يتعذب من الجوع وآلام السوط ، ويذكر اسم امه بصوت منخفض يتقطع له قلب الجماد وهو لا يجسر ان يناديها

جهاراً حذراً من ذلك السوط ، إلى أن تغلب عليه النوم فنام نوم السكارى لشدة ما عاناه .

ولما صحا في اليوم التالي عاد إلى البكاء ، فعادت إلى السوط فسكت وفي المساء تمكن منه الجوع ، وقاسى منه ما لا يحيط به وصفه فلم يقنط من الحياة وجعل يبكي ويصيح ويستغيث غير خائف من جلد السياط .

وما لبث طويلاً حتى فاجأته الحمى فجعل يهذو فيضحك تارة ضحكاً عصبياً ويذكر اسمي أمه وأبيه بأعذب الألفاظ ، ثم تتمثل له فـاسيليكا بشكل شيطان رجيم ويذكر سياطها فيتوسل اليها ويقول : رحماك كفـاك تضربينني فلا أعود إلى الصراخ .

وكانت تخطر له أحياناً تلك المركبة التي جمحت جيادها فيتمثل له بطرس ويقول : اوقف المركبة فاني أريد أن انزل واعود الى امي .

كل ذلك يجري وتلك المرأة الجهنمية تنظر إلى نزعه وتخاطب نفسها قائلة: كل ذلك لا يشفي غليلي إلا إذا رآه روكامبول ، وحبذا لو جاء قبل ان يموت الغلام فاني أحب ان يرى نزعه ، وان ادفن الاثنين في قبر واحد .

وكانت فاسيليكا مرتدية بملابس الرجال وهي جالسة قرب سرير الطفل في ذلك الوقت الذي دخل فيه روكامبول إلى الحديقة وتقول : لا بد ان يكون بطرس قد نفذ أوامري وجعل روكامبول يعثر به في الطريق فاني قد وعـدته بأحسن جزاء فلا يمكن أن يعبث بأوامري ، ثم انه لا يخدمني لأجل المـال وحده كما خدمني سواه ، بل انه يريد أن ينتقم مثلي فلا بد لروكامبول أن يقع في الفخ ، ولا بـد له ان يرى بطرس في الطريق فيقبض على عنقه ويقول له : إلى موضع الغلام او اقتلك ، فيطلب بطرس جزاء مـالياً فيثق به روكامبول ويقع في الفخ ، ثم جعلت تضحك ضحك الهازئين وهي واثقة من الفوز .

وفيما هي تضحك هذا الضحك سمعت وقع أقدام في الحديقة فـأطلت من النافذة ، ورأت روكامبول فقالت أن بطرس قد فاز بخديعته ثم اختبـأت في

الحال وراء ستار .

أما روكامبول فانه دخل وكان يمشي مشية الحذر المتأني ، وقد ذكر في تلك الساعة ما كان يوصيه به استاذه السير فيليام منذ عشرين عاماً حين كان يقول له . (اذكر ايها التلميذ العزيز انه من يريد الاساءة ويستخدم لها الغدارة فهو من رجال البله كالحمق ، فانه قد يخطىء المرمى وينبه اليه الناس خلافاً للخنجر فانه اسبق الى نيل الغايات وأوفى) .

ويعلم القراء ان روكامبول لم يعد من رجال تلك المدرسة فقــد أصبح من التائبين ولكنه في تلك الساعة عاد إلى طبعه القديم وذكر وصية استاذه فدخل الى ذلك المنزل الذي لم يكن يعرفه من قبل مشهراً بيده الخنجر .

فدخل ردهة كان بابها مفتوحــاً ولا نور فيها ولكنه رأى نوراً ينبعث من تلك الغرفة التي كان فيها الغلام فدخل اليها .

وكانت فاسيليكا قد اختبأت كما قدمنا ، فلمـــا سمع الطفل وقع اقدام روكامبول ورآه صاح مستغيثاً بأمه ، فصاح روكامبول صيحــة فرح وأسرع الى الغلام وحمله بين ذراعيه وخرج به كما تخرج اللبوة بأشبالها وقد انقذتهــا من الصياد .

ولكنه لم يكد يرجع به ويبلغ إلى عتبة الباب حتى رأى فاسيليكا قـــد تصدت له وقد حملت بيدها سيفين وبيدها الأخرى غدارة صوبتها إلى رأس الطفل وقالت : إذا خطوت خطوة واحدة قتلت هذا الطفل بين يديك .

وتقدم روكامبول خطوة إلى الأمام وهو يضم الطفل بيــــده إلى صدره ويشهر الخنجر بيمناه قائلا : اذهبي من طريقي .

واستمرت فاسيليكا في موقفها . إذا تقدمت خطوة اطلقت النار .

فأرجع روكامبول الطفل الى سريره وانقض عليها ، ولكنها كانت القت أحد السيفين على الأرض ، وحولت رأس الآخر الى صدره فلم يجـد بداً من الوقوف . وعند ذلك قـــالت له . انك تعلم دون شك ان الخنجر ليس له طول السيف .

ثم وضعت غدارتها فوق منضدة كانت وراءهـا ورفست السيف الملقى على الأرض برجلها وقذفته الى جهة روكامبول قائلة : اني أعددت لك ايهـا اللص السفاك ميتة جميلة ذلك انك ستقتل بالمبارزة قتلا شريفاً لا عيب فيـه ولكنك ستقتل من يد امرأة .

وهاج غضب روكامبول وأجابها : ابعدي من سبيلي .

– اصغ الي ايها الشقي ، انه اسهل لدي الآن من ان امد يدي فأتناول الغدارة وأطلقها عليك فأسيل دماغك ثم اجهز بهـذا الخنجر الذي بيدك ، او بهذا السيف الذي بيدي على الطفل فأكون قد اتممت انتقامي .

ولكني لا أريد ان اقتلك غدراً او اغتيالاً ، بل اريد ان تدافع عن حياتك التي سأسلبك اياها بالرغم عنك .

انك مجرم سفاك وأنا تعجبني الجرائم وأصحابها ، وربما كنت احببتك لولا تصديك لي في اغراضي ، وذلك لاعجابي بذنوبك ، اما الآن فاني اطلب روحك أقبضها ، ودماً بعروقك اشربه ، ولكني أريد ان اسفك هذه الدماء نقطـة

نقطة بمبارزة عادلة ، لا كما كنت تقتل الناس انت من قبل ، بل اريد هذا الرجل الهائل الذي يدعونه روكامبول ، والذي يضطرب امامه المجرمون ان تقتله امرأة وهذا كل انتقامي فالتقط السيف من الأرض وهلم الى المبارزة .

فغضب روكامبول غضباً شديداً ولكنه لم يلتقط السيف بل رفسه برجله

فقالت : اني امهلك دقيقتين فاذا لم تبارزني بهذا السيف في خلالها اطلقت غدارتي على الغلام فتكون قد سببت له الموت وانت قادم لانقاذه .

فذهب تردده حين سماعه هذا القول ثم التقط السيف وقال لها : إن دماء النساء محرمة علي ولكنك لست امرأة بل انت ضبع كاسر هربت من غابات بلادك فيجب علي ان اقتلك قبل ان تفترسيني .

ويعلم القراء ان روكامبول كان من خيرة لاعبي السيف فلا تخفاه خافية من اسرار هذه الألعاب ، ولما أخذ السيف وحاول الانقضاض على فاسيليكا كان مستخفاً بها لحسبانه انها لا تستطيع معه دفاعاً .

ولكن ساء توهمه فانه ما لبث ان جال معها في المعترك حتى رآها تلعب بالسيف كما تلعب الاندلسية بالمروحة .

فذعر روكامبول لما رآه من مهارتها وثباتها ، وكانت تقاتله قتالاً شديداً ، وهي مع ذلك تضحك وتتهكم وتقول له: انك حسبت بطرس خائناً لي ولكنك ابله فاني أنا الذي اردت ان تلقاه ويلقاك .

ثم اغتنمت فرصة من روكامبول وانقضت عليه بحسامها وشكته بصدره فصاح صيحة شديدة وسقط الحسام من يده ولكنه ظل واقفاً .

وعند ذلك قبض باحد يديه على حسام فاسيليكا المشكوك في صدره وطعنها بخنجره طعنة هائلة في عنقها فأغمده فيه وسقطت فاسيليكا على الأرض والدماء تنصب من فمها ومن عنقها .

فبرقت أسرة روكامبول بملائم الفوز وأخرج السيف من صدره والقاه على الأرض ، ثم اسرع إلى سرير الطفل وكان مغمياً عليه فاحتمله وخرج به مسرعاً

إلى الحديقة والدماء التي تسيل من جرحه تخط وراءه اثراً طويلاً .

أما ميلون وفاندا فكانا لا يزالان على باب المنزل الخارجي ينتظران عودته فصبرا نحو ساعة حتى سئما الانتظار وثارت الهواجس بفؤاد فاندا فسألت : ماذا عسى ان يكون قد حدث ؟

فضحك بطرس ضحكاً عالياً وقال : لا شك انكم من البلهاء ، فإن هذه الداهية لا بد ان تكون قد قتلت روكامبول .

فذعر ميلون اشد الذعر لكلامه وانقض عليه فطعنه بخنجره طعنة قاضية وهو يقول : اتنذر بموته ايها السافل وانت تضحك ؟

ثم تركه مخضباً بدمه ورفس الباب برجله فانكسر .

ودخلت فاندا وهي تثور ثورة اللبوة فتبعها ميلون حتى وصلا الى غرفة فاسيليكا فرأياها صرعى تنزع النزع الأخير .

ولكنها حين رأتهما ثارت فيها عاطفة الانتقام فقالت لهما : انـه جرحني ولكنه لا يعيش طويلاً لأن سيفي في صدره .

واضطربت فاندا وقالت : ولكنك تموتين قبله على الأقل .

ثم اخـذت الغدارة التي لا تزال محشوة واطلقتها على رأسها فسال نخاعها وذهبت روحها الشقية .

وكان ما نزف من دماء روكامبول اثراً ظاهراً يدل على الطريق التي سار بها فصرخ ميلون بصوت مختنق : ويلاه انه مات .

وردت فاندا : لا تقنط من رحمة الله وهلم بنا نقتفي اثره .

وكان القمر يسطع في السماء فينير الأرض كما ينير الفجر ، واندفعت فاندا تسير في اثر الدماء وخلفها ميلون وهي يبكي كالأطفال ، حتى وصلا الحديقـة وكانت الدماء اكثر غزارة عند بابها ، وخرجا منه الى الرصيف وبعد ان سارا عليه عشرين خطوة عثر ميلون بجسم صغير فنظر اليه فإذا هو الطفل مغمياً عليه

فحمله وسار مع فاندا يقتفيان اثر الدماء حتى بلغا الى سلم ذلك الرصيف

المؤدية إلى مياه النهر .

وهناك انقطع اثر الدماء وكانت مياه النهر ساكنة هادئة كأنها تطوي بين امواجها سراً من الأسرار فذعر ميلون وصاح : ويلاه انه مات

وارتدت فاندا اليه وقد اتقدت عيناها ببريق ناري وقالت : كلا ان الله لا يريد له ان يموت .. كلا ان روكامبول لم يمت ، فاذهب يا ميلون بالطفل الى اهله ، ودعني اقتفي أثاره فإما يكون حياً فأحيى بحياته ، او يكون ميتاً فأكون بعده من الهالكين .

انتهت رواية « العاشقة الروسية »

ويليها الجزء الثامن من روكامبول « ضحايا الهند »


الجزء الثامن

ضحايا الهند

ضحايا الهند

- ١ -

في ليلة من ليالي الشتاء الباردة كان ثلاثة من لصوص باريس جالسين على ضفة نهر السين ، وقد مضت ساعة على انتصاف الليل ورقصت أشعة القمر فوق مياه ذلك النهر ونام سكان باريس إلا أمثال اولئك اللصوص لأن أعمالهم تبتدىء في مثل هذه الساعة .

وكان إثنان من هؤلاء اللصوص قد بلغا سن الكهولة وواحد منهما لا يزال في بدء نضارة الصبا لا يتجاوز عشرين عاماً واسمه مرميس ، وكان الاثنان الآخران أحدهما يدعى مورت والثاني نوتير وهي القاب لقبهم بها رئيس العصابة فلزمهم لزوم الأسماء .

وكانوا جالسين على رصيف النهر وأرجلهم مدلاة فوق مياهه الساكنة ، وكان مورت يفرك يديه ويقول : ما أشد برد هذه الليلة ، وما أشد ظمأي الى الشراب

فقال له نوتير : هوذا الماء أمامك ، فارو ظمأك .

فقال له مورت بلهجة الهازيء . ويحك متى كان الماء يروي ظمأ أمثالنا . وإني ما شربته غير ايام قليلة في حياتي وذلك في سجن طولون .

وكان مرميس يسمع كلامها فقال : إنه مهما كان من شدة العيش في سجن طولون فانه أفضل من سجن باريس . وكفى به ان من يدخل اليه يكون له المقام السامي بين العصابات .

فضحك مورت وأجاب: طب نفساً فإنك لا تزال صغيراً وستتشرف بزيارته ويكون لك هذا المقام ما زلت سائراً في مناهجنا .

وفيما هم يتسامرون رأى مرميس شيئاً يتحرك في النهر فيغوص ثم يرتفع ، فنبه اليه أنظار رفيقيه فحدقوا جميعهم أبصارهم حتى تبينوا انه شيخ غريق يحاول الانتحار . وهناك اختلفوا بين ان ينقذوه ويخرجوه حياً فلا يكون جزاؤهم من الحكومة غير خمسة عشر فرنكاً ، وبين ان يصبروا عليه حتى يموت فتكافئهم الحكومة عن إخراجه خمسة وعشرين . وهي سُنة للحكومة لا ندرك القصد منها .

وكان مورت يقول بوجوب إنقاذه حياً ، ولم يحفل بمعارضة رفيقيه له والقى بنفسه في مياه النهر وجعل يسبح الى جهة الغريق ، وكان بعيداً عنه مسافة عدة أمتار .

وكان يظهر ان هذا الغريق القى نفسه في النهر مختاراً ، بدليل إتقانه فن السباحة . وكان يغوص تحت المياه ثم يرتفع فوقها ، وقد نشبت حرب هائلة بين نفسه التي كانت تريد مفارقة الجسم والانتهاء الى مبدأها ، وبين جسمه الذي كان يريد البقاء في قيد الحياة . وكان إذا تغلبت إرادة النفس غاص في النهر حتى لا يرى ، وإذا تغلبت عوامل الجسد عاد إلى السباحة .

وفيما هو على هذا النزاع أدركه مورت فقبض على شعر رأسه وجعل يجره الى البر وكان مرميس يصيح به من الرصيف قائلاً أغرقه أيها الأبله لأننا نكسب

بموته ١٠ فرنكات زيادة .

وكان الغريق يصيح به : دعني وشأني أيها الرجل ، لأني لا أريد أن تنقذني .

غير ان اللص لم يصغ الى أحد منهما ، فما زال يجذبه حتى وصل به الى الرصيف وظهر وجهه لنوتير من أشعة القمر فصاح قائلا : هذا هو .

ثم أسرع إلى الاثنين وأعانهما على الصعود الى البر .

واندهل مرميس اندهالاً عظيماً وقال : من عسى ان يكون هذا الرجل العله من امراء الروس الأغنياء فاعتنيتم به هذا الاعتناء .

فقال له مورت . كلا بل هو من رجال سجن طولون القدماء .

ثم التفت الى الغريق بعد ان هدأ روعه وقال له : الست الذي كانوا يدعونك في السجن جواني الجزار ؟

وأن أنين الموجع وقال بل جواني الجلاد ولقد أسأتم لي إساءة لا أغتفرها لكم بانقاذي لأني خنت الرئيس ووجب علي الموت .

وكان مرميس يصغي الى هذا الكلام ولا يعلم منه شيئاً وقال لرفيقيه : ماذا تعنون وماذا يعني بالرئيس .

وأجابه مورت : إنه كان جلاداً في سجن طولون ، وهرب منه بدهاء عظيم وتنكر حتى أعجز الحكومة أمره ، ولو وقع في قبضتها استقبلته استقبال روكامبول .

فقال مرميس : إني سمعت بهذا الاسم ، فهو من كبار اللصوص المشاهير .

وقال جواني : هذا هو الذي لقبته بالرئيس ، وقد أشكل عليك فهم معناه .

فاضطرب نوتير وقال لمرميس : إن روكامبول هذا فوق الناس أجمعين في مراتب الذكاء والدهاء فقد طالما عبث بالحكام وأتى أعمالاً لا تخطر لأحد في

بال وقد خطر له يوماً ان يبرح السجن ففتحت له أبوابه وقضي مرة على رجل بقطع العنق فأوقف آله القطع عن العمل .

وافتتن مرميس به وقال : والله لو عرفت انه في أعمق السجون لارتكبت جريمة استحق بها ذلك السجن كي أراه . وأين هذا الرئيس العظيم من رئيس عصابتنا باتير ، فإنه كسول لا ثبات له إلا على موائـد الشراب ، فلماذ لا نخدم برئاسته .

فتنهد جواني قائلاً : إنكم لا ترونه فقد قبضوا عليه .

– كيف قبضوا عليه .

أجابه جواني بلهجة القانط : إني أنا سلمته الى الحكومة . ولكني ما فعلت ذلك غدراً به بل أن القضاة خدعوني

ثم بكى بكاء شديداً وأضاف:هذا هو السبب فيما ترونه من يأسي ومحاولتي الانتحار لأنهم قبضوا علي يوم قبضوا على روكامبول والقوني في السجن وبعد ان تمت محاكمتي وحكم علي بالعودة الى سجن طولون أرسـلوني أمس في قطار الى ذلك السجن .

وكنت في مركبة لم يكن فيهـــا سواي من المجرمين . فخرقت خشب المركبة بحديد القيد الذي كان في رجلي حتى جعلت فيها ثقباً متسعاً ثم خرجت من ذلك الثقب الى الأرض ، وانا أرجـــو ان تسحقني عجلات القطار وأغمضت عيني مستسلماً الموت ولكني ما لبثت بضع ثوان حتى رأيت القطار قد ابتعد عني دون ان تصيبني عجلاته بأدنى ضرر لأني سقطت بين منفرجاتها .

ونهضت مضعضع الحواس آسفاً لنجاتي من الموت تنبهت للقيد الذي كان في رجلي فكسرته وتواريت عن الشرطة كل يومي حذراً من ان أعود الى السجن فأعود الى مهنة الجلاد .

وفي الليل ذكرت خيانتي لروكامبول فعولت على الانتحار غرقاً في السين ،

ولولا إنقاذكم إياي لقضيت مآربي بيدي .

وقبل ان يتم حديثه قاطعه نوتير قائلا : أنظروا هوذا غريق آخر انظروه، إنه عائم على جذع شجرة قرب الشاطىء والماء يغمره إلى عنقه

فصفق مرميس بيديه فرحاً وقال : لقد فاتتنا جائزة الغريق الأول ، وعسى ان لا تفوتنا جائزة الثاني وهي أعظم من الأولى ، لأنه ميت لا حراك فيه .

- ٢ -

يوجد بالقرب من ذلك الرصيف قهوة تدعى (أركلين) تتولى إدارتها إمرأة عجوز تمرست بالآفات وتعودت عشرة اللصوص .

ولم تكن هذه القهوة تفتح أبوابها في النهار لعدم تردد الناس اليها ، ولكنها إذا هجم الظلام بدأت عصابات اللصوص تنسل اليها ، وأخصها عصابة باتير فيشربون ويتنادمون ويتآمرون على إتيان كل منكر وارتكاب كل إثم .

وكانوا يقدمون الى هذه القهوة واحداً واحداً واثنين اثنين ، فلا يفتح لهم بابها إلا إذا صفروا صفيراً مصطلحاً عليه بينهم يتعارفون به فكانت ملجأ كل أثيم هارب من السجون يأتي اليهم لينضم تحت لواء زعيم العصابة العام وهو يدعى باتير .

وقد اجتمعوا تلك الليلة واصطفوا حول مائدة يرأسها الزعيم وقد رصفت فوقها الأقداح وكان باتير يقول : إني أنتظر صديقاً من كلامسي .

فقال له أحد رجال العصابة : العله فتح لنا باب الارتزاق ؟

— ربما .

وبينما هم على ذلك سمعوا وقع أقدام في الخارج فسكتوا ثم قال الزعيم : لا تجزعوا لا بد ان يكون هؤلاء القادمون من رجالنا .

وعند ذلك دخل جواني الجلاد ونوتير ومرميس ومورت وهم يحملون رجلا لا حراك فيه ، فذعر الحضور لرؤيته غير ان جواني حاول تطمينهم قائلا لهم : لا تجزعوا هذا هو الرئيس .

وكان هذا الرجل الفاقد الرشد ، المحمول على أكف اللصوص ، روكامبول .

فالتفت الجميع حوله لتفحص حاله والتمعن في وجهه لشدة ما بلغ اليه روكامبول من الشهرة بين اللصوص .

فقال مرميس معنياً بكلامه جواني الجلاد : أظن ان هذا الشيخ مخطىء لأن روكامبول لا حياة فيه .

وقال مورت : هو ما تقول ، لأن علائم الموت بادية في وجهه وفوق ذلك إني أرى في صدره جرحاً بليغاً ، لا بد ان يكون قد استنزف معظم دمائه .

كانت العادة في هذه القهوة أنهم إذا انتشلوا غريقاً ميتاً يحضرونه اليها ويدعون البوليس فيحقق في أمره ، ثم يذهبون في اليوم التالي فيقبضون الجائزة المعينة .

وقد وضعوا روكامبول فوق مائدة وحاولوا استدعاء البوليس ، ولكن جواني اعترضهم لاعتقاده انه لا يزال من الأحياء .

وطال خلافهم ، فجاء احد اللصوص ووضع أذنه فوق قلبه فلم يسمع حركة تدل على الحياة ، وأخذ يده وحركها فوجدها لينة كأيدي الأموات فلجأ عند ذلك الى التجربة الأخيرة فأخذ مرآة ووضعها فوق فم روكامبول

فساد السكوت على الجميع وكانت دموع جواني تسيل على خديه ويأسه

يحمل على الإشفاق ونوتير ومرميس واقفان حوله في موقف الخشوع .

فأبقى اللص المرآة فوق فم روكامبول دقيقتين ، ثم أزاحها ونظر اليها فوجدها قد تغشت بغشاء ضعيف ، وكان ذلك برهاناً جازما على أن روكامبول لم يمت .

وعند ذلك صاح بعض رجال العصابة : هلم بنا إلى إنقاذه ، أشعلوا النار من حوله ولندلك جسمه البارد فقد يعيش .

فقال زعيم العصـــابة : أية فائدة من حياته ؟ إن كأس الشراب أفضل منها .

فتصدى له الفتى مرميس لأنه مال الى روكامبول وقال له : إن من كان مثلك لا فائدة من حياته .

فسكت الزعيم ولم تعترض العصابة ذلك الفتى لأنه كان محبوباً بينهم لبسالته وحداثة سنه .

وأجمع الكثيرون منهم على وجوب إنقاذ روكامبول لأنه من مشـــاهير زعماء العصابات . فثارت الحمية في رؤوسهم واتفقـوا على إنقاذه ، ما خلا زعيمهم باتير ، فإنه ظل منعكفاً على شرابه وهو يحسب لشفاء روكامبول الف حساب .

وجعل اولئك اللصوص يفركون بالخل صدغيه وشفتيه وأعصابه وفي كل حين يضع جواني رأسه على قلبه على رجاء ان يسمع دقاته حتى برقت عيناه بأشعة الفرح وقال : إن قلبه يدق .

فصاح جميعهم صيحـة فرح ، وقال مرميس : إن مثـــل روكامبول لا يموت .

وكان أشدهم تعصباً نوتير فجعل يذكر أوصافه لنوتير فاصفر وجه الزعيم باتير وقال أأنت تشهد له هذه الشهادة ايضاً ؟

-- نعم لأني عرفته حق المعرفة حين كنت في عصابة تيميلون إذ كان يعبث

بنا كما يشاء .

وعند ذلك اشتدت دقات قلب روكامبول وتنهد تنهداً طويلاً .

ففرح الرجال وقال أحدهم : إنه سيفتح عينيه .

وأجاب نوتير : أقسم بمهنتنا أنه إذا ردت اليه العافية ، لنجعله رئيس عصابتنا .

فهز باتير كتفه إشارة الى الاحتقار ، فقال له نوتير لا تهزأ بروكامبول لأنه حيث يوجد تكون السعادة بالرغم عمن ينازعه فيها .

وقبل ان يجيبه باتير ، صاح جواني صيحة فرح عظيمة قائلاً : لقــد فتح عينيه !

فصاحوا جميعهم نفس صياحه ، واختلط الحابل بالنابل ، ولم يعد لباتير صوت يسمع .

- ٣ -

وبعد ذلك بأربع وعشرين ساعة كان روكامبول نائماً في السرير ، وقــد عادت اليه الحياة ، وعاد معها ذلك الذكاء النادر . لأن الموت لم يجد موضعاً في ذلك الجسم الذي قد من الفولاذ ، ولم يستطع الجنون أن يتغلب على ذلك الذكاء العجيب الذي طالما صرفه روكامبول في سبل الشر الى ان أصبح من التائبين فكان يستخدمه في وجوه الخير .

وكانت هذه القهوة التي ذكرناها منقسمة الى قسمين ، قسم أرضي وهو الموضع الذي يجتمع فيه اللصوص وقسم علوي وهو مؤلف من غرفة واحــدة ملتسعة نصب لروكامبول سرير فيها وحمل اليه ولم يكن يقيم معه فيها غير جواني الجلاد وكان له ممرضاً وطبيباً في وقت واحد

وكان اللصوص يتفرقون في النهار ، فنزل جواني وطلب الى صاحبة القهوة أن تمنع الضجيج حرصاً على راحة روكامبول فقالت له : طب نفساً إننا جميعنا نعجب به نفس إعجابك ، ووجود مثل روكامبول بيلنا أعظم شرف لنا .

وفي المساء أقبل رجال العصابة وكانوا يتباحثون همساً ، ولا يقرعون الكؤوس حين الشراب ، ويصعد بعضهم من حين الى حين افتقاداً لذلك العليل فشعر باتير ان زعامته قد سقطت مقدماً لما رآه من ميل العصابة إلى روكامبول .

أما روكامبول فقد كان شديد الهزال لكثرة ما نزف من دمائه فقال لجواني بصوت خافت : كيف أنقذتموني ومن أي موضع ؟

– من قرب مركريتيل وقد كنا نحسبك من الأموات .

فتذكر روكامبول هنيهة ثم أجاب : نعم إني فقدت صوابي في ذلك الموضع وإن دمائي قد نزفت حين كنت أسبح ، وقد كنت أحاول اجتياز نهر السين ، وطالما اجتزته سابحاً . غير ان جرحي حال دون قصدي ، فأمسكت بجزع شجرة كان عائماً أمامي . وهناك أطبقت عيني ولم أعد أعي على شيء .

– إن هذا الجرح قد أنقذك ولكن كيف أصبت بهذا الجرح ؟

فارتعش روكامبول عند هذا السؤال ، وحدق بجواني . فاضطرب جواني لنظراته وأضاف : عفواً ايها الرئيس ، إني لا أحاول الوقوف على أسرارك .

– قل أجبني عن كل شيء أولاً أين أنا الآن ؟

– في قهوة أركلين .

– ما هذه القهوة ؟

– هي شبه خمارة تتردد عليها عصابة من اللصوص .

- من يتولاها ؟
- تلك المرأة التي أحضرت لك المرق منذ حين .
- كيف انت مع هؤلاء الناس ؟
- إنهم أنقذوني أيضاً من النهر ، وقد كنت أحاول الانتحار لخيانتي لك .
- ولكنك كنت في السجن فكيف خرجت منه ؟

فحكى جواني لروكامبول جميع ما اتفق له ، حتى إذا فرغ من قص روايته قال له روكامبول إصغ إلي ، إن جميع الذين يعرفونني يعتقدون الآن اني من الأموات إلاك ، وأحب ان يبقى لديهم هذا الاعتقاد ليس لأني أخشى أن تقبض علي الشرطة فقد وعدت الحكومة بالتخلي عني وما زلت معي فهي أيضاً لا تقبض عليك

فانذهل جواني وقال : أحق ما تقول ؟
- نعم فهل تريد ان تكون رفيقي ؟
- أعندك شك في ذلك يا سيدي ؟ إني احترمك احتراماً يبلغ حد العبادة وما حاولت الانتحار إلا من أجلك .

- حسناً ، إعلم الآن اني كنت أسعى الى قضاء مهمة وقد أتممتها ولو كنت جبان النفس منخلع القلب لانتحرت ولكن المؤمن لا يحق له أن يتلف جسداً خلقه الله .

ثم اني لا أحب ان أرى أولئك الذين عرفتهم وأحببتهم فهم يعتقدون أني أصبحت من الأموات ويعيشون سعداء . ولكن ربما بقي لي ايضاً مهمة خير أقضيها لأني أشعر ان الله لم يغفر لي بعد .

وكان روكامبول يتكلم هذه الكلمات الصالحة في حين ان اللصوص كانوا يترقبون شفاؤه ليجعلوه رئيس عصابتهم .

فتأثر جواني تأثراً عظيماً لكلامه وأخذ يده وقبلها بملء الاحترام قائلاً : اني

أسفك دمي في سبيل خدمتك ..

أجابه روكامبول : إصغ إلي ، إني تقاتلت ليـلة انتشلتموني من النهر قتالاً شديداً .

– مع تيميلون ؟

– كلا بل مع امرأة بالسيف تقاتل قتال استاذ وكان قتالنا بسبب تنازعنا على ذلك الطفل الذي شاهدتني مرة أنظر اليه من نافذة غرفـتي وهو يلعب في حديقة منزله فطعنتني بسيفها طعنة شديدة ولكني تمكنت منها فطعنتها بخنجري طعنة نجلاء أظنها كانت القاضية .

– لقد عرفت هذه المرأة اليست هي تلك الروسية ؟

– نعم .

– وهل ماتت ؟

– لا أدري ، ولكني أخذت الطفل وخرجت به الى الحديقة ومنهـا الى الرصيف ، فوضعت الطفل مغمياً عليه على الأرض ، لاعتقادي أن رفاقي سيعثرون عليه . ثم القيت نفسي في المياه ، فخطر لي في البدء خاطر الانتحار ، ثم رأيت انه لا يحق لي قتل النفس . فعزمت على اجتيـــاز نهر السين سباحة بعد أن تركت ورائي من آثار الدماء ما يدل على موتي . وأنت تعرف البقية .

والآن أريد ان أعلم اذا كانت فاندا وميلون وجدا الطفل وأرجعاه الى أمه. إذهب الى باريس وابحث عن هذه الحقيقة وكن حكيماً .

– ولكن إذا رأيت فاندا وميلون فما أقول لهما ؟

– لا تقل لهما شيئاً .

– وإذا رأيتهما يبكيان عليك بكائهما على الأموات .

– دعهما يبكيان لأني أريد أن أعرف فقط ماذا حدث للولد .

فدهش جواني وسأله : ومتى شفيت فمـــاذا تصنع ؟ أتقيم بين هؤلاء

اللصوص الأثيمة ؟

— ربما ومن يعلم فقد تكون تلك المهمة الخيرية التي اريد قضاءها استغفاراً لي بين هؤلاء اللصوص .

وفيما هو يتفوه بهذا الكلام دخل نوتير يتبعه مورت .

- ٤ -

وقد حمل الاثنان قبعتيهما بيديهما ، ووقفا أمام روكامبول وقفة احترام . فقال لهما روكامبول بلهجة حنو وإخلاص : ماذا تريدان ايها الصديقان ؟

فتقدم نوتير خطوة قائلا : إن العصابة أرسلتنا وفداً اليك .

— قل ما تشاء إني مصغ اليك .

— نريد ان نعلم قبل كل شيء كيف أنت ؟

— إني بخير أيها الرفاق ولكن لا بد لي من ملازمة الفراش خمسة عشر يوماً على الأقل .

— هذا ما كنت أقوله لأفراد العصابة . ولكن ذلك لا يمنعنا عن الانتظار .

— قل .

— إن ما أتينا به اليك يوضح بمنتهى الايجاز . وهو ان من لا يستطيع ان يشتغل بالأعمال العظيمة كما كنت تفعل ، يكتفي بالأمور الصغيرة كما نحن نفعل وإني حين هربت من السجن وأتيت الى باريس أردت ان أشتغل بالمهنة ، ولكن رأيت الارتزاق غير ميسور لشدة تنبه البوليس فحسبت نفسي سعيداً بانضمامي الى باتير .

- من هو باتير هذا ؟

– هو زعيم عصابتنا المؤلفة من خمسة عشر رجلا ، فإننا نخرج كل يوم ونطوف في أنحاء باريس ثم نعود في الليل إلى هذه الخمارة فنتحدث بما لقيناه ، وإذا اكتشف أحدنا مورداً للكسب عرضه على الزعيم ، فيرى رأيه فيه ولكن نظامنا قد اختل ، منذ تشرفت هذه الخمارة بوجودك فيها .

– لماذا ؟

– لأن زعيمنا الكسول يريد أن تبقى له الزعامة .

- وأنتم ؟

– رأينا ان هذا الزعيم ليس من رجالك ، فاتفق أحد عشر رجلا منا على الصياح ليحيى روكامبول وليسقط باتير ولم يمتنع الأربعة الآخرون عن موافقتنا إلا لخوفهم ولكننا واثقون من إقناعهم على الانضمام الينا ونحن أتينا الآن نسألك باسم العصابة قبول هذه الرئاسة .

فابتسم روكامبول ابتساماً يشف عن الاحتقار وأجاب : سوف نرى أيها الرفاق متى شفيت الشفاء التام .

وحاول ان يصرفهم باشارة غير ان باتير لم ينصرف وقال : إني أرشدت العصابة الى عمل قد يكون لنا منه غنم كبير فارتأى باتير انه يجب ان نسرع في العمل دون ان ننتظر شفاءك ولكننا لم نوافقه على ما أراد .

فارتعش روكامبول وأجاب : حسناً ، اذا كان العمل يوافقني أتولاه غير انكم تعلمون ايها الرفاق انه قبل ان اوشك على الغرق كان بيدي أعمال أخرى لم تتم بعد .

– ذلك لا شك فيه لأن رجلا مثلك لا يبقى دون عمل .

– اني تخلفت عن بعض أمور في باريس وسأرسل تعليمات بواسطة جواني . كم الساعة الآن ؟

ـ الساعة الرابعة صباحاً

فقال روكامبول لجواني : إذهب الآن في المهمة التي أخبرتك عنها .

ثم التفت الى نوتير قائلا : إجلس الآن بجانبي واخبرني عما اكتشفته .

ـ إنه يوجد بالقرب من ضفة النهر بيت معتزل يقيم فيه رجل عجوز وامرأة صبية .

ـ إنها فتاته وهو أبوها دون شك ؟

ـ لا نعلم إن البعض يقولون انه أبوها والبعض يقولون زوجها وهما لايخرجان من البيت على الإطلاق حتى ان الجيران لم يروهما غير ثلاث مرات في مدة عامين وكانت المرأة بملابس الحداد .

وليس لهما غير خادمين أحدهما إمرأة عجوز والآخر رجل عجوز يشتغل في الحديقة .

ـ إن ذلك موافق لنا كل الموافقة .

ـ ـ وقد مررت بهذا البيت مرات وأخذت تعليمات كثيرة بفضل مرميس.

ـ ماذا علم مرميس ؟

ـ إنه اختبأ كل الليل في شجرة من أشجار الحديقة وذلك منذ ثلاثة ايام فعلم ان الخادم والخادمة ينامان في الدور الأسفل وان الشيخ والفتاة ينامان في غرفتين تشرفان على الحديقة وهما ينامان متأخرين ويظهر ان عيشتهما غير راضية فقد سمعهما مرميس يتخاصمان وكانت الفتاة تبكي وتعض يديها من اليأس ولكن مرميس لم يستطع ان يسمع شيئاً من حديثهما .

ـ كل هذه التفاصيل مفيدة ولكن هل يوجد نقود في هذا المنزل ؟

ـ انه بعد ان فرغ الشيخ من خصام الفتاة اقفل باب غرفتها بحدة وذهب الى غرفته ، فانتقل مرميس من شجرة الى شجرة وراقب هذا الشيخ فرآه قد فتح صندوقاً من الحديد وجعل يعد أوراقاً مالية وأكياساً ملآى من الذهب فلما أخبر العصابة بما رآه هاج رجالها ولا سيما باتير وأرادوا بدء العمل في

هذه الليلة .

فخرج نوتير ومورت وهما يصيحان ليسقط باتير .

والآن فلنذهب بالقراء الى ذلك البيت المعتزل الذي يريد اللصوص اغتصابه ونبسط حالة الشيخ وتلك الفتاة .

- ٥ -

كان ذلك البيت على ما وصفه نوتير لروكامبول ، محاطاً بحديقة متسعة وقد كان من قبل مهجوراً لا يقيم فيه أحد لاعتزاله الى ان جاء يوماً رجل غريب الى الذي أنيط به أمر هذا المنزل وطلب اليه ابتياعه فاتفقا على ثمنه ونقده الثمن .

وفي اليوم التالي جاء خادم وخادمة فنظفا البيت وأصلحاه وبعد ثمانية أيام عاد الرجل الغريب ومعه فتاة صبية لابسة ملابس الحداد وأقاما في هذا البيت الذي كان يشبه القبور باعتزاله .

ولم يكن يخرج غير تلك الخادمة والخادم لشراء حاجاته ، فكانا يكلمان الناس باللغة الفرنسية الفصحى ولكنهما يحادثان بعضهما بلغة غريبة مجهولة حتى قنط بعض المجاورين من معرفة شيء عن هذا المنزل لتكتم الخادمين . وكان مرميس أسعد منهم حظاً ، لتسلقه أشجار الحديقة ورؤيته داخل المنزل .

وعندما كان مرميس يراقب من الشجرة ذلك الشيخ وفتاته كانت جالسة على كرسي وكان الشيخ يسير ذهاباً وإياباً في الغرفة .

ولم يكن في الغرفة غير مصباح واحد ولكن نوره على ضعفه كان يسطع فوق وجه الفتاة فيظهر جمالها وآثار نحولها .

وكانت تلك الفتاة تخاطب ذلك الشيخ بلهجة يتبين منها القنوط فتقول : إننا هنا يا أبي منذ عهد بعيد وقد سقيتني مخدراً في أحد الليالي فسلبت طفلي كما سلبتني قبل ذلك أفلا تجعل حداً يا ابي لهذا العذاب ؟

وكان أبوها يسير ذهاباً وإياباً دون ان يرد عليها .

- ألا ترجع لي ابنتي يا أبي ؟

– كلا انها إبنة الجريمة فلا يجب ان ترد .

فاتقدت عينا الصبية ببارق من الغضب ، واحمرت وجنتاها بعد اصفرارهما ، ووثبت الى أبيها فأمسكت بيديه وقالت : لقد كذبت لأنه كان لي زوجاً أمام الله ، فما ولدت ابنتي بالاثم ، والآن أريد ان أعرف كل شيء .

فذهل أبوها لجسارتها وقال : ماذا تريدين أن تعرفي ؟

– أريد ان أعرف ماذا جرى لقسطنطين .

– إنه في روسيا لا يزال في فرقته .

– كلا إنك تخدعني إذ قد علمت علم اليقين أنه خرج من الجيش ، وكفاك يا أبي ألا تشفق علي وانا ابنتك ولماذا لا تنقذني من عذابي فتردني الى زوجي وترد ولدي إلي ؟

فهز الشيخ كتفيه دون ان يجيب .

فضمت الفتاة يديها شأن المتوسل وقالت : أنزعت منك عاطفة الإشفاق يا أبتاه ! أيبلغ منك عداء أسرتك وأسرته الى هذا الحد من القسوة ... إنني لم أعد ابنتك بل انا ضحيتك وأنت جلادي .

فالتفت اليها قائلاً : إحذري لقد تجاوزت المدى .

– وأنت تجاوزت كل حد إنني أريد ان أعرف موضع قسطنطين .

– إنك لا تعرفينه .

– وماذا صنعت بابنتي ؟

- انها ماتت .

- طالما قلت لي هذا القول ولكنك دون شك من الكاذبين .

فظهرت علائم الاضطراب على الشيخ ولكنه كظم غيظه وأراد قطع الجدال ، فقال لها : انك شديدة الهياج في هذه الليلة وخير لك أن تشربي شيئاً من الشاي وتنامي . ثم خرج من الغرفة وأغلق بابها بعنف يدل على مبلغ غيظه واستيائه .

وعادت الفتاة إلى كرسيها تعض كفها من اليأس وتذرف الدمع السخين .

ومضى عدة دقائق وهي على هذه الحالة ، ثم سمعت ان الباب قد فتح فالتفتت لترى الداخل وقد حسبته أباها ، فكان خادمها ، وقد دخل اليها يحمل صينية عليها آلة الشاي ومعداته ، فنظرت اليه الفتاة ثم اتقدت عينيها بشعاع غريب وقالت في نفسها : لا بد أن أحمل هذا الخادم على الاباحة بالسر فانه يعرف كل شيء .

ووضع الخادم صينية الشاي امامها وحاول أن يخرج من حيث أتى فأوقفته الفتاة باشارة وقالت له : افتح هذه الخزانة التي امامك فامتثل ، فقالت ألا ترى فيها علبة صغيرة .

- نعم .

- اعطني اياها .

وقبل ان يحضرها غيرت الفتاة مجلسها بحيث أصبحت تعارض بين الباب والخادم .

وجاءها الخادم بتلك العلبة التي طلبتها ففتحتها وأخرجت منها مسدساً محشواً والخادم ينظر اليها بانذهال ، ثم حولت المسدس إلى رأسه وقالت له : إذا صحت أو استغثت فانك من الهالكين .

إرتعش الخادم وسكت وكان يدعى نيشيلد وهو فلاح روسي خلق في أراضي والد الفتاة وهو يعلم كسائر الفلاحين الروسيين في ذلك العهد أن اصحاب

الأرض يمتلكونها مع فلاحيها ويتصرفون بهم كيف يشاؤون ثم انه كان يعلم ان تلك الفتاة ناديا ابنة مولاه فهي يحق لها قتله حين تريد دون منازع فوقف أمامها موقف الخائف المتوسل .

فقالت له ناديا : ان أبي قد ذهب الآن إلى غرفتـه فاذا استغثت به، فان رصاص هذا المسدس يصل إلى قلبك قبل ان يصل صوت استغاثتك الى اذنيه .

فاضطرب الخادم وقال بصوت ملؤه الرعب : سيدتي ماذا تريدين ؟

– اريد ان أعلم كل شيء .

– ولكن اباك الجنرال يقتلني اذا بحت ..

– وأنا اقتلك إذا كتمت .

– سيدتي اسألك الرحمة .

– لا رحمة في قلبي الآن ، فقد كنت مع أبي في فارسوفيـا وأنت تعلم كل ما جرى .

– أقسم لك يا سيدتي ...

– لا تقسم فان ايمانك كاذبة ، ثم نظرت الى ساعة معلقة في الجدار وقالت : اصغ إلي إني عولت على قتلك في الحال اذا كتمت عني ما تعلمه فاذا كنت تحرص على حياتك بح لي بكل شيء .

وكان الخادم ينظر اليها فتبين صدق العزيمة من اتقاد عينيها فقال : واذا تكلمت يا سيدتي أتقتلينني ؟

– كلا .

– ولكن أباك يقتلني فأنا في الحالتين مقتول .

– لا تخف فسأحميك .

– أنت تحمينني يا سيدتي من غضب الجنرال ؟

نعم ، فانه اذا لم يقتلني في الحال تمكنت من الاحتماء بالحكومة الفرنسية فان الأسياد الروسيين لا يستطيعون اجراء شيء في فرنسا .

فكان الخادم يسمع كلامها ولا يفهم شيئاً مما تقول لتعوده الاستعباد .
واستأنفت ناديا الكلام فقالت : انك كنت في خدمة أبي وأنت عالم بكل ما حدث ، تكلم فإني أمهلك دقيقتين ، إذا سكت بعدها أطلقت عليك النار .

فتردد الخادم هنيهة ثم قال : إذا لم يكن بد من الموت فإني اؤثر أن اقول الحق وافضح الخائنين .

— أي خائن تعني ؟
— أباك يا سيدتي ..
— إذن تكلم !

— سيدتي ان أباك الجنرال كوميستروي قد خان بولونيا .
فتراجعت منذعرة كأن الصاعقة قد انقضت عليها وقالت : كلا ان ذلك محال وأنت من الكاذبين .
فقال لها الخادم بسكينه : هو الحق ما قلته فاقتليني إذا شئت .
وتقدمت الفتاة منه وهي مصوبة مسدسها اليه وقالت له إذن تكلم .
— سيدتي اني قلت لك الحقيقة وهي ان أباك خان بولونيا .

— ذلك محال ، وإلا فكيف اتفق انه أبى تزويجي من قسطنطين بحجة من جنود القيصر ولا يحق له الزواج بابنة بولوني أمين تضطهده حكومة القيصر ؟

فابتسم الخادم ابتساماً يشف عن احتقاره للجنرال وتابع . ان الوقت ضيق يا سيدتي وما سأقوله لك يستغرق عدة ساعات .
— عمن ؟
— عن أبيك .
قل فإني صبورة ووقتي فسيح ولكن قل لي قبل كل شيء أين قسطنطين فقد قال لي أبي أنه لا يزال في فرقته ؟
— إن أباك لم يخبرك الحقيقة فإن القائد قسطنطين قبض عليه في فارسوفيا بتهمة المؤامرة مع الثائرين .

– رباه أهذا ممكن ؟

– إنهم وجدوا في منزله بين أوراقه رسائل باسمه تثبت هذه التهمة .

فسقط المسدس من يد ناديا وقالت : ويلاه إذن قد حكم عليه ؟

– نعم يا سيدتي وقد أرسل إلى سيبيريا ، أما ابنتك فإن أباك قال لك انها ماتت والحقيقة انها لا تزال حية ترزق .

ولما سمعت ناديا هذا القول وأيقنت ان ابنتها حية صاحت صيحة فرح قوية سمعها أبوها فخشي عليها وأسرع ليرى ما أصابها .

غير انها سمعت صوت وقع أقدامه وأسرعت إلى باب غرفتها وأقفلته من الداخل ، وعادت إلى المصباح فأطفأته وقالت للخادم : إحذر أن تفوه بكلمة فإنه يقتلنامعاً .

– ٦ –

وكانت خطوات الجنرال تسمع في الممشى حتى وقف عند باب الغرفة فسمعت الفتاة وخادمها صرير المفتاح داخل القفل بحدة فاضطرب قلب الخادم وسكتت ناديا .

ولما رأى الجنرال ان الباب مقفل من الداخل نادى ابنته وقالت له بلهجة المذعر الصاحي من النوم ماذا تريد يا أبي؟

– ماذا أصابك ولماذا كنت تصيحين ؟

– لا شيء سوى اني كنت نائمة فأصابني الكابوس فصرخت .

وأجاب بلهجة المرتاب : لقد حسبت انك لست وحدك في الغرفة .

فضحكت ابنته ضحك المتألم وأجابت بلهجة الساخر من تريد أن يكون معي يا أبي ؟

فاطمأن الجنرال وانصرف إلى غرفته .

وصبرت ناديا إلى أن وثقت من دخول أبيها إلى غرفته فقالت للخادم ، ان أبي قد استقر الآن في فراشه فقل لي أين ابنتي ؟

– لا أعلم . .

– ولكنك قلت لي منذ هنيهة انها لم تمت .

– ولا أزال أقول هذا القول .

– إذن ماذا جرى لها ، وما صنعوا بها ؟

– لا تستطيعين يا سيدتي ان تفهمي ما حدث أتعلمين كم بقي لك مفترقة عن زوجك ؟

– كيف لا أعلم فاني منفصلة عنه منذ عام .

– إنك واهمة يا سيدتي فقد مضى على هذا الفراق خمسة أعوام .

– خمسة أعوام ! العلي كنت مصابة بالجنون ؟

– هو ما تقولين يا سيدتي .

– ويحك ماذا تقول ؟

– أقول الحق فانك جننت يا سيدتي على أثر الولادة وما تلاها من الحوادث المكدرة وبقيت مدة أعوام يعالجك طبيب فرنسي .

– اني لا أذكر شيئاً من هذا .

– ولكني أقول الحقيقة يا سيدتي فانك لم تبرحي فارسوفيا منذ عام كما تتوهمين ، بل منذ خمسة أعوام .

– في أي عام نحن الآن ؟

– في سنة ١٨٦٧ .

– إذن اني كنت مجنونة لا محالة ، ثم انك تقول ان ولدي لم يمت .

– اني أستطيع إثبات ما أقول لأني انا الذي . .

وصاحت ناديا بصوت يتهدج من الغضب : أنت .

أجابها الخادم بلهجة الاحترام : انك ستصدقين جميع أقوالي يا سيدتي فيما بعد ولكن دعيني اتكلم .

- قل ا.

-- أأنت واثقة من انك ابنة الجنرال ؟

فوقع كلامه عليها وقع الصاعقة وأجابت : لماذا تسألني هـذا السؤال ..

— أتذكرين يا سيدتي أيام حداثتك ؟

— دون ذلك فاني اذكر ان الجنرال كان يدعوني ابنتـه ولم يكن لي من العمر غير ثلاثة أعوام .

— هذا بلا ريب ولكن أمك ؟

- ان أمي ماتت حين ولدتني وأنت تعرف هذا .

فتردد الخادم هنيهة ثم قال إذا كنت اسألك مثل هذا السؤال فذلك لأني عزمت على أن لا أكون بعد الآن شريكاً للجنرال في أسراره .

— أوضح ما تقول .

- اني كتبت جميع ما يمكن ان أقوله لك لأنه يوجد أمور لا أجسر على قولها فاضطربت ناديا وقالت : متى كتبت هذا الاقرار وأين ؟

— كتبته هنا في هذا البيت منذ عدة أشهر حين كنت وحدي فيه .

— وأين وضعته ؟

— وضعته في قدر وختمتها ثم حفرت حفرة عند جزع الشجرة الخامسة في الحديقة ودفنته فيها فإذا أصبت بنكبة ، لأن قلبي ينذرني بأن أباك سيقتلني فاحفري عند تلك الشجرة واخرجي ذلك الوعاء تعلمين مما كتبته كل شيء

— ولكنك تستطيع في انتظار ذلك ان تخبرني أين هي ابنتي ؟

- ان الجنرال عهد الي بها في اليوم الثالث من ولادتها فجئت بها مع المرضع الى فرنسا .

- وبعد ذلك ؟

— وضعتها بأمر أبيك مع الأولاد اللقطاء .

فذعرت ناديا وقالت : ألم تضع لها علامة تعرف بها على الأقل ؟

.. ان اباك منعني ان أفعل شيئاً من هذا ، غير اني عصيت أمره وستجدين في ما كتبته تفصيلاً كافياً تعرفين فيه ابنتك في الحال ، والان اسمحي لي أن أذهب فإني أخشى أن يعود أبوك .

ثم تركها وانصرف متجهاً إلى الباب فوجده مقفلاً من الخارج فهلع قلبه إذ خشي أن يكون الجنرال اقفله متعمداً لريبه بابنته ولكنه أسرع إلى النافذة ففتحها والقى نفسه منها إلى الحديقة .

وكان الظلام حالكاً فلم تره ناديا ولكنها سمعت صوت سقوطه ثم سمعت وقع أقدامه فعلمت انه لم يصب بسوء فجثت على ركبتيها وقالت : رباه ارحمني ورد الي ولدي .

وفي صباح اليوم التالي دخل اليها أبوها وقال لها ببرود : انني أرسلت الخادم نشيلد إلى فرصوفيا لأنه من شر الخدم .

فنظر ناديا إلى أبيها نظرت رعب وقالت في نفسها قد قتله لا محاله .

٧ -

ولنعد الآن الى خمارة أرلكين ، أي روكامبول ، فان عصابة اللصوص التي كانت فيها بزعامة باتير ثارت على زعيمها ثورة عامة ، ورأت انه لا يذكر بازاء روكامبول ، ولم يجد هذا الزعيم بدأ من مبارحة الخمارة والتخلي عن زعامة العصابة فخرج مغضباً حاقداً على روكامبول حقداً شديداً .

وكان أول ما خطر له بعد خروجه أن ينتقم من العصابة وزعيمها الجديد روكامبول بالوشاية إلى الحكومة ، وكان يعلم ان تيميلون ، ذلك الداهية الذي

عرفه القراء في الأجزاء السابقة ، تستخدمه الحكومة سراً لمقاومة العصابات وخطر له أن يذهب إلى تيميلون ويتآمر على روكامبول .

ولكنه ذهب إلى منزله فوجده مقفلاً ، وخطر له ان يذهب إلى رجل يدعى لولو كان يعلم انه من أتباع تيميلون ، فوجده في خمارة وهناك علم منه أن تيميلون قد برح باريس فراراً من روكامبول وحكى له جميع حكايته مع موروليكس .

وزاد هم باتير وحقده على روكامبول ، وعظم في نفسه بعد ان علم انه غلب تيميلون ، ولكن الحسد كان قد تمكن من قلبه وتمثل له الانتقام بأفظع صورة ، فذهب إلى خمارة وأقام يشرب فيها ويفكر بوسائل الانتقام فلا يهتدي إلى مراده .

وبعد أن تخدر دماغه ذهب الى فندق ينام فيه عادة لصوص باريس المتفرقين ، ولقي هناك شيفيوت عدوة انطوانيت السابقة ، وهي جالسة في قاعة متسعة فيها فرش من القش ينام عليها اولئك اللصوص فسلم عليها وجلس بازائها وجعل يحدثها عن تيميلون ، فحكت له حكايتها مع روكامبول واظهرت له حقدها عليه ، ثم اخبرته ان لا سبيل الى الانتقام منه إلا بالحيلة لأنه اصبح من رجال البوليس وانهم يحترمونه كل الاحترام .

وسألها ماذا تعملين الان وكيف ترتزقين ؟

فضحكت وقالت : اني ارتزق من سرقة الأطفال .

وكانت فتاة صغيرة نائمة بقربها ولما سمعتها تقول هذا القول جلست على فراشها ونظرت إلى شيفيوت نظرات الدهش ، وجعل جميع أولئك اللصوص يتأملون وجه هذه الفتاة الجميل ، التي كانت بينهم تشبه ملاكاً من السماء وقع بين الأبالسة .

وكانت هذه الطفلة تنظر الى اولئك المحدقين بها نظرات الرعب والانذهال في حين أنهم كانوا ينظرون اليها نظرات الرضى والاعجاب .

وانتهرت شيفيوت تلك الفتاة حين رأت ان الأنظار قد تحولت اليهـــا وقالت . ألا تريدين ان تنامي أيتها الشقية ؟

فركعت الطفلة أمامها وقالت لها : رحماك يا سيدتي لا تضربيني ، افعل ما تشائين .

فأمرتها أن تنام بعد ان صفعتها فقال لها باتير . ما شأن هذه الطفلة ؟

– اني سرقتها .

– ممن ؟

– ماذا يهمك ؟

– قد لا يهمني ولكني أريد ان أعلم .

– إذن سأقص عليكم حكايتها إذا كنتم لا تريدون النوم فإن حكايتها طويلة .

وتطاولت الأعناق اليها وقد تشوقوا إلى سماع الحكاية وقال باتير : ابدأي بقصتك أنت أولا فاننا نحب سماعها .

فقالت وهي توجه الكلام إلى باتير : لقد علمت انهم تركوني بين حية وميتة في ذلك البيت وقد أصابتني فاندا برصاصة في صدري كدت أفارق بعدها الحياة وكان الدم يتدفق من فمي حتى ان الطبيب نفسه قدر اني لا اعيش ساعتين .

– وبعد ذلك ؟

– نقلوني إلى المستشفى فأقمت فيه ثلاثة أسابيع ونجوت من الموت فلما شفيت اطلقوا سراحي وأعطوني شيئاً من النفقة .

وكنت في اشد حالة البؤس لا أعلم ماذا أعمل فذهبت الى شيخ المخدمين فأدخلني في خدمة رجل عجوز وكانت امرأته العجوز تربي هـذه الفتاة التي ترونها .

– العلها ابنتها ؟

– لا يمكن ان تكون ابنتها فانها تبلغ الخامسة والستين من العمر غير انها

على قلة ثروتها كانت تعتني بها اعتناء شديداً ، فكان مما قالته لي عند دخولي في خدمتها ان هذه الفتاة ليست ابنتي ، وما هي قريبة لي ، ولكني احذر عليها كل الحذر لأنها إذا أصيبت بمكروه فقدت مورد رزقي فاني أعيش من الراتب المعين لها .

أما أنا فلم اكترث لهذه الوصية ولكني لبثت اعتني بالطفل والعجوز واخدمها غير ان هذه العجوز كانت تغير ملابس الطفلة بيدها فرأيت يوماً على هذه الطفلة قميصاً مصنوعاً من قماش غير عادي ، وكان القميص مشدوداً على صدرها بسيور متينة وما رأيت العجوز تعرضت مرة لهذا القميص فهاجت بي عاطفة الفضول وقلت في نفسي لا بد لي من أن أعرف أسرار هذا القميص .

فاغتنمت فرصة خروج العجوز من المنزل ونزعت ملابس الطفلة ثم حاولت ان أجرد القميص فما استطعت حل السيور وخشيت أن أقصها فتعلم العجوز بما فعلت ولم أكن قبضت راتبي بعد إذ لم يكن لي في خدمتها غير اسبوعين فأجلت ذلك إلى فرصة أخرى .

وبعد يومين جاء في الساعة العاشرة من الليل الى ذلك المنزل رجل طاعن في السن ظهر لي من ملابسه انه روسي، لأنه كان يلبس الفرو الكبير فاستقبلته العجوز استقبالاً فخيماً وأسرعت الي فأمرتني ان اذهب الى غرفتي التي كنت أنام فيها في الدور الأسفل ، فخرجت واغلقت الباب من ورائي وانا منشغلة البال لهذا الاجتماع ، ونزلت في درجات السلم وهما يسمعان وقع اقدامي عليها ، حتى إذا انتهيت إلى أسفلها خلعت حذائي وعدت فصعدت درجات تلك السلم ، ووقفت عند باب الغرفة انظر من ثقب قفلها إلى ما يجري أتعلمون ما رأيت ؟

رأيت ذلك الرجل اخرج من جيبه قميصاً مثل قميص الطفلة ولكنه اكبر منه كأنما الطفلة قد ضاق عليها القميص القديم لنمو جسمها ثم طلب إلى العجوز أن تحضر له مقصاً ، وأخذ الطفلة فاحتضنها وجعل يقبلها قبلات الحنو ثم

جردها من ثيابها بمساعدة العجوز ، وقص سيور القميص الذي كانت تلبسه وجردها منه فانكشف لي ظهرها ورأيت عليه ما لم يخطر لكم في بال، اذ رأيت نقوشاً زرقاء غريبة ملأت ظهرها وهي نقوش ما رأيت مثلها في حياتي .

فضحك الحاضرون لكلامها وقال واحد منهم : ان شيفيوت تحدثنا بأحاديث خرافية .

غير ان باتير شاقه حديثها فمنع الحاضرين عن مقاطعتها وقال لها : أتمي حديثك .

وعادت شيفيوت الى تتمة حديثها فقالت انى حين رأيت هذا الوشم على ظهر الطفلة ، وهذه العناية في اخفائه قلت في نفسي : لا بد ان يكونوا وشموها ليكون الوشم علامة لها ، وربما كان هذا الروسي اباها بدليل حنوه عليها ، فإذا سرقتها كان لي خير وغنم كثير إذ لا بد أن يبحثوا عنها ويكافئوا من يجدها .

وفي اليوم التالي خرجت العجوز لقضاء بعض الأغراض فخرجت أنا بالطفلة ولم اعد الى ذلك المنزل .

وقد كادت تعمى عيناي منذ ذلك اليوم لكثرة مطالعتي الجرائد رجاء أن أقف فيها على إعلان يتضمن فقد الطفلة والجائزة المعينة لمن يجدها فلم أعثر على شيء من هذا الى الآن .

فقال لها باتير العل القميص لا يزال على هذه الطفلة ؟

— نعم ولكني قطعت سيوره كي أفحص ما على ظهرها من الوشم .

— إذن جرديها من ملابسها فإننا نريد أن نرى ما رأيت .

فقامت شيفيوت الى الطفلة ونزعت قميصها ، وادنى أحد الحضور المصباح منها واجتمع أولئك اللصوص حولها ، فرأوا على ظهرها وشوماً غريبة باشارات غامضة تشبه حروف اللغة السنسكريتية ، وفي وسط هذا الوشم صورة حية هائلة رأسها رأس امرأة .

فدهش الجميع لهذه الرسوم التي لم يفقهوا معناها حتى قام أحد الحاضرين وقال : انا اعرف هذه الرموز الهندية فقد كنت في صباي بحاراً وسافرت مرات عديدة الى الهند

وتحولت الأنظار عن ظهر الطفلة إلى ذلك الرجل وتأهبوا لسماع حديثه وكشف هذه المعميات

٨ -

وكان هذا الرجل في سن الكهولة تدل سحنته وتلهب عينيه على ما طوى في نفسه من الشر والخبث ، فوقف بينهم في موقف الخطيب وقال : ان الرفاق يلقبونني بالبحار : وهي مهنتي القديمة ، ولكني تقلبت في جميع المهن فكنت بحاراً ، ثم صرت جندياً ، ثم أصبحت لصاً ولا أزال في عداد اللصوص .

وقد تمرست في جميع العادات وطفت في جميع البلدان ، فتمرنت على شرب الأفيون في الهند ، والحشيش في مصر ، فأنا أعرف كثيراً من الخفايا فلا تخفى علي هذه الرموز .

أما هذا الوشم الذي ترونه على ظهر هذه الطفلة فهو رمز سري اختص به الهنود العاصين على الانكليز ، وهم ينقشونـــه بحبر لا يمحى فوق ظهور الذين يريدون الانتقام منهم فتنتقل هذه الوشوم بالارث من الاباء والأمهـــات إلى أولادهم ولا بد ان يكون والد هذه الطفلة او امها موشوماً بهذا الوشم .

ولا بد لي من إيضاح وجيز تفهمون منه القصد من هذه الوشوم وهو انه يوجد في الهند فريقان ساخط عليهم ، اما الفريق الأول فقد خضع لهم كل الخضوع فدفع الضرائب وعاش بينهم مطمئناً راضخاً لأحكامه ، وأمـــا الفريق الثاني ، فانه لا يريد غير الحرية بالاستقلال وهم يحتمون بالغابات ويأبون الخضوع

وقد الفوا شركة هائلة سياسية ودينية ، ونشروا أعمالهم في الصين واليابان وافريقيا واوربا ، وجميع الأقطار ، وهؤلاء الأعضاء يلقبون عندهم بالخناقين ، وقد تعصبوا تعصباً غريباً على كل أوربي ولا سيما إذا كان من الانكليز ، فاذا عثروا باحدهم في مكان خفي هجموا عليه وخنقوه .

فاعترضه باتير واجابه: إذا كانوا يخنقون اعداءهم فأية فائدة لهم من وشمهم؟

- إن لهؤلاء الخناقين ديانة سرية فهم يعبدون الالهة كالي والاله سيوا وسمكة صغيرة زرقاء لا يوجد منها إلا في نهر الكونغ ، وتمساح أخضر اللون لا أعلم في أية بحيرة مقره ، وفي معتقدهم ان جميع هذه الالهة تطلب ضحايا بشرية فان أحد هؤلاء الخناقين يخنق الفتاة إرضاء للالهة كالي ، وآخر يخنق رجلاً ارضاء للاله سيو ، غير ان مطالب معبودهم التمساح أشد من مطالب آلهتهم الأخرى ، فانه لا يريد ان تكون ضحاياه الا من الاطفال .

ولذلك فاذا خطر لأحد عباد التمساح الانتقام من اجنبي وشمه بهذا الوشم ثم اطلق له السراح ، فيتزوج الأجنبي ويلد البنين فيخلق أبناءه موشومين ، فاذا رأى أي خناق ، من عباد التمساح طفلاً موشوماً في أي بلد ، فلا بد له من خنقه ارضاء للاله وتنفيذاً لأوامر تلك الجمعية الهائلة .

وهنا سكت البحار فضحك الحاضرون لغرابة روايته ولم يصدقه أحد ، فقال باتير : انه يمزح .

وقالت شيفيوت : انني سأحرص على هذه الطفلة ليس لاشفاقي عليها بل لرجائي الكسب منها .

فاستاء البحار مما أظهروه من الشك وتفرق شمل الحاضرين فخلا باتسير بشيفيوت وسألها : أحقيقة ان روكامبول يخدم الحكومة ؟

— لا ريب في ذلك عندي .

— وانك تكرهينه حقيقة كما تقولين ؟

— انني لو عثرت بنخاع رأسه لقليته بزبدة سرداء وأكلته .

ـ أتريدين ان تنتقمي منه ؟
ـ لا أريد غير هـذا الانتقام ولكني لا أجد وسيلة .
ـ أهو يعرفك إذا رآك ؟
ـ أنا أعرفه لأنهم دلوني عليه ولكنه لا يعرفني لأنه لم يرني غير انه رجل شديد لا يحب الاستخفاف به وكفاه انه غلب تيميلون .
ـ ولكني سأغلبه أنا .
ـ كيف ذلك ؟
ـ سأخبرك بعد الان .

ثم نام على فراشه بالقرب منهـا وبينهما تلك الطفلة فكانت تشبـه ملاكاً تحرسه الشياطين .

وعند الصباح تفرق اللصوص فذهب كل في شأنه وخرج بعدهم باتـير وشيفيوت فقال لها وهما سائران : أفهمت ما قلته الان ؟

ـ كل الفهم ..
ـ إذن سنجتمع في هذا المساء .
ـ دون شك .
ـ وسيعلم روكامبول انه يوجد من يغلبه .
ـ وانا كذلك .
ـ وانا الان ذاهب الى خمارة ارلكين كي اجتهد في الحصول على انصار لنا بين رجال العصابة .

فدعت له بالتوفيق وافترقـا فسار باتير الى الخمـارة ، وذهبت شيفيوت والطفلة على كتفها الى احد الشوارع المقفرة .

بعد ذلك بيومين كان روكامبول لا يزال في فراشه ، واولئك اللصوص يحرسونه ويحرصون عليه وكلهم معجب بنفسه يعلل النفس بالثروة لاشتغاله برئاسة روكامبول . فكان بينهم كالقائد العظيم بين جنوده ولم يكن أحد يراه بينهم إلا جواني الجلاد ومورت فكانت العصابة تخضع لهما لأنهما من أخصاء روكامبول وتسألهما عنه كل ساعة مترقبة شفاءه السريع .

وبينما هم جالسون يتحدثون إذ دخلت عليهم شيفيوت والطفلة محمولة على كتفها فعرفها الجميع واستقبلوها استقبالاً حسناً ورأوا الطفلة معها وقد وضعتها على الأرض فجعلوا يداعبون تلك المرأة ويسألونها كيف ولدت تلك الطفلة ولما علموا انها سرقتها سألها أحدهم أتتزوجين بي ؟

-- كلا لان زوجتك تنتظرك ومازوجتك غير المشنقة التي ستعلق عليها بفضل روكامبول لأنه من أنصار الحكومة .

فاضطرب اللصوص اضطراباً شديداً وهاج عليها أنصاره واتهموها بالجنون ولكنها دافعت عن نفسها خير دفاع فتنصلت من التهمة وقالت لهم : إني ما أتيت إلا لأنقاذكم لأن روكامبول دخل في خدمة البوليس ولا بد ان يقبض عليكم في أقرب حين .

فأجاب مورت : إنك تكذبين لأن روكامبول لا يخون .

فأقسمت لهم بمهنة اللصوصية على صدق ما تروي ، وهي يمين يحترمها اللصوص كل الاحترام ، وأقنعتهم بالبراهين الشديدة ووقفت بينهم موقف الخطيب فاتهمت روكامبول بالخيانة ، وأهاجت عليه صدور العصابة وحكت لهم حادثة سجن سانت لازار على ما تريد ، من كل مـــا يثبت اتفاق روكامبول مع البوليس حتى تغيرت خواطر اولئك اللصوص عليه وثبت لهم صدق شيفيوت وخيانة روكامبول .

ولم يكن يستطيع الدفاع عنه وإظهار الحقيقة غير جواني الجلاد ،ولكنه لم يكن حاضراً بينهم لأن روكامبول قد أرسله بهمة الى باريس .

وفيما هم يتداولون وقد ارتفع ضجيجهم ، وعلت اصوات سخطهم على روكامبول ، دخل باتير فصاحوا جميعهم بصوت واحد : ليحيى باتير وليمت روكامبول .

ثم ثار ثائرهم فصرخ أحدهم : لنطرح هذا الخائن في النهر .

وصاح آخر : بل لتقطع رأسه !

وقالت شيفيوت : بل دعوني أخنقه بيدي !

فصاحوا جميعاً : ليمت روكامبول ! ما عدا مورت فإنه كان ساكتاً لم يفه بحرف .

وقد انتصر باتير وعادت اليه الزعامة وحاول ان يهجم برجاله على غرفة روكامبول فيمزقه تمزيقاً .

ولكنهم قبل ان يهجموا على تلك الغرفة ، ظهر لهم روكامبول عند بابها ، وهو مصفر الوجه ولكن عينيه تتقدان ببريق غريب ، فتراجعوا عند رؤياه .

وكان يوجد في قاعة تلك الخمارة نحو ثلاثين لصاً ، وكلهم خاضعين لباتير ، وكان روكامبول قد سمع بعض حديثهم وأدرك من ملامحهم كل مقاصدهم فوقف على عتبة الباب ووضع إحدى يديه فوق صدره الجريح وجعل ينظر الى اولئك اللصوص نظرات ملؤها الاحتقار ، ثم يجيل نظره فيهم فينبعث من عينيه بريق تتكهرب له نفوسهم فيغضون الطرف واجمين كأنما تلك النظرات وعيد هائل لا يفقهون له معنى .

ثم اشتد روكامبول بعد ان رأى تأثير نظراته وثباته ، وذهب الى باتير زعيم العصابة وخاطبه بملء الاحتقار : أأنت هو الذي يتهمني بالخيانة والجاسوسية ؟

فأجفلت العصابة ، لما بدا من ظواهر احتقـاره وبسالته ، وقالت في نفوسها : إن من كان جاسوســـاً للحكومة ، لا يجسر على الكلام بمثل هذه اللهجة .

أما باتير فقد أجابه بصوت يضطرب قائلاً : نعم ، انا الذي قلت هذا الكلام .

فدنا منه روكامبول خطوة وأجاب : إذاً أنت كاذب سفاك .

فضم باتير قبضتيه إشارة إلى التهديد غير ان مورت الذي وقف بينهما وقد برق خنجره بيده فقال : الويل لك إذا جرأت على ضربه فإني أمزق أحشاءك بهذا الخنجر .

فساد السكوت دقيقتين بين العصابة وانقسمت في الحال الى شطرين ، فمال شطر الى روكامبول وحشر الفريق الآخر تحت راية باتير وجعل كل فريق ينظر الى الآخر نظرات الشر والوعيد .

غير ان روكامبول أوقفهم باشارة وقد رأى ان السيادة بدأت تعود اليـه فقال بلهجة الحنان : اني لا أريد ايها الرفاق أن أكون السبب في خصـــامكم وتفريقكم فان من كان مثلكم لا يفيدهم غير التآلف والوئام .

فبدت من الجميع اشائر الاستحسان لكلامـه ما خلا شيفيوت فإنها قالت كلاماً يدل على السخط فدنا روكامبول منها ووضع يده على كتفها وقـــال لها بلهجة المتهكم : ما بالك لا تقولين لهم انك أنت التي كنت في خدمة البوليس لأنك كنت في عصابة تيميلون ؟

فخافت شيفيوت لأنها كانت تشعر ان نظرات روكامبول تحرقها فوجمت وأطرقت بنظرها الى الأرض .

فالتفت عند ذلك روكامبول الى أفراد العصـــابة ، وقد شعر بانتصاره وقال : أصغوا إلي جميعكم لأني لا أحب أن تحكموا علي دون ان تسمعوا أقوالي فاصغوا إلي .

فصرخ حزبه: ليحيى روكامبول ! وسكت حزب باتير . فتابع وكامبول:
لا أعلم حقيقة ما قالته هذه المرأة ، ولكنكم إذا أردتم سماع حكايتي فهذه
هي : إني كنت في سجن طولون وكان لي رفيق بالقيد يدعى ميلون كان
قبل دخوله السجن خادماً أميناً ليتيمتين وقد سرقوا هاتين الاختين غير أن
السارق لم يكن فقيراً معدماً يسرق ليعيش مثلنا بل كان من أصحاب المقامات
العالية ومن الوجهاء كما يقولون.

فهربت من السجن مع ميلون لأني وعدته بارجاع الثروة للأختين وما تعودت
غير الوفاء .

فصفق له أحزابه تصفيق استحسان واصفر وجه باتير ،فاستأنف روكامبول
الحديث وقص عليهم بذلك اللسان الذرب الذي خدع بـه المدموازيل
سالاندريرا حين كان يـدعى المركيز دي شمري ، جميع تاريخ انطـوانيت
ومدلين وخاض في كلامه حتى جعل العصابة تميل الى الأختين ، وتكره
موورليكس وتحب اجينـور ، وأودع في نفوس اولئك اللصـوص عواطف
الحب لفاندا .

استفاض في حديثه نحو ساعة وهو يتلاعب بعواطف سامعيه كما يشاء حتى
إذا فرغ من حديثه سقطت دولة باتير وتقدم احزابه انفسهم من روكامبول فقالوا
له · أيها الرئيس أننا أخطأنا اليك فاغفر لنا .

– إني أسامحكم ولكني أحب ان اكون زعيماً لكم لأني لا أتولى زعامـة
عصابة إلا إذا كان رجالها يعترفون بمطلق سلطاني ويخضعون لي خضوعاً مطلقاً
لا حد له .

فصاحوا جميعهم بصوت واحد : سنكون كلنا كما تريد .

وقال بعضهم أتريد أن نلقي باتير في المياه ؟
– كلا ولكني اذا توليت رئاستكم ، فلا أحب ان يكون هذا الرجـل
من العصابة .

فأسرع الجميع الى طرد باتير ولكنهم لم يجدوه ، لأنه هرب قبل ان يطردوه .

وعند ذلك تقدمت شيفيوت وقالت : وأنا أتآمر بطردي أيضاً ؟

- انت يجب عليك ، قبل كل شيء ، أن تقصي علينا حكاية هذه الطفلة .

فامتثلت شيفيوت وأخبرته بما عرفه القراء من حديث الطفلة .

فأمر صاحب الخمارة بالاعتناء بها ثم التفت الى رجال العصابة وقال لهم : ان مسألة المنزل يجب تأجيلها ثلاثة أيام الى ان أكون قد تعافيت والآن إذهبوا جميعكم حذراً من البوليس لأن الفجر قد انبثق ولا تفعلوا شيئاً في هذه الأيام الثلاثة .

فتفرق اللصوص وعاد روكامبول الى غرفته وهو يقول : هوذا خطر جديد فكيف يتيسر لي إنقاذ سكان ذلك المنزل واللصوص طامعون فيه .

ثم اضطجع في سريره وهو يفكر .

- ١٠ -

بعد هذه الحادثة بثمانية أيام كان أربعة في قارب يجتازون نهر السين وهم مورت ومرميس وشانوان وروكامبول .

وكان القارب يسير بهم سيراً مستعجلاً بالرغم عن مقاومة التيار حتى بلغا الى إحدى ضفتي النهر . فقال مورت لروكامبول : هذا هو البيت .

وأشار بيده الى بيت معتزل في ذلك المكان ، فنظر روكامبول اليه فوجده محاطاً بحديقة تكتنفه من كل جانب ورأى أشجاراً باسقة عند مدخل بابه الكبير .

فلما تأمل روكامبول هذا البيت ملياً قال لمورت : إن الوقت لم يحن بعد وعندي ان الأجدر بنا ان نعود الى الضفة الثانيـــة فنتعشى في إحدى الحانات ونصبر الى ان ينتصف الليل فنعود .

فامتثلت العصابة له وعاد رجالها الى التجذيف حتى بلغوا المكان الذي يسيرون اليه وفيما هم على الطريق أخرج شافوان مطرقة من القارب وأراها لروكامبول فسأله : ما هذه المطرقة ؟

– إنها تغنيني عن الخنجر والمسدس ، أضرب بها الرجل ضربة واحدة على صدغه فأجهز عليه .

- هي مفيدة . ولكنك لا تحتاج اليها هذه المرة لأني سأدخل وحدي الى هذا البيت .

وكانت العصابة قد أقسمت يمين الطاعة لروكامبول فسكت شافوان ممتثلاً ولم يجب .

وظل القارب يسير بهم حتى وصلوا الى المكان المعين فربطوه إلى صخرة على الشاطىء وصعدوا جميعهم الى خمارة هناك فجلسوا حول مائدة وطلبوا ما اشتهوه من أكل وشراب .

ولم يكن يوجد غيرهم في تلك الخمارة فلما بلغت الساعة التاسعة دخل اليهـا رجلان وجلسا حول مائدة محاذية لمائدة العصابة وطلبا خمراً .

وكانا يتكلمان باللغة الفرنسية غير ان لهجتهما كانت إنكليزية .

فجعل روكامبول يراقبهما خلسة لأنه عجب لوجودهما في هذا الموضع لا سيما وان صاحبه استقبلهما استقبال الغرباء .

أما بقية أفراد العصابة فقد شغلوا بأكلهم وشرابهم ما خلا روكامبول فإنه كان منتبهاً لهما كل الانتباه إذ كان يظهر له من شربهما وسكونهما انهما على غير ما يريدان ان يظهرانه .

ومما نبهه اليهما لون بشرتهما ، فإنه كان يدل على انهما من أصل غريب ،

يشبه ذلك الأصل الممتزج بين الهندي والانكليزي . ثم أنهما بعد سكوت قليل جعلا يتكلمان بلغة لم يفهمها افراد العصابة ما خلا روكامبول، فقد علم انها لغة هندية يعرفها كثيرون في بلاد الانكليز ، وكان روكامبول قد عرف هذه اللغة لكثرة اختلاطه مع قومها حين وجد في لوندرا فكان يفهم كل ما يتحدث به الهنديان .

وكان احدهما قوياً ضخم الجثة شديد العضل يدعى اوسمـــانا والآخر على عكسه صغير الجثة نحيل الجسم رخيم الصوت حتى ان من يسمعه يخال انه امرأة متنكرة بزي رجل وكان يدعى كيرشي .

وبعد ان شربا زجاجة دون ان يفوها بحرف إفتتح الصغير الحديث فقال : إن باريس أصغر جداً من لوندرا ولكنه يصعب فيها اقتفاء اثر رجل يريد ان يحتجب عن الأنظار .

إني اقتفيت اثر الأب والابنة ستة أشهر وكنت أتبعهما كل يوم تقريباً وقد لقيتهما عدة مرات ، فلو كان الوقت قد حان لكنت قضيت المهمة التي تسعى اليها ولكنك تعلم يا اوسمانا ان الأمور مرهونة بأوقاتها وان الوقت لم يكن حان بعد .

إنحنى اوسمانا إشارة للمصادقة وقال : أتم حديثك يا كيرشي .

— إني تبعتهما من فرصوفيا في جميع أسفارهما حتى وصلا إلى باريس وهنا فقدت أثرهما ، ولم أهتد اليهما إلا منذ ثمانية ايام حين ورد إلي كتاب من اللجنة في لندرا .

— وأخيراً التقيت بهما ؟

— نعم ، وها انا قد جئت بك هذه الليلة ، وسأوصلك الى المـنزل الذي يقيمان فيه .

— حسناً إن الوقت قد حان وساعة هذا اللعين قد دنت

— ولا شك ان الآلهة كالي ستكون راضية لأني أعددت كل شيء

— ماذا أعددت ؟

— إن هذا اللعين والد الفتاة قد طرد خادمه منذ اسبوع ثم جعل يبحث عن سواه في باريس فوجد خادماً ولكنه من جمعيتنا .

— أهو من الهنود ؟

— كلا بل هو انكليزي ولكنه يحسن التكلم بالفرنسية وظواهر السلامة بادية في وجهه فاستخدمه اللعين دون حذر .

وسيأتي هذا الخادم عند منتصف الليل فيفتح لنا الباب وندخل حينما يكون الأب والابنة نائمين فنقضي مرامنا دون ان يشعر بنا أحد .

وبينما كان الهنديان يتكلمان كان مورت ومرميس وشانوان يتكلمون بما أوحت اليهم الخمر .

أما روكامبول فكان يتظاهر انه نائم وهو مصغ كل الاصغاء فلم تفته كلمة من حديث الهنديين .

وعاد الهنديان الى الحديث فقال اوسمانا . والطفلة اين هي الآن ؟

— لقد وجدت اثرها ايضاً ولكني اضعته .

— كيف ذلك ؟

— إن اللعين كان يخفي تلك الطفلة في منزل إمرأة عجوز مقيمة في شارع الدلتا ، وكنت أعددت كل شيء لقتلها ، ولكنهم سبقوني لاختطافها .

— ومن الذي سبقك اليها العله الجنرال ؟

— لا أعلم غير اني لا أظن انه هو الفاعل .

— من تظن انه اختطفها ؟

— لم اشتبه بأحد ولكني واثق من انها اختطفت في ذات اليوم الذي كنا عازمين فيه على اختطافها .

— يجب أن نجدها فان كل موشوم برموزنا من النساء ينبغي ان يكون

ضحية الآلهة كالي .

— سنجدها دون شك .

فقال روكامبول في نفسه : ما هذا الاتفاق الغريب فاني بت واثقاً ان هذه الطفلة التي يتحدثان عنها هي نفس الطفلة التي سرقتها شيفيوت .

وعاد اوسمانا إلى الحديث فقال . انه يوجد على بعد مرحلة من ضفة السين اليمنى منزل يقيم فيه اللعين وابنته فأنت تخنق الأب وأنا أخنق الأبنة دون أن يعلم بنا أحد .

وماذا يهمنا إذا عرفت الحكومة وقتلتنا فأن حياتنا ليست لنا بل هي للجمعية ولأعضائها مطلق الارادة بأنفسنا يتصرفون بها كيف يشاؤون ولكن قل لي أتعرف الطريق إلى هذا المنزل ؟

— دون شك واني اتفقت على موافاتك إلى هذه الخمارة لأنه في الساعة الحادية عشرة يمر قطار السكة الحديدية فيسير بنا حالاً إلى منزل فيانيف سانت جورج .

فاضطرب روكامبول إذ أيقن أنهما ذاهبان الى المنزل نفسه الذي عزمت العصابة على سرقته وقال في نفسه : ما هذا الاتفاق فانهما يريدان قتل الطفلة التي حميتها من شيفيوت وقتل الرجل وابنته الذين اريد حمايتهما من اللصوص .

وأخذ بعد ذلك يراقب الهنديين أتم المراقبة فلا تفوته حركة او كلمة منهما .

أما الهنديان فكانا مطمئنين ولم يخطر لهما الحذر في بال فجعلا يدخنان واستغرقا بالتأملات العميقة التي تشبه الذهول شأن كل رجال الشرق الاقصى .

وبعد حين دفع مورت بكوعه روكامبول وقال له أظن أن الوقت قد حان فان الساعة ١١ أوشكت ان تدق .

— لقد أصبت ونظر إلى رفاقه فقال لهم هلموا بنا .

ثم دفع لصاحب الخمارة ما طلب وذهبوا جميعهم إلى القارب فأسرع مورت

لرفع المراسي فأوقفه روكامبول وقال : إذا كنا لا نصل في مدة نصف ساعة فلا فائدة من ذهابنا .

تعجب مورت وقال · ماذا يهم إذا تأخرنا عن هذه المدة ؟

فنظر روكامبول إلى ساعته وقال : ان الساعة الآن بلغت العاشرة ونصف فلا يجب أن نضيع الوقت سدى إذ لسنا وحدنا الذين يحاولون سرقة المنزل .

إرتعش اللصوص وقالوا : من الذي يزاحمنا فيه ؟

– أرأيتم هذين الرجلين الذين كانا يشربان هنا في الخمارة فانهما كانا يتكلمون بلغة أفهمها دونكم فعلمت كل ما ينويان ولهذا أطلب اليكم ان تكونوا فيطاعتي كرجل واحد .

فصاحوا جميعهم بتحمس انك لو أرسلتنا إلى الموت لما احجمنا .

– إذن انزلوا إلى القارب واسرعوا قدر ما تستطيعون .

فنزلوا جميعهم وكان أشدهم تحمساً الفتى مرميس فدفع القارب وصاح : ليحيى روكامبول ...

– ١١ –

وكان الجو صافياً والنجوم تسطع في الفضاء كليالي الصيف .

فاندفع القارب يسير في النهر الهادىء وقد أخذ مرميس مجذافاً يجذف به من اليمين فأخذ مورت مجذافاً آخر يساعده من اليسار ووقف شانوان في مؤخرة القارب يجذف أيضاً من الجانبين طلباً للسرعة .

أما روكامبول فقد لبث واقفاً في وسط القارب ، وكان يقول في نفسه : ان الهنديين قد غلطا في حسابهما فان القطار الذي يركبان به لا يمر في الساعة الحادية عشرة بل في الحادية عشرة ونصف وعلى ذلك فلا يستطيعان الوصول

الى ذلك المنزل قبل نصف الليل وسنصل اليه قبلهما إذا استمر قاربنا يسير بهذه السرعة .

وكان ساكتاً واجماً فكان اللصوص يحترمون سكوته كي لا يقطعوا حبل تفكره .

وقد أصاب ظنه فإن القارب وصل إلى المنزل المعتزل قبل أن يسمع صفير القطار .

فربطوا القارب ونزل مرميس وموريت الى البر ولما حاول شانوان أن يتبعهما سأله روكامبول · والمطرقة أتدعها في القارب ؟

– ألم تأمرني بابقائها فيه إذ لا حاجة اليها ؟

– نعم ولكني غيرت فكري الآن فهاتها.

فامتثل شانوان ، وجعل روكامبول يبحث في القارب فأخرج منه حبلاً فطواه ووضعه في جيبه ثم نزل الى البر قائلاً لرفاقه : اصغوا الي الآن اتعلمون من هما هذان الرجلان اللذان لقيناهما في الخمارة ؟

– لا ..

– انهما عضوان في عصابة لصوص هائلة .

فقال شنوان : اذن هما من رجال المهنة .

– وهما يريدان من هذا البيت ما نريده ولا أريد أنا شركاء .

– إذن ماذا تأمر ؟

– تعالوا معي وسترون .

ثم مشى أمامهم في طريق معوجة ضيقة تؤدي إلى حديقة البيت وعند ذلك سمع صفير القطار القادم من باريس .

ولم يكن للهنديين طريق يسلكانها من المحطة إلى المنزل غير هذه الطريق. وكانت الأشجار الضخمة تكتنف الطريق من الجانبين على مسافة مائة خطوة من باب المنزل الكبير ، فأخذ روكامبول الحبل من جيبه فنشره

وربط أحد طرفيه بشجرة ، والطرف الآخر بشجرة تقابلها في تلك الطريق الضيقة ، بحيث أصبح لا بد لمن يمر بهـــا أن يعثر بذلك الحبل الذي يعترضه فيقع .

وكان رفاقه ينظرون اليه وهم لا يعلمون شيئاً من قصده، ولمــا أتم ربط الحبل ذهب بهم إلى شجرة كبيرة وأمرهم أن يختبئوا وراءها .

ثم صفر القطار مرة أخرى فعلم روكامبول انه وقف في المحطة المؤدية إلى البيت وقال لرفاقه : اسمعوا الي الآن فإنه يجب علينــا أن نقبض على هذين الرجلين مهما كلفنا أمرهما من الجهد ، واني افضل أسرهما واستبقاءهما على قيد الحياة ، إلا إذا تعذر ذلك علينــا ، فلا بأس من أن يستخـدم شانوان إذ ذاك مطرقته .

فرد شانوان : ان ضربة واحدة تكفي للقضاء على من تصيبه .

وتابع مرميس : أنه تكفل بالكبير وأنا أتعهد برفيقه الصغير .

وسألهم مورت : وأنا ماذا أعمل ؟

فابتسم روكامبول وقال له : لا تيأس فسأجد لك عملاً .

وبعد عشر دقائق سمعوا وقع أقدام فأصغى روكامبول وقال : انهم اكثر من اثنين فناموا على الأرض ولا تأتوا بحركة إلا بأمري .

وكان أولئك القادمون ثلاثة غير انهم كانوا يمشون بخطوات بطيئة كأنهم يتشاورون فأشار روكامبول إلى رفاقه بالسكون وأصغى اصغاء تاماً ، فعلم من حديثهم أن هذا الرجل الثالث الذي يصحب الهنديين كان خادم الجنرال الذي دخل حديثاً في خدمته بعد طرد ذلك الخادم العجوز .

وقد سمع هذا الخادم يقول لهما : لا يزال الوقت فسيحاً .

فقال أحدهما : لا بأس ان ننتظر إذا كان لا بـد من الانتظار ولكن أين ننتظر ؟

فأشار لهما الخادم إلى المكان المختبيء فيه روكامبول وقـال لهم : انتظرا

تحت شجرة من هذه الأشجار التي تتصل بباب المـــنزل إلى ان تسمعا صفيري فتدنوان من الباب .

فاضطرب روكامبول اضطراباً شديداً لأنه خشي ان يتقدم الخادم وحــده بالحبل ويقف الهنديان على الحيلة فيهربان .

ولم يكن غرضه حماية الجنرال وفتاته فقط، بل انه كان يريد كشف الحجاب عن سر تلك الجمعية الهائلة التي يأتي اعضاؤها من اقصى بلاد المعمورة للانتقام من اعداء الالهة كالي والاله سيوا .

غــير انه سمع الخادم يقول للهنديين : امــا أنا فسأعود من الطريق التي اتيت منها .

فقال له احدهما : لماذا ؟

– ان مفتاح الباب غير موجود معي .

فقال له أوسمانا : كيف خرجت من المنزل ؟

– من باب صغير في الطرف الآخر من هذا البستان ويقتضي للدخول منــه ان ارجع على اعقابي وأسلك اليه طريقاً أخرى .

– ونحن ماذا نصنع ؟

– تقدما بين صف هذه الأشجار حتى تقربا من الباب فتلبثــان هناك حتى تسمعا صفيري .

ثم تركهما وانصرف .. فاطمأن خاطر روكامبول .

وكان روكامبول ورفاقه مختبئين وراء شجرة كبيرة .

وتقدم الهنديان حتى وصلا الى شجرة لا يفصل بينهما وبين شجرة روكامبول غير الحبل .

ووقفا قربها وارسلا بصرهما إلى ذلك البيت المنفرد ولم يجدا فيه غير نور واحد ينبعث من أحد النوافذ .

وكان مرميس واقفاً أيضاً قرب روكامبــول وهو ينظر إلى تلك النــافذة فأدنى فمه من اذنه وقال له همساً : هذه نافذة الأب .

غير ان صوت مرميس على ضعفه وصل الى أذن اوسهانا فاضطرب وانذعر وصاح : الي يا كيرشي .

ثم تقدم خطوة فعثر بالحبل وسقط وصاح صيحة أخرى ، فأسرع اليــــه كيرشي وسقط مثله ، فانقض عليهما عند ذلك رجال روكامبول .

وركع روكامبول فوق صدر أحدهما والخنجر مشهر في يده ثم قال له باللغة الهندية : اسكت أو اقتلك .

وذعر الهندي لسماعه تلك اللغة الهندية أكثر مما ذعر لاشهار الخنجر عليه فكف عن المقاومة في الحــال وسكنت حركاته شأن أولئك الذين يستسلمون الى الأقدار متى حل بهم المصاب .

وعند ذلك نادى روكامبول مرميس وقال له : تعال واقبض عليه .

ففعل وجعل روكامبول يفتش جيوبه فأخرج منه حبلاً تستعمله طائفــة الخناقين الهندية للخنق ثم بحث أيضاً فوجد مسدساً انكليزياً وخنجراً منقوشاً عليه نقوشاً غريبة .

وبعد ان جرده من هذه المعدات أخذ منديله فربط بـــه فمه كي لا يصيح وقال لمرميس : احرص عليه جيداً .

ثم ركض إلى الهندي الآخر فوجد شانوان رابضاً فوقه يكاد يميته وبيــده المطرقة وهو يقول : أأقتله أيها الرئيس ؟

فأجابه روكامبول : كلا ..

ودنا من الهندي فقال له بلغته : ان الاله سيوا يريد هذا .

فأثرت هذه اللغة به نفس تأثيرها برفيقه وكف عن المقاومة وجعل ينظر روكامبول نظرات تشف عن الرعب والحيرة .

ففتشه روكامبول كما فتش رفيقه فوجد معه نفس المعدات فاستولى عليها ثم ذهب الى الحبل الذي ربطه بالشجرتين فقطعه قطعتين وأوثق بهما ارجل وأيدي الأسيرين وثاقاً محكماً .

ولما فرغ من جميع هذا قال لرفاقه : لقد تغيرت خطتنا الآن فاذهبوا بالأسيرين الى القارب .

فتأسف مورميس قائلاً : والمنزل ألا نذهب اليه ؟

ــ سأقضي هذه المهمة وحدي .

فقال مورت : ألا تحتاج الى مساعد ؟

فهز روكامبول كتفيه قائلاً : إن المهمة بسيطة لا تحتاج الى اكثر من واحد أعطوني المطرقة واذهبوا في سبيلكم بالأسيرين ، واحرصوا عليهما حرصكما على الحياة .

فلما مشى بضع خطوات القى المطرقة وأخذ من جيبه حبلاً من الحبلين اللذين وجدهما في جيوب الهنديين ، وتقدم الى باب المنزل ، فرأى النور لا يزال في نافذة إحدى غرفه ولم يطل وقوفه حتى سمع صفير الخادم ثم فتح الباب وخرج الخادم وقال باللغة الهندية : اين أنتم ؟

فأسرع روكامبول وأطلق على عنقه ذلك الحبل ثم شده فأطبق حول عنقه وانقطع صوته .

- ١٢ -

ولندخل الآن بالقارىء الى هذا المنزل الذي كثرت المشاكل على بابه وأهله لا يعرفون . فإنه منذ طرد الجنرال الخادم نيشيلد سادت السكينة التامة في هذا البيت فلم يعد الجنرال يفوه بحرف ، ولم تعد ناديا تعترض عليه بكلمة ،

حتى انهما لم يكونا يجتمعان إلا على مائدة الطعام .

أما سكينة ناديا فلم تكن غير ظاهرية لأنها كانت تذكر ما قاله لها الخادم بشأن الأوراق التي دفنها عند جذع الشجرة وفيها كل ما تريد الوقوف عليه من الأسرار .

ويذكر القراء ان الخادم احتجب عن المنزل في اليوم التـــالي لإقراره ، ودخل مكانه خادم آخر فقال الجنرال لابنته حين دخوله عليها : إحذري أن تكلميني بشيء من شؤوننا امام هذا الخادم ، لأني لا أعرفه إلا من الشهادات التي بيده .

فلم تجبه ناديا بشيء ، وجعلت تنتظر فرصـــة تغتنمها لإخراج الأوراق من مدفنها .

واتفق في ليلة اشتد ظلامها أن والدها قام باكراً ، وكان الخادم قد خرج بعد العشاء لاستقبال الهنديين في المحطة فخرجت الى الحديقة وحفرت عنـــد جذع الشجرة التي دلها عليها الخادم ، فأخرجت تلك القـــدر المدفونة فيها الأوراق وأسرعت عائدة الى غرفتها وهي تمشي مشية اللصوص حذراً من ان يشعر بها والدها .

فلما دخلت الى غرفتها اغلقت بابها من الداخـــل ، وأرخت الستائر على النافذة حذراً من أن ينتبه أبوها الى النور ، ثم أنارت الشمعة . ولكنها لم تلبث أن أضاء نورها حتى صاحت الصبية صيحة منكرة وسقطت الأوراق من يدها .

ذلك انها لم تكن وحدها في تلك الغرفة بل كان فيها رجل ، وهذا الرجل أبوها الجنرال .

غير انها على فرط ذعرها أطمأنت بعض الاطمئنان حين تفرست في وجه ابيها فقد تعودت ان ترى ملامح القسوة والشدة بين ثناياه . ولكنها رأته على غير ما الفته فقد كان حزيناً تدل ملامحه على كآبة شديدة وقد سقطت دمعتان

على خديه الجعدين

فلما رآها أبوها على هذه الحالةقال لها بلهجة الحنو : إذاً أنت تريدين يا ابنتي أن تعرفي كل شيء ؟

فتقطع قلبها إشفاقاً على أبيها لما رأته عليه من ظواهر الحزن وقالت : مـا بالك يا أبي ؟

— أتريدين ان تعرفي ماذا فعلت بطفلتك ؟

فأطرقت بنظرها الى الأرض وقالت ، نعم يا أبي .

- وماذا فعلت بزوجك قسطنطين ؟

— نعم .

— أما قال لك خادمنا نيشيلد اني أخفيت الطفلة ؟

— ولكنها لا تزال حية أليس كذلك يا ابي ؟

فقال لها بلهجة حنو : أتسألينني اذا كانت حية ، وكيف لا تكون آمنة وأنا أرعاها ؟

فدهشت الصبية وقالت : ماذا أسمع وكيف تغيرت ومن أنت ؟

— أنا أبوك الذي أصابته الأيام بكارثة هائلة فاضطر مكرهاً إلى معاملتك معاملة الأعداء أعواماً طويلة وهو يذوب حنـــواً عليك . نعم اني أخفيت طفلتك ، ولكني أعرف اين هي ، وأعتني بها كل اعتناء . وأنا الذي أرسل قسطنطين الى سيبيريا ، ولكني لم أرسله الى تلك البلاد النائيـة إلا لأنقذه من موت هائل .

فجعلت ناديا تنظر الى أبيها نظرات غريبة كأنها خشيت ان يكون أصيب فجأة بالجنون .

وتابع قائلاً : لا تنظري إلي يا ابنتي هذه النظرات ، ولا تنخدعي بأقوال الخادم نيشيلد فإنه لم يكن يعرف غير ما رآه ، أما أنا فسأخبرك عن الحقيقـة بتفاصيلها وسترين بعد ذلك إذا كنت تجسرين على اتهام ابيك بما كنت تتهمينه

به من قبل .

وعند ذلك جذب ابنته الى صـــدره فقبلها وبكى ، ثم أجلسها بقربه وقال : إن ما عرفه نيشيلد من امري هو اني من أعيان بولونيا الذين رفعوا راية العصيان ، وانه قد جرى بيننا وبين جنود القيصر معارك هائلة ، وانه كان بين هؤلاء الجنود ضابط أحبتــه ابنتي وأحبها . ولكن ابنتي لم تجسر على مخاطبتي بحبها لأنه عدو لي ، ولم تستطع الاقلاع عـن حبه . فاندفعت في حبه حتى أذنبت . فأراد أبوك الانتقام منك ومنه على السواء ، وإنك جننت حين فقدت طفلتك وزوجك وإني خنت بولونيا ألم يقل لك الخـادم هذا القول ؟

– نعم يا أبي ، وقد زاد على ذلك انه كتب في هــذه الأوراق كثيراً من الخفايا .

– ستقرأينها بعد الآن للتفكه بها لأن هذا المسكين لا يعلم شيئاً من حقيقة أمرنا . وأما الحقيقة فهي ما تسمعينه مني فاصغي إلي :

إنني بولوني ولكني أتسمى بغير إسمي حتى اني حاولت نسيان إسمي القديم . ومع ذلك فلست مضطهداً ولا أنا من المذنبين . وعندما كنت في الثامنة والعشرين من عمري أنفت البقـــاء في بلادي ، لما كنا نلقاه من الخسف والمظالم ، فرحلت إلى الهند . وبعد إقامتي عاماً فيها تعينت قائداً في الجيش .

وكان لي صديق روسي هناك وهو قائد مثلي في ذلك الجيش .

فمرت بي عدة أعوام ترقيت في خلالها الى رتبة كولونيل فأحببت مس أنا إبنة الجنرال هاريس قائد الجيش الأكبر وهي أمك .

وقد كنت خطبتها إلى أبيها فتجهم وجهه وأبى ، فألححت عليه وذكرت له ان الحب متبادل بيني وبين إبنتــه وانه اذا أصر على رفض طلبي يسيء إلي واليها على السواء .

فسكت الجنرال هنيهة سكوت المضطرب ثم قال. لا تظن اني رفضت طلبك استخفافاً بك ودليلي على ذلك انه عندي فتاة ثانية إذا أردت الزواج بها فهي لك وهي مس ميبل .

– قلت لك لا أريد الزواج إلا بالمس أنا لأني أحبها وتحبني .

– أيها التعيس ! أتريد أن تموت قتيلاً يوم زواجك ، وتخنق إمرأتك بين يديك ؟

فدهشت لقوله وقلت . كيف ذلك ؟

– ذلك لأن المس أنا التي تحبهـــا مكرسة للآلهة كالي . أتعلم في أي بلاد نحن مقيمون ؟

– نعم أعلم إننا في بلاد الهند الانكليزية وإننا نعبد الإله القادر ولا شأن لنا في معبودات الهند .

فابتسم ابتسام الحزين وقال : ليس لنا من الأحكام غير ظواهرها . نعم اننا نحتل سون والحصـون ونجبي الضرائب . ولكننا لسنا الأسياد لأنـه يوجد فوق يدنا في هذه البلاد التي تظلها رايتنا وتحميها أساطيلنا يد قوية وحكومة خفية قادرة ، مجتمعاتها في الغابات والهياكل والمغائر الخفيـة ، ولهذه الجمعية الهـائلة منفذين في العـواصم ، ولا سيا لنـدرا ، يـدعونهم بالخناقين ، وهم يعبدون الإلهة كالي ويعتقدون ان هـذه الإلهة لا يرضيها غير سفك الدماء .

فقاطعته وقلت : ما الذي تخشاه على ابنتك من هؤلاء الخناقين ؟

– لقد قلت لك انهم كرسوها للالهة كالي . ويظهر اني لم أفصح عن مرادي بجلاء . إعـلم ان اعضاء هذه الجمعيـــة الهائلة يتعارفون برموز وإشارات سرية تخفى على الأوروبيين والانكليز وكل من لم يدخل في سلكها من الهنود .

وقد دخل في هـذه الجمعية كثيرون من أعيان البلاد وفقرائهـا ،

وامتزجوا بيننا امتزاجاً عظيماً ، حتى انه يوجد منهم كثيرون بين خدامنا وجنودنا .

وهم يعبدون كثيراً من الآلهة ، أخصها الإلهة كالي . فيلقي الكهنة ما توحيه اليهم تلك الإلهة على أعضاء الجمعية ، ولا بد من تنفيذ ما يأمرون . فقد صدر أمرهم منذ خمسة عشر عاماً أن هذه الإلهة تريد ان يضحى لها من الغرباء ستون فتاة من سن العاشرة إلى العشرين . فيقضى على هذه الفتيات بالعزوبة ، ومن تزوجت منهن يقتلها الخناقون وهم عباد هذه الإلهة .

فقلت مندهشاً : أتجب عليك الطاعة إذا أمروا ؟

– لا ولكن إسمع كيف ينفذون أوامرهم فإن هؤلاء الخناقين يبلغون أوامر إلهتهم كالي باعلانات يلصقونها على الجدران والأشجار والمنتزهات العمومية وأبواب الجامع ويأمرون عمالها ان يشموا كل فتاة يختارونها للتضحية برمز الإلهة الخاصة .

فلما تنتشر هذه الأوامر ، يحرص الآباء والأمهات على بناتهم كل الحرص ، ولكن حرصهم لا يفيدهم لأن ما تريده هذه الإلهة لا بد ان يكون .

وقد تنبهت حينا انتشرت هذه الإعلانات فأطلقت سراح جميع من كان في خدمتي من الهنود ولم يبق لدي غير الاوروبيين ، ووضعت الحراس والرقباء على منزلي ومنعت إبنتي عن الخروج من المنزل وعينت لها وصيفتان تنامان في غرفتها فلم يكن يدخل الى منزلي غير ضابط واحد ، وهو من أركان حربي ومن الانكليز .

وكنت قد التمست من حكومتي العودة الى انكلترا فصدر لي الأذن بالسفر وفي الليلة التي عولت على السفر ... ضاعفت عدد الحراس وبت مبالغة في الحرص في غرفة ابنتي .

وعزمت على السهر طول ليلتي ، ولكن النعاس تغلب على أجفاني فنمت بالرغم عني . فلما انتبهت في الصباح وجدت الجميع نياماً والباب مقفـــلا والكلب الذي كان على الباب ساكناً لم يتحرك ، فدنوت من إبنتي لاتفقدهما فرأيت إحداهما ، وهي المس أنا التي تريد ان تخطبهـا ، قد نزع قميصها عنها ، ورأيت تلك النقوش السرية مطبوعة فوق ظهرها وفي وسطها رمز الإلهة كالي .

ولم تكن قد انتبهت من رقادها ولم يصح أحد من النائمـين . حتى ان الكلب لم ينبح . ولكن الخناقين قد دخلوا الى تلك الغرفة فعلمت والأسفاه ان ابنتي ضحية لتلك الإلهة وقضي عليها بالعزوبة الابدية ، فإذا تزوجت كان نصيبها الموت .

فقلت له عند ذلك : لقد مضى على هذه الحادثة خمسة عشر عاماً ولا بد ان يكون الخناقون نسوا امر ابنتك .

ـ كلا لانه في كل عام في مثل اليوم الذي وشمت فيه يرد اليها هدية من هذه الجمعية يعتبرونها هدية الإلهة كالي . فلا نعلم كيف تصل اليها لانها تصبح فترى تلك الهدية على مائدتها ما زالت فتاة عذراء لان تلك الجمعية تعتبرها مقدسة مع البيت الذي تقيم فيه وأهله فلا يصيبهم أحدهم بمكروه . وأما إذا تزوجت كان نصيبها الموت لا محالة .

وعند ذلك فتح الباب فجأة ، ودخلت منه مس أنا فقالت لابيها : إني لا أخشى الموت يا ابي وقد أحبني الكولونيـل وأحببته . فأرجو ان يأذن لنا بالزواج .

فذهل السير هاريس لما رآه من ثباتها وتراجع مذعوراً الى الوراء .

وهنا توقف الجنرال هنيهة يمسح العرق من جبينه ويستريح وكانت ناديا مصغية الى حكايته وقلبها يخفق أشد الخفوق .

وعاد الجنرال البولوني الى الحديث فقـــال : ان السير هاريس ذعر ذعراً شديداً لما رآه من ثبات ابنته فبذل جهده بارجاعها عن عزمها،فلم يفلح فاضطر مكرهاً الى الموافقة على زواجنا واحتفل بعقده في كلكوتا فعزمنا على السفر جميعنا في اليوم التالي لزواجنا .

وكان الزفاف بسيطاً لم يحضره غير صديق لي من الروسيين كان شاهدي وفي اليوم التالي نزلنا جميعنا الى الباخرة فأعد لنا ربانها في الليل حفلة راقصة استمرت الى منتصف الليل لم يحضرها أحد من الهنود وقد حسبت اني بت في مأمن من أفراد تلك الجمعية الرهيبة .

غير اني ما زلت موجساً خيفة ، لان السفينة كانت عازمة على السفر في الصباح . فأدخلت امرأتي الى غرفتها ووضعت كرسياً عند باب الغرفة ومائدة وضعت فوقها مسدسين لاني عزمت على السهر طول تلك الليلة مبالغة في الوقاية .

ثم شعرت بظمأ شديد فطلبت الى الخادم ان يأتيني بكأس ماء بارد، فما كاد هذا الماء يستقر في جوفي حتى تثاقلت عيناي ولم أستطع مغالبة النعاس فنمت على الكره مني .

ولما استفقت عند بزوغ الفجر رأيت صدري عارياً من الملابس فنظرت في مرآة وصحت صيحة الدهش والرعب لاني وجدت على صدري تلك الوشوم الذي أخبرني بها السير هاريس .

وقد رأيت على المائدة التي كانت بقربي ، قطعة من ورق البببيروس ، كانت موضوعة بإزاء المسدس . فعلمت انها لي ودخلت الى غرفة امرأتي فذعرت حين رأت ذلك الوشم على صدري وقالت : لقد وشموك من أجلي فاغفر لي .

فأعطيتها تلك الورقة كي تترجها لي لاني لم أكن أعرف لغة القوم فقرأت لي ما يأتي :

(أيها الغريب إنك أحببت مس أنا هاريس حب جنون وهي مكرسة للالهة كالي وقد تجاسرت تلك الانكليزية على عصيـــان اوامر الآلهة فحكمت الآلهة عليك وعلى نسلك بالعقاب .

إن هذه العذراء ستغدو أماً وتموت وسيقتل أولادكا مهما بالغتما في الحرص عليهم واحداً بعد واحد وأنت ايها الغريب ستقتل بعد ان ترى بعينيك مصرع جميع الذين تحبهم لان الإلهـــة كالي تريد ان تعذبك أشد عذاب قبل ان تبعث بنفسك الخائنة الى عالم الاحلام

ثم ان هذا الصديق الروسي الذي يدعى بطرس سيلقى نفس عقابك وقد وشم كا وشمت لانه كان الشاهد على زواجك بضحية الآلهة) .

وكان التوقيع على هذه السطور رسم حبل وخنجر .

قال الجنرال لابنته : فلما فهمت هـذه السطور وثبت من الغرفـة وجعلت استغيث فأسرع إلي ربان السفينة وضباطها فلما رأى الربان ما أصابني قال: إنك من الهالكين .

ثم جاء صديقي بطرس وهو يصيح صيـــاح الذعر فقد وشموه كا وشموني ووشموا امرأته وابنه والطفل .

ثم خرجت امرأتي ايضاً وهي والهة تقول . اين أبي ؟

فذهبنا إلى غرفته فوجدناها مقفلة فقرعت بابها مرات فلم يفتح فكسرت الباب ودخلنا جميعاً فرأينا ما تقشعر له الابدان ، وهو ان السير هاريس كان ملقياً على فراشه تخيم عليه ظلمة الموت ، وفي عنقه حبـل من الحرير خنق به .

وقد كانوا رأوا في الليل السير هاريس داخل الى غرفته ، ودخل معه القائد سميث أحد أركان حربه وقد كان ينام في الغرفة معه . فلما كسرنا باب غرفته

وجدنا نافذه الغرفة المشرفة على البحر مفتوحة ، ولم نجد القائد سميث فيها ولا في الباخرة فأيقنا عند ذلك ان هـذا القائد من جمعية الخناقين وانه هو الذي فعل كل هذه الفعال .

ثم ارتاح الجنرال هنيهة واستأنف الحديث مع ابنته وقال : عدنا بعد ذلك إلى أوربا فافترق عني صديقي في ليفربول ولم أره بعد ذلك الى الآن .

وقد رجوت أن أجد طبيباً ماهراً يزيل عنـا تلك الوشوم فجئت بامك إلى فرنسا .

واستشرت اشهر اطبائها فقالوا لي ان هـذا الوشم لا يزول وقـد يتصل بالارث الى البنين فتظهر عليهم الوشوم نفسها حين يخلقون فتركته قانطاً وعدت بامك إلى بلادي .

وبعد أشهر ولدتك فكان سرورنا عظيماً لا سيما وإننا لم نجد على ظهرك أثراً من آثار تلك الوشوم فقالت لي أمك : ان هذه الجمعية لا بد أن تكون نسيت أمرنا ، وإذا كنت لا تزال خائفاً فنرسل ابنتنا إلى احد القرى فتربو فيها مع مرضعها باسم غريب .

فوافقتها على ذلك لأن خوفي كان لا يزال شديداً وأرسلناك في الحال مع إحدى المراضع الى وكيل لي في احد القرى وتمنا تلك الليلة آمنـين ولكني نهضت في الصباح فوجدت أمك واأسفاه مخنوقة لا حراك فيها وأمامها خنجر عليه تلك الرسوم السرية الهائلة .

وتعاقبت السنون على هذه الحادثة حتى صرت صبية فعدنا إلى فارسوفيا ، وعفى عني القيصر بعد خمود الثورة ، وكان ما كان بينك وبـين قسطنطين ، فعفوت أنا أيضاً عن زلتك وزلته ووعدته أن أزوجه بك وفي ذلك الحـين ولدت منه تلك الطفلة .

فدفعتها إلى القابلة حين ولدتها فما تأملتها حتى ذعرت وصحت صيحة رعب لأني وجدت على ظهرها تلك الوشوم التي وشمت بها أنا وأمك ،ودنا قسطنطين

حين سمع صيحتي ، ثم فتح صدرته ومزق قميصه وأراني صدره فإذا الوشوم نفسها مطبوعة عليه .

فدهشت وقلت : كيف وشمت هذا الوشم ؟

– أنا ابن بطرس كورسوف وقد كان ابي في الهند وعلى صدره مثل هذا الوشم .

فذكرت صديقي الروسي الذي كان شاهد زواجي وشعرت بقوة هذه الجمعية الهائلة .

وفيما نحن نفتكر باعداد وسيلة للفرار من الخناقين جاءني ساعي البريد برسالة ففضتها وقرأت فيها ما يأتي :

(ان ساعة قتلك وقتل ابنتك وصهرك قسطنطين قد دنت فافترقوا عن بعضكم وتأهبوا للموت) .

وكان توقيع الرسالة رسم خنجر وحبل ودفعته لقسطنطين وقلت له : انج بنفسك وأنا سأنجو بابنتي وافر بها إلى مكان قصي .

وقرأه قسطنطين وقال : لا بد لي من الفرار في كل حال فقد صرت بعد انضمامي اليكم من الثائرين وأنا أتوقع النفي إلى سيبيريا في كل حين.

فوافقته على ما قال .

واضطربت ناديا وقالت لأبيها بلهجة المؤنب إذن هي هذه الرسالة التي حملتك على التفريق وارسال قسطنطين إلى سيبيريا في حين انك كنت قادراً على التوسط في العفو عنه !

– نعم فاني منذ خمسة أعوام أطوف بك متنكراً من بلد الى بلد حتى جئت بك إلى هنا ، وأنا أرجو ان احجبك في هذا المكان المعتزل عن عيون هؤلاء الخناقين .

– وماذا فعلت بابنتي ؟

– إنها هنا في باريس أراها في أكثر الأحيان .

– ردها الي ..

– ويحك ما هذا الجنون أتريدين ان يهتدي الخناقون الينا ؟

فهاجت عواطف الامومة في صدرها وقالت : اني لا أخاف الخناقين ولا اثق بسلطانهم .

ولم تكد تتم كلامها حتى صاحت صياح الرعب وتراجع أبوها منذعراً ذلك ان باب الغرفة قد فتح فجأة وظهر على عتبة الباب رجل غريب عنهما ، وكان بأحد يديه حبل ، وبالأخرى خنجر مشهر فدنا خطوة من ناديا وقال لهـا ببرود : لقد اخطأت يا سيدتي فإن الخناقين لا يهزأ بقوتهم .

– ١٤ –

واشتد ذعر ناديا وأسرعت الى أبيها وحالت بينه وبين هذا الرجل وهي تقول اتوسل اليك ان تعفو عنه وتقتلني مكانه .

وكانت جميع ظواهر الرجل تدل على انه من اعضاء تلك الجمعية ولم يكن لدى الجنرال سلاح يدافع به غير ان هذا الغريب طمأنهما باشارة قائلا لهما : ليهدأ روعكما لقد نجوتما من خطر عظيم .

وسأله الجنرال : إذن من أنت ؟

– لا فائدة لك يا سيدي بمعرفة اسمي ودعني اقص عليك مـا فعلت . ثم التفت الى ناديا وقال لها :

– اطمأني يا سيدتي .. لم يعد من خطر عليك وسأحميك وأحمي أباك بعد الآن .

وحكايتي ان الصدفة قادتني إلى خمارة ، وانا أعرف اللغة الهندية فسمعت اثنين يتحدثان بهذه اللغة ، فأصغيت إلى حديثهما وعلمت انهما قادمان خاصة

من لندرا لقتلكما ، وان ذلك الخادم الجديد الذي دخل في خدمتكم كان متفقاً معهما على ان يفتح لهما الباب ، ولكن ثقا انه لا يستطيع خيانة بعد الآن لأنه بات من الأموات .

وقد عرف القراء دون شك ان هذا الرجل لم يكن غير روكامبول ، بطل هذه الرواية ، وقص عليهما كيف اسر الهنديين وكيف قتل الخادم .

ثم أخبرهما انه بعد قتل الخادم بذلك الحبل الذي خنقه به رأى النوربنبعث من الغرفة فصعد اليها واختبأ فسمع حديثهما

وسأله الجنرال : اسمعت كل الحديث ؟

— نعم ، ولم تفتني كلمة منه بحيث اني اعلم الآن جميع أمركم .

وسأله الجنرال : إذن من انت ايها الرجل الذي انقذتنا دون ان يكون لك معرفة بنا ؟

فأجابه بلهجة الحزين : لا تبحث عن معرفة اسمي الان واقتصر على العلم باني منقذكم .

فقال بلهجة القانط : نعم أنقذتنا اليوم ولكن من ينقذنا غداً ؟

— اني سأحرص عليكم غداً كما حرصت اليوم .

وهز الجنرال رأسه وأجاب : لا حيلة لنا من عصابة الخناقين .

فابتسم روكامبول وأجابه : اصغ الي فإني أستطيع أن أفعل كل ما أريد وفي وسعي أن أترأس غداً عصابة تكون أشد هولاً من عصابة الخناقين فأمحو أثرها .

وانت تسألني الان من أنا فاعلم اني رجل خلق للعراك الدائم في معترك هذه الحياة ولي زعامة على الناس لم انلها الا بالثمن الغالي فيخضع لي رجالي كما يخضع اولئك الهنود لالهتهم كالي .

أنظر الي تراني لم اتجاوز الأربعين من عمري ولكني لقيت من غرائب هذا الوجود ما لا يلقاه المعمرون حتى سئمت العيش وثقلت علي الحيـاة وطلبت

الراحة الأبدية في مياه السين ، ولكن الموت أبى أن يمد يده الي وحسناً فعل اذ بقي ما افعله في هذه الحياة .

وقد انقذني من الموت عصابة من اللصوص وعينتني زعيماً لها فرضيت هذه الزعامة لرجائي ان اصرف رجالها إلى الخير في مستقبل الأيام .

وان بعض رجال هذه العصابة رأوا منزلكم المعتزل فراقبوكم وتآمروا على سلبكم وقتلكم وعلى ذلك فليست الصدفة وحدها التي قادتني اليكم بل اضطراري الى الدفاع عنكم ومنع رجالي عن ارتكاب هذا الأثم فلقيت عدواً آخر لكم أشد هولاً أي اولئك الهنود الذين حكموا عليكم بالاعدام ولكن لا تجزعوا فاني استطيع حمايتكما وحماية الطفلة .

فذعرت ناديا وقالت : أية طفلة تعني ؟

— بنتك يا سيدتي فقد وضعتها في محل امين ؟

فأجفل الجنرال وقال : كيف وصلت اليها ؟

— ألم تضعها عند امرأة عجوز مقيمة في شارع الدلتا ؟

— نعم وقد ذهبت اليها منذ ثمانية أيام ورأيت الطفلة عندها .

— ولكنها سرقت اليوم التالي لزيارتك .

— ومن الذي اختطفها ؟

— امرأة من اللصوص ولكني عثرت بها وأخذت الطفلة منها لأن هذه المرأة خاضعة لي لحسن الحظ .

فصاحت ناديا تقول : رباه اني اخشى ان تصاب بسوء .

— اطمئني يا سيدتي فسترد اليك سليمة آمنة من كل سوء بإذن الله والان فإني سأفارقكم هنيهة فلا تجزعوا فإني سأرسل لكم حراساً بعد ساعة .

قال هذا وحاول الذهاب فأعترضه الجنرال ومسكه بيديه وقال : بالله قل لنا من أنت لنعرف اسم من أنقذ حياتنا على الأقل .

ـ انكم تجهلون اسمي إذا ذكر لكم إني ادعى روكامبول وحقيقة أمري أني كنت من كبار المجرمين وأنا الآن من التائبين أستغفر الله عما مضى من ذنوبي بصالح الأعمال .

ثم تركهما وانصرف فكان الجنرال وناديا ينظران اليه بذهول واعجاب ..

ـ ١٥ ـ

كان اللصوص قد نفذوا أوامر روكامبول بالتدقيق فحملوا الأسيرين المكبلين إلى القارب وأقاموا ينتظرون عودته فجعلوا يتحدثون بمهارة هذا الزعيم وشهرته الفائقة بلغة لم يفهمها الهنديان ولكنهما كانا يسمعان اسم روكامبول يتردد كثيراً بينهم فعلما انه هو ذاك الذي رعبهما بلغته الهندية .

وطال حديثهم نحو ساعتين دون أن يعود روكامبول فاستبطأوه وقال شانوان : لا بد أن يكون قد قتل الشيخ والصبيـة ولا بد أن تكون كنوز هذا البيت كثيرة فهو منهمك الآن بفتح الخزائن واستخراج ما فيهـا من المخبآت .

ورد موزت : ولكن غيابه طال وأخشى أن يكون قد أصيب بمكروه .

فقال مرميس : لا خطر عليه فانه أعظم من أن يناله أحد بسوء .

فرد شانوان : ولكنني أجد أمراً لا يزال شاغلاً لبالي وهو النور الذي ينبعث من نافذة الدار فانه لم ينقل من موضعه من ساعتين فلو كان الرئيس قضى مهمته وقتل أصحاب البيت لأستعان بالنور على التفتيش وعندي انه يجب أن نبادر لمساعدته .

فوافقه مرميس واعترضه مورت فقال : ينبغي أن نحافظ على الأسيرين .

فرد شانوان : أنا أبقى المحافظة عليهما وهما مكبلان ، لا خوف منهما ، وأما أنتما فأذهبا لمعاونة الرئيس .

فقال مورت : نعم ولكن يجب علينا أن لا ننسى ما وعدنا به الرئيس من الطاعة المطلقة ثم ألم نعده بأننا لا نتبعه وأن ننتظره في القارب ؟

فرد شانوان هو الحق ما تقول ولكني أخاف أن يكون أصيب بمكروه

فرد مورت : طب نفساً فأن روكامبول لم ينل الشهرة عبثاً .

وفيما هم يتحدثون بهذه الأحاديث سمعوا صفيراً بعيـداً ، هتف مرميس : هوذا الرئيس قد عاد .

ثم سمعوا صفيراً آخر فأيقنوا انه روكامبول القادم اليهم وبعد هنيهة وصل روكامبول فوثب الى القارب وهتف بمرميس لا ترفع المرساة لأننا سنتحدث قبل الرحيل .

سأله شانوان : ألم تقض المهمة ؟

فابتسم روكامبول ابتساماً معنوياً وقال : ألم تقسموا لي يمين الطاعة ؟

فأجاب الثلاثة بصوت واحد نعم .

– إذن لا زلت زعيمكم الذي تخدمونه باخلاص ولكني لا أكتفي بهذا الأخلاص بل أريد ان تطيعوني طاعة عمياء لا حد لها دون ان تناقشوني فيما أصدره لكم من الأوامر .

فوقف الثلاثة وقالوا بصوت واحد : اننا نقسم لك بمهنتنا على الوفاء .

– إذن أصغوا إلي إني صعدت إلى ذلك البيت بغيـة قتل اصحابه ونهب ما فيه ولكني بدلاً من أن أجد قوماً نسرقهم وجدت أصدقاء .

فانذهل اللصوص وجعل كل منهم ينظر الى الآخر ، فقال روكامبول دون ان يحفل بنظراتهم : ان هؤلاء الأصدقاء يجب علينا حمايتهم وصيـانة منزلهم دون شك .

فاستاء شانوان ورد عليه .. ان هذا من الغرائب .

– لهذا فقد عينتك للمهمة ، إذهب الى هذا البيت وقل للشيخ والصبية اني آت من قبل الرئيس لحراستكم في الليل والنهار .

فرد عليه شانوان .. ان الأمر غريب ولكنه يكفي صدور أمرك ولا يسعني إلا الطاعة .

وأدرك روكامبول استيـاء العصابة فقال لهم .. ألم تظهروا لي رغبتكم بالأمس انكم أنفتم من السرقات الصغرى وانكم تحبون الأعمال الكبيرة ؟

فعاد الرجاء إلى نفوسهم وقالوا .. نعم .

ـ إذن فاعلموا أن الفرصة قد حانت وليس لي اليوم ما أزيد على ما قلتـه لكم ، إذهب الآن يا شانوان ويا مورت ، أما انا فسأعود اليكم في الغد والويل لمن يعصي اوامري .

فخرج شانوان ومورت من القارب وبينما هما يخرجان سأله مرميس .. وأنا أيها الرئيس ماذا ينبغي ان افعل ؟

ـ أنت يجب أن تبقى معي ، إرفع المرساة وسر بنا .

فامتثل مرميس ودفع القارب وسار في عرض النهر .

أما روكامبول فانه دنا من الأسيرين المنطرحين في القارب وقال لأوسهانا باللغة الهندية .. ان الآلهة كالي قد تخلت عنك والإله سيوا يأمرني ان أنتقم منك بالقتل ..

فلم يظهر اوسهانا شيئـاً من الخوف ورد عليه .. ما قدر يكون وان الآلهة ستكافئني خيراً في العالم الأخير .

أشهر روكامبول الخنجر على رفيقه كيرشي وقال له .. وأنت أتخضع لي إذا صفح عنك الإله سيوا ؟

فأصر على العناد إلى ان أحس بوخز الخنجر ، فقال لا تفعل فسأتكلم ...

- ١٦ -

بعد ذلك بيومين كان رجال العصابة مجتمعين في تلك الخمارة التي جعلوها مركز اجتماعهم العام وكانوا يتداولون بشأن روكامبول واحتجاب شانوان وموريت عنهما ، لأن مرميس كتم الأمر عنهم .

وفيما هم يتداولون أقبل واحد منهم وأخبرهم أن شانوان وموريت قد اعتزلا المهنة ودخلا في خدمة رجل عجوز ، فكان أحدهما ، وهو شانوان سائق مركبة العجوز ، والآخر خادماً يجلس بازاء السائق ، فذهل اللصوص لهذا الخبر وقالوا : لا بد ان يكون لهما وراء هذه الخدمة قصد خفي فإن الخدمة لا تفضل مهنتنا .

ثم دخل مرميس فأبلغ العصابة أن الرئيس سيحضر قريباً . فطربوا جميعهم وصاحوا بصوت واحد : ليحيى الرئيس . لأنهم كانوا يدعونه الرئيس بدلاً من روكامبول حين رضوا بالاجماع أن يكون زعيمهم .

وعند ذلك أخبرهم مرميس أن روكامبول يعد مشروعاً عظيماً ، وانه يحتاج إلى كثير من رجال العصابة ولكنه لا يستخدم منا غير الأكفاء القادرين.

وجعل كل يسأله بدوره إذا كان من المرشحين فيجيب كل واحد منهم بما يرضيه .

ثم سأله نوتير إذا كان هذا المشروع سيتم في باريس أجاب : كلا ، فاننا سنجتاز البحار .

فصاحوا جميعهم : إلى أين ؟

ولكن مرميس لم يجبهم لأنه لم يكن عارفاً بشيء من مقاصد روكامبول فجعلوا يتكهنون ويتنبئون وكلهم يتنبأ عن قصد ويتكهن عن مشروع .

وفيما هم على ذلك إذ رأوا مركبة جميلة يجرها أربعة من جياد الخيل وقد وقفت عند باب الخمارة فاندهش الجميع .

وصاح نوتير ارفعوا قبعاتكم فهذا الرئيس قد حضر .

وعند ذلك دخل روكامبول فاشتد ذهول اللصوص لأنهم رأوا من زعيمهم ما لم يروه من قبل ولم يخطر لها في بال .

وقد كانوا رأوه حين انتشلوه من النهر بسيط الملابس ولم يجدوا في جيوبه غير قليل من النقود، ثم ما لبث ان عاد اليهم بمركبة تجرها الجياد المطهمة وهو لابس ملابس الأمراء ، وأزرار قميصه من الماس الفاخر ، فضجوا جميعهم لما رأوه وصاحوا : ليحيى روكامبول .

وعلا ضجيج استحسانهم حتى اسكتهم باشارة ووقف بينهم موقف الخطيب فقال : ان من عرفني بينكم يعلم اني لا أقدم إلا على الأعمال الخطيرة ، وأما زعامة عصابة تسرق منزلاً وحانوتاً فذلك لا يقدم عليه غير أمثال باتير .

ثم تبسم ابتسام الاحتقار وقال . انكم كنتم في عهد رئاسة ذلك الرجل من أحقر اللصوص فهل تريدوا ان تكونوا في عهدي من بواسل الجنود ؟

فصاحوا جميعهم ليحيى الرئيس .

فلما انتهى صياحهم قال لهم : ألم تسمعوا بعصابات لوندرا ؟

فأجاب مرميس : نعم وهي عصابات هائلة .

— اني أريد أن أسود عليها ولكنه يوجد في تلك العاصمة عصابة أشد هولاً من كل عصابة يدعى رجالها خناقين وأنا أريد محق هذه العصابة فمن كان يثق بي فليتبعني ، ومن كان خائفاً فليبق في باريس .

فأجمعوا على الثقة به وصاحوا جميعهم متحمسين . هلموا إلى لندرا .

وعند ذلك وقفت صاحبة الخمارة وقد بدت عليها ملامح الخوف فقالت : إنك ستقطع ، ايها الرئيس اسباب رزقي بسفر هذه العصابة ، إذ لا ارتزق إلا من رجالها .

— لا تخشي يا خالتاه فانني احتاج إلى مراسلين في باريس وستكون مكاسبك في غيابنا أكثر مما هي الآن .

ثم أخرج كيساً من جيبه وأفرغ ما فيه على الطاولة فذهل اللصوص لأنهم رأوا فيه قطعاً من النحاس عليها نمر مختلفة فقال لهم روكامبول : اصغوا الي الآن فاني مسافر إلى لندرا في هذه الليلة نفسها لأعد فيها المعدات ولذلك لا أستطيع أن أحملكم تسافرون معي ولست محتاجاً اليكم إلا بعد ثمانية أيام .

فليأخذ كل واحد منكم نمرة من هذه النمر وليذهب بها إلى شارع لافييت وهناك ترون محلا مكتوباً على بابه بالحبر الأحمر (مكتب المهاجرة) ورجلا ضخم الجثة فيه يدعى ميلون فكل من يعطيه هذه النمرة يدفع له الف فرنك وتذكرة سفر وجوازاً إلى لندرا .

ولا تنسوا أنه يجب بعد ثمانية أيام أن تكونوا جميعكم في لندرا .

فسأله نوتير : أين الملتقى هناك ؟

– يوجد في لندرا شارع كثير السكان يصل اليه المسافر بعد أن يجتاز جسر واترلو .

وفي هذا الشارع محل يدعى واينغ وفيه خمارة تدعى « الملك جورج » فاذا وصلتم ادخلوا إلى هذه الخمارة فان صاحبها من رجالي ، وهو يخبركم اين تجدونني .

ثم جعل يفرق النمر فكانوا يأخذونها منه بلهف وبعد أن أتم توزيعها خرج إلى المركبة التي جاء بها وكان فيها امرأة حسناء استلفتت انظار اللصوص لكنهم كانوا ينظرون اليها باحترام لأنها كانت مع زعيمهم .

كانت هذه المرأة فاندا ، فأخذ روكامبول يدها فأنزلها من المركبة وجاء بها إلى أصحابه فقال لهم : أنظروا الى هذه السيدة وأمعنوا بها النظر فأنا وإياها واحد في زعامتكم ويجب أن تطيعوها كما تطيعوني .

ثم خرج بها إلى المركبة يخفرها اولئك اللصوص بين ضجيج الهتاف فركب وإياها مودعين بالاشارة تلك العصابة .

وبعد حين كانت المركبة سائرة تنهب الأرض بجيادها المطهمة فكان

روكامبول يقول لها : لقد لقيت الآن خصوماً أكفاء لنا وسنرى ما يكون بيننا وبين أولئك الخناقين .

فطوقت فاندا عنقه بذراعيها قائلة :

ـ ألم أقل لك أنه لا يحق لك أن تموت ؟

- ١٧ -

مضى شهر على سفر روكامبول وفاندا من باريس ، ففي أحد الليالي كان بعض أشراف الانكليز جالسين على مائدة في فندق أوبرج يتحدثون بعد الطعام.

كان حديثهم دائراً على مصارعة حدثت في النهار بين ديكين فإن الانكليز يحبون مصارعة الديوك ويتراهنون عليها بالمبالغ الطائلة ، فكان من حديثهم ان السير جورج ستوي خسر خسارة فادحة في هذا الرهان .

على ان حديث هذه المراهنة لم يكن قاصراً على أولئك الأشراف المجتمعين في ذلك الفندق ، بل كان عامـاً تناولته جميع الألسن في منتديات لندرا ومجالسها الخاصة ، ومراسحها العامة ، ذلك ليس لجسامة الرهان على مصارعة الديكين ، بل لأن الديكين كان أحدهما فرنسياً والاخر انكليزياً ، ولأن الفوز في المصارعة كان للديك الفرنسي .

ولهذا الرهان حديث طويل نورده بالايجاز . هو أن أحـد أشراف الفرنسيين قال أمام الانكليز في كثير من منتدياتهم أن لديه ديكاً يغلب جميع ديوك انكلترا .

وكان لدى السير جورج ستوي ديك عظيم يفتخر به فراهنه على مصارعته فخسر الرهان ، ثم تراهنا على مصارعة الكلاب فقال جورج ستوي ان لدي كلباً يقتل مئة فأر في مدة خمس دقائق ، فرد الفرنسي وأنا لدي كلب

يقتل كلبك باقل من هذه المدة .

فتوافق الاثنان على تجديد الرهان وتعين مكان المصارعة في ذلك الفندق نفسه الذي كان يتحدث فيه أولئك الأشراف فكان حديثهم قاصراً على ذلك الرجل الفرنسي الذي غلب ديكه أعظم ديوك انكلترا ، وجعلوا ينتظرون بفارغ الصبر موعد مصارعة الكلبين .

أما السير جورج ستوي فقد كان انكليزياً ، لكنه اسمر اللون لأنه ولد في الهند . كان كبير الجثة قوياً ، أسود الشعر تدل ملامحه أنه يوجد دم هندي في عروقه . .

وهو لم يتجاوز الثلاثين من عمره ، وافر الجمـــال جريء ، لكن نظرات عينيه حين يغضب تشير إلى أن تمدنه لم يكن غير ستر رقيق يغطي الهمجيـة الكامنة في فؤاده كمون النار في الحجر .

كان كثير الغنى منهمكاً في المقامرة ، يحسن لعب السلاح ، عـلى الأخص إطلاق المسدسات ، فقد كان من البارعين في هذا الفن .

فلما حانت الساعة العاشرة ، وهي الساعة المعينة لمصارعة الكلبين أقبل السير جورج ستوي إلى الفندق ومعه كلب ، وهو كلب هائل يتقد الشرر من عينيه : فقال لصاحب الفندق حين دخوله : يظهر اني أول القادمين .

فأجابه صاحب الفندق : كلا يا سيدي فإن كثيرين من المراهنين مقيمون في القاعة وأن خصمك أيضاً موجود فيها مع كلبه .

فأسرع السير بكلبه إلى حيث كان الحضور وهم نحو ثلاثين رجلا من نبلاء الانكليز الذين يحملهم بطر الثروة على التفكه بمثل هذه الملاهي .

فأعد صاحب الفندق معدات المصارعة ووضع في وسط القاعة صندوقـاً عظيماً يبلغ إتساعه أربعة أمتار فتقدم الرجل الفرنسي من الصندوق وهو يحمل كلبه بيده ، فظهرت على مياسم الحاضرين علائم الاحتقار حين قارنوا بـين الكلبين ، فإنهم كانوا يعرفون بطش كلب السير جورج الهائل المنظر ، أمـا

كلب الفرنسي ، فقد كان صغيراً مجعد الشعر ، تدل عيناه على الذكاء والسلامة وأنه خلق للجلوس في القاعات لا في صناديق المصارعات .

فلما دنا الفرنسي بكلبه من الصندوق دنا الانكليزي أيضاً فسلم عليه لكنه لم يتمالك عن الابتسام حين نظر ذلك الكلب الصغير فقال الانكليزي بلهجة الاشفاق : اني أشفقت على كلبك الصغير حين نظرته فإذا اعترفت انك مغلوب قبلت حرصاً على هذا الكلب الجميل .

فـابتسم الفرنسي وقال له : إن كلبك جميل وأنا اقترح عليك نفس الاقتراح .

– إنك تمزح دون شك .

ثم حل عقال كلبه المتعود مثل هذا الصراع فوثب مسرعاً إلى الصندوق.

وعند ذلك أخذ الفرنسي كلبه والقاه بيده في ذلك الصندوق .

فاستقبله كلب الانكليزي بعينين يتقد فيهما اللهب وكشر عن أنيابه ، وكان بين الحضور سيدة ارلندية فحولت وجهها كي لا ترى ذلك المنظر الهائل لاعتقادها أن الكلب الكبير سيخنق الصغير لأول وثبة .

– ١٨ –

على أن الرجال لم يؤثر بهم ذلك المنظر الوحشي كما أثر بالسيدة ، فتهافتوا حول الصندوق ليروا ما يجري فيه ما خلا بعضهم فإنهم كانوا ينظرون إلى الفرنسي ، ويراقبون تأثيره فلا يجدون غير آثار السكينة والاطمئنان ..

وزمجر كلب الانكليزي مرتين قبل الوثوب فكان كلب الفرنسي نائماً بعيداً ينظر اليه مطمئناً .

وبعد أن زمجر الكلب الكبير وثب فأطبقت الارلندية عينيها .

أما الكلب الصغير فانه هب من سكونه ، فوثب بخفة القرود إلى ظهر الكلب الكبير فامتطاه كما يمتطي القرد ظهر الحمار وجفل ينهشه في عنقه فيدور الكلب الكبير حول الصندوق والصغير فوق ظهره يعضه .

حتى إذا أعياه أمره انقلب إلى الأرض ، فيثب الصغير من فوق ظهره ويجري الاثنان في تلك المساحة الضيقة إلى أن يوشك الكبير أن يدرك الصغير فيعيد الوثوب إلى ظهره ويدمي عنقه نهشاً وعضاً .

وكان الكبير في اسوأ حال إذا فتح فكيه كي يعض خصمه لا يعض إلا الهواء ، غير أن حالة صاحبه السير جورج كانت أشد ، فقد امتقع لون وجهه وبدا الغضب بين عينيه ، فقال لخصمه الفرنسي : كان ينبغي أن تنذرني يا سيدي بأن كلبك من نسل القرود .

— انني أوافقك على إنهاء المصارعة متى أردت .

- أتعترف أنك مغلوب ؟

فابتسم الفرنسي وأجاب : كلا لم يحن الوقت بعد .

ثم نادى كلبه نداء خاصاً فوثب بسرعة إلى ظهر الكلب الكبير وغرس أنيابه في عنقه ، فلما شعر بالالم انقلب على ظهره فهرب الصغير ثم عاد الى الوثوب إلى ظهره وعضه ، فجعل الكلب الانكليزي يدور كحجر الرحى ، وهو لا يعلم كيف ينجو من هذه الداهية التي أصابته .

فقال الفرنسي لجورج ستوي : ماذا ترى يا سيدي أيجب إتمام المصارعة أم تكتفي بما جرى ؟

فأجاب بصوت يتهدج من الغضب . بل أريد إتمامها إلى النهاية حتى يموت أحد الكلبين .

فنادى الفرنسي عند ذلك كلبه يحمسه بنداء خاص والتفت إلى جورج ستوي قائلاً له : إن كلبك سيموت بعد ثلاث دقائق .

فنادى الفرنسي عند ذلك كلبه يحمسه بنداء خاص ثم التفت إلى جورج

ستوي فقال له : إن كلبك سيموت بعد ثلاث دقائق .

أما كلب الفرنسي فإنه ما أوشك أن سمع نداء صاحبه حتى غرس أنيابه في عنق الكلب الكبير وهو رابض فوق ظهره فتمكنت أنيـــابه كالكلاليب ، فجحظت عينا ذلك الكلب وظهرت عليه علائم النزع وجعـل يطوف على غير هدى في ساحة الصندوق . كل ذلك والكلب الصغير لا يتركه والعيون ناظرة إلى هذا الصراع الهائل إلى أن سقط الكلب قتيلاً فقال الفرنسي لكلبه : كفى الآن .. وناداه فوثب اليه خارجاً من الصندوق .

فجعل الانكليز يصفقون بأيديهم إعجاباً لفوز هذا الكلب غير مكترثـين بمس عواطفهم الوطنية ، وكان إعجاب الارلندية فوق كل إعجاب حتى إنهـا عرضت على الفرنسي أن تشتريه منه بمائة جنيه فأبى .

أمـــا السير جورج ستوى فقد بلغ منه الغضب مبلغاً شديداً ، حتى انه خرج عن دائرة الصواب وقال للفرنسي : لا أظنك سعيداً مثل كلبك ، فهل تحسن إطلاق الرصاص ؟

فـــأجابه الفرنسي ببرود : اني أصيب الهدف عشر مرات متوالية فتقع رصاصاتي بعضها فوق بعض .

– اني أحب أن أرى ما تقول .

– وأنا مستعد للبرهان على صدق قولي متى أردت فهل تحب نور الغاز .

– لا أفهم ما تريد قوله

– أريد أن أقول اني أحب المبارزة على نور الغاز وهذه الأنوار مضيئة .

فحاول بعض الحضور عند ذلك أن يتداخلوا فمنعهم الفرنسي قائلاً دعونا أيها الأسياد وشأننا فإن السير جورج ستوي يحتاج إلى أمثولة .

فرد عليه السير جورج : سنرى أينا أحوج إلى هذه الأمثولة غير أن وقتي لا يسمح لي بالمبارزة هذه الليلة فاذا أردت فاحضر غداً الساعة الثامنـة إلى بيرمنجهام مع شاهديك .

– حسناً ليكن ما تريده .

ثم حمل كلبه وخرج وحده من تلك القاعة والناس يعجبون بهذه النهـاية السيئة التي ختم بها الرهان .

ثم خرج أيضاً السير جورج فلما وصل الفرنسي إلى باب الفندق وجد رجلا ضخم الجثة ينتظره ، أخذ منه الكلب والبسه ثوباً طويلاً مبطناً بالفرو .

فقال له الفرنسي : أين المركبة ؟

– هي هنا في ردهة الفندق الخارجية .

– إذن خـذ الكلب إلى فاتدا ..

– وأنت أيها الرئيس ألا تذهب اليها ؟

– .. كلا !

فأظهر الخادم شيئاً من التردد وجعل ينظر إلى سيده كأنه يريد أن يقول شيئاً . فسأله الفرنسي وهو يضحك ماذا أصابك ، ولماذا تنظر الي هذه النظرات ؟

– ذلك يا سيدي .. لأني .

– ماذا ؟

– لأني خائف ..

– وممن الخوف ؟

– اني أخاف عليك حين أراك عازماً على الطواف في الليـل في شوارع لندرا ..

– لا تخف علي .. فاني أدخل الى شارع وينغ لسببين أحدهما أنه لي شغل فيه ، والثاني لأني أدعى روكامبول .

ثم صرفه باشارة ومضى كل إلى سبيله

١٩

كل من زار مدينة لندرا يعلم أن نهارها ليل وليلها نهار فان الشمس تشرق على تلك العاصمة كما تشرق في كل الأرض ولكنها لا تظهر عند إشراقها لما يعترضها من الضباب الكثيف فاذا دنت الساعة الثامنة من المساء أشرقت أنوار المصابيح في جميع الشوارع فنابت عن شمس النهار .

والغريب ان السكان في تلك العاصمة يخرجون إلى النزهة في هايد بارك ، وسانت جيمس عند منتصف الليل كما يتنزه الباريسيون في حديقة التولري عند الساعة الخامسة بعد الظهر .

وكان الليل قد انتصف حين خروج روكامبول من ذلك الفندق بعد إنتهاء المصارعة فبعد أن ذهب ميلون إلى فاندا مشى روكامبول عدة خطوات ثم وقف على الرصيف تحت مصباح من الغاز وأخرج من جيبه نسخة من جريدة التيمس يقرأ فيها بالظاهر غير أن عينيه كانتا ترقبان مدخل الفندق وذلك الشارع .

وبعد هنيهة شاهد رجلاً يسير على الرصيف الآخر متجهاً إلى الفندق فتنحنح روكامبول فوقف الرجل وتلفت يميناً وشمالاً حتى رآه يقرأ التيمس فأسرع اليه. فلما دنا منه قال له روكامبول بالانكليزية هل أحضرت المعدات يا نويل ؟

- نعم .

-- اذن اسرع واحضر لي مركبة وأنا هنا في انتظارك .

فذهب نويل وهو أحد رجال روكامبول القدماء ولبث روكامبول واقفاً على الرصيف يستر وجهه بجريدة التيمس وهو يراقب باب الفندق إلى أن رأى السير جورج ستوي خرج من الفندق ومشى مسرعاً فبالغ رروكامبول بالاحتجاب كي لا يراه ومر السير جورج بقربه دون ان ينتبه اليه .

وعند ذلك عاد نويل بالمركبة فوثب روكامبول اليها ودل السائق على جورج ستوي ثم قال له يجب ان تقتفي بنا أثر هذا الرجل فاذا لم يحتجب

عنا أعطيتك جنيهاً .

وقد عرف رجال هذه المهنة في بلاد الانكليز بالتكتم ، وعدم المبالاة بمثل هذه المهمة ، فهم يخدمون اللورد والبوليس واللص على السواء ولا يبيحون بسر أحد منهم حتى أنهم لا يكترثون لهذه الأسرار ولا يحاولون الاطلاع عليها .

فامتثل السائق وسار بمركبته على مسافة قريبة من السير جورج الذي كان يتقدمها مشياً على الأقدام .

وعند ذلك قال روكامبول لنويل : هات الآن ما لديك من معدات التنكر واجلس أمامي .

فأخرج نويل من تحت ثوبه الكبير بنطلوناً وقبعة ولحية وشاربين فلبسها روكامبول وتغيرت سحنته بحيث لو رآه السائق لما عرفه .

ظل السير جورج يسير والمركبة تسير في أثره حتى وقف عند باب المنزل فأخرج مفتاحاً من جيبه ففتح به الباب ودخل .

فنزل روكامبول من العربة وأعطى سائقها جنيهاً ، فعجب السائق لما رآه من التغيير . لكنه لم يكترث فذهب في سبيله . وتوجه روكامبول مع نويل الى مكان قريب من المنزل ، فوقفا فيه ينتظرون ظهور السير جورج .

فقال له روكامبول : أظن أننا قد أدركنا الغرض ، الذي قدمنا من أجله .

فرد نويل معجباً : كيف ذلك أيمكن ان يكون صاحب الديك والكلب ذلك الرجل ؟

— نعم هو ذلك الرجل الذي أتينا من أجله الى هذه العاصمة فلننتظر الآن خروجه من البيت الذي دخل اليه .

وأقاما ينتظران نحو ساعة الى ان فتح الباب وخرج منه رجل لا يشبه السير

جورج بشيء . وقد كان لابساً لبس اولئك البحارة الذين تغص بهم خمارات وينغ في الليل .

فابتسم روكامبول قائلاً : يظهر انه يحسن صناعة التنكر . فهلم بنا يا نويل في أثره .

يوجد في لندرا ناحية عظيمة تدعى وينغ إشتهرت بشر قومها وفساد أخلاقهم حتى ان البوليس لا يدخل اليها .

مثال ذلك أنه إذا طلب غريب الى أحد أفراد البوليس أن يرشده الى أحد الأماكن ، يسير معه حتى يصل الى وينغ فيرفع قبعته ويعتـــذر عن مواصلة السير .

وذلك لأن هذه الناحية هي الناحية الوحيدة التي تضعف فيها الأنوار ويكثر فيها تردد الأشرار ويختلط فيها اللصوص مع الفجار ، وقد جمعت كل المفاسد وأصحابها من لص خطاف وبحار سكير وارلندية رقاصة وارلندي يسكر يطالب باستقلال بلاده .

وفوق ذلك فإن فريقاً كبيراً من اولئك النور الرحل تمكنوا في تلك الناحية ، وكثر عددهم : فكانت لهم السيـــادة التامة على سائر الذين يترددون اليها .

وان الرجل الغريب او الانكليزي قد يستطيع انتياب هذه الناحية والخروج منها في النهار دون ان يصاب بمكروه . لكن يشترط ان يزرر ثوبه كي لا يختطفوا ساعته ، وان لا تكون بادية عليه آثار النعمة . أما في الليل فإن الخطر عليه شديد .

لقد ذهب السير جورج الى هذه الناحية وهو متنكر بملابس البحارة وفي أثره روكامبول ونويل حتى بلغ الى خمارة هناك تدعى خمارة الملك جورج فدخل ودخل الاثنان بعده .

كان صاحب هذه الخمارة يدعى كلكراف ، وهو رجل هائل ضخم الجثة

وخمارته أشهر خمارات تلك الناحية . غير انه لم يكن لصاً ولم يقف مرة أمام القضاة ولم يسلب أحداً بارة .

لكنه كان شديد التساهل لا يتداخل بشؤون سواه ، ويكره مداخلة الحكومة .

فإذا قتل أحد زبائنه في خمارته يحمل القتيل على كتفه ويطرحه في الشارع قائلاً : إني لا أحب مداخلة الشرطة .

فلما دخل السير جورج جلس على مائدة وطلب قدحاً من الشراب وجلس روكامبول ونويل على مائدة بالقرب منه وكانت الخمارة غاصة بالشاربين وهم يتحدثون عن حادثة خطيرة .

فأصغى روكامبول لما يحكى فسمع واحداً يخبر : إننا لسنا في الهند لكنه يحدث عندنا حوادث لا تجري إلا تحت سماء كلكتا ومدراس .

فقالت إرلندية كانت تسمع الحديث : مسكينة جيبسي فإنها لا تستحق ما حدث لها .

فقال بحار آخر : إني عندما رأيت جيبسي ترقص أول مرة ، شعرت أن دمي يغلي في عروقي وقلت في نفسي : إني أرضى بزواجها إذا رضيت بي زوجاً . فلما عرضت عليها هذا الخاطر هزأت بي ، فاضطررت أن أتناساها .

فقالت له الارلندية : لم يكن ذلك إلا لحسن حظك .

وكأنما ذلك الحديث قد شغل خاطر السير جورج ستوي .

فقال له أحدهم : ألا تعرف جيبسي الرقاصة النورية فقد أصابها شقاء جديد فإنها لا تستطيع أن تتزوج ؟

– كيف ذلك ؟

– هوذا الزوج السادس الذي تقدم لها في هذا العام وهو شاب جميل حسن الأخلاق .

– ماذا أصابه ؟

– ما أصاب أزواجها الخمسة الآخرين ، فقد قتل خنقاً كما قتلوا . فجعلت تلك المسكينة تعض كفها من اليـأس ، لأنها وجدته ليلة الزفاف مخنوقاً على باب منزلها .

فتبادل روكامبول نظرة سرية مع كالكراف صاحب الخمارة ، وأخذت الارلندية كأس شرابها فشربت ما فيه وقالت : اصغوا إلي فسأحكي لكم قصة هذه النورية .

– ٢٠ –

إن جيبسي كما تعلمون من قبائل النور ، غير انه ليس لديها من علائم هذا الشعب ما يدل على انها منهم . والأرجح ان النور قد اختطفوها فربيت بينهم كما يقولون .

فرد أحد الحاضرين : قد تكون إبنة أحد اللوردات

فقالت الارلندية : ليس ذلك ببعيد لأن جمالها وحركاتها وكل ما بها يدل على انها من أبناء النبلاء .

فقاطعها السير جورج قائلاً : لنسمع حكاية عشاقها او أزواجها .

فقالت الارلندية : إن جيبسي تتردد على هذه الخمارة منذ ثمانية أعوام ، وهي الآن في السادسة عشرة من عمرها . وقد كان لها رجل من النور يخفرها يدعي انه أبوها فلم يكن أحد يجسر ان يعتدي عليها .

وقد جاءها يوماً رجل من الأشراف وعرض عليهـا ان يشيد لها قصر ويشتري المركبات ووعدها أجمل الوعود . فذهب أبوها اليه وقال له : إذا كنت تحب الحياة فارجع عن هـذا القصد . فخاف الرجل ولم يعـد يذكر

جيبسي بلسان .

فصبرت تلك الفتاة الى ان مات الرجل الذي كان يزعم انه أبوها، فأذاعت بين الرفاق أنها تميل الى الزواج فقال لها أهل القبيلة : إختاري من بيننا الفتى الذي تريدينه فليس بين فتياننا من يأبى هذا الزواج .

فاختارت جيبسي فتى نورياً يعزف على العود ويشتغل بمهنتها .

وطريقة النور بزواجهم تخالف طريقتنا ، وهي مضحكة على بساطتها فإنهم يجتمعون يوم الاحتفال بالزواج ويحضرون إبريقاً يضعون فيه شراباً خاصاً وكأسين ويأتون بالعروسين فيصب العريس شراب الابريق بالكأسين ويشرب مع عروسه ثم يأخذ الاثنان ذلك الابريق فيرفعانه فوق رأسيهما ويلقيانه إلى الأرض فيتحطم ، وعند ذلك يصبحان زوجين شرعيين وتنتهي حفلة الزواج بكسر الابريق .

وقد تم زواج جيبسي بزوجها الأول في اليوم نفسه الذي اختارت فيه ذلك الزوج فذهبوا بالعروس في موكب حافل الى منزلها وخرجوا بالعريس يطوفون به في جميع الخمارات حسب عاداتهم .

ولبث هذا الزوج المنكود في أسرهم الى الساعة الثامنة من الصباح فأطلقوا سراحه فذهب الى منزل امرأته فلم يتجاوز العتبة حتى أطلقت يد مجهولة حبلاً من الحرير على عنقه فازدرد الحبل ومات الزوج مخنوقاً .

فهتف الحاضرون : قد سمعنا حادثة الزوج الأول ، فقص علينا حكاية الزوج الثاني .

قالت الأرلندية: وبعد ذلك بثلاثة أشهر أعلنت جيبسي انها تريد ان تتزوج فتقدم لها نوري آخر من القبيلة وقال لها بحماسة : إني لا أخاف القتل وسأكون زوجك . ولكنهم لم يمهلوها للاحتفال بهذا القران .إذ وجد في نفس تلك الليلة ميتاً في فراشه .

فلما انتشر هذا الخبر بين أفراد القبيلة ذعروا ذعراً شديداً ولم يعد أحد

يجسر على الزواج بجيبسي .

بعد مدة قصيرة وقفت جيبسي في هـذه الخمارة بعد انتهائها من الرقص قائلة إني أريد رجلا أتزوجه ليحميني ، لكني لا أحب أحد وقد مات زوجي الأول ثم خطيبي التالي ولم يقتلهما دون شك غير رجل يحبني ولا يريد ان يعرف فإذا كان ذلك فليتقدم هذا الرجل ويمد يده إلى زواجي فإني أرضى بـــه كيف كان .

وكان بين الحضور يهودي عجوز قبيح المنظر ، لكنه من أهل الثروة ، كان يحضر كل ليلة ليشاهد جيبسي عند رقصها لشدة ولعه بها . فادعى انه هو ذلك الرجل الذي كان يغار عليها وأنه هو الذي قتل زوجها وخطيبها ثم مد لها يده .

فجزعت جيبسي لقبحه وقالت له : قد رضيت بك زوجاً على قبحك كي أفي بما وعدت .

في الليلة نفسها أصيب اليهودي بطعنة خنجر ذهبت بحياته .

فضج الحضور لهذه الحكاية فأسكتتهم الارلنـدية قائلة : إسمعوا حكاية الزوج الرابع .

فإنه حين يتفق مثل هذا الخطر يكثر المتحمسون من اولئك المجانين ، أما يحسبون هذا الخطر صنع إنسان فيعتمدون على قوتهم ، او يحسبونـه من صنع الاتفاق فلا يكترثون للصدف والأقدار .

لذلك لم يمض أسبوعان على مقتل الزوج الثالث حتى أقبل بحار كان عائداً من أميركا فلما سمع حكاية الفتاة ضرب بيده على هذه الطـــاولة التي نحن حولها الآن وقال لجيبسي : إني لست من الذين يخافون فهل ترضين ان تكوني إمرأتي أيتها الفتاة ؟

فرضيت الصبية وتعين ان يكون موعد القران يوم السبت وهو لا يشتغل فيه النور ويعتبرونه اعتبار الأعياد

كان هذا البحار قوياً شديداً وفوق ذلك فقد كان له كثير من الأصدقاء بين رفاقه البحارة ، فاتفقوا على حمايته من ذلك الخطر الخفي والحرص عليه وحراسته في الليل والنهار .

ولكن كل حرصهم ذهب سدى فانه وجد في اليوم الثاني غريقاً في مياه النهر ولا يعلم أحد إلى الآن كيف كان هذا الغرق العجيب وكيف اتفق قتل هذا المسكين .

وأما حكاية الزوج الخامس فهي قصيرة . وتفصيلها أن أحـد أصحاب الحانات الشهـيرة في جسر لوندرا ، علم أن جيبسي لا يخطبها شخص حتى يقتل .

وكان ضخم الجثة ، شديد القوة كالثور ، كثير العنـــاد . فلما ذكرت أمامـه حكايات هذه النورية قـال : إني أقسم بالقديس جـورج ، حامي إنكلترا ، اني سأعثر على هذه الفتاة وأتزوجها ، وأعود بها الى خمارتي فتقيم معي فيها .

فهتف أحد الشاربين عنده متى عزمت على طلب الاقتران بها ؟

ــ غداً دون شك .

ثم تفرق زبائن الخمارة فأقفل بابها ونام فيها حسب عادته ، وهو يحلم بجيبسي .

وفي اليوم التالي انتصف النهار والخمارة لا تزال مقفلة . وأقبل الليـل وهي مقفلة أيضاً ، فأوجس جيرانه شراً وطرقوا الباب فـلم يجبهم أحد ، فأبلغوا البوليس .

ثم أقبلت الشرطة فكسروا الباب ودخلوا فلقوا المسكين ميتاً في فراشه ، وفي عنقه حبل من الحرير خنق به .

فضج الجمهور لهذه الغرائب ، فلمـا سكنت غوغاؤهم استأنفت الارلنـدية الحديث فقالت : بقيت حكاية السادس . وهي مختصرة محزنة فإن أحد عشاق

جيبسي وهو فتى جميل في مقتبل الشباب دنا منها يوم أذيع موت الزوج الخامس فقال لها : إني أحبك حباً لا حد له، وإذا لم تكوني إمرأتي فإني مائت لا محالة فهل ترضين بي بعلاً لأنه إذا لم يكن من الموت بد فإني أؤثر موت الانتقام على موت الغرام .

فرضيت به الصبية وكان من أمر خنقه في تلك الليلة نفسها ما تعلمون .

فعجب الحاضرون لهذه الحكاية الغريبة وقال أحد البحاره : مسكينة هذه الفتاة فقد قضي عليها بالبتولية الى الأبد .

فلما تفوه بهذا الكلام وقف أحد الشاربين في تلك الخمارة وقال : أصغوا إلي أيها الرفاق ، إني لم أر هذه الفتاة التي تتكلمون عنها في حياتي ، ولا أعلم إذا كانت على ما وصفتموها من الجمال . لكنها إذا كانت حسناء كما تقولون ورضيت هي أن أكون لها زوجاً أرضى بهذا الزواج على ما فيه من الأخطار .

فاتجهت الأنظار الى هذا الرجل الجريء الذي لم يشاهدوه قبل الآن ، واضطرب كالكراف صاحب الخمارة ، ونظر نويل إلى رئيسه نظرة تشف عن الرعب لأن هذا الشخص الذي خطر في فكره هذا الخاطر الغريب لم يكن إلا روكامبول .

وبينما كان الحضور ينظرون نظرات الاعجاب والاشفاق الى روكامبول الذي لم يروه أبداً غير هذه المرة في خمارة سانت جورج إذ فتح الباب ودخلت منه فتاة فقالت : رضيت .

وكانت هذه الفتاة جيبسي نفسها فمشت الى روكامبول ومدت اليه يدها فعاقدها بيده وهو مندهش لجمالها الفتان .

أدهشت جرأة روكامبول جميع الحاضرين . فلم يكد يتكلم ذلك الكلام حتى حامت حوله الأبصار ، فجعلوا يتأملونه ويفحصونه وينتقدونه ، بين مشفق عليه لما يتوقعونه له من سوء المصير ، وبين معجب لإقدامه على زواج جيبسي بعد ان علم انه محفوف بخطر الموت .

أما الارلندية فكانت تقول:إنه من زمرة اولئك المجانين ولا بد له أن يموت كما ماتوا .

أما روكامبول فإنه قال لجيبسي : إني وعدتك ان أكون بعلك ، وسأفي بوعدي .

فرفعت اليه عينيها النجلاوين قائلة : أنا مصدقة لما تقول .

كانت هذه الفتاة وافرة الجمال لا عيب فيها ، كأنها خلقت كما اشتهت ، وملامح السلام بادية بين عينيها . فكان مقامها بين هؤلاء الأشرار كمقام الملاك بين الأبالسة .

وكان روكامبول يتمعن في وجهها قائلاً في نفسه : يستحيل ان تكون هذه الفتاة على ما وصفتها الارلندية .

وكانت لابسة ثوباً قصيراً كما تلبس الراقصات النوريات في ذلك العهد ، وهي شقراء الشعر وقد عقصته فوق رأسها وحملت بيدها دفاً تنقر عليه حين الرقص .

فسألتها الارلندية قائلة : أترقصين هذه الليلة ايضاً ؟

فأجابتها بلهجة تدل على الكآبة : إني أرقص اليوم كما رقصت أمس وكما أرقص غداً . ألا يجب ان أعيش ؟

ثم نظرت إلى روكامبول وقالت له بمظاهر الخضوع: إني لا أرقص إذا كنت لا تأذن لي لأنك خطيبي الآن ويجب علي طاعتك .

- أرقصي ، لكن بعد انتهاء الرقص تذهبين معي لنتفق في هذه الليلة على شروط الزواج .

- كما تريد . إني لا أخالف لك أمراً .

ثم أخذت ترقص وتنقر بأناملها على الدف رقصاً عجيباً أدهش الحضور ، وحامت حولها الأنظار وانصرفت اليها الخواطر . فبقيت كؤوس الجعة ملأى لا يفطن أحد لشربها وانطفأت نار الغلايين في أيديهم لانصرافهم عن التدخين إلى مشاهدة رقصها البديع .

فدنا نويل من روكامبول وقال له همساً : انك تعلم مبلغ ثقتي بك .

فأجابه ببرود : ماذا تعني ؟

- أعني على فرط ثقتي بك خفت عليك هذه الليلة .

- ومن أي شيء خفت ؟

- من تمهدك بزواج هذه الفتاة . وما أظنك إلا كنت مازحاً فيما قلت .

- كلا إني لا أعرف المزاح وسأتزوجها دون شك .

- ولكن ألم تسمع حديث الارلندية ؟

فهز روكامبول كتفيه وقال : دعني وشأني الآن إن لدي أموراً يجب أن أهتم بها أفضل من سماع هذيانك .

ثم تركه روكامبول وجعل ينظر إلى جيبسي وإلى السير جورج فكان كلما نظر الى السير جورج يجده أيضاً ناظراً اليه .

كانت عينا السير جورج تتقدان حتى كان يحسب الناظر اليه أنه متدله بغرام تلك الراقصة وانه هو ذلك المنتقم الخفي من أزواجها الستة .

لبثت جيبسي ترقص رقصاً متصلاً نصف ساعة ، حتى وهنت عزائمها . فكفت عن الرقص ، فصفق الحضور لها تصفيقاً شديداً ، ما خلا السير جورج ، فإنه كان ينظر من حين إلى حين إلى روكامبول ، نظرات

ملؤها الحقد .

وكان نويل قد تنبه لنظراته فقال لروكامبول : إن هذا الرجل لا بد ان يكون قد عرفك فإنه ينظر اليك نظر الحاقد عليك .

ــ إن حقده طبيعي لأني سأتزوج الفتاة ؟

ــ إذاً هو يهواها ؟

ــ لا أعلم .

ــ ألا تظن انه هو الذي ...

فقاطعه روكامبول وقد نفد صبره قائلاً : أسكت ولا تحدثني الآن إلا إذا حدثتك .

بعد أن فرغت الراقصة من الرقص ، أخذت دفها بيدها وطافت به على الحاضرين . فكانت قطع النقود تتساقط كالمطر في هذا الدف . حتى إذا أتمت تطوافها عادت الى روكامبول وقالت له : إني خاضعة لأمرك يا سيدي .

ــ إذاً لنذهب .

ثم همس في أذن نويل قائلاً : ستجدني غداً عند فاندا .

فذهل نويل وقال : ألا تصحبني معك ؟

ــ كلا ! وهذا الرجل تذهب في أثره متى خرج وتراقبه أتم المراقبة ، فإذا عاد الى منزله إذهب الى فاندا وإذا ذهب الى غير محله اكمن له في الطرقات ولا تفارقه حتى يشرق الصباح .

فانحنى نويل ممتثلاً لاعتقاده ان الجدال مستحيل .

أما روكامبول فأمسك ذراع جيبسي وقال لها وهو يبتسم : ودعي الرفاق أيتها الحبيبة .

فعلت ضوضاء بين الحضور ممتزجة بين الانذهال والأعجاب فصاح أحد البحار إنه لا شك من البواسل

فقالت الارلندية : ولكن سيصيب بما أصيب به أمثاله من أزواج هذه المشؤومة !

فسمعها روكامبول فأجابها : سوف ترين ما يكون .

ثم أخذ جيبسي وخرج بها خروج الفائز في معركة .

لما بلغا إلى الطريق قالت له بصوت يضطرب : إلى اين نحن ذاهبان ؟

– أين تقيمين ؟

– في بيت قرب شابل .

– أتقيمين وحدك في هذا البيت ؟

– نعم .

– إذاً لنذهب إلى منزلك فنتحدث فيه .

– ولكن يجب ان أخبر زعماء القبيلة بأمرنا .

– بأمر زواجنا ؟

– نعم .

فطمأنها بنظرة قائلا ستخبرينهم بعد ان نتحدث وأعاهدك على ان أنام على عتبة غرفتك .

– أحق ما تقوله ؟

– أقسم لك أجل الأقسام .

فنظرت اليه باضطراب قائلة : كلا لا أريد .

– لماذا ؟

– لا أريد أن تكون زوجي .

– لماذا ؟

– لأنك ستصاب بما أصيب به سواك .

فابتسم روكامبول وقال : أتصدقين انت هذه الأقوال ؟

– نعم وفوق ذلك فاني أرى بين عينيك ملامح البسالة والشرف فلا أحب

أن أخدعك كما خدعت الآخرين

فنظر اليها روكامبول مستفهماً فاضطربت وقالت : كلا لا أستطيع أن أبوح بحرف لأنه سر يتوقف عليه موتي .

فقال لها بلهجة السيادة : هلم بنا إلى منزلك .

فاضطربت الفتاة اضطراباً شديداً وقالت : كلا .. ليس لي منزل ... إني أفضل الموت على ان أخدعك . فاذهب بي الى حيث تشاء ، غير هذا المنزل .

– إذاً ليكن ما تريدين . وسار بها إلى جسر لندرا .

- ٢٢ -

إن الناحية التي كانت تقيم فيها جيبسي تدعى وايت شابل . وهي أشر من ناحية وينغ وأكثر منها فساداً .

وكان المنزل الذي تقيم فيه جيبسي أضيق منازل تلك الناحية ، وأشدها ظلاماً .

غير أن هذه الفتاة كانت تطهر تلك الناحية من أدرانها حين تمر بها ، فان الأشرار كانت تحن نفوسهم حين يرونها . فلا ينظرون اليها إلا نظرات تشف عن الاحترام ، لما يرون عليها من ملامح السلامة ومظاهر الأدب والعفاف .

كان منزلها في الدور الأعلى لرخص أجرته ولم يكن فيه من الأثاث غير صندوق وسرير وكرسيين ومرآة صغيرة معلقة في الجدار

غير ان خطيبها منذ ساعة وزوجها في الغد ، أي روكامبول ، كان يحسب أنه مقيم في قصر معها وهي جالسة على الكرسي وهو واقف أمامها ينظر اليها

بملء الاشفاق والحنان .

وكانت راضية بالرجوع معه الى منزلها بعد أن حادثها ملياً عند جسر لندرا حيث ذهبا في البدء .

ويظهر ان الثقة قد تبودلت بينهما لان روكامبول كان واقفاً أمامها وقد نزع لحيته المستعارة وبرقع وجهه الذي كان يتنكر به . فظهر للفتاة وجه جميل بدأت الأيام تحط بين ثناياه آثار معارك الحياة ، ونقشت على جبينه أحرفه من السويداء .

أما جيبسي فكانت تتفرس بوجهه معجبة به وقد قالت له ببساطة إنك جميل يا سيدي وكل ما أراه بك من نعومة يديك وسلام نظراتك وحنو الفاظك وجمال ملابسك كل ذلك يشير الى انك من الاشراف وانك لست من زبائن خمارة سانت جورج .

فابتسم روكامبول وجعل يحادثها بحديث أزواجها الستة ، فظهرت ملامح الاضطراب على محيا الفتاة وقالت له بلسان يتلعثم من الوجل : إنك لو تعلم يا سيدي مقدار شقائي لرثيت لحالي .

وأدمعت عيناها فسقطت دمعة على يده .

فتأثر روكامبول وقال لها بلهجة الحنو إنك عجبت لنعومة يدي وحسن ملابسي ؟

– نعم ولا أزال أعجب إذ لا يمكن ان تكون من زمرة اولئك الذين يترددون على تلك الخمارة .

– ذلك لا ريب فيه .

– إذاً لماذا أتيت الى وينغ ؟

– لاني أذهب الى كل مكان يحتاج فيه المظلومون الى مساعدتي

فصاحت صيحة دهش وفرح ، كأنما ذكرت أموراً هائلة تروعها وقالت : أنت تحميني ؟

فحاول روكامبول أن يأخذ بيدها غير انها امتنعت كأنما قد رجعت الى عزمها السابق وقالت : كلا إني لا اريد ان تحبني .

فابتسم روكامبول ابتساماً يشف عن قصده باكتشاف سرها وقال لها : لماذا لا تريدين ؟

— لانك جميل ... لان ظواهرك تدل على الصلاح . لان .. ثم أرخت عينيها وقالت : لان الحب يجلب الحب وأنا ..

— وأنا ماذا ؟ أتخشين ان تحبيني ؟

— كلا لاني لا أستطيع ان أحبك .

— إذاً انت تحبين سواي .

فنظرت اليه الفتاة نظرة لا يستطيع قلم ان يصفها وقالت إني لا أعلم من أنت ولا أعرف إسمك . فقد تكون رجلاً من عامة الناس وقد تكون لورداً من النبلاء ولكن نظراتك لا أستطيع أن أقابلها بعيني وظواهر إخلاصك دفعتني الى الثقة بك والركون اليك

— حسناً فعلت .

— أتعلم لو اني بحت لسواك بما سأبوح به اليك الآن لحكم علي بالموت .

— لا يوجد هنا من يسمعنا ولست من الذين يبوحون بالاسرار فقولي .

— إذاً إعلم إني أحب .

— وهذا الرجل ألا خطر عليه من حبك ؟

— كلا وان الله يعاقبني لاني مذنبة فإني منذ عامين أطلب قريناً وأنا أعلم يقيناً انه لا يمكن ان أتزوج ، ولكني كنت أرتكب هذه الجريمة الشائنة كي أحول الانظار عمن أحبه وأقيه شرهم .

— شر من تعنين ومن هم الذين يريدون السوء لحبيبك ؟

— هم قوم يضطهدونني منذ نشأت ، وقد حكموا علي أن أبقى بتولاً ما حييت .

ـ من هم أولئك الناس أتعرفين أسماءهم !

ـ هم أولئك الذين يلقبونهم بالخناقين .

فارتعش روكامبول وقال في نفسه : لم يخطىء ظني فقد خطر لي هذا الخاطر .

وعند ذلك رفعت جيبسي عن كتفيها وشاحاً كانت متشحة به حين خروجها من الحمارة ، وانحنت قليلاً كي تضعه على الصندوق وكان روكامبول واقفاً فرأى بين كتفيها وشوماً تشبه تلك الوشوم التي رآها على كتف الفتاة التي اختطفتها شيفيوت ، أي بنت ناديا ، وعلم ان هذه المسكينة ضحية من ضحايا الآلهة كالي .

فقال لها : لقد رأيت الوشوم بين كتفيك وأنا أعلم أسرارها فهل تريدين أن أدافع عنك وأحميك من ظلم هؤلاء الخناقين ؟

ـ أتستطيع أن تحميني ؟

ـ اني أقدر على كل ما أريد ولكن يجب أن تخبريني بكل شيء فقولي لي أين ولدت ؟

ـ لا أعلم ولكني أرجح اني ولدت في الهند .

ـ أنت من جماعة النور ؟

ـ كلا فقد كنت أحسب اني منهم زمناً طويلاً ثم عرفت أن عائلتي التي لم أوفق لمعرفتها إلى الان قد عهدت بي إلى أولئك النور لاخفائي عن الخناقين دون شك .

ـ من قال لك هذا القول ؟

ـ النوري الشيخ الذي رباني .

ثم وضعت يدها فوق جبينها وقالت : أواه ان لدي أموراً هائلة يجب أن أقصها عليك .

فأخـذ روكامبول يدها بين يديه وقال لها : قولي يا ابنتي كل شيء ولا تخـافي .

واستأنفت جيبسي الحديث فقالت . إن منتهى ما أتذكره من أمور حداثتي اني نشأت بين النور وكان يتولى أمري رجل اسمه فارو وكان يقول انه أبي .

لكني كنت أرى نفسي شقراء بيضاء البشرة خلافاً لأولئك النور فـانهم سود الشعر سمر الوجوه، حتى ان لون بشرتهم يشبه لون النحـــاس فكنت أعجب من هذا التباين وأشكك في قول ابي .

وأنت تعلم انهم لا يكسبون رزقهم إلا بشق النفس فان بعضهم يرقصون وبعضهم ينجمون وآخرون يسرقون ، ومنهم من يحترفون كل هذه المهن في وقت واحد .

أما فارو الذي كان يدعي انه أبي فقد كان أغنى رجال القبيلة .

وأذكر من ذلك انه حين كانت القبيلة تحتاج إلى شيء من المال لشأن خطير من شؤونها يسألونه ذلك المال فيمهلهم هنيهة ثم يعود اليهم بما طلبوه بعد أن يذهب إلى أجمل شارع في لندرا .

ولما تجاوزت سن الحداثة جعلت أفتكر بهذه الأموال السرية التي يأتي بهـا فلا أعلم مصادرها .

وقد قلت له مرة اننا يا أبي من فقراء الناس ننام أحياناً تحت السماء وإذا أوينا إلى منزل كان من شر المنـــازل وفي أقذر الشوارع فكيف يتسنى لك الحصول على المال حينما تريد ؟

فنظر الي نظرة انذار وقال . ذلك لا يعنيك ..

فسألت من كان يميل الي من أهـل القبيلة فكان بعضهم يجهلون وبعضهم يتجاهلون ويسكتون .

غير ان أحد النساء قـالت لي : إنك إذا أردت ان تعرفي مصدر هـذه الثروة فاقتفي أثره حين يخرج من المنزل .

وكان عمري في ذلك العهد ١٣ عاماً ، ولم أكن اخاف امرأ فقلت لهذه المرأة . لقد أصبت وسأعمل بما أشرت به الي .

وكنا نسكن في هذا البيت الذي تراني فيه الآن ولنا فيه سريران احدهما لأبي والاخر لي فأنام مع فامو في غرفة واحدة .

ولم يكن يفارقني لحظة فاذا ذهبت إلى الرقص ذهب معي وإذا ذهبت إلى الحفلات التي يعقدها النور كان معي غير انه كان إذا عدنا إلى المنزل أقفل على باب الغرفة بالمفتاح وذهب فلا يعود إلا عند الصباح .

وقد لاحظت مرات كثيرة انه لم يفارقني إلا حين قرب حلول الأعياد المسيحية كالفصح والميلاد وغيرهما من الأعياد الكبرى فكنت اقيم وحدي وكان هو يذهب مطمئناً لأن المفتاح في جيبه ولا سبيل إلى الخروج .

غير انه كان يوجد منفذ الى الخارج لم يخطر في بال .

ثم أخذت يد روكامبول وسارت به الى آخر الغرفة فأرته نافذة مرتفعة فيها وقالت له : انظر الى هذه النافذة فانها منفتحة وليس بينها وبين السطح غير مسافة نصف متر فاذا اتيت منها الى السطح نزلت من سلمه الى باب المنزل الكبير فخرجت منه إلى الشارع دون ان يراني احد .

وفي ليلة عيد الميلاد ذهب بي ذلك الذي كنت احبه ابي إلى مطعم فأكلنا فيه وشربنا خمراً وهذا لم يكن يفعله الا في مثل هذا العيد ثم عاد بي عند منتصف الليل إلى منزلنا فخلع ثيابه ونام فاقتديت به وذهبت الى سريري فتناومت فيه وهو يحسبني نائمة .

وبعد ساعة هب من فراشه ولبس ثيابه دون ان يبدي حركة تدعو إلى انتباهي ثم خرج من تلك الغرفة بعد ان اقفل بابها حسب المعتاد .

فأسرعت في الحال الى ثياب بحار كنت اشتريتها بالسر بغية التنكر بها فلبستها وخرجت من النافذة الى السطح ونزلت من السطح الى باب المنزل الكبير فخرجت منه الى الشارع .

وكان فارو قد سبقني ولكني كنت اعرف عاداته فانه كان يقف قبل ذهابه في خمارة فيشرب شيئاً من المسكر ثم يمضي في شأنه .

فأسرعت إلى تلك الخمارة فوجدته لا يزال فيها ..

كان الظلام حالكاً فوقفت قرب باب تلك الخمارة أترقب خروجه منها الى ان خرج فجعل يخطو خطوات سريعة .

غير اني كنت اسرع منه في المشي فكنت تارة اتقدمه وطوراً امشي خلفه كي لا يفطن اني اقتفي اثره وهو يراني ولا يشتبه بامري لكثرة انتشار البحارة في تلك الأماكن .

وما زال يندفع في سيره وانا أقفوه حتى وصل الى هاي مركب فوقف عند بيت جميل تتقدمه حديقة كان بابها مفتوحاً .

كان البيت في وسط الحديقة فطرق الباب وفي الحال فتح الباب وبرزت منه امرأة وافرة الجمال ، لكنها كانت صفراء الوجه تبدو عليهـــا ملامح التعب والكدر .

كانت أشعة المصباح الذي بيدها تظهر وجهها فما تأملت وجههـــا الصبوح حتى شعرت بميل نفسي اليها .

ثم دخل فارو الى المنزل وأغلق الباب وراءه فدفعني الفصول الى كشف السر ودخلت الى الحديقة .

وهنا توقفت جيبسي عن قص حكايتها فنظرت الى روكامبول قائلة : يجب ان اقص عليك جميع هذه الأمور كي تعلم حكايتي الهائلة .

ـ تكلمي يا ابنتي فاني أصغي اليك .

فاستأنفت الحديث وقالت ..

العادة في لندرا أن يشتد البرد في ليالي الشتاء غير أن تلك الليلة كانت أشبه بليالي الصيف لا مطر فيها ولا عواصف .

فلما أقفل البـاب بعد ان دخل فارو رأيت نور المصباح من خلال النوافذ يتنقل من مكان إلى آخر حتى استقر في غرفة تشرف نافذتها على الحديقة .

فدنوت من تلك النافذة دون ان يشعر بي احد ورأيت فارو واقفاً وقفـة الاحترام أمام مرأة كانت جالسة قرب المستوقد .

كانت هذه الغرفة جميلة الرياش تشبه القصور وكانت تلك السيدة تنظر نظرة تشف عن الحزن إلى فارو وتقول له .

لقد قلت انها باتت كبيرة وجميلة .

— نعم ، وهي تشبهك كثيراً .

جالت الدموع في عينيها وقالت : اريد ان أراها .

— احذري يا سيدتي ان تعودي الى مثل هذا القصد ألا تعلمين الخطر الذي ينتج عن اجتماعكما ؟

فأظهرت حركة تدل على نفاذ صبرها ويأسها وقالت : اني أم وأحب ان أرى ابنتي . .

— ليس من ينكر هذه العواطف يا سيدتي ولكنك تعلمين انه اذا ذهبت سيدة مثلك الى ناحية ويت شابل فلا يمكن الا ان يقفو أثرها .

أخذت يد فارو وقالت له بلهجة المتوسل : ابحث لي طريقة أستطيع بها ان ارى ابنتي ساعة واحدة وليقتلوني بعد ذلك فاني لا ابالي بالموت . ابحث ايها الصديق لعلك تجد طريقة تمهد لي السبيل الى رؤيتها ولو لحظة .

فتأمل فارو هنيهة ثم قال : لدي طريقة يا سيدتي ولكن لا أجسر على أن أدلك عليها .

-- لماذا ؟

-- لأنك قد تهيج بك عواطف الحنو عندما ترينها فتصيحين صيحة او تقولين كلمة تفضحنا .

غير انها لم تحفل بهذا التحذير وقالت له بلهجة السيادة . تكلم فاني اريد أن أعرف .

فتردد فارو ايضاً ولكنه لم يسعه بعد ذلك الا الامتثال حين رآها قد غيرت لهجتها وصارت تأمره فقال لها : غداً يتفق عيد الميلاد .

وفي مثل هذا اليوم يسرح النور في شوارع لندرا ويدخلون المنازل فبعضهم يرقصون وبعضهم يغنون وبعضهم يستكشفون الغيب فيحسن عليهم الناس ويكثر التجمهر حولهم دون حذر .

فاذا شئت أتيت غداً بحبيبي الى ويت هال فترقص في الحديقة في الساعة الثانية بعد الظهر بحيث اذا مررت بمركبتك في تلك الساعة ترينها ولكن لا ينبغي ان تطيلي الوقوف حذراً من الرقباء .

ففرحت السيدة فرحاً لا يوصف وأخذت يد فارو وضغطت عليها اشارة الى الامتنان ثم أخذت كيساً مملوء دنانير أعطته اياه وقالت : هذا لك ونزعت من زندها سواراً من الذهب الخالص وقالت : وهذا لها . .

فقالت الفتاة . ثم رأيت فارو يتحفز للقيام فأسرعت وخرجت من الحديقة وانا أبكي بكاء مراً لأن تلك المرأة كانت امي .

وجعلت أركض اجتاز الشوارع الى منزلنا حذراً من أن يسبقني فارو اليه حتى بلغت المنزل قبله فصعدت الى السطح ونزلت منه الى النافذة ودخلت منه الى الغرفة .

ولما عاد الرجل الذي طالما حسبته ابي رآني نائمة في سريري ولكن قلبي كان يدق دقات عظيمة توشك ان تسمع .

ولم أنم تلك الليلة لشدة شوقي الى الغد وقد رأيت الليل أطول من ليالي

عشاق العرب حتى اذا أشرق الصباح وصحا فارو من رقاده قال لي : ابحثي يا ابنتي في كيسك عساك تجدين فيه شيئاً يروق لك .

فلما رأيت ذلك السوار الذهبي تظاهرت بالفرح العظيم فقال لي فارو : ربما كانت الملكة أرسلت لك السوار .

فتظاهرت بالدهشة أيضاً وقلت له : لماذا ترسل لي الملكة هذه الهدية ؟

— كي ترقصي اليوم في ويت هال .

فلبست السوار وقلت : حسناً فسأذهب وأرقص أبدع رقص .

وفي الساعة الثانية من ذلك اليوم جمع فارو بعض النور وذهب بنا جميعاً إلى ويت هال فازدحم الناس من حولنا وكان الفرسان والجنود والبحارة وجميع من حضر إلى تلك الحديقة يقفون كي يتفرجوا على رقصي .

فكنت أرقص وأنا أنظر اليهم وأراقب المركبات باحثة فيها عن أمي .

وبعد حين سمع الناس فجأة صيحة استلفتت أنظارهم ووقعت في قلبي وقع السهم فتوقفت عن الرقص .

ثم رأيت الناس يزدحمون حول المركبات ويبتعدون وبعد ذلك جعلوا يتفرقون وعليهم مظاهر الاكتئاب كأنما قد حدث مصاب .

وكان النور رفاقي مندهلين أيضاً فجعلوا يسألون عما حدث ما خلا فارو فانه كان مقطب الحاجبين ساكتاً لا يتكلم ولا يظهر عليه شيء من ملامح الاندهاش .

وما زالت تفاصيل الحادثة تنتقل من فم إلى فم حتى وصلت الينا فعلمنا أن أن أحدى السيدات كانت تنظر إلى رقصي فصاحت صيحة عظيمة وسقطت مغمياً عليها في مركبتها .

وكانت هذه السيدة تدعى اللادي بسفورت وهي من أجمل وأغنى نساء الانكليز . وكان أبوها من قبل حاكماً عاماً في الهند الانكليزية .

وقد هاج فضول الناس لأنهم لم يدركوا السبب في إغماء هذه السيدة .

أما فارو فانه كان يحاول أبعادي عن هذا المكان فأخذ بيدي وقال لرفاقنا هلموا بنا إلى وينغ نشرب ويسكي .

فذهبنا جميعنا ولكن لم نكد نبلغ وينغ حتى زادت عصابتنا رجلاً آخر وهو ذو لون نحاسي قدمه لنا فارو كواحد منا فإنه كان يلبس ملابسنا ويتكلم بلغتنا وقد قال أنه من النور النازلين في ايكوسيا .

فاستقبله رفاقنا استقبالاً حسناً لاسيما أنه كان وحده ولا مورد له للارتزاق.

فسار معنا هذا الرجل إلى خمارة سانت جورج .

وكان ينظر الي بانتباه عظيم وقد سألني مرة في خلال الحديث عن اسمي ، فقلت له : أنك تعرف اسمي كما أعرفه . فسكت ولم يجب .

وكنت غير مكترثة به خلافاً لفارو فقد كان يظهر أنه يريد أن يسكر إلى أن يفقد رشده .

فلما افترقنا وعدنا إلى البيت كان فارو سكران لا يعي وهو أمر لم يكن يتفق له من قبل .

وكان النوري الجديد يرافقنا فلم يفترق عنا إلا حين وصلنا إلى البيت فصعد فارو السلم وأنا أمسكه لأنه كان يوشك أن يسقط لفرط سكره .

فلما وصلنا إلى غرفتنا انطرح على سريره وهو لا يعي من السكر ونام نوماً عميقاً . فخطر لي فجأة خاطر سريع فنزعت ملابسي ولبست ملابس البحار التي تنكرت بها في الليلة السابقة وقد قلت في نفسي ان فارو لا يمكن أن يصحو من سكرته قبل عدة ساعات .

ثم صعدت إلى تلك النافذة وذهبت بغية أن أرى أمي .

فلما وصلت إلى الشارع جعلت أسير سيراً مستعجلاً حتى اني كنت اركض فلم انتبه إلى ذلك النوري الجديد الذي كان يقتفي أثري دون أن أراه .

وصلت إلى هاي ماركت ووجدت في الحال ذلك المنزل الذي تتقدمه الحديقة .

وكانت نافذة الغرفة مفتوحة والنور ينبعث منها كالليلة السابقة .

فدنوت على مهل ونظرت إلى تلك الغرفة فرأيت اللادي بلسنفورت جالسة قرب المستوقد كما كانت جالسة بالأمس وهي حاملة رأسها بين يديها تنظر إلى الأرض مفكرة مهمومة .

فجعلت أتأمل ملامحها وأنا أكاد أذوب حنواً ، ثم رأيتها قد رفعت رأسها فجأة ، فنظرت الدمع يتساقط من عينيها وسمعتها تقول رباه ما هذا الشقاء أأكون أنا من أعظم سراة الانكليز وتكون ابنتي من الراقصات ويلاه أن هذا شديد لا يطاق.

فلما سمعت هذه الكلمات المؤثرة ، ورأيت تساقط دموعها لم أستطع ضبط نفسي فوثبت الى النافذة وهبطت منها إلى الغرفة فركعت أمامها وقلت لها : هوذا ابنتك يا أمي

وكانت قبعتي قد سقطت عن رأسي فانتشرت ضفائر شعري على كتفي فعرفتني للحال بالرغم عن تنكري بملابس الرجال وصاحت صيحة فرح لا توصف ثم ضمتني بين ذراعيها وقالت : أيتها التعيسة ماذا فعلت أتريدين أن تكوني السبب في هلاكنا ؟

ولكنها لم تلبث أن نسيت ما يتهددنا من الأخطار بعد أن ضمتني إلى صدرها جعلت تعانقني وهي تضحك وتبكي في حين واحد .

وبعد ذلك عادت إلى التنبه والاحتياطات فأحكمت إغلاق باب الغرفة من الداخل .

واقفلت النوافذ المشرفة على الحديقة وأطفأت المصباح فبت وإياها في تلك

الحجرة في الظلام الحالك .

وهنا جعلت تقبلني وتقول : نعم إنك ابنتي المحبوبة وليس من يعلم ذلك غير فارو ، فاذا وجدوك هنا حكم علي بالموت لا محالة .

فذهلت لقولها وقلت : لماذا يا أمي ؟

تنهدت قائلة :هذا سر لا أستطيع أن أبوح لك به ، ثم تابعت بعد سكوت قصير ، كيف أتيت ، ومن أين دخلت وكيف عرفت اني امك ؟

فاعترفت لها عند ذلك بكل شيء .

ولما أتممت حكايتي لها تنهدت تنهداً طويلا وقالت : واأسفاه انك حكمت علي بالقتل دون أن تريدي لأنك لا تعرفين شيئاً من أسراري، لكني لا أكترث للموت بعد هذا اللقاء .

ثم عادت إلى ضمي وعناقي فكانت دموعها تتساقط على وجهي .

وفيما نحن على ذلك سمعنا حركة خفيفة فصاحت امي وقالت : اننا لسنا وحدنا في الحجرة .

وفي الوقت نفسه رأيت خيالاً اشد سواداً من الظلام الذي يكتنفنا يدنو منا ثم شعرت بانفاسه فوق صدري .

وبعد هنيهة سمعت أمي تصيح صياح النزع بصوت مختنق .

ثم انقطع الصوت فلم أكن أسمع حساً ولا أشعر بتلك الأنفاس التي كانت تحرقني وابتعد الشبح الأسود ثم شعرت ان يدي أمي التي كانت تعانقني بها قد تراختا وانها لم تعد تبدي حركة .

وجزعت جزعاً شديداً وجعلت أصيح واستغيث باصوات ملؤها الذعر .

وتسارع الخدم الي حين سمعوا صياحي ودخلو وبيد أحدهم مصباح، فرأيت أمي عند ذلك منطرحة على الأرض وفي عنقها حبل من الحرير خنقتها به يد خفيفة أثيمة .

ومع ذلك فقد كانت لا تزال تتنفس وكانت عيناها مصوبتين الي بحنو لا

أستطيع وصفه ، وبعد أن ودعتني هذا الوداع الأخير أطبقت عينيها .

وجاء بعد اولئك الخدم صبية رأيتها أكبت على جسم اللادي بلسنفورت وهي تقول أمي .

وعلمت انها أختي غير اني لم أشعر بعاطفة ميل اليها كما شعرت حين رأيت أمي لأول مرة .

وكانت هذه الفتاة تنظر الي بملء الدهشة والاستغراب لأنها كانت تراني امرأة بملابس الرجال وكانت تراني أبكي وعلى وجهي ملامح اليأس الشديد أمام جثة أمها ، في حين أن جميع القرائن تدل على اني أنا القاتلة .

ولما رأيت هذه النظرات الي ، ورأيتهم أرسلوا يستدعون الشرطة خشيت أن يتهموني بقتلها فحملني الخوف والحزن على الهرب فاغتنمت فرصة اضطرابهم وهربت ..

وبعد عدة دقائق كنت في شوارع لندرا هائمة على وجهي كالحمامة أصابها سهم الصياد ، لا تعلم كيف تستقر .

وهمت زمناً طويلاً وأنا لا أعلم اين اذهب الى أن رأيت نفسي في المنزل دون أن أسعى اليه سعياً مقصوداً .

وكان النهار قد طلع وصحا فارو فلم يجدني ، وبحث عني في كل مكان ثم عاد إلى المنزل وقد أجهده البحث ، فوجدني فيه ، وعند ذلك أكببت على عنقه أبلل وجهه بدموعي واعترفت له بكل ما مضى .

ونظر الي نظرة تعرب عن كآبة لا حد لهـــا وقال : أيتها التعيسة انك كنت السبب في قتل أمك .

وكاد تقريع الضمير يقتلني وعلمت ان هذا الرجل الذي ادعى انه من النور وشرب معنا وصحبنا إلى منزلنا هو الذي خنق أمي .

وهنا سكتت جيبسي ومسحت دموعها فأخذ روكامبول يدها وقال لها : اني لا أعلم بقية حكايتك ولكني أعرفها بالتقدير فإنك خلقت في الهند حين كان

أبوك اللورد بلسنفورت حاكماً عاماً فيها وان الخناقين قد وشموك ، لأن هذه الوشوم على ظهرك تدل على انك ضحية للالهة كالي ، وانه يجب عليك أن تبقي بتولاً طول العمر فإذا تزوجت حكم عليك بالقتل .

أما امك فقد أرادت وقايتك من شر تلك الجمعية الهائلة فتبنت فتاة جعلتها مكانك إخفاء لك .

فصاحت جيبسي عند ذلك : هو الحق ما تقول ، فإن تلك الفتـــاة التي رأيتها في منزل أمي ، لا يمكن ان تكون اختي لأني لم أشعر بعاطفة حنو عليها حين رأيتها .

وعاد روكامبول إلى حديثه فقال وان الخناقين علموا بسر هذه الفتـاة التي استبدلتها بك امك ، فقتلوا امك .

— لم يعد لدي شك بصحة ما تقول ، لأن فارو حين حضرته الوفاة دعاني اليه وقال لي: تذكري اذا تزوجت يقضى عليك بالموت إذ قدر لك ان تبقي بتولاً

— وهل صدقت هذه النبوة ؟

— إنك ترى كيف انها صدقت فقد كنت السبب في قتل ستة رجال

فأخذ روكامبول يدها بيده وقـــال لها بحنو يجب يا ابنتي أن تخبريني بكل شيء .

— ماذا تريد أن تعرف بعد ؟

— انك تحبين ؟

فاضطرب وجهها وقالت : أسكت .

- ان عاشقك يقتل وأنت تقتلين معه إذا لم أحميكما من الأعداء .

— انت تحمينا ؟

— نعم . .

— ألا تريد اذن ان تكون زوجي ؟

— بالعكس .

وبينا هي تنظر اليه منذهلة لجهلها مقاصده قال لهـــا : لا بد ان تكوني مسيحية لأنك ابنة اللادي بلسنفورث ، وأنا ايضاً مسيحي اي اني لا أعتقـد بصحة الزواج إلا إذا عقده الكاهن .

– ماذا تعني بذلك ؟

- اعني ان اصطلاح النور بزواجهم مضحك لا يعول عليـه وهو منحصر بشرب الزوجين من ابريق واحد وكسر الابريق بعد الشرب .

– هو ما تقول ..

– اذن أتريدين ان تكوني امرأتي على طريقة الزواج النوري ؟

– ولكن .

- لا تقطعي علي القول فاني بهذه الوسيلة أحميك وأنام على عتبة بابك كما ينام الكلب الأمين وأمنع الخناقين من الوصول اليك .

فعانقته جيبسي وقالت :انك كريم ومن رجال الصلاح وسأكون كما تشاء.

– ٢٥ –

ولندع الآن روكامبول مع جيبسي ولنعد إلى نويل .

ويذكر القراء ان روكامبول عهد إلى نويل حين خرج من الخمارة مع جيبسي أن يراقب السير جورج .

أما السير جورج فإنه حاول أن يبرح الخمارة بعد انصراف روكامبول فتبعه نويل وكان ماهراً في التجسس فانه حسب ان السير جورج لا بد له من مبارحة الخمارة فخرج منها قبله كي ينتظره في الشارع .

وكان نويل يحسن التكلم بالانكليزية كأبنائها ويقلد الانكليز في جميع حركاتهم اتم التقليد .

فلم يكد يخرج من الخمارة حتى رأى رجلا يتأهب للدخول اليها .

وكانت ملابس هذا الرجل تشبه ملابس اولئك البحارة الذين يترددون على وينغ .

غير ان لون وجهه النحاسي وسواد عينيه وتلك الحلقة الكبيرة التي كانت في أذنه كل ذلك كان يدل على انه من اصل هندي .

فلما رآه نويل تمثل له انه يعرفه ولكنه لم يتذكره فرأى ان يدخل في أثره إلى الخمارة عله يعرفه ولا سيما وأن السير جورج لم يكن قد ذهب منها بعد .

فدخل الرجل إلى الخمارة فوقف على بابها هنيهة ينظر إلى الناس المحتشدين فيها ثم ذهب إلى الطاولة التي كان كان جالساً عليها السير جورج .

أما نويل فإنه دخل في اثره وذهب إلى كالكراف صاحب الخمارة وهو من اتباع روكامبول كما تقدم فسأله : أتعرف اللغة الهندية ؟

ـ اني أعرفها اتم العرفان .

ـ ارأيت هذا الرجل الذي دخل الآن ؟

ـ نعم .

ـ افحصه جيداً .

ـ اني أعرف الرجل الذي جاء يبحث عنه .

ـ وانا احب ان اعرف بماذا يتحدثان .

ـ طب نفساً وتعال نجلس حول تلك المائدة بقرب مائدتهما .

ثم ذهب كالكراف إلى الطاولة المجاورة لطاولة السير جورج بحجة انه يريد قراءة جريدة الستندرد التي كانت عليها وبعد حين جاء نويل وجلس معه .

وقد فتح كالكراف الجريدة وغطى وجهه بحيث لم يكن يراه السير جورج ولا يعلم انه كان مصغياً لحديثهما .

فكان السير يكلم رفيقه باللغة الهندية وكان كالكراف يترجم همساً لنويل كل ما كان يسمعه من هذا الحديث وهذه خلاصة حديثهما .

قال السير لرفيقه : أعدت من مهمتك يا أوسمانا ؟

ـ نعم يا حضرة الرئيس .

ـ متى رجعت ؟

ـ هذه الليلة نفسها .

ـ أنجحت في قضاء المهمة ؟

ـ كلا يا مولاي .

فاتقدت عينا السير جورج ستوي وقال : ويحك ، أيها الشقي ! ماذا تقول ؟

ـ أقول الحقيقة يا مولاي .

ـ العلك تمزح يا اوسمانا ؟

فاضطرب اوسمانا وقال : يا نور الشرق ! اني لا أقول غير الحقيقة بحضرتك المقدسة .

ـ إذاً لم تجدهم ؟

ـ كلا بل وجدتهم .

ـ وإذا كنت قد وجدتهم فكيف سلموا من قبضتك ؟

ـ أيها النور ! ذلك ان الإله سيوا يحارب الإلهة كالي .

فلما سمع السير جورج هذه الكلمات إهتز على كرسيه واصفر وجهه وقال : كيف ذلك ؟

ـ إن عباد الإله سيوا موجودون في فرنسا .

ـ هذا مستحيل لأنهم لم يبرحوا الهند .

ـ إنك منخدع ايها النور .

وكانت لفظة النور ونور الشرق لقب السير ستوي .

فقال له السير : إذاً قص علي أمرك فماذا جرى لبجور ؟

ـ إنه دخل خادماً في منزل والد ناديا متنكراً باسم جواني .

- أعرف ذلك الرجل فقد عهدت اليه أن يدخلك مع كيرشي إلى ذلك البيت فماذا جرى بعد ذلك ؟

- إن بجور وافانا في الوقت المعين وكان قد أعد كل شيء فذهبنا جميعنا في ليلة مظلمة الى البيت الذي يقيم فيه الجنرال وابنته .

كان بجور قد لاقانا الى المحطة فمشى أمامنا حتى كدنا نشرف على البيت فقال لنا إنتظروا هنا في ظل الأشجار وأنا ذاهب في طريق آخر لأفتح لكما باب البيت فاذا سمعتما صفيري فتقدما من الباب .

بعد حين سمعنا صفيره فما تقدمنا خطوتين حتى عثرنا بحبل مشدود بـين شجرتين فسقطنا على الأرض .

وفي الوقت نفسه سمعت وقع أقدام كثيرة وشعرت برجل قد انقض علي قائلا لي باللغة الهندية : إذا فهت بكلمة فأنت من الهالكين .

فاضطرب السير جورج وسأله : وبجور ماذا حدث له ؟

- خنقوه .

- وكيرشي ؟

- خاننا .

- والجنرال وابنته ؟

- أنقذهما عباد الإله سيوا .

- وأنت ؟

- أبيت ان أبوح بالأسرار . فألقاني زعيم أبناء سيوا في نهر يشبـه بعظمته نهر التاميز ، وهم يدعونه السـين . ولكني تمكنت من النجاة لمهارتي في السباحة .

فضرب السير جورج الطاولة بيده قائلا له بلهجة السيادة المطلقة : لقـد حكمت على كيرشي وسأنتقم منه باسم الإلهة كالي شر الانتقام ويكون عبرة لسواه من الخائنين وأما انت فإذا عجزت ايضاً عن قضاء المهمة التي سأعهد بها اليك

فإنك موتاً تموت .

فانحنى اوسمانا قائلاً : مر يا مولاي أطع .

ـ أريد أن تخنق رجلاً جريئاً تجاسر ان يخطب جيبسي النورية .

ـ سأخنقه .

فقال نويل ، عندما ترجم له كالكراف هذا الكلام : نعم ، سيخنقه إذا أردنا .

إنتهت المحادثة بين السير جورج وأوسمانا فنادى السير جورج أحد خدم الخمارة ودفع له الحساب فعلم نويل انه عزم على الانصراف فسبقه وتربص له في الشارع في مكان مظلم .

أما السير جورج فانه ذهب بعد هنيهة من الخمارة ، وجعل يسير سيراً حثيثاً ، ونويل يتبعه دون ان يراه ، حتى وصـــل إلى جسر لوندرا . فرأى مركبة وحاول الركوب فيها. فتردد السائق عن قبوله لما رآه من قذارة ملابسه ، غير ان السير جورج طمأنه وأراه النقود في جيبه فرضي السائق ان يذهب به .

وعند ذلك كان نويل أدرك المركبة ، فاختبأ بين دواليبها وسارت بالسير جورج وهو لا يعلم ان نويل يتبعه .

ـ ٢٦ ـ

ولم يكن لنويل أقـــل ريب فقد ظهر له أن السير سوي لم يتنكر بتلك الملابس إلا بغية الحضور الى وينغ لمقابلة اوسمانا . وبعد ان قابله عاد الى منزله كي يغير ملابسه .

وسارت المركبة حتى قربت من المنزل فأوقفها السير ستوي على مسافة

عشرين خطوة وترجل منها فدفع الى السائق اجرته ثم ذهب الى المنزل ففتح بابه بمفتاح كان معه ودخل فأقفل الباب .

أما نويل فقد تخلص من المركبة فرآه داخلاً إلى المنزل وانه أقفل الباب من ورائه فقال في نفسه : إن الرئيس قد أمرني أن أتبع هذا الرجل الى الصباح وربما كان هذا المنزل الذي دخل اليه منزله الخاص .

وعلى ذلك فإما ان يظهر منه بعد تغيير ملابسه ، وإمـــا أن يبقى في البيت فينام، فإذا ذهب أتبعه وإذا بقي بقيت إلى الصباح ثم ذهبت الى الرئيس عند فاندا .

قال هذا في نفسه وذهب فجلس مطمئناً على صخر قرب البيت .

وأقام ربع ساعة فسمع ساعات الكنائس تدق مؤذنة بحلول الساعة الثانية بعد منتصف الليل . وعند ذلك رأى مركبة قادمة لم يكن فيها أحد فوقفت عند باب البيت وسمع نويل سائقها يتململ ويتضجر .

فدنا منه قائلاً له : أراك تتضجر من المهنة ايها الرفيق .

– وكيف لا أتضجر لاضطراري الى الانتظار في هذا الخلاء ، والبرد يهز الأجسام .

سأله نويل بعد ان أوهمه انه سائق مثله : العلك تنتظر أسيادك ؟

– إني أنتظر شخصاً من الأشراف يسكن في هـذا البيت ، وهو من كبار المقامرين . فأحضر اليه في كل ليلة في الساعة الثانية كي أذهب بـه الى النادي .

وانتظار مثل هذا المقامر قد يروق لغيري من السائقين أما أنا فاني أؤثر النوم في مثل هذه الساعة على كل ربح .

فأجابه نويل : أما أنا أيها الرفيق فإني أؤثر الربح على كل نوم لاسيا وإني لا اشتغل منذ حين فهل تشغلني الليلة مكانك ؟

فنظر اليه السائق نظرة الفاحص ثم سأله : أأنت خبير بالمهنة ؟

ـ كيف لا أعرفها وأنا لا أشتغل بسواها ؟

ـ عند من خدمت ؟

فذكر له نويل جملة من أسماء الذين يؤجرون المركبات .

فسأله السائق : كم تريد ان أدفع لك مقابل شغلك عني الليلة ؟

ـ شلنين !

ـ اني أدفع لك الشلنين وأنام ليلة على الأقل كما ينام الناس لأن هذا الشخص لا يترك النادي قبل الساعة الثامنة من الصباح فخذ وشاحي فإنه يقيك من البرد وتعال اجلس مكاني .

ففعل نويل ثم أخذ من السائق الشلنين وسأله : أين أجدك غداً ، لأرد لك المركبة ؟

ـ سأحضر في الساعة الثامنة الى ردهة النادي فأراك فيها . ثم ودعه وانصرف .

وبعد ربع ساعة خرج السير ستوي من البيت وقد خلع تنكره ولبس خير الملابس فصعد إلى المركبة دون ان ينتبه الى السائق وقال له : سر الى النادي الهندي .

فامتثل نويل وسار به الى ذلك النادي .

وقد ربح تلك الليلة أرباحاً طائلة ولبث في ذلك النادي الى الساعة السابعة من الصباح فجمع ما ربحه من الأوراق المالية ورأى تململ الذين خسروا فقال لهم : أسألكم المعذرة لأني مضطر الى الذهاب في هذه الساعة على غير عادتي لمبارزة رجل فرنسي .

فسأله أحد الحضور : أهو الفرنسي صاحب الكلب ؟

ـ نعم هو بعينه . ثم تركهم وذهب .

وكان نويل لا يزال ينتظره فركب المركبة وقال له : سر بي مسرعاً الى البيت .

فقال نويل في نفسه : لقد خسر كل ما كان لديه وهو عائد لاحضار نقود .
ولكنه لما وصل إلى المنزل دخل اليه وعاد بعد هنيهة يحمل صندوقاً طويلاً وفيه سيفان فقال نويل في نفسه إنه ذاهب لمبارزة كما يظهر .
ولكنه لم يخطر في باله ان خصمه روكامبول .

- ٢٧ -

إن المبارزة نادرة في إنكلترا لأن الشخصين إذا اختصما وهاجت بهما عوامل الغضب شفيا غلهما بالملاكمة .

غير ان السير ستوي لم يكن إنكليزياً إلا بالظاهر ، وكذلك خصمه فإنه فرنسي .

وفوق ذلك فقد كان يحول دون المبارزة مصاعب اخرى وهي انتشار البوليس في كل مكان بحيث كانت تتعذر المبارزة إلا في الضواحي . فيذهب المتبارون اليها بالسكة الحديدية .

وقد اتفق السير ستوي وروكامبول على المبارزة في ودستوك ، التي كان يقيم فيها كرومويل الشهير زعيم الثورة الانكليزية ، التي قتل فيها الملك شارل الأول

وكان لهذه الناحية طريقان إحداهما طريق برمنجهام يذهب اليها بالسكة الحديدية ويلزم لها ١٠ دقائق ومن يسير بالمركبة يقتضي له ساعة .

كان السير ستوي يكره ركوب السكة الحديدية فقال لنويل : إني أريد الذهاب الى ودستوك بأشد ما يمكن من السرعة فإذا تمكنت من الوصول اليها بمدة ثلاثة أرباع الساعة كافأتك خير مكافأة .

فقال نويل في نفسه : لينتظر السائق الحقيقي قدر ما يشاء وليفتش عني في

كل مكان فلا بد ان نلتقي .

ولما كان روكامبول أمره ان لا يفارق السير ستوي دفع الجياد فانطلقت تمرق مروق السهم في شوارع لندرا حتى اجتازتها إلى الخلاء .

وكان نويل ينظر من حين إلى حين الى داخل المركبة فيرى السير جورج مطبق العينين وفي فمه سيكار يـدخن به فيستدل من هيئتـه انه يفكر في هواجس عظيمة .

ولبث على هذه الحالة الى ان اجتازت المركبة شوطاً بعيداً في الخلاء فهب من تفكره وفتح عينيه وجعل ينظر نظرات سريعة متلفتاً الى يساره ويمينه كأنه يفحص الطريق ليعلم إلى اين وصل .

وبعد حين وصلت المركبة الى ودستوك فأوقفها السائق قرب أشجار مكتظة في تلك الطريق ، وترجـل من المركبة بعدما أخرج منها سيفيـه وغدارتيه .

فنظر في ساعته وقال لنويل : انظر الى هذه البناية ذات القرميد الأحمر فإنها محطة برمنجهام وسيصل القطار اليها من لندن بعد خمس دقائق . إذهب وقف هناك بالمركبة لأنه سوف يخرج من القطار خمسة أشخـــاص وهم خصمي وشاهداه وشاهداي و حين خروجهم من القطار جيء بهم إلي لأني بانتظارهم تحت هذه الاشجار .

فذهب نويل الى المحطة وبعد وصوله بهنيهة وصل القطار ونزل منه الاشخاص الخمسة الذين أشار اليهم السير ستوي .

فما نظر اليهم نويل حتى اضطرب وظن نفسه حالماً لانه رأى روكامبول بين الخمسة فلم يعلم أهو من الشهود أم هو الخصم

وقد عرفه روكامبول فأشار له إشارة خفية .

وعند ذلك تقدم نويل من الخمسة وأخبرهم ان السير ستوي ينتظرهم وقد أمره ان يذهب بهم اليه .

فركبوا المركبة وساروا بها الى حيث كان ينتظرهم السير ستوي . فحيى روكامبول خصمه فرد له التحية بأحسن منها ، غير انه لم يلبث ان نظر إلى عيني روكامبول حتى اضطرب وخطر له في الحال انه رأى هاتين العينين في غير المكان الذي تصارع فيه الكلبان ، لكنه لم يذكر ذلك فكان ذلك التصور شبيهاً بحلم بعيد العهد .

أما روكامبول فقد كان متأنقاً بملابسه خير تأنق على عادة الفرنسيين حين يذهبون إلى المبارزات .

ولكن السير ستوي عرف بعد التحقيق بروكامبول انه هو ذلك البحار الذي ذهب أمس مع جيبسي من خمارة الملك جورج .

فقال روكامبول في نفسه : لقد عرفني دون شك .

ثم اتفق الشهود على شروط المبارزة وجرى الاقتراع على اختيار السلاح فأصابت القرعة روكامبول فاختار السيف .

وأخذ الاثنان يخلعان ثيابهما . فخالف السير ستوي القواعد المألوفة وأبقى رباط الرقبة بشكل يحول دون فتح قميصه فلم يحفل الشهود بهذه المخالفة لقلة خبرتهم بقواعد المبارزات .

وقد علم روكامبول السبب الذي يمنعه عن كشف صدره فخالف خصمه وفك أزرار قميصه بحيث يكشف صدره حين الحركة خلال المبارزة .

أما نويل فكان جالساً فوق كرسيه يتفرج وهو واثق من فوز روكامبول لوثوقه من براعته في قتال السيف .

وأمر أحد الشهود المتبارزين بالقتال فاشتبك السيفان . وكان روكامبول هادئاً يتبسم خلافاً لخصمه فإنه كان شديد الاضطراب .

- ٢٨ -

لا بد لنا قبل استيفاء حديث المبارزة من ذكر حادثة لها تأثير عظيم على هذا القتال .

يذكر القراء ان روكامبول بعد ان وضع الحراس على منزل الجنرال البولوني وابنته ناديا منذ بضعة أسابيع ذهب بالقارب مع مرميس وفيه الاسيران الهنديان مكبلان بالقيود .

فلما توسط القارب ذلك النهر استل روكامبول خنجره وتهدد به اوسمانا بالقتل إذا لم يبح له باسراره ففضل الموت على الاباحة خلافاً لكيرشي فإنه خاف ورضي ان يبوح بكل شيء .

فحمل روكامبول أوسمانا والقاه في النهر . ثم دنا من كيرشي وأعاد عليه الوعود .

أما كيرشي فقد كان يعتقد أنه وقع في قبضة أعداء الخناقين الذين يلقبونهم بأبناء الإله سيوا .

فاعترف لروكامبول انه من جمعية الخناقين في لندرا ، وانه خاضع لرئيس يدعى السير جورج ستوي وانه هو نفسه قضي عليه ان يبقى عازباً كل عمره لأنه موشوم برموز الإلهة كالي .

ثم ذكر له كل ما يعرفه من أسرار هذه الجمعية . وأخبره ان السير ستوي زعيم الجمعية ، من المتعصبين في عبادة الإلهة كالي . وإنه واسع الثروة ولديه في لندرا عصابة سرية من الخناقين ، تلقي الرعب كل يوم في عاصمة الانكليز . وأخبره ان السير ستوي لا يخشى الملك ولا يرهب القضاء نفسه ، لكنه يضطرب خوفاً أمام أبناء الإله سيوا الذين لم يبرحوا الهند الى الآن .

فخطر لروكامبول خاطر ، رجا منه الفوز . وأحضر معه كيرشي إلى لندرا .

وقد تنكر كيرشي وأقامه روكامبول مع فاندا في منزل واحد .

وفي تلك الليلة التي جرى فيها لروكامبول حادثة مصارعة الكلب وحادثة جيبسي . ترك الفتاة في منزل وذهب إلى فاندا .

وكان كيرشي نائماً فأيقظه ، فانذعر الهندي حين رأى الخنجر مشهراً بيده .

فقال له روكامبول : إصغ إلي فإنك كنت تحسبني الى الآن من أبناء سيوا ، ولكني لست منهم كما تتوهم . وما أنا من أبناء الهند بل ان لي أسباباً خاصة سرية تدعوني الى مقاومة الخناقين .

والآن إعلم يقيناً إنك إذا لم تبح لي بكل ما سأسألك عنه فإني أقضي عليك بطعنة واحدة من هذا الخنجر .

فذعر كيرشي وقال له : ماذا تريد ان تعلم ؟

– أريد ان أعرف إذا كان لأبناء سيوا علامات خاصة يمتازون بها في أجسامهم كما يمتاز أبناء كالي بوشومهم .

– نعم فإنهم عندما يكرسون الرجل لهذه الآلهة يشمون صدره وشماً مؤلفاً من رسم حية وعصفور بحبر أزرق لا يمحى .

– أتستطيع ان ترسم هذه الرسوم ؟

– دون شك .

– إذاً إبدأ بالعمل .

ثم أخذ روكامبول زجاجة من الحبر العادي الأزرق وقلماً وأعطاها للهندي وكشف عن صدره قائلاً : أسرع ما استطعت .

فرسم الهندي على صدر روكامبول حية وعصفوراً ثم قال له : يجب أن أوخز الرسم بدبوس حتى يسيل الدم ، وأحرق فوقه نوعاً من الرشاش ، كي لا يمحى .

فأبى روكامبول قائلاً : لا حاجة لي بذلك .

وبعد ذلك ببضع ساعات كان روكامبول يبارز السير ستوي ، فشعر السير أنه يقارع خصماً شديداً فاضطرب واصفر وجهه .

ولكن اضطرابه واصفراره لم يلبثا ان زالا بعد هنيهة قصيرة وتغلبت عليه عاطفة الحذر .

أما روكامبول فقد كان على نقيضه باسم الثغر منبسط النفس يبارز خصمه ويحادثه في وقت واحد .

وقد طعنه السير ستوي طعنة حاذقة فخلا منها روكامبول وقال له وهو يبتسم : لا أنكر أنك ماهر في فن المبارزة . ولكني أعرف هذه الفنون التي تبارزني بها .

وكان روكامبول مقتصراً الى الآن على الدفاع فقال لخصمه : ولكني أرى يمينك تضطرب على مهارتك في القتال فاحذر وتشدد .

فحمل عليه عند ذلك السير جورج حملة منكرة وقد برقت عيناه حين علم أنه هو الذي سار مع جيبسي وطعنه طعنة هائلة .

غير ان الطعنة ذهبت في الهواء فقال له روكامبول : إحذر فقد أخطأت ولو شئت لاغتنمت فرصة خطأك وكنت الآن من الهالكين .

وفيما هو يتكلم هذا الكلام إنكشف قميصه ، فصاح السير ستوي صيحة رعب ، ذلك انه رأى رسم الحيـــة والعصفور الذين رسمها كيرشي فوق صدر روكامبول .

وقد ذعر ذعراً شديداً حتى انكشف لروكامبول فجرحه بسيفه جرحاً خفيفاً أسال بعض نقط من دمائه .

وعند ذلك خاطبه روكامبول باللغة الهندية : أما وقد عرفت الآن من أنا ، كما اتضح لي من ذعرك ، فاعلم ان عراكنـا لا يجب أن يكون في هذا المكان .

فاضطرب السير جورج ورأى الشنود قميصه ملوثة بالدماء فتداخلوا بينهما

وقالوا : كفى ! لقد سلم الشرف بما أريق على جوانبه من الدم .
فأجابهم السير ستوي : كما تريدون .
وجعل ينظر الى زوكامبول نظرات ملؤها الرعب والانذعار .

- ٢٩ -

ولندخل الآن إلى منزل فاندا في لندرا . فإن روكامبول أنزلها حين قدومها في فندق دنبورغ ، وفي اليوم التالي استأجر لها منزلاً في شارع سانت بول .
كانت فاندا تخفر كيرشي ليلاً ونهاراً في ذلك البيت .
أما الهندي فقد تمكن منه الرعب لاعتقاده ان روكامبول من أبناء الإله سيوا فباح له بجميع ما يعلمه من أسرار ستوي .
وكان روكامبول قد قال لفاندا : إني وعدت هذا الرجل بالابقاء على حياته بحمايته من الخناقين ، لشدة خوفه منهم بعد خيانته إياهم . ومع ذلك إحرصي على مراقبته كل الحرص ، واحذري أن يخرج خطوة من هذا المنزل .
وكان روكامبول واثقاً من مقدرة فاندا على ما عهد به اليها فذهب مطمئناً بعد أن وشمه الهندي ، غير حاسب حساباً لكيرشي وما يمكن أن يتنازعه من الأفكار .
أما الهندي فإنه كان شديد التمسك بدينه ، ولهذه الديانة الهندية مبدأن وهما مبدأ الخير ومبدأ الشر ، ولهذين المبدأين إلهان أحدهما الإله سيوا والآخر الإلهة كالي .
وفي معتقد الهنود ان الناس جميعهم في قبضة هذين الإلهين ، وإن الإلهين في

معترك دائم وان الحرب سجال بينهما .

وقد قدم كيرشي من قلب الهند بمهمة دموية ، فوجد في باريس قوماً يتكلمون بلغته الهندية ويتغلبون عليه فجأة . فأيقن أنهم من عباد الإله سيوا وأن النصر لهذا الإله . فاعتقد بالتالي ان الإله سيوا أشد من الإلهة كالي فخضع لروكامبول لاعتقاده انه من عباد ذلك الإله .

وقد كان له في أسر روكامبول ثلاثة أسابيع يحاول في خلالها عقد الصلح مع الإله سيوا والتدرج على الكفران بالإلهة كالي ، إلى ان جاءه روكامبول قائلاً له فجأة : « إني لا أعرف الإله سيوا ولا عباده وإني أقاتل الخناقين لأسباب خصوصية ، ولكن من أغراضي أن أظهر بمظاهر أبناء سيوا ، فإذا لم تشمني بوشوم عباده قتلتك بهذا الخنجر » .

فاضطر مكرهاً إلى إجابته حذراً من الموت . ولكنه لم يلبث أن سمع منه هذا التصريح حتى زالت أوهامه وذهب خوفه من الإله سيوا وعاد له تعصبه القديم للالهة كالي فلم يعد يخطر في باله غير الفرار والذهاب الى السير ستوي والاعتراف له بكل شيء .

وكان كيرشي يعلم انه مخفور وان الذي تتولى خفارته امرأة ولكنه كان يعلم أيضاً ان خديعة المرأة أصعب من خديعة الرجل .

وكانت مهنته ملاعبة الأفاعي ، وهي مهنة كثيرة الشيوع بين الهنود وكان يتعاطاها في مدينة مدراس قبل ان ترسله لجنة الخناقين من الهند الى السير ستوي عميلها في لندرا .

وكان قد أحضر معه من مدراس صندوقاً ملآن بالأفاعي المختلفة الألوان والأنواع ، وهو يحبها حباً عظيماً بل هي الشيء الوحيد الذي كان يحبه بعد الإلهة كالي

فلما أرسله السير ستوي من لندرا مع اوسمانا لخنق الجنرال وابنته أخذ معه بعض تلك الأحناش وقد شاهدوه يلاعبها في باريس أمام المتفرجين فتسرح على

جسمه وتلتف حول عنقه .

وعندما أسره روكامبول أراد أن يعرف أين يقيم ، فذهب به الى غرفة حقيرة كان يسكنها ، ففتشها روكامبول فلم يجد فيها شيئاً كما كان يرجو أن يجده ، كأوراق ورسائل سرية وغيرها ، بل وجد كيس الأحناش .

فحاول روكامبول ان يطرحها الى النهر فجعل كيرشي يبكي ويتوسل اليه أن يبقيها له فرضي وسمح له ان يأخذها معه الى لندرا، فكان يداعبها للتسلية بها حين كان مسجوناً في منزل فاندا .

وقد أذن له روكامبول باحضارها معه بعد ان تأكد انه لا يوجد بينها حية قاتلة ، فكانت تلك الأفاعي تسعى في غرفته فيبيت بعضها على الأرض وبعضها حول عنقه وعلى صدره .

ولم يكن بين هذه الأفاعي غير حنش واحد يؤذي ، وهو صغير أصفر اللون عليه نقط سوداء ، إذا لسع المرء لا يشعر بألم ، ولكنه ينام نوماً عميقاً .

وقد عقد كيرشي كل رجائه منذ خطر له الفرار على هذا الحنش .

وكانت فاندا كلما ذهب روكامبول لقضاء مهمـــة في لندرا ، أو في ناحية وينغ تضع سريراً في غرفة تتقدم غرفة كيرشي ، ولم يكن للغرفتين غير مخرج واحد من غرفة فاندا . بحيث كان لا يستطيع كيرشي الخروج إلا إذا مر من فوق السرير .

ولم تنم فاندا تلك الليلة ، لأنها كانت تنتظر روكامبول . فلما عاد اليها حضرت عملية الوشم وكان الصباح قد طلع حين ذهب روكامبول لمبارزة السير ستوي .

فوضعت كرسياً عند مدخل غرفة كيرشي وجلست عليها بحيث لايستطيع الخروج من غرفته إلا إذا مر فوقها .

أما كيرشي فكان ملتحفاً في سريره ، ويوهم أنه نائم . ولكنه كان يكشف اللحاف عن رأسه من حين إلى آخر ، وينظر اذا كانت فاندا قد نامت .

وكان النعاس يجاذب عيني فانــدا ، إلى ان تغلب عليها فأطبقتهما . ولكن يدها كانت قابضة على المســدس ، الذي كانت تنذر به كيرشي في الليل والنهار .

فلما أيقن الهنــدي انها نائمــة ، أخرج ذلك الحنش الاصفر من الكيس ، وأطلقه على فاندا فزحف حتى وصل اليها فصعد الى ركبتيها ثم تغلغل بين طيات ثوبها .

- ٣٠ -

ولنعد الآن الى السير ستوي فإن روكامبول ذهب مع شاهديه وكان نويل لا يزال ينتظر في المركبة فركب السير ستوي مع شاهديه وأوصلها إلى منزليهما ثم أمر نويل ان يذهب به الى منزله .

وكان مصفر الوجه يضطرب اضطراباً شديداً بعد ان رأى تلك الوشوم على صدر روكامبول وسمع لغته الهندية فأصيب بما أصيب به كيرشي من الذعر يوم كلمه روكامبول بتلك اللغة وجعل يقول في نفسه والمركبة سائرة به الى منزله : إن سيوا قد انتصر والإلهة كالي قد تخلت عنا .

فلما وصلت المركبة به الى المنزل خرج منها وفتح باب البيت فرأى نويل ان يده تضطرب وسمعه يتنهد تنهداً عميقاً .

فاجتاز السير جورج حديقة منزله بخطوات غير متوازنة لشدة اضطرابه حتى دخل الى المنزل فرأى صينية من الفضة على طاولة وفوقها كتاب مختوم .

فاخذ الرسالة وتأمل بعنوانها فرأى خطاً لطيفاً أحمر له وجهه هنيهة إذ علم انه خط امرأة ففض الرسالة وقرأ ما يأتي :

« سيدي العزيز

« اننا لم نرك منذ يومين في هيدبارك فماذا جرى لك ألعلك نسيت ان امي دعتك الى شرب الشاي يوم الأحد ام أنت مريض ؟

ان عمي اللورد شارنج في لندرا الان فاعترفت له بكل شيء وهو من انصارنا ، فاحضر إذن الى هيد بارك لأني سأتنزه في هذا البستان في الساعة الثانية » .

« حبيبتك »

« سيسيليا »

فتنفس السير جورج تنفساً طويلا بعد تلاوة الرسالة واتقدت عيناه وظهر على وجهه علائم الرضي التام .

ولكن ذلك لم يطل فان رسم روكامبول عاد فانطبع في ذاكرته وحل محل سيسيليا .

وكان هذا الرجل المتلبس بالمدنية قد خدع بجهاله وبمدنيته الكاذبة تلك الفتاة الانكليزية ، ولكنه لم يحفل بها في تلك الساعة ولم يخطر في باله غير مناجاة الالهة كالي معبودته الوحيدة التي ظهر له انها تخلت عنه في ذلك الحين او ان الاله سيوا قد انتصر عليها ، وكان السير جورج ستوي يقيم وحده في منزله فيأكل في النادي ولم يكن لديه غير خادم واحد كان لا يزال نائماً حين عاد السير ستوي الى المنزل .

فبعد ان قرأ الرسالة صعد الى الدور الأول وكان مؤلفاً من غرفة للنوم وغرفة للكتابة وغرفة للبس والرابعة مقفلة فلا يدخل اليها سواه وكان مفتاحها دائماً معه وقد ربطه بسلسلة وعلقه في عنقه مبالغة في الحذر .

وكان النور يصل الى هذه الغرفـــة من السقف كسائر الهياكل الهندية

وجدرانها الأربعة معلقاً عليها قطع من القماش رسم فوقها رسوم غريبة وفي كل زاوية قاعدة من الحديد عليها تمثال من النحاس يمثل إلها من آلهة الهنود .

وكانت اراضيها مفروشة بحصير عليها ايضاً كثير من الرسوم الغريبة وفي وسطها رسم فيل عظيم .

غير ان أغرب ما كان في هذه الغرفة المقدسة عند السير جورج بركة من الرخام الأبيض يصل الماء إلى حافتها وفي وسط هذه المياه سمكة جميلة حمراء تسير ذهاباً واياباً في غور المياه وتصعد إلى سطحها من حين إلى حين .

وقد كتب على اربع جدران البركة بحروف ذهبية باللغة الهندية ما يأتي :

« اوسامانا ابن راجوت الذي ينتهي نسب اجداده الى بيح امير ابن ويشنو ضحى نفسه للالهة كالي الهتنا ومات في مياه نهر كنج حين كان يجتازه سباحة لخنق صبيتين رغبت الالهة كالي ان تصعد روحهما اليها .

« وان حفيده رتجب الذي يسميه الانكليز السير جورج ستوي عكف على الصلاة والتوسل الى الهة كالي ان ترد اليه روح العابد النقي اوساما فأجابت اليه وأذنت لروح اوسامانا ان تقيم في جسم سمكة حمراء اخذت من نهر كنج المقدس ووضعت في هذه البركة » .

وكان من عادة السير جورج قبل ان يدخل الى هذه الغرفة المقدسة ويناجي فيها روح ابيه الكامنة في السمكة أن يدخل الى غرفة اللبس فيخلع جميع ملابسه ويلبس كلسوناً ويتعمم بعمامة من الحرير الأبيض ويبقى جميع جسده عارياً ، ثم يدخل الى الغرفة المقدسة فيركع فوق الحصير وينعكف على الصلاة .

وبعد ان يفرغ من صلاته يدنو من بركة الرخام وينظر الى السمكة الحمراء ويناجيها ..

وقد دخل في ذلك اليوم بعد أن لبس ملابسه كما وصفناه فصلى وقام إلى البركة فجلس على حافتها ونظر إلى السمكة وهي كامنة في الغور فقال يخاطبها: يا ابتي أني بحاجة اليك .
فلم تتحرك السمكة .

وعاد إلى مخاطبتها وقال : ايتها الروح الجيدة العلك طرت إلى الآلهة كالي تسألينها الأوامر التي يجب اصدارها الى ولدك ؟ فبقيت السمكة على حالها .
– يا أبي أن أبناء سيوا قد جاءوا إلى لندره يضطهدون عباد الالهة كالي فقل لي ماذا يجب أن أصنع ؟

وعند ذلك وضع يده في ماء البركة للتبريك بها فاهتزت المياه وصعدت السمكة الصغيرة إلى سطحها .
– لقد علمت يقيناً أيتها الروح الجيدة انك تسمعين ندائي وتقبلين على مساعدتي فقولي ماذا أصنع أأهرب وأعود إلى الهند أم أواصل العراك ؟
فسبحت السمكة ببطء متوانية فاضطرب السير جورج حين رأى تثاقلها وتابع بلهجة القانط : لقد عرفت ما تريدين أيتها الروح الجيدة فإنك تعنين ان النصر للإله سيوا .
وعند ذلك غاصت السمكة في الغور ولبثت جامدة لا تتحرك .

فاستدل من غوصها وسكونها أنها أجابته على سؤاله بما أيد ظنه فضرب صدره ولطم خديه وهو يقول : لقد انتصر سيوا .

ثم خرج من غرفته المقدسة بعد أن مزق صدره باظافره ليأسه .
وفيما هو داخل إلى غرفة النوم سمع جرس باب المنزل يدق فأسرع إلى النافذة كي يرى الطارق .

وكان الخادم نائماً كما قدمناه ولما سمع صوت الجرس هب منذعراً وأسرع إلى الباب ففتحه .

أما السير جورج فقد كان واقفاً وراء ستائر النافذة كي يرى الداخل دون أن يراه فصاح صيحة غريبة حين رأى ذلك الزائر الذي قرع الباب ، لأنه كان كيرشي ، ذلك الخائن الذي خان الخناقين وانضم إلى أبناء سيوا ، كما أخبره أوسمانا .

فهاج غضب السير ستوي وتغلب على يأسه فأخذ مسدساً كان على المستوقد وحاول ان يطلق النار على كيرشي من النافذة ، ولكن كيرشي كان يجتاز الحديقة مسرعاً .

ورأى السير ستوي على وجهه علائم السرور وأعاد المسدس إلى مكانه ووقف ينتظر .

وكان الخادم يحاول أن يمنع كيرشي عن الدخول ، غير أن الهندي لم يكترث له ، فدفعه ودخل دخول الواثق من حسن القبول وجعل يصعد سلم المنزل مسرعاً .

حتى إذا وصل إلى غرفة السير جورج ، ورآه لا يزال بملابس الصلاة ركع أمامه قائلاً :

- أيها النور ان حياتي لك تتصرف بها كيف تشاء باسم الالهة كالي ولكن اصغ إلي ..

فقال السير ستوي : يا غبار الأرض وحشرة القبور من اين أتيت؟

- اني كنت في قبضة الأعداء ..

— أي أعداء تعني .. أبناء سيوا ؟

فضحك كيرشي وقال : لا يوجد أبناء لسيوا في لندرا .

ورجع السير خطوة إلى الوراء وقال : كيف ذلك ؟

— اصغ إلي أيها النور إلى النهاية تعلم اننا خدعنا أنا وأوسمانا .

— ولكنك من الخائنين .

— إن حياتي بين يديك ودمي يكفر عن خيانتي انما يجب تعرف كل شيء قبل أن تقتلني .

— تكلم ..

ولبث كيرشي راكعاً وقص على السير ستوي جميع ما عرفه من أوسمانا بشأن بعثة باريس ، وكيف وقع الاثنان في قبضة رجل يتقن اللغة الهندية ، وحسباه زعيم أبناء سيوا .

— إذن هذا الرجل الذي بارزته منذ ساعة لم يكن من أبناء سيوا ؟

— كلا ايها النور .

— ولكني اراهن انه منهم .

فابتسم كيرشي وأخبره بما جرى له مع روكامبول وانه هو الذي وشم صدره رموز أبناء سيوا .

ففرح السير جورج فرحاً لا يوصف وقال له : إذن من هذا الرجل ؟

— لم أعرفه ..

— وماذا يريد منا ؟

— لا أعلم ..

— ولكني سأعرفه أنا فإنه فرنسي بحت ، أما وقد أيقنت الان انه ليس من أبناء سيوا فسوف يرى ماذا يكون بيننا .

ثم أخذ مسدسه فوضعه فوق صدغ كيرشي قائلاً له : يا غبار الأرض انك

خائن في كل حال فصل الى الالهة كي تدع نفسك هائمة في الفضاء إلى الأبد لأني حكمت عليك بالموت .

فلم يجزع كيرشي وقال : أيها النور ان حياتي بين يديك فافتكر قبل ان تقتلني .

– بماذا ؟

– بأني انفعك في خصامك مع هذا الرجل .

فارجع السير جورج مسدسه إلى مكانه وقال له : قد تكون مصيباً فيما تقول فقل لي الآن ماذا تعرف عن هذا الرجل ؟

– لا أعرف منه غير اسمه .

– ما هو اسمه ؟

– روكامبول ..

– أين يقيم ؟

– في منزل أدلك عليه متى شئت .

– كيف نجوت من أسره ؟

– بواسطة حنش أصفر .

– أيقيم هذا الرجل وحده ؟

– كلا بل انه يقيم مع امرأة شقراء تطيعه طاعة العبيد لمواليهم .

– حسناً تعال معي فاني أحب ان استشير أبي .

وإنما أذن له بالدخول معه الى غرفته المقدسة لأنه مثله من عباد الألهة خلافاً لخادمه لأنه كان من الانكليز .

ودخل السير جورج الى الغرفة وتبعه كيرشي ولكنه لم يلبث ان نظر الى البركة حتى صاح صيحة فرح لأنه وجد السمكة تسبح قرب سطح المياه بعظمة وجلال فاتخذ ذلك دليلا على الفوز وقال : لا شك ان روح اوسمانا قد فرحت لهذا التغيير فبدت السمكة بمظاهر الخيلاء .

وكان كيرشي راكعاً أمام البركة بملء الخشوع فدنا السير جورج من السمكة وقال : ماذا ترين يا روح ابي أأنتصر على هذا الفرنسي الذي يحاول إحباط ما أسعى اليه في خدمة الآلهة كالي ؟

فسبحت السمكة كما كانت تسبح من قبل وعلم انها تجيبه بالايجاب .

– قل لي يا أبي أيجب ان أحرص دائماً على عفاف جيبسي النورية ؟

وغارت السمكة عند ذلك في الغور .

وتحمس السير جورج لهذا الجواب وقال : الويل إذن لمن يتعرض لهذه الفتاة بالزواج .

ثم خرج الاثنان من هذه الغرفة المقدسة وقال السير ستوي للهندي إذهب الآن في شأنك .

وسأله كيرشي : متى تريد ان اعود ايها النور لأتلقى أوامرك ؟

– عد في هذا المساء الى خمارة الملك جورج .

فانحنى كيرشي وانصرف وخلع السير ستوي ملابسه المقدسة ولبس رداء النوم ثم كتب الرسالة الآتية :

« الى الآنسة الفاتنة مس سيسيليا

« لم انس شيئاً ولا أزال أعبد جمالك الفتان وسأمتثل لأمرك فاذهب في الساعة الثانية بعد ظهر اليوم الى بستان سانت جيمس وتفضلي بقبول فائق الاحترام من خادمك المطيع مدى الحياة » .

« جورج ستوي »

ثم ختم الرسالة بختمه الخاص وأرسلها مع خادمه الانكليزي .

كانت مس سيسيليا التي علقت بشرك السير ستوي ، فتاة غريبة الأطوار ، لها فتنة النساء ونشاط الغلمان . تركب الجياد المطهمة وتصافح الرجال في المتنزهات ، ولها ثروة نادر أن تكون لسواها من أغنياء الانكليز .

وكانت في ريعان الصبى لم تتجاوز تسعة عشر ربيعاً . وهي بارعة الجمال تلقب بالسمراء لسواد شعرها .

وكان أبوها قائد بارجة إنكليزية قدمت حديثاً من الهند الغربية فكان يقيم في لندرا في عهد سباق هذا الحديث .

وكانت أمها تحبها حب عبادة وهي وحيدة أبويها ، نشأت على الترف والدلال . وكانت تسمع الناس يقولون انها لو جمعت أراضيها المتفرقة لبلغت مساحتها مساحة ولاية بحملتها . فجهرت بالقول منذ بلغت السادسة عشرة من عمرها انها لا تتزوج إلا من تختاره وتحن اليه نفسها .

فمر بها ثلاثة أعوام لم يبق في خلالها نبيل من أغنياء الانكليز إلا خطب ودها وطلب الاقتران بها ولكنها رفضت جميع هذه المطالب حتى أدهشت الناس وكثرت فيها الأقاويل .

وقد كانت ساحت في الشرق وايطاليا ، وتمرنت على ركوب الخيل ولعب السلاح والموسيقى والتصوير وهو ما يندر اتفاقه عند الانكليز .

وهي تقيم مع أمها في قصر لها في بيكاديللي ، تحيط به حديقة غناء . غير أنه كان لهذا القصر مدخلان : أحدهما عام والآخر خاص بالفتاة ، حيث كان يزورها الناس من هذا المدخل فتستقبلهم في المكان الذي أعدته للتصوير .

وقد اتفق انها رأت يوماً السير ستوي في سباق سكوت فجذبت الأسمر

السمراء ، واختلجت حين رأت ذلك الرجل الذي تدل هيئته على انه من ذلك النسل الجديد الذي أنشأه الانكليز في بلاد الهند ، فتعرفت به على الفور .

وبعد ثلاثة أيام قالت لأمها بصراحة . لقد وجدت الزوج الذي أتمناه .

فأنكرت أمها عليها هذا الاختيار كل الانكار ، وأنفت من تزويج ابنتها برجل يجول في عروقه دم هندي فقالت لها الفتاة ببرود : ان ابي سيوافق على هذا الزواج لأني أرضاه .

وكان أبوها في لندرا كما قدمناه فخيب ظنها وأيد رأي أمها وحكم باستحالة هذا القران .

غير ان مس سيسيليا لم تيأس ولم تعتبر نفسها مغلوبة . فقد كان لها عم يدعى اللورد سارتج وافر الثروة يحبها حباً غريباً وقد جعلها وريثته الوحيدة ، فكانت ترجو ان يكون لها خير نصير .

فذهبت اليه في اليوم الذي أرسلت رسالتها الى السير ستوي وقالت له : أرجوك يا عماه ان تحرمني من إرثك .

فذعر عمها وقال لها : لماذا ؟

— لأنهم لا يريدون ان يزوجوني بمن أهواه فأرجوك أن تجعل هذا الارث متعلق على هذا الزفاف .

ثم حكت له عن حبها للسير ستوي بشكل ألان قلبه وأثار عواطف حنوه فوعدها ان يكون لها خير نصير . فعادت مطمئنة راضية فكتبت الى السير تلك الرسالة التي تقدم ذكرها .

وفي الساعة الثانية بعد ظهر اليوم المعين للقاء ، إجتمع السير ستوي بالمس سيسيليا فقالت له: ان أمها لا تزال تعارض زواجها به لكن عمها قد ضغط على أبيها حتى أوشك ان يرضى .

فقبل السير ستوي يدها ، وجعل ينظر اليها نظرات تشف عن

التدله بالغرام .

فقالت له الفتاة : ليس هذا كل ما أرجوه فقد وجدت ايضاً نصيراً آخر وهو ابن خالي ارثر نويل فانه طلب ان يقترن بي فأبيت كما تعلم ولكنه يحبني حب الاخاء حتى جعلته مستودع أسراري .

فلم يظهر ستوي إكتراثاً للسير ارثر وظل معها في تلك الحديقة يناجيها بأرق أحاديث الغرام والناس من حولهما يعجبون لهذه الفتاة كيف استبدلت نبلاء الانكليز بهذا الهندي !

إلى ان حانت ساعة الفراق فافترق العاشقان وهي تقول له : إلى اللقاء في هذا المساء .

ثم انطلقت تنهب الأرض بجوادها ، يسير وراءها خادمان على جوادين لحراستها .

فلما وصلت الى المنزل وحاولت دخوله، رأت شاباً قد تقدمها فنادته قائلة: أهذا أنت يا أرثر ؟

فحياها ابن خالها قائلا : كنت أخشى أن لا أجدك هنا .

– إذا كنت لم تجدني في هذه الساعة ، فإنك تجدني دون شك في ساعة العشاء .

– نعم ولكني أحب أن أراك قبل العشاء .

– ماذا حدث ؟

– حدث انه يجب أن أحادثك الآن بشأن خطير ، فهلمي بنا إلى مكان التصوير .

– ولماذا لا ندخل الى المنزل ؟

– لأني لا أحب ان تسمع أمك حديثنا .

فذهلت الفتاة وحسبته مازحاً لكنها تبينت في وجهه ملامح الجد فقالت له: إذاً إتبعني .

ثم سارت أمامه حتى وصلت إلى معملها التصويري فجلست على كرسي وقالت له : قل إني مصغية اليك .

فأغلق السير أرثر الباب وجلس بقربها فقال : إن الناس يلهجون بك كثيراً يا سيسيليا حتى أصبحت مضغة في الأفواه في هذه الأيام .

ــ ولماذا ؟

ــ لأنك عازمة على الاقتران بالسير جورج ستوي .

فلم تكذب سيسيليا هذا الخبر ولكن علائم الضجر ظهرت على وجهها كأنها كانت تقول له : وأي شأن لك بهذا الأمر ؟

غير ان السير ارثر ، لم يكترث لما أبدته من الملل فقال لها : يجب قبل التوغل في الحديث ، أن أعترف لك بأمر لا بد لي من الاعتراف به اليك .

ــ لي أنا ؟

ــ نعم ، إني يأست منذ زمن بعيد من زواجك .

ــ ولكننا لا نزال صديقين ؟

ــ بل أخوين . إني أحبك كما يحب الأخ أخته ، ولأجل ذلك وجب علي تحذيرك !

ــ من أي شيء تحذرني ؟

ــ من خطر عظيم يتهددك .

ــ أي خطر هذا ؟

ــ هو خطر اقترانك بستوي .

فأجفلت الفتاة وقالت : ماذا تقول ؟

ــ أقول الحقيقة لأن هذا الاقتران يستحيل عقده بينكما .

فذعرت سيسيليا ذعراً شديداً وحاولت ان تعترض عليه . لكنها وجدت بين عينيه ملامح الاعتقاد التام فخافت وقالت : ماذا تعني بهذه الأقوال؟أوضح

كل شيء .

ــ سأبذل جهدي .

ــ كيف ستبذل جهدك ؟

ــ لأن التصريح صعب ، ويجب أن أذكر أموراً ، قد لا يحسن وقعها لديك .

ــ لا بأس قل كل شيء . إني أريد .

ــ إذاً إعلمي ان السير ستوي غير مسيحي .

فقالت بلهجة المشكك : إذاً بأي دين يدين ؟

ــ يدين بدين الهنود !. فإنه يعبد الإله سيوا والإلهة كالي ، وغيرهما من آلهة الهنود

فهزت سيسيليا كتفيها قائلة : إن ما تقوله غير معقول .

ــ ولكنه الحقيقة .

ــ أية حقيقة هذه ؟ إني واثقة كل الثقة من ان هذه الحكاية قد استنبطها أحد الذين رفضت الاقتران بهم .

ــ لا يخلو ظنك من بعض اليقين . فإن الذي علم هذه الحقيقة هو أحد خطابك السابقين ، ولكنه لم يخترع هذه الحكاية اختراعاً بل اكتشفها اكتشافاً .

ــ لم أفهم ما تقول ؟

ــ إصغي إلي أيتها العزيزة ، فإنك رفضت منذ حين السير رالف أوندربي .

ــ نعم إني أبيت الاقتران به لأنه أبله لا عقل له .

ــ ولكن هذا الأبله قد علم انك تحبين السير ستوي .

ــ وبعد ذلك ؟

ــ جعل يقتفي أثره .

– وإلى أين يذهب السير جورج كي يقتفيه .

– إنه يذهب في البدء إلى منزله فيغير ملابسه ويتنكر بزي بحار ثم يذهب إلى وينغ .

وكانت هذه الناحية مشهورة بفساد قومها عند جميع أهـــل لندرا ، فما شاءت أن تصدق أن مثل السير ستوي يذهب اليها فقالت : إن هذا الكلام نميمة لا صحة لها .

– أصبري أيتها العزيزة إني لم أتم حديثي بعد .

– قل .

– إن السير رالف لم يقتنع باقتفاء أثره بل انه رشا خادمه بالمال ، فعلم منه كثيراً من الأمور .

– ماذا علم ؟

– إنه رشاه بمائتي جنيه كي يدخله الى منزل السير جورج في مدة غيابه . ففعل وعلم السير رالف عند ذلك انه يوجد في منزل هذا الرجل غرفة خاصة لم يدخل أحد اليها سواه .

وكانت سيسيليا تنظر اليه مبتسمة إشارة الى عدم تصديقه ، ولكنها مع ذلك كانت مصغية اليه أتم الإصغاء ، حتى انها كانت تقطب جبينها بعض الأحيان إشارة الى اهتمامها .

أما السير أرثر فقد مضى في حديثه قائلاً : وهذه الغرفة مقدسة عنده لأنه يصلي فيها ويوجد في وسطها بركة من الرخام تسبح في مياهها سمكة حمراء يعتقد السير ستوي ان روح أبيه كامنة فيها .

فاصفر وجه سيسيليا وقالت : كيف علم السير رالف انه يوجد سمكة في بركة الغرفة وأنت تقول أنه لا يدخل اليها أحد ؟

– ذلك لأن هذه الغرفة ينفذ اليها النور من السطح وفي سقفها قبة من الزجاج الشفاف متصلة بهذا السطح .

وقد أصعد الخادم السير رالف الى السطح ، فكمن فوق القبة الى أن عاد السير جورج الى منزله ، فأقام فيه هنيهة ثم دخـل الى هذه الغرفة وهو عاري الصـدر وعلى رأسه عمامـة من الحرير الأبيض ، فركع أمـام البركة وجعـل يخاطب تلك السمكـة الحمراء ، والسير رالف يراقبـه من فوق الزجاج .

— أهو السير رالف نفسه الذي أخبرك هذا الخبر ؟

— نعم .

— ألم يخبر أحداً سواك ؟

— نعم ، فقد أخـبر أيضاً البارون نيفلي ، حـين كنا أمس في نادي بال مال .

فقالت الفتاة ببرود : إذاً إعلم ان السير ستوي سيقتل غداً السير رالف وأنا أنصحك أن لا تقص هذه الحكاية المضحكة على أحد وأن لا تدع لستوي سبيلاً اليك .

ثم نهضت وأظهرت لقريبها إشارة أنها لا تريد ان تسمع بعد .

فنهض السير ارثر قائلاً : ليكن ما تريدين فقد فعلت ما يجب علي وستذكرينني إذا أصبت بمكروه .

فلم تجبه الفتاة وذهب كل من باب ولكن أرثر لم يتجاوز العتبة حتى عاد وقال : لي كلمة أيضاً أيتها العزيزة .

فالتفتت وقالت : أية فائدة من الكلام في هذا الصدد ؟

— كلمة واحدة فقط .

فغضبت الفتاة وقالت : لا ينقصك بعد ذلك إلا ان تتهم السير جورج بأنه زعيم لصوص . إذهب لا أريد أن أسمع شيئاً .

فانحنى السير أرثر وذهب دون أن يفوه بحرف . فلما بلغ منتصف السلم التقى برجل عجوز يصعد ذلك السلم وعليه علائم الاضطراب الشديد .

وكان هذا الشيخ اللورد شارنج عم سيسيليا، فحياه أرثر باحترام قائلا: ماذا أصابك وما هذا الاضطراب ؟

فأجابه بلهجة المذعر : لقد علمت نبأ هائلا فأين هي ابنة أخي ؟

– في معمل التصوير .

– أرأيتها ؟

– إني تركتها الآن .

فأكره اللورد شارنج أرثر على أن يعود معه .

فلما اجتمع الثلاثة في المعمل ، ذعرت سيسيليا لاضطراب عمها ، وسألته عما أصابه .

فقال وهو يرتجف : لقد سمعت خبراً غريباً . أتعرفين السير رالف ؟

– كيف لا أعرفه وقد خطبني منذ حين فرفضت طلبه ؟

– إذاً إعلمي إنك لو تزوجت به لكنت الآن أرملة .

فصاحت الفتاة صيحة انتصار ونظرت الى السير أرثر كأنها تقول: أرأيت كيف ينتقم السير جورج ؟

وعاد اللورد الى الحديث فقال : إن السير رالف وجد مخنوقاً بعد ذهابه من النادي .

فصاحت سيسيليا صيحة أخرى واصفر وجهها وقال السير أرثر : لا شك أن اللصوص خنقوه ليسرقوه

فقال اللورد : كلا لأن نقوده وأوراقه وساعته كانت باقية معه .

عند ذلك تراخت عزيمة سيسيليا حتى أوشكت أن تسقط عن كرسيها وخشيت أن يكون ابن خالها السير أرثر صادقاً في ما قاله عن ستوي .

ولنعد الآن الى السير ستوي فإنه بعد ان فارق مس سيسيليا في حديقة هيد بارك عاد إلى نادي بال مال .

وكان النادي مزدحماً بالمشتركين ، وكلهم مجتمعون في قاعة واحدة يقامرون حول مائدة طويلة بين وقوف وجلوس لا ينصرفون الى غير الورق . فلم ينتبه أحد لقدوم السير ستوي غير شاب يدعونه السير جمس نيفلي كان بين الواقفين .

وكان هذا الشاب أسمر اللون متقد العينين بأشعة الذكاء . وهو من أب إنكليزي وأم هندية .

وقد مات أبوه على أثر ولادته فتولت تربيته أمه .

فلما دخل السير ستوي الى النادي ورأى السير جمس نظر اليه نظرة سرية علم السير جورج منها أنه يريد مباحثته بشأن خطير فقال له : أتريد أن تلعب بالورق ؟

فأجابه السير جمس بالامتثال ودخل الاثنان الى غرفة من غرف النادي لم يكن فيها أحد لانشغال الأعضاء بالمقامرة فأتاهما الخادم بالورق فجعلا يتظاهران باللعب ويتحدثان .

فقال السير جمس بلهجة الاحترام : أيها النمر يوجد في منزلك خائن .

— أتعني به كيرشي ؟

— كلا بل خادمك جون الانكليزي .

- ماذا فعل هذا الخادم ؟

— إنه خانك .

— كيف خانني ؟

- اصغ إلي أيها النور أتم الاصغاء . إنك تحب مس سيسيليا أليس كذلك ؟

– كلا إني لا أحبها ولكن أحب ان أتزوجها .

– كلاهما واحد عندنا ولست هذا الذي أريد ان أقوله . بل أريد أن أقول أن لهذه الفتاة كثيراً من الملايين وإننا في حاجة الى ملايينها لقضاء مهماتنا ، اليس كذلك ؟

– دون شك وبعد ذلك ؟

– وإن هذه الفتاة قد خطبها معظم نبلاء لندرا .

– أعرف كل ما تقول .

– ولكنها تحبك حباً لم يرض عنه اولئك النبلاء الذين خابت أمانيهم في هواها فرشا أحدهم خادمك فأهداه الى سقف غرفتك المقدسة ورآك من زجاجها تخاطب روح أبيك .

فاصفر وجه السير ستوي من الغضب وقال : من هو هذا الرجل كي أقتله ؟

– صبراً أيها النور ، فإن هذا الشخص قد أتى الى هذا النادي مساء أمس فأخبرني وأخبر السير أرثر بما رآه .

– السير ارثر إبن خال سيسيليا ؟

– هو بعينه .

– ومن هو الشخص الذي أخبركما ؟

– السير رالف اوندربي

– إذن سيموت .

– لا فائدة من ذلك .

– لماذا ؟

– لأني ذهبت أمس وإياه من النادي فأوصلته الى باب منزله وهناك خنقته فلا يعود بعد ذلك الى الكلام .

– والآخر ؟

ـ أصدرت أوامري بشأنه .

ـ أتظن اني لا القاه الليلة في منزل ـ يسيليا ؟

فابتسم السير جيمس وقال : هذا ما أتمناه .

وعند ذلك نهض السير ستوي فقال له السير جمس : إلى أين أنت ذاهب أيها النور ؟

ـ لأقضي على الخادم الذي خانني .

ـ لقد افتكرت بعقابه .

ـ كيف ذلك ؟

ـ ذلك إني سأعود الى منزلي وأنت تعلم اني مقيم في منزل معتزل في شارع سانت جمس .

ـ نعم .

ـ إذاً إعلم انه يوجد في هذا المنزل بئر عميقة .

ـ لقد فهمت كل شيء .

ـ أرسله إلي بحجة من الحجج وأنا أتكفل به فلا يدل بعد الآن أحداً على طريق السطح .

ـ إذاً هلم بنا الآن لنتعشى وسأرسله لك بعد العشاء .

وذهب الاثنان من قاعة اللعب في النادي إلى قاعة الطعام فتعشيا ثم خرجا فقال له السير جمس : إني ذاهب الى منزلي لانتظار خادمك .

ـ حسناً سأرسله في الحال إنما قبل ان نفترق قل لي ما هي الأوامر التي أصدرتها بشأن هذا الأبله السير أرثر ؟

ـ إني استعلمت عنه في الصباح فعلمت أن له خليلة .

ـ أين ؟

ـ في وايت شابل وأنا أقول الآن على سبيل الافتراض ، إذ لم أتحقق بعد هذا الأمر ، ولكن الذي علمته أنه في كل يوم بعد أن يفرغ من عمله في الأميرالية

البحرية يذهب الى تلك الناحية الهائلة وسيقتفون أثره اليوم فإذا لم يكونوا قد خنقوه الآن فسيخنقوه الليلة .

فقال له ستوي ببرود : حسناً فعلت .

ثم افترقا وذهب كل الى منزله .

ولما وصل السير جورج الى منزله وجد خادمه ينتظره ، فدخل إلى غرفته وبعد هنيهة ناداه وقال له : أتعرف منزل السير جمس نيفلي ؟

— نعم .

— إذاً إذهب بهذه الرسالة فسلمها اليه يداً بيد وعد إلي بالجواب .

ثم أعطاه غلافاً مختوماً عليه عنوان السير جمس فأخذه الخادم المسكين وسار به وهو لا يعلم انه يحمل بيده الحكم عليه بالموت .

وبعد انصرافه أخذ السير جورج يغير ملابسه . ولم يكد يبدأ حتى سمع جرس المنزل يقرع .

فنزل السير جورج نفسه لغياب الخادم وفتح الباب ، ولكنه لم يكد يفتحه حتى تراجع منذهلا الى الوراء وسقط المصباح من يده لفرط دهشته .

ذلك لأن هذا الزائر كان امرأة وهذه المرأة كانت مس سيسيليا .

ثم مشى السير جورج معها في الحديقة ، التي كان يكتنفها الظلام لسقوط مصباحه ، وقد أراد انْ يأخذ يدها فمنعته ، وقالت له بلهجة التعنيف والتهكم : إني آتية لأتفقد تلك السمكة الحمراء التي تقيم فيها روح ابيك .

ثم تقدمت بعزم ثابت الى المنزل بينما كان السير جورج واقفاً وقد تضعضع عقله كأنما الصاعقة قد انقضت عليه .

ولبث السير جورج هنيهة على تلك الحالة من الاضطراب ناظراً لسيسيليا ، فإنها ذهبت الى ردهة المنزل وكان مصباحاً معلقاً في سقفها ، فجلست على موقد تنتظر قدومه .

غير ان السير جورج قاوم نفسه مقاومة الحالم أصيب بكابوس ، وسار لمقابلة الفتاة وقد عاد اليه رشده في هذه الآونة اليسيرة ، حتى انه حين وصل اليها تمكن من ان يبتسم ابتسام الرجل السعيد وقال لها . ما أبهج هذا اللقاء أيتها الحبيبة فإني أحسب نفسي من الحالمين .

فقالت بلهجة عنيفة : إني أتيت لأبحث معك في شأن خطير .

فأنار السير جورج مصباحاً وسار أمامها الى قاعـــة الاجتماع ، فتبعته وجلست على كرسي وهو واقف أمامها فقالت ببرود : إني كنت أحبك منذ ساعتين يا سيدي .

فاصفر وجه السير جورج واستدلت الفتاة من اصفراره انه يحبها فلطفت لهجتها وقالت : أتريد ان تقول لي أين ولدت ؟

- إني ولدت في كلكوتا يا سيدتي .

- باي دين تدين ؟

فاضطرب السير جورج لهذا السؤال الفجائي وقال لها : إن أبي كان هندياً وأمي إنكليزية . والحق إني لم أهتم يوماً بالأمور الدينية .

- ألا تعبد الإله وشنوا ؟

- إن هذا الإله يعبده عامة الهنود يا سيدتي وما أنا منهم .

- أتؤمن بالمسيح ؟

- لا أعلم

- تريد ان تقول انه لا دين لك

وكان السير جورج قد عاد اليه رشده في تلك المدة فقال لها : إني أحبك أيتها الحبيبة حباً صادقاً يدعوني ان أقص عليك حقيقة أمري .

– قل إني مصغية اليك .

– لقد قلت لك ان أبي كان هندياً وأمي كانت إنكليزية فكانوا يعلمونني في حداثتي مبادىء الديانات الهندية فعبدت ما استطعت من هؤلاء الآلهة الكثيرين دون أن أفرق بين إله وآخر .

وبينما كان أبي يعلمني ديانة وشنوا كانت أمي تعلمني ديانة المسيح فخرجت من تلك المعركة لا بوذياً أعرف ولا مسيحياً أوصف ، أي إني لست على دين . على إنني لو تلقيت الآن أسرار الديانة المسيحية من كاهن لاعتنقت شاكراً راضياً هذا الدين .

– أتقول الحق ؟

– إنك تعلمين قدر حبي لك فلا يرضيني إلا ما يرضيك .

– ولكنك أعددت في منزلك غرفة فبنيت فيها بركة ؟

– نعم .

– ووضعت في البركة سمكة ؟

– نعم .

– واعتقدت ان السمكة تضم في جسمها روح أبيك ؟

فضحك السير جورج وقال : إن أرواح الناس لا تدخل في الأسماك ، والحقيقة أن كل من ربي في الهند يتفاءل بسمك نهر الكنج خيراً ، وأنا قد وضعت هذه السمكة وهي من ذلك النهر في منزلي لما دعوته من حسن التفاؤل ليس إلا .

– ولكنك تعبدها ؟

– ومتى كانت الأسماك من المعبودات ؟

فنهضت سيسيليا وقالت : إذاً أنت تغير دينك وتعتنق الدين المسيحي ؟

— دون شك .

— وإذا رضيت أنا بزواجك ، أترضى أن يعقد زواجنا في كنيسة لندرا الكاتدرائية ؟

— كل الرضى .

وكان السير جورج قد تكلف هيئة تدل على ملء الحرية والبساطة ، فلما رأى ان الفتاة فرغت من جميع أسئلتها قال لها : وكيف عرفت كل ذلك ؟

فارتعشت سيسيليا وقالت : أتعرف السير رالف اوندربي ؟

فلم يظهر عليه شيء من آثار الاضطراب عند ذكر هذا الرجل الذي قتله عامله وقال : كلا لا أعرفه .

— إن السير رالف طلب ان يقترن بي منذ عامين فرفضت طلبه وكان يعلم انك تحبني فغار علي منك وجعل يقتفي أثرك .

— أهو الذي أخبرك ؟

— لم يخبرني أنا بل أخبر صديقاً له فنقل إلي الحديث .

— إذاً سأدعوه اليوم الى المبارزة وسيكون لي معه شأن .

فنظرت سيسيليا اليه محدقة به وقالت في نفسها: يستحيل أن يكون مخادعاً لي ولا شك انه لا يعرف السير رالف .

ثم أجابته قائلة : لا سبيل إلى المبارزة .

— لماذا ؟

— لأن السير رالف مات في الليلة الماضية .

فأظهر السير جورج دهشة صادقة أزالت من فؤاد الفتاة كل ريب ، فمدت يدها اليه وقالت له : أتصفح عني فقد كنت فاقدة الصواب ؟

— ماذا تعنين ؟

— لا شيء .

فضم يديه وقال لها بلهجة المتوسـل : بالله قولي لي ماذا تعنين ، فقد شغلت بالي ؟

– عفواً أيها الحبيب فقد كرهتك واحتقرتك عدة ساعات .

– أنا ؟

– نعم لأني كنت أعتقد انك أنت قاتل السير رالف .

فرفع السير جورج يديه وقال لها : أقسم لك بشرفي ، إني بريء من دم هذا الانسان .

– وأنا صدقتك وسأكون إمرأتك .

ثم أفلتت من يديه وذهبت فاجتازت الحديقة وخرجت الى الشارع والسير جورج واقف ينظر اليها حتى توارت عن أبصاره فتنهد تنهد المنفرج وقال : سيرى أرثر نويل انه لا يستطيع وشاية بعد اليوم .

وفيما هو يتوعد أرثر نوبل هذا الوعيد دخل رجل مسرعاً إلى غرفتـه وقال له : أيها النور إن الإلهة كالي قد خدعت وأهينت لأن حبيبي النورية لها عشيق .

- ٣٥ -

ولنذكر الآن شيئاً عن ارثر نويل الذي يتوعده السير جورج بالقتل ، فقد كان هذا الرجل من نبلاء الانكليز وهو شاب لا يتجاوز الخامسة والعشرين من سنيه جميل الوجه وافر الأدب فتنت به كثيرات من فتيات قومه غير انه كان يأبى الزواج كل الإباء .

وكان الناس على اختـلاف بسبب نفوره من الزواج فيرى بعضهم أنه قد يئس بعد ان أبت مس سيسيليا الاقتران به ، ويرى آخرون انه كان يمتنع

عن الزواج لأن ثروته لا تناسب مقام اسرته ، انه ينتظر ان يرث ارثاً كبيراً او تهبط اليه ثروة من السما ، يقول بعضهم وهم قلائل أن السير ارثير يحب حباً سرياً .

وما دعاهم إلى هذه الأقـــوال غير ما رأوه من تغير اخلاق هذا الرجل واختلاف عاداته مع اصحابه منذ عامين فقد كان كثير التردد على منتدياتهم ثم انقطع عنهم فجأة فلا يرونه فيها إلا في القليل النادر .

وكانت عادته الجديدة انه يخرج في الساعة السادسة كل يوم من دار الاميرالية التي كان موظفاً بها فلا يرونه إلا في ظهر اليوم التالي .

وكان مقيماً في منزل بديع في شارع بيكانيلي لكن الذين دفعهم الفضول الى اكتشاف اسراره بعد ان تغيرت اخلاقه كانوا يراقبون منزله فيجدونه مقفلاً على الدوام ولا أثر للنور فيه .

وذلك ان السير ارثر لم يكن يقيم في هذا المنزل إلا ظاهراً فكان يخرج من مكتبه في الساعة السادسة من مساء كل يوم الى شاطىء التايمز فيمشي في شارع يكثر فيه تردد الناس ، ويلتفت في كل حين يمنة ويسرة كأنه يخشى ان يتبعه أحد ويلبث سائراً حتى يقف عند منزل صغير مؤلف من دور واحد .

ويحمل في جيبه مفتاح يفتح به باب المنزل ويدخل ، ولكنه لا يكاد يدخل حتى تسرع الى استقباله امرأة كهلة فتأخذ ثوبه وعصاته فتضعهما في موضعهما وتعود الى المطبخ .

وكانت هذه المرأة تدعوه المسيو فيليام لأنه كان يبالغ في التنكر فلا يريد ان يعرف باسمه الصحيح ولا ان تعرف تلك المرأة وجيرانها انه من الأشراف ولولا ذلك لكانت دعته السير فيليام .

وكان يظهر من حديثه معها انه هو صاحب المنزل وانهـــا تخدمه فيه ، فإذا وصل ذهب تواً الى قاعة الطعام فيجد المائدة مهيأة فيأكل ويدخل الى

غرفة الكتابة ، وهناك منضدة تكدست فوقها الكتب والأوراق فينعكف على المطالعة ، ولكن جسمه كان يرتعش لأقــل حركة يسمعها فيدنو من النافذة وهي لا تعلو أكثر من مترين عن الأرض ويصغي اصغاءاً تاماً ، ثم يعود الى شأنه الأول .

ويلبث على هذه الحال الى منتصف الليل فيسمع قرعاً على النافذة المغلقة فيختلج ويسرع الى المصباح فيطفئه ، ثم يفتح النافذة بيد تضطرب فيشعر بجسم لطيف قد انسل من النــافذة ويحس بمعصمين ناعمتين طوقا عنقه وشفتين رقيقتين قبلتا شفتيه ويسمع كلمات حنونة تسحر عقله وتجذب فؤاده .

ويلبث العاشقان احياناً الى مطلع الفجر فتفارقه وتذهب كما أتت وهي تقول : الى اللقاء غداً ..

وكان السير ارثر يعيش هذه العيشة منذ عامين تزوره تلك الفاتنة كل ليلة إلا ما ندر دون ان تدري الخادم العجوز بشيء من أمره وهي تحسبه من أهل الكمال .

وكان يتفق له بعض الأحيان انه يتأخر في النادي فتنتظره العجوز الى الساعة العاشرة ثم تنام فيأتي السير ارثر دون ان تراه او تشعر بقدومه

ففي المساء السابق لذلك اليوم الذي قدم فيه الى مس سيسيليا واخبرها بما علمناه من السير جورج ستوي تمشى في النــادي خلافاً لعادته فالتقى بالسير رالف وهناك اخبره وأخبر السير نيفلي بما عرفه القراء .

وكانت تلك الليلة محصبة الحوادث فقد حدثت فيها مصارعة الكلبين واقتفاء روكامبول ونويل أثر السير جورج الى وينغ .

وفي تلك الليلة قصت الأرلندية فيخمارة الملك جورج حكايات ازواج جيبسي الستة وخطب روكامبول تلك الفتاة وذهب بها الى منزلها .

وفي تلك الليلة نفسها عاد السير ارثر الى التسمي باسم المستر فيليام وأقام ينتظر في منزله بفارغ الصبر قدوم العشيقة ولكن العشيقة لم تحضر .

وقد انتصف الليل ومضت الساعة الأولى والثانية ثم الثالثة بعد انتصاف الليل ولم يسمع نقيرها على النافذة ، فكان عرضة للاضطراب والقلق الشديد من اضطرابه إلى أن فرج الله كربته وسمع الصوت فأطفأ المصباح وقام إلى النافذة وهو يرتجف ففتحها ودخل منها غلام لابس ملابس البحارة وقبعة كبيرة من القش بحيث لا يسع من يراه لأول وهلة إلا ان يحكم بأنه من البحارة .

ولكنه لم ينزع تلك القبعة حتى انسدل من تحتها شعر جيبسي على كتفيها لأن هذه العاشقة المتنكرة لم تكن سوى جيبسي النورية .

- ٣٦ -

ولنذكر الآن كيف تعارف الاثنان وتعاشقا فان هذا الحب بينهما متصل منذ عامين .

وتفصيل ذلك ان السير أرثر حين أبت ابنة خاله مس سيسيليا أن تتزوجه حزن حزناً شديداً ، وقد محق هذا الرفض قلبه لأنه كان يحبها حباً صادقاً وخشي أن يتهمه الناس بانه إنما أراد أن يتزوجها طمعاً بمالها .

وكبر عليه الأمر وأشار عليه أصدقاؤه بالسفر ترويحاً للنفس والتماساً للسلوى فنال إجازة من الأميرالية وسافر إلى فرنسا .

غير ان هذه السياحة لم تشفه من وله غرامه بل زادت من شدة دائه وعاد إلى لندرا ، واليأس ملء قلبه ، فان داء الحب لا يدفعه غير الحب ولبث على هذا الهيام إلى ان نفذت إلى قلبه أشعة حب جديد بالصدفة والاتفاق .

والحكاية انه ذهب يوماً من الأميرالية قبل غروب الشمس ، وجعل يطوف هائماً في شوارع لندرا المقفرة إلى أن انتبه لنفسه فوجد أنه واقف عند باب مقبرة في ناحية ويت شابل .

وكانت أبواب تلك المقبرة مفتوحة وليس فيها شيء يدل على العظمة لأنها كانت خاصة بطائفة الفقراء ، إذ لم يكن فيها ضريح كبير أو عمود من الرخام كتب فوقه اسم الميت بحروف ذهبية بل كان يوجد فيها صلبان من الخشب الأسود عليها كتابة محت الأمطار نصفها وفي الجملة فإن جميع مظاهرها كان يدل على أنه لا يدفن فيها غير الفقراء .

ودخل السير أرثر الى المقبرة وجعل يمشي فيها دون قصد إلى حيث يدفعه فكره المضطرب ونفسه القانطة .

وكان يظهر له ان المقبرة منفردة ليس فيها أحد من الناس غير أنه نظر شبحاً أسود في إحدى زواياها وتحقق انه شبح إمرأة راكعة فوق قبر واقترب منها .

ولما أحست المرأة وهي بملابس السواد بقرب الرجل منها نهضت مذعورة ووقف السير أرثر باهتاً منذهلا لأنه رأى المرأة ، بل تلك الفتاة تذرف الدمع السخين وهي لا تتجاوز السابعة عشر من عمرها .

ولكن هذه الفتاة كانت تشبه بدموعها ذلك الوادي المنفرش بخضرة الربيع ، تسقط عليه الأمطار ساعة ثم تسطع الشمس فوقه ويبتسم لدموع الغيث التي تستحيل إلى اؤلؤ .

ولما نظرها السير أرثر جزم أن مس سيسيليا التي كانت ملء قلبه تعد قبيحة بالقياس إلى هذه الفتاة الحسناء .

أما تلك الفتاة فقد صاحت صيحة رعب حين رأته وحاولت في البدء أن تهرب مما أصابها من الخوف ، لكنها عادت إلى صوابها وقالت للسير أرثر بلهجة اضطراب شديد : العلك تعرفني يا سيدي ؟

أجابها : هذه المرة الأولى التي تشرفت فيها بلقائك يا سيدتي .

وكأنما ظواهر النبل المرتسمة على محيا السير أرثر قد سكنت من روع الصبية وحملتها على الثقة به وأخذت يده بيدها وقالت له بلهجة المتوسل :

أترفض ملتمسي يا سيدي إذا عرضت عليك التماسي ؟

قال لها بلسان يتلعثم : قولي يا سيدتي .

— أتعدني يا سيدي انك إذا لقيتني بعد الآن ، وإذا ذكروا لك اسمي ان لا تقول أمام أحد أنك شاهدتني في هذا المكان .

— اني أقسم لك على الكتمان .

فشكرته ومضت مسرعة في سبيلها .

أما هو فبقي واقفاً قرب ذلك الضريح الذي لم يكن فوقه صليب ولا أثر من آثار الكتابة وجعل ينظر إلى تلك الفتاة تبتعد عنه ويشعر بارتعاش كأنما أوحى اليه أن هذه الفتاة سيكون لها شأن عظيم في مقتبل حياته .

وبعد ان احتجبت عن أنظاره خرج من المقبرة وهام بقية الليـل في تلك الشوارع المجاورة للمقبرة ولم يجد أثراً للصبية .

وفي اليوم التالي كان السير أرثر مجهم الوجه منقبض الصدر وقد شعر أنه أصيب بدائين وتنازع قلبه غرامان لا يعلم إلى أيهما يخضع .

وفي اليوم الثالث عاد إلى المقبرة في الساعة نفسها التي لقي فيها الفتاة ولم يجدها ، وعاد في اليوم الذي تلاه ، وفي الأيام التابعة ، ولم يراها .

وجعل يتردد كل يوم إلى أن رأى ذات يوم آثار أقدام صغيرة عند باب المقبرة ففرح كثيراً لاستدلاله من خطواتها على حضورها ولكنه لم يراها .

وذهب إلى الحفار وهو يقيم في غرفة عند مدخل الباب الكبير فأعطـاه جنيهاً وسأله أن يخبره عن صاحب القبر الذي رأى الفتاة راكعة عليه .

وحكى له الحفار هذه الحكاية الغريبة وهي أن هذه الفتـاة جـاءت منذ ستة أشهر إلى كاهن هذا الشارع ، وهو رجل عجوز من أهـل الصلاح وخلت معه ساعة ثم خرجت وإياه ، وناداني الكاهن وأمرني أن أسير معه فركبنا مركبة مقفلة وسرنا بها إلى خارج لندرا .

وما زلنا نسير من قفر إلى قفر حتى انتهينا إلى مقبرة النور وهي خـاوية

خالية لا ناس فيها ولا حراس ، وأوقفت الفتاة المركبة وذهبت بي وبالكاهن إلى قبر يظهر من ترابه انه حديث الحفر وقالت للكاهن : هذا هو القبر .

وأمرني الكاهن أن أنبشه فامتثلت وأخرجت منه تابوتاً لا أعلم إذا كان دفن فيه جثة رجل أو إمرأة ، ثم ساعدني الكاهن ونقلنا التابوت إلى المركبة، وجئنا به إلى هذه المقبره ودفناه في هذا القبر الذي رأيت الصبية راكعة عليه.

ويظهر أن هذه الفتاة شديدة الفقر حتى أنها لم تستطع أن تضع صليباً فوق الضريح ، غير أن الكاهن بارك التابوت وصلى على من فيه ، وهو الآن في أرض مقدسة .

أما هذه الفتاة فإنها تزور الضريح مرة في الأسبوع وتبكي البكاء الشديد ولكنها لا تأتي في يوم معين وساعة محدودة لأنها تخشى المراقبة .

ونفح السير أرثر هذا الحفار بجنيهين وانصرف .

وفي اليوم التالي عاد إلى المقبرة ووضع صليباً فوق القبر وعلق عليه اكليلاً من الزهر .

ثم جعل يتردد على المقبرة كل مساء دون أن يراها الى ان جاء يوماً ورأى إكليلاً آخر موضوعاً بازاء اكليله ففرح فرحاً عظيماً وعلم أن الصبية قد وضعته .

وبينما هو خارج في ذلك اليوم من المقبرة التقى بالفتاة داخلة اليه وصاح كلاهما صيحة واحدة ودنت منه الفتاة وقالت . الست أنت الذي وضعت الصليب والاكليل ؟

واعترف السير أرثر بصوت يتهدج من الاضطراب وشكرته الفتاة وذهب كلاهما إلى القبر وركعت فوقه وركع السير أرثر مقتدياً بها وجعلت تصلي بلغة غير مفهومة .

ولما فرغت من صلاتها نهضت ونظرت مذعورة إلى السير ارثر وقالت : رباه ماذا أفعل إذا وجدنا في هذا المكان ؟

وقال لها : أنظري ألا تعلمي أنه لا يوجد سوانا ؟

وكانت المقبرة صغيرة ، فأجالت نظرها في أطرافها ولم تجد أحداً وقالت بلهجة الرعب : انهم لو رأونا هنا ..

فانذهل وقاطعها قائلا : ماذا علينا ألا يحق للمرء أن يبكي على من يحبه ؟

— ليس كل حين يا سيدي .

ثم ودعته شاكرة وانصرفت مسرعة .

غير أن السير أرثر تبعها هذه المرة وخرج في أثرها .

- ٣٧ -

وجعلت الفتاة تسير بخطوات سريعة دون أن تلتفت الى ما وراءها .

وكان الليل قد أرخى سدوله ، ولكن الشوارع كانت لا تزال مقفرة في تلك الساعة لعدم انصراف العمال من معاملهم ، ولم تكن المصابيح قد أنيرت بعد ، فكان يصعب تمييز الناس .

وكانت الفتاة لابسة رداء أبيض وعلى كتفها شال من الصوف فوضعته على رأسها كي لا يراها أحد .

إلا أن السير أرثر كان يجد السير بغية اللحاق بها ، وإذا اختلطت بين الناس عرفها من ثوبها الأبيض .

ولكنها كانت تريد أن لا يهتدي الى مكانها وجعلت تسير من زقاق الى زقاق وهي تحاول الاختفاء عنه ، ولم تجد الى ذلك سبيلاً الى ان ادركها في زقاق ولم يكن فيه أحد من المارة وناداها .

فالتفتت الفتاة عند ذلك وقالت له بلهجة المؤنب : أرجوك أن لا تتبعني يا سيدي لقد أسأت الي بعد ذلك الاحسان .

غير ان لهجة تأنيبها كانت عذبة لطيفة و كانت نظراتها اليه تدل على الرضى .
فقال لها : أتعدين يا سيدتي من الذنوب أن أتبعك وأنت على ما رأيتك به من الكآبة لاسيما وقد علمت بعض أمرك من الحفار ؟

فاضطربت لهذا القول اضطراباً شديداً وقالت : رباه لقد خفت .
– ومما تخافين يا سيدتي تأبطي ذراعي لأني من الأشراف ومتى كنت معي فلا خوف عليك .
ونظرت اليه الفتاة محدقة فرأت الاخلاص يجول بين عينيه ، ثم رأت علائم الحب الصادق بادية بين ثناياه ، فسرت الى فؤادها تلك العاطفة السريعة التي تضيء أشعتها نفسين كما تضيء أشعة الكهرباء ، فتجمع بينهما جامعة الاخاء وقالت : لقد صدقت يا سيدي وركنت اليك .

ثم تأبطت ذراعه وقالت له وهي ترتجف : إنك كلمتني عن الحفار ؟
– نعم فاني أعترف لك بما جنيت والتمس منك الغفران .
– العله أخبرك بكل شيء .
– إنه أخبرني بما يعلمه على الأقل

– إذن لنذهب إلى شاطىء التاميز ، إذ لا نجد هناك من يعرفني فإني معرضة لخطر شديد ، إلا اني رأيت بين عينيك النبل وصدق الطوية فأحببت بأن أخبرك بكل شيء ، إني وحيدة في هذا الوجود ، وقد لقيتني جاثية على ضريح آخر من أحببتهم نفسي .

وكانت تحادثه وصوتها يضطرب حتى وصلا الى شاطىء النهر .
لم يكن هناك أحد تخشى أن يعرفها فاستأنفت حديثها وقالت : إن هذا الميت الذي أبكيه هو الرجل الذي رباني ، وقد كان مثلي يتظاهر أنه يدين بدين النور ، لكنه كان مثلي أيضاً يعتنق الديانة المسيحية بالسر .
ولما ذهبت في الليل الى ذلك الكاهن واعترفت له بحكاية هذا الرجل الذي كان يدعى فارو ، فأخرجناه من مقبرة النور ودفناه في أرض مقدسة .

على أن قبيلة النور إذا عرفت هذا السر تقضي علي القضاء المبرم وتعاملني دون إشفاق .

– لقد فهمت ما تريدين وقد عاهدتك على الكتمان ، فلا أبوح بسرك مـا دمت حياً .

– أشكرك يا سيدي والآن أرجو أن تنساني فاننا ما خلقنا لنتفق .

فاصفر وجهه عند سماعه هذا القول وشعرت الفتاة انه أوشك أن يسقط لارتعاشه ثم سمعته يقول لها . أواه لو تعلمين حبي لك .

وكأن الفتاة قد حنت عليه أو أصيبت بما أصابه فقالت له : إذن سنلتقي هنا بعد ثلاثة أيام في مثل هذه الساعة .

ثم تركته فجأة وانصرفت في سبيلها .

أما السير أرثر فانه عاد الى منزله وقد أمحت مس سيسيليـا من فؤاده وحلت تلك الفتاة محلها فيه وشعر انه يحب تلك الفتاة المجهولة التي رآها أول مرة تبكي فوق ضريح حباً انساه كل حب .

ومرت الأيام الثلاثة به كانت كالأجيال الى ان حانت الساعة المعينة للموعد فأتت الفتاة وجاء السير ارثر

وكانت السماء تمطر الا ان الأمطار لا تحول دون اجتماع العشاق .

ووضع يده بيدها وجعل يقبل تلك اليد الناعمة ، فتـــدعه يفعل ولا تجذب يدها .

ولكنها نظرت اليه نظرة ملؤها الشغف وقالت له . اني لا اعرف اسمك الى الآن ، ومع ذلك إني اثق بك كما يثق المؤمن بالله إذ لم يعد في الوجود من يحبني وانا لم احب احداً على اني كنت اعـد الدقـائق منذ ٣ أيام وانا لا اعرف منك حتى اسمك

فتأثر السير ارثر لكلامها وقال لها : اتريدين ان اكون لك زوجاً ؟

ولكن كلامه اثر عليها تأثيراً شديداً لم يكن ينتظره فانها قـالت له وقـد

ظهرت عليها ملامح الرعب الشديد : كلا ان ذلك لا يكون .

ثم جعلت ترتعش وحاولت ان تفر منه .

فانذهل ومنعها من الفرار وهو يقول : بماذا اسأت اليك ولماذا هـذا الاضطراب ؟

– لأنك اذا تزوجتني يحكم عليك بالموت وربما حكم علي به ايضاً .

– ماذا تريدين بهذا القول فاني لا افهم شيئاً .

– اذن اصغ الي، إنك تحبني وانا احبك ايضاً وقد رفع الموت رايته الخفية علينا منذ الآن ... على ان الوقت لا يزال فسيحاً لدينا فاهرب مني ولنجتهد بنسيان ما مضى .

– واذا لقيت انا هذا الموت الخفي غير هياب اتقتدين بي وتخاطرين مثلي؟

فطوقت عنقـه بذراعيها وقـالت : نعم نعم ، اني احبـك ولكني اخاف عليك .

– لا تخشي ايتها الحبيبة فإن للعشاق إلها يرعاهم .

وفي اليوم التالي عادا الى الاجتماع في نفس المكان فقالت له : اعلم أيهـــا الحبيب اني لا استطيع ان اندفع لتيار هواك إلا بشرط واحد .

– ما هو هذا الشرط ؟

– هو ان لا تحاول ان تعلم شيئـاً من ذلك السر الرهيب الذي يمنعني عن الزواج بك ويجعلنا معرضين لخطر الموت .

– اقسم لك اجل قسم على الامتثال .

– وانا اتسمى باسم حنة وهو غير اسمي فعدني ان لا تبحث عن اسمي الحقيقي ولا تحاول كشف اسرار حياتي .

– اعدك وعد شريف لا يحنث بيمينه

– عدني ايضاً انك لا تعود إلى تلك المقبرة التي لقيتني فيها وانك لا تذهب الى ناحيتي ويت شابل وويننغ .

– إذن اين اراك ؟
– اين تقيم ؟
– في شارع بيكاديللي .
– إنه شارع يكثر فيه مرور الناس فلا يسمني الذهاب اليك فيه فابحث عن منزل صغير في شارع مقفر، ثم استأجره باسم غير اسمك الحقيقي فيكون محل اجتماعنا .
– أتزورينني فيه كل يوم ؟
– كلما استطعت للزيارة سبيلاً .

* * *

في هذا المنزل الذي رأينا السير ارثر فيه متنكراً باسم ويليم كانت جيبسي تجتمع بحبيبها كل ليلة منذ عامين .

وكان السير ارثر من الاشراف فوفى بجميع تعهداته ولم يحاول أن يكشف شيئاً من اسرار النورية ، لكنه كان يثق بها ثقة لا حد لها فلو قالت له اني ملاك هبطت اليك من السماء لصدق ما تقول

هذه هي اسرار هذا الرجل الذي كانت تأتيه جيبسي متنكرة بملابس بحار وقد اقام معها عامين لم يعرف من امرها غير انه يهواها ولا يعرف سواهما اسرار هذا الحب .

وفي الليلة التي نقص حوادثها كان السير ارثر يعانق جيبسي ويقول لها : لقد كاد يفرغ صبري لطول الانتظار فأين كنت وما هذا الغياب ؟

— آه لو كنت تعلم ..

— ماذا حدث ؟

— أظن ان الخطر الذي يتهددنا اوشك ان يزول .

— كيف ذلك ؟

— سأخبرك بكل شيء حين تنقضي اسباب الخوف كلها ، واكتفي بـأن اقول لك الان انه يوجد عصابة في لندرا اقسمت على قتلي إذا احببت رجلاً ، وعلى قتل الرجل الذي يحبني .

— وبعد ذلك ؟

— وجدت حامياً يقيني ويقيك شر هذه العصابة .

وكأنما قد مست كبرياؤه فقال بلهجة المنكر : ما هذا القول واين انا ، الا استطيع ان احميك ؟

— كلا ..

وقد لفظت جيبسي هذه الكلمة بلهجة الواثق المعتقـد كل الاعتقـاد فيما يقول .

فأطرق السير أرثر برأسه وقال :

— لقد صدقتك .

اجابت : وغداً ، اذا اتيت اليك فاني احضر متـــأخرة كما حضرت هذه الليلة .

وكان السير أرثر قد تعود أن لا يعترضها في شيء ولا يسألها عن أمر ، ولكن عقرب الغيرة لسعته عند هذا الكلام فقال لها أتعلمين يا حنة أنه يمر ساعات أحسب نفسي في خلالها من المجانين ؟

– كيف ذلك ولماذا ؟

– لأني صرت أغار عليك .

فضحكت جيبسي ضحكاً عالياً دلت به على السلامة والصدق ثم طوقت عنقه بذراعيها وقالت له : لقد قلت الحق فإنك من المجانين لا محالة ، ولكني لو أقسمت لك بهذا القبر الذي رأيتني أبكي عليه ، أول مرة رأيتني فيها ، ان شفتي لم يقبلها رجل سواك منذ خلقت الى الآن . أتصدق بهذه اليمين ؟

– لا أحتاج الى اليمين لأني صدقتك دونها

– ومع ذلك إني أقسم لك بهذا القبر إن قلبي لم يمتلكه سواك .

فركع السير أرثر أمامها وقال لها أيها الملاك الهابط من السماء ، أتتزوجين بي زيجة طاهرة أمام الله والناس إذا زالت هذه الأخطار السرية التي تتهددنا ؟

فلم تصح الفتاة صيحة سرور حين سماعها كلامه ولم تبرق عيناها بشعاع من أشعة الفرح بل ظهرت على وجهها ملامح الحزن العميق وقالت كلا إني غير جديرة بك وانك لا تعلم من أنا

– وماذا يهمني ان أعرفك إذا كنت أحبك ؟

– إصغ إلي أيها الحبيب . إني عشت كما تعيش الفراشة بين الحشرات الكريهة وأنفقت زمن حداثتي نقية كالسماء الخالية من الغيوم بين قوم أسافل ، فكنت كأشعة الشمس المشرقة فوق الوحول .

فإذا دعيت يوماً بلقب اللادي أخشى ان يراني أحد من اولئك القوم فيشير بإصبعه ويقول هذه فلانة .

– إذن من أنت ؟
– أنا امرأة لم تحب سواك ألا ترى اننا سعيدان بهذا الحب ؟
– لقد أصبت .
ثم أطرق برأسه وسقطت دمعة على خده فمسحتها حبيبتي بقبلة وقالت: ربما عرفت سر حياتي يوماً من الأيام .
فنظر اليها دون ان يجيب .

وظهرت علائم التردد على الفتاة هنيهة ثم قالت : ولكني مع ذلك لست من زمرة اولئك الناس الذين أعيش بينهم فانظر يدي وانظر الي .
فنظر اليها باعجاب وقال إنك تشبهين بنات الملوك .
– إن أمي لم تلبس التاج بل كانت من النبيلات .
– أمك انت ؟
– نعم وقد ماتت الآن وكنت السبب في موتها .

ثم نهضت مسرعة كأنها خافت ان تتسع في البحث وتبوح بما لا تريد ان تبوح به فودعته وقالت : الى الغد .
فلم يمنعها السير ارثر عن الرحيل ، وجعل يشيعها بالنظر وهو مفكر حائر مبهوت .
وفي اليوم التالي عاد السير ارثر الى ذلك المنزل حسب عادته ودخل الى غرفة القراءة فجعل يقرأ ويكتب الى الساعة العاشرة .

وفي تلك الساعة دخلت الخادمـة الى غرفته تقدم له الشاي ، فوضعته على المائدة. وبدلاً من أن ترجع حسب عادتها لبثت واقفة وعليها مظاهر التردد كأنها تريد أن تقول للسير أرثر شيئاً لا تجسر على قوله .
فأنكر السير وقوفها وترددها وقال لها : ما بالك ؟

فكلمته العجوز بألقاب التعظيم على غـير عادتها وقالت له إنهم سألوا عنك اليوم .

فأجفل وقال : سألوا عني أنا ؟

– نعم يا سيدي وقد ذكروا لك اسماً غير اسمك الذي أعرفه .

-- ماذا تعنين بذلك ؟

– إن اثنين من الشرفاء قدما الى منزلك في الساعة الرابعة بعد ظهر اليوم وقالا لي هل السير ارثر نويل في المنزل ؟

فقلت لهم : لا يوجد في هذا المنزل رجل يدعى بهذا الاسم ، وان الذي يقيم فيه ليس له شيء من الألقاب ، وهو موظف في أحد البيوت المالية يدعى المستر وليم .

فضحك الاثنان ضحكاً عالياً وقال أحدهما : لسنا نحن المنخدعين بل انت المنخدعة .

ثم وصفا لي أوصافك فكانت منطبقة عليك كل الانطباق .

فاصفر وجه السير ارثر وقال أتمي حديثك .

فقالت العجوز : إني لم أجـــادلهما فيما قالا ولكني قلت لهما انك لم تعد بعد فانصرفا .

-- ألم يقولا شيئاً حين انصرافهما ؟

-- نعم قالا انهما سيعودان في الغد .

فصرفها وبعد ان مضت العجوز خلا في غرفته وجعلت الأفكار تتنازعه . فخطر له في بدء الأمر ان أعداء حبيبتي قد عرفوا منزله واطلعوا على سره ، فوجف قلبه وخاف على حبيبته خوفاً شديداً .

ثم خطر له ان ذلك قد يكون من صنع أصدقائه الذين أشكل عليهم أمر انقطاعه عنهم فجعلوا يتبعونه خفية حتى علموا موضعه .

وقد تكدر حين خطر له هــذا الخاطر ، لأنه سيضطر في كل حال الى تغيير المنزل ، والتنكر باسم آخر حــذراً من ان يراقبوه فيعلموا سر غرامه .

وقد مضى قسم كبير من الليل وهو عرضة لعوامل الاضطراب .

ومما زاد في انقباض نفسه انه سمع الساعة الثالثة تدق دون ان تحضر جيبسي ولكنها كانت أخبرته في الليلة السابقة انها ستتأخر في الغد .

وفيما هو يفكر في أمره تفكير المهموم إذ سمع القرع على النافذة فطار فؤاده سروراً وأسرع الى المصباح فاطفأه ثم بادر الى النافذة ففتحها بيد تضطرب وهو يقول : لقد أتيت أخيراً فأهلا بك

وفيما هو يفتح ذراعيه ليضمها ، وقد رأى انها دخلت إلى الغرفة شعر بيدين قويتين كأنهما من الحديد قد ضغطتا على عنقه ، ثم شعر بيد أخرى القته على الأرض ، فكبلت يداه ورجلاه وسد فمه ، قبل أن يتمكن من الاستغاثة .

وبعد ذلك سمع صوت رجل يقول له بلهجة الهازىء المتهكم : إنك تجاسرت على حب جيبسي النورية ، وسترى الى اين يقودك هذا الحب بل هذا الجنون .

- ٣٩ -

ولنعد الآن الى روكامبول . فقد غادرناه مع السير جورج وقد ملأ فؤاده ذعراً حينما رأى صدره وما عليه من الوشوم الدالة على انه من عباد الإله سيوا .

وكان الشهود حكموا بانتهاء المبارزة بعد جرح السير جورج ورضي الفريقان بحكمهم فافترقا وذهب السير جورج مع شاهديه بمركبة نويل الى لندرا وسار روكامبول اليها مع شاهديه بالسكة الحديدية .

وكان روكامبول قد ترك فاندا بحراسة ميلون ، وترك كيرشي بحراسة

فاندا . ولما وصل الى المنزل وجده بظواهره العادية ، فإن نوافذه كانت لا تزال مقفلة لأن الساعة لم تكن تجاوزت التاسعة ونصف ولا تفتح النوافذ قبل هذا الوقت في تلك العاصمة التي جعل ليلها نهاراً .

فأخرج روكامبول مفتاحه من جيبه ففتح الباب ودخل ، وصعد الى الدور الأعلى فدهش حين رأى باب غرفة فاندا مفتوحاً على غير عادة .

وناداها فلم تجب . ونادى ميلون وكان لا يزال نائماً فصحا من رقاده منذعراً وأسرع الى تلبية رئيسه وهو لا يزال بملابس النوم .

غير ان روكامبول كان قد دخل الى غرفة فاندا ، فما أصاب نظره داخلها حتى صاح صيحة هائلة . ذلك انه رأى فاندا ساقطة عن الكرسي الذي كانت نائمة عليه .

وكان روكامبول قد ناداها ثلاث مرات فلم تجب .

فوقف وقد جمد الدم في عروقه وانصب العرق البارد من جبينه ولم يجسر على الدنو منها ولمسها إذ كان يظهر له انها ميتة .

ثم التفت لسماعه صوت ميلون الذي اسرع اليه وهو يقول : ماذا تريد يا حضرة الرئيس ؟

غير ان ميلون ما لبث ان رأى روكامبول على ما كان فيه من الاصفرار والاضطراب ، حتى سكت ووقف في مكانه لا يجسر ان يخطو خطوة واحدة .

أما روكامبول فإنه ما لبث عشر ثوان ، مرت كالأجيال ، ثم صاح صيحة اخرى ، وذلك لأنه رأى صدر فاندا يهبط ويرتفع بنفس هادىء منتظم .

فدنا منها ووضع يده على قلبها فوجده ينبض فناداها فلم تجب .

وعند ذلك امسكها وهزها بعنف بغية ايقاظها فسمع فحيح الأفعى ، ثم رأى ذلك الثعبان الصغير قد انسل منصدرها الى الأرض فداسه روكامبول بقدمه

وسحقه وهو يقول : لقد علمت الآن كل شيء .

ثم أزاح الكرسي ودخل الى غرفة كيرشي فوجدها خاوية خالية ، وعاد الى سكينته التي لا تفارقه إلا في الأخطار وقال لا يجب ان أبحث عن السر لأني أردت ان أخيف السير جورج فطمأنت كيرشي والغلط غلطي فلا ينبغي أن يؤاخذ به أحداً به .

وكان ميلون واقفاً أمام فاندا وقد وقف شعره من الخوف عليها ولكنه لم يجسر ان يسأل عنها فقال له روكامبول : إذهب ايها الأبله الى قاعـــة الطعام وائتني منها بصندوق العقاقير .

فامتثل ميلون ونزع روكامبول قميص فاندا فوجد فوق ثديها الأيسر أثر لسع الأفعى فضغط اللحم الملسوع ضغطاً شديداً باصبعه فخرجت نقطة سوداء من الدم لا يزيد حجمها عن رأس الدبوس .

فاطمأن روكامبول وقال إن الأفاعي الصفراء لا تقتل لحسن الحظ ولكن كيرشي سيدفع غالياً ثمن هذه الخيانة .

وعند ذلك عاد اليه ميلون بصندوق الأدوية فاختار زجاجة ووضع منها بضع نقط في فم فاندا . فما وصلت إلى جوفها حتى فتحت عينيها ونظرت إلى روكامبول نظرة المنذهل وقالت : اين انا وماذا حدث ؟

— لا شيء سوى ان كيرشي قد عبث بك وبميلون .

فأجفلت فاندا وقالت : أهرب كيرشي ؟

ففتح روكامبول الباب وقال : أنظري ألا تجدين غرفته خالية ؟

فصاحت فاندا صيحة منكرة وقالت : تباً لي من شقية .

— ليس الخطأ منك بل مني . والآن فلندع هذا البحث ولنصلح الخطأ .

فقال ميلون : ماذا ينبغي ان أعمل ؟

— يجب ان تجمع كل أعضاء العصابة .

— متى ؟

.. اليوم لأني محتاج اليهم في المساء .
— سأجمعهم ولكن اين يكون الملتقى ؟
— في خمارة الملك جورج .
— في أي ساعة ؟
— في الساعة الثامنة من المساء . فاذهب في الحال لأن الوقت غير فسيح .
ولبس ميلون ثيابه وانطلق مسرعاً الى حيث أمره الرئيس .

ولما خلا روكامبول بفاندا قال لها : إني سأمثل الليلة اول رواية مع الخناقين وقد كنت أيقنت من الفوز النهائي قبل فرار كيرشي . أما الآن فقد تجدد كل شيء .
— ألا تحتاج إلي في هذا المساء ؟
— كلا وربما احتجت اليك غداً فأودعتك امرأتي .
فقالت له وقد اصفر وجهها : امرأتك ؟

فابتسم روكامبول وقال : إطمئني لأني سأتزوج حسب طريقة النور .
.. ولكن لم أفهم شيئاً بعد .
.. إذاً إعلمي انه ليست ناديا ابنة الجنرال هي وحدها ضحية الإلهة كالي لقد وجدت فتاة أخرى من أحسن الأسرات جعلت ضحية لتلك الإلهة وخبأها أهلها بين النور .
ثم حكى لها جميع ما يعلمه من حكاية جيبسي .
ولما أتم حكايته قالت له فاندا : ألا ترى أنك معرض لأخطار هائلة ؟
— ربما .
— وهذه النورية ، أبلغ من عنايتك بها ان تخاطر بنفسك الى هذا الحد بغية إنقاذها ؟
—يجب ان أبدأ بالعراك مع الخناقين .

ثم سكت سكوتاً قصيراً كانت فاندا تنظر اليه في خلاله نظرات الاعجاب وقال : أتحسبين اني رضيت بالعودة الى الحياة ، انا الذي لا أطمع إلا بالراحة الأبدية ، كي أعيش عيشة المتنعمين ؟

فتنهدت فاندا وقالت : هو الحق ما تقول .

أما روكامبول فإنه أطرق برأسه الى الأرض ، وسقطت دمعة من عينه على يد فاندا . فارتعشت وقالت له بصوت يتهدج : ألا تزال تشكو ذلك الغرام القديم ؟

ولما سمع روكامبول قولها برقت عيناه ورفع رأسه وقال : إن الحزن يطهر النفوس من الآثام .

فلم تجبه فاندا بحرف ولكنها قالت بصوت منخفض كأنها تناجي نفسها : رباه لماذا لقي مدلين وأحبها ذلك الحب الذي لا رجاء فيه ؟

- ٤٠ -

في الساعة الثامنة من الليلة نفسها كانت خمارة الملك جورج غاصة بالناس كما يتفق في أيام الأعياد من خباز ونجار ومتشرد وبحار إلى غيرهم من زبائن تلك الخمارة الذين عرفوا أمس ما حدث لزوج جيبسي السادس مما قصته عليهم المرأة الارلندية .

فجعل الحاضرون يتساءلون ويقولون أيصيب هذا الزوج السابع ما أصاب الأزواج الستة من قبله ؟ ومن عسى ان يكون هذا الزوج ؟ ومن اين أتى ؟ فإنهم لم يروه قبل هذه المرة في ناحية وينغ . واخيراً اين يعقد هذا القران ؟

هذه هي المسائل التي كانت دائرة على الألسن في خمارة الملك جورج .

فكانت الارلندية رائدة القوم في حل هذه المشكلات فقالت : أتعلمون ان النور لا يتزوجون كما نتزوج نحن لانهم يجتمعون في مكان معتزل فيوقدون ناراً عظيمة ويجعلوا يقفزون من حولها بينما يكون الخطيبان واقفان في وسط حلقة هذا الجمع .

ولما يفرغون من الرقص يأتون للعروسين بفطيرة من الدقيق معجونة بالزبدة والعسل وبابريق من النبيذ .

فيأ كل العروسان الفطيرة ويشرب كل منهما جرعة من الخمر بالتوالي حتى يفرغ الإبريق .

وعند ذلك يدنو منهما شيخ القبيلة ويقول لهما : ألا تزالان عازمين على الاقتران ؟

فيقولان : نعم .

فيقول لهما الشيخ : إذاً اكسرا هذا الابريق .

فيأخذ العروسان الابريق ويمسكه كل منهما بيد ويرفعانه الى ما فوق رأسيهما ويقذفان به الى الارض فيتحطم وعند ذلك تتم الحفلة ويصبح هذا الاقتران شرعياً نظامياً لا شك فيه .

فقال احد الحاضرون : أتظنين أن عرس جيبسي سيكون هذه الليلة ؟

– دون شك .

– كيف عرفت ذلك ؟

– إني لقيت الفتاة اليوم فأخبرتني .

– ولكن اين يعقد هذا القران ؟

– هذا ما يصعب معرفته ، لان النور يبالغون في إخفاء اماكن حفلاتهم .

– إني أدفع نصف راتبي لمن يرشدني الى ذلك المكان .

– وماذا يفيدك حضور حفلات اولئك النـــور . وفوق ذلك فان كل غريب يحضر حفلاتهم يخاطر بنفسه ، وقد لا يسلم من هذا الخطر ، لانهم لا يتساهلون بحفلاتهم الدينية .

وهم في حفلات أعراسهم كما هم في حفلات مآتمهم ، فإنهم يدفنون موتاهم ايضاً في أماكن لا يعلمها أحد .

وكان قد دخل في ذلك الحـين بحار ضخم وسمع الحديث فقال : من هو هذا العريس ؟

فقالت الارلندية : بحار .

– وما هي هويته ؟

– إنكليزي .

وهنا اختلف الحاضرون فقال أحدهم : بل هو إيكوسي .

وقال سواه : أراهن انه ايرلندي .

وقال كلكراف صاحب الخمارة بصوت عالي : بل هو فرنسي .

فأجفل القوم لكلام كلكراف لاعتقادهم بصحة روايته ، وتلبه فيهم ذلك الحقد القديم وبعد ان كانوا مشفقين على ذلك الشخص الذي تجاسر على الاقتران بجيبسي أصبحوا غير مكترثين له بعد ان علموا انه فرنسي حتى ان بعضهم بات يتمنى له الهلاك .

وبينما هم يتباحثون في هذا الشأن ، دخل شخصان الى الخمارة وأعطى كل منهما قطعة من النحـــاس لكلكراف . فأخذ كلكراف القطعتين وقـال ، همساً باللغة الفرنسيـة : في الساعة العـاشرة ، وراء كنيسـة سانت بول .

وكان أحد هذين الشخصين الفتى مرميس والآخر مورت فقال مرميس : حسنا سنذهب في الوقت المعين .

ثم جاء بعدهما بقية أفراد العصابة التي جمعها روكامبول في باريس . فكان

كل واحد منهم يقدم لكلكراف القطعة النحاسية فيقول له صاحب الخمارة ما قاله لرميس .

وبعد أن عرفوا المكان المعين للاجتماع شربوا كأساً من الوسكي ، وذهبوا واحداً أثر واحد بعد ان تبادلوا نظرة سرية مع ميلون الذي كان متنكراًمثلهم بملابس البحارة .

ولو كان زوار الخمارة غير منهمكين بحكاية عرس النورية لانتبهوا الى محادثة اولئك البحارة السرية مع كلكراف غير ان حديثهم عن ذلك الشخص الجسور شغلهم عن كل ما سواه .

وقد عادوا الى المباحثة في هوية هذا العريس . فقال لهم كلكراف : أؤكد لكم ما قلته انه فرنسي .

فقال أحدهم : إذاً فهو نوري فرنسي ؟

- دون شك .

— وهل يوجد نور فرنسيين ؟

كما يوجد منهم عند الانكليز والألمان والترك والعرب فإنهم منتشرون في كل مكان .

ولما عرف الحاضرون ان هذا العريس من قبائل النور خفت وطأة حقدهم ، وباتوا يتمنون له السلامة من الخطر المحدق به .

فقال ميلون : نعم انه نوري مثلي .

وقالت الارلندية : أأنت نوري ؟

— نعم .

— إذاً تعال أعانقك فقد كنت احسبك فرنسياً من قبل .

وانكبت على عنقه تقبله ولكنها لم تلبث ان عانقته حتى صاحت صيحة ألم وسال الدم من يدها فنظرت الى عنقه فوجدت عليه طوقاً من جلد التمساح تحيط به قطعة ناتئة من الفولاذ دقيقة الرؤوس كالإبر .

ولما رأى ميلون ان الناس قد احتشدوا من حوله وهم يعجبون لهذا الطوق الغريب قال لهم: إذا كان لزوج جيبسي الجديد مثل هذا الطوق لا تجزعوا عليه إذ لا يستطيع أعداؤه خنقه في هذه الليلة .

ثم تركهم مندهلين وانصرف فكان كلكراف يبتسم وينظر الى الدماء التي كانت تسيل من يد الارلندية .

- ٤١ -

كان السرور سائداً في تلك الليلة على النور في لندرا . وكان البوليس يرحم تلك القبائل ويتغاضى عنها ، حتى انه كان يساعدها ويحميها عند الاقتضاء .

ومن عادة النور انهم يقيمون في خيم قرب أبواب المدن الكبرى ، غير ان بعضهم كانوا يلتمسون الاذن من ملكتهم فتأذن لهم بالمبيت في لندرا إذا كانت مهنتهم تقضي عليهم بالمبيت فيها على شرط ان ينقطعوا عن القبيلة كل الانقطاع

وإنما قلنا ملكتهم لأن النور لا يختارون زعماءهم عادة إلا من النساء . فصدر أمر ملكة النور منذ أمس الى القبيلة ان تذهب بخيامها الى المكان الذي كانت فيه منذ عدة أشهر فسارت بخيامها وجيادها وكلابها في ستر ليلة حالكة الظلام دون ان يشعر بها أحد الى مكان خفي ونصبت فيه الخيام وكانت تقيم من قبل في ضواحي سانت بول .

وكانت تلك الليلة التي حدثت فيها هذه الحوادث ، شديدة الظلام كثيفة الضباب فلم يكن يهتدى الى اولئك النور إلا بأنوارهم التي كانت تنبعث من الخلاء خارج أبواب لندرا

وفي هذه الليلة خرج اثنان من باب لندرا واتجها الى مكان ذلك النور وهما روكامبول وجيبسي .

فكانت الفتاة تقف من حين إلى آخر وتقول : رباه اني خائفة ويخـال لي انهم يقتفون أثرنا .

– كيف تخافين وأنا معك ؟

– أصبت إن ثقتي بك لا حد لها غير ان قلبي ينذرني بمصاب جلل وندر أن تخطىء هواجس قلبي .

فطمأنها روكامبول ما استطاع وسار الاثنان يتقدمهما شخص من القبيلة كان يسير على مسافة شاسعة بعيداً عنهما .

وكان هذا الشخص قد أرسلته القبيلة الى منزل الفتـــاة في ويت هايل كي يخبرها انالقبيلة نقلت خيامها من مكانها القديم فيسانت بول وانه أتى كي يذهب بها ويرشدها الى المكان الجديد .

فاستاء روكامبول لهذا الانتقال لأنه واعد عصابته على اللقاء بجوار سانت بول فهيتنتظره في ذلك المكان برئاسة ميلونوهو يتعرضوحده لفتك الخناقين في مكان خفي لا تعرفه العصابة .

غير ان روكامبول لم يخف ولم يظهر لجيبسي شيئاً من علائم قلقه .

ولبثا يمشيان مقتفين أثر النوري حتى اقتربا من القبيلة وسمعا صوت الطبول فرأى روكامبول ناراً مشبوبة ينبعث دخانها الكثيف فيمتزج بالضبـــاب ، ورأى خيام النور مضروبة حول تلك النار ، والرجال والنساء يرقصون حول هذه النار .

ولما وصل روكامبول وجيبسي انقطع الرقص وسكتت الطبول وســـاد السكوت على الجميع .

وعند ذلك نزلت امرأة حسناء عن دكة عاليـة كانت جالسة فوقها ، فمشت لاستقبال العروسين يحيط بها أهل القبيلة بمظاهر الاحترام ، لأنها كانت

ملكة النور .

وكان روكامبول مرتدياً تلك الثياب التي كان يلبسها في خمارة الملك جورج فدنت منه الملكة وقالت له أيها الغريب أتعلم الخطر الذي يتهددك ؟

— نعم .

— إن جميع أزواج جيبسي قتلوا .

— أعرف ذلك .

— ولا يزال الوقت فسيحاً لديك الآن ، فإذا شئت الرجوع عن زواجها لا نعارضك .

— كلا لا أرجع أبداً .

— تأمل قليلا واعلم أنه عندما تغدو جيبسي امرأتك لا نستطيع ان نحميها لأنك غريب عنا ولست من قبيلتنا ..

— لا بأس أنا أحميها .

فالتفتت الملكة الى جيبسي وقالت لها :وانت أيتها الفتاة ألا تزالين مصرة على الزواج بهذا الغريب ؟

فقالت بلهجة تدل على الثبات : نعم إني لا أتزوج سواه .

ردت الملكة : إذاً ليكن ما تريدان .

ثم أشارت بيدها فعاد الراقصون الى الرقص وغنى المغنون بلغة سرية وهم يطوفون حول روكامبول وجيبسي .

حتى اذا انتهى الرقص جاءوا بفطيرة من الدقيق معجونة بالعسل فقسمها روكامبول قسمين فأكل قسماً وأعطى قسماً لجيبسي فأكلته .

ثم جاءوهما بالإبريق فشربا ما فيه ، ورفعاه ثم القياه على الأرض فتحطم ، فصاح جميع النور عند ذلك صياحاً واحداً خلاصته الدعاء للعروسين بالتوفيق .

فشكرهم روكامبول وعادوا الى الرقص والغناء .

وكان روكامبول قد عرف عادة القوم من جيبسي فلما تم القران ورآهم عادوا الى الرقص حملها على كتفه عادة الأزواج عند النور ، وذهب بها من بين الخيام وهو يقول : إنها امرأتي .

- ٤٢ -

وكان يسير بها مستعجلا وهو يقول في نفسه : لا شك ان النور لم ينقلوا خيامهم في الليلة الماضية إلا لحكمتهم ولحذرهم من أعداء الفتاة إشفاقاً عليها . ولكن هل فازوا بما يريدون ... إنهم لو بقوا بجوار سانت بول لما خشيت أمراً لان ميلون ورفاقه يقاومون جيشاً اما الآن فإني فرد .

وقد كان يحدث نفسه بهذا الكلام دون خوف فإنه بعد ان القى في أيام غروره أستاذه اندريا في تلك الهوة لم يعد يخاف على نفسه بل على من يتولى حمايته ولذلك كان كل خوفه على الفتاة .

ولما خرج بها من القبيلة سار تواً في ذلك الى الخلاء الى لندرا مسترشداً بمصابيحها البعيدة التي كانت تبدو لعينيه كالنجوم خلال الضباب الكثيف .

على ان قلقه كان يتزايد كل حين ولم تكن جيبسي أقل منه اضطراباً فكانت تقول له دعني أمشي فيأبى روكامبول ويقول لها : كلا ، انك لا تستطيعين الاسراع بالسير وخير لنا ان أحملك . فتعود الى الرجاء وتقول: رباه لقد خفت فيسرع بالسير بها دون أن يجيب

ولبث على ذلك وهو ينظر من حين الى حين الى نار القبيلة حتى تباعدت عنه ولم يعد يرى منها غير القليل فقالت له : كفى دعني أمشي .

- كلا حتى نصل الى أبواب لندرا .

ثم جعل يسير بها سيراً مستعجلا غير مكترث بثقلها . وفيما هو يسير هذا

السير شعر بأن ساقيه قد اصطدما بحبل مشدود فعثر به وسقط على الأرض وجيبسي بالقرب منه .

وصاح روكامبول صيحة غضب وصاحت جيبسي صيحة ذعر ، وهجم عليهما في الحال رجلان كانا مختبئين وراء الأدغال ، وأسرع روكامبول إلى النهوض ولكنه ما لبث أن وقف حتى شعر أن حبلاً قد التف على عنقه فضغط عليه ، وان يداً جذبت ذلك الحبل فسقط روكامبول على الأرض وقد فعل به أعداؤه نفس ما فعله بالهندي الذي كان في منزل والد ناديا .

وكان الحبل ملتفاً على عنقه فلم يستطع أن يقول غير كلمة واحدة قالها بصوت مختنق لجيبسي وهي لا تخافي .

وعند ذلك انقض أحد الرجلين على جيبسي وهي توشك أن يقضى عليها من الرعب وحملها وسار بها .

ودنا الرجل الآخر من روكامبول وهو ممدد على الأرض لا حراك به ، تدل ظواهره على ان الحبل قد قضى عليه فقال باللغة الهندية : ان حبل اوسمانا لا يخطىء الغرض ، فاذا أصاب به عنق عدوه أماته في الحال ، وقد علمتنا أيها الفرنسي اللعين كيف ننصب لك الشرك حين نصبت لنا الحبل بين الأشجار لتغتال عباد الالهة كالي وأوهمتنا انك من ابناء سيوا .

ثم ضحك ضحكاً عالياً وجعل يقلب روكامبول ظهراً لبطن فرآه نائماً نوم الموت فصاح صيحة انتصار وقال : ادع الآن الهك سيوا لنجدتك فإن سيوا لا يساعد غير عباده ، وأما أنت فانك مسيحي ضال ، بل أنت لا شيء لأني أظن ان روحك قد فارقت جسمك وهامت في الفضاء .

وكان يقول هذا القول ويفحص روكامبول كي يتأكد موته ففتح صدرته ووضع يده على قلبه كي يرى إذا كان ينبض أو بقيت فيه آثار الحياة .

وفيما هو على ذلك إذ شعر فجأة بيد قوية قد ضغطت على عنقه لأن روكامبول الذي كان يحسبه ميتاً قد انبعث ودبت فيه الحياة وانقض عليه على غرة

انقضاص الصاعقة ، فركع فوق صدره وهو يقول له انك كدت تخنقني أيها الأبله لولا هذا الطوق الذي يحيط بعنقي من جلد التمساح.

ثم استل خنجره وأغمده في صدر الهندي فسقط قتيلاً دون أن يفوه بكلمة . .

وعند ذلك نهض روكامبول فرقص الهندي الأثيم برجله وقال : يجب الآن انقاذ جيبسي .

وقد مرت هذه الحادثة في زمن وجيز يوازي زمن حكايته فقال روكامبول في نفسه لا بد لي من ادراك الهندي الآخر فإني أعدو في أثره حراً مطلقاً وهو حامل جيبسي .

ثم سار في أثره يعدو عدواً سريعاً حتى ظهر له بعد بضع دقائق ثوب جيبسي الأبيض يتماوج في الهواء فوق كتف الرجل الهندي الذي كان يعدو بها ايضاً دون أن يبدو منها ما يدل على الممانعة .

فاستنتج روكامبول من سكونها أنها مغمى عليها وأنه لو كان خنقها لما تكلف حملها بل تركها مكانها .

فأسرع في عدوه بغية ادراكه قبل أن يدخل بها إلى لندرا وقبل ان يصل اليها رأى قبساً قد لمع ثم تلاه دوي شديد تلته صيحة عظيمة بلغت إلى اذن روكامبول ورأى ثوب جيبسي الأبيض قد تحرك فجأة ثم استقر على الأرض دون حراك .

فأسرع أيضاً وهو يعدو ، ورأى رجلاً وقف بجانب الثوب الأبيض ، ووضع إحدى رجليه على صدر ذلك الرجل الذي كان صريعاً يتحرك حركات النزع .

وكانت لندرا قريبة من مكان الحادثة وقد بددت مصابيحها المشرقة ظلام تلك الليلة الكثيف فرأى روكامبول أولئك الثلاثة وفهم كل شيء .

فكانت جيبسي ملقية على الأرض مغمياً عليها ، والرجل الصريع الهندي

الذي اختطفها ، أما الرجل الذي كان واضعـــاً رجله فوق صدره ولا يزال المسدس في يده فقد كان مرميس ذلك الغلام الهائل الذي قتلت رصاصته الهندي دون أن تصيب جيبسي .

ولما رأى مرميس روكامبول صاح صيحة فرح وقال : ألا توافق أيهـــا الرئيس على اني أتيت حين الحاجة الي ؟

- ٤٣ -

وقد عظم مرميس في عيني نفسه حين رأى رضى الرئيس عنه فكان يضطرب لدى نظراته اضطراباً ممزوجاً بالكبرياء .

وكان هذا الغلام في الثامنة عشرة من عمره ولكنه كان غض الشباب متوقد الذكاء يجول ماء النشاط بين عينيه فيحسب الناظر اليه أنه لم يبلغ هـذا السن لغضاضة شبابه

وقد كان أبوه سكيراً مقامراً وأمه سارقة شريرة فنشأ فاسد التربية لا يعرف غير اللصوص ولا يخالط غير الأشرار ولكنه كان على فساد سيرته كريم الأخلاق ، فكان يسرق بيد ويتصدق بيد على المساكين لو لم يدركه روكامبول لكانت تغلبت العشرة الفاسدة على تلك الأخلاق الكريمة وقضي عليه أن يكون من اللصوص .

غير ان روكامبول أدرك تلك العاطفة الكريمة فيه فمال اليه ورجا إصلاحه وصرفه إلى الخير وسمع مرميس بعجائب روكامبول ورأى بعض أعمـــاله المدهشة ففتن به ومال اليه كل الميل .

هذه هي حالة مرميس الذي قدر له أن يلقى خير مرشد يصرفه عن الشر قبل استحكام ملكته من قلبه الطري الصغير ، فلما رآه روكامبول واضعـــاً

رجله فوق صدر الهندي الذي قتله ، ابتسم له ابتسام الرضى وحسب ان ميلون قد جاء بجميع العصابة لنجدته غير ان مرميس كان وحده وهذا بيان ما جرى .

عندما أمر روكامبول ميلون ان ينتظره بالعصابة قرب سانت بول لم يكن عالماً ان قبيلة النور غيرت مكانها فكان يحسب ان زواجه بجبسي سيتم في ذلك المكان .

ولم يعرف هذا التغيير إلا حين وصوله مع جيبسي الى منزلها في ويت شابل ورأى النوري ينتظرها فيه لارشادهما الى المكان الذي انتقلت اليه القبيلة فلم يكن لديه فرصة للذهاب الى ميلون واخباره بهذا التغيير .

أما ميلون فقد كان شديد الخضوع لروكامبول فسار بالعصابة كما امره الى سانت بول وكان كل واحد من رجالها مسلحاً بمسدس وخنجر وفي عنقه ذلك الطوق من جلد التمساح الذي اخترعه روكامبول للوقاية من الخناقين .

فلما وصلوا الى المكان المعين قال لهم ميلون : أتعلمون ايها الرفاق لماذا اجتمعنا هنا ؟

قال شانوان : أظن ان الرئيس اراد أن نحضر زواجه .

وكان جميع رجال العصابة يخضعون لروكامبول وينفذون اوامره دون ان يسألوه عن قصده او يدركوا المراد منها ما خلا مرميس فأنه كان يعمل الرؤية ويدقق في كل امر ، فقال لميلون : أين يعقد هذا الزواج ؟

– في قبيلة النور .

– ولكني لا أجد اثراً للقبيلة .

– لا بأس فان الرئيس امرنا ان نحضر الى هذا المكان .

فحاول مرميس ان يعترض ولكن مورت انتهره وقال : هذا أمر الرئيس لا سبيل الى الجدال فيه .

غير ان مرميس لم تقنعه هذه الاقوال ، وقال : ستعلمون اني غير مخطيء

فما دامت القبيلة قد رحلت فلا فائدة من وجودنا هنا لان الزواج سيعقد في غير هذا المكان .

فغضب ميلون مما رآه من إلحاحه وقال له اذا أبيت البقاء معنا فاذهب إلى حيث تشاء .

وكان مرميس ينتظر أن يسمع مثل هذا الكلام فقال سوف ترون ان الرئيس يستصوب ما قلته ثم تركهم وانصرف .

ولم يكن مرميس يعرف اللغة الانكليزية ، وفوق ذلك فقد لاحظ ان الانكليز لا يكرمون الفرنسيين في بلادهم فقال في نفسه : اني أجهل لغة القوم ولا أعرف من اللغات غير الفرنسية ، اذا تكلمت بها هزأوا بي وربما اساؤا إلي فخير لي إذن ان ادعى الخرس : فان الأخرس لا يحاسبونه عن موطنه إذ لا يعرفونه ولا يحتقرونه للغته إذ لا لغة له ، فلما وصل الى شوارع لندرا صار يتكلم بالاشارة .

ذهب في البدء إلىمنزل جيبسي فوجد انها قد برحته فسار الى خمارة قريبة فطلب كأس شراب بالاشارة ورأى فيها كثيراً من النـاس وسمع اسم جيبسي تتداوله الألسنة فاصغى الى الحديث .

وكان بين الذين رآهم اثنان من الهنود سمعهما يذكران أيضاً اسم جيبسي وبعد ربع ساعة خرج الهنديان من الخمارة .

فاقتفى مرميس اثرهما حتى اذا وصلا الىمنعطف الشارع انضم اليهما هندي لم يلبث مرميس ان رآه حتى ارتجف إذ عرف انه اوسمانا فقال في نفسه لقد بلغت المراد واني لا افارق هذا الانسان .

ثم انفصل أحد الثلاثة عن رفيقيه فتبعهما مرميس الى ابواب لندرة ، ثم سارا في تلك الخلاء وهما يتحدثان بلغـــة لا يفهمها ويشيران الى نار القبيلة فأدرك قصدهما .

وكان يتبعهما على مسافة بعيدة حتى رآهما اختبآ بالأدغال فاختبأ مثلهما

وبقي كامناً الى ان رأى الهندي يختطف جيبسي ويعدو بها ، فاطلق عليه مسدسه وقتله كما تقدم .

أما روكامبول فإنه انحنى على الصبية وجعل يفحصها بقلق شديد ، وهو يخشى أن يكون قد أصابها رصاص المسدس . ولما علم انها مغمي عليها إطمأن وقال لمرميس : لقد أحسنت . وأنت وحدك الذكي الفؤاد بين أفراد العصابة .

أما روكامبول فكان يحمل دائماً قنينة صغيرة من الخل في عنقه ، فعالج بها جيبسي حتى استفاقت وحكى لها ما حدث فأعجبت به إعجاباً شديداً وباتت ثقتها به لا حد لها لا سيما بعد ان علمت منه انه لا يعتبر هذا الزواج الذي عقد وانه إنما فعله بالظاهر لمقاومة الخناقين .

ثم ساروا جميعهم حتى وصلوا الى منزل جيبسي. وكان مرميس قد حكى لروكامبول جميع ما اتفق له مع العصابة فقال له روكامبول : لقد عينتك رئيساً عليها بدلاً من ميلون فاذهب اليهم وعد بهم فقفوا في الشوارع المحيطة بمنزل جيبسي وكونوا متأهبين لكل طارىء .

– وأنت ايها الرئيس ؟

– إذا احتجت الي تجدني دائماً على السلم قرب باب غرفة جيبسي .

فامتثل مرميس وذهب معجباً بسيادته الجديدة الى سانت بول حيث كانت العصابة .

أما روكامبول فانه دخل مع جيبسي الى منزلها وقال لها : ادخلي الى غرفتك ونامي مطمئنة انا أنا فسأحرسك وأنام خارج الباب .

فدخلت الفتاة وتظاهرت انها تحاول الرقاد ، فأطفأت المصباح وصعدت الى سريرها ثم قالت : يجب ان أذهب الى السير أرثر نويل ، فقد وعدته بالذهاب اليه .

وبعد ان اقامت في سريرها نحو ساعة ووثقت ان روكامبول نائم نهضت

وتنكرت بملابس البحارة حسب عادتها في كل ليلة وخرجت من النافذة الى السطح رنزلت منه الى الشارع

٤٤

وكانت تسير هنيهة ثم تقف موقف المتردد الوجل ، كأن قلبها يحدثها بنكبة ، وكانت تارة تذكر السير أرثر فتثور عوامل غرامها وتندفع في سيرها غير خائفة ، وتارة ينكمش قلبها لمخالفتها روكامبول ، فتقف حتى خطر لها لفرط ثقتها بروكامبول ان تعود اليه وتلتمس منه أن يوصلها الى منزل حبيبها

لكنها لم تجسر على شيء من هذا .

إلى أن تغلبت عليها عواطف الغرام فاندفعت في سيرها غير مكترثة بشيء ، وغير مبالية بخطر .

وبينا هي تسير مرت بخمارة على الطريق فحانت منها التفاتة فرأت غلاماً جالساً على طاولة وأمامه قدح من الخمرة فارتعشت وعلمت أن هذا الغلام مرميس الذي أنقذها من الهندي وقد كان مقيماً في الخمارة خلافاً لما أمر به روكامبول من التفتيش على العصابة .

ولما رأته جيبسي خافت خوفاً شديداً أن يعرفها فمرت بسرعة البرق حتى إذا وصلت الى الخارج سارت بطريق التايمز واجتازت جسر واترلو فجعلت تتلفت يمنة ويسرة كالغزال الشارد من الصياد .

ولكنها لم تر أحداً يقتفيها ولم تفطن لامرأة كانت تتقدمها وهي بملابس الارلنديين ، لاعتقادها انها إذا كانت جاسوساً حقيقة لا تتقدمها بل تسير في أثرها .

وما زالت تسير والمرأة تتقدمها كأنها يسيران إلى شارع واحد حتى انتهت إلى الشارع الذي يقيم فيه السير أرثر .

وكان هذا الشارع مقفراً لندور مرور المتسولين فيه وفيما هي تسير رأت ان الارلندية قد وقفت أمام منزل وجعلت تنظر إلى كتابة منقوشة عليه كأنها تريد أن تقرأها فواصلت النورية سيرها حتى وصلت اليها .

وعند ذلك دنت منها الارلندية ومدت اليها يد تظلب احسانها وبينما كانت تفتش في جيبها على قطعت نقود هجمت عليها الارلندية فألقتها على الأرض بسرعة ، ثم ضغطت باحدى يديها على عنقها كي تمنعها عن الاستغاثة وأدخلت اصبعيها في فمها وصفرت ، ففتح للحال باب المنزل وخرج منه رجلان شديدان فانقضا عليها وهما يقولان : لقد ظفرنا بها أخيراً .

ثم وضعا كامة في فمها وأوثقا يديها ورجليها وحملاها فسارا بها إلى ناحية جسر لندرا .

* * *

ولا بد لنا من إيضاح السبب في اختطاف جيبسي أن نعود بضع ساعات إلى ما حدث قبل هذا الاختطاف ، أي بعد أن ذهبت مس سيسيليا من منزل السير جورج ستوي فإن السير نيفلي دخل اليه بعد ذهابها فأقفل باب الغرفة ووقف أمام رئيسه السير ستوي .

وكان السير جورج رئيس الخناقين في لندرا يحكم حكماً مطلقاً على جميع أعضاء تلك الجمعية الهائلة ، ولا يتلقى الأوامر إلا من الرئيس العام المقيم في غابات الهند .

وكان السير نيفلي مساعده ويده اليمنى في تنفيذ أغراضه ، ولما رآه السير جورج واقفاً بحضرته قال له تكلم

فقال له السير نيفلي : لقد قلت لك أيها النور منذ بضع ساعـــات اني

أرسلت من يقتفي أثر السير أرثر نويـــل فعلمت انه يقيم في شارع سوتوراث متنكراً باسم وليم .

– لماذا تنكر بهذا الاسم ؟

– كي يستقبل فتاة تزوره كل ليلة منذ عامين .

– ومن هي هذه الفتاة ؟

– هي جيبسي .

فذعر السير جورج وقال : هذا محال ، لقد راقبت جيبسي في الليـــل والنهار ، وخنق اعواني جميع من تعرض للزواج بها وسيخنقون أيضاً في هذه الليلة ذلك الفرنسي الجريء الذي تجاسر على الزواج بها .

غير ان السير نيفلي كان متسلحاً بالبراهين فأوضح لرئيسه كيف أن الفتاة تخرج من نافذة غرفتها متنكرة بملابس الغلمان ، وكيف ان رجلين كانا كامنين أمام منزل السير أرثير رأياها تدخل اليه من النافذة .

فغضب السير ستوي غضباً شديداً وقال : إحذر أن تكون كاذبـاً فيما تقول .

– اني لا أكذب أيها النور ولاسيما عليك .

– إذن أنها عاشقة ؟

– نعم وهي تزور عشيقها كل ليلة فبماذا تأمر أيها النور ؟

– بقتل العاشقين ، فإن كل فتاة تضحى للالهة يجب أن تبقى بتولاً عذراء مدى الحياة ، فإذا مست شفتاها شفتي رجل وجب أن تموت .

– أعرف ذلك ياحضرة النور ، ولكن كيف تريد أن يكون موتها أبالخنق حسب العادة ؟

– كلا بل أريد أن تموت على المحرقة .

– أي يوم تعينه للتنفيذ ؟

- يوم غد .

- سيكون كما تريد ثم ماذا نفعل بعاشقها السير ارثر ؟
- لا يجب ان يخنق ، بل يجب أن يحرق معها على محرقة واحدة .
- ومتى أراك أيها النور ؟
- متى وقع الاثنان في قبضتك .
- والفرنسي ماذا تريد أن نصنع به ؟

فقطب السير ستوي حاجبيه وقال : لقد أرسلت اوسماناً لخنقه فإذا لم يفلح بمهمته فلا يجب الاهتمام به .

- لماذا ؟

- لأني أنا أتعهد بامره والآن إذهب في شأنك واعلم انه غداً يجب إحراق جيبسي وارثير على محرقة واحدة .

فانحنى نيفلي ممتثلاً وذهب . أما السير جورج ستوي فإنه دخل إلى غرفته المقدسة كي يستشير روح أبيه .

ولنعد إلى جيبسي فإنها حين قبض عليها الرجلان وقيداهـا حملها أحدهما على كتفيه وسار بها يتبعه رفيقه والارلندية حتى بلغا جسر لندرا .

وكان هناك مركبة كانت تنتظرهم دون شك بدليل عدم اكتراث السائق لما رآه ، فوضعا جيبسي في المركبة وتكلما بلغة غير مفهومة ، وسار أحـد الرجلين والمرأة عائدين ، ودخل الرجل الآخر إلى المركبة فقال للسائق باللغة الانكليزية : سر بي إلى هامبستد فانطلق السائق بسرعة ممتثلاً للأمر .

وعند ذلك فك الرجل الكمامة عن فم النورية كي تتمكن من التنفس وقال لها : إذا فهت بكلمة ، أو خطر لك أن تهربي ، أو تستغيثي قتلتك في الحال دون إشفاق .

ولم يكن الفرار قد خطر في بال هذه المسكينة لشدة ما تولاها من الرعب فسكتت ولم تجب بحرف .

وبعد نصف ساعة وصلت المركبة إلى تلك القرية التي سارت اليها ووقفت عند باب منزل تحيط به حديقة عالية الأشجار .

وكان هذا المنزل داعياً إلى بحث كثير من أهل الفضول فإنه بني حديثاً في تلك القرية بشكل غريب ، وقد ارتفعت أسوار حديقته حتى ان الناظرين لا يستطيعون أن يروا شيئاً من داخله .

لذلك اختلفت الأقاويل فذهب بعضهم إلى انه سكنه أحد الهنود الهاربين من شمسها المحرقة . وقال آخرون انه منزل قائد خدم في الهند لأن بناءه كان على الطريقة الهندية ، فكانوا يلقبونه بالمنزل الأحمر إشارة إلى لون جدرانـــه

ولكنهم لم يروا مرة ذلك الرجل السري الذي يقيم فيه .

غير أنهم كانوا يرون بعض الأحيان أنواراً تنعكس أشعتها من نوافذ المنزل إلى الأشجار الباسقة التي كانت اكثر ارتفاعاً من الأسوار ، وكانوا يرون أيضاً، وذلك في القليل النادر ، مركبة مقفلة تدخل اليه وتخرج دون ان يروا من فيها فيقفل الباب حالاً عند دخولها أو خروجها .

الا ان أحد القرويين في تلك القرية ، أوعز أنه سمع مرة من ذلك المنزل الأحمر أصوات آلات موسيقية غريبة تعزف الحاناً غير مألوفة وأصوات غناء بلغة غير مفهومة ، ثم صوت إمرأة تستغيث وتصيح صيحات اليأس ، وأتم روايته بقوله انه رأى بعد هذا الصراخ لهباً عظيماً عقد عموداً كثيفاً من الدخان .

فانتشرت هذه الرواية بين أهل القرية وأصبحوا يخشون هذا المنزل ويبتعدون عنه ، ويدعونه بالمنزل الشرير .

فلما وصلت المركبة إلى بابه وقفت ونزل السائق فأمره الرجل الذي كان في المركبة أن يقرع الباب ففعل وللحال سمع صوتاً من الداخل يقول : من الطارق ؟

فقال له الرجل من المركبة : أنا رسول النور .

وقد قال هذا القول وهو واضع خنجره فوق صدر جيبسي ينذرها به حذر صياحها ، ففتح الباب وأسرع الرجل فأخذ جيبسي وهي تكاد يضيع رشادها لما أصابها من الرعب ودخل بها فأقفل الباب أثر دخولهما وذهب السائق في شأنه دون أن يطالب بأجرة مما يدل على أنه من اتباع العصابة .

ونظرت جيبسي نظرة رعب إلى ما حولها فرأت حديقة متسعة باسقة الأشجار عالية الجدران ، ثم نظرت إلى الذي فتح لهم الباب فرأت أمامها امرأة بارعة الجمال محلاة بالذهب فعرفت من لونها انها من الهنود .

اما تلك المرأة فإنها نظرت إلى الفتاة نظرة الفاحص ثم نظرت إلى الرجل

وقالت له بالانكليزية : ما هـذا الفتى ؟

– انها ليست فتى بل هي من الفتيان .

ثم نزع قبعتها فانحل شعرها وسقط على كتفيها .

فقالت المرأة : ماذا تدعى؟

– جيبسي

– وماذا يريد قدس النور ؟

– يريدون أن تلتمس هذه الفتاة الغفران عند هيكل الآ لهة كالي .

فلم تفهم جيبسي المراد من هذا القول ولكنها نظرت إلى المرأة فرأتهـــا تبتسم ابتساماً هائلاً فارتعشت وأيقنت انها مقدمة على خطر عظيم .

وأخذت تلك المرأة الفتاة بيدها وقالت لها : تعالي معي .

فامتثلت وهي لا تعلم مرادها ، لكنها على عرفانها بأنها معرضة لخطر مجهول اطمأنت حين رأت المرأة تكلمها بصوت رخيم بدلاً ذلك الرجل العاتي الذي كان يتهددها بالخنجر .

وكانت جيبسي قد نشأت بين النور فتعلمت منهم مبدأ الاتكال على الأقدار فكانت تقول في نفسها : انا الملومة ، فلو لم اخدع روكامبول واخرج من غرفتي دون ان اخبره لما اصبت بما اصابني الآن .

ثم اطرقت برأسها إلى الأرض واستسلمت للقضاء وسارت مع تلك المرأة إلى حيث كانت تقودها .

فاجتازت بها الحديقة وادخلتها إلى قاعة مفروشة حسب اصطلاح الانكليز فاطمأنت الفتاة بعض الاطمئنان لهذا المنظر .

ثم رأت تلك المرأة الهندية قد وضعت المصباح على طاولة ودنت من الفتاة فسألتها عن اسمها وعن الساعة التي قبضوا عليها فيها ثم سألتها إذا كانت جائعة فزاد اطمئنان الفتاة وابت ان تأكل .

فقالت لها الهندية . خير لك ان تأكلي فانك متى دخلت إلى الهيكل لا تستطيعين ان تأكلي وتشربي .

وأبت الفتاة ان تأكل أيضاً وعند ذلك سارت بها الهندية في دهليز طويل حتى إذا انتهت الى باب ففتحته ودخلت بجيبسي ، ثم أغلقت الباب فلم تستطع الفتاة ان ترى شيئاً لشدة الظلام .

ولكنها علمت بمد هنيهة انها وحدها فوجف قلبها ولبثت في مكانها لاتجسر

على التقدم او الرجوع فركمت وذكرت اسم شخص استغاثت به ، ولكن هذا الشخص لم يكن السير ارثير ، بل روكامبول ، فلم يجبها احــــد وأين لروكامبول ان يلبيها في هذا المكان .

ثم ظهرشعاع شق حجاب الظلام وقد بدأ الشعاع بلون مصفر يكبر ويتسع حتى اصبح شبيهاً بالشمس ، فرأت جيبسي أنها في محل متسع وان هذا النور ظهر من السقف ، فجعلت تنظر الى ما حواليها فرأت الجدران العالية رسمت عليها رسوم ما رأت اغرب منها ، ثم رأت تمثالاً هائلا من البرونز ، وعنـد ذلك بزغت انوار كثيرة من ثقوب في السقف كانت تشبه النجوم حول تلك الشمس فانجلى التمثال لجيبسي وعلمت انه تمثال الالهـة كالي التي يعبدهــــا الخناقون وانها مسجونة في معبد الهنود .

ثم سمعت صوت باب قد انفتح فالتفتت فرأت اربع نساء لابسات ملابس بيضاء دخلن من ذلك الباب ومشين ببطء الى جيبسي حتى اذا وصلن اليهـــا وضعت احداهن يدها على كتفها وقالت لها : انك سعيدة فإن روحك سترف على قدمي الالهة كالي .

فطاش رأس الصبية وشعرت انها لم يعد لها خطوة بينها وبين الموت .

وكانت جيبسي قد علمت بما أعد لها من العقاب لاسيا حين قالت لها إحدى تلك النساء : انك لا شك من أسعد النساء لأنك ستصعدين إلى عرش الالهة كالي حيث ترين مجدها وجلالها ولكن يجب ان تستعدي .

وقد أشارت إشارة حين قالت هذا القول فأسرع النساء الثلاث اليهــــا وجعلن ينزعن ملابسها فلم تعترض بشيء لأنها كانت شبيهة بالأموات لما أصابها من الرعب ، فلم تجد قوة للدفاع ولكنها كانت تردد من حين إلى آخر اسم روكامبول .

فلما تم تجريدها من ملابسها تقدمت رئيسة النساء إلى العرش ، وكان يوجد على قاعدته ، وهي من المرمر ، مصباح فأضاءته ثم عادت إلى جيبسي فجاءت

بها إلى ذلك العرش وأكرهتها على الركوع وهي عارية .

فأخذ النساء عند ذلك ينشدن الأغاني الغريبة ويرقصن حولها وهي حائرة ولهانة لا تفهم شيئاً مما يجري حولها .

ودام الرقص والغناء ساعة فلما فرغن فتحت الرئيسة خزانة فأخرجت منها ثوباً كبيراً لا أكام له ، وهو من الحرير الأصفر عليه نحو الف رسم من رسوم عباد وشنو ، وفي صدر الثوب رسم الفيل الأبيض المعظم الذي يعبده بعض الهنود فأكرهوها على لبس هذا الثوب .

ولما لبسته قالت لها إحدى النساء تأهبي للصوم والصلاة والظهور أمام الالهة كالي فان روحك ستفارق جسمك مساء غد حين تظهر النجوم في قبة السماء فتسافر تلك الروح سفرها الطويل .

فردد النساء بعدها : صومي أيتها الفتاة واستعدي .

ثم أشارت الرئيسة إشارة للنساء فخرجن جميعهن ولبثت جيبسي جالسة على قاعدة التمثال تشيع النساء بنظرات تائهة تشبه نظرات الجانين إلى ان خرجن وأقفل باب المعبد .

وكانت الأنوار لا تزال منبعثة من ثقوب القبة ، ثم جعلت تضعف وتنطفىء الواحد بعد الآخر حتى لم يبق غير ذلك التمثال الموضوع على المثال .

أما جيبسي فكانت تنظر نظر الذعر إلى مثال تلك الآلهة فلما رأت ان الأنوار قد انطفأت ، ولم يبق غير التمثال انجذبت اليه بقوة عظيمة فدنت منه فجعلت تنظر رسومه الغريبة فرأت على ساقه الأيسر رسم فتاة ترقص وتحيط بها عائلتها بين الاشجار ، والعبيد السود يعزفون حولها بالات الطرب وبعضهم يقرعون الطبول ، وتحت أقدامهم زهور متناثرة تشبه الزهور التي كانت متناثرة أيضاً تحت قدميها فخيل لجيبسي ان هذه الفتاة تشبهها .

ثم نظرت ساق المثال الأيمن فرأت تلك الفتاة نفسها ولكن على غير ما رأتها مرسومة في الساق الآخر فإنها كانت موثوقة اليدين والقدمين محمولة على

جواد وهي مرعوبة منذعرة والفارس ينظر اليها ويضحك ضحك الساخر المنتقم بما يدل على انه قد اختطفها من عائلتها .

ووراء هذا الفارس فرسان آخرون مسلحون بالسهام وبأيديهم تلك الحبال الهائلة التي يستخدمها الخناقون .

وكان الرسم ممثلاً أبدع تمثيل وكانت جيبسي تتمثل لها تلك الفتاة حتى انها أوشكت ان تسمع صوت استغاثتها .

ثم نظرت إلى ذراع التمثال الأيسر وعليه بقية حكاية الفتاة ، فرأت رسماً غريباً يدل على ان حكاية جيبسي نفسها رسمت على هذا المثال ، فإنها رأت الفتاة واقفة بين أربع نساء وهن يخلعن ثيابها عنها ويلبسنها ثوباً كالثوب الذي البسنه لجيبسي .

فوجف قلبها وانصب العرق البارد من جبينها ونظرت الى الذراع الأيمن كي تعلم بقية الحكاية فرأت الفتاة مقيدة ورأت رجالاً يدخلون اليها وهم يحملون على اكتافهم حطباً وآلات الوقود .

فصاحت صيحة منكرة كأنها أدركت مصيرها وأرادت ان تصرف نظرها عن التمثال لهول ما رأت ولكنها لم تستطع بل ارادت أن تعرف تتمة حكاية الفتاة فنظرت إلى صدر التمثال فرأت الفتاة منطرحة فوق محرقة ، وحول المحرقة أولئك النساء اللواتي البسنها الثوب بلا قميص ، وقد تصاعد اللهب وعلق بأطراف الصبية وقد حضر هذا المشهد كثير من الناس .

فلما رأت جيبسي ما رأته أيقنت انها ستموت محروقة كما ماتت تلك الفتاة فنزلت عن التمثال وملأ الذعر قلبها وخطر لها الانتحار فراراً من مثل هذا الموقف الرهيب .

وفيما هي تنظر إلى ما حواليها سمعت صوت باب المعبد قد فتح فالتفتت وصاحت صيحة دهش ، ذلك أنها رأت رجلين هنديين يدفعان إلى داخل المعبد ثالثاً كان يحاول مقاومتهما دون فائدة .

أما سبب صياحها فهو أنها عرفت هذا الرجل الثالث وهو عشيقها السير أرثر نويل .

- ٤٧ -

ولنعد بالقراء ساعة كي يعلموا ما مضى وجرى للسير ارثر وكيف وصل إلى هذا المعبد ، فقد تقدم لنا القول ان هذا النبيل الانكليزي بينما كان ينتظر عشيقته جيبسي في منزله ، وقد اطفأ المصباح حين سمع قرع النافذة وفتحها دخل عليه رجلان فأوثقا يديه ورجليه ووضعا كامة على فمه بحيث لم يعد يستطع الدفاع والاستغاثة .

وقد جري ذلك بسرعة غريبة ودون حركة حتى أن الخادمة العجوز لبثت تغط في نومها دون ان تسمع حساً .

وقد غطى أحد الرجلان وجه السير أرثر كي لا يرى إلى أين يذهبان به ، ثم حملاه وخرجا به من منزله فوضعاه في مركبة مقفلة وأمرا السائق أن يسير مسرعاً .

فسارت بهم المركبة نحو ساعة حتى وقفت، ففك الرجلان قيد رجلي السير ارثر وأخرجاه من المركبة ثم امراه أن يمشي او يقتل فامتثل ومضى معهما عدة خطوات على رمل ، وهو لا يرى شيئاً من العصابة التي كانت على عينيه ثم قال له أحدهما لقد وصلنا الى سلم فاصعد

فامتثل وصعد عدة درجات ومشى بعد ذلك في دهليز طويل انتهى بعده إلى غرفة مفروشة خير فرش .

فأمره أحدهما أن يجلس على كرسي فامتثل وعند ذلك نزعت العصابة عن عينيه ، والتفت منذعراً فلم ير الرجلين ورأى انه مقيم وحده في هذه

الغرفـة .

فحار في أمره وأخذ يفحص فرش الغرفة ، فرآه انكليزياً وكانت يداه لا تزالان موثوقتين فدنا من الباب ونظر فيه فرآه محكم الاقفال ثم رأى نافـذة عليها ستار فدنا منها وأزاح الستار بكتفه فرآها مقفلة فوقف وقفـة الحائر المبهوت لا يعلم أين هو وما يريدون من أسره .

ولكنه ما لبث على هذه الحال بضع دقائق حتى فتح الباب ودخل منه رجلان أحدهما بملابس الانكليز والآخر بملابس الهنود فلمـا وصلا إلى السير ارثر امر الانكليزي الهندي باشارة ان يخرج فانحنى بملء الاحترام وامتثل .

وكان على وجه الرجل قناع فقدم كرسياً للسير ارثر باسمه فانذهل السير ارثر حين سمع هذا الرجل المقنع يناديه باسمه .

فقال له : ماذا تريدون مني وبأي حق دخلـتم الي ، ولماذا جئتم بي إلى هنا ؟

فقال له المقنع : اصغ الي ، انك تدعى السير أرثر نويل وأنت ابن خال مس سيسيليا وقد كنت مقيماً في المنزل الذي اختطفناك منـه متنكراً باسم ويليم كي تستقبل فتاة تزورك فيه .

فانتفض السير ارثر وقال له بجفاء : ماذا يعنيك هذا الأمر ؟

– انك مخطىء كل الخطأ الم تقل لك الفتاة التي كانت تزورك انها معرضة في حبك لخطر شديد ؟

فظهر السير أرثر ما كانت تظهره جيبسي من الرعب وقال : نعم .

فقال الرجل المقنع : أتعلم من هي هذه المرأة ؟

– .. كلا !

– ولكنك كنت تحبها .

– حباً لا يوصف أضحي من أجله حياتي .

– إذن أنت لا تخشى الموت ، فإن هذه الفتاة التي كانت تهواك لم تكن

تخاطر بحياتها فقط ، بل بحياتك أيضاً ، ولكن هل علمت إسم هذه الفتـاة الحقيقي ؟

— كلا . .

— أعلمت مهنتها ؟

— كلا ، أكان لها مهنة ؟

فضحك الرجل المقنع ضحكاً عالياً وقال : انك أنت النبيل وابن خـال مس سيسيليا تحب منذ عامين راقصة من الراقصـات في الطرق وفتـاة من فتيات وينغ تدعى جيبسي النورية .

فصاح السير أرثر صيحة منكرة وهاجت به عواطف الكبرياء ، وصبغ وجهه بحمرة الخجل ، فلو لم تكن يديه موثقتـين لغطى بهما وجهه إخفـاء لذلك الخجل .

ومن يعلم ما فطر عليه نبلاء الانكليز من حب الذات والمحافظـة على التقاليد واحتقارهم للنور يتمثل تلك العواطف الهائلة التي ثارت في نفس السير ارثر حين علم بأنه كان يهوى راقصة نورية في أقذر محلات لندرا .

فقال له المقنع : ألم تر على صدر تلك الفتاة رسوماً عجيبة ؟ فأعلم ان هذه الرسوم هندية ، وإذا كنت تريد ان تعلم السبب الذي وجدت من اجله في هذا المكان فاصغ الي .

— قل فإلي مصغ اليك .

— إن هذه الفتاة ولدت في الهند وكرست للالهة كالي .

وماذا يهمني جميع ذلك ؟

— اصغي الي . فإن كل فتاة تضحى للالهة كالي ، يقضى عليها أن تموت بتولاً .

— فابتسم السير ارثر وقال : ان الآلهة كالي قد خدعت هذه المرة .

— نعم ، لكنها ستنتقم عن هذا الخداع بالموت .

– ماذا تريد أن تقول ؟
– إن جيبسي حكم عليها بالموت .
– ومن حكم عليها ؟
– نحن ..
– ومن أنت ؟
– أنا في لندرا من أعيانها وكبرائها ، أما في الهند فإني رئيس جمعية الخناقين أعرفت الآن من أنا ؟

فارتعش السير أرثر ، أما المقنع فعاد إلى حديثه وقال إن ما تأمر به الآلهة كالي يجب على خدامها الأمناء تنفيذه ، ولهذا فان جيبسي ستحرق وهي في قيد الحياة وسيكون لرفيقها بالجريمة أي أنت نفس العقاب .

فذعر السير أرثر ذعراً شديداً وولد له الرعب قوة شديدة تمكن بها من قطع قيود يديه ، لكن الرجل المقنع صفر بصفارة كانت معه ففتح البـاب في الحال ودخل منه عشرة رجال أشداء من الهنود فـاحاطوا به ومنعوه عن كل دفاع .

ولما رأى السير أرثر موقفه وعلم ما يتهدده صاح بهم يقول :
– أيها الأشقياء انكم تستطيعون أن تحرقوا راقصة نورية لا تهتم الحكومة بالبحث عنها ، أما أنا فاني من اشراف الأسرات النبيلة في بلاد الانكليز .

وقال لهم المقنع انه ابن خال مس سيسيليا .

ثم أزاح القناع عن وجهه فانتفض السير أرثر وقـال : من أرى أانت السير جورج ؟
– نعم أنا هو السير جورج الذي سيتزوج مس سيسيليا ولا بد له من ابعاد السير أرثر إلى الأبد .

ثم التفت إلى الهنود وقال لهم : كبلوه الآن وادخلوا به إلى حيث تقيم جيبسي النورية كي يتأهب وإياهـا للموت فانهما يعيشان أربعة وعشرين

ساعة بعد .

هذا هو السبب في قدوم السير أرثر إلى المعبد الذي سجنت فيه جيبسي فلما رأته تلك الفتاة صاحت صيحة فرح ونسيت موقفهـا الهائل وحسبت انها في الفردوس .

الا انها رأت ما لم تكن تتوقعه مما يدل على الضعف الانساني فان السير ارثر خاف من الموت ويأس يأساً لا يوصف حين علم انه سيحرق حياً مع خليلة من النور ، وقد أيقن مما رآه بين عيني السير جورج ان الحكم عليه بالموت لا بد من انفاذه ، وانه لا يشفق عليه ، فأوشك أن يجن من يأسه لأنه لا يريـد أن يموت هذه الميتة الشنعاء ، ولما رأى جيبسي قادمة اليه صاح بهـا يقول بملء الغضب : إلى الوراء أيتها النورية الشقية إرجعي فانك علة شقائي ، وأنت السبب في ما سألاقيه من الموت الذريع .

وسقطت جيبسي على ركبتيها وقد هالها هذا الانقلاب حتى لم تعد تعـلم ما تقول .

وكان الجنود قد خرجوا من المعبد بحيث لم يبق فيه سوى العاشقين وجعل أرثر يشتم جيبسي أقبح شتم حتى جمد الدم في عروقها فنظرت إلى ذلك الذي طالما أحبته نظرة احتقار وقالت : أنه نذل جبان فـأهلاً بالموت الآن لأني لم أعد أخشاه .

وكانت جيبسي مطلقة اليدين والرجلين خلافاً للسير أرثر فإنه كان مقيداً . ولكل إنسان ساعة بسالة وساعة خوف ، وقد حلت ساعة الخوف لدى هذا الرجل . فإنه رهب الموت رهبة شديدة أزالت من قلبـــه كل حب لتلك الفتاة البائسة .

وقد القى بنفسه الى الأرض وعاد الى شتم تلك المسكينة التي طالما أحبها وأراد ان يضحي حياته في سبيلها ثم مل هـذا الشتم وانقلب على ظهره ، فجعل ينظر الى القبة والتمثال وما يحيط به في هذا المعبد الى ان استوقفت نظره فرأى ان التمثال الهائل يكاد يصل اليها بحيث لو وقف شخص على قمته يبلغ الى سقفها .

وقد رأى في تلك القبة فوق رأس التمثال نافذة من الزجاج ينفذ النور منها الى المعبد فاتقدت عيناه بأشعة الأمـل وخطر له خاطر الفرار من تلك النافذة وذلك انه يتسلق التمثال حتى يبلغ قمته فيكسر الزجاج ويخرج منها الى الـ طح .

غير انه لا يقدر ان يتسلق التمثال وهو موثق اليدين والرجلين ومن يفك له وثاقه غير جيبسي .

ولكن هذا الرجل الذي خاف من الموت حتى انه أهان فتاة خاطرت في سبيل حبها إياه بالحياة خطر له ان يلتجيء اليها

وكانت الفتاة منطرحة على أقدام التمثال وهي شبيهة بالأموات لما لقيته من قسوة حبيبها ودناءته حتى انها خجلت لحبها هذا الانسان بمقدار خجلها حين قيل لها من قبل انها من النور .

أما السير أرثر فانه لم يكن يخطر في باله غير الفرار فـــالتفت إلى الفتاة وناداها باسمهـــا بصوت منخفض ، فلم تجب وأعاد النداء فارتعشت

ونظرت اليه نظراً باهتاً جامداً ، فقال لها : أأنت مصممة يا جيبسي على الموت ؟

فأشارت برأسها إشارة المصادقة ، وعادت إلى ما كانت عليه من ظواهر اليأس .

فقال لها : إننا نستطيع النجاة اذا أردت .

فلم يظهر على الصبية شيء من دلائل الاهتمام بهذه النجاة ، وقالت له : كيف تنجو ؟

— أنظري الى هذه القبة ألا تجدين فيها نافذة فوق التمثال ؟ فإذا فككت وثاقي فإننا نتسلق التمثال ونهرب من النافذة .

وكان هذا الرجل يكلمها بلهجة المتوسل المستعطف بعد ان كان يشتمها أقبح شتم .

فدنت منه جيبسي وقالت له : أدر كتفيك ، لأحل وثاق قدميك ووثاق يديك .

وكان السير أرثر نائماً على ظهره فانقلب على بطنه ، وبدأت الصبية تفك وثاقه عقدة عقدة ، حتى فكت وثاق يديه . ففك هو وثاق قدميه وصاح صيحة فرح .

أما جيبسي فإنها عادت الى النوم تحت قاعدة التمثال ، وقد عاد اليها يأسها . فلم ينتبه أرثر اليها وأسرع الى التمثال فتسلقه حتى بلغ قمته فوقف على رأسه ومد يده الى تلك النافذة فرأى أنها لا تفتح وهي من الزجاج الشفاف مشبكة بحيث لو كسر الزجاج لأمكن الانسان ان يهرب من خلاله دون ان يعيقه الحديد .

وكان السير أرثر يخشى إذا كسر الزجاج ان يصل صوت كسره الى الهنود ففطن إلى خاتم من الماس كان باصبعه فقص به الزجاج بهدوء وأخذ القطعة التي قصها ووضعها على رأس التمثال ، ونادى الفتاة بصوت ضعيف قائلاً :

تعالي واتبعيني .

غير انها لم تتحرك وبقيت في موضعها .

فقال لها : ما بالك تعالي ألا تريدين الفرار ؟

فهزت جيبسي رأسها دون ان تجيب .

وعند ذلك بلغ أرثر بنذالته الى أقصى حدودها ، فأمسك بالقضيب الحديدي وهرب من النافذة فتوارى عن الأبصار فأدارت الفتاة رأسها وقالت : اين أنت يا موت ومتى تأكلني النار ؟

أما السير أرثر فإنه صعد الى سطح المعبد ، وكان الفجر قد بدأ ينبثق ، فعلم أنه في قرية همستد . ورأى شجرة باسقة اتصلت أغصانها بالسطح فنزل عليها الى الحديقة ، ثم مشى الى سورها فتسلق شجرة حتى انتهى الى الجدار فألقى نفسه منه الى خارج ذلك المنزل الهائل وتنفس نسيم الحرية .

وكان في وسعه ان يسرع في الحال الى البوليس فيخبره بما حدث في ذلك البيت ولكنه إذا فعل ذلك أنقذ الفتاة من الحريق وإذا أنقذها فقد تقابله ويضطر إلى الخجل منها . فشعر عند ذلك انه من أدنى خلق الله ولكنه على هذا الشعور لم ينثن عن عزمه وانطلق مسرعاً في طريق لندرا ، مغادراً تلك التي طالما أحبها تحترق وهي في قيد الحيـاة ، بعد أن أنقذته من ذلك الموت الهائل المخيف .

- ٤٩ -

ولنعد الآن الى روكامبول والى مرميس الذي أرسله روكامبول لاحضـار ميلون والعصابة وقد كان مرميس شديد الذكاء كثير المطامع وأخص مطامعه أن تروق أعماله لروكامبول . ولما أمره روكامبول بالذهاب الى العصابة أسرع

لتنفيذ أمره فمر بالخمارة التي لقي فيها الهنديين منذ ساعتين ، وحانت منه التفاتة فرأى إمرأة ارلندية لم يكن رآها من قبل في المكان . فحدثه قلبه ان لهذه المرأة علاقة بأعداء جيبسي ، ودخل فجلس بالقرب من طاولتهـــا وطلب بالإشارة كأساً من الشراب .

وكان جالساً مع هذه المرأة رجـــل إنكليزي وهما يتحدثان . ولم يكن مرميس يعرف اللغة الانكليزية ، غير انه يوجد كثير من الفاظ تلك اللغـة تشبه الألفاظ الفرنسية ، فأصغى اليها وسمعها يذكران جيبسي وأرثر نويل وجسر واترلو ، فأيقن ان حديث قلبه كان صادقاً وعول على الصـبر الى النهاية .

وفيما هو على ذلك رأى جيبسي قد مرت قرب الخمارة فعرفها ، بالرغم من تنكرها . ثم رأى ان الارلندية قـد رأتها أيضاً وانها اضطربت اضطراباً شديـداً ، وأسرعـت الى الخروج من الخمـارة ، وهي تقول للرجـل : جسر واترلو .

فذهب في أثرها وذهب مرميس في أثرهما ، فرأى الرجل قد صعد الى مركبة كانت تنتظره هناك وجلس في مجلس السائق ، فعـلم انهم عزموا على اختطاف جيبسي وانهم عهدوا الى هذا السائق بانتظارهم في جسر واترلو لنقلها الى المكان الذي أعد لسجنها .

فحار في أمره وهو لا يدري أيقتفي أثر الارلندية أم أثر السائق ؟ ثم نظر فرأى الارلندية قد توارت عن أبصاره ورأى السائق دفع المركبة الى المسير ، فأسرع اليها وتعلق بين دواليبها وسارت تنهب الأرض حتى استقرت عند جسر واترلو .

ولم يمض على وقوفها نصف ساعة حتى رأى مرميس تلك الارلندية ومعها شخصان يحمل أحدهما جيبسي ، فوضع يده على مسدسه وحاول أن يهجم عليهم غير أنه لم ير من الحكمة مهاجمة أربعة وهو فرد ، فلبث مختبئاً بـــين

الدواليب وحاول الصبر الى النهاية وهو يقول في نفسه : إنهم لم يختطفوا الفتاة إلا كي يبحث عنها روكامبول ويسقط في الفخ الذي ينصبونه له ، فلأرى الى أين يذهبون بها .

وقد خدع مرميس بهذا الظن غير ان انخداعه أسفر عن نتيجة صالحة كما سنرى. فانه حين بلغت المركبة الى ذلك المنزل وفتح بابه أدخلوا جيبسي اليه وسمع صوتاً يقول للسائق : أرثر نوبل .

وكان مرميس قد سمع هذا الاسم بالخمارة . وهو لو كان يعلم أنهم سيحرقون الفتاة في ذلك المنزل لدخل اليه ودافع عنها بمسدسه غير انه كان يعلم مما سمعه في خمارة سانت جورج عن حكايات جيبسي ان هذه الفتاة لا يحق لها الزواج وإذا تزوجت قتلوا زوجها وأما هي فلا ينالونها بسوء .

وكان هذا كل ما يعلمه من حكايات الفتاة . ولما عادت المركبة بقي مختبئاً بين دواليبها حتى وصلت الى جسر واترلو فصعد اليها شخصان كان ينتظرانهما هناك وسمع للمرة الثالثة اسم أرثر نويل .

ثم سارت المركبة حتى اقتربت من منزل أرثر ، فخرج منها الرجلان وعادا بعد حين بالرجل مكبلا ، فوضعاه في المركبة وأمرا السائق ان يسير الى همستد ، فعلم مرميس انهما أسرا أرثر نويل وأنهما ذاهبان به الى حيث سجنت الفتاة . فلما وصلت المركبة الى جسر واترلو أفلت منها وهو يقول في نفسه لقد عرفت كل شيء ولم يبق علي إلا ان أخبر الرئيس ثم انطلق يعدو في شوارع لندرا الى ويت هايل .

وكان روكامبول لا يزال ملتفاً بردائه ، وهو جالس على باب غرفة جيبسي يحرسها ، ويحسب انها لا تزال فيها . وان العصابة تحرس البيت لأنه مضى ساعتان ولم يعد مرميس اليه ، فلم يعد لديه شك انه عاد بالعصابة وأقام معها .

وفيما هو جالس وقد خاض في بحار التأملات إذ رأى مرميس قادماً وعليه

دلائل الاهتمام فسأله : ماذا حدث ألم تجد العصابة ؟

-- إني لم أذهب اليها لأني اهتممت بما هو أهم منها فاني أعرف الى الآن اين ذهبوا بجيبسي لانك تحسب انها في الغرفة ولكنها ليست فيها .

فاضطرب روكامبول وقال : ويحك ماذا تقول وكيف تخرج جيبسي من هذه الغرفة وأنا أحرسها ؟

— لا أعلم ولكني على يقين مما نقلته اليك .

فذعر روكامبول ودفع الباب بيده ففتح ولم يجد الفتاة في سريرها ولكنه رأى نور القمر ينبعث من نافذتها فانتبه اليها وعلم انها خرجت منها فأسف أسفاً شديداً وقال : إنها تركن الي كل الركون فليأخذ الله بناصرها لاني غير مسؤول عن خطئها .

فقص عليه مرميس جميع ما اتفق له ، فافتكر روكامبول هنيهة وقال : إما ان يكون الوقت فسيحاً لدينا فنستطيع إنقاذها ، وإمـا ان يكون فات الأوان لأنهم لم يذهبوا بجيبسي وعشيقها السير أرثر الى ذلك المنزل إلا ليقتلوهما سوية ولكن للخناقين عادة ان يصوموا ضحاياهم أربعاً وعشرون ساعة قبل قتلهم وإذا كانت هذه العادة لا تزال متبعة عندهم الى الآن فلا بد لنا من إنقاذ الفتاة والآن هلم معي .

ثم ذهب روكامبول من ذلك المنزل يتبعه مرميس فسارا في الشارع حتى مرا بالخمارة المعهودة ، فهز مرميس ذراع روكامبول وقال له : هـذه هي الارلندية والسائق الجالسان على الطاولة الأولى ، وهما يتحدثان بما فعلاه دون شك .

فقال له روكامبول إذن لنجلس بجـانبهما لاني أعرف لغتهما ولا يفوتني حرف من حديثهما .

ودخل الاثنان فطلب مرميس بالاشارة كأسين من الخمر وجعل روكامبول يحادثه بالاشارة أيضاً وهو يسمع حديث الارلندية والسائق . وكان السائق

يطلب اليها ان تقترن به وهي تعتذر لفقرهـــا فيعللها بما سيقبضه من الذين دفعوها الى اختطاف جيبسي وأرثر . وظهر لروكامبول من حديثهما أنهما كانا يأملان ان يقبضا ١٠ جنيهات وقد ختم حديثهما بقول السائق : أتعديني بالزواج متى قبضنا هذا المبلغ ؟

– سوف نرى .

ودفع السائق ثمن ما شربا وخرجا من الخمارة .

وبينما هو يدفع ثمن الشراب قال روكامبول لرميس إذهب واكمن في ضواحي ذلك المنزل الذي حبست فيه الفتاة وانتظرني هناك ، وانتبه لكل ما يحدث وإذا رأيت أحداً خرج من المنزل إقتفي أثره حتى تعرف الطريق التي يسير فيها .

ثم ذهبا فسار مرميس الى تلك القرية وذهب روكامبول في اثر السائق فأدركه على مسافة مئة خطوة من الخمارة ووضع يده على كتفه وباغته بقوله : أتحب الارلندية حباً صادقاً ؟

فاندهل السائق ولكنه ما لبث ان ثاب الى رشده فقال: إني أحبها أصدق حب ولكنها تأبى الاقتران بي لفقري .

– وإذا كان لديك مئة جنيه أترضى بك بعلا ؟

إندلع لسان السائق لأنه لم يحلم في حياته بمثل هذه الثروة وقال، إنها ترضى بي دون شك ولكن من اين لي هذا المبلغ ؟

– إنك تستطيع نيله متى أردت إذا فعلت ما أريد .

ثم سار به الى زاوية الشـارع ، وأخرج من جيبـــه محفظة مملوءة بالأوراق المالية ، ففتحها وقـال له : أنظر ! فاني أعطيك مئة جنيـه متى أردت .

– ماذا يجب ان أصنع ؟

– لا شيء ، سوى ان تذهب بي الى المكان الذي ذهبت اليـه بجيبسي

والسير ارثر .

فعلم السائق انه مطلع على كل شيء ووازن بين العشرة التي كان يتأمل ان يقبضها من الخناقين وبين المائة جنيه التي سيقبضها من روكامبول فرأى ان خدمة روكامبول أوفق له فقال : رضيت بما تريد .

فتأبط روكامبول ذراعه ومشى وإياه وأخذا يتحدثان .

أما مرميس فقد ذهب كما أمره الرئيس الى المنزل الذي سجنت فيه الفتاة. وبينما هو يفتش عن زاوية يكمن فيهارأى رجلا قد وثب من سور الحديقة وانطلق يعدو فعدا في أثره حتى أدركه فقال له : عفوك يا سيدي أما أنت السير أرثر نويل ؟

فتلعثم السير أرثر ، وكان هو بعينه ، وقال له . كلا ، إني لا أسمى بهذا الاسم .

ثم حاول المسير فحال مرميس دونه وحاول ان يمنعه فضم السير ارثر قبضته وأراد ضربه ولكن رأى رجلا دخل بينهما وقال له: يجب يا حضرة السير ارثر ان تخبرنا بما حدث لجيبسي النورية ؟

وكان هذا الرجل روكامبول أتى به السائق الى همستد ليرشده الى ذلك المنزل الذي سجنت فيه الفتاة .

- ٥٠ -

بعد ان هرب السير أرثر من المعبد بقيت جيبسي فيه لا تتوقع الخلاص إلا بالموت بعد ان مكر بها عشيقها وأيقنت انه نذل جبان حين علم بموته فأمانها واغادرها في ذلك المعبد وهي التي أنقذته منه فكانت تنتظر الموت بفارغ الصبر ولكنها كانت بعد يأسها غير جازعة منه

وأقامت في ذلك المعبد بعد هربه عدة ساعات فانطفأت الأنوار وبزغت اشعة الشمس من نافذة المعبد فانجلت لها رموز هائلة .

وبقيت منطرحة على قاعدة التمثال فأحست بالجوع وقــامت تتفرج على النقوش كي تتسلى عن ذلك الجوع .

وفيما هي على ذلك فتح الباب ودخلت النساء الأربع فدنون منها ، وهن ينشدن الأناشيد باللغة الهندية ، ثم انقطعن فجأة عن الغناء وعليهن مظاهر الاضطراب لأنهن رأين ان السير ارثر غير موجود في المعبد فعلا صياحهن ودخل على اثر ذلك الصياح رجلان فوقفا على العتبة منذهلين ، ثم دنــا أحدهما من جيبسي وقــال لها : اين الرجل الذي كان حكم عليه ان يموت معك ؟

فرفعت الفتاة يدها مشيرة الى سماء القبة دون ان تفوه بحرف فحسب الحاضرون انها تشير الى السماء ولم يفطن احد منهم الى زجاج النافذة لأنها كانت عالية جداً فسألها احد الرجلين : اين هو السير ارثر ؟

وكأن الفتاة على فرط نفورها من عشيقها كانت لا تزال مشفقة عليه ، فما ارادت ان تخبرهم كيف هرب وقالت لهم بملء السكينة إن الآلهة قد استجابت توسلي بعد صلاتي فأرسلت ملاكين إختطفاه .

وكان تعبد الخناقين لإلهتهم كالي شديداً فجعلوا اختفاءه على محمل مقدس تمجيداً للآلهة وركعوا .

وجعل النساء يتلاثمون اطراف ثوب الفتاة لحدوث هذه الأعجوبة ببركة صلاتها وقالت لها إحداهن : ليتمجد اسمك لأن الآلهة لم تجب نداءك إلا لأنها غفرت لك واعتبرتك من الصالحات .

ثم تعاقد الرجال والنساء بالأيدي واخذوا يرقصون حول جيبسي .

وبينما هم على هذا الرقص والغناء دخل السير ستوي والسير نيفلي فرأيا ان السير ارثر قد نجا وعلم السير ستوي في الحال كيف كانت نجاته فقال لرفيقه :

إنه هرب من النافذة وسيدعو البوليس دون شك ، وإذا لم نسرع باحراق الفتاة باغتنا البوليس وانقذها .

— هو ما تقول يا حضرة النور فأمر بالإسراع .

وأشار اليهم السير ستوي إشارة رمزية ، فذهب جميع من كان في المعبد ، ثم عادوا بعد هنيهة وهم يحملون معدات الوقيد ووضعوها على المحرقة ، وعاد النساء الى الرقص والنشيد ، والسير ستوي واقف مع رفيقه وقفة الاحترام .

ثم اشار السير ستوي إشارة اخرى ، فهجموا على الفتاة فقيدوها ووضعوها فوق المحرقة . فجعلت تصياح صياحاً يقطع القلوب ، فكان صياحها يضيع بين نشيد النساء .

وعند ذلك اخذ السير ستوي مشعلاً وأوقد بلهيبه الحطب الموضوع تحت المحرقة ، فاشتعل واخذ لهيبه يتصاعد حتى اوشك ان يصل الى جيبسي كل ذلك والنساء ينشدون ، والسير ستوي ينظر الى هذا المنظر الهائل نظر الرضى ، وقد اغمي على الفتاة لما نالها من الخوف ، فانقطع صوتها ولم تعد تستغيث .

وكان الهنود يدورون حول المحرقة وينشدون هذا النشيد :

« سلام على تلك التي تطهرها النار وسترى الآلهة بجلالها .

« سلام على جيبسي التي اختارت لها الآلهة خطيباً من الخناقين في السماء .

« إن سماء الهند الصافية وزرقة مياه البحر واشعة الكواكب الذهبية جميع ذلك البها لا يذكر بازاء فردوس الإلهة كالي .

« إن قصر الالهة كالي مشيد بالذهب والفضة والرخام والمرمر ، ورصعت جدرانه باللؤلؤ واليواقيت ، ورقصت فيه الحور والولدان فالمجد للالهة كالي .

ان في هذا القصر يقيم اللواتي يمتن عذارى ويضحين للالهـة كالي فينعمن بنعيم الخلود .

السلام عليك يا جيبسي فان روحك ستصعد قريبـاً إلى أقدام الآلهة كالي فتبعثها في أجمل جسم » .

وبينما كان النساء ينشدون الأناشيد طائفات حول المحرقة وبينما كان السير جورج والسير نيفلي يسمعا الأناشيد باحترام وينظران الى النار يتزايد ضرامها دون اشفاق وبينما جيبسي مغمى عليها وقد ارتفع اللهب حتى اتصل بطرف ثوبها سمع دوي شديد وصفير رصاصة خرجت من مسدس فأصابت السير نيفلي بدلاً من أن تصيب السير جورج فسقط على الأرض .

ثم رأوا ان زجاج النافذة الكبيرة في سقف القبة قد تحطم وان كثيراً من الرجال قد اندفعوا منها الى التمثال وسقطوا الى المعبد فغصت بهم رحبته .

وكانوا جميعهم عراة الصدور وفوق صدورهم وشوم تدل على انهم من ابناء الإله سيوا .

فاسرع أحدهم الذي كان يظهر انه رئيسهم فانتشل جيبسي من فوق المحرقة واطفأ النار العالقة بثوبها دون ان تلحق جسمها .

وقد انخدع الهنود بوشوم اولئك الرجال وحسبوا ان الإله سيوا قد انقض عليهم فركعوا جميعهم كأنهم قد صعقوا ، فتركهم الرئيس وشأنهم وصعد بجيبسي إلى التمثال فخرج بها من النافذة ثم تبعه جميع من كان معه وجعلوا يتسلقون التمثال واحد بعد آخر .

ولم يبق ريب لدي جميع من كان في المعبد ان اولئك الرجال من اشياع سيوا فكانوا لا يجسرون ان ينظروا اليهم من المهابة خلافاً للسير جورج فانه كان يعض كفيه من اليـــأس لأنه علم ان هذا الرجل الذي اختطف جيبسي هو روكامبول ولم يكن يستطيع مقاومته لكثرة رجاله فاضطر الى الهرب من المعبد حين رآه داخلا بهذه القوة .

٥١

مضى ثلاثة أيام على هذه الحادثة كان في خلالها رجلان من رجـال هذه الرواية مقيمين في منزلهما لا يخرجان منه وهما السير نيفلي والسير ارثر .

وأما السير ستوي فانه خاف خوفاً شديداً من روكامبول فهرب من المعبد واختبأ مدة بين ادغال القرية كي لا يهتدوا الى أثره ، ثم عـاد إلى منزله في لندرا وكان يرجو ان يرى كيرشي فيه لأنه هو وحده يستطيع اقناع عصابة الخناقين ان الذين هاجموهم في المعبد لم يكونوا من عباد الإله سيوا فان انتصار هذا الإله على الالهة كالي يضعف عزائمهم ويحط من منزلة ستوي في عيونهم ولكنه لم يره في المنزل فأيقن انهم اختطفوه لأنه كان واثقـاً من وفائه فلا يمكن أن يهرب .

وكان معظم خوفه من مس سيسيليا فانه كان يخشى ان يكون السير ارثر أخبرها بما اتفق له وان تكون صدقت كلامه فانها لم تكتب اليه كلمة منذ ثلاثة أيام بعد ان وعدته في مقابلتها الأخيرة بالزواج به فلم يعد لديه شك ان السير ارثر اخبرها بجميع ما اتفق .

أما السير ارثر فان خوفه من الخناقين كان أكثر من خوف السير جورج من فقد خطيبته ولذلك فانه بعد ان أخبر روكامبول بجميع ما حدث له مع السير جورج وقص عليه حكاية فراره من النافذة بمساعدة جيبسي تنكر باسم آخر وأقام في فنـدق مبالغة في التنكر لشدة خوفه من الخناقين وقد تجسم الخوف في نفسه حتى انه هجر الاميرالية فلم يعد يذهب اليها وعول على مغادرة انكلترا الى خلكيدونيا الجديدة فأرسل خادم الفندق فقطع له تذكرة السفر في سفينة تسافر بعد ٣ ايام واعد معدات الرحيل .

وفي اليوم الثالث بينما هو يتأهب للسفر إذ سمع قرع بابه فلم يجب فأعاد الطارق مرة ثانية فلم يجب أيضاً وعند ذلك فتح البـاب ودخل رجل عرفه

السير أرثر لأول نظرة أنه روكامبول بالرغم عن تغيير زيه فإنه كان بملابس البحارة حين لقيه المرة الأولى بجوار المنزل الأحمر ، وهو الآن مرتدياً بملابس الأعيان ، فأقفل روكامبول الباب بعد دخوله وقال له : أسألك المعذرة يا سيدي فاني لم أعلم انك مسافر صباح غد إلى خلكيدونيا ولا تتوهم يا سيدي اني أريد بك شراً فاني لست من رجال الشر ولا مأرب لي بانثنائك عن قصدك إلا اني أتيت أسألك قضاء أمر يسير .

ثم أخرج مسدساً من جيبه وقـــال ان جيبسي أخبرتني بكل شيء وعلمت اني أستطيع أن أنال منك ما أريد متى حملتك على الخوف مني، واعلم الان انك ان لم تكتب الكتاب الذي سأمليه عليك في الحال .. وكنت أود انقـــاذك من الخنـــاقين ، إلا اني أحتقرك ، فلا أمد لك يد المساعدة فاهرب متى شئت ، ولكن اجلس على هذه المائدة قبل فرارك واكتب ما أمليه عليك .

فتنهد السير أرثر تنهداً طويلاً وامتثل لما أراد روكامبول .

* * *

ولنعد الان إلى مس سيسيليا فانها كانت قـد تولهت بحب السير جورج ستوي لاسيا بعد اجتماعها به في منزله واعتقادها الراسخ في ذهنها ان كل مـا قيل عنه من وشايات المفسدين .

وكانت قد التجأت إلى عمها اللورد شارنغ فوعدها خيراً ، فاجتمع بالسير جورج ، وراقت له عشرته ، وأعجب بحسن أدبه وقال له :

ـ انك تحب ابنة أخي وهي تحبك إلا أن أخي لا يزال معارضاً لهـذا الزواج فاتكل علي واصبر .

فاطمأنت مس سيسيليا لوعد عمها ولكنها كانت منشغلة البال مضطربة الحواس ، لأن السير جورج لم يرها ولم يكتب لها كلمة منذ أربعة أيام ، وذلك لأنه كان يعتقد أن السير أرثر نويل أخبرها بما اتفق له فلم يجسر على مكاتبتها .

وبينما هي جالسة في معملها التصويري وهي مفكرة مهمومة بمناجاة السير جورج إذ دخل عليها الخادم يحمل رقعة زيارة مكتوباً عليها روكامبول .

فنظرت الفتاة إلى الرقعة ولم تعرف صاحبها فقرأت سطراً كان مكتوباً تحت الاسم بالقلم الرصاص خلاصته ان هذا الزائر قادم بشأن خاص بالسير جورج ستوي .

فأمرت الخادم بادخاله في الحال .

ودخل روكامبول وحياها وبعد أن دعته إلى الجلوس قال لها : اني قادم أولاً لأحمل اليك وداع ابن خالك السير أرثر فانه سافر في هذا الصباح إلى لفربول ومنها إلى خلكيدونيا الجديدة .

فانذهلت الفتاة وقالت : كيف سافر ولماذا ؟

— انه سافر يا سيدتي وقاية لنفسه فقد حكم عليه منذ أربعة أيام بالاحراق حياً مع خليلته النورية ، لكنه تمكن من الفرار بعد القبض عليه .

فارتعشت لهذا الخبر الغريب وقالت له : ما هذه الأنباء التي اسمعها أفي يقظة أنا أم في منام ؟

— كلا يا سيدتي لست حالمة وما أقوله لك هو الحقيقة بعينها فإنه يوجد في قلب العاصمة الانكليزية محكمة سرية حكمت على السير أرثر أن يحرق حياً ورئيس هذه المحكمة يا سيدتي هو ذلك الرجل الذي قرأت اسمه على رقعة زيارتي أي السير جورج ستوي .

وصاحت الفتاة صيحة انكار ولكن نظرات روكامبول السحرية ضغطت عليها فتذكرت حديث ابن خالها القديم .

وعند ذلك قال لها روكامبول : انك قد تشكين بكلامي يا سيدتي لأنك لا تعرفينني من قبل ، ولكنك لا تستطيعين الشك باقوال ابن خالك .

ثم دفع اليها ذلك الكتاب الذي أملاه على السير أرثر في الفندق ، وقد اعترف به لسيسيليا بجميع حوادثه بالتفصيل منذ بدء حبه لجيبسي إلى حين نجاته من معبد الهنود .

وكانت لهجة كتابه تدل على حقيقة لا ريب فيها فصاحت الفتاة عند تلاوتها .

ولكن عواطف حبها تغلبت على ارشاد عقلها فالتفتت إلى روكامبول وقالت له : أتعلم يا سيدي ان السير ارثر كان يهواني ؟

— نعم يا سيدتي .

— إذن الا يمكن أن يكون كتابه هذا نميمة دفعته اليها الغيرة ؟

وعلم روكامبول ان صوت قلبها أشد من صوت عقلها وإن اقناعها بالكلام محال فقال لها : انك إذا أمهلتني ٣ أيام أريك السير جورج ستوي يرأس مجتمعاً للخناقين مرأى العين .

فأهاجت هذه الكلمات الفتاة وقالت له : إنك إذا أريتني إياه على ما تمثله الآن فإن حبي له يستحيل إلى كره شديد لا حد له فلا تهنأ لي حياة إلا حين يعاقب على جرائمه بالموت .

— هي ٣ أيام يا سيدتي فاصبري وكل آت قريب .

ثم تركها وانصرف .

مضى خمسة أيام على حوادث المعبد والسير جورج مقيم في منزله دون أن يرده كتاب من سيسيليا ولم يكن يجسر على الخروج لاعتقاده ان حادثة المعبد وقتل السير نيفلي لا بد من ظهورها فكان يتوقع قدوم البوليس الانكليزي إلى منزله من حين إلى حين ولكنه لم يحدث شيء من ذلك .

وفي اليوم الخامس اطمأن بعض الاطمئنان وخرج من منزلـه إلى النادي الهندي .

واستقبله أصحابه فيه حسب العادة إلا ان بعضهم عجب لغيابه فقال له : انه كان يصطاد الضواني .

وسأله آخر عن السير نيفلي فقال له : ربما سافر مع الجيش إلى الهند .

ودار الحديث أمامه عن الخناقين بمناسبة خنق ذلك الرجل الذي خطب مس سيسيليا فأجمع الحاضرون على أنهم طائفة من اللصوص بحيث اطمأن السير جورج وعلم ان تلك الحوادث لم تنفضح أسرارها بعد .

وبعد أن أقام معهم مدة خطر له أن يذهب إلى المعبد ليتفقد الأحوال ، فركب مركبة وسار إلى قرية همستفاد ، فأطلق سراح المركبة ودخـل إلى خمارة كي يتجسس من قبيل الحذر واختلط بين الحضور فسمعهم يتحدثون بالانتخابات وغير ذلك من الحوادث العمومية .

وسار عند ذلك مطمئناً إلى باب المعبد ففتحه بمفتاح خاص ، وبرزت تلك المرأة الهندية واستقبلته بما تعوده من الاحترام ثم قالت له : ان السير نيفـلي ينتظر قدومك بفارغ الصبر يا حضرة النور .

فانذهل وقال : ماذا تقولين ألا يزال حياً ؟

– نعم يا سيدي فإن الرصاصة لم تصب منه مقتلاً بل جرحته في الصدر جرحاً خفيفاً كان سريع الاندمال .

فتنهد السير جورج تنهد المنفرج وسار في اثر المرأة إلى الغرفة التي يقيم فيها السير نيفلي .

ولما خلا به قال له السير نيفلي .

– اني كنت انتظر عودتك بفارغ الصبر فإن جماعة الخناقين قد ضعفت عزائمهم لحسبانهم ان الذين هاجموهم من أبناء سيوا ، ولكني تمكنت من اقناعهم وإعادة الحمية اليهم .

– إذن لم يحدث شيء هنا ؟

– كلا وأرجو ان تكون بددت ذلك الفرنسي الجريء وعصابته .

– لم أفعل شيئاً من ذلك لأني ما رأيت أحداً منهم إلى الآن .

– ألم تستعيد جيبسي ؟

– كلا ..

– ولكنك قبضت على السير أرثر على الأقل ؟

– كلا ..

– وماذا فعلت بقرانك ومتى يتم العقد ؟

– لم أرها منذ ذلك العهد وقد كتبت لها فلم تجب .

فأظهر السير نيفلي عند ذلك انذهالاً شديداً وقال . إذن مـاذا فعلت في هذه الايام الخمسة ؟

وقد نظر اليه حين قال هذا القول نظرة غريبة ما تعود أن يراهـا من حاشيته ، لأنه كان الرئيس المطلق لطائفة الخناقين في لندرا ، وله الحق في أن يعامل جميع رجال تلك الطائفة معاملة العبيد ، فلما سمع هذا القول من نيفلي نظر اليه نظرة انكار وتأنيب فلم يحفل به وقال له . كيف انك لم تفعل شيئاً من مدة أسبوع كامل الملك خفت اعدائك ؟

فاحمر وجه السير جورج من الغضب وقال له : ويحك أيها العبد انسيت من أنا فتجرأت على مخاطبتي بهذا الكلام ؟

– كلا ، ولكنك أصبحت أنت العبد وأصبحت انا السيد بما ورد لي من السلطة السرية

ثم أخرج من جيبه ورقة مختومة بأختام سرية وأطلعه عليها ، فلم يكد السير جورج يقرأها حتى صاح صياح القانطين ، ثم ركع أمـام السير نيفلي وقال له التمس منك الغفران فإن النور قـد انتهى اليك ، فلك الامر وعلي الطاعة .

ولا بد لنا لايضاح اسرار هذا التغيير الفجائي ان نذكر بالايجاز شيئاً عن تلك الجمعية الهائلة التي يدعونها جمعية الخناقين فانها لم تكن دينية كما كان يتوهم الاكثرون ، بل كانت سياسية محضة يديرها كبار الرجال فيسترون مقاصدها بحجاب الدين ، وإنما كانوا يريدون بها مقاومة الانكليز والخروج عليهم تخلصاً من نير أحكامهم .

ولم يكن أحد يعرف رئيس هذه الجمعية ، وأما أعضاؤها فكانوا مختفـين ومعظمهم من المتعبدين المتشيعين للالهة كالي فكانوا إذا أرسلوا رئيساً من أولئك المتعصبين يرسلون معه رجلا حاذقاً، يخضع له بالظاهر ، ويراقب جميع أعماله حتى إذا رأى منه بادرة ، أو رآه مقصراً في واجباته خلعه من منصبه وتولى عنه الرئاسة بمـا يكون لديه من الأوامر السرية ، لذلك أرسلوا مع السير جورج السير نيفلي وزودوه بتلك الأوامر ، فلما رآه مقصراً تولى عنـه الرئاسة وعزله .

وكان السير جورج شديد التعصب في عبادة الإلهة كالي يعتقد بفردوسهـا كما يعتقد عامة الهنود خلافاً للسير نيفلي كما سيجيء فـإنه كان من أعضاء الجمعية السياسيين .

فلما نزع السير نيفلي الرئاسة من السير جورج كما تقدم قـال له : اصغ الي

الان لأخبرك عن السبب في عزلك ، فاني كنت واثقاً حين برحنا الهند انك غير كفوء للرئاسة ، وقد أيدت الحوادث ظني وماذا فعلت منذ قدومنا إلى لندرا ؟ انك أرسلت اوسمانا وكيرشي لخنق ابنة الجنرال الروسي فلم تفلح ، وكان لجيبسي خليل منذ عامين وأنت لا تعلم ، وقدر الاتفاق أن يكون خليل هذه الفتاة ابن خال خطيبتك ، الذي يستطيع أن يمنع زواجك بها ويحرمنا من أموالها ، فنجت جيبسي ونجا السير ارثر وأنت مقيم في منزلك آمناً مطمئناً تنظر الحوادث .

فاقرأ الان هذه الأوامر التي زودتني بها الرئاسة العليا ، فاني منحت بها السلطان المطلق ، وإذا أشرت إشارة سرية إلى رجال هذا المعبد هجموا عليك وقتلوك ، إذ يحق لي قتلك ولكني لا اقتلك إذ لا بد من بقائك حياً ، وإذا كنت لا تعرف أن ترأس فقد تعرف أن تطيع .

والان فاصغ الي فانك الهبت صدر مس سيسيليا بغرامك وهي أغنى غنيات الانكليز ، ويجب ان نرجع للهند تلك الأموال التي يأخذها الانكليز من الهند ولذلك يجب أن تتزوج سيسيليا .

ثم أحب أن اكشف لك سراً جديداً وهو : أتحسب ان الجمعية تأمر بوشم صدور الفتيات وتقضي عليهن بالبتولية الأبدية لمجرد إرضاء الالهة كالي ؟

فارتعش السير ستوي لهذا القول ولكن السير نيفلي ولم يحفل به ومضى في حديثه فقال ببرود : ان شرائعنا الدينية الهندية هي من أوضاع الناس ، وإنما وضعوها لتساعد الحكومات في السيطرة على الشعوب ، أما أنت فانك من المتعصبين في الدين ولا تزال تعتقد إلى الان بوجود الالهة كالي .

فانقضت هذه الكلمات على السير ستوي انقضاض الصاعقة وأخذ ينظر اليه نظرات البله ويقول في نفسه : كيف يكفر هذا الكفر بالالهة وهي لا تصعقه ؟

أما السير نيفلي فانه عاد إلى تتمة حديثه فقال : ان جمعيتنا تأسست منذ

ستين عاماً ولها مبدآن تجمع بأحدهما العامة أمثالك ، وهو مبـــدأ عبادة الالهة كالي ، وتجمع بالاخر العقلاء الراشدين وهو مبدأ كره انكلترا وإبادتها . أعرفت الان حقيقة أسرارها ؟

ثم اعلم انه حين افتتحت انكلترا الهند اجتمع أمراؤها وزعماء قبـائلها وعلماؤها فقرروا مقاومة الانكليز ، وارتأوا أن يفعلوا من الفعال الهمجيـة ما يوافق مدنيتهم المموهة ولهذا فان جميع الذين لا يعتقـدون بالاله وشنو ، وأمثاله والهة الشر كالي ، واله الخير سيوا بل يريدون ان تكون الهنـد للهنود من البحر الأحمر الى منابع الكنغ يعتمدون في تنفيذ مآربهم على تعصب المتعصبين فأنشأوا طائفة الخناقين وبثوها في جميع أنحاء البلاد ، ولنا كثير من الاحزاب من غير هذه الطائفة بعضهم يخدموننا كرهـاً للانكليز وبعضهم لأغراضهم الخاصة وإذا اردت البرهان فاسمع .

انك تعرف حكاية ناديا التي تزوجت أمهـا مس أنا هاريس وهي مكرسة للالهة كالي فخنقت يوم ولادتها لابنتها ناديا ، وأنت تعلم ان ناديا وابنتهـــا محكوم عليهما بالموت ولكنك لا تعلم لماذا حكم عليهما هذا الحكم ؟

فقال السير ستوي متحمساً لأن الالهة كالي أرادت لهما الموت .

— كلا فإن هذه الالهة لا تريد الا الذي نريده والحقيقة ان والدة ناديا كانت ابنة الجنرال هاريس حاكم كلكوتا ، وكان يعذب الهنود فأراد الخناقون أن ينتقموا منه ، وكان بوسعهم أن يكتفوا بقتل الأب والإبقاء على البنت ، الا انه كان لها أخت وكان لأبيها أخ يدعى اللورد هارنس وهو من جمعيتنا فأراد هذا الأخ أن يقتل أخاه الحاكم ، ثم يتزوج ابنته الصغرى ، فـــإذا قتل ابنته الكبرى تدفقت ثروة أخيه بجملتها إلى خزائنه .

ثم تزوج ابنة أخيه الصغرى بعد قتل أبيها ، وقتلت ابنة أخيه الكبرى إلا أنها ولدت قبل مقتلها بنتاً وهي ناديا ، فإذا لم تقتل ناديا وابنتها فانها تطالب بثروة امها أمام الحاكم الانكليزية وتنقض كل ما بناه اللورد هاريس ، ولهذا

يجب قتل ناديا وابنتها صيانة لثروة اللورد هاريس لأنه من جمعيتنـــا ، أعلمت الان ؟

فاضطرب السير ستوي وقال: إذا كانت البنات توشم وتقتل لهذه الأغراض فلماذا حاولنا إحراق جيبسي النورية ومنعها عن الزواج ؟

– ذلك لأن لها حديثاً آخر ليس موضعه الان إذ لدينا من المهام ما هو أهم منه ، فاعلم اذن اني رئيسك المطلق ولكن لا يجب ان تعلم الطائفة شيئاً من هذا التغيير فانك تبقى الرئيس المطلق أمامها ويبقى لديك النور ولكنـك تتلقى الأمر مني بالسر وتكون لي أطوع من العبيد . والآن قـل لي من هذا الفرنسي الذي تجاسر على مهاجمتنا ؟

– اني لا أعرف من امره ايها النور سوى انه يقيم في هاي مـاركت مع امرأة بارعة في الجمال .

– حسناً سأراها ، أما أنت فلا تهتم بهذا الرجل ولا تبحث عن جيبسي بعد الان فاني سأتولى هذه المهمة .

فقال السير جورج : ولكني أقسمت بأن انتقم من هذا الفرنسي .

فأجابه ببرود : ان الانتقام لا يجب أن يطبع إلا في نفوس الرؤساء ، وأما أنت فلم تعد إلا شبه آلة ويجب عليك ان تطيع .

فانحنى السير جورج ممتثلاً ومن الغريب ان جذوة حقده على روكامبول قد انطفأت فجأة واستحال كل بغضه لهذا الرئيس الجديد .

وبعد حين افترقا فعاد السير جورج إلى منزله واليأس ملء قلبه فكان أول ما بدأ به انه دخل إلى غرفة معبده وقد زالت من نفسه كل عقائده الدينية فضرب تمثال الاله دشنو برجله وهو يقول : انتقم لنفسك إذا كنت قادراً . فسقط التمثال ولم يصعقه الاله .

ودنا من تمثال كالي وقال : انت أيها التمثال الذي كرست له شبـابي إذا كنت تمثل الالهة كالي فلتنتقم مني فاني انكر وجودها .

ولما رأى أن الالهة لم تجبه رفس التمثال برجله فسقط وتحطم .

ثم قام الى البركة فأخرج السمكة وقتلها ومزق جميع الصور وأتلف كل ما كان هنالك من الرموز المقدسة وهو يجدف تجديف المجانين .

وبعد ذلك عاد إلى غرفة نومه فوضع رأسه بين يديه وجعل يفكر فيما صار اليه أمره وصدره يتأجج حقداً على نيفلي .

وفيما هو يمعن في طريقة للانتقام منه خطرت له وسيلة رجا أن ينال منها ما يريد وهي أن يحالف بالسر روكامبول عدوه القديم على نيفلي عدوه الجديد ويطلعه على جميع أسرار جمعية الخناقين فيكون له خير عون على بلوغ مأربه من الانتقام ، ولما تجسم هذا الخاطر في مخيلته خرج من منزله وذهب تواً الى حيث يقيم روكامبول مع فاندا .

مضى على ذلك ثمانية أيام ولم ير السير نيفلي السير ستوي في خلالها فإنه لم يحضر إلى المعبد ، ولم يعد إلى منزله منذ تلك الليلة التي سحق فيها تمثال الالهة كالي وقتل تلك السمكة التي كانت تقيم فيها روح أبيه .

وبقي السير نيفلي مطمئناً لا يهتم له ٣ أيام لأنه كان يعتقد ان السير ستوي يخجل ان يظهر أمامه إلا بعد أن يعمل عملاً خطيراً يدفع تهمة تقصيره السابق وبعد ان يثق بأمر زواجه بسيسيليا .

فلما مضت الأيام الثلاثة بدت على محيا السير نيفلي دلائل القلق وأخذ يبحث عنه ، فغادر المعبد سراً في ليلة مدلهمة وذهب إلى منزل ستوي فطرق بابه مراراً دون ان يجيبه أحد وكان سور حديقة المنزل واطياً فتسلقه ونزل الى الحديقة ، ثم صعد منها إلى المنزل فكسر الباب ودخل إلى غرفته ففتشها بجملتها حتى انتهى الى غرفة ورأى آثار التخريب وعلم انه اثر على السير جورج حتى نزع منه عقائده الدينية .

ولكنه بقي منشغل البال لانقطاع اخباره عنه واحتجابه عن الأنظار ، فذهب الى النادي الهندي ، وهو النادي الذي كان يتردد اليه السير ستوي عله يقف من أعضائه على شيء من أخباره ، فلقيهم يتحدثون بأمر جليل قد استعظموه ، وهو ان السير ستوي قد خطف مس سيسيليا برضاها ، لأن والديها كانا مصرين على عدم تزويجه بها .

إلا أن الحب كان متمكناً منها فوافقته على الفرار ولا يعلم أحد حتى الان الى أين ذهبا .

فاطمأن خاطر السير نيفلي وقال في نفسه : ان السير جورج لا يقدم

على اختطاف الصبية إلا إرضاء لي كي انفي عنه تهمة التقصير فمـا بعد الاختطاف إلا الزواج .

ولكنه لا بد ان يكون كتب لي عما حدث .

ثم برح النادي إلى منزله كي يرى مـا كتب اليه السير ستوي فوجـد كتاباً باسمه .

ففضه وأسرع بنظره إلى التوقيع ورأى بدلاً من توقيع السير جورج توقيع فاندا فانذهل وقرأ ما يأتي :

(إذا كان السير جمس نيفلي صديق السير جورج ستوي من خيار النبلاء كما يذاع عنه فانه يسرع إلى مساعدة امرأة توشك ان تجن من الحزن واليأس وهي خادمته فاندا) .

وقرأ بعد ذلك عنوان المحل الذي تقيم فيه فوجده نفس المنزل الذي اخبره السير جورج ان الرجل الفرنسي يقيم فيه مع امرأته ، فجعل يفحص الخط فرأى ما يدل على ان يداً مضطربة قد كتبته فسر لهذا الدليل ولم يعد يخشى أن يكون ذلك دسيسة .

الا انه لم يذهب في الحال وأجل تلك الزيارة إلى الصباح كي يتمعن .

ونام تلك الليلة في منزله ، وفي الصباح تأنق بملابسه وذهب ماشياً إلى هاي ماركت حيث كانت تقيم فاندا بعد أن تسلح بمسدسين وخنجر .

حتى إذا وصل إلى المنزل وقرع بابه فتحت له فاندا وقالت : انت هو يا سيدي السير جمس نيفلي ؟

فدهش نيفلي لجمالها واشفق لمارآه من احمرار عينيها لكثرة البكاء ولظواهر يأسها وقال لها : نعم يا سيدتي انا هو وقد اتيت لنصرتك إذا كنت لا تزالين في حاجة الي .

فأخذت فاندا يده وقالت : تفضل يا سيدي بالدخول لقد عقدت عليـك آمالي وكنت مشككة بحضورك لأن الحزن دفعني إلى القنوط من كل نصير .

ثم دخلت به إلى قاعة صغيرة وسقطت على مقعد فيها كأنما رجليها قد ضعفتا عن حملها وقالت : ارجوك العفو يا سيدي فاني لا أعلم كيف انا عائشة الى الان .

فنظر اليها السير نيفلي وجن عليها وهو عميد جمعية الخناقين ، والشخص الذي شاهد جيبسي تحترق دون ان يتأثر ، وقد دفعته عاطفة غريبة الى هذا الحنو .

فقالت له فاندا وقد فهمت معنى نظراته : انك تجدني جميلة يا سيدي اليس كذلك ؟

فارتعش ولم يجب ولكن عينيه كانتا تجيبان عنه .

فقالت : لقد كنت امس جميلة ، أما اليوم فقد زالت آثار هذا الجمال ، وأنا تلك المرأة التي كانت تقيم مع ذلك الفرنسي الذي بارز صديقك السير ستوي ، ولكن هذا الرجل قد تخلى عني منذ ٣ ايام بدناءة لا تخطر في بال .

وكانت عينا فاندا تتقدان فقرأ السير نيفلي سور الحقد الهائل بين نظراتها وقال لها : لماذا تخلى عنك ؟

– لهيامه براقصة نورية من راقصات الطرق سافر بها الى فرنسا وقد تخلى عني من أجلها بشكل يورث الخزي والعار ويدل على انحطاط نفسه الدنيئة ، فإني كنت افديه بالحياة ولكنه هجرني هجر بنات الهوى بعد ان سرق مالي ومجوهراتي وغادرني وليس معي فلس .

فجلس السير نيفلي بالقرب منها واخذ يدها بين يديه وقال لها من عسى ان يكون هذا ؟

فتنهدت تنهد القانطين وقالت : لا تسلني عنه فإني اجهل اسمه الحقيقي ، فقد كنت احسبه من النبلاء الأغنياء فركنت اليه واحببته بقدر ما ابغضه الان.

ثم نزعت شالاً كان يغطي صدرها فظهرت فوقه أثر ضربة خنجر لا يزال دامياً .

فارتعد نيفلي وقال : ما هذا ؟

– اني كنت عولت على الانتحار فطعنت صدري بخنجر وكدت اجهز على نفسي بضربة ثانية الا اني عدت عن هذا القصد وعولت على الانتقام من هذا السافل ومن خصيمتي فيه ولكن واأسفاه كيف ابرح لندرا وادركهما في باريس وليس لي مال ؟ فخطر لي عند ذلك ان الجأ إلى عدوه السير جورج فعلمت انه غائب عن لندرا ثم قيل لي انك من اصدقاءه ، فلجأت اليك وانا ارجوك الان يا سيدي ان تعطيني مائة جنيه كي اسافر بها الى باريس ومتى وصلت اليها ارجعت اليك مالك .

وكانت عيناها تتقدان بأشعة الحقد والغضب فتبثان سحراً وتؤثران على فؤاد السير نفلي اشد تأثير الا انه لم يندفع في تأثره ورجا ان يكون له بها خير معين فقال في نفسه : هوذا ساعد هبط الي من السماء وقذفته لي جهنم .

ثم مد اليها يده وقال : اني يا سيدتي من اولئك الانكليز الذين اشتهروا بغرابة الأطوار والملل من المعيشة الثابتة فأنا اشاركك في انتقامك اذا اردت وأسافر معك الى فرنسا .

فصاحت فانذا صيحة فرح وقالت أنت تفعل هذا ؟

– نعم يا سيدتي ومتى اردت السفر اكون طوع امرك .

فقالت بلهجة تبين منها ما طوي عليه فؤادها من الحقد والغيرة : انك إذا انتقمت لي احببتك وكنت لك اطوع من الاماء .

فركع السير نيفلي امامها ولثم يدها فابتسمت فانذا نفس ابتسامها في تلك الليلة الهائلة حين القت نقولا ارسوف في البركة وفتحت حنفية الماء وهو فيها .

كان الليل شديد الحلك والهواء عاصفاً والبحر تهدر امواجه فيسمع هديرها من مسافة بعيدة ، ومع ذلك فقد كان الدخان يتصاعد من مطعم سومون مما يدل على انه لا يزال يستقبل النـاس بالرغم من تلك الساعة المتـأخرة من الليل .

وقد كان جاء إلى هذا الفندق اثنا عشر رجلا بملابس نظيفة ولكن ملامحهم لا تدل على انهم من الأعيـان فاستقبلتهم صاحبة الفندق وهي توشك أن تقفل ابوابه ، ثم علمت من حديثهم انهم فرنسيون فضعفت ثقتها بهم وترددت في أمر قبولهم ، فادرك كبير هذه العصابة قصدها وقال بالانكليزية : لا ، لا تخشين شراً فما نحن لصوص ولا سفاكون بل نحن من مهربي البضائع وسنسافر على باخرة سترسو على الشاطيء القريب من هذا الفندق ، فاحضري لنا ما لديك من الطعام ، ثم دفع لها مقدماً ثمن ما طلبـه فارتاح فؤادها وأحضرت لهم جميع ما طلبوه .

وكانت هذه العصابة عصابة روكامبول فجلسوا على المائدة وجعلوا يتحدثون فقال مورت : أرأيتم كيف ان هذا الغلام مرميس بات على حداثة سنه نائب الرئيس وتقدم في ليلة واحدة هذا التقدم السريع ؟

فاجابه ميلون : ذلك لا ريب فيه فانه فعل ما يستحق من أجله التقدم .

وقال شانوان لا ريب ان مرميس أصاب ، فان النور إذا لم يكونوا في جوار سانت بول فلا بد أن يكونوا في مكان آخر .

وكأنما ميلون قد حسد مرميس لانتزاعه الرئاسة منه فقال مجيباً شانوان : هو ما تقول ولكن الرئيس اصدر لي أمره أن نبقى في ذلك المكان فلم يكن بد من البقاء .

- نعم ان مرميس لو لم يهتد الى مكان الخناقين لكانوا فتكوا بالرئيس

فتنهد ميلون وسكت .

وعاد مورت الى استئناف الحديث فقال · كذلك الفتـــاة فلولا مرميس لكانوا احرقوها فمن العدل أن يعينه نائباً علينا .

فقال احدهم : لقد اصاب الرئيس فيما فعل .

وقال اخر وقد اساءته هذه الرئاسة : سوف نرى اذا كانت تبقى له متى عدنا الى فرنسا ، أما الآن فانه القائد علينا لأنه يعرف اوامر الرئيس ولا بد لنا من طاعته .

ثم انتقلوا بحديثهم الى موضع اخر كثر فيه الجدال وعلت الغوغاء فاسرع اليهم مرميس وهو يقول · كفاكم صياحاً فان الفتاة نائمة . وقد أشار بقوله إلى جيبسي فانه كان قد صعد بها إلى الدور العلوي من الفندق وصبر إلى ان نامت بينما كان رفاقه يتحدثون بأمره فلما سمع ضجتهم أشفق على جيبسي أن تصحو من رقادها فأتى يزجرهم ان يسكتوا .

وكانت المسكينة قد فقدت صوابها لما مر بها من الحوادث الهائلة فلم تعد تعرف أحداً غير روكامبول فانها كانت تنقاد اليه انقيـاد الأطفال ومرميس الذي كان يعتني بها اعتناء الأخ بأخته .

فلما صدر اليهم أمر مرميس جعلوا يتكلمون باصوات منخفضة فقال شانوان لميلون : أأنت واثق اننا نسافر هذه الليلة ؟

— نعم .

— أتظن ان الرئيس يسافر معنا ؟

- ربما .

أما مرميس فانه لم يقل شيئاً بل انه خرج من الفندق وجعل ينظر إلى البحر فرأى نوراً يشق حجاب الظلام وهو يدنو من الشاطىء وكلما دنا كبر وارتسم فاطلق مرميس طلقاً نارياً فاجابته بمثله مما يدل على اتفـــاق سابق فايقن انها السفينة التي سيسافرون عليها فعاد إلى الفندق وقال لرجال العصابة : اسرعوا

بالتأهب فان السفينة دنت ولا بد من السفر هذه الليلة .

بينما كان رجال العصابة يتحدثون بالشؤون التي بسطناها كان روكامبول ونويل سائرين في مركبة كانت تنهب الأرض نهباً في طريق دوفر .

وكان روكامبول قد استأجر سفينة شراعية لتنقل العصابة إلى فرنسا لأنه خشي على رجاله ان يسافروا على باخرة نظامية حذراً من البوليس الفرنسي فان اكثرهم كان محكوماً عليهم احكاماً مختلفة وهم هاربون .

وفيما هما سائران قال روكامبول لنويل : أرأيت فاندا ؟

– نعم يا حضرة الرئيس .

– ألعلها اجتمعت بالسير جمس نيفلي ؟

– نعم .

– إذن لا بد لها أن تكتب لي .

– هوذا فاننا سنجد تلغرافاً منها في دوفر .

فأمر روكامبول بالاسراع وبعد حين وصلت المركبة إلى دوفر ، أسرع روكامبول إلى مكتب التلغراف وقال لعامله · اني أدعى ويليم بيرتريك فهل لي عندك رسالة برقية ؟

« جمس لنا . وقع الطير في الشرك . نسافر هذه الليلة إلى باريس . الاجتماع فيها يوم الثلاثاء . أنت تعلم أين »

« ف ... »

ولم يكن روكامبول يريد أن يعرف أكثر مما عرف فخرج من مكتب التلغراف إلى المركبة التي كان ينتظره فيها نويل وقال له: اني مسافر معكم فاني أخشى اذا سافرت على الباخرة التي يسافر عليها نيفلي وفاندا أن يعرفني .

– ولكنه ما رآك ولا يعرفك .

– هو ذاك ولكني أخشى أن تبدو نظرة من فاندا تفضح أمري وقد يتفق أن يكون قد عرفني وأنا لا أدري ، فهلم بنا إلى الفندق حيث تقيم العصابة .

فسارت بهم المركبة حتى وقفت أمام باب الفندق فخرج منها روكامبول ودخل إلى الفندق فرأى رجاله يتأهبون

ولما رأوه داخلاً ذهلوا وقالوا بلهجة الاحترام :

– هوذا الرئيس .

فقال لهم :

– هلموا بنا يا أولادي فقد حان وقت السفر .

وقال ميلون بلهجة السرور :

– لقد كان قلبي يدلني انك مسافر معنا ولكن مرميس لم يقل لنا شيئاً من هذا .

فابتسم روكامبول وقال : لقد أصاب بسكوته فإنه هو نفسه لم يكن يعلم والآن قل لي كيف حال جيبسي .

فقال له ميلون : إنها لا تزال مجنونة ولا تسمح لأحد أن يدنو منها ما خلا مرميس .

– وأين هي الان ؟

– إنها نائمة في الدور العلوي .

– اصعد وآت بها .

فامتثل ميلون وجلس روكامبول على المائدة فجعل يأكل ورجال العصابة وقوف ورائه .

ثم فتح الباب ودخلت جيبسي وهي متكأة على ذراع مرميس باطمئنان وارتياح ، ومرميس ينظر اليها نظرات ملؤها الحب والاحترام فلم تخف هذه النظرات على روكامبول فتنهد وقال : ما أبلغ تأثير الشباب .

أما جيبسي فإنها لما نظرت روكامبول صاحت صيحة فرح وأسرعت اليه فعانقته وهي تقول : لم اكن أرجو ان اراك .

فقبل روكامبول جبينها وتأبط ذراعها ثم مشي معها أمام رجال العصابة وقال لهم هلموا بنا إلى الرحيل .

* * *

بعد ذلك بعدة ساعات كانت السفينة تمخر بروكامبول ورجـاله وقد بزغ النهار وغابت الشواطيء الانكليزية عن الأبصار .

وكان رجال العصابة نائمين بعضهم فوق بعض على ظهر السفينة وفي مؤخرها غرفة صغيرة كانت جيبسي نائمة فيها على فراش من القش ومرميس راكع أمامها يتأمل محاسنها ويحبس أنفاسه حذراً من أن تصحو .

وقد طال تمعنه بها إلى أن قال بملء البساطة بصوت منخفض الله ما أبدع هذا الجمال !

ولم يكد يتم قوله حتى شعر بيد وضعت على كتفه فالتفت وتراجع مذعراً مضطرباً وهو يقول : الرئيس .

وقد كان روكامبول باغته وهو يقول هذا القول غير انه لم يقطب جبينه ولم يظهر استيائه بل قال له بلهجة الحنو :

– أتحبها يا مرميس ؟

فغطى مرميس وجهه بيديه إخفاء لاضطرابـه ، الا ان روكامبول رأى دمعتين سقطتا بين أصابعه فقال له :

– طب نفساً فإن الأقـــدار القتك بين يدي حين كانت أبواب السجون مفتوحة أمامك ، والمشنقة تنتظرك ، ولكني رأيت بين جنبيك قلباً حنوناً ، ومن كان له مثل قلبك ينجو من تلك الهاوية وسأنقذك باذن الله .

فركع مرميس أمامه وجعل يقبل يديه .

فتنهد روكامبول وقال : اندفع في حبها يا بني ما استطعت فـإن الحب الصادق يطهر الاثام .

فانتثر الدمع من عيني مرميس وقال بصوت مضطرب :

– أيها الرئيس اني أفعل كل مـــا تريد ، وأذهب إلى حيث تشاء ... وأكون شريفاً طاهراً حسب إرادتك ، لأنك أنت أول من قال لي ان لي قلباً يحن .

انتهت رواية « ضحايا المئد »

ويليها الجزء التاسع من روكامبول « ملايين النورية »

وبه يبدأ المجلد الثالث

RIWAYAT RUCAMBUL

AL_MAKTABA AL_THAKAFIYAT